تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر:

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث والمعاصر

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر:

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث والمعاصر

تأليف:

الدكتورة
كاميليا أبو جبل
أستاذة في قسم التاريخ

الدكتورة
نجاح محمد
أستاذة في قسم التاريخ

جامعة دمشق
١٤٣٦ هـ - ١٤٣٧ هـ
٢٠١٥ م - ٢٠١٦ م

الفهرس

الموضوع | الصفحة

المقدمة: حول أهمية الموضوع وأهدافه ومنهجيته وإشكالياته
ومنطلقاته ومصادره:..٢١
الفصل التمهيدي: شبه جزيرة العرب: خصوصية الجغرافيا والتاريخ
وموجز الأوضاع التاريخية الدولية والعربية والإقليمية
والمحلية قبيل بداية التاريخ الحديث:...............................٣٧
أولاً)- شبه جزيرة العرب: موجز خصوصية الجغرافيا.....................٣٨
ثانياً)- شبه جزيرة العرب: موجز خصوصية التاريخ.......................٣٩
ثالثاً)- موجز الأوضاع الدولية والعربية والإقليمية
قبيل بداية التاريخ الحديث:..٤٢
رابعاً)- موجز أوضاع شبه جزيرة العرب قبيل بداية تاريخها الحديث:..........٥٣
I - موجز السمات العامة لشبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث..........٥٣
II - موجز تعريف بأوضاع أقاليم شبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث..٥٤
هوامش الفصل التمهيدي...٦٤

الجزء الأول:

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث

مدخل عام..٧٥

القسم الأول:

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث في المرحلة الأولى الممتدة من اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨/٨٩٣ حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨

<u>الفصل الأول: شبه جزيرة العرب والمتغيرات الدولية والعربية والإقليمية والمحلية العامة في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث (١٤٨٨/٨٩٣-١٧٤٥/١١٥٨)</u>..........:...................٧٩

أولاً)- حول إشكالية بداية تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث ونهايته..........٧٩

ثانياً)- المكتشفات الجغرافية وبداية التاريخ الحديث:.........................٨٢

I - مقدمات وعوامل المكتشفات الجغرافية.........................٨٢

II - المكتشفات الجغرافية: أحداث ونتائج...........................٨٥

ثالثاً)- المتغيرات الدولية والعربية والإقليمية والمحلية لشبه جزيرة العرب في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث (١٤٨٨/٨٩٣-١٧٤٥/١١٥٨):...........................٨٨

I - متغيرات دولية وعربية وإقليمية ومحلية عامة...........................٨٨

II - شبه جزيرة العرب والصراع الدولي في الخليج العربي المرحلة الأولى من تاريخها الحديث...............................٩٨

هوامش الفصل الأول..١٠٣

<u>الفصل الثاني: أقاليم وسط وغربي شبه الجزيرة العربية (الحجاز ونجد واليمن) في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥</u>:.............١٠٧

أولاً)- إقليم الحجاز في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام١٥٨/١٧٤٥:.......١٠٧

I - إقليم الحجاز في الفترة الأولى من المرحلة الأولى

من تاريخه الحديث: فترة أواخر الحكم المملوكي حتى
نهايته عام ١٥١٧/٩٢٣..١٠٨
II – الحجاز والحكم العثماني في الفترة الثانية من المرحلة الأولى
من تاريخه الحديث (١٥١٧/٩٢٣–١٧٤٥/١١٥٨)..................١٠٩
ثانياً)– إقليم نجد في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته
حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨:..........١١٨
I – إقليم نجد في الفترة الممتدة قبل ظهور الدعوة الوهابية..............١١٨
II – إقليم نجد في الفترة الثانية: من ظهور الدعوة الوهابية
حتى تشكل الدولة السعودية الأولى....................................١٢٠
ثالثاً)– الحجاز والسلطنة العثمانية والحركة الوهابية في المرحلة
الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكل الدولة
السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨..............................١٣١
رابعاً)– إقليم اليمن في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته
حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨:..........١٣٢
I – إقليم اليمن من بداية تاريخه الحديث حتى الاحتلال
العثماني الأول لها عام ١٥٣٨/٩٤٥................................١٣٢
II – إقليم اليمن في فترة الاحتلال العثماني الأول
(١٥٣٨/٩٤٥.١٠٤٥/١٦٣٥):...١٣٩
III – إقليم اليمن من جلاء قوات الاحتلال العثماني حتى تشكّل الدولة
السعودية الأولى(١٠٤٥/١٦٣٥–١١٥٨/١٧٤٥)......................١٤٧
هوامش الفصل الثاني...١٥٠

الفصل الثالث: إقليما شرقي شبه الجزيرة العربية(عمان والبحرين) في المرحلة الأولى من تاريخهما الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:................١٥٩

أولاً)- إقليم عُمان في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث : من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:.........١٥٩

I - إقليم عمان من بداية تاريخه الحديث حتى تشكّل دولة اليعاربة عام ١٠٣٣/١٦٢٤.....................................١٦٠

II - إقليم عمان في فترة دولة اليعاربة (١٠٣٣/١٦٢٤-١١٥٤/ ١٧٤١) وحتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام١١٥٨/١٧٤٥: من الوحدة والقوة إلى التفكك والضعف...................................١٧٠

ثانياً)- إقليم البحرين في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:..........١٧٨

I - جزر البحرين في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥..........١٧٨

II - منطقة الإحساء في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥.............١٨٧

هوامش الفصل الثالث...١٩١

القسم الثاني

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث في مرحلتيه الثانية والثالثة: من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ إلى نهاية دولة محمد علي العربية عام ١٢٥٧/١٨٤١

مدخل: حول المتغيرات الدولية والعربية والإقليمية والمحلية لشبه جزيرة العرب في المرحلتين الثانية والثالثة من تاريخها الحديث(١١٥٨/١٧٤٥-١٢٥٧/١٨٤١) ١٩٩

الفصل الرابع: أقاليم وسط وغربي شبه جزيرة العرب (نجد والحجاز واليمن) في المرحلة الثانية من تاريخها الحديث: من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:......................... ٢٠٧

أولاً)- نجد والحجاز من تشكّل الدولة السعودية الأولى ١١٥٨/ ١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام١٢٢٦/١٨١١:............... ٢٠٧

I - تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ وتوحيد نجد.. ٢٠٧

II - الدولة السعودية الأولى وضمّ الإحساء............................ ٢٠٩

III- الحجاز حتى السيطرة السعودية التامة عام ١٢٢١/ ١٨٠٦........... ٢١٢

IV- الدولة السعودية الأولى والسيطرة الوهابية السعودية التامة على إقليم الحجاز حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١............. ٢١٤

ثانياً)- إقليم اليمن من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/ ١٧٤٥إلى بداية الوجود المصري عام١٢٢٦/١٨١١:............. ٢٢٠

I - اليمن حتى نهاية حكم الإمام المهدي عباس عام ١١٨٩/١٧٧٥....... ٢٢٠

II - اليمن والدولة السعودية من نهاية حكم الإمام المهدي عباس عام ١١٨٩/١٧٧٥ حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١...... ٢٢٢

هوامش الفصل الرابع.. ٢٢٦

<u>الفصل الخامس: إقليما شرقي شبه جزيرة العرب (عمان والبحرين)</u>
<u>في المرحلـة الثانيـة من تاريخهما الحديث: من تشكّل</u>
<u>الدولـة السعوديـة الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ إلى بداية</u>
<u>الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١</u>:...............................٢٣١
أولاً)- إقليم عمان من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/
١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:...........٢٣١
I - عمان حتى نهاية حكم الإمام أحمد بن سعيد عام ١١٩٨
/١٧٨٣: البوسعيد والقواسم وبنو ياس والانقسام.......................٢٣٢
II - عمان من وفاة الإمام أحمد بن سعيد ١١٩٨/١٧٨٣ حتى
بداية الوجود المصري عام١٢٢٦/١٨١١..............................٢٣٧
ثانياً)- إقليم البحرين من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/
١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام١٢٢٦/١٨١١:............٢٤٦
I - العتوب من الوحدة إلى التفكك.....................................٢٤٦
II - آل الصباح والكويت حتى بداية الوجود المصري
عام ١٢٢٦/ ١٨١١...٢٤٨
III - جزر البحرين وآل خليفة والجلاهمة وبنو خالد وقطر من تفكّك
العتوب حتى بداية الوجود المصري عام ٢٢٦/١٨١١..............٢٥١
هوامش الفصل الخامس..٢٥٨
<u>الفصل السادس: المتغيرات وأقاليم شبه جزيرة العرب في المرحلة الثالثة من</u>
<u>تاريخها الحديث: من بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١ إلى</u>
<u>نهاية دولة محمد علي العربية ١٢٥٧/١٨٤١</u>:..................٢٦٣

أولاً)- المتغيرات والدولة السعودية ودولة محمد علي العربية النهضوية وبداية الوجود المصري في شبه الجزيرة العربية عام ١٨١١/٢٢٦:........٢٦٣

I - السلطنة العثمانية وبريطانيا ومسألة الدولة السعودية الأولى..........٢٦٣

II - المسألة الشرقية العربية: دولة محمد علي العربية وأبرز ركائزها النهضوية وبداية الوجود المصري في شبه جزيرة العرب عام ١٢٢٦/ ١٨١١..................................٢٦٥

ثانياً)- أقاليم شبه جزيرة العرب وتدمير الدرعية وبريطانيا والوجود المصري حتى نهايته فيها (١٢٢٦/١٨١١- ١٢٥٦/١٨٤٠):............٢٧٠

I - أقاليم شبه جزيرة العرب وبريطانيا في الفترة الأولى للوجود المصري فيها: من بدايته عام ١٢٢٦/١٨١١ حتى انسحاب معظم قوات محمد علي عام ١٢٣٤/١٨١٩..........................٢٧٠

II - أقاليم شبه جزيرة العرب وبريطانيا في الفترة الثانية للوجود المصري فيها منذ انسحاب معظم القوات المصرية ١٢٣٤/١٨١٩ حتى عودتها إثر معاهدة كوتاهية عام ١٢٤٩/١٨٣٣...............٢٨١

III - أقاليم شبه جزيرة العرب وبريطانيا في الفترة الثالثة للوجود المصري فيها: من عودة القوات المصرية إثر معاهدة كوتاهية إلى نهاية هذا الوجود عام ١٢٥٦/١٨٤٠: السيطرة العربية المصرية..............٢٩١

ثالثاً)- التآمر الاستعماري العثماني-البريطاني ونهاية دولة محمد علي العربية النهضوية عام ١٢٥٧/١٨٤١..................٣٩٦

هوامش الفصل السادس......................................٣٠٠

القسم الثالث

التاريخ الحضاري لشبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث

وخاتمة الجزء الأول

الفصل السابع: أهم معطيات التاريخ الحضاري الحديث لشبه جزيرة العرب: أبرز السمات العامة لأوضاعها السلطوية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية:.................................٣٠٩

أولاً)- أبرز السمات الجغرافية-الطبيعية لشبه جزيرة العرب..........٣١٠

ثانياً)- أبرز السمات السلطوية والاقتصادية والاجتماعية لشبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث:..................................٣١٢

I - أبرز السمات السلطوية......................................٣١٢

II - أبرز السمات الاقتصادية والاجتماعية...........................٣١٥

ثالثاً)- أهم عوامل منع قيام تحوّل رأسمالي في شبه الجزيرة العربية...٣١٨

I - عامل غياب الاستقرار والأمن الداخلي والخارجي...............٣١٨

II - عامل التأثير الفعّال للعلاقات الإقطاعية وللعلاقات البطريركية- العشائرية القبلية....................................٣١٩

III- عامل طبيعة أنظمة الحكم الثيوقراطية وسيادة النظام المعرفي- القيمي التعصبي القمعي المتخلف......................٣٢٠

IV- عامل نظام الامتيازات وغياب السياسة الاقتصادية في حماية البرجوازية الوطنية والاقتصاد الوطني عموماً.....................٣٢١

رابعاً)- أهم نتائج ضعف البرجوازية العربية الوطنية في واقع شبه الجزيرة العربية......................................٣٢٢

خامساً)- أبرز السمات الثقافية لشبه جزيرة العرب
في تاريخها الحديث...٣٢٤
سادساً)- بعض مظاهر الدور الإعماري لبرجوازية شبه جزيرة العرب
التجارية: امتداد الوجود العربي الحضاري في آسيا وإفريقيا.......٣٢٩
هوامش الفصل السابع..٣٣١
<u>الخاتمة: نتائج ووقفات ودروس وعبر</u>:......................................٣٣٥
أولاً)- نتائج وانعكاسات هامة لجدلية الداخل والخارج في تاريخ
شبه جزيرة العرب الحديث...٣٣٥
ثانياً)- وقفات تاريخية مختارة: دروس وعبر..............................٣٣٩
هوامش الخاتمة..٣٣٢

الجزء الثاني:

تاريخ شبه جزيرة العرب المعاصر

<u>الفصل الأول</u>: الحجاز منذ ١٨٤٠-١٩٢٦ .... ٣٤٥

مقدمة: العثمانيون والحجاز ٣٤٦

أولاً: السياسة العثمانية في الحجاز في أعقاب انسحاب القوات المصرية ٣٤٦

ثانياً: أمراء مكة ١٨٤٠-١٩١٦... ٣٤٨

ثالثاً: علماء الحجاز ودورهم في الحكم ٣٥٦

رابعاً:المدينة المنورة والخط الحديدي الحجازي ٣٥٩

خامساً:ثورة الشريف حسين بين الدافع الديني والقومي ٣٦٤

هوامش الفصل الأول.. ٣٧٧

<u>الفصل الثاني</u>: الدولة السعودية الثانية(١٨٤٣-١٨٩١)........................ ٣٨١

أولاً: قيام الدولة السعودية الثانية على يد فيصل بن تركي ٣٨٣

ثانياً: الحرب الأهلية عواملها ومراحلها ٣٨٤

ثالثاً: الموقف العثماني والبريطاني من الحرب الأهلية ٣٨٧

رابعاً: وقوع نجد تحت سيطرة آل الرشيد ٣٩١

خامساً: موقف الدولة العثمانية من آل الرشيد ٣٩٣

هوامش الفصل الثاني ٣٩٦

<u>الفصل الثالث</u>: الدولة السعودية الثالثة(١٩٠٢-١٩٧١)........................ ٣٩٩

أولاً: العلاقة بين عبد العزيز آل سعود ومبارك الصباح ٤٠٠

ثانياً: عبد العزيز آل سعود وإعادة فتح الرياض.................................. ٤٠٠

ثالثاً: موقف القوى الخارجية من إعادة فتح الرياض ٤٠١

رابعاً: توسعات عبد العزيز في بقية أراضي نجد وردود الفعل ٤٠٤

خامساً: علاقات عبد العزيز الخارجية بعد ضم الأحساء ٤٠٩

وتوقيع معاهدة القطيف عام(١٩١٥).

سادساً: الدولة السعودية الثالثة في مرحلة التوسع بعد الحرب العالمية ٤١٥

سابعاً: معاهدة جدة ١٩٢٧ وتسوية العلاقة مع بريطانيا ٤٢٥

ثامناً: سياسة عبد العزيز آل سعود الداخلية(١٩٣٢-١٩٥٣) ٤٢٦

تاسعاً: الصراع على السلطة بين الملك سعود وولي العهد فيصل ٤٢٧

عاشراً: النفط و آثاره في تطور المملكة العربية السعودية ٤٢٩

هوامش الفصل الثالث.. ٤٣٣

<u>الفصل الرابع:</u> الكويت(١٨٤٠-١٩٦٥).. ٤٣٧

أولاً: أوضاع الكويت منذ نهاية الوجود المصري وحتى نهاية ٤٣٩

حكم محمد الصباح بين عامي(١٨٤٠-١٨٩٦)

ثانياً: حكم مبارك الصباح بين عامي(١٨٩٦-١٩١٥) ٤٤٠

ثالثاً: إخماد محاولات التغلغل الروسي ومعاهدة الحماية البريطانية ٤٤٣

رابعاً: مواجهة بريطانيا لأطماع ألمانيا ٤٤٥

خامساً: الاتفاقيات اللاحقة مع بريطانيا ٤٤٧

سادساً: التطور السياسي للكويت ما بين(١٩١٧-١٩٦٥) ٤٤٨

سابعاً: مقدمات الاستقلال وإنهاء معاهدة عام(١٨٩٩)........................ ٤٥٠

ثامناً: أثر النفط في تطور الكويت ٤٥٢

هوامش الفصل الرابع ٤٥٧

الفصل الخامس: البحرين(١٨٤٠-١٩٧١)........................... ٤٥٩

أولاً: البحرين منذ حكم محمد بن خليفة عام(١٨٤٢)......................... ٤٦١

حتى حكم حمد بن عيسى عام(١٩٢٣)

ثانياً: عهد الشيخ حمد بن عيسى(١٩٢٣-١٩٤٣) ٤٦٥

ثالثاً: النشاط الأمريكي والروسي في البحرين ٤٦٧

رابعاً:عهد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة(١٩٤٣-١٩٦١)................ ٤٦٨

خامساً: عهد الشيخ عيسى بن سلمان بن حمد آل خليفة ٤٦٨

سادساً: الحركة الوطنية في البحرين ٤٦٩

سابعاً: استقلال البحرين ٤٧٠

ثامناً: أثر النفط على تطور البحرين ٤٧١

هوامش الفصل الخامس ٤٧٦

الفصل السادس: قطر ما بين عامي(١٨٦٨-١٩٧١)......................... ٤٧٩

المقدمة: عن أوضاع قطر قبل انفصالها عن البحرين ٤٨١

أولاً: التطور السياسي لقطر منذ ظهورها كإمارة مستقلة ٤٨٢

عام(١٨٦٨) وحتى الاستقلال عام(١٩٧١)

ثانياً: أبرز معطيات سياسة قطر الخارجية........................ ٤٩٠

ثالثاً: أثر النفط على تطور قطر..................................... ٤٩٤

رابعاً: الحياة الاجتماعية و الثقافية في قطر ٤٩٧

هوامش الفصل السادس ٤٩٩

الفصل السابع: عمان ما بين عامي(١٨٠٦-١٩٧١) ٥٠١

أولاً: عمان منذ حكم سعيد بن سلطان(١٨٠٦-١٨٥٦)........................ ٥٠٣

ثانياً: أوضاع عمان بعد وفاة سعيد بن سلطان ٥٠٧

ثالثاً:انبعاث الإمامة الإباضية (١٩١٣- ١٩٢٠) ٥١٦

رابعاً: العلاقات بين السلطنة والإمامة(١٩٢٠-١٩٤٥) ٥٢٢

خامساً: محاولات السلطان سعيد بن تيمور استرداد سلطته على الداخل ٥٢٤

سادساً: مشكلة البوريمي بين عمان والسعودية.................................. ٥٢٦

سابعاً: تطور مسقط السياسي وتوحيد السلطنة على يد السلطان قابوس. ٥٢٩

ثامناً: النفط و اثاره في تطور عمان ٥٣١

هوامش الفصل السابع.. ٥٣٣

الفصل الثامن: مشيخات الساحل العماني ما بين عامي(١٨٤٠-١٩٧١).... ٥٣٥

أولاً: الأوضاع العامة للساحل العماني حتى عام(١٨٤٠)...................... ٥٣٧

ثانياً: التاريخ السياسي لمشيخات الساحل العماني منذ نهاية الوجود.......... ٥٤٠
المصري حتى الحرب العالمية الأولى (١٨٤٠-١٩١٤)
ثالثاً: الأوضاع الداخلية في مشيخات الساحل العماني(١٨٤٠-١٩١٤) ٥٤٨
رابعاً: المشيخات والسياسة البريطانية فيما بين الحربين(١٩١٤-١٩٤٥) ٥٤٨
خامساً: المستجدات الداخلية في المشيخات بعد الحرب العالمية الثانية ٥٥٠
سادساً: العوامل الخارجية ومنعكساتها على المشيخات................... ٥٥١
سابعاً: قيام الوحدة بين الإمارات والقضاء على التفكك ٥٥٢
ثامناً: أثر النفط على التطور الاقتصادي والثقافي ٥٥٧
في الامارات العربية المتحدة
تاسعاً: التطور الثقافي في الامارات العربية المتحدة ٥٥٩
هوامش الفصل الثامن ٥٦٢
<u>الفصل التاسع</u>: <u>اليمن الشمالي بين عام(١٨٤٠-١٩٦٢)</u> ٥٦٥
مقدمة: ٥٦٧
أولاً: أوضاع اليمن منذ جلاء المصريين حتى ٥٦٧
الحملة العثمانية الثانية عام(١٨٧٢)
ثانياً: تغلغل النفوذ العثماني في تهامة وعسير قبل عام(١٨٧٢)............ ٥٦٩

ثالثاً: سيطرة العثمانيين على صنعاء ٥٧١

رابعاً: أوضاع اليمن ما بين عام(١٨٧٢-١٩٠٤)(حكم الإمام منصور)...... ٥٧٢

خامساً: حكم الإمام يحيى حميد الدين بين عامي(١٩٠٤-١٩٤٨).......... ٥٧٤

سادساً: الإمام أحمد حميد الدين وثورة عام ١٩٦٢ .... ٥٧٨

سابعاً: التطور الاقتصادي و الثقافي في اليمن الشمالي.................. ٨٥٠

هوامش الفصل التاسع ٥٨٣

<u>الفصل العاشر</u>:اليمن الجنوبي ما بين عامي(١٨٣٨-١٩٦٧)................ ٥٨٥

مقدمة.. ٥٨٧

أولاً: احتلال الإنجليز لعدن ومقاومتهم ٥٨٧

ثانياً: سياسة بريطانيا في عدن والجنوب اليمني ٥٨٩

ثالثاً: الحركة الوطنية في الجنوب وقيام ثورة ١٩٦٣ والاستقلال............ ٥٩٠

رابعاً: التطور الاقتصادي و الثقافي في اليمن الجنوبي ٥٩٣

هوامش الفصل العاشر.. ٥٩٥

<u>خاتمة الجزء الثاني</u> ٥٩٧

خرائط الكتاب.. ٦٠٠

مصادر الكتاب ومراجعه.. ٦١٥

المقدمة:

حول أهمية الموضوع وإشكالياته

ومنطلقاته المعرفية والمنهجية ومصادره:

المحتويات:

أولاً)- حول أهمية موضوع الكتاب وأهدافه.

ثانياً)- حول إشكاليات البحث.

ثالثاً)- حول منطلقات البحث المعرفية والمنهجية ومصادره.

****

أولاً)- حول أهمية موضوع الكتاب وأهدافه:

تتعلق أهمية كتابنا هذا، وفق ما يدلّ عليه محتوى عنوانه، الذي هو "تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث والمعاصر"، بأهمية التاريخ أولاً، وبأهمية شبه الجزيرة العربية ثانياً، وبأهمية المرحلة المعنية بالبحث ثالثاً. من البديهي القول، فيما يخصّ أهمية التاريخ، إنّ الدافع الرئيسي[١] في تأليف أي كتاب أو بحث فيه يجب أن يكون مرتبطاً في إدراكنا ووعينا، بالضرورة، بأهميته على أنّه الحافظ للهوية والذات والمعرفة والخبرة، وعلى أنّه، كما يؤكد أحد الأكاديميين الفرنسيين، "يعلّم الإنسان السعي الحثيث إلى الأمام والتقدم الدائم"[٢]. إنّه "التاريخ الحافز" كما يسميه زريق[٣]، والذي يزودنا، بجانبه التأريخي، بكلّ ما يساعدنا في صنع التاريخ، ومنه وضع وإنجاز كلّ استراتيجية نهضةٍ على كلّ صعيد[٤] وفي كلّ ميدان.

أهمية التاريخ هذه قد أكدتها جميع دراسات علم المستقبل عموماً، ومنه علم المستقبل العربي"[٥]، المعنية بتطلع الأمم إلى إنجاز مشروعها القومي النهضوي في تكوين قوتها الذاتية الحامية لكرامة وطنها ولهويتها، وخاصة من حيث كونه هو

الذي يحفظ ذاكرة الشعب التي يشكّل "انتزاعها"، كما يؤكد روجيه غارودي (GARAUDY)، "الشرط الضروري لكلّ تراجع تاريخي"[٦]، ويشكّل تفعيلها بالمقابل "الشرط الضروري" لكلّ تقدم تاريخي نهضوي.

من هنا جاء الإجماع في الآراء في كلّ المؤسسات العالمية المعنية، الأكاديمية وغيرها، في جميع الدول، وخاصة المتقدمة والوطنية، أنّ التاريخ هو جزء من أمنها القومي، لأهميته في وجود الأمة كذاكرة وهوية وثقافة وحضارة وحقوق وطنية وقومية، ومنها حقّ الأرض، وأنّ عليها بالتالي أن تحرص على أن تكتبه بنفسها وبكوادرها العلمية الوطنية في جميع المراحل الزمنية لمختلف العصور حتى وقتنا الراهن، وبحيث لا يقتصر تكوين مصادره ومراجعه، في حال امتناعها عن كتابته في أزمنته المعاصرة، لأية مسوغات، على كتابات أطراف أخرى قد تكون صديقة موضوعية أو عدوّة تزيّفه وتزورّ فيه لتسرقه تاريخاً وبشراً وجغرافية أرض. ولو انتظر كلّ من المؤرخ والباحث ولم يكتب أو يبحث في أحداث التاريخ التي يعيشها أو التي يعنى بدراستها، بحجّة انتظار ظهور الوثائق السرية لهذا الطرف أو ذاك، أو تجنباً للضغوط السياسية وغيرها أو تحت أية حجّة أخرى، لما كان في أيدينا أي مصادر نعتمد عليها في معرفة الأحداث، مع أنّه من المتفق عليه ضرورة وجود هذه المصادر لأي بحث تاريخي من حيث كونها الأهم والأساس في التوثيق التأريخي، إذ هي تؤرخ للأحداث التي عايشها المؤرخ أو الباحث، والتي تُرِكت، في حال إهمال تسجيلها وكتابتها وتوثيقها، ليكتبها ويزيفها الأعداء كما يشاؤون. من هنا جاء تأكيد المنهجيين المعنيين على أنّه "لابدّ من أن يكتب أهل العصر عن عصرهم ما يمكنهم أن يكتبوه"[٧].

من المؤكّد بالنسبة لأهمية شبه جزيرة العرب أنّه لا يمكن فصلها عن أهمية الوطن العربي ككلّ، بحكم كونها جزءاً أساسياً منه، وتتمتع بالتالي بغالبية المواصفات والميزات التي يتمتع بها، والتي أعطته خصوصيته الجغرافية والتاريخية

والاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية، وأعطته بالتالي أهميته المعروفة. وسنكتفي هنا بالتذكير بإيجاز شديد بأبرز المعطيات العامة لهذه الأهمية لشبه جزيرة العرب، على أن نستكمل الحديث في التمهيد عن خصوصيتها:

١- امتداد حدودها الطويل على ثلاث مناطق بحرية ذات أهمية كبرى في مجال التجارة والاتصال العالمي منذ القديم حتى يومنا هذا، وهي: البحر الأحمر "الذي كان وما زال الشريان الرئيسي في تجارة العالم"[٨]، والذي يصلها بأفريقيا، والخليج العربي، الشريان الرئيسي الثاني في تجارة العالم، والذي يصلها بآسيا، وبحر العرب الذي يصلها أيضاً بآسيا وأفريقيا. وهذا الامتداد، بالإضافة إلى موقعها في الوسط الفاصل ما بين قارتي آسيا وأفريقيا، وبالإضافة إلى مجاورتها للبلدان العربية المطلّة على البحر الأبيض المتوسط، الطريق إلى أوروبا والغرب، يفسّر لماذا تشكل عقدة مواصلات وصلات عالمية لا غنى عنها، ولماذا تشكل بالتالي منطقة استراتيجية وتجارية دولية مهمة. وإن موقعها هذا الجغرافي في وسط الأرض يفسّر الحديث التاريخي والديني المستمرّ عنها على أنها مركز الكون[٩].

٢- تمتعها، بحكم كونها، وسوريا والمشرق العربي ككلّ، الموطن الأمّ للأمة العربية، والأصل البشري والحضاري والتاريخي لكلّ أقوام العالم وحضاراته، وبحكم احتوائها على الأماكن المقدسة، بمكانة تاريخية ودينية كبيرة بالنسبة للعرب خاصة وللمسلمين وللعالم عامة.

٣- تمتعها بحكم احتوائها للثروات المعدنية الهائلة فيها، وخاصة الذهب، حيث كان يوجد في بعض مناطقها نقياً خالصاً غير مشوب[١٠]، بالإضافة بالطبع إلى الحديد والبترول، وبحكم استثمارها لعائداتها المالية الكبيرة، بقوة اقتصادية عالية جداً على المستوى العالمي. إن المملكة العربية السعودية ، كمثال، قد غدت أكبر منتج للبترول بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وأول مصدّر له في العالم.

ويؤكد أحد المؤرخين المعاصرين[١١] أنّ الفئة السعودية الحاكمة "صارت من أكبر مصدري الرأسمال أيضاً، وتفوق الملوك والأمراء من آل سعود على أغنى طواغيت المال في البلدان الرأسمالية من حيث الأحجام المطلقة لثرواتهم. إن القرارات التي تتخذ في الرياض، على الرغم من أنها ليست مستقلة إطلاقاً وغالباً ما تكون اضطرارية ومفروضة من القوى الخارجية، إنما تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في ميزان المدفوعات في الولايات المتحدة الأميركية والكثير من الدول الرأسمالية الأخرى، وفي وتائر تطورها الاقتصادي ومستوى التضخم النقدي، وعلى مستقبل الدولار، وعلى سير النزاع العربي- الإسرائيلي، وفي استقرار بعض أنظمة الحكم في البلدان النامية".

وإذا ما أضفنا إلى هذا التأكيد قول المؤرخ جواد علي أنّه "كانت لجزيرة العرب أهمية خاصة في النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية، ففي استطاعة أصحابها ومن يسيطر عليها أن يقوموا بالأمر الخطير في تاريخ البشرية إذا أرادوه"[١٢]، لعرفنا بالتالي لماذا حازت وما زالت تحوز هذا الاهتمام الكبير من قبل الدول الكبرى. وإذا ما عرفنا أن البترول العربي الذي يشكل ٨٠% من حاجة أوروبا إلى الطاقة[١٣]، والذي هو عنصر الطاقة الأساسي في النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، في قديمه وجديده، وبالنسبة لمختلف قواه الممثلة اليوم بقوة زعامته الأميركية التي تعتبر سيطرتها عليه القوة الضاغطة الرئيسية على أعدائها وحلفائها معاً، وخاصة على القوتين اليابانية والأوروبية المنافستيْن لها، وإذا ما عرفنا أهمية رأس المال العربي المستقر في دول هذا النظام الكبرى، وأهمية ثروات الوطن العربي الأخرى والسوق الاستهلاكية العربية بالنسبة إليها، لأدركنا لماذا يشكل هذا الوطن عموماً، وشبه الجزيرة العربية فيه خصوصاً، المحور الرئيسي لسياستها الخارجية طوال زمننا الحديث والمعاصر، والموجهة إلى العمل على تعميق واقع الضعف والتجزئة والتخلف والتبعية فيه.

أما أهمية المرحلة الزمنية المعنية بالتاريخ الحديث والمعاصر، فهي تتمثّل بأهمية الأحداث التاريخية الكبيرة التي ارتبطت بها، إن على المستوى الدولي أو العربي والإقليمي والمحلي داخل الجزيرة العربية، ونكتفي بالتذكير بأبرز معطياتها.

يمكن إيجاز أهم الأحداث على المستوى الدولي بالآتي: تزايد الصراعات بين القوى الاستعمارية الكبرى على نهب ثروات الشعوب والبلدان الضعيفة والتحكم بها، ومنها شبه جزيرة العرب، إن في مرحلة الزعامة البرتغالية في القرن السادس عشر، أو في مرحلة توازن القوى الأوروبية حتى قيام الثورة الصناعية لبريطانيا في القرن الثامن عشر، والتي خولتها زعامة النظام الرأسمالي الاستعماري العالمي في بقية التاريخ الحديث وفي الفترة المعاصرة الأولى التي شهدت حربين عالميتين، الأولى(١٩١٤-١٩١٨) والثانية(١٩٣٩-١٩٤٥)،وامتدّت حتى نهاية هذه الحرب عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م[١٤]، التي شكّلت بداية مرحلة الزعامة الأمريكية لهذا النظام ومعسكره الممتدة حتى الآن.

شهدت هذه المرحلة ثلاث فترات تاريخية: الأولى فترة الحرب الباردة وصراع هذا المعسكر مع المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفييتي ودعمه لدول العالم النامية ومنها دول عدم الانحياز ومن ضمنها بعض الدول العربية، والممتدة حتى انهياره وتفكك هذا المعسكر عام١٤١١-١٤١٢/١٩٩١، والثانية الممتدة منذ هذا الانهيار وبروز سيطرة القطب الواحد الأمريكي حتى بداية الفترة الثالثة مع بروز عالم متعدد الأقطاب مع بداية تراجع هذه السيطرة لصالح بروز القوتين الروسية والصينية، خلال حرب التآمر على سوريا منذ آذار ١٤٣٣/٢٠١١ حتى اليوم.

يمكن إيجاز أهم الأحداث على المستوى العربي والإقليمي والمحلي بالآتي: نظراً لأهمية الوطن العربي المذكورة سابقاً فقد برزت بقوة في واقعه، وخاصة في شبه الجزيرة العربية، انعكاسات كلّ ما رأيناه من معطيات في المحور الأول الدولي، إن كتنافس دولي وصراعات ومتغيرات، ومنها حركة التحرر، في ظلّ النظام العالمي

الغربي الاستعماري في مختلف مراحله، أو كسياسات للقوى العظمى بمختلف توجهاتها، وخاصة بعد بروز الأهمية الهائلة للنفط العربي. ومن هذه الانعكاسات استمرار خضوع الوطن العربي للاحتلال الأجنبي ونموّ عوامل الانحدار والضعف والتفكك والتجزئة والتخلف فيه، وظهور حركة اليقظة القومية العربية، بكلّ عواملها ومظاهرها، والتي تجسدت على أرض الواقع في حركة التحرر العربية، من ثورات ومحاولات نهضوية، وفي قمتها دولة اليعاربة (١٠٣٣/١٦٢٤-١١٥٤/١٧٤١) في شبه جزيرة العرب، ثمّ دولة محمد علي العربية (١٢٢٠/١٨٠٥ -١٢٥٧/١٨٤١)، وصولاً إلى الثورة العربية الكبرى عام ١٣٣٤/١٩١٦. ثمّ استمرّت المقاومة كأحد أهم تجليات هذه الحركة ضدّ الاحتلال الاستعماري، حتى إنجاز الاستقلال الوطني، الفعلي أو الاسمي، في شبه جزيرة العرب وبقية البلدان العربية باستثناء فلسطين التي تمّ فيها خلق الكيان الصهيوني تحت مسمى "إسرائيل"[١٥]ةعام١٣٦٧/١٩٤٨، ولتتتالى بعد ذلك حروب الصراع العربي–الصهيوني في جميع المجالات، وجميع محاولات واتفاقيات التسوية بكلّ انعكاساتها سلباً أو إيجاباً في الواقع العربي.

ومنها كذلك انقسام البلدان العربية بين معسكر رجعي خضعت حكومات بلدانه، وعلى رأسها حكومات معظم شبه جزيرة العرب، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، للاستعمار الغربي بكل أساليبه وأشكاله القديمة والجديدة ومضامينه ومؤسساته وشركاته الكبرى، بزعامة الاستعمار البريطاني بدايةً حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وتشكّل جامعة الدول العربية عام ١٣٦٤/١٩٤٥ ثمّ الاستعمار الأمريكي بعد ذلك حتى اليوم، وبين معسكر تقدمي على رأسه سوريا والعراق ومصر والجزائر، رافض لهذا الخضوع، متمسك باستقلالية دوله وسيادتها الوطنية ومصالحها وثقافتها ونضالها من أجل تحقيق المشروع القومي العربي النهضوي في تكوين القوة العربية الذاتية، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وصامد ومقاوم لكلّ المخططات التآمرية لتحالف قوى الغرب والصهيونية الاستعمارية، ومناضل من

أجل تحرير كلّ الأراضي العربية المحتلة وعلى رأسها فلسطين، ومحالف للقوى العظمى المناهضة للسيطرة الرأسمالية الاستعمارية، ومنها الاشتراكية والشرقية الجديدة المؤمنة قولاً وفعلاً بمبادئ حقوق الإنسان والشعوب وبشريعة منظمة الأمم المتحدة بعيداً عن أي ازدواج في المعايير.

ومنها أخيراً استمرار تآمر قوى التحالف الاستعماري الغربي–الصهيوني ضدّ الوطن العربي ومشروعه القومي العربي النهضوي، بالعمل على تعميق معطيات تجزئته وإضعافه وترسيخ عوامل تخلفه، من خلال ما دعي بـ"مشروع الشرق الأوسط الجديد"[١٦]،والفوضى "الخلاقة"[١٧] بالنسبة لمصالح هذه القوى من حيث هي مدمرة لكلّ قوة عربية، وصولاً إلى ما سمّي اليوم، زيفاً، "بثورات الربيع العربي"[١٨]،ومنه حرب التآمر المذكورة لتدمير سوريا. ولن تتمّ دراسة كلّ معطيات هذا المحور في هذا الكتاب، لأنّه يقف عند عام ١٩٧١/١٣٩١ تحديداً، وعلى أن تُستكمل دراستها في مؤلفات لمقررات أخرى.

ثانياً)– حول إشكاليات البحث:

لِنُذكِّر بدايةً بمفهوم مصطلح "إشكالية" في مجال التاريخ: هو يعني وجود تشكيك أو عدم وضوح حول قضية ما يحولّها إلى قضية إشكالية، أي مختلف عليها. قد تتعلق المشكلة بغموض أو نقص في التوثيق يؤدي إلى فقدان وضوح الرؤيا وتشكيك، وقد تتعلق باختلاف حول الحدث، إن توصيفاً أو تقييماً، يحوله إلى قضية خلافية، بدوافع موضوعية مشروعة أو ذاتية تعصبية موظفة لغايات معينة مرفوضة علمياً وأخلاقياً ووطنياً وإنسانياً. ومن الطبيعي أن لا يكون هناك أية إشكالية فيما يخصّ الأحداث اليقينية، إلا في حال ظهور مستجدات ووثائق تاريخية ما، وعلى أنّ ما يحدد القناعة العقلانية العلمية في قبولها أو رفضها هو مقدار ما تقدمه من أدلة جديدة مدروسة على ضوء علم الوثائق وقواعد البحث العلمي الصحيح والعلوم المساعدة. والآن ما هي أبرز إشكاليات هذا البحث؟

تتعلّق الإشكالية الأولى فيه، كما هي الحال في كلّ بحث تاريخي آخر، باختلاف المنهجية ما بين الرؤية التاريخية الجدلية الصحيحة والأخرى التاريخانية الوضعية غير الصحيحة، ونأمل أنّ توضيحاتنا، الآتية لاحقاً، حول علم التاريخ وحول منطلقاتنا المعرفية والمنهجية، قد وضّحت موقفنا ولا داعٍ، في مؤلفنا هذا، لتكرار حديثنا عنها الموجود في مؤلفنا "تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)"[١٩] تحقيقاً لصلة التكامل بينهما. وكذلك بالنسبة للإشكاليات المتعلقة بالمصادر والمراجع، وبتقييم طبيعة الحكم العثماني في الوطن العربي والذي حمّلنا المسؤولية فيه للسلطنة العثمانية تحديداً بعيداً عن الشعب التركي الذي لاقى منها مثل ما لاقاه العرب إن لم يكن أكثر. والمتعلقة أيضاً بتحديد حدثي بداية التاريخ الحديث للوطن العربي ونهايته[٢٠]، بحكم وحدة التاريخ العربي في خطوطه العامة وليس التفصيلية، ودون نفي الخصوصية القطرية.

ونظراً إلى ضرورة العودة إلى الحديث عن إشكالية هذا التحديد في المدخل العام للجزء الأول، فإننا نكتفي ببيان اختيارنا لحدث المكتشفات الأوروبية الجغرافية للطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح(١٤٨٨/٨٩٣– ١٤٩٨/٩٠٣)، على أنّه حدث نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة دولياً وعربياً، لأهميته الكبرى. وللسبب نفسه تمّ اختيارنا لدولة محمد علي العربية النهضوية، فيما بين عامي ١٨٠٥/١٢٢٠ و١٨٤١/١٢٥٧، كحدث فاصل شكّل في أن واحد نهاية التاريخ العربي الحديث وبداية التاريخ العربي المعاصر. أما نهاية هذا التاريخ المعاصر فلا إشكالية حوله، إذ أنّ هناك إجماع بامتداده حتى يومنا الحاضر، إلاّ أننا سنقف فيما يخصّه في كتابنا هذا عند حدث هام ما زالت بلدان الخليج تعيش نتائجه، وهو نهاية الاحتلال البريطاني فيه ورحيل قواته منه عام ١٩٧١/١٣٩١.

وهناك، إضافة لما تقدم، إشكاليتان هامتان استقطبتا اهتمامنا في مؤلفنا هذا: الأولى متعلقة بحدث بارز في تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، أثار

كثيراً من التساؤلات الكبيرة حوله، وهو الحركة الوهابية التي نجد من الضروري بدايةً ضرورة التذكير بأمر بحثي هام حولها، وهو أنّ حديثنا التاريخي عنها في مؤلفنا هذا لا يتعلق بها اليوم بالطبع، وإنّما هو متعلق بها منذ ظهورها في النصف الأول من القرن الثامن عشر حتى نهاية الكتاب المذكورة.

لكنّ ظروف الممارسات الوحشية والتآمرية لحركات الإرهاب، التي وَضُح لماذا وكيف صُنِّعت من قبل قوى وأتباع تحالف الاستعمار الغربي والصهيونية العالمية، والتي يعيشها العالم عموماً والوطن العربي خصوصاً في وقتنا الحاضر، وتكوّن الحركة الوهابية بمرجعيتها التكفيرية أبرز عناصرها المؤثِّرة والمدعومة، بشراً وفكراً وتنظيماً وتمويلاً وإعلاماً، من مؤسسات هذه القوى وهؤلاء الأتباع من الحكومات العربية الرجعية والبيئات الأهلية الحاضنة، حتّمت علينا، في تناولنا لتاريخ هذه الحركة، وجوب إعطاء ماضيها، على ضوء مستجدات حاضرها، ومن باب أهمية ما دعاه ابن خلدون "قياس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب"[٢١]، اهتماماً واعياً موضوعياً من شأنه أن يسهم في إلقاء الضوء عليها أكثر فأكثر، ويسهم بالتالي، في الوصول الناجح لكيفية التصدّي لها ولحركات الإرهاب والفكر التكفيري القمعي ككلّ، ولنصل هكذا إلى معالجة عقلانية موضوعية للإشكالية المتعلقة بها.

الإشكالية الثانية متعلقة بأمر برز كأكبر مفارقة في تاريخ الجزيرة العربية المعاصر، وهو افتقاد دول الخليج، شبه الكلّي، للقرار الوطني المستقل بسبب خضوعها التام لقوى الغرب الاستعمارية ولزعامتها البريطانية ثمّ الأمريكية، رغم القوة الاقتصادية الهائلة لهذه الدول الخليجية والفاعلة لو أحسن استخدامها، والمتمثلة بثروتها النفطية وقوتها المالية العظمى بشكل خاص!

ثالثاً)- حول منطلقات البحث المعرفية والمنهجية ومصادره:

علينا أن نؤكّد أنّ الفهم العلمي الصحيح لكلّ ما تقدم، ولأي موضوع تاريخي عموماً، ومنه موضوع مؤلفنا هذا حول "تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر"،

مرتبط، بالضرورة، بالفهم العلمي الصحيح الدقيق لمفهوم علم التاريخ ولسمات وقوانين حركته التطورية الجدلية، ولمضامين عناصره الثلاثة[٢٢] التي يتألّف منها، أي عنصر التاريخ الذي هو حركة تطوّر كلّ كائن، وعنصر التأريخ الذي هو تسجيل ودراسة هذه الحركة في حقيقتها، وعنصر منهجية البحث التاريخي التي هي مجموعة الطرق العلمية المستخدمة في إنجاز هذه الدراسة. وحرصنا على هذا الفهم يتجسّد بالتزامنا بالمنطلقات المعرفية والمنهجية الأساس للبحث التاريخي العلمي، والتي يمكن أن نوجزها، كعادتنا، في ستّة منطلقات مترابطة جدلياً:

المنطلق الأساس الأول: هو القناعة بأن النظرة المنهجية العلمية الصحيحة للتاريخ هي التي تؤمن بغائيته، وبقوانين جدلية حركته وأحداثه(قانون صراع الأضداد، وقانون التراكم الكمي يؤدي إلى التحوّل الكيفي أو النوعي، وقانون النفي ونفي النفي)،وبوحدة أبعاده، وترفض بالتالي أن تختزل أحداثه في الحدث السياسي، وأن تختزل أبعاده في البعد الماضوي، لأنها تستوعب جدلية حركة التطور التاريخي من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، بحيث لا شيء يأتي من فراغ. هذا مما يفسّر حرصنا على تقديم التمهيد التاريخي الذي من شأنه الربط بين الأحداث التاريخية المتعلقة بموضوع البحث، في المرحلة الزمنية الممتدة فيما قبل بداية التاريخ الحديث لشبه الجزيرة العربية وفي المرحلة الزمنية الممتدة فيما بعدها، وذلك لمعرفة واستيعاب المعطيات والعوامل المؤثرة وذات الوجود المستمر، كلياً أو جزئياً.

المنطلق الأساس الثاني هو قناعتنا بشمولية التاريخ البشري الحياتية، والمتمثّلة، كدراسة له، في فرعيه: السياسي والحضاري، بحيث تتضمن دراسته حركة تطور جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. من هنا جاء اهتمامنا بهذين الفرعين وهذه الميادين في دراستنا هذه، ولا بأس من التذكير بمضامينها:

أ- **التاريخ السياسي:** هو حركة تطور الأحداث المتعلقة بمتغيرات عنصر السلطة في الدولة، أي بمتغيرات أنظمة الحكم والحكام، كبنية (الهوية الاجتماعية

والسياسية للفئات الحاكمة: وطنية أم أجنبية؟ إقطاعية أم برجوازية أم عمالية إلخ...؟)، وكإيديولوجيا (فكرها السياسي المهيمن)،وكطبيعة (وطنية أم استعمارية؟ فردية مؤسساتية؟ استبدادية أم ديمقراطية؟)، وكمؤسسات (تشريعية وقضائية وتنفيذية وإدارية)، والمتعلقة بمتغيرات العلاقات المتبادلة بين أنظمة الحكم والحكام وبين المحكومين أو الشعوب على مستوى الداخل، وبينهما وبين بقية حكومات وحكام العالم على مستوى الخارج.

ب- **التاريخ الحضاري:** هو حركة تطور الدولة بعناصرها الثلاثة، الأرض والشعب والسلطة، في كلّ ميدان من ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وليتفرع بناءً عليه في أربعة فروع:

١- **التاريخ الحضاري-السياسي** الذي هو حركة التطور المتعلقة بمتغيرات مفاهيم السلطة عموماً، كبنية وكطبيعة وكمؤسسات وكإيديولوجيا، وكذلك كعلاقات بين الحكام وبين الشعب، وكعلاقات دولية، وكوعي سياسي.

٢- **التاريخ الحضاري-الاقتصادي:** هو حركة تطور الاقتصاد أو البنية التحتية للمجتمع، أي علاقات الإنتاج وقواه وأدواته، وقطاعاته: الزراعة والحرفة، والصناعة، والتجارة، والنقد، ووسائل النقل، وكذلك الوعي الاقتصادي.

٣- **التاريخ الحضاري-الاجتماعي:** هو حركة التطور المتعلقة ببنية الشعب أو المجتمع وبأوضاعه العامة: أي بالعلاقات الاجتماعية والمجتمع المدني، والأسرة، والمرأة، والطفل، والعادات والتقاليد، والتعليم، والصحة، والهجرة، ومستوى المعيشة، وبالواقع السكاني، وكذلك الوعي الاجتماعي.

٤- **التاريخ الحضاري-الثقافي:** هو حركة تطور مجالات الثقافة أو البنية الفوقية للمجتمع المتمثلة في الفكر الروحي والمادي. ومن الفكر الإيديولوجيا والدين الفلسفة، والعلوم، والآداب، والفنون، والإعلام، وكذلك الوعي الثقافي.

المنطلق الأساس الثالث: هو الإيمان بوحدة التاريخ العربي من حيث كونه تاريخاً مترابطاً بفعل علاقةٍ جدليةٍ تحتّم تبادلِ فعلي التأثر والتأثير بين مجتمعاته وبلدانه. وهي لا تعني وحدة التفاصيل ونفي التنوع والخصوصية لتاريخ كل منها وإنما تعني وحدة التطور التاريخي للأمة العربية في خطوطه العامة المشتركة التي تشكل إطارها القومي العربي التاريخي العام. وهذا ما يفسّر وجوب متابعة أية أحداث في تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث والمعاصر، في التمهيد وفي كلّ الفصول، من خلال وضعها في سياقها الصحيح في إطار الأوضاع العربية المحيطة بها، المتأثرة بها والمؤثرة فيها، مع الحرص على إبراز خصوصيتها.

المنطلق الأساس الرابع: هو الإيمان بوحدة التاريخ الإنساني، أيضاً من حيث كونه تاريخاً مترابطاً بفعل علاقةٍ جدليةٍ بين مختلف أقوامه وأممه ودوله ومؤسساته العالمية والإقليمية، وهذا مما يفسّر وجوب متابعة أية أحداث تاريخية لكلّ منها، ومنها المتعلقة بتاريخ شبه جزيرة العرب الحديث والمعاصر، في التمهيد وفي كلّ الفصول، من خلال وضعها في سياقها الصحيح في إطار الأوضاع الدولية المحيطة بها ومنها الإقليمية، المتأثرة بها والمؤثرة فيها.

المنطلق الأساس الخامس: هو الإيمان بجدلية الداخل والخارج في فهم الأحداث التاريخية وتحليلها، وعلى أنّ الداخل هو الأساس لأنّ تأثير الخارج لا يمكن أن يكون إلاّ من خلاله، مما يوجب علينا، كما على أي باحث، رفض التضخيم أو التحجيم لأيّ من العوامل الخارجية والداخلية، ومنها عامل المؤامرة، التي وكما علينا أن لا ننفي دورها في صنع الأحداث، فإن علينا أن لا نقوم بتضخيمها، وأن لا نقلل من دور العوامل الذاتية، ولكن دون جلد للذات أو تعصب لها على حساب الحقيقة، متطلعين إلى بيان الدور الحقيقي لجميع عوامل الداخل والخارج حتى يمكن الاستفادة من عبرها ودروسها، بما يخدم بناء حاضر المجتمع النهضوي وصنع مستقبله الذاتي القوي الحضاري المتقدم.

المنطلق الأساس السادس: هو القناعة بوجوب الالتزام بجميع قواعد منهجية البحث العلمي التاريخي، أي قواعد المعرفة التاريخية المنظمة القائمة على الرؤية الشمولية والمعالجة الموضوعية المستندة إلى التوثيق والنقد والتحليل، وإلى صحة الصياغة والتركيب، عرضاً ولغةً. وكذلك إلى فهم المضمون النسبي لبعض المصطلحات، بمعنى تغيّره من مرحلة تاريخية إلى أخرى، وإلى مشروعية استخدام مصطلحات حديثة للدلالة على ظواهر قديمة بشرط أن يكون هذا الاستخدام ضمن إطار دلالاتها العلمية الصحيحة الموثقة.

أما فيما يخصّ مصادر التوثيق لبحثنا، فلنتذكّر قبل كلّ شيء أنّ أي باحث في التاريخ هو لا يخترع حدثاً، وإنّما يدرسه على ضوء الوثائق المختلفة، ووفق منهجيته ورؤيته التحليلية التي يجب أن تكون علمية موثقة وموضوعية. ونحن سندرس أحداث تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث والمعاصر على ضوء توثيقها المعلوماتي الصحيح في مصادرها ومراجعها المتنوعة الهامة لدى أطرافها المعنية، أي الطرف العربي والطرف العثماني والفارسي والآخر الأوروبي.

وحرصنا على استنادنا بشكل رئيسي، وكعادتنا، إلى المعلومات اليقينية المؤكدة. والتزمنا فيما يخص الأحداث الإشكالية بإعطاء مختلف الآراء حولها بكلّ مصداقية، آخذين في اعتبارنا أنّ الاختلاف المعلوماتي في كثير من الأحيان لا يكون بسبب تنوع الرؤى المعرفية والمنهجية عند أصحابها، والذي هو مشروع ومقبول ومطلوب، وإنما بسبب قيام كثير منها بتزوير الوقائع، وغياب موضوعيتها بالتالي لأغراض براغماتية مختلفة، سياسية واقتصادية وإيديولوجية، مما يوجب علينا ضرورة التدقيق والتصحيح العلمي الموثق.

ونحن حرصنا، معرفياً ومنهجياً، على أن نلتزم بكلّ ما تقدّم، إن في المقدمة والتمهيد والجزء الأول، تعديل وتأليف أ. د. نجاح محمد، أو في الجزء الثاني، تعديل وتأليف أ. د. كميليا أبو جبل.

أخيراً، علينا أن نتذكر دائماً: أنّ الحرص على الحقيقة التاريخية هو واجب وطني قومي بقدر ما هو واجب علمي أخلاقي إنساني، لأنه بدونها تنتفي إمكانية تحقيق الغاية من دراسة التاريخ في الماضي الذي ذهب، والتي هي أخذ الدروس والعبر، ومعرفة الذات والآخر وحفظ الهوية، وإنعاش ذاكرة الأمة بما يفيد بناء حاضرها ومستقبلها، وحدة وقوة وتطويراً ونهوضاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وبما يضمن لها بالتالي مواجهة ناجحة لجميع صيغ ومضامين التآمر المستمر لمنع إنجاز أي مشروع قومي عربي نهضوي حقيقي لها، ومنه التزوير في التاريخ الإنساني عموماً وفي التاريخ العربي خصوصاً، وأن نتذكر أيضاً أنّ لكلّ منا دوره المؤثر والفاعل في هذا البناء والإنجاز وهذه المواجهة. وهنا يبرز أهمية التاريخ في بناء نظامنا المعرفي–القيمي الذي يحركنا فكراً وتفكيراً وانتماءً وقراراً، قولاً وفعلاً، إن على المستوى الفردي أو الجمعي، الرسمي أو الشعبي، العفوي أو التنظيمي، والذي له تأثيره المجتمعي المحوري بالتالي، سلباً أو إيجاباً، إفساداً أو إصلاحاً، تخريباً أو إعماراً، إهمالاً أو تطويراً.

****

هوامش المقدمة

---

[١])- أقرّ المجمع العلمي في القاهرة صحة استخدام مفردة "التقييم" إلى جانب "التقويم"، وكذلك أقرّها المجمع العلمي في دمشق. ونؤكّد هنا على ضرورة استيعاب جدلية العلاقة بين تطور الواقع وتطور اللغة في التعبير عنه. ونرى الأمر نفسه مع مفردة "الرئيسي" إلى جانب "الرئيس" و"الأساسي" إلى جانب "الأساس"، مع الانتباه إلى اختلاف المعنى، من حيث أنّ وجود الياء يعني وجود مشاركة في الاتصاف بالصفة، وغياب الياء يعني التفرد بها.

[٢])- Louis HALPHEN, Introduction à L'Histoire, Presses Universitaires de France, Paris, 1948, p2.

[٣])- قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، ط. ٥، ، بيروت، ١٩٨١، ص ١٨٤ وما يتبع.

[٤])- انظر نجاح محمد، "التاريخ والاستراتيجيا والعقل العربي النهضوي على ضوء علم المستقبل العربي" (مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ١٦، ٢٠٠٢، ص٥٣–٨٦).

والاستراتيجيا النهضوية بالنسبة لأية دولة هي تحديد الأهداف المستقبلية لسياستها النهضوية، خارجاً وداخلاً، وعلى كلّ صعيد سلطوي واقتصادي واجتماعي وثقافي، وتحديد أدوات التنفيذ وأساليبه العامة. أما التكتيك فهو يأتي في إطار هذه الاستراتيجيا، وبغرض تحقيقها على أرض الواقع، ويتضمن تحديد الأهداف والأدوات والأساليب الخاصة بكلّ مرحلة زمنية، وبما ينسجم ويتوافق مع ظروفها وطبيعتها.

[٥])- راجع دراسات مجموعة من الباحثين بعنوان: صور المستقبل العربي، في إطار "مشروع المستقبلات العربية البديلة" تحت إشراف جامعة الأمم المتحدة، ونشرت بالتعاون بينها وبين مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢، وخاصة ص ١٠-٢٨.

[٦])- روجيه غارودي، نحو حرب دينية، جدل العصر، ترجمة صياح الجهيم، بيروت،١٩٩٦، ص ٦١.

[٧])- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، دار المعارف، طبعة ٢، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٥٩.

[٨])- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط.٢،بيروت،١٩٧٦، جزء ٢، ص ٣٧٠

[٩])- يتحدث كل المطوفين أثناء الحج عن مكة كمركز للكون: انظر تمارا بوتينسيفا: الآثار تؤدي إلى رمال الجزيرة العربية، ترجمة محمد يمني الشعيبي، دمشق، ١٩٨٩. وللتفاصيل راجع أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم، I المركز، ط. ٤، دار نينورتا، دمشق، ٢٠١١.

[١٠])- جواد علي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٩٣.

[١١])- آ. فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية، ترجمة دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦، ص٣.

[١٢]) -جواد علي، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٣٧٠.

[١٣])- عدنان العمد، "لا حوار بين الفلسطينيين"، (مجلة السياسية الدولية، القاهرة، المجلد العاشر، العدد ٢٧، ١٩٧٤، ص٦١-٦٨)، ص٦٣.

[١٤])- سأكتفي من الآن فصاعداً بكتابة التواريخ في مكانها بدون الرموز لعدم الحاجة إليها.

[١٥])- نضع هذا المسمى، أي "إسرائيل" وكلّ اشتقاقاته، داخل أقواس صغيرة كدلالة على تحفظنا عليه وعليها، ولكننا نضطر إلى استخدامه وإياها أحياناً لسببين: أولهما ضرورة الالتزام بقواعد التوثيق، وثانيهما ضرورة التعبير الأكثر دلالة في توصيف بعض الأحداث والمواقف وخاصة المتعلقة بخرق المشروعية الدولية وحقوق الإنسان والشعوب.

[١٦])- فيما يخصّ مصطلح "الشرق الأوسط"، عموماً، نحن نضعه داخل أقواس صغيرة كدلالة على تحفظنا عليه، ولكننا نضطر إلى استخدامه أحياناً لسببين: أولهما ضرورة الالتزام بقواعد التوثيق من حيث أنه المعتمد في كثير من الوثائق والمراجع، وثانيهما لأنه يدلّ على منطقة ذات مضمون جغرافي ـ سياسي قد تكون هي المعنية في كثير من الأحيان، فهو يضم تركيا وإيران إضافة إلى دول المشرق العربي، أي دول سوريا- الشام والعراق ووادي النيل وشبه جزيرة العرب، وهناك متغيرات في مضمونه هذا وفق المصالح الاستعمارية ولا مجال لذكرها هنا ومنها إدراج دولة الكيان الصهيوني فيه.

أما مشروع "الشرق الأوسط الجديد" فيهدف إلى إعادة تشكيل الدول الأوسطية بخرائط جديدة بمضامين جغرافية–سياسية ملائمة لطبيعة دولة "إسرائيل" ولمصالحها والمصالح الاستعمارية بالدرجة الأولى، مما يستدعي أن تكون هذه الدول دينية طائفية صغيرة ضعيفة متخلفة متصارعة (راجع: مواقع الإنترنيت المعنية، والكتاب الصادر عن هيئة الأبحاث القومية لدى القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، بعنوان " وثائق مختارة في تفتيت الوطن العربي"، سلسلة دراسات وثائقية ١، دمشق، ٢٠٠٩، ص ٦٩ وما يتبع).

[١٧])- الفوضى هي أولوية الحرية الفردية المطلقة على مصالح المجتمع وقوانين الدولة (انظر موسوعة الهلال الاشتراكية)، وهي "خلاقة" بالنسبة لتآمر تحالف قوى الاستعمار الغربي والصهيوني، من حيث استخدامها كوسيلة لضرب القوة العربية وبالتالي تحقيق مشروع "الشرق الأوسط الجديد" المذكور، من خلال إشعال الصراعات والحروب الداخلية الأهلية واستخدام قوى الإرهاب المصنوعة وأجهزة الإعلام المبرمجة والمنظمة، لتقوم، في حربٍ بالوكالة، بالقضاء على عنصري القوة في كلّ دولة، أي الجيش الوطني والأمن، وعلى تدمير البنى المادية والروحية للحكم ولوحدة المجتمع وخاصة ما تعلق بقيم انتمائهما الوطني والقومي والديني الأخلاقي الحقيقي والأسري، عاملةً على تعميق واقع البؤس واليأس وثقافة التعصب والتمذهب والجريمة والعنف(راجع زبغنيو بريجينسكي: الفوضى، ترجمة مالك فاضل، عمّان، ١٩٩٨)، ولتعمل على كلّ ما يخدم تفكيك الدولة الوطنية إلى دويلات طائفية وعنصرية مستغلّة. وهكذا تصبح الفوضى "خلاقة" في نجاحها بتنفيذ هذا المخطط الاستعماري الذي يؤدي إلى ضمان عدم وجود أية مقاومة قد تعرقل أو تهدد وجود وسيطرة القوى والمصالح الاستعمارية بشكل كلّي. وما يدعى اليوم "ثورات الربيع العربي" هي باختصار، وكما أصبح واضحاً، تنفيذ لمخطط "الفوضى الخلاقة" التآمري هذا.

[١٨])- انظر الهامش السابق رقم ١٧.

[١٩])- نجاح محمد وكميليا أبو جبل، تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر(بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٥–٢٠٠٦، ص ٢٢–٢٨.

[٢٠])- المرجع نفسه، ص ١٣–٢١.

[٢١])- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ،بيروت، بدون تاريخ،ص ٩

[٢٢])- انظر نجاح محمد، "علم التاريخ: إشكاليات ومضامين" (مجلة المعرفة، دمشق، وزارة الثقافة، العدد ٣٨٤، أيلول ١٩٩٥، ص٣٧–٥٩).

****

الفصل التمهيدي

شبه جزيرة العرب: خصوصية الجغرافيا والتاريخ وموجز الأوضاع التاريخية الدولية والعربية والإقليمية والمحلية قبيل التاريخ الحديث

المحتويات:

أولاً)- شبه جزيرة العرب: موجز خصوصية الجغرافيا.

ثانياً)- شبه جزيرة العرب: موجز خصوصية التاريخ.

ثالثاً)- موجز الأوضاع الدولية والعربية والإقليمية قبيل التاريخ الحديث:

رابعاً)- موجز أوضاع شبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث:

I - موجز السمات العامة لشبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث.

II - موجز تعريف بأوضاع أقاليم شبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث.

****

تأتي ضرورة هذا التمهيد التاريخي، فيما يخصّ موضوعنا، استناداً إلى ما كنا قد ذكرناه في المقدمة حول قوانين حركة التطور التاريخي في خضوعها لقانون جدلية الداخل والخارج، وفي اتصالها وتواصلها، بحيث لا شيء يأتي من فراغ على كلّ المستويات والميادين الداخلية والخارجية. وعليه فبدون هذا التمهيد، الذي يقدّم لنا موجزاً عن الأوضاع الدولية والعربية والإقليمية والمحلية لشبه جزيرة العرب قبيل بداية تاريخها الحديث، والذي يبيّن الحوامل الأساس لأحداثه، الحامل البشري والحامل المكاني والحامل الزمني، تستحيل إمكانية أية متابعة علمية صحيحة لهذا الموضوع المتعلق بهذا التاريخ. وبحكم القوانين نفسها، وللوصول إلى فهم دقيق أفضل له، لا يمكن وضع هذا الموجز عن هذه المرحلة دون أن نبدأه بحديث مختصر جداً، وبسطور فقط، عما قبلها، ولكن علينا قبل ذلك تحديد المضمون الجغرافي لشبه جزيرة العرب.

أولاً)- شبه جزيرة العرب: موجز خصوصية الجغرافيا:

يؤكد الباحثون المعنيون أن جزيرة العرب "كانت متصلة قارياً ببقية بلدان آسيا شرقاً وشمالاً، ومنها العراق وفارس، حيث لم يكن هناك وجود للخليج العربي الذي لم يتكوّن إلا في عصر البليوسين نتيجة لتقدم مياه بحر العرب من الجنوب إلى الشمال بعد ذوبان الجليد"[١]. كما يرى بعض الباحثين أنها كانت متصلة براً بمصر وبقية الجزء الشرقي من أفريقيا، ولا وجود للبحر الأحمر، وكانت أفريقيا وجزيرة العرب قطعة أرض واحدة[٢]. وانفصالهما كان نتيجة لمتغيرات جيولوجية ومناخية كان آخرها ذوبان الثلوج مع بداية العصور الدافئة نحو ١٠٠٠٠ سنة ق.م.

وإنّ الدراسة التاريخية للتطور الجغرافي- الجيولوجي للجزيرة العربية، في ضوء كل العلوم المساعدة وخاصة علم المناخ والنبات والحيوان وعلم الإنسان إلخ... تبيّن صحّة ما أكده بعض العلماء[٣]، حول أنها كانت، قبل العصور الدافئة، خصبة جداً كثيرة الأمطار والمياه، ولكن، ومع بداية هذه العصور، أخذ الجوّ يتغيّر في العالم، فذابت الثلوج بالتدريج وتغيّر جو بلاد العرب بالطبع[٤]. ولقد تصور أحد الباحثين الغربيين أنّ "بلاد العرب" كانت "في الدورة الجليدية، جنّة بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة، وكانت سبباً في رسم تلك الصورة البديعة في مخيّلة كتّاب التوراة عن جنة عدن. وجنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنّة التي كانت في نظره في جزيرة العرب"[٥]... ولم يكن التغيير المذكور بالطبع في مصلحتها لأنه صار "يهيج سطح القشرة فيحوّلها رمالاً وتراباً ثم صحارى لا تصلح للإنبات ولا لحياة الأحياء"[٦].

لا تطابق جغرافي بالطبع بين منطقة "الجزيرة العربية" الواسعة قديماً، والتي كانت جزءاً من "بلاد العرب" التي يبيّن لنا المؤرخ الألماني ونكلر (WINCKLER) أن البابليين كانوا يتصورون أنّها "منطقة واسعة تمتد من الحبشة إلى الهند"[٧]، وبين

منطقة "شبه جزيرة العرب" في التاريخ الحديث والمعاصر، والتي أصبحت تمتدّ منذ بداية هذا التاريخ الذي يعنينا هنا، فيما بين البحر الأحمر غرباً، وبحر عمان والخليج العربي شرقاً، وفيما بين بحر العرب جنوباً، والعراق وسوريا–الشام الممتدة حتى سيناء[8] شمالاً، وعلاقتهما بالتالي علاقة الجزء بالكلّ، ولا يجوز بالتالي اعتبارهما مسمى واحداً لمضمون جغرافي واحد. وإن التغيّرات الجيولوجية والمناخية المذكورة هي التي تفسّر الجغرافيا الطبيعية لشبه الجزيرة العربية اليوم، كما تفسّر جغرافيتها الاقتصادية والبشرية، والتي أسهمت بدون شك في تكوين خصوصيتها التاريخية، إذ شكّلت في خصوبتها قديماً جزءاً من المشرق العربي الذي شهد بداية الخلق والحياة والثقافة والحضارة[9]. فما هي أبرز معطيات هذه الخصوصية التي هي مرتبطة، بالضرورة، بمعطيات هوية وانتماء وخصوصية هذا المشرق ككلّ والممتدة حتى يومنا هذا، مما يفسّر ضرورة وقفتنا هذه عندها؟

ثانياً)– شبه جزيرة العرب: موجز خصوصية التاريخ:

يقول الباحث الأكاديمي المعروف شاكر مصطفى: "التاريخ العربي يبدأ مع بدء العصور التاريخية، بل تبدأ به العصور التاريخية"[10]. ما يؤكّد هذا القول وأنّ التاريخ البشري يبدأ بالتاريخ العربي فعلاً، أنّ بداية التاريخ الإنساني الفعلية مرتبطة ببداية وجود الإنسان العاقل، آدم بلغة الدين، ووجود تجمعاته الإنسانية الأولى، وهذه البداية كانت، حسب تأكيد جميع الباحثين، في هذا المشرق العربي القديم، ومنه بلاد أو جزيرة العرب. ولكن المؤسف، كما يؤكد أحد المتخصصين، "أن هناك من يرفض هذه الحقيقة ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي القديم، مدفوعاً باعتبارات عنصرية لا تمت إلى جوهر البحث العلمي النزيه بصلة"[11]. ولقد أكّدت دراسة في علم الجينات الأصل العربي لكلّ أجناس العالم[12]. إنّ التجمعات العاقلة لهذا المشرق هي التي انتشرت وثقافتها شرقاً وغرباً لتشكّل العالم إنساناً

ووحدة ثقافية وحضارية سبقت تشكّل الخصوصيات القومية العالمية[١٣] التي تكوّنت فيما بعد بتأثير مجموعة العوامل الجغرافية والمناخية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتاريخية في جدلية العلاقة بين متغيراتها الكمية والنوعية.

ما عكس هذه الوحدة بدايةً كان وحدة اللغة العربية التي كانت بلهجتيها، السريانية ومنها الأكادية التي هي أقدم لغة عربية مكتشفة[١٤]، والعربية العرباء، لغة الأقوام والحضارات القديمة[١٥]، وكانت بكتاباتها المتعددة، التصويرية والمقطعية والمسمارية والأبجدية، كتابة هذه الأقوام وهذه الحضارات. من هنا أتى تفرّدها بهذا الغنى الكبير في عدد مفرداتها الطاغي مقارنة مع اللغات الأخرى، ليكون عدد جذورها، أي أفعالها الثلاثية، هو (١٦٠٠٠) جذر، مقابل (١٠٠٠) جذر فقط للغات الأنكلو-سكسونية، و(٧٠٠) جذر للغة اللاتينية. أي أن الفرق بين عدد جذور اللغة العربية وعدد جذور بقية اللغات هو في أقلّه (١٥٠٠٠) جذر ، وهو فرق يحكي تفرّدها بالقدم التاريخي منذ آدم الإنسان العاقل الأول.

من هنا يبرز الدليل الأقوى لسقوط كلّ نظريات التزوير لطمس الهوية العربية للإنسان الأول وللعالم القديم ولبلدان مشرقه العربي ومنه شبه جزيرة العرب. في هذه البلدان المشرقية، حسب الإجماع الموضوعي العالمي، حدثت ثورات التدجين والزراعة والحرفة والصناعة والتجارة واختراع الكتابة، والتي كانت المنطلق للحضارة السورية-الرافدية-المصرية- اليمنية- الجزيرية الشاملة لكل الميادين، الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة، فناً وأدباً وفكراً وعلماً، والتي إليها يعود الفضل في اختراع جميع العلوم والفنون والآداب والمؤسسات الحكومية والسلطوية والدينية والاقتصادية والنقابية والديمقراطية الأولى، ومنها الدولة والمكتبة ومجلس الشيوخ ومجالس الشعب والنقابات الخ... وبكلمة مختصرة كانت حضارة كوّنت، كما يجمع كل المستشرقين الموضوعيين، أمثال غوستاف لوبون(LEBON)، وأندريه بارو (PARROT)، وول ديورانت(DIORANT)، وفيكتور بيرار (BERARD)، وزيغريد

هونكـه(HUNKE)، ومـونتغمري واط(WATT) ، وبييـر روســي(ROSSI)، وغيـرهم الكثير، البطانـة والأسـاس والمعطيـات العظمـى لكلّ الحضـارات العالميـة الشـرقية والغربية[١٦]، بما فيها الحضارة اليونانية التي لم تكن، على حدّ تعبير روسي، "سوى شرفة أو ملحق لبناء العرب في الشرق"،وبما فيها الرومانية والهلنستية والبيزنطية[١٧]، إنها حضارة سوريا وبلاد العرب، ومنها شبه الجزيرة العربية.

وهنا من الضروري الإشارة إلى أن المؤلفات الاستشراقية المغرضـة أو الناقلـة عنهـا، مـن أجنبيـة وعربيـة، قـد غيبـت الهويـة العربيـة لهـذه الحضـارة، مـن خـلال المسـميّات الزائفـة التـي لقبتهـا بهـا، كمسـمّى "الشـرقية و"الأوسـطية" و"السـامية" و"الهنـدو–أوروبيـة أو الآريـة" و"الحاميـة" وغيرهـا، متجاهلـة أو جاهلـة الحقـائق التاريخيـة العلميـة التـي تقدمها كل العلوم الإنسـانية التـي من شـأنها الكشـف عن الهوية القومية لتجمّع بشري ما، وهي علوم الإنسان أو "الأنسنة" (Anthropology)، وخاصة الثقافية وفروعها المتعلقة بعلوم التاريخ والأقوام والآثار واللغات إلخ...

والهويـة العربيـة، التـي هـي واضـحة فـي مؤلفـات مؤرخينـا العـرب القـدامى الكبار[١٨]، قد أكدتها الأبحاث العلمية الحديثة للمستشرقين الموضوعيين، أمثال بيير روسي، ولكثير من المؤرخين والباحثين العرب المعاصرين، أمثال محمد عزة دروزة ونبيه عاقل وطيب التيزيني وأحمد داوود وكثير من الباحثين في لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق[١٩] وغيرهم الكثير. وتمّ سقوط المسميات الزائفة المذكورة وخاصـة مـا تعلّق منهـا بالنظريـة السـامية–الآريـة–الحاميـة التـي اعتبرهـا الباحـث المتخصص نعيم فرح "نظرية صـهيونية"[٢٠]. والمنطق يقول إنّ أصول وانتماء الولد لا يمكن إلا أن يكونا هما أصول وانتماء أبيه وأخيه وجده، وكما يدل الأب أو الجدّ على نسب الابن والحفيد، فـالعكس صـحيح أيضـاً، وفق العقل ومنطق الأمور، وكجانب مما دعاه ابن خلدون "قياس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب"[٢١].

على كل حال إن منطلقنا هو الإيمان بعالمية الحضارات الإنسانية وبحقيقة اتصالها وتواصلها، ولكننا إذ نرفض أي تعصب عرقي أو قومي أو غيره، فإننا ننبّه إلى أنه علينا أن نتذكر دائماً، ومن منطلق التمسك بالحقيقة العلمية فقط، أن معطيات حضارتنا العربية في العصور القديمة والوسطى والتاريخ الحديث حتى الثورة الصناعية في أوروبا في القرن الثامن عشر، هي معطيات البطانة والأساس والمضمون الأهم لجميع الحضارات العالمية. وما يهمنا تأكيده هنا هو أن الحامل المكاني لهذه الحضارة كان المشرق العربي ومنه شبه جزيرة العرب، وكان لذلك انعكاسات هامة، عربياً ودولياً، امتدّت حتى اليوم.

ثالثاً)- موجز الأوضاع الدولية والعربية والإقليمية قبيل بداية التاريخ الحديث:

I - من النظام العربي-الإسلامي العالمي الإعماري إلى النظام الغربي العالمي الاستعماري الحديث:

بداية يجب الانتباه إلى أمرين هامين: الأول هو ضرورة التمييز بين ظهور "النظام العالمي كواقع ملموس، كقوى وكعلاقات دولية منظمة، مضموناً وشكلاً إيديولوجياً وقانونياً"[٢٢]، وهو ظهور قديم، فكما يقول أحد الباحثين: "النظام العالمي قديم قدم الممالك...قدم السلطة والدولة"[٢٣]، وبين ظهور مسماه الاصطلاحي في تعبيره عن واقعه هذا وهو ظهور حديث. ومشروعية استخدام أي مصطلح في التعبير عن واقع سابق لظهوره بزمن طويل أو قصير، كما هي الحال مع جميع المصطلحات الحديثة، مشروطة بأن يتمّ بمدلولاته الصحيحة. والثاني هو بيان أنّ توصيف النظام العربي العالمي بـ "الإعماري" والنظام الغربي بـ "الاستعماري" قد تمّ تحديده، كما سنرى من خلال حديثنا عنهما في موجزنا هذا، بناءً على معيارين متفق عليهما، الأول هو مدى درجة التزام هذا النظام بقيم حقوق الإنسان والشعوب فكراً وقولاً وممارسة، والثاني هو طبيعة عولمته[٢٤]، أي طبيعة ما نشره وعممه على المستوى العالمي خيراً أو شراً وفق موقعه ودوره بالنسبة لرسالة الحضارة والتمدين.

كان من الطبيعي، نتيجةً لإنجازات سوريا والمشرق العربي عموماً ومنه شبه جزيرة العرب، الفكرية والمادية، بدءاً بثورة التدجين، ومروراً بالثورات الاقتصادية الأولى في الزراعة والحرفة والصناعة والتجارة والأنشطة المصرفية، أن تتكوّن العناصر المكونة للوجود الرأسمالي أو البرجوازي العربي، أي الملكية الخاصة وتقسيم العمل والعمل الأجير وفيض الإنتاج وتطور قواه وأدواته، وأن تتشكل بالتالي رأسمالية متقدمة كما يؤكد موتل (MOUTLETS) وكولينغ (COLLHKG) وروسي[٢٥]. وكان من الطبيعي باعتبارها الأقوى أن تسيطر على السوق الرأسمالية العالمية والاقتصاد الدولي، وذلك من خلال نظام عالمي لتنظيم وإدارة هذه السوق وهذا الاقتصاد، كطرق ومراكز ووكالات ومواد، على صعيد جميع بلدان العالم. وصل تأثير هذا النظام، بمركزه السوري- الفينيقي وبحلقاته البابلية-المصرية-الحجازية-العمانية-المغربية المتنفّذة، إلى العالم القديم كلّه شرقاً وغرباً.

استمر هذا النظام العربي العالمي الإعماري القديم قوياً مهيمناً باستثناء فترة من الضعف مرّ بها في الفترة الممتدة ما بين القرن السادس وبداية القرن السابع الميلاديين، بسبب الصراع الكنسي الغربي-الشرقي والصراع الفارسي-البيزنطي، من أجل الهيمنة على طرق التجارة الدولية ومراكز نظامها العالمي في المركز المشرقي العربي، ممّا أضعف أمنها الداخلي والخارجي معاً، وأثر سلباً بالتالي على فعاليتها. ثمّ كان الخلاص والتحرير مع العرب المسلمين، ومعهم حضارة ثقافة الإسلام، ولتكن رسالة النبي الكريم محمد(ص) استكمالاً لحضارة ثقافة رسالات جميع الأنبياء العرب وخاصة موسى وعيسى عليهما السلام. وكان من الطبيعي، نتيجة لتراكم المتغيرات الكمية والنوعية، أن يتطور الوجود المجتمعي القومي للعرب القدماء من شكل التجمع البدئي الأول لتجمعات الإنسان العاقل، الذي جمعت بين أفراده وحدة الدم واللغة، إلى شكل العشيرة التي جمعت بين أفرادها وحدة الأرض والدم واللغة والأعراف والتقاليد، ثم إلى تشكيلة القبيلة المؤلفة من عشيرتين أو أكثر،

والتي جمعت ما بين أفرادها هذه العناصر نفسها. وبمرور مرحلة طويلة من التطور والانتشار والاستقرار تغيّرت هذه التشكيلة إلى تشكيلة الشعب، أي إلى "اجتماعية اتحدت بواسطة الأرض واللغة والتكوين النفسي المشترك"[٢٦]، ومنها، وبفعل وجود التكامل الاقتصادي العربي والمصالح العربية المشتركة، إلى تشكيلة الأمة مع تشكّل عناصر التوحيد لكيانها مادياً وروحياً. هذا يفسّر تأكيد فرانكفورت (FRANKFORT) أنّ "الشعور بالانسجام القومي" كان منذ حكم الأكاديين[٢٧]. بعد ذلك، ومع الإسلام وثورته التحريرية التوحيدية النهضوية التي اعتبرها كثيرون قومية أيضاً[٢٨]، إذ رحّب الأهالي بالفاتحين العرب كمحررين لهم[٢٩]، وكذلك مع نمو البرجوازية العربية، تشكّلت الدولة العربية الموحدة لهذه الأمة[٣٠] وامبراطوريتها، وتشكّل نظامها العالمي الإعماري.

تميّز هذا النظام بمضمونه الإنساني الحضاري الذي جعله دائماً إعمارياً حقيقياً لصالح ما ندعوه اليوم بقيم حقوق الإنسان والشعوب، ولقد عوْلَم، أي حمل إلى العالم ونشر فيه، كل معطيات المدنية والحضارة، اقتصاداً وعلماً وفناً وأدباً وقوانين ونظماً سياسية واقتصادية ونقابية وغيرها من معطيات رسالة التمدين والحضارة. لكن التحوّل الذي بدأ مع بداية التاريخ الحديث قد أدّى إلى نهاية الزمن العربي مع نهاية هذا النظام العالمي العربي الإعماري لصالح سيطرة النظام العالمي الغربي الاستعماري، وذلك بفعل متغيرات هامة في كلّ من الواقعين، العربي والأوروبي، إضافة إلى الواقع الإقليمي المتمثّل بواقع كلّ من الدولة العثمانية والدولة الصفوية، فما هي هذه المتغيرات؟ وبالعربية نبدأ.

II – موجز المتغيرات العربية قبيل بداية التاريخ الحديث:

كان للبرجوازية العربية شأن كبير في جميع الدول العربية في العصور الوسطى، إلى جانب الإقطاع بالطبع، وكان أن لعبت الدور الأكبر في الاحتفاظ بالسيطرة العربية على التجارة الدولية، سواء كطرق أو كموانئ أو كتجار أو كوكلاء

أو كمواد. يتحدث الباحث الغربي آشتور (ASHTOR) عن "الوحدة الاقتصادية الهائلة القائمة على التبادل التجاري"، وعن "السيادة الاقتصادية للإمبراطورية العباسية الكاسحة" حوالي ٢٠٠ سنة"[٣١]، وكذلك عن مدى تطور الصناعات ومنها "مصانع الطراز"[٣٢]، وعن خدمات الصيرفيين الذين "تشبه واجباتهم إلى حدّ كبير المصارف المركزية الحديثة"[٣٣]، وعن حرية المشاريع في المرحلة الفاطمية التي أكّد اعتبارها "من وجهة النظر الاقتصادية العصر الذهبي للبرجوازية"[٣٤]، وقد شكّل الفاطميون تنظيمهم القيادي العالمي المسمى "الكارم"[٣٥]، هو تنظيم دقيق لكبار التجار والوكلاء والمراكز التجارية العربية والإسلامية على الصعيد العالمي في جميع الأنحاء التي كانت تمتد إليها مراكز التجارة الدولية الرئيسية، وخاصة ما تعلق منها بتجارة التوابل، "بترول العالم"[٣٦] في الأزمنة تلك.

ولقد كان تجار جنوا والبندقية وبيزا وفلورنسا من عملائهم الأساسيين الذين كان على عاتقهم القيام بدور الوساطة للتجارة مع دول الغرب، والذين رأوا في استغلال ظروف حروب الفرنجة، المسماة خطأً بـ"الصليبية"[٣٧]، "فرصة ذهبية" للقضاء على الهيمنة التجارية العربية[٣٨]، بخاصة وقد ضعفت قليلاً بسبب التراجع البرجوازي والاقتصادي النسبي مع بدايات بروز النظام الإقطاعي العسكري في عهود نفوذ الجند الأتراك ثمّ عهود الحكم البويهي، والذي أخذ أقصى مداه في سيطرة قواه الإقطاعية–العسكرية–البدوية المتخلفة منذ العصر السلجوقي، كما يبين آشتور، "مما جلب التدهور البطيء لمصانع الطراز وللصناعة الخاصة التي تعرضت للعرقلة وحتى للقمع لصالح هيمنة الإقطاع العسكري"[٣٩].

وإذا كان التطور والعطاء الحضاري العربي المتقدم في العصور الوسطى قد استمرّا في ظلّ الدولة العربية في فتراتها الأربع، فترات صدر الإسلام والأمويين والعباسيين والفاطميين، فإن الوحدة القومية للعرب لم تدم طويلاً فيها، فكان أن نجحت كثير من القوى الانفصالية في تكوين دولها الذاتية المستقلة اسمياً أو فعلياً،

ممّا أدّى إلى سيطرة ظاهرة التفكك الخطيرة في أنحاء الدولة العربية، ومنها شبه جزيرة العرب، طوال الفترة الزمنية الأخيرة من الخلافة العباسية في أواخر العصور الوسطى، وخاصة قبيل بداية التاريخ الحديث.

وإذا كانت هذه الهيمنة العربية قد تعاظمت مع تعاظم الوحدة السياسية والسلطة المركزية للدولة العربية–الإسلامية، ومع تمتعها بالقوة والاستقرار والقدرة على حفظ الأمن الخارجي والداخلي، وخاصة ما تعلّق منه بصيانة الملكيات ورؤوس الأموال، ومع ازدهار الاقتصاد العربي ككل، فإنها ضعفت مع ضعف الوحدة والسلطة والقوة وتراجع الأمن والازدهار، في ظلّ هيمنة التشتت العربي وتمزق الدولة العربية–الإسلامية في دول وإمارات ومشيخات.

صحيح أنه كان للحركات الانفصالية والشعوبية (ليس بمعناها العرقي أو العنصري عند البعض، ولكن بمعناها المتمثل بالعداء للأمة العربية والإساءة لمصالحها حتى لو كان صادراً من العرب أنفسهم) وللهجمات الهمجية المتحالفة للمغول من الشرق وللفرنجة "الصليبيين" من الغرب، وللكوارث الطبيعية من قحط وجفاف ومرض ومجاعات، ولانتشار القرصنة، الدور الكبير في تصاعد عوامل الانحدار والضعف في الوطن العربي، لكن العامل الحاسم كان لطبيعة تطور واقعه من جهة، وطبيعة تطور الواقع الغربي الأوروبي من جهة أخرى.

تتلخص طبيعة تطور الواقع العربي في وجود ست ظاهرات مترابطة متداخلة التأثير جدلياً، وتتعلق بالميادين الحياتية الأساسية المتعددة، أي السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. الظاهرة الأولى والمتعلقة بالحياة السياسية هي تراجع وجود الأمن الداخلي والخارجي مع ازدياد الصراعات والحروب وهيمنة معطيات التجزئة والتشتت في الواقع العربي نتيجة لنموّ النزاعات ومنها ما كان بين قواه الارستقراطية الحاكمة، من مغولية وعربية ومملوكية وغيرها.

ففي العراق كانت تتصارع الأسر المغولية على الحكم منذ خضوعه لهولاكو عام ١٢٥٨/٦٥٦، وفي الأندلس ودول المغرب العربي كانت تتصارع الحكومات التي أتت كنتاج لتفكك دولة الموحدين وسقوطها، متمثلة ببني الأحمر في غرناطة، وبني حفص في تونس، وبني عبد الواد أو بني زيان في الجزائر، وبني مرين الذين حكموا منفردين في مراكش حتى عام ١٤١٠/٨١٣ حيث شاركهم بنو وطاس الحكم حتى نهايته عام ١٤٦٩/٨٦٩، ولتحكم فيه الأسرة العلوية بعد ذلك حتى اليوم. ولقد تطلّع الجميع إلى توحيد المغرب تحت سلطانهم. ولم تكن الحال أفضل لدى الدولة المملوكية البرجية (١٣٨٢/٧٨٤-١٥١٧/٩٢٣) التي كانت ما تزال تعد أعظم دولة عربية إسلامية آنذاك[٤٠].

الظاهرة الثانية هي انحطاط القوة العسكرية عدداً وعدة لدى كل السلطات الحاكمة في الوطن العربي، ومنها المملوكية، فكان فشل مقاومته لما دعي بـ "الصليبية الغربية المتجددة" بزعامة بابا روما وعضوية دول أوروبا الكاثوليكية، والتي كان من مظاهرها ما دعته إسبانيا بـ "حرب الاسترداد" في الأندلس، وما دعته البرتغال بـ "الحرب المقدسة".

الظاهرة الثالثة التي هي متعلقة بالحياة السياسية أيضاً هي غياب معالم الحياة للحريات لصالح هيمنة فئات ثيوقراطية[٤١] حاكمة باسم الإسلام، أتت عن طريق منطق القوة وليس الانتخاب أو الشورى من قبل الشعب أو هيئاته[٤٢]. وكانت مستنفذة في تحقيق أطماعها ومصالحها الفردية، ولو كان ذلك على حساب المصلحة العامة، ممّا يفسر وجود الظاهرة الرابعة التي هي فساد أنظمة الحكم.

الظاهرة الخامسة، التي هي متعلقة بالحياة الاقتصادية-الاجتماعية، هي تعاظم العلاقات الإقطاعية التجزيئية المتخلفة على حساب تراجع العلاقات البرجوازية التوحيدية التقدمية في الواقع العربي أكثر فأكثر[٤٣]، وخاصة في ظلّ الحكم المملوكي البرجي، حيث نما الإقطاع العسكري بصيغته القانونية الجديدة غير

الوراثية الذي أقرّها هذا الحكم، والتي برهنت على المدى الطويل، وكما يقول آشتور: "على أنها مدمّرة لاقتصاد الشرق الأوسط"(٤٤)، وحيث تصاعدت السياسة الاحتكارية للفئة الحاكمة، وخاصة للسكر والحبوب واللحم والتوابل وغيرها(٤٥)، وقام بعضها بـ" تخفيض قيمة النقد بحيث أدّى إلى إحداث تضخم لولبي"(٤٦).

وكانت تستولي بين فترة وأخرى على أموال وممتلكات كبار البرجوازيين العرب، وتفرض عليهم غرامات كبيرة(٤٧)، فكان أن تقلصت الفعالية البرجوازية الكبيرة، وزاد الغلاء، وتدهورت البرجوازية الصغيرة أو الطبقة الوسطى، وانتشر الفقر والبؤس في الأوساط الكادحة، وزادت الفروق الطبقية، وفقدت النقابات الحرفية والمهنية كثيراً من تأثيرها، وتحوّلت إلى خدمة مصالح الحكومة الإقطاعية المملوكية بالدرجة الأولى(٤٨). وأخذت تغيب شيئاً فشيئاً شروط تطور المشروع البرجوازي العربي مع غياب الأمن والاستقرار والوعي ومستلزمات الإبداع.

الظاهرة السادسة، والتي هي متعلقة بالحياة الثقافية كانت غياب الفكر العقلاني العلمي النقدي الحرّ لصالح بروز الفكر الاستسلامي القدري، من جهة، والفكر الديني السلطوي الرسمي التظاهري المسيّس من جهة أخرى، فشاع التمذهب التعصبي والانحراف عن مضمون الدين العقلاني الصحيح لصالح الفكر التكفيري الذي ارتبط بالسلطة منذ الحكم السلجوقي فأنهى، كما يؤكد المتخصص الإسلامي المعروف أ. د. سهيل زكّار، فترة الحرية الفكرية لصالح بداية فترة "الحتمية"(٤٩)، التي استمرّت مع استمرار ارتباط الفكر التمذهبي التكفيري بالسلطات الحاكمة وصولاً إلى العثمانيين والصفويين في التاريخ الحديث. وشاعت البدع والخزعبلات على حساب العلم والمعرفة والبحث المفيد، وانتشر التقليد على حساب الإبداع والتجديد ممّا يفسّر تسمية عصر المماليك بـ"عصر الموسوعات والجمع والتراجم"٥٠. وانتشر التصوفّ الذي تحوّل إلى نوع ساذج من الإيمان بالمعجزات"(٥١).

كانت النتيجة لكل ما ذكرنا حدوث "انحلال في المجتمع العربي لم يسبق له مثيل، وبات من الصعب تصور انحطاط اجتماعي أكثر عمقاً من ذاك الذي أصاب العالم العربي في أواخر القرن الخامس عشر"(٥٢). واستشرى الفساد، وزادت الهوة بين الشعب وحكامه الذين فقدوا "سيطرتهم السحرية عليه"(٥٣) إذ حادوا بنظره عن طريق الله، وتحولوا إلى مغتصبين للسلطة وطغاة ليس إلا، بخاصة وقد شعر الشعب أن الشريعة قد طويت، ولم يعد للحق والعدل مكان في دار الإسلام(٥٤).

وأخيراً ومع البدايات هذه ومع معطيات الضعف والانحدار في الوطن العربي برزت المحاولات الاستعمارية للسيطرة على ثرواته، وخاصة ما تعلق منها بالهيمنة على التجارة الدولية، وذلك من قبل القوة الأوروبية التي سنتعرف على متغيراتها قبيل التاريخ الحديث، وبما له صلة بموضوعنا بالطبع.

III- موجز المتغيرات الأوروبية قبيل بداية التاريخ الحديث:

معطيات التقدم في أوروبا، على عكس الوطن العربي، كانت تنمو أكثر فأكثر لعدّة عوامل أهمها المتعلقة بطبيعة متغيرات داخلها ومنها الدور المؤثر القوي والفاعل لمعطيات الحضارة العربية القديمة والوسطى، التي اعتمدت عليها النهضة الأوروبية. ولندع أقلام بعض الاستشراقيين الموضوعيين تحدثنا عن هذا الدور. تؤكد هونكه(HUNKE) "أن الغرب بقي في تأخره ثقافياً واقتصادياً طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام... لم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً(٥٥).

وكان "من أبرز ما قدمه العرب هو تكوين الفكر الأوروبي في مختلف فروع العلم"٥٦.وتؤكّد أنّهم "مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء الطبيعية والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات... بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم، والتي سُرق أغلبها ونسب

لآخرين"(٥٧). وتؤكد أيضاً أن الجامعات العربية "قد قدمت بدرجاتها العلمية وتقسيمها إلى كليات واهتمامها بطرق التدريس، للغرب أروع الأمثال"[٥٨]. وتشرح كيف أن العرب "منذ البدء أدهشوا العالم بالحرية الموضوعية والشجاعة العلمية"[٥٩].

ويبيّن لوبون(LE BON): "أنّ العرب هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي. وإن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا ممدنين لنا، وأئمة لنا"[٦٠]. ويقول أيضاً مدهوشاً: "لا شيء يورث العجب أكثر من انتصار حضارة العرب على همجية جميع الغزاة... فقد دام عمل العرب في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمن طويل"[٦١]. من هنا جاءت دعوة واط إلى "تصحيح التشويه والإقرار كلياً" بما يدين به الأوروبيون للعالم العربي الإسلامي(٦٢).

وهكذا، وبفعل تأثير الحضارة العربية، اتسعت دائرة النهضة لتشمل الواقع الأوروبي بكامل ميادينه السياسية والإنتاجية الاقتصادية والثقافية معاً، بحيث تطورت قوى الإنتاج البشرية والأدائية فيه، فتقدم الاقتصاد الأوروبي بكل أشكال وفعاليات نشاطه، الذي كان لصالح رأس المال التجاري أساساً، في الفترة الأولى من عصر الأنوار والنهضة، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، التي شهدت نشوء ونجاح الحركة القومونية(٦٣)، كما شهدت فرض السياسة المركنتلية[٦٤] في حماية الاقتصاد الوطني في أوروبا.

وكلّ ذلك عكس نمو برجوازية أوروبية تجارية وصلت قوتها إلى درجة سمحت لها بالطموح إلى فرض هيمنتها على التجارة الدولية، وإحلالها محلّ هيمنة البرجوازية العربية ذات الجذور الموغلة في القدم، وبالتالي تحقيق الحلم الأوروبي في هذه الهيمنة العالمية وفي استثمارات خيرات وثمرات الوطن العربي، أو "الشرق" حسب التسمية الأوروبية له، وفي السيطرة على الطريق التجاري فيه إلى الهند، بلاد الذهب والتوابل، فكانت المكتشفات الجغرافية ومعها بداية التاريخ الحديث.

وكان هذا الحدث من أبرز وأخطر النتائج التي أفرزتها البدايات المذكورة في معطيات الضعف والانحدار في الواقع العربي قبيل التاريخ الحديث، والتي أسهمت فيها أيضاً المتغيرات على الصعيد الإقليمي، والمتعلقة بالقوتيْن الإسلاميتيْن البارزتيْن آنذاك، القوة العثمانية والقوة الفارسية.

IV- موجز المتغيرات الإقليمية: القوتان العثمانية والفارسية قبيل بداية التاريخ الحديث:

اختلف المؤرخون والباحثون حول أصول العثمانيين، هل هي مجهولة، أم هم عرب أم تركمان غزّ[٦٥]، لكنهم اتفقوا حول نشأتهم وتطورهم. لقد بدأوا كإمارة ثغور وجهاد في آسيا الصغرى ضدّ بيزنطة، مدعومة من سلطنة سلاجقة الروم في الأناضول، ولقد استفادت هذه الإمارة من تنظيمات الفتوة والأخية والصوفية في داخلها، واستغلّت نهاية هذه السلطنة على يد المغول نحو عام ١٣٠٠/٧٠٠، وضعف بيزنطة، وجميع التناقضات والصراعات في الأوساط الأوروبية، ومنها السياسية والاقتصادية والدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، من أجل تقوية إمارتها وتحويلها من إمارة ثغور وجهاد إلى دولة ثم إلى إمبراطورية، وخاصة منذ أن نجح سلطانها محمد الفاتح عام ١٤٥٣/٨٥٧ في إنهاء الوجود البيزنطي في الأناضول نهائياً وفي فتح عاصمتهم القسطنطينية التي دعيت إسلامبول ثم إستانبول، والذي نجح بعد ذلك في توطيد السيطرة العثمانية في بلاد الصرب والبوسنة والهرسك في بلاد البلقان، وفي إخضاع كامل آسيا الصغرى وشبه جزيرة المورة وألبانيا، وشبه جزيرة القرم، وخلفه ابنه بيازيد الثاني عام ١٤٨١/٨٨٦ كأحد أبرز السلاطين العثمانيين[٦٦] في عصر القوة العثماني.

أما بالنسبة لفارس فقد سيطرت عليها، مثل العراق، السلالات المغولية، بدءاً بالسلالة الإيلخانية التي أسسها هولاكو منذ عام ١٢٦٠/٦٥٨ ثمّ السلالة التيمورية

نسبة لتيمورلنك الذي استمرت دولته منذ عام ١٣٦٩/٧٧٠ حتى انتهت بموته عام ١٤٠٢/٨٠٤. بعد ذلك لم يبق منها سوى ما استطاع ابنه شاه رخ ثم خليفته أبو سعيد الاحتفاظ بالسيطرة عليه، والذي انحصر ببلاد فارس فقط بداية. وكان عليهما مجابهة خطر الإمارات التركمانية، وخاصة إمارة الشاة السوداء[٦٧] التي كان مركزها منطقة بحيرة وان، والتي نجحت في السيطرة على العراق في عام ١٤١٠/٨١٣ بعد تخليصه من حكم السلالة المغولية الجلائرية التي كانت تحكمه منذ نجاحها في إسقاط الحكم الإيلخاني فيه في عام ١٣٤٠/٧٤٠.

وبقيت إمارة الشاة السوداء فيه إلى أن استطاعت إمارة تركمانية أخرى القضاء عليها، وهي إمارة الشاة البيضاء[٦٨] في منطقة ديار بكر، وذلك في ظلّ أبرز أمرائها أوزون حسن (حسن الطويل) الذي ضمّ إليه جميع أراضيها وشمالي العراق وبغداد وجزءاً من فارس في عام ١٤٦٩/٨٧٣. حاول أوزون حسن التحالف مع البنادقة ضدّ العثمانيين، ولكن دون جدوى، حيث هزم من قبل السلطان محمد الثاني عام ١٤٧٢/٨٧٧–١٤٧٣/٨٧٨، وتمزقت إمارته ثم سقطت نهائياً بيد الدولة الصفوية.

نسبت هذه الدولة إلى الشيخ صفي الدين (١٢٥٢/٦٥٠–١٣٣٤/٧٣٤)، الذي كان يفتخر بنسبه العربي إلى الأسياد من آل البيت[٦٩]، وكانت وإياه معتنقة للمذهب الشيعي الجعفري، ومن الباحثين من شكّك بنسبه هذا على أنّه تركماني أو كردي[٧٠]. جعل صفي الدين أردبيل في أذربيجان مقراً لحركته التي تحولت إلى منظمة عسكرية في عهد أبرز زعمائها، الشيخ جنيد. واكتسبت كثيراً من قبائل التركمان وخاصة في جنوب وشرق الأناضول[٧١]. واستمرّ هذا الازدياد في عهد ابنه الشيخ حيدر عام ٨٧٥/ ١٤٧٠ ثمّ في عهد الشيخ إسماعيل بن حيدر عام ٨٩٣/ ١٤٨٨ الذي برز بانتصاراته قبيل التاريخ الحديث وفي بدايته، في أذربيجان وفارس والعراق، ومنها قضاؤه على إمارة الشاة البيضاء، وليبرز في عهده وفيما بعده الصراع العثماني–الصفوي شيئاً فشيئاً كما سنرى.

مما تقدم نستطيع الاستنتاج أن الصراعات السياسية على مستوى داخل الدول والإمارات الإسلامية وفيما بينها، قبيل التاريخ الحديث، تفسّر انشغالها عن توجيه قواها ضدّ الخطر الأوروبي عموماً، ومنه إحجامها جميعاً عن تقديم العون إلى بني الأحمر حكام غرناطة لمنع سقوطها بيد الإسبان في عام ١٤٩٢/٨٩٧، وتفسّر، بالإضافة إلى ضعف وانحدار القوة العربية والمملوكية، كما رأينا، السبب الرئيسي المهم للتوجّه الأوروبي، الإسباني والبرتغالي، الجريء نحو القضاء على الهيمنة العربية- الإسلامية على طريق التجارة الدولية ما بين الشرق والغرب، ونحو غزو المراكز العربية والإسلامية لهذه التجارة، سواء داخل الوطن العربي أو خارجه، والذي سيبرز في بدايات التاريخ الحديث لبلدان شبه جزيرة العرب التي نقف قليلاً عند أوضاعها قبيل هذا التاريخ.

رابعاً)- موجز أوضاع شبه جزيرة العرب قبيل بداية تاريخها الحديث:

I - موجز السمات العامة لشبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث:

كان من الطبيعي أن تخضع شبه جزيرة العرب، وهي الجزء المهم من الوطن العربي، لكل المؤثرات والعوامل التي خضع لها واقعه وتطوره إن على مستوى الخارج أم الداخل،ممّا يفسّر لماذا كانت أوضاعها، في كثير من معطياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تجسيداً لأوضاع هذا الوطن، سواء قبيل تاريخه الحديث أو بعده. شهدت ديارها عوامل الانحدار العربي نفسها، وخاصة الحروب والفتن المحلية، وهجرة" أصحابها أصحاب الجاه والنفوذ إلى البلاد الغنية، فلم يبق من يدافع عنها، ويتحدث بلسانها كونها مهد العرب الأول ومهد الإسلام، فتقوى بذلك الخراب على العمار"[٧٢]، والتخلف على الحضارة في واقعها الإنتاجي والثقافي، والتفكك على الوحدة، والضعف على القوة في واقعها السياسي. وكما في بقية الوطن العربي، فقد انتشر فيها البؤس الاجتماعي، وتصاعدت الفروق

الاجتماعية بين الفئات الحاكمة والغنية من زعماء وإقطاعيين وتجار وبين فئات الشعب الفقيرة. ونتيجة لغياب الإسلام بمضامينه الصحيحة، بسبب تسييسه وتوظيفه في خدمة الأغراض السياسية للدولة والحكام، فقد انتشر التمذهب والتعصب والتقليد والفكر الجبري، وشاعت البدع والخزعبلات، ففي كلّ الجزيرة كانت "توجد قبور أو جماد أو نبات أو شيخ يعكف الناس على تعظيمه والتقرب إليه والاستغاثة به"[٧٣].

ومع ذلك، وبفضل نشاط كبار التجار فيها، وخاصة في الحجاز وحضرموت وكل اليمن وعُمان والبحرين وكامل الخليج العربي، فقد بقيت تحافظ على مساهمتها العظيمة مع بقية البرجوازية العربية التجارية في استمرار الهيمنة العربية على التجارة الدولية.

وبعد تفاقم ظاهرة التفكك الخطيرة داخل شبه جزيرة العرب، كما في خارجها في أنحاء الدولة العربية–الإسلامية، عادت انقساماتها إلى أقاليم ودول وإمارات صغيرة ومشيخات وقبائل مختلفة متناحرة متنافسة، يحكم كلاً منها حاكم أو أمير أو شيخ، ويتبع كل منهم إلى الحاكم الأكثر قوة على مستوى الأقاليم الخمسة الأساسية التي عرفت بها شبه الجزيرة العربية في ظلّ هذه الدولة، وهي: الحجاز، نجد أو اليمامة، اليمن بما فيها عدن وحضرموت، البحرين أو الإحساء، عُمان. وتفاوتت درجة تبعية كلّ حاكم فيها إلى الحكومة المركزية حسب قوة وضعف كلّ طرف منهما. ولنا وقفة الآن مع تعريف موجز بأوضاع هذه الأقاليم قبيل تاريخها الحديث، ممّا سيساعدنا على تتبع مسيرة تطورها خلال هذا التاريخ.

II – موجز تعريف بأوضاع أقاليم شبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث:

١ – إقليم الحجاز قبيل تاريخه الحديث:. دعي بـ "الحجاز" لحجزه، أي لمنعه، غور تهامة عن نجد[٧٤]. وكان يمتد كإقليم ما بين هضبة نجد وصحراء النفود الكبرى شرقاً، وبين البحر الأحمر غرباً، ويقع ساحله على امتداد هذا البحر من العقبة التي

كانت تابعة له شمالاً، إضافةً إلى معان، إلى منطقة عسير جنوباً. بدأت سيطرة الأشراف على إقليم الحجاز منذ عام ٩٩٤/٣٨٤ واستمرت قبيل تاريخه الحديث وبعده[٧٥]، وكان أشهر عائلاتهم: العائلة الموسوية، وعائلة الهواشم، ثم عائلة آل قتادة التي استمرت في حكمه في معظم المرحلة الزمنية الممتدة منذ تسلمته عام ١٢٠١/٥٩٧ حتى بداية حكم آل سعود عام ١٩٢٤، كبديل عن حكم الشريف حسين قائد الثورة العربية الكبرى والمنتمي إلى هذه العائلة. ونسب الأشراف يعود، وهم أبناء الحسن بن علي، "إلى الرسول محمد (ص)، ومعظمهم من الأسر العربية العريقة الشريفة التي اشتهرت بالعلم والسيادة والزعامة"[٧٦].

وأهم مدنه مكة والمدينة والطائف وجدة. إن الأهمية السياسية الدينية للمدينة ومكة، بالإضافة إلى الأهمية الاقتصادية لهذه الأخيرة كمحطة مهمة على الطريق التجاري البريّ، قد أسهمت دون شك في دفع حكام المماليك إلى محاولتهم في ممارسة هيمنتهم الفعلية على إقليم الحجاز، مثلهم مثل سابقيهم من الحكام الأيوبيين والفاطميين والعباسيين والأمويين، بدافع الحرص على السيطرة على البحر الأحمر وعلى شؤون التجارة الدولية فيه ككلّ. لكن السبب الأساسي الذي زاد في اندفاعهم، كان الاستفادة بالنسبة لإقليم الحجاز من الحركة المزدهرة لهذه التجارة في ميناء جدّة الذي أصبح صلة الوصل المهمة التي لا بدّ منها في الطريق الرئيسي التجاري البحري العالمي الوحيد الخاضع لهم. فإلى جدّة عبر البحر الأحمر كانت تأتي السلع الشرقية من الهند والصين، كالتوابل والحرير وغيرها، لتُحمَّل منها إلى مصر فإيطاليا فجميع أنحاء أوروبا.

كان هذا الطريق البحري الأول للتجارة العالمية، أما طريقها البحري الثاني فكان من الهند إلى البصرة في العراق، ثم منها إلى حلب فدمشق فطرابلس فبيروت فإيطاليا ثمّ بقية البلدان الأوروبية. ولم يكن هذا الطريق الأخير تحت سيطرة الحكام المماليك، إذ لا سيادة كانت لهم على منطقة الخليج العربي وجنوب العراق، ممّا

يفسّر حرصهم على تأكيد سيطرتهم على الطريق الأول، وبالتالي على ميناء جدّة، من خلال محاولة ممارسة الحكم المباشر له بدلاً من أشراف مكّة. تمّ لهم ذلك منذ عام ١٤٢٢/٨٢٥، مما زاد في استياء هؤلاء الأشراف في تطلعهم إلى التخلّص من الحكم المملوكي طوال السنين الأخيرة التي سبقت بداية التاريخ الحديث.

٢- **إقليم نجد قبيل تاريخه الحديث:** النجد قِطاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف[٧٧]، وجمعها نجد وأنجاد إلخ... وكان يطلق عليه العرب قبيل الإسلام وبعده اسم اليمامة الذي انحصر مضمونه الجغرافي اليوم بقرية اليمامة الصغيرة كثيرة المياه وواسعة البساتين. ويحتل إقليم نجد القسم الأوسط من شبه جزيرة العرب، يحدّه من الغرب الحجاز وعسير، ومن الشرق الإحساء وصحراء الدهناء أو النفود الصغرى، ومن الشمال صحراء النفود الكبرى، ومن الجنوب الربع الخالي. أشهر مناطقه واحات العقيم والسدير والحوطة والحريق ووادي الدواسر والوشم (من بلدانها حُريملا). بالإضافة إلى المحمل والعارض (مركزها الرياض وفيها الدرعية)، والخرج وجبل شمر ووادي بيشة الخ... ويطلق العرب على الأجزاء الشرقية المنخفضة منه اسم السافلة، وعلى المناطق الغربية اسم العالية أو عالية نجد[٧٨].

خضع إقليم نجد للخلافة الأموية حتى وفاة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥/٧٤٣.١٢٦/٧٤٤)، فبعد قتله سارع أحد زعماء بني حنيفة، أبرز قبائل نجد، إلى الاستقلال الذاتي النسبي به منذ ذلك الحين. وكثيراً ما كان يخضع في قسمه المشرقي، قبيل التاريخ الحديث، إلى الدويلات التي قامت في البحرين وجعلت الإحساء قاعدة لحكمها، كالعيونيين والجبريين، أما في قسمه الغربي فكثيراً ما كان يخضع إلى شرفاء مكة الأقوياء الذين كانوا يعدون أن نجد من ضمن مناطق نفوذهم، يأخذون من أمرائه وشيوخه الأموال، ويغيرون عليهم إن امتنعوا عن أداء ذلك، وهذا ما كانت عليه حال نجد قبيل تاريخها الحديث[٧٩]. هذا الخضوع كان بسبب ضعف نفوذ بني حنيفة داخله، نتيجة لعجزهم عن الحفاظ على وحدتهم،

وبالتالي على وحدة وقوة إقليمهم طويلاً، فعمّ الانقسام وشاعت الفرقة، وانتشر الصراع القبلي من أجل التفوق والزعامة. ثم ومنذ القرن الثامن /الرابع عشر استطاعت عائلتا بني يزيد وبني مزيد، وكلتاهما من بني حنيفة، توزع النفوذ فيه، طبعاً مع وجود تبعيته المذكورة لحكام الإحساء ولأشراف الحجاز.

وفي أواسط القرن التاسع /الخامس عشر، أتى بعض رجال عشيرة عَنَزَة، من قبائل ربيعة، بزعامة مانع بن المسيب الملقب بالمُريدي، جدّ آل سعود، إلى نجد ليستقروا فيها. وكان مانع هذا يقطن بلدة الدروع في القطيف، وتربطه بابن درع في منفوحة قرب الرياض، والذي كان زعيم فرع الدروع في حَجْر اليمامة والجزعة في نجد، صلة نسب ومصاهرة، وكانت بينهما مراسلات أسفرت في النهاية عن مجيء مانع إليه في عام ٨٥٠/١٤٤٦، حيث أقطعه أرض المليبد وأرض غصيبة ليستقر فيهما وأسرته[٨٠]. وكان أن أنشأ ابنه ربيعة فيها، بمساعدة رجال قبيلته، قرية سماها "الدرعية"، على اسم قرية كانت لهم سابقاً في نواحي القطيف. وكان الشغل الشاغل لأحفاد مانع وربيعة بعده التوسع بقريتهم هذه وبممتلكاتهم حولها، ممّا صعّد في صراعاتهم المستمرة مع بني حنيفة وبني تميم ومع غيرهم في نجد ممن كانوا يتوجهون إلى مهاجمتهم للتوسع على حسابهم طوال فترة قبيل التاريخ الحديث[٨١] التي اتصفت بشكل أساسي بهذه الصراعات بين قوى نجد المتعددة.

٣- إقليم اليمن قبيل تاريخه الحديث: يقال سميّت اليمن باليمن لأنها تقع على يمين الكعبة كما سمي الشام شاماً لأنه يقع على شمالها[٨٢]. وأطلق عليها اليونان والرومان اسم "العربية السعيدة"، وسماها غيرهم "اليمن الخضراء"، وكانت تضم، وفق الحموي والهمداني، تهامة، ومنطقة الجبال والسهول الشرقية، وحضرموت، وعُمان والربع الخالي[٨٣]. أما اليوم فقد تقلصت حدودها لتتضمن فقط المنطقة الممتدة ما بين ظفار والربع الخالي وعسير شرقاً وشمالاً، وما بين البحر الأحمر

وبحر العرب غرباً وجنوباً. وأهلها مثلهم مثل باقي قبائل شبه جزيرة العرب ما زالوا يفتخرون بأصلهم العربي القديم. وأهم مدنها صنعاء وصعدة وعدن والمخا.

بدأ إقليم اليمن، مثله مثل بقية أقاليم شبه الجزيرة العربية وبقية منطقة الوطن العربي، بالتفكك إلى دول في القرن الثالث /التاسع، نتيجة إهمال الخلافة العباسية. فبعد أن كان موحداً في مخاليفه الثلاثة التي كان مقسماً إليها إدارياً في ظلّ الدولة العربية–الإسلامية، أي مخلاف صنعاء الشامل للمناطق الجبلية الشمالية، ومخلاف حضرموت، ومخلاف الجند الشامل لبقية مناطق اليمن الجنوبية، بما فيها عدن وتهامة، فإنه تفكك إلى دول متعددة متصارعة. أشهر هذه الدول والتي تفردت باستمرارها طوال العصور الحديثة ومعظم العصور المعاصرة هي الدولة الزيدية[٨٤] التي لم ينته وجودها حتى قيام الثورة اليمنية في عام ١٩٦٢/١٣٨٢.

مؤسس الدولة الزيدية في اليمن هو الإمام "الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين"، أحد أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي جاء من "الرس"، بالقرب من المدينة المنورة، إلى صعدة في اليمن بناءً على دعوة تلقّاها من جماعة من أهلها[٨٥]، تقديراً منهم لآل البيت، وليقوموا، بناءً عليه، بانتخابهم له إماماً لدولتهم الزيدية التي أقاموها في منطقة صعدة منذ عام ٨٩٧/٢٨٤. تفاوتت حدود هذه الدولة حسب ضعفها وقوتها، بين الضيق والاقتصار على هذه المنطقة فقط أحياناً، وبين الاتساع خارجها حتى الوصول إلى الهيمنة على صنعاء نفسها في كثير من الأحيان. وكان من الطبيعي أن تشهد خلال مسيرتها الطويلة بدايات ونهايات كثير من الدول التي قامت في مناطق أخرى من اليمن، لفترات طويلة حيناً، وقصيرة في غالب الأحيان. وكانت أهمها قبيل التاريخ الحديث هي دولة بني طاهر التي قضت على دولة بني رسول عام ٨٥٨/ ١٤٥٤ في عدن، والتي لم تكتف بحكمها فقط، وإنما طمحت، كغيرها من القوى اليمنية الأخرى، إلى امتداد نفوذها إلى مناطق أخرى

تابعة للدولة الزيدية أو والمملوكية، ولتكون الصراعات الداخلية، وخاصة بين هذه الأطراف الثلاثة، السمة التي تلخّص أوضاع اليمن قبيل تاريخه الحديث[٨٦].

٤- **إقليم عمان قبيل تاريخه الحديث:** بالنسبة للحديث عن هذا الإقليم لا بدّ وأن يبدأ بالحديث عن المنطقة المهمة التي يقع فيها، أي الخليج العربي الذي عدّه البعض من الباحثين مهد البشرية والحضارة[٨٧]. تعددت الأسماء التي أطلقت على هذا الخليج منذ القديم، أي منذ تشكله نتيجة لتقدم مياه بحر العرب شيئاً فشيئاً على حساب اليابسة بسبب ذوبان الجليد في بداية العصور الدافئة نحو عشرة آلاف سنة قبل الميلاد[٨٨]، دافعاً بسكانها العرب القدماء من سريان وغيرهم إلى كلّ الاتجاهات، شمالاً وشرقاً وغرباً، ومنهم السومريون والفينيقيون والعيلاميون، ليستقروا حيث ذهبوا وليؤسسوا الحضارات الإنسانية القديمة، ومنها حضارة الصين ومصر، كما يؤكد قسم من الباحثين[٨٩]. من هذه الأسماء "أرض الله" و"أرض البحر"، و"الخليج العربي" و"الخليج الفارسي"[٩٠].

هاتان التسميتان الأخيرتان هما أشهر مسمياته المعروف بها في وقتنا الحاضر، وإننا إذ نؤكد، بمنطق الجغرافيا–السياسية المعاصرة، مشروعيتهما معاً، بحيث تعبّر تسمية "الخليج العربي" عن امتداد ساحله الشرقي العربي، وتعبر تسمية "الخليج الفارسي" عن امتداد ساحله الغربي الإيراني، فإننا نؤكد مع معظم المؤرخين حصر المشروعية التاريخية في تسمية الخليج العربي، لأنّ تسميته بالخليج الفارسي، وفق هؤلاء المؤرخين، قد أطلقها، خطأً، قائد أسطول الاسكندر (ALEXANDRE) المقدوني في جولته الاستكشافية البحرية في بحر العرب عام ٣٢٦ ق.م، لأنه لم يكن قد تعرف بعد على ساحله العربي الغربي، ولا على الوجود العربي الكاسح في ساحله الشرقي، بسبب توقفه صدفة عند بعض الموانئ الفارسية في جنوبه الشرقي[٩١]. ويؤكد معظم المؤرخين والمستشرقين عروبة هذا الخليج في الغالبية العظمى لسواحله، ومنهم الرحالة الألماني كارستن نيبور (NIEBUHR)[٩٢].

ولا تنفصل أهمية الخليج العربي عن أهمية خليج عمان المتصل به جنوباً عن طريق مضيق هرمز، لأن كلاً منهما يشكل استمراراً جغرافياً للآخر، وبالتالي فهما يشكلان معاً أحد العبور المهمة التي تربط بين الغرب والشرق عموماً، وبين المشرق العربي وبقية الشرق الآسيوي خصوصاً. من هنا أتت أهمية كليهما للتجارة الدولية، ومن هنا أتى بالتالي السبب الأساسي لاهتمام الدول الاستعمارية المبكر بهما، وحرصها على الهيمنة على بلدانهما، في كلّ من إقليم عُمان وإقليم البحرين، المعروفين بدورهما الفعّال والمستمر في هذه التجارة على مرّ العصور التاريخية، واللذين كانا ما زالا يحتفظان به في عشية تاريخهما الحديث. ونبدأ بالتعرف على أولهما في هذه العشية، أي إقليم عُمان(٩٣).

لم يصنف العرب هذا الإقليم منفرداً سابقاً، بعضهم، كالهمداني، جعله من اليمن كما رأينا، وبعضهم، كالحميري، جعله من العروض(٩٤). كان مسكوناً منذ قديم الزمان فكان اسمه "ماغان"، وكان من سكانه العمالقة(٩٥). سمي عُمان من عمن أي استقر. ويقال إن عرب اليمن المستوطنين فيه هم الذين أطلقوا عليه هذه التسمية استذكاراً لواد كانوا يسكنونه في اليمن، ويقال أيضاً إنه سمّي باسم شخص يدعى عُمان بن قحطان الذي استقر فيه بعد هجرته بعد انهيار سد مأرب(٩٦).

لإقليم عُمان ثلاثة مضامين جغرافية رئيسة تغيرت اتساعاً أو ضيقاً بتغير قوة وضعف حكامه: المضمون الأول الأوسع يشمل المنطقة الممتدة من قطر إلى حضرموت، ويسمى أحياناً بـ "عُمان الطبيعية". المضمون الثاني الأقل اتساعاً يشمل المنطقة الممتدة بين ساحل عُمان وبين الساحل الجنوبي للجزيرة العربية والممتد من رأس الحدّ إلى ما يجاور جزيرة مصيرة. المضمون الثالث الضيق يحصر إقليم عُمان بالقسم الداخلي وحده من هذه ا لمنطقة، مما يعني أنه لا يشمل لا مسقط ولا ساحل الباطنة أو المنطقة الواقعة بين الجبال والبحر. وأشهر مدن إقليم عُمان، عثمان ومسقط وصور ونزوى والرستاق الخ...

نحن سنلتزم بداية بالمضمون الأول لإقليم عُمان في امتداده من قطر إلى حضرموت، لأنه كان هو المضمون القائم قبيل تاريخه الحديث، وعلى أن تلتزم بالتغيرات التي كانت تطرأ عليه إثر انفصال كل منطقة عنه. إن موقع إقليم عُمان الاستراتيجي بين الخليج العربي شمالاً وبحر العرب جنوباً وخليج عُمان شرقاً، قد أكسبه، بالإضافة إلى قربه من الهند والشرق الآسيوي عموماً وغنى ثرواته وتنوعها، أهمية كبرى بالنسبة إلى التحكم بالطرق التجارية الدولية ما بين الشرق والغرب، وجعله بالتالي جزءاً مهماً من مسرح الصراع الدولي على طرق هذه التجارة في الوطن العربي.

بعد ثورات عديدة على الأمويين استطاع الإماميون الإباضيون(٩٧) تشكيل إمامة مستقلة لهم في عُمان ظلت تظهر وتختفي منذ عام ٧٤٦/١٢٩. وفي عام ١١٥٤/٥٤٩ ظهرت دولة بني نبهان التي لقب حكامها أنفسهم بالملوك، وحكموا قطر بالإضافة إلى عُمان. واستمر الصراع بينهم وبين الإباضيين الذين كانت إمامتهم قد عادت إلى الظهور منذ عام ١٤٢٩/٨٣٢، والذين كانوا مستمرين في ممارسة سلطاتهم في المناطق الجبلية، وفي تنظيم المعارضة ضدّهم. وكان أن استطاعوا استرجاع الهيمنة على حكم عُمان باستثناء الجبل الأخضر الذي بقي بأيدي بني نبهان الذين سرعان ما استرجعوا بدورهم هذه السيطرة على معظم عُمان، ولكن لفترة مؤقتة، حيث سيطر حكام هرمز على الساحل العُماني.

كان الإباضيون يتطلعون للتخلص من منافسيْن اثنيْن على حكم عُمان: أولهما بنو نبهان داخل عُمان وثانيهما حكام هرمز في ساحلها، فلجأوا إلى الاستعانة بعرب الجبور المسيطرين في البحرين عشية تاريخها الحديث، والذين كانوا في صراع دائم مع مملكة هرمز كما سنرى. وقد استطاع الإباضيون بفضل مؤازرتهم في أن يطردوا منها الملك النبهاني سليمان الذي كان مستمراً في جهوده لاسترداد الحكم. وكان من الطبيعي نتيجة لذلك أن يحلّ نفوذ بني جبر محلّ نفوذ حكام

هرمز في ساحل عُمان، وخاصة الشمالي في منطقتي الظاهرة والظفرة. ونجد من الضرورة الآن التعرف على مملكة هرمز وعلى أن نتعرف على بني جبر أثناء حديثنا عن إقليم البحرين.

يجب في البداية التمييز بين هرمز القديمة التي بناها ازدشير بايكان فيما بين عامي ٢٢٤م و ٢٤١م، على الساحل الفارسي، والتي اتسمت بالطابع العربي، نتيجة لعروبة حكامها ومعظم سكانها ولغتها الرسمية، وبين هرمز الجديدة التي بناها الأمير العربي بهاء الدين عام ٧٠٠/١٣٠٠، والتي كانت عربية في نشأتها تماماً[٩٨] وفي معظم سكانها وفي لغتها وحكامها وثقافتها، وأصبحت مركزاً "لأقوى تنظيم سياسي واقتصادي عرفته المنطقة"[٩٩] قبيل الاحتلال الأجنبي لها، سادت من خلاله على أغلب شبه جزيرة العرب، وكثير من فارس وكل سواحل الخليج العربي. واستمر دورها المهيمن أكثر من مئتي عام عرفت خلالها بأنها "جوهرة العالم"[١٠٠]، وأن "من يمتلكها يمتلك العالم بأسره"[١٠١]، ولقد تغنى بها الشعراء ومنهم الشاعر الإنكليزي ميلتون (MELTON)[١٠٢]، والآن ماذا عن إقليم البحرين؟

٥- إقليم البحرين قبيل تاريخه الحديث: كان يطلق تسمية واحدة هي "البحرين" على بلدان الساحل الشرقي للخليج العربي الممتدة من كاظمة في الكويت شمالاً إلى سواحل عُمان جنوباً، والشاملة لما يسمى اليوم الكويت وقطر والإحساء وجزر البحرين أو جزر أوال. وكانت مدينة القطيف هي عاصمة الإقليم في كثير من الأدوار التاريخية، وكان يطلق عليها أيضاً تسمية "الخط"[١٠٣]. ومن تسميات منطقة هذا الإقليم أيضاً: قصبة "هَجَر" و"الإحساء" والهفوف والعروض. "هجر" معناها الخصب، و"الإحساء" أو "الهفوف" معناها أرض الينابيع حيث يصل عدد الينابيع فيها إلى ١٦٣ ينبوعاً[١٠٤]. ويؤكّد البعض أنّها دعيت بالعروض لأنها تفصل ما بين تخوم فارس وبلاد العرب[١٠٥]، بينما يؤكّد البعض الآخر أنّ هذه الدعوة قد جاءت من أنها تفصل ما بين بلاد العرب والخليج العربي. ومضمون العروض بهذا

المعنى ينسجم مع مضمون المسمى الآخر لها، وهو "مجمع البحرين"، البحر العذب الذي كان يغطي منطقة الربع الخالي قبل التغيرات الجيوغرافية المذكورة في شبه جزيرة العرب، وما تزال بقاياه قائمة حتى يومنا هذا في أربع بحيرات متصلة جوفية، والبحر المالح الذي هو بحر الخليج العربي.

وبقي المضمون الجغرافي الواسع المذكور لهذه التسمية حتى القرن الثاني عشر/الثامن عشر، حيث بدأت حركة تفكك إقليم البحرين بالوضوح، ولتؤدي شيئاً فشيئاً إلى أن ينحصر في إطار أرخبيل ومجموعة جزر البحرين، أو جزر أوال. وأكبر هذه الجزر جزيرة البحرين وعاصمتها المنامة التي أطلق اسمها على اسم الجزيرة نفسها، وهناك المحرق وأم النعسان والسترة. ونحن سنتناوله بداية بمضمونه الواسع الشامل للكويت والإحساء وقطر وجزر البحرين، على أن نبين بعد ذلك كلّ تغيّر طرأ عليه نتيجة لانفصال وتجزئة مناطقه.

أبرز حكامه كانوا من بني جبر(١٠٦) الذين كانوا يدعون أيضاً ببني هلال، وقد بدأوا في ترسيخ وجودهم في منطقة الإحساء، ولم ينتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر حتى كانوا قد توصلوا إلى السيطرة على إقليم البحرين كله وبعض أقاليم نجد. وإن تعاظم نفوذهم هذا قد أشعل الصراع بينهم وبين حكام هرمز، هذا الصراع الذي لم يكن سوى صورة من صور النزاعات العربية المحلية التي كانت إحدى السمات الأساسية لأوضاع أقاليم شبه جزيرة العرب قبيل تاريخها الحديث، والتي كانت العامل الأول في ضعفها الذي أدّى إلى تزايد الأطماع الاستعمارية للسيطرة عليها في هذا التاريخ كما سنرى.

****

هوامش الفصل التمهيدي

[1]- انظر صلاح الدين الشامي وفؤاد محمد الصقار، جغرافية الوطن العربي الكبير، ١٩٧٠، ص١٧٨، وانظر محمد متولي، حوض الخليج العربي، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.

[2]- جواد علي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٤١-١٤٣.

[3]- انظر مناقشة هذا الرأي في المرجع نفسه، ص-٢٤٠-٢٤٦.

[4]- المرجع نفسه.

[5]- المرجع نفسه، ص٢٤٣.

[6]- المرجع نفسه، ص ٢٤٠-٢٤٦.

[7]- Cf. Hugo WINCKLER: Musri, Meluhha, Main, ed. In Berlin, 1898.

[8]- PLINY, Natural History, bk. V, ch. 21 and bk. V1, ch. 32.

[9]- راجع حول هذا الموضوع أحمد داوود، مرجع سابق، ومصطفى مراد الدباغ، الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام، بيروت، ١٩٦٣، جزء ٢، ص١٠٢، وشاكر مصطفى، العرب في التاريخ، دمشق، ١٩٩٥، ص ٨-٢٥.

[10]- شاكر مصطفى، مرجع سابق، ص ١٥.

[11]- سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، دمشق، ١٩٨٦-١٩٨٧،ص ٦١.

[12]- "توصل علماء بريطانيون وبرتغاليون في علوم الوراثة بجامعة "ليدز" البريطانية إلى اكتشاف مدوٍّ يُفيد بأن جميع أجناس العالم سواء كانوا أوروبيين أو أمريكيين أو صينيين أو هنودا وحتى الأسكيمو ينحدرون من أصول عربية. واستند العلماء في تأكيد اكتشافهم إلى أن خلايا أجسام كل أجناس العالم لديهم نفس "الميتوكوندريا' الموجودة في خلايا الجسم العربي، وهي المادة المسؤولة عن تكوين الطاقة في الخلايا"(انظر بعنوان: "أصول عربية لأجناس العالم" المواقع الإلكترونية المعنية بتاريخ ما بين ٥ و٩ شباط ٢٠١٢، ومنها www.mbc.net).

[13]- راجع بحثنا: "سوريا وصيرورة حدودها الجيو-حضارية والقومية(الاثنوغرافية)"(مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٧، صيف ١٩٩٩، ص ٨٩-١١٠).

[14]- انظر على سبيل المثال: بحوث الندوة العالمية حول تاريخ سورية والشرق الأدنى، منشورات جامعة حلب، ص٩٠، وفيصل عبد الله، مقدمة في علم الأكاديات ودور العرب فيه، دمشق،١٩٩٠، ص٧٦.

(١٥)- حول أن العربية هي أصل اللغات جميعها انظر كتاب عبد الرحمن البوريني، اللغة العربية أصل اللغات كلها، عمّان، ١٩٩٨. وكذلك كتاب تحية عبد العزيز إسماعيل المتخصصة في علم اللغات، بعنوان: اللغة العربية أصل اللغات، القاهرة، ونبيل الجنابي:"اللغة الإنجليزية أصلها اللغة العربية" (جريدة العرب اليوم، عدد ٤٠٦، ١٩٩٠)، و: Albert C. Baugh and Thomas Cable, History of the English Language, London, 1980.

(١٦)- انظر على سبيل المثال: Vicotr BERARD, Les Phéniciens l'Odyssée, Paris, Armand Colin, 1902-1903; Pierre ROSSI, La cité d'Isis l'histoire vraie des Arabes. Paris, 1976;

هناك ترجمة عربية له لفريد جحا، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٠، ولقد أعادت طباعته دار البشائر، دمشق، ١٩٩٦. وهي المعتمدة هنا. ولأهمية هذا المرجع فإننا نشير إلى النص الفرنسي ثم العربي أيضاً ضمن قوس. وراجع كتاب ول. ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى: الجزء الثاني من المجلد الأول، ترجمة محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة، ص٩-١٠، وفريد جحا، كتب أنصفت حضارتنا، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ١٩٧٧، ومونتغمري واط، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبة، ترجمة جابر أبي جابر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨١.

(١٧)- Cf. ROSSI, op. cit.

(١٨)- انظر على سبيل المثال: مؤلفات المسعودي ومنها كتاب الإشراف والتنبيه، طبع في مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، ١٨٩٣، وتاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، ط.٤، ١٩٨٣، جزء أول، ص٤٤-٤٥، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط.٤، ١٩٨٣، الجزء الأول، ص١٤٠-١٤٣، وأبو حنيفة الدينوري، من كتاب الأخبار الطوال، اختيار وتقديم يحيى عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٦، ص٤١.

(١٩)- راجع على سبيل المثال: مقررات ندوة لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق، حول مشروع كتابة هذا التاريخ (مجلة دراسات تاريخية، أعمال ندوة كانون الثاني ١٩٧٧) ومحمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، المطبعة العصرية، بيروت، ١٩٥٩، وطيب التيزيني، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، دار دمشق، ١٩٨٢، ص٤٢-٤٧، وأحمد داوود، مرجع سابق، وكتابه: تاريخ سوريا القديم تصحيح وتحرير، دار المستقبل، دمشق، ١٩٨٦،

ص٥٧٨-٥٩٩، ونبيه العاقل، الغرب وحضارة العرب"، (مجلة الثقافة العربية، طرابلس، شباط، ١٩٧٥، ص٣٣). وانظر بحثنا: "القومية العربية في تاريخنا القديم، الجذور والصيرورة"(مجلة المعرفة، دمشق، عدد ٣٥٦، أيار ١٩٩٣، ص٤٣-٧٦).

[٢٠])- انظر نعيم فرح، النظرية السامية مؤامرة استعمارية وصهيونية على العرب، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، دون تاريخ.

[٢١])- انظر سابقاً.

[٢٢])- انظر نجاح محمد: المتغيرات والنظام العالمي الجديد وسوريا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٥.

[٢٣])- خليل أحمد خليل، "الخيار الوحدوي العربي في ظلّ النظام العالمي الجديد" (مجلة الوحدة، الرباط، عدد٩٠، آذار ١٩٩٢، ص٨-١٥).

[٢٤])- يجب التمييز بين ظهور العولمة كواقع ملموس، وهو قديم قدم ظهور التجمعات البشرية، وبين ظهورها الاصطلاحي والذي هو حديث بدون شك. يقول أحد الباحثين: "العولمة ليست بشيء جديد، فهي بدأت منذ وعى الإنسان بوجود إنسان آخر يتعامل معه"(عبد المحسن العكاس، صحيفة الشرق الأوسط، بيروت، عدد ٧٠٩٣، تاريخ ١٩٩٨/٤/٣٠، ص٨).

[٢٥])- Cf. ROSSI, op. cit, pp. 145-195(155-207); Laffon MOUTLETS, Les Etapes du Capitalisme de Hammourabi à Rockfller, Paris, 1938; A.COLLING,Banque et Banquiers de Babilone a Wall-Street,Plon,1940.

[٢٦])- ف. كيللي وم. كوفالزون، المادية التاريخية، المدرسة العليا، موسكو، ١٩٦٢، ترجمة أحمد داوود، الطبعة الأولى، دار الجماهير، دمشق، ١٩٦٧، ص٢٣٢-٢٣٤.

[٢٧])- انظر هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، ١٩٥٩، ص ٩٤.

[٢٨])- انظر على سبيل المثال: فيليب حتّي وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب، طبعة ٦، دار غندور، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٠٢.

[٢٩])- انظر كمثال: آ. آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور القديمة، ترجمة عبد الهادي عبلة ومراجعة أحمد غسان سبانو، دمشق، ص ٨ و ١٦.

[٣٠])- عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٧.

[31])- آشتور، المرجع السابق، ص ٩١.

[32])- المرجع نفسه، ص ١١٣-١٣٥.

[33])- المرجع نفسه، ص ١٥٤.

[34])- المرجع نفسه، ص ٢٤٧-٢٤٨.

[35])- انظر المرجع نفسه، ص٣٧٨، وصبحي لبيب: "التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى"(المجلة التاريخية المصرية،القاهرة،مجلد٤، عدد٢،١٩٥٢، ص ٥-٦٤)

[36])- جواد علي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص٢١٠.

[37])- نميل إلى تسميتها حروب الفرنجة، وفق تسمية معظم المصادر العربية التي وعى أصحابها حقيقة هذه الحروب البعيدة كلّياً عن مبادئ المسيحية في المحبة والسلام وأدركوا أنّ شعارها الصليب ليس سوى قناع تجميلي لها ولأغراضها الاقتصادية والسياسية.

[38])- محمد عمارة، فجر اليقظة العربية، ط.٣، دار الوحدة، ١٩٨١، الجزء الأول، ص١٧٧.

[39])- آشتور، مرجع سابق، ص ٢٧٥ وما يتبع.

[40])- عادل زيتون، تاريخ المماليك، الطبعة الرابعة، جامعة دمشق، ١٩٩١-١٩٩٢، ص٩٧.

[41])- انظر لاحقاً.

[42])- Cf. Jean–Léon L’AFRICAIN: Description de l’Afrique, Paris, 1956, tom. I, n°. 235.

[43])- انظر عمارة، المرجع السابق، ص١٨٦-٢٠٣. وإن صفة التقدمية هي صفة نسبية متغيّرة في مضامينها وأشكالها بتغير الزمان والمكان، وكذلك الرجعية بالطبع.

[44])- آشتور، المرجع السابق، ص٣٧٢.

[45])- ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ص١٤٤، ابن طولون، مفاكهة الخلان، القاهرة، ١٩٦٢، الجزء الأول، ص٤١ و٤٤ و٤٥ و٢٤٩ و٢٩٢.

[46])- المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر محمد زيادة وجمال الدين شيال، القاهرة، ١٩٤٠، ص٧٠-٧٢.

[47])- راجع آشتور، المرجع السابق، ص٣٩٤-٤٢٣.

[48])- المرجع نفسه، ص٣٧٢.

[49])- سهيل زكار: تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي الثاني، طبعة خامسة، جامعة دمشق، ٢٠٠١-٢٠٠٢، ص ١٨٠.

(٥٠)– ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢، ص٤١.

(٥١)– نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨، ص٤٤.

(٥٢)– المرجع نفسه، ص٤٣. وانظر: L'AFRICAIN, op. cit., pp. 235-239; William MUIR: The Mameluke or Slave Dynasty, London, 1898, pp.190 et s.

(٥٣)– Aronld J. TOYNBEE: A Study of History, London, vol. 4, p. 5 .

(٥٤)– L'AFRICAIN, op. cit. p. 235-239.

(٥٥)– Sigrid HUNKE: Allahs Sonne uber dem Abendland Unser Arabisches Erbe,3.Auflage, Germany, 2002, 349(541).

ترجم إلى العربية بعنوان: شمس العرب تسطع على الغرب، دار الجيل، بيروت، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، الطبعة الثامنة، ١٩٩٣. ولأهمية هذا المرجع فإننا نشير إلى النص الألماني ثم العربي أيضاً ضمن قوس.

(٥٦)– سهيل زكار وشكران خربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، جامعة دمشق، ص ٣٦٦.

(٥٧)– HUNKE, op. cit. p. 426(401-402).

(٥٨)– Ibid, p.223 (398).

(٥٩)– Ibid, pp. 88-89(143).

(٦٠)– Gustav LE BON: "la Civilisation des Arabes" ,Paris, 1996, pp. 442(579). ويمكن مراجعة الترجمة العربية بعنوان"حضارة العرب"، ترجمة عادل زعيتر، ولأهمية هذا المرجع فإننا نشير إلى النص الفرنسي ثم العربي أيضاً ضمن قوس.

(٦١)– Ibid, p..349(458).

(٦٢)– واط، مرجع سابق ص ١٦٢.

(٦٣)– اصطلاح قومون يعني المدينة التي تتمتع بالاستقلال السياسي والحكم الذاتي وفقاً لقوانين وتنظيمات تخدم مصالح الطبقة التجارية، ويختار أهلها حكامهم وموظفيهم بأنفسهم مباشرة. (سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢، جزء ثاني، ص١٠٧، أو: H. PIRENNE: Medieval Cities, Princeton, 1939, pp. 171-172.)

(٦٤)– السياسة المركنتلية: ارتبطت بمرحلة تفسخ الاقطاع وقيام الثورة البرجوازية التجارية. وتتلخص بالعمل على تعزيز ثروة الدولة القومية التي تقاس بكمية العملة التي تمتلكها،

والتطلع بالتالي إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح، بمحاولة احتكار التجارة الخارجية الاستعمارية لصالحها القومي الوطني ولصالح شركاتها ذات الامتياز، وإلى حماية الاقتصاد المحلي من المزاحمة الأجنبية، وإلى التجارة بأدوات وطنية لتعزيز الصناعة المحلية. إنّ نظام المركنتلية هو النظام المانع، أي المقتصر على صاحبه بكلّ الفوائد.

(٦٥)- راجع الصباغ، تاريخ العرب...، ص ٥٥-٧٣، ونجاح محمد، تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق)...ص ٦٥-٦٦، و: Paul WITTEK, The Rise of Ottoman Empire, London, 1938.

(٦٦)- انظر لاحقاً.

(٦٧)- سميت هكذا لأنها كانت تضع صورة الشاة السوداء على أعلامها (انظر عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، بيروت، دون تاريخ، ص٦٥-٦٨).

(٦٨)- سميت هكذا لأنها كانت تضع صورة الشاة البيضاء على أعلامها(المرجع نفسه).

(٦٩)- راجع عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، إيران، ١٩٣٩، جزء ٣، ص٣٢٧، (نقلاً عن: لب التواريخ، للمؤرخ الفارسي الصفوي أبي الفتح بهرام ميرزا الحسني الصفوي). وإن لقب "الأسياد" يطلق على من كان متحدراً من سلالة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، بينما يطلق لقب "الأشراف" على من كان متحدراً من سلالة أخيه الحسن.

(٧٠)- انظر حسن كريم الجاف، موسوعة تاريخ إيران السياسي، الدار العربية للموسوعات، بغداد، ٢٠٠٨/١٤٢٨، ص ١٣-١٤.

(٧١)- عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٧٢)- جواد علي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص٢٥٦.

(٧٣)- حسين بن غنام، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والإفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، تحقيق ناصر الدين الأسد، القاهرة، ١٩٦١، جزء ١، ص٥-١٣.

(٧٤)- ياقوت الحموي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٠٢.

(٧٥)- الأشراف هم نسل الحسن بن أبي طالب كرّم الله وجهه. حول إقليم الحجاز قبيل تاريخه الحديث راجع جمال الدين بن ظهيرة، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ١٩٣٨، ص٣٠٥-٣٢٥. ومحمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما فيها من الآثار، نشر وستنفلد، ليبزج، ١٨٥٨، ص٢٠٥-٣٤٣. وأحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام، مصر، ١٣٠٥هـ، ص١٦-٤٨، وانظر:

Gerald de. GAURY: Rulers of Mecca, London, 1951, pp. 54-95.

(٧٦)- خليل أحمد، مرجع سابق، ص ٧١.

(٧٧)- الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب،تحقيق محمد لاكوع،بيروت،١٩٧٤، ص٥٩.

(٧٨)- الحسن بن عبد الله الأصفهاني، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، ١٩٦٨، ص٣٣٦.

(٧٩)- حول نجد قبيل تاريخها الحديث راجع: حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الجزيرة العربية في عصر محمد بن عبد الوهاب، طبعة ٣، بيروت،١٩٧٢، ص٣٧-٣٨، وإبراهيم جمعة، الأطلس التاريخي للدولة السعودية، دار الملك عبد العزيز، ١٣٩٢/١٩٧٢، ص١٢-٢١. وابراهيم فصيح البغدادي، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، منشورات البصري، بغداد، ١٢٨٦هـ، ص٢٠٧-٢٠٨، وسنت جون فيلبي، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تعريب عمر الدسراوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٤، ص١١-١٥.

(٨٠)- انظر المرجع نفسه، وعبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٧.

(٨١)- عثمان بن بشر النجدي، عنوان المجد في تاريخ نجد، الطبعة الأولى، المطبعة السلفية، مكة، ١٣٤٩هـ، الجزء الأول، ص١٦، وانظر لاحقاً.

(٨٢)- البكري، المصدر السابق، الرابع، ص١٤٠١.

(٨٣)- ياقوت الحموي، مصدر سابق، جزء ٥، ص٤٤٧، والهمداني، المصدر السابق، ص٦٥.

(٨٤)- الزيدية نسبة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وتؤمن بانتخاب الإمام فيها على أساس الشورى والاتصاف بمناقبية القيم المتمثلة في أربع عشرة صفة، منها وجوب كونه عاقلاً حراً مجتهداً علوي النسب عدلاً ورعاً إلخ... وباب الاجتهاد في الزيدية مفتوح(انظر حول الزيدية: حسين بن أحمد العرشي، بلوغ المرام في شرع مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مخطوطة حققها ونشرها الأب ا.م.الكرملي، القاهرة، ١٩٣٩، ص٣٢-٤٠، وسالم، المرجع السابق، ص٢٢-٢٧، ومحمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٢).

(٨٥)- سالم، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٨٦)- حول اليمن في عشية التاريخ الحديث راجع: أحمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٥٧،، وأحمد فاضل بن علي بن

محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج واليمن، القاهرة، ١٣٤١هـ، والقاضي حسين بن أحمد، بلوغ المرام في شرح مسك الختام حتى ١٣١٨/١٩٠٠، القاهرة، ١٩٣٩.

(٨٧)- انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٦٢، والدباغ، المرجع السابق، ص١٠٢.

(٨٨)- راجع متولي، المرجع السابق، وراجع أيضاً:

G. M. LEES and N. L. FALCON: "The Geographical History of the Mesopotamian Plain":(Geographical Journal, vol. CXVIII, 1952 pp.24-39).

(٨٩)- جمال زكريا قاسم: دراسة لتاريخ الإمارات العربية لـ ١٨٤٠-١٩١٤، الطبعة الثانية، دار البحوث العلمية، الكويت،١٩٧٤، ص١. وانظر مؤلفي داوود حول تاريخ سوريا القديم، مرجعان سابقان.

(٩٠)- خالد العربي، الخليج العربي في ماضيه وحاضره، بغداد، ١٩٧٢، ص١٤، وزاهية قدورة، شبه الجزيرة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ص٩٥.

(٩١)- Cf. G. G. BEREBY: Le Golfe Persique, Paris, 1959, p. 190.

وانظر قلعجي، المرجع السابق، ص٩.٨.

(٩٢)- حول عروبة الخليج العربي بكلّ سواحله تاريخياً راجع على سبيل المثال: قاسم، الخليج العربي...، ص٢٥-٢٧. وقلعجي، مرجع سابق، ص٩.٨، وسعدون البدر، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، الكويت، ١٩٧٤، ص٢١-٢٢، وجاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، الرياض، بدون تاريخ، ص١٦٦، و:

Roderic OWEN, The Golden Bubble, Arabian Golf Documentery, London, 1957, p. 13; Carsten NIEBUHR, Travels through Arabia and other Countries in the East, London, 1972, vol. II, p. 103.

(٩٣)- حول إقليم عُمان في عشية تاريخه الحديث انظر أحمد قاسم البوريني، الإمارات السبع على الساحل الأخضر، بيروت، ١٩٧٥، ص٩٧-١٠٣، وعُمان الإمامية، منشورات مكتب إمامة عُمان في القاهرة، ١٣٧٥هـ، ص١١-١٣. وانظر:

Arnold WILSON, The persian Gulf, London, 1945, pp. 80-82.

(٩٤)- محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥، ص٤١٢-٤١٣.

(95)- مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، الجزء الثاني، ١٣٠-١٣١.

(96) نور الدين عبد الله حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة آل عُمان، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

(97)- نسبة إلى عبد الله بن إباض الذي خرج على عبد الملك بن مروان ثم مروان الثاني ومات في ثورته هذه الأخيرة في عام ١٤٦هـ. يرفض الإباضيون، مثلهم مثل الزيديين، النظام الوراثي للإمامة ويقولون مثلهم بالاجتهاد تحت عنوان "الرأي"، وبمناقبية الإمام وبانتخابه شورياً من قبل زعماء الأمة وشيوخ العشائر وكبار رجال الدين، (انظر: عائشة السيّار، دولة اليعاربة، دار القدسي، بيروت،١٩٧٥، ص١٠٦-١٢٧، وعمارة، تيارات... وعلي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، المذهب الإباضي، القاهرة ١٩٢٤).

(98)- قاسم، الخليج العربي...، ص٥٢-٥٧، والسيّار، المرجع السابق، ص١٩-٢٢.

(99)- انظر قاسم، الخليج العربي...المعطيات السابقة نفسها.

(100)- WILSON, op. cot., p. 108.

(101)- دونالد هولي، عُمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي، مؤسسة ستايس الدولية، لندن، بدون تاريخ، ص٢٦.

(102)- انظر صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو . المصرية، ١٩٧٤، ص ١٠، وهولي، مرجع سابق، ص ٢٦.

(103)- محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ط.٢، بيروت، دون تاريخ، ص٢١.

(104)- أبو منصور محمد الأزهري، تهذيب اللغة، القاهرة، ١٩٦٤، جزء٥، ص ١٦٩.

(105)- ياقوت الحموي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٥٠٦.

(106)- حولهم وحول إقليم البحرين عشية تاريخه الحديث انظر فاروق عمر، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، طبعة ٢،دار واسط، بغداد، ١٩٨٥، ص٢١٢-٢١٥، وعبد اللطيف حميدان، "التاريخ السياسي لإمارة الجبور" (مجلة آداب البصرة، العدد ١٦، ١٩٨٠).

****

Damascus University

الجزء الأول

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث

(٨٩٣/١٤٨٨- ١٢٥٧/١٨٤١)

Damascus University

جامعة دمشق
Damascus University

مدخل عام

نجد من الضروري أن نبيّن أننا قمنا بتقسيم هذا الجزء الأول، المخصّص لدراسة التاريخ الحديث لشبه جزيرة العرب، إلى ثلاثة أقسام رئيسية: **القسمان الأول والثاني مخصصان لدراسة تاريخها السياسي، والقسم الثالث مخصّص لدراسة تاريخها الحضاري**. يفصل بين القسمين الأول والثاني حدث هام محوري هو تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/ ١٧٤٥. وبينما يتناول القسم الأول شبه جزيرة العرب في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث، الممتدة منذ بدايته مع اكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨/٨٩٣ إلى حدث التشكّل هذا، فإنّ الثاني يتناول شبه جزيرة العرب في المرحلتين الثانية والثالثة من تاريخها الحديث، الممتدة من هذا الحدث إلى نهاية وجود محمد علي فيها ونهاية دولته العربية النهضوية عام ١٨٤١/١٢٥٧.

ويتضمن كلّ من القسم الأول والقسم الثاني فصلين: الأول مخصّص لدراسة أقاليم وسط وغربيّ شبه الجزيرة العربية بتسلسل فرضته طبيعة الأحداث والصلات بينها (الحجاز ونجد ثمّ اليمن)، والثاني مخصّص لدراسة إقليمي شرقيّ شبه الجزيرة العربية (عمان والبحرين). أما القسم الثالث فيتضمن فصلاً مخصصاً للتاريخ الحضاري لشبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث، إضافة إلى خاتمة الجزء الأول.

ولقد حاولنا قدر الإمكان أن يكون هناك توازن في عدد صفحات الفصول، لكّننا لم نوفق بذلك دائماً لاختلافٍ في خصوصية أحداثها التي علينا أن نلتزم باختيار أكثرها أهمية وفائدة معرفية وقيمية ومهاراتية، وفق مفردات المقرر ومفهوم المعايير العلمية الوطنية الذي أقرته وزارة التعليم العالي وأخذنا به، وهو مفهوم من الضروري أن يستوعبه أبناؤنا الطلبة ليعرفوا ما لهم وما عليهم[١]. ونبدأ بالطبع بالقسم الأول في فصله الأول.

القسم الأول

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث
في المرحلة الأولى الممتدة من اكتشاف البرتغاليين
لطريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨/٨٩٣ حتى
تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨

Damascus University

الفصل الأول

شبه جزيرة العرب والمتغيرات الدولية والعربية والإقليمية والمحلية العامة في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث

(٨٩٣/١٤٨٨-١١٥٨/١٧٤٥)

المحتويات:

أولاً)- حول إشكالية بداية تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث ونهايته.

ثانياً)- المكتشفات الجغرافية وبداية التاريخ الحديث:

I - مقدمات وعوامل المكتشفات الجغرافية.

II - المكتشفات الجغرافية: أحداث ونتائج.

ثالثاً)- المتغيرات الدولية والعربية والإقليمية والمحلية لشبه جزيرة العرب في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث(٨٩٣/١٤٨٨-١١٥٨/١٧٤٥):

I - متغيرات دولية وعربية وإقليمية ومحلية عامة.

II - شبه جزيرة العرب والصراع الدولي في الخليج العربي في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث.

****

أولاً)- حول إشكالية بداية تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث ونهايته:

أشرنا في المقدمة أنّ تحديد بداية التاريخ الحديث لشبه جزيرة العرب ونهايته هو مرتبط بالضرورة بتحديد بداية التاريخ العربي الحديث ونهايته ككلّ، وأكدنا أنّ المعيار في تحديد أي حدث فاصل، كبداية أو كنهاية لعصر أو لتاريخ ما، يجب أن يكون مدى أهميته المحورية على صعيدين، على صعيد متغيرات الواقع القومي العام للأمة أولاً، وعلى صعيد متغيرات الواقع الإنساني العالمي ثانياً، وأنّ سبب وجود الإشكالية في هذا التحديد يكمن في الاختلاف حول تحديد هذا الحدث. وقبل

بيان رؤيتنا، حول تحديد حدثي بداية التاريخ العربي الحديث ونهايته[٢]، نرى أن نذكّر أولاً بأنّ الحدث لا يتم فجأة وإنما يرتبط جدلياً بما قبله وبما بعده، وأنّ حامله الزمني بالتالي لا يتحدد في معظم الأحيان بيوم ظهوره وإنما بالفترة الزمنية المتضمنة وضوح عوامل ومظاهر وجوده المحورية. وأن نذكّر ثانياً بأن العامل الأساس في صنع حدث تاريخي هو نتاج فعل وتفاعل مجموعة العناصر المادية–الروحية، المهيمنة في داخل كلّ أمة وفي محيطها الدولي. ونرى أن نذكّر ثالثاً بأن المتغيرات العالمية هي التي تصنع الأحداث الفاصلة بين العصور على المستوى العالمي، وهي نتاج جدلية العلاقات والصراعات الدولية بين الدول والأمم، والتي تتحكم بها المصالح السياسية والاقتصادية بالدرجة الأولى، في استغلالها للمعطيات الثقافية، الدينية وغير الدينية، والتي لا تشكل سوى أدوات تابعة لها وموظفة في خدمة أغراضها الاستراتيجية والتكتيكية[٣].

ونرى أن نذكّر أيضاً أنّ الإشكالية المذكورة حول تحديد حدثي البداية والنهاية لتاريخ العرب الحديث ومنه تاريخ شبه الجزيرة العربية، متعلقة، بالدرجة الأولى، باختلاف معيار هذا التحديد باختلاف مرجعيات الأنظمة المعرفية–القيمية للباحثين، والتي تدور في فلك توجهين أساسين اثنين، أولهما قومي عروبي تحرري نهضوي بمختلف اتجاهاته ومنها الإسلامية، وثانيهما عثماني إسلاموي[٤]، أو قوموي.

استناداً إلى كلّ ما تقدّم، وبعد الدراسة المقارنة بناءً على هذين المعيارين، تمّ استبعاد وجهة نظر مرجعية الاتجاه العثماني الإسلاموي أو القوموي المنطلق من الفهم الخاطئ لكلّ من الإسلام والقومية العربية وللصلة بينهما، إما لرؤية قاصرة عن إدراك حقيقة كلّ منهما وإدراك ارتباط مضمونهما الإنساني الحضاري التكاملي، أو لغايات تآمرية معادية للعرب ولقوميتهم وتريد طمس وحجب أية صلة أو فكرة لصالح وجودهم القومي. تمثلت هذه الرؤية في تحديد حدث بداية التاريخ العربي الحديث على أنه فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣/٨٥٧، وفي تحديد حدث نهايته على أنه نهاية الخلافة الإسلامية على يد أتاتورك عام ١٩٢٤/١٣٤٣، وهما

دون شك حدثان هامان بالنسبة للعالم الإسلامي، وخاصة لتركيا، ولكن كان هناك من الأحداث الأخرى ما هو أكثر أهمية بالنسبة للوطن العربي كما سنرى من خلال مناقشتنا لوجهات نظر مرجعية الاتجاه القومي العروبي التحرري النهضوي.

فيما يخصّ رؤية هذا الاتجاه القومي، بمختلف مرجعياته الفكرية بما فيها الإسلامية، حول حدث البداية في التاريخ العربي الحديث، نبين الآتي: لقد اسْتُبْعِد حدث سقوط غرناطة عام ١٤٩٢/٨٩٧، آخر معاقل العرب في الأندلس، الذي هو فعلاً حدث هام ولكنه لم يكن الحدث الأكثر فصلاً وحسماً على المستوى الدولي والعربي. واسْتُبْعِد حدث معركة مرج دابق عام ١٥١٦/٩٢٢ لأنّ أهميته محصورة بكونه بداية للحكم العثماني في بلاد الشام فقط، وليس في كلّ بلدان الوطن العربي، ولم يكن لهذا الحكم أي وجود في مراكش أو وبعض بلدان شبه جزيرة العرب.

وَوُجِد أنّ كلاً من وجهتي النظر المتبقيتين، سواء في اعتبار فترة الاحتلال الأجنبي في بداية القرن السادس عشر، أو فترة المكتشفات الجغرافية ومنها اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨/٨٩٣ وللطريق منه إلى الهند في عام ١٤٩٨/٩٠٤، كفترة لحدث البداية في التاريخ العربي الحديث، معقولة جداً من حيث أهمية انعكاسات كلّ منهما على المستوى العربي والعالمي. ولكننا نرى أنّ الثانية هي الأصح، وخاصة بالنسبة لشبه الجزيرة العربية، من حيث أنّ فترة هذا الاكتشاف كانت الفترة الأكثر حسماً وفصلاً بما حملته من متغيرات جوهرية على المستوى القومي والعالمي، وعمّت انعكاساتها الخطيرة كلّ الوطن العربي والعالم الإسلامي، كما سنرى. ولأن كشف البداية فيها هو رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨/٨٩٣ فقد تمّ اعتماده كبداية للتاريخ الحديث.

ونعتقد، فيما يخصّ تحديد حدث النهاية لتاريخ العرب الحديث، بخطأ رؤيته في حدث الحملة الفرنسية عام ١٢١٣/ ١٧٩٨، إذ هو هام بالنسبة لمصر، ولسوريا نسبياً، وليس بالنسبة لغيرهما، ودوره، في جانبه الثقافي الجزئي، كأحد

عوامل النهضة العربية قد يكون مؤثراً ولكنه محدود. ونرى خطأ وجهة النظر الثانية التـي تحدده فـي حـدث الثـورة العربيـة فيمـا بـين ١٣٣٥-١٣٣٧/١٩١٦-١٩١٨، لأنـه، رغم أهميته الكبيرة، فقد جاء متأخراً جداً، وأنهى الحكم العثماني في بعض بلدان المشرق العربي التي كانت مازالت خاضعة له وليس كلّها. ونرى صحة وجهة النظر التـي تـراه فـي حـدث دولـة محمـد علـي العربيـة النهضـوية فيمـا بـين عـامي ١٢٢٠/١٨٠٥ و١٢٥٧/١٨٤١، من حيث أنّ الدور الهام والفاعل الذي لعبته على المستوى الـدولي والعربـي، قـد جعلهـا حـدث البدايـة لعصـر جديـد، عصـر اليقظـة العربيـة النهضـوية التـي بهـا ارتـبط التـاريخ العربـي المعاصـر وجودياً كمـا سـنرى، وحدث النهاية بالتالي للتاريخ العربي الحديث، ومنه تاريخ شبه جزيرة العرب، مما يبرر لنا اعتماد نهايتها عام ١٢٥٧/١٨٤١ كنهاية لهذا التاريخ.

ثانياً)- المكتشفات الجغرافية وبداية التاريخ الحديث:

I - مقدمات وعوامل المكتشفات الجغرافية:

رأينـا كيـف تضـافرت عوامـل التـاريخ والجغرافيـا لتضـع علـى عـاتق العـرب منـذ القـديم مهمـة التجـارة العالميـة، فكـان أن تشـكلت أول طبقـة رأسـمالية تجاريـة علـى المستوى العالمي[٥]. ويؤكّد الباحث عمارة أنّ هذه الطبقة لم تكن "مجرد وسيط دولـي يقـوم بتوصـيل التجـارة مـن الشـرق إلـى الغـرب مقابـل عمولـة أو رسـوم، لأن هـذه الوظيفة كانـت مـن شـأن جهـاز الدولـة العربيـة لا مهمـة التجـار كطبقـة، وإنمـا كـان للتجار العرب جاليات كبيرة تحترف التجارة، وتقيم المستعمرات وتسكنها وتعمرها على الشاطئ الشرقي لأفريقيا والشاطئ الغربي للهند، وفي مختلف الجزر الهندية، وفي المدن التجارية بالصين، وأيضاً في قلب أفريقيا، كما كانوا عماد تلك القوافل التي تتحرك وتجوب تلك المنطقة الكبيرة من الشرق إلى الغرب، وبالعكس، ومن الشمال إلى الجنوب، وبالعكس. وهم أيضاً كانوا بيوت التأمين على هذه القوافل، وأصحاب الخانات (الفنادق) والمحلات العامة والمتاجر، وما يرتبط بها من أعمال

ومهام. وأيضاً كانوا هم القابضين على التجارة الداخلية المنتشرة في طول البلاد وعرضها، وهم الذين أقاموا المعارض والأسواق التجارية منذ ما قبل الإسلام"[٦].

ولم يكن عمرانهم العالمي في ظل الدولة العربية، في مراحلها المختلفة في العصور الوسطى، سوى استمرار لعمرانهم في ظلّ دول عرب سوريا وبابل ومصر واليمن ودول بقية شبه جزيرة العرب في العصور القديمة، وكذلك بالتالي هيمنتهم العربية التجارية العالمية قديماً ووسيطاً، من اليابان والجزر الهندية شرقاً إلى أميركا غرباً[٧]. وكما نشر التجار العرب القدماء الثقافة العربية الحضارية في العصور القديمة، بما فيها نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلومها وآدابها وفنونها وفكرها الفلسفي وأديانها، ومنها ديانة عشتار وتوحيدية موسى وعيسى، فقد استمرّ التجار العرب في نشر هذه المعطيات في العصور الوسيطة، إضافة إلى رسالة الإسلام وثقافته بالطبع. ويؤكد الباحثون الدور الكبير الذي لعبه هؤلاء التجار، وخاصة أولئك الذين تدفقوا من قواعد الخليج العربي وثغوره ومن حضرموت وبقية الجنوب اليمني، في نشر الإسلام بحيث شكلوا "النواة الأولى لانتشاره وذيوعه، وعنها انبثقت هذه الكتلة الإسلامية الكبرى المنتشرة في آسيا وأفريقيا"[٨].

ورأينا سابقاً أنّ من أبرز تجليات متغير النهضة الأوروبية، سبباً ومظهراً ونتاجاً، كان تصاعد نمو البرجوازية الأوروبية في جميع الميادين، لتصل قوتها إلى درجة سمحت لها بالتطلع إلى تحقيق الحلم الأوروبي في فرض هيمنتها على التجارة الدولية كبديل عن هيمنة البرجوازية العربية، وفي فرض سيطرتها على ثروات الوطن العربي وخيرات "الشرق" عموماً، والذي وكما كان الدافع الأساسي لهجمات الفرنجة، المسماة خطأ بـ"الصليبية"، فقد كان الدافع الأساسي والمحرك أيضاً للهجمات الأوروبية بعدها في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، ممثلة بهجمات القوتين البارزتين آنذاك، أي البرتغال وإسبانيا، والتي ارتبطت بالتطلع إلى تحقيق "حلم أوروبا الاقتصادي الأكبر في الوصول إلى بلاد الهند والحصول على التوابل والذهب فيها دون الوسيطين العربي والبندقي

والمسيطرين آنذاك على تجارة الشرق"[٩]، فكان نجاحهما بالمكتشفات الجغرافية كما سنرى. وكان من الأحداث التي أسهمت بدرجة كبيرة في هذه المكتشفات، إن كعوامل أو كنتائج، خمسة أحداث متزامنة وهامة جداً:

الحدث الأول كان بروز مظاهر الضعف والانحدار في الواقع العربي ككلّ، ومنه شبه جزيرة العرب، واعتبر هذا الحدث لأهميته المتغير العالمي الأول قبيل بداية التاريخ الحديث، كما رأينا.

الحدث الثاني كان الأزمة الاقتصادية التي أخذت أوروبا الغربية تعانيها في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي، والتي ارتبطت بنقص الذهب فيها بخاصةٍ.

الحدث الثالث، والمرتبط ببروز القوة العثمانية، كان نجاحها في فرض نفوذها في شبه جزيرة القرم عام ٨٨٠/١٤٧٥، وفي ضمان تعاون الأرستقراطية التترية فيها بالتالي معها، مما ساعدها على القضاء على النشاط التجاري لبرجوازية جنوة في البحر الأسود وعلى احتلال محطاتها التجارية في بحر ايجة رغم اتفاقيتها التجارية معها وتبعيتها إليها[١٠]، وكانت جنوة الوسيطة لتجارة الأوروبيين مع الهند والشرق الأقصى عموماً، وخاصة فيما يتعلق بـ"طريق الحرير" من الصين إلى البحر الأسود. وكان أن زاد الشعور لدى البرجوازية الأوروبية بالحاجة إلى البحث عن طريق جديدة إلى الهند لا تكون تحت هيمنة العرب والمسلمين.

الحدث الرابع تمثل بالضغوط المستمرة لبرجوازية جنوة في دفع أوروبا إلى تحقيق حلمها المذكور، بسبب تطلعها بالدرجة الأولى إلى التخلص من احتكار منافستها البندقية لمعظم التجارة الغربية، كوسيطة لحليفتها البرجوازية العربية.

الحدث الخامس كان تصاعد السياسة الاحتكارية للفئات المملوكية الحاكمة في سوريا–الشام ومصر والحجاز واليمن، والتي كانت تستغلّ الهيمنة العربية العالمية على التجارة الدولية ونظامها العالمي لزيادة ثرواتها الخاصة. فكانت النتيجة مزيداً من الانحدار الاقتصادي على المستوى العربي، ومزيداً من الغلاء على المستوى

الأوروبي وخاصة في أسعار البهارات، مما زاد في شعور البرجوازية الأوروبية بالحاجة الملحة إلى البحث عن سبيل للتخلص من الهيمنة العربية والاحتكار المملوكي. وكانت هذه الحاجة تزداد بازدياد نمو هذه البرجوازية عموماً في الواقع الإنتاجي الأوروبي، منذ نجاحها بدءاً في فرض السياسة الاقتصادية المركنتلية لصالحها، وإلى أن توصلت إلى تحقيق الانسجام بين طموحاتها من جهة، وبين طموحات دولها وملوكها ذوي السلطة المطلقة من جهة أخرى، في التوسع والهيمنة التجارية والسياسية، إن على مستوى الداخل أو الخارج، فكان أن بدأت الخطوات الجدّية لتلبية هذه الحاجة ولتحقيق الحلم الأوروبي من جديد. استغلت البرجوازية الأوروبية الغربية، إلى حدّ كبير، جميع الأحداث المذكورة من أجل تصعيد نقمة الزعامات الأوروبية، الدينية البابوية والزمنية الحاكمة، وإثارة ردّ الفعل الشعبي الأوروبي العدائي ضد العالم الإسلامي بشكل عام، وضدّ المركز المهيمن فيه، أي الوطن العربي، بشكل خاص، طبعاً باسم الدين أو "الصليب" كعادتها آنذاك.

II – المكتشفات الجغرافية: أحداث ونتائج:

كانت البداية، في تحقيق الحلم الأوروبي، كما رأينا، البحث عن طريق إلى الهند لا يكون تحت هيمنة العرب ووكلائهم البنادقة[11] الذين كانوا بمثابة الوسيط بينهم وبين المستهلكين في الغرب الأوروبي. ونرى أن نبين هنا بأن التجارة البحرية ما بين الشرق والغرب كانت منذ القديم تسلك أحد الطريقيْن البحرييْن: إمّا طريق البحر الأحمر، أو طريق الخليج العربي، وكلاهما في بلاد العرب وتحت هيمنة تجارها. وهذا البحث عن الطريق الجديد بعيداً عن الهيمنة العربية أخذته كل من إسبانيا والبرتغال على عاتقها. وكان أن توصلت إسبانيا بين عامي ١٤٩٢/٨٩٨ و١٥٢٢/٩٢٩ إلى اكتشاف أمريكا، ثم كشف الطريق إلى الهند عبر الأطلسي، بينما توصلت البرتغال إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨/٨٩٣، وبعد ذلك استطاع المكتشف البرتغالي فاسكو دي غاما(Fasco De GAMA) أن يجتازه إلى الشاطئ الشرقي من إفريقيا، حيث وجد والبرتغاليون معه أنّ العرب

المسلمين قد أوجدوا على هذا الساحل، من منطقة موزمبيق حتى القرن الإفريقي، دول مدن مزدهرة حضارياً، مثل مدينة مسمبيج، وكلوة، وماليندي، وزنجبار، وممباسا، وبراوة، ومقديشو، وغيرها[١٢]. وفي ماليندي تمّ لقاء المستكشف البرتغالي فاسكو دي غاما مع الملاح العربي المسمى ابن ماجد، والذي أسفر عن قبوله، وهو سكران، بأن يكون دليله إلى كاليكوت على سواحل الهند الغربية[١٣] في عام ١٤٩٨/٩٠٤. وتبيّن الدراسة العلمية أنّ ابن ماجد هذا لا يقصد به الملاح العربي الشهير الذي كان أكبر علماء الملاحة والبحار آنذاك، شهاب الدين أحمد بن ماجد، من حيث أنّه كان خارج هذا الحدث بحكم سنّه الكبير وصفاته الجليلة، مما يعني خطأ الخلط بينهما في كثير من المراجع[١٤].

مما تقدم، نرى من الضروري لفت النظر إلى حقيقة تاريخية هامة، وهي أنّ هذه المكتشفات جديدة بالنسبة لأوروبا وليس بالنسبة للعرب الذين كانوا يعرفونها منذ آلاف السنين[١٥]، وكانت المعرفة الوحيدة التي احتكروها لأنفسهم ليضمنوا استمرار هيمنتهم وبقاء نظامهم الاقتصادي العربي العالمي. وكان من الطبيعي نتيجة للكشف الأوروبي هذا، إضافةً إلى كلّ الأحداث والمتغيرات التي رأيناها، أن ينهار هذا النظام الذي من خلاله مارس العرب طوال العصور الوسطى هيمنتهم الاقتصادية والحضارية حيث شكلوا، وكما يؤكد معظم الباحثين: "إمبراطورية عظمى لم تبلغها أمم من بعدهم، وقدّموا نموذجاً لنظام دولي أحادي كان يتعرض لخروقات وتمزّقات وغزوات وحروب، إلاّ أنّه كان قائماً بوجهيّه السياسي– الاقتصادي والاجتماعي–الحضاري"[١٦].

طبعاً كان لمتغير المكتشفات الأوروبية العالمي نتائج هامة أخرى كثيرة، منها اتساع دائرة الاتصال الحضاري بين أوروبا والعالم، والإثبات العملي لكروية الأرض، ومنها في داخل أوروبا على الصعيد السياسي كان ازدياد سلطة الملوك المطلقة، وبروز قوة كلّ من إسبانيا والبرتغال. وكان أبرزها على الصعيد الاجتماعي انتشار تجارة الرقيق من أجل الحصول على الأيدي العاملة في "العالم

الجديد"، أمريكا، نتيجة للقضاء على معظم سكانه الأصليين، والحاجة إلى مزيد من هذه الأيدي في القطاع الاستثماري المتنامي فيه.

ولكن الأهم من النتائج في أوروبا والوطن العربي والعالم كان نجاح البرتغاليين، الذي اتسم صراعهم مع العرب والمسلمين عموماً "بنزعات غير إنسانية وتعصب ديني صارخ"[١٧]، باحتكار تجارة الشرق عموماً والتوابل خصوصاً بعد إبعاد العرب عنها، عن طريق إرغام أمراء الهند على طردهم ورفض التعامل معهم تجارياً، أولاً، وعن طريق ممارسة القرصنة ضدّ سفنهم وتجارهم وإرهابهم بكل وسائل العنف والقسوة التي اتصفت ، ثانياً، وعن طريق توجهها لاحتلال مراكزهم حتى في بلدانهم، ثالثاً. وكان أن أصبح البرتغاليون "الوسطاء لهذه التجارة بدل سكان جزيرة العرب والسوريين"[١٨]، وانتهى بذلك ما كانت تعيشه منطقة الخليج العربي من "عصر ذهبي في الملاحة والتجارة"[١٩].

وعليه تكوّنت بداية النهاية في الهيمنة البرجوازية العربية على التجارة الدولية، وبالتالي في النظام العالمي العربي-الإسلامي الإعماري لصالح بداية النظام العالمي الغربي الأوروبي الاستعماري[٢٠]، إذ أنتجت ثورة في تجارة أوروبا ومجداً عظيماً للبرتغال... إنّ فاسكو دي غاما بوصوله إلى سواحل الهند قد وضع أول ركيزة للاستعمار الأوروبي للشرق الإسلامي في العصر الحديث"[٢١].

تبع ذلك ضعف وانحدار متزايد في الواقع العربي في تاريخه الحديث، لصالح النهضة الأوروبية، هيمنة واقتصاداً. ومع هذا فإنّ الفرق الكبير الذي كان بين التطور العربي الواسع والتخلف الأوروبي في القرون الوسطى يفسّر استمرار العرب في حمل مشعل التقدم حتى قيام الثورة الصناعية الأوروبية في القرن الثامن عشر. لكنّ ذلك لم يمنع من أن يؤدّي متغيّر المكتشفات إلى بروز السيطرة الاستعمارية الأوروبية بشتى أشكالها ومضامينها القديمة الاحتلالية المباشرة والحديثة الاستعمارية غير المباشرة، مما يسوّغ اعتباره المتغير العالمي الرئيسي الذي شكل

حدث الفصل بين نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة على الصعيدين، العالمي والعربي والمحلّي لشبه جزيرة العرب.

ثالثاً)- المتغيرات الدولية والعربية والإقليمية والمحلية لشبه جزيرة العرب في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث (١٤٨٨/٨٩٣-١٧٤٥/١١٥٨):

إن خسارة الوطن العربي، ومنه شبه جزيرة العرب، لنظامه العالمي الإعماري وهيمنته الاقتصادية العالمية لصالح النظام الغربي العالمي الاستعماري والسيطرة الأوروبية، لم تكن هي الثمن الوحيد الذي دفعه في تاريخه الحديث، نتيجة لتفرقته وضعفه وتنامي انحداره، وإنما الثمن الأفظع، والذي ما زال يعيش نتائجه تجزئةً وتخلفاً وتبعيةً حتى اليوم، هو خضوعه للاحتلال الأجنبي، ومنه الاحتلال الإسباني والبرتغالي والعثماني والصفوي في بداية تاريخه الحديث. ووقفتنا الآن هي مع هذا الاحتلال ومع المتغيرات العامة وشبه جزيرة العرب والصراع الدولي في الخليج العربي في المرحلة الأولى من التاريخ الحديث.

I - متغيرات دولية وعربية وإقليمية ومحلية عامة:

١- الخطر البرتغالي في شبه جزيرة العرب وردود الفعل:

في الشمال، وبعد أن نجح الأوروبيون الإسبان في عام ١٤٩٢/٨٩٧ في إسقاط غرناطة واكتشاف أميركا، ثم الوصول، بعد ذلك وخلال أعوام قلّة(حتى عام ١٥٢٢/٩٢٨)، إلى الهند عن طريق الشمال ثم الغرب الأطلسي، أخذوا على عاتقهم، مع "فرسان القديس يوحنا" في رودس الممثلين لـ"جبهة القوى الكاثوليكية الموحدة" بزعامة البابا وحمايته[٢٢]، التصدّي للوجود العربي المسيطر في البحر المتوسط، ومنه ممارسة القرصنة فيه ضدّ السفن التجارية العربية والإسلامية عموماً، ومحاولة السيطرة على شواطئه العربية. وكان أن قاموا فيما بين عامي ١٥٠٥/٩١١ و١٥١١/٩١٧ باحتلال أكثر الموانئ الجزائرية بالإضافة إلى طرابلس الغرب، وحاولوا الاستيلاء على الجزائر والضغط عليها، فكان أن استنجد أهلها

بالبحارة المغاربة النشيطين في هذا البحر آنذاك، وعلى رأسهم عروج الذي أنجدهم وأعلن نفسه أميراً على الجزائر، وتصدى وشعبها لحملة إسبانية ضدّها عام ١٥١٦/٩٢٢، ومات في إحدى المعارك، فخلفه أخوه خير الدين بربروسا الذي استعان بالدولة العثمانية وانتصر بمساعدتها عليهم، فأصبح حاكماً لها باسم هذه الدولة منذ عام ٩٢٤/ ١٥١٨.

ولقد استطاع التحالف المغاربي- العثماني القضاء على فرسان القديس يوحنا في رودس عام ٩٢٨/ ١٥٢٢، ثم في موقعيْهم في مالطا وطرابلس الغرب التي حرروها منهم عام ١٥٥١/٩٥٨[٢٣]. كما استطاعت بالمساعدة نفسها تخليص تونس عام ١٥٧٤/٩٨٢ من الاحتلال الإسباني لها منذ عام ١٥٣٥/٩٤٢. وهكذا أصبح المغرب العربي تابعاً للدولة العثمانية باستثناء مراكش التي تمسّك حكامها من بني وطاس وبعدهم أشراف الأسرة السعدية التي استلمت الحكم منذ عام ١٥٤٩/٩٥٦، باستقلاليتها. وقد نجح هؤلاء الأخيرون في تحرير شواطئها الأطلسية من المستعمرين البرتغاليين الذين كانوا قد قاموا بالاستيلاء على جميع موانئها الممتدة ما بين طنجة وأغادير، فيما بين عامي١٥١٥/٩٢١ و١٥١٩/٩٢٥، وكانوا قد استطاعوا احتلال سبتة منذ عام ١٤١٥/٨١٨.

في الجنوب كانت مهمة القرصنة والاحتلال على عاتق هؤلاء البرتغاليين[٢٤] أيضاً، ساعدهم على ذلك تفوق أسطولهم البحري عدة وعدداً، وخاصة من حيث امتلاكه الأسلحة النارية من مدافع وبنادق. وكانت البداية في نجاحهم عام ٩٠٥/ ١٥٠٠ باستغلال قيام حاكم كوشن في ساحل ملبار الهندي، والذي كان بأجمعه تحت هيمنة التجار العرب(٢٥)، بطلب المساعدة منهم للتخلص من التبعية لمنافسة الأقوى حاكم كاليكوت على الساحل نفسه، من أجل فرض الوجود البرتغالي فيها وجعلها مركزاً محصناً لعملياتهم الحربية والدبلوماسية والتجارية. وقاموا بمهاجمة عدن ونهب وإحراق سفن عربية فيها عام ١٥٠٢/٩٠٧. وبعد عام قصدوا مدخل البحر الأحمر، وبعده بعامين، أي عام ١٥٠٥/٩١١، تغلغلوا حتى ميناء جدّة، كما

سنرى. في هذا العام نفسه أقيمت في كوشن حكومة برتغالية، وعُيِّن فرانسيكو دالميدا حاكماً كنائب للملك فيها، وعهد بعده إلى ألفونسو البوكيرك[٢٦] (١٥٠٩/٩١٥.١٥١٥/٩٢١) قائد الأسطول البرتغالي، والذي يقسم عهده في الشرق العربي والهندي إلى فترتيْن[٢٧]: الأولى بدأت منذ قدومه وقيامه عام ١٥٠٦/٩١٢ باحتلال جزيرة سوقطرة "جزيرة السعادة" بالقرب من مدخل البحر الأحمر، وبتحويلها إلى مركز لعملياته الحربية العدوانية، وللقرصنة التخريبية وللنهب ضدّ السواحل العربية، وخاصة ساحل عُمان كما سنرى. والفترة الثانية امتدت منذ استلامه لنيابة الملك عام ١٥٠٩/٩١٥ إثر معركة ديو حتى نهاية حكمه عام ١٥١٥/٩٢١.

إن ضرب الهيمنة العربية على التجارة الدولية من قبل البرتغاليين كان يعني، من جملة ما يعني، خسائر كبيرة للسلطان المملوكي قانصوه الغوري، ولبقية الأمراء المماليك ممن كانوا يمارسون معه الاحتكار ويحصلون بالتالي على الأرباح الهائلة للكثير من مواده وخاصة التوابل ممّا أثار حنقهم ضدّ هؤلاء المستعمرين، وخاصة بعد أن وضح خطرهم واتسعت دائرته لتهدد ليس امتيازاتهم الاقتصادية فحسب، وإنما وجودهم السياسي في الصميم، بعد قيامهم بتهديد جدّة والأماكن المقدسة ولو عن بعد، كما رأينا. وتصاعد غضب الرأي العام العربي والإسلامي عموماً من هذا الحكم الذي كانت تتبع له هذه الأماكن، والذي عليه واجب حمايتها بالدرجة الأولى. وزاد هذا الغضب مع الاحتلال البرتغالي لبعض شواطئ عمان عام ١٥٠٧/٩١١.

وعليه، وبالتعاون العربي- البندقي، وتحت الضغط الشعبي العربي والإسلامي، وتتالي طلبات الاستنجاد من الإمارات الهندية الإسلامية، والتابعة للسيطرة التجارية العربية، ضدّ الخطر البرتغالي المتوجّه للسيطرة عليها واحدة تلوَ الأخرى، استنفر السلطان قانصوه الغوري قواه من أجل الإعداد اللازم لأسطوله البحري بقيادة البحار المعروف حينئذ حسين الكردي الذي أبحر في عام ١٥٠٨/٩١٤ إلى الهند للقضاء على الوجود البرتغالي فيها، فكانت انتصاراته في بعض المعارك، ثم كانت هزيمته النهائية في معركة ديو عام ١٥٠٩/٩١٥ وعودته هارباً إلى مصر ومنها إلى

جدّة[٢٨]. كانت هذه الهزيمة حدث الفصل لصالح الهيمنة الاستعمارية الأوروبية البرتغالية على تجارة الشرق بدلاً من الهيمنة العربية. وكان من أهم نتائجها بداية المرحلة الثانية من الوجود البرتغالي في الشرق العربي والهندي، وهي مرحلة التوجّه لاحتلال جميع مراكزه.

تطابقت هذه البداية مع بداية الفترة الثانية من حكم نائب الملك البرتغالي الجديد، البوكيرك، الذي باشر في تحقيق هذا التوجّه منذ استلامه لمنصبه هذا في عام ١٥٠٩/٩١٥، والذي لم ينته إلاّ وقد استكمل إخضاع المراكز التجارية الإسلامية لها على ساحل أفريقيا الشرقي، ما بين براوة شمالاً وسوفالا جنوباً، وكذلك جزر زنجبار وموزمبيق وبمبا ومافيا. وتوجه بعد ذلك لاستكمال السيطرة على ساحل ملبار وبقية مراكز المحيط الهندي، فأخذ جوا عام ١٥١٠/٩١٦ ونقل مركز الحكومة إليها. وأخذ ملقا عام ١٥١١/٩١٧، وقد خطب في جنوده ليبيّن أهميتها التجارية بالنسبة للعرب، وليثير حماسهم ضدّهم قبل المعركة قائلاً: "وإني على يقين لو أننا انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك"[٢٩].

ويلاحظ أن استيلاء البرتغاليين على ملقا قد وجّه ضربة اقتصادية عظيمة الأثر للتجارة العربية أولاً، وكان بداية لامتداد النشاط التجاري البرتغالي فيما بعد إلى موانئ الصين ثانية، وسبباً مهماً أسهم، إلى جانب هزيمة العرب في ديو، في نهاية التحالف العربي مع البندقية رابعاً، لصالح تحوّل هذه الأخيرة، وتحت ضغط فرسان القديس يوحنا، إلى التحالف منذ عام ١٥١٢/٩١٨ مع جبهة القوى الكاثوليكية الموحدة[٣٠]. ولم يكتف البوكيرك بعد ذلك بإخضاعه أكثر منطقة الخليج العربي، كما سنرى، ولا بتهديد الأماكن المقدسة من بعد، وإنما تجاوز ذلك عام ١٥١٣/٩١٩ إلى قصف كلّ من ميناء عدن وميناء الحديدة، وليحرق زيلع وليحتل قمران. وكان بنيّته التوجّه إلى جدّة، ثم احتلال مكة والمدينة والاستيلاء على

الأماكن المقدسة فيهما. وإذا كان السبب الأساسي لعدم وصوله إلى جدّة هو اتجاه الرياح غير المناسب، فإن السبب الأساسي في فشله في احتلال عدن كان المقاومة الوطنية الفعالة لجماهيرها(٣١).

وعلى الرغم من أن محاولة البرتغاليين هذه قد فشلت إلاّ أن وجودهم في البحر الأحمر وبالقرب من الأماكن المقدسة قد شكل تهديداً كبيراً لها وتحدّياً صارخاً بالتالي للعرب وللمسلمين عموماً ولجميع حكامهم الذين كانوا يحكمون باسم الإسلام ويعلنون حرصهم على الجهاد في سبيله، من مماليك وصفويين وعثمانيين وعرب. وظلّ الطرف المعني بالدرجة الأولى هو المماليك وللسبب نفسه المذكور سابقاً، وخاصة أنهم لم ينسوا هزيمة ديو، التي بعدها عاد القائد حسين الكردي بما بقي معه من حملة إلى مصر ومنها إلى جدّة التي استلم إمارتها من جديد.

ونظراً لأهميتها الاقتصادية المذكورة سابقاً، ولضرورة تواجد المماليك الفعلي فيها لاستخدامها كمركز انطلاق لهم من أجل نشر هيمنتهم على الحجاز والبحر الأحمر ثم بحر العرب، ومن أجل التصدّي للخطر البرتغالي في المنطقة، فقد كان قرار السلطنة المملوكية إلى حسين الكردي بجعلها موقعاً كبيراً محصناً وأساسياً للقوات المملوكية البرية والبحرية معاً، ومنطلقاً لحملاته ضدّ البرتغاليين. وكان أن استنفر قواه في الإعداد لحملة ثانية ضدّهم، وذلك تحت ضغط الغضب الشعبي، بالإضافة إلى ضرورة الاستجابة لطلبات النجدة من أمراء الهند المسلمين المهددين بخطر الاحتلال من هؤلاء الفرنجة، ومنهم صاحب كجرات وكالكوت التي كانت مركز التجارة العربية في الهند(٣٢).

طلب سلطان عدن الظاهري، عامر بن عبد الوهاب، مساعدة أسطول السلطان المملوكي قانصوه الغوري، حين هجوم البرتغاليين عليها عام ١٥١٣/٩١٩[٣٣]، وعلى أن يسمح له، في حال تلبية حاجته للمساعدة، بإقامة قواعد بحرية على السواحل اليمنية. ولكن لمّا تأخر وصول الأسطول إلى اليمن، وفشل هجوم البرتغاليين عليها دون أية مساعدة منه واحتلالهم لجزيرة قمران، فقد تراجع السلطان عامر عن قراره

هذا، ممّا دفع حسين الكردي إلى مهاجمة السواحل اليمنية(٣٤). وإن رفض عامر عام ١٥١٥/٩٢١ لتقديم الموانئ والقوة البشرية والتموين الغذائي للأسطول المملوكي قد أدّى إلى تأجيل حملة المماليك إلى الهند لضرب القوة البرتغالية فيها، وظلّ أسطولهم هذا مدة ثمانية أشهر في قمران بعد استردادها منشغلاً ومكتفياً ببناء التحصينات الدفاعية فيها. وكان السلطان المملوكي بالإضافة إلى ذلك منشغلاً بالتفكير بالنتائج التي قد تسفر عنها الحرب العثمانية- الصفوية التي قامت آنذاك، مرجئاً حربه مع البرتغاليين حتى وضوح هذه النتائج. وهذا يقودنا إلى الحديث عن صراع الدولتين، العثمانية والصفوية.

٢- الاحتلال العثماني لمعظم المشرق العربي والصراع العثماني-الصفوي والعثماني- المملوكي:

رأينا أنّ تزايد السيطرة الأوروبية الاستعمارية العالمية في التاريخ الحديث، وخاصة في الوطن العربي، لم يكن بفعل تنامي نهضتها وقواها الذاتية فحسب، ولكن بفعل ضعف الوطن العربي والعالم الإسلامي عموماً، لأسباب كثيرة كان من أهمها الصراع الإسلامي البيني الذي بدأ بين القوى الإسلامية الثلاث الرئيسية، العثمانية والصفوية والمملوكية. نبدأ بالصراع الأول بين العثمانيين والصفويين: شهدت الدولة العثمانية، في فترة حكم السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦/ ١٤٨١- ١٥١٢/٩١٨)، ضغوطاً خارجية وداخلية كثيرة، تمثّلت الأولى بضغوط متغيرات الجبهة الأوروبية التي أسهمت انتصاراتها فيها في دفع القيادة الأوروبية، البابوية الدينية والحكوماتية، إلى تصعيد ردّ الفعل الأوروبي العدائي ضد العالم الإسلامي ومركزه العثماني عموماً وضدّ الوطن العربي خصوصاً، باسم الدين وبقناع "الصليب" كما هي العادة. وتمثّلت الثانية بضغوط المتغيرات الداخلية المتعلقة بالصراعات على الحكم وبتوسع انتشار الحركة الصفوية.

بعد تشكّل الدولة الصفوية زادت انتصاراتها بقيادة الشيخ إسماعيل بن حيدر الذي اعتمد على جيشه من أتباع أبيه من القبائل التركمانية الصفوية التي أطلق

عليها العثمانيون اسم "القزلباش"[٣٥] أي ذوو الرؤوس الحمر، واستطاع القضاء على بقايا إمارة الشاة البيضاء فتوّج شاهاً في تبريز عام ١٥٠٢/٩٠٧ على بلاد فارس كلها التي وحّدها في ظلّ حكمه، ثم وسع دائرة دولته لتشمل منذ عام ١٥٠٨/٩١٤ العراق والموصل. وانتشر دعاته في الأناضول حاملين معهم مبادئ المذهب الشيعي الجعفري بوجوب الالتزام بالقرآن والسنة والعقل والإجماع كمصادر للتشريع وكمعرفة لمبادئ الإسلام وقيمه، وبالتمثل، مثله مثل بقية المذاهب الإسلامية، بالنبي (ص) وبآل بيته وخاصة الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، في التزامهم بأخلاق الإسلام القائمة على العمل الصالح ورفض الظلم واحترام الحقوق والواجبات والأمانة والصدق والعدالة والمساواة إلخ...

على الرغم من أن جميع المذاهب الإسلامية الخمسة، سنية وشيعية، تدعو إلى التمسك بالقرآن والسنة كمصدرين للتشريع ولمعرفة الإسلام الصحيح، وإلى التمثل بالسلف الصالح المتمثّل بشكل رئيس بالخلفاء الراشدين، إلاّ أن الدعوة الصفوية الشيعية بمذهب جعفر الصادق حفيد رسول الله (ص)، هي تحديداً، قد أثارت مخاوف السلطنة العثمانية بقوة، وخاصة بعد أن قام أحد أتباع الشاه اسماعيل الصفوي، حسن اوغلو الذي سمّى نفسه بـ"شاه قولي" أي عبد الشاه، بإشعال ثورة عام ١٥١١/٩١٧ "مثلت خطراً شديداً على الدولة العثمانية"[٣٦] رغم فشلها، إذ لم تلق الدعم الكافي من الشاه نفسه[٣٧].

رأى السلطان بايزيد أنّ عليه على المستوى الخارجي أن ينهي حروبه مع الغرب الأوروبي بعقد صلح مع جيرانه، وأنّ عليه على المستوى الداخلي أن يحلّ الصراع العثماني–الصفوي، الذي رأى فيه صراعاً سياسياً وليس مذهبياً، بأساليب سلمية، بخاصة وإنّ قبائل الحدود التركمان كانت ترى في الشاه إسماعيل الصفوي "حامياً وزعيماً موهوباً"[٣٨]. وبعد أن قام السلطان بايزيد عام ١٥٠٢/٩٠٧ بإبعاد كثير من هؤلاء التركمان الصفويين المؤيدين للشاه من الأناضول إلى المورة[٣٩]، فقد بادر عام ١٥٠٨/٩١٤ إلى مراسلة الشيخ إسماعيل الصفوي "مهنئاً إياه بفتح

العراق وعارضاً عليه السلام والعلاقات الودية"، فلاقى عرضه استجابة وكذلك الأمر بالنسبة لطلبه "معاملة السنّة بالتي هي أحسن"[٤٠].

وكان أن ساد هدوء نسبي في العلاقات بين الصفويين وآل عثمان[٤١]، ونجح بايزيد في إقامة الصلح بين العثمانيين والمماليك بتسوية خلافاتهما حول إمارات الشمال السوري وخاصة في كيليكيا وفي إمارة ذي القدر[٤٢]، لكنّ ابنه سليم، "الذي كان محباً للسلطة الاستبدادية المطلقة"[٤٣]، قام بإجباره على التنازل عن السلطنة لصالحه عام ١٥١٢/٩١٨ بحجّة ميوله إلى المسالمة[٤٤]. كان السلطان سليم يحلم بإمبراطورية كإمبراطورية الاسكندر المقدوني الذي كان "يحب أن يتشبه به"[٤٥]، وكان يرى أنّ عليه مواجهة أربعة أعداء سياسيين تمثّلوا في الأمراء العثمانيين الذين كانوا ينافسونه على العرش أولاً، وفي العدو الصفوي ثانياً، وفي العدو المملوكي ثالثاً، والعدو البرتغالي رابعاً. ومواجهته الأولى كانت مع هؤلاء المنافسين وقد قضى عليهم باستثناء اثنين التجآ إلى العدو المملوكي، وآخر هو الأمير مراد ابن أخيه التجأ إلى الشاه الصفوي الذي رفض تسليمه وقام بدعم حقّه في السلطنة، مما زاد في مخاوف السلطان سليم من هذا العدو على أنّه خطر يهدّد وجوده وأسرة آل عثمان ككلّ في الحكم، لأنّه كان يشكل معارضة سياسية إسلامية سلفية تفاخر بنسبها العربي إلى آل البيت، وكان من شأن ازدياد قوتها أن يؤدي إلى "زعزعة" الدور الديني[٤٦] للعثمانيين، وزعزعة حكمهم بالتالي.

وخارجياً زادت مخاوف السلطان سليم من الدولة الصفوية لأنّها كانت المنافس القوي لدولته و"تتنازع معها على النفوذ والامتداد في العالم العربي الإسلامي المشرقي"[٤٧]. ونظراً لأن الصفويين هم مسلمون، ويُعْتبر من منهم داخل دولته من التركمان هم رعاياه، فقد كان عليه أن يضع مسوّغاً لمحاربتهم وملاحقتهم، فكان أن لجأ إلى تسييس الدين وتشويه مذهبهم الشيعي ليبرّر تكفيرهم وقتل جميع الشيعة داخل بلاده[٤٨]، متجاهلاً أصول الدين وأهمية وحدة المجتمع وضرورة التحالف الإسلامي ضدّ الخطر البرتغالي. وهكذا أخذ يتبادل مع الصفويين تهمة الكفر،

والإفتاء بمحاربة كلّ منهما للآخر[٤٩]، فكراً وبشراً، وليباشر كلّ طرف باضّطهاد أتباع الطرف الآخر باسم التعصّب للمذهب وبعيداً بالتالي عن تعاليم الإسلام الرافضة لأية تفرقة ولأي تعصب، ومنها قول الرسول (ص) المعروف المذكور سابقاً: "ليس منّا من عاش على عصبية...وليس منا من مات على عصبية".

وإذا ما أدركنا التداعيات السياسية لـ"تطلّع كلّ من الدولتين الكبيرتين إلى المجد وزعامة العالم الإسلامي"[٥٠]، وأدركنا أنّ المذهب الحنفي للدولة العثمانية والمذهب الجعفري للدولة الصفوية هما من أهل الرأي ويؤمن كلاهما بالعقل الذي هو مصدر الاجتهاد، وهما الأقرب إلى بعضهما بين المذاهب التي تجمع كلها على أركان الإيمان والإسلام، وأنّ الإمام أبو حنيفة كان من أصل فارسي وكان كثيراً ما يصرح للملأ: "والله ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق"[٥١]، لفهمنا بأنّ الصراع المذهبي لم يكن إلاّ قناعاً من الطرفين للصراع السياسي الحقيقي بكلّ تداعياته الخارجية والداخلية الأمنية لكلّ منهما، وتمّ استخدامه للحشد المذهبي وتبرير اضطهاد الأعداء السياسيين باتهامهم بأنّهم من الفئة الكافرة، من خلال تعميم تكفيري فئوي مرفوض إنسانياً وإسلامياً وعلمياً وحضارياً، سواء خصّ الشيعة أو السنّة أو غيرهم في الدولة العثمانية أم في فارس أم في غيرهما.

وهكذا قام السلطان سليم بمحاولة لتصفية العناصر الشيعية عموماً في دولته، من تركمانية وعربية وكردية وغيرها، من خلال فتوى بتكفيرهم "كمرتدين"[٥٢]، ممارساً "الاضطهاد الديني العام" ضدّهم، ومنه قيامه بمذابح راح ضحيتها أربعون ألف شيعي"[٥٣]. وزاد هذا الاضطهاد بعد حربه مع الدولة الصفوية رغم أنّ "الشاه إسماعيل كان يريد أن يتجنب هذه الحرب"[٥٤]، ولم يتوقف رغم انتصاره، أي السلطان سليم، على هذه الدولة في معركة جلديران عام ١٥١٤/٩٢٠. ومن المفيد أن أورد هنا رؤية أحد أهم الباحثين المعنيين لهذا الصراع، وهو جمال زكريا قاسم الذي، بعد أن يؤكّد أنّ الصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية كان من أهم عوامل إحراز التفوّق البرتغالي في الخليج العربي، يقول: "ومما يسترعي الانتباه أكثر مما يبعث

على الدهشة ما سوف نلحظه في بعض مراحل ذلك الصراع من تحالف بعض شاهات الدولة الصفوية مع البرتغاليين أو مهادنة العثمانيين للبرتغاليين"[٥٥].

استمرّ السلطان سليم بعد ذلك في العمل على ترسيخ سيطرته على الأناضول كلّها وعلى جميع الإمارات التركمانية، بما فيها إمارة ذي القدر، المؤيدة من المماليك، والتي رفضت تمويل عسكره، وشارك بعض تركمانها في قتاله، رغم أنّ أميرها علاء الدولة كان جدّه لأمّه[٥٦]. ورأى السلطان سليم في موقف المماليك المتحالف مع الصفويين[٥٧] ثم في رفضهم تسليم الأميرين العثمانيين اللاجئين إليهم، نوايا عدائية تنذر بالخطر، بخاصة بعد أن تأكّد لديه وجود التحالف الصفوي- المملوكي الفعلي ضدّه. ولهذا استغلّ فشلهم في التصدّي للخطر البرتغالي الذي وصل إلى درجة تهديد الأماكن المقدسة، من أجل تبرير حربهم واستقطاب الرأي العام الإسلامي، ومنه العربي، ضدّهم. وكان أن انتصر عليهم في معركة مرج دابق شمالي حلب عام ٩٢٢/١٥١٦، وفي معركة الريدانية في مصر عام ٩٢٣/١٥١٧، واللتيْن أسفرتا عن نهاية الدولة المملوكية وبداية الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر. ثم تتالت انتصارات السلطنة العثمانية شرقاً وغرباً إلى أن أتمّت احتلال جميع البلدان العربية، باستثناء مراكش وبعض أقاليم شبه جزيرة العرب.

وإذا كان الصراع العثماني- المملوكي قد انتهى بمعظمه مع نهاية الدولة المملوكية، فإنّ الصراع العثماني- الصفوي وخاصة في العراق والخليج العربي قد استمر بعد ذلك وبقناعه المذهبي نفسه الموظف لحشد المؤيدين المحاربين، مما يفسّر استمرار السلطنة برفض الاعتراف بالمذهب الجعفري رغم أنّ صاحبه هو حفيد رسول الله محمد(ص)، لأنّ اعترافها كان من شأنه أن يبيّن خطأ فتواها بتكفير أصحابه. وهكذا وفي الوقت نفسه الذي برز فيه الخطر الأوروبي الاستعماري، البرتغالي والإسباني، كانت الحروب بين القوى الإسلامية الرئيسية الثلاث آنذاك، العثمانية والصفوية والمملوكية، وليكون من أهم نتائجها استنفاذ معظم القوة الإسلامية، ومنها القوة العربية التي فقدت قرارها المستقل بسبب تبعية معظم البلدان

العربية للدولة العثمانية. وإن انتصار هذه الدولة على المماليك والصفويين قد حمّلها، وهي القوة الإسلامية العظمى، كثيراً من المسؤوليات الضخمة، وأهمها الحماية الفعلية لديار الإسلام وللأماكن المقدسة فيه، أولاً، واستعادة الهيمنة الإسلامية على الطرق التجارية الدولية وعلى الشرق الإسلامي وخاصة الهند، ثانياً، ويعني بالتالي أنه كان عليها، لتحقيق ذلك، التصدّي للخطر الأوروبي الذي كان في ازدياد مستمر، ثالثاً، وخاصة في البحر المتوسط حيث رأينا التصدّي العثماني- العربي له، وفي سواحل شبه جزيرة العرب عموماً، ومنه الخليج العربي، حيث سنتعرّف الآن على انعكاسات وجوده وصراعات قواه فيها في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث.

II – شبه جزيرة العرب والصراع الدولي في الخليج العربي في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث:

مرّ الصراع الدولي في الخليج العربي، في تاريخه الحديث عموماً، في أربع فترات أساسية: فترة الهيمنة البرتغالية، وفترة تزامن الهيمنة العربية والهولندية في تنافسها مع الأنشطة البريطانية، وفترة تزامن الهيمنة البريطانية والعربية، وفترة الهيمنة البريطانية. وقد ارتبطت المرحلة الأولى من تاريخه الحديث بالفترتين الأوليتين اللتين نقف قليلاً عندهما استكمالاً لدراسة المتغيرات الدولية والإقليمية والعربية والمحلية المعنية بالمرحلة الأولى من تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث.

١- الخليج العربي وفترة الهيمنة البرتغالية حتى منتصف القرن السابع عشر:

رأينا أن أربعة عوامل رئيسية قد ساعدت البرتغال على فرض هيمنتها الأحادية في الخليج العربي، طوال القرن السادس عشر تقريباً: الأول هو أسبقية وصولها إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح واحتكارها لمعرفة هذا الوصول مقابل جهل القوى الأوروبية الرأسمالية الأخرى به، والمنافسة لها آنذاك. والثاني هو ضعف القوة العربية وتفككها في شبه جزيرة العرب وفي العراق وبقية الوطن العربي، بسبب خضوع أهلها للتفرقة والاحتلال الأجنبي. والثالث هو ضعف القوة الصفوية

للأسباب المذكورة سابقاً. والرابع هو ضعف الوجود البحري للعثمانيين في الخليج العربي وخاصة بعد دخول الدولة العثمانية في عصرها الثاني، عصر الضعف والفساد في كل مظاهرهما السياسية والاقتصادية والثقافية المعروفة، والتي تفسّر إهمال هذه الدولة لشؤون الخليج العربي واعتمادها في نشاطها فيه على المبادرة الفردية الفاشلة لبعض بحارتها كما سنرى. ولكن سرعان ما ظهرت عوامل أخرى مضادة أدّت إلى نهاية الهيمنة البرتغالية في هذا الخليج، ونكتفي بذكر أبرزها:

أ – تعاظم الرفض العربي والمقاومة الوطنية ضدّ البرتغاليين الذين عرفوا بتعصبهم الشديد وبممارستهم الوحشية لأقسى أفعال الاستغلال الاقتصادي والقهر العسكري، والتي أعادت للأذهان ذكرى حروب الفرنجة المدعوة خطأ بـ "الصليبية"(٥٨)، ممّا يفسّر التعاون العربي ضدّهم مع كلّ القوى المعادية لهم.

ب– عدم امتلاك البرتغال، وهي الدولة المحدودة مساحة وسكاناً، لقدرة السيطرة المستمرة على إمبراطورية ساحلية واسعة امتدت من لشبونة إلى كاليكوت.

ج– تفشي الفوضى والصراعات والفساد في أوساط الأسطول البرتغالي(٥٩).

د– سياسة ملوكها الاحتكارية للسلع المربحة، والتي أضعفت البرجوازية البرتغالية ودفعتها نحو العمل لحسابها الخاص دون الاكتراث بمصالح بلدها.

هـ– تطور القوى المحلية المعادية للوجود البرتغالي في شبه جزيرة العرب عموماً، سنرى كيف أدى تطور القوة العثمانية المتعاونة في البحر الأحمر مع القوى العربية إلى القضاء على هذا الوجود فيه كلياً، وكيف تطورت القوة الصفوية في ظلّ الشاه عباس لتقضي عليه في فارس، والقوة العُمانية في ظلّ دولة اليعاربة لتقضي عليه في عُمان ومعظم الخليج العربي إلخ...

و– فقدان البرتغال لاستقلاليتها منذ توحيد تاجها مع التاج الإسباني في ظلّ الملك فيليب الثاني عام ٩٨٨/١٥٨٠ حتى عام ١٠٥٠/١٦٤٠. إن تبعيتها هذه لإسبانيا قد حملتها مسؤولية مشاركتها في جميع مشكلاتها السياسية، والتي كان

أهمها صراعها مع بريطانيا، فكان أن فقدت قوتها البحرية بعد هزيمتها وحليفتها أمام بريطانيا في عام ٩٩٦/١٥٨٨. واتضح ضعفها أكثر فأكثر حين عجزت عن صدّ هجوم بريطاني على سواحلها في عام ١٠٠٣/١٥٩٥، وكان أن استغلت كلّ من هولندة وبريطانيا ضعفها هذا لتنهيا احتكارها لتجارة الشرق ولتوجّها إليها الضربة تلو الأخرى.

الضربة الأولى كانت من هولندة إذ نجحت عام ١٠٠٣/١٥٩٥، أي بعد عام واحد فقط من إغلاق أسواق "لشبونة" في وجه تجارها، في الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح. وأتت الضربة الثانية من بريطانيا إذ نجحت في هذا الوصول عام ١٠١٢/١٦٠٣، وقامت بتأسيس المحطات والمراكز التجارية لها في سومطرة وجاوة وغيرهما من جزر الهند الشرقية. والضربة الثالثة والقاصمة كانت من دولة اليعاربة في عُمان كما سنرى. وكان نتاج هذه الضربات الثلاث سريعاً وحاسماً بحيث لم ينتصف القرن السابع عشر إلاّ وكانت البرتغال قد فقدت معظم إمبراطوريتها الساحلية الواسعة، ولم يبق لها سوى بعض الجيوب الصغيرة على الساحل الأفريقي أو في جوا ودامون في الهند.

٢- الخليج العربي وفترة الهيمنة الهولندية والعربية والنشاط البريطاني حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:

توجه نشاط الهولنديين في الخليج العربي نحو تحقيق التحالف مع فارس بالدرجة الأولى من أجل استغلاله للوصول إلى هيمنتهم في هذا الخليج ككل. ولقد وصلوا إلى هذا التحالف منذ عام ١٠٢٦/١٦١٧، بعد أن برز اختلافهم أكثر فأكثر مع حلفائهم القدامى، العثمانيين، الذين كانوا قد سهلوا لهم تجارتهم في جميع الموانئ في جنوب جزيرة العرب، وخاصة في اليمن(٦٠). وكان من الطبيعي أن يتحول تحالفهم مع البريطانيين ضد الهيمنة البرتغالية بداية إلى صراع مرير بينهم بعد نهاية هذه الهيمنة، والذي تركز حول استقطاب فارس واحتكار امتيازاتها والتعامل معها. وعليه فقد شهدت فارس منذ أوائل السابع عشر فترة هذا الصراع

عليها بين شركة الهند الشرقية البريطانية[61] وشركة الهند الشرقية الهولندية، وأسهمت أسباب كثيرة في تحول هذا الصراع لصالح هذه الأخيرة[62]، ومنها الخلافات الفارسية– البريطانية حول اقتسام العوائد الجمركية في هرمز ثم بندر عباس.

وعلى الرغم من نجاح إنكلترا مع ذلك في الحصول على صداقة الشاه، وعلى موافقته على افتتاح مكتب لها في ميناء جاسك في عام ١٠٢٤/١٦١٥، والذي نقلته إلى بندر عباس عام ١٠٣٤/١٦٢٤، وبالرغم من نجاحها أيضاً في الحصول من السلطنة العثمانية على افتتاح مكتب لها في البصرة عام ١٠٥٣/ ١٦٤٣، فقد تمكنت هولندة من السيطرة على تجارة فارس تماماً بما فيها تجارة الحرير منذ عام ١٠٥٩/١٦٤٦، وامتد نفوذها إلى السواحل الهندية، وخاصة بعد طرد البرتغاليين من مسقط عام ١٠٦٠/ ١٦٥٠، واستطاعت بالتالي أن تحتل مركز الصدارة في الخليج العربي، وبالتالي في التجارة مع الشرق معظم القرن السابع عشر.

وقد حرص الهولنديون على توسيع ساحة حربهم مع بريطانيا، التي اندلعت عام ١٠٦٢/١٦٥٢، بنقلها إلى ما وراء البحار. واستطاعوا خلال هذه الحرب التي استمرت عامين أن يأسروا ثلاث سفن لعدوتهم في ميناء سورات الهندي، وأن يغرقوا لها سفينتين في مياه بندر عباس، وأن يسببوا بعد ذلك في عطالة تجارتها فيه، بحيث تضطر إلى نقل مكتبها في البصرة خوفاً عليه، وليغدو الهولنديون نتيجة لذلك كله أسياد الموقف على المستوى الأوروبي ولكن ليس لفترة طويلة.

لكنّ ظهور منافس جديد عام ١٠٧٥/١٦٦٤، هو المنافس الفرنسي ممثلاً بشركة الهند الشرقية الفرنسية قد دفع هولندا وبريطانيا مجدداً إلى التعاون فيما بينهما ضد هذا الخطر الجديد، ولكن لزمن قصير جداً، إذ سرعان ما عاد التنافس والصراع بينهما، والذي كان لصالح هولندة بداية، إذ سيطرت على تجارة التوابل سيطرة تامة سنة ١٠٧٧/١٦٦٦[63]. ولم يكن ينتقص من سيطرتها على التجارة الشرقية عموماً سوى القوة العربية لدولة اليعاربة التي أنهت الوجود البرتغالي في

الساحل العربي ومدت هيمنتها التجارية من الهند شرقاً إلى شرقي أفريقيا غرباً كما سنرى لاحقاً، والطامحة إلى استرجاع السيطرة العربية على التجارة مع الشرق.

إن إدراك القوى الأوروبية الثلاث المتنافسة على السيطرة على تجارة الشرق آنذاك، أي هولندة وفرنسا وبريطانيا، لخطر هذه القوة العربية اليعربية على مطامعهم بهذا الخصوص، دفعهم إلى التحالف ضدها في اتفاقية عام ١١١٢/١٧٠٠، باسم "مقاومة القرصنة"[٦٤] وفق زعم هذه القوى التي سرعان ما عادت إلى صراعاتها. وكان أن انتهت القوة الهولندية نتيجةً لخسائرها الكبيرة في حروبها المتعددة على الجبهة الأوروبية، مع بريطانيا وفرنسا وإسبانيا، مقابل ازدياد قوة منافستها بريطانيا التي أخذت بالصعود منذ استقرار الحكم الملكي الدستوري فيها إثر ثورتها عام ١٠٩٨/١٦٨٧، وبروزها المتنامي منذ انتصارها على إسبانيا في حرب الوراثة الإسبانية في عام ١١٢٦/١٧١٤، والتي انتهت بربح عظيم لها ومنه حصولها على مضيق جبل طارق، مفتاح البحر المتوسط.

وأخذت بريطانيا منذ ذلك الحين تسرع في خطواتها في طريق التفوق البحري والاستعماري موجهة جهودها نحو إحراز مراكز لها في الطريق إلى الهند ومنه الخليج العربي. وبقيت أداتها المتنفذة والفعالة شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت قد تشكّلت عام ١٠٠٩/١٦٠٠. اتصف نشاطها في هذه المرحلة، وعلى الرغم من ممارساتها العسكرية أحياناً، بالطابع التجاري سواء قبل أو بعد اندماجها مع منافستها شركة "الجمعية العامة للتجارة مع الهند الشرقية"، التي تشكلت عام ١١٠٩/١٦٩٧، من مجموعة من رجال الأعمال الإنكليز. إن هذا الاندماج، الذي تمّ عام ١١٢٠/١٧٠٨، تحت اسم "اتحاد إنكلترا للتجارة مع الهند الشرقية"، قد أكسبها "طابعاً قومياً"[(٦٥)]. وكانت بريطانيا تركّز نشاطها، إن خلال فترة الهيمنة الهولندية والعربية في الخليج العربي، أو في الفترة بعدها حتى نهاية هذه المرحلة مع تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥، على اكتساب أكبر قدر ممكن من الامتيازات في فارس وفي الدولة العثمانية، وعلى الحصول على أكبر

قدر ممكن من المراكز الهامة لها في الهند وفي الطريق إليها. وسنرى مدى نجاحها في ذلك لاحقاً في الفصول القادمة.

****

هوامش الفصل الأول

---

[١])- يمكن إيجاز مفهوم المعايير العلمية الوطنية بكونها عبارة عن دليل تعليمي مرشد للعملية التدريسية التربوية، يقوم بتحديد المستوى النوعي الذي يجب أن يصل إليه المتعلم، في حدّه الأدنى، في الجوانب الثلاثة الأساس لهذه العملية: الجانب المعرفي والجانب القيمي والجانب المهاراتي من خلال الحوار الحرّ وتشاركية عنصري التعليم والتعلم، ومن منطلق ربط التعليم بحاجات المجتمع.

[٢])- نكتفي بموجز لهذه الرؤية في كتابنا هذا لأنّها موجودة بتفاصيلها في مؤلفنا: تاريخ الوطن العربي الحديث(بلاد الشام والعراق)، ص ٥٣-٥٦.

[٣])- حول مفهوم الاستراتيجيا والتكتيك انظر هامش ٤ في المقدمة.

[٤])- إنّ إدخال الواو على أي مسمى أو مصطلح يعني أنه يستخدم كتوصيف لتجاوز دلالته الخاطئة لمضمونه الحقيقي الصحيح، كما هي الحال مع مصطلح "السلفوية" المختلف تماماً عن مصطلح "السلفية"، ومصطلح "الإسلاموية" المختلف تماماً عن مصطلح "الإسلامية" وكذلك الأمر مع مصطلحي "قومية" وقوموية"، وذاتية وذاتوية إلخ...

[٥])- Cf. MOUTELS, op. cit.; COLLING, op. cit. وانظر أيضاً: عمارة، مرجع سابق، الجزء الأول، ص٢٠٠-٢٠١، وانظر بحثنا: "وقفة تاريخية نقدية عربية مع مقولة أسلوب الإنتاج الآسيوي"(مجلة دراسات تاريخية، عدد ٣٥-٣٦، ١٩٩٠، ص٢٨٣-٣٠٧).

[٦])- عمارة، مرجع سابق، جزء أول، ص٢٠١. وانظر مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، جامعة الدول العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٤٥-٥٥.

[٧])- إن الآثار السورية الفينيقية المكتشفة في كل من أميركا واليابان تبين مدى اتساع دائرة النفوذ التجاري الفينيقي السوري العربي في العصر القديم. وإن الدراسات الحديثة تبين وصول العرب المسلمين أيضاً إلى أميركا قبل كريستوف كولومبوس بأربعة قرون (حول الآثار الفينيقية في أمريكا راجع اميل ادّة، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، بيروت، ١٩٦٩. و: WINSOR, Natural and Critical History of America, Boston ,1889. وراجع: فهمي توفيق مقبل، دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد، عمّان،٢٠٠٣، وقدري قلعجي، الخليج العربي، بيروت،١٩٦٥، ٥٥-٥٦.

[٨])- قلعجي، مرجع سابق، ص ٥١، وانظر نهاية الفصل السابع في كتابنا هذا.

[٩])- الصباغ، تاريخ العرب...، ص ٦.

[10]- المرجع نفسه...،ص ٦٩ و ٧٢.

[11]- يجمع الباحثون على هذا السبب. انظر على سبيل المثال: جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٤٥-٤٧. وانظر ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، ترجمة مكتب الترجمة في ديوان حاكم قطر، الدوحة، ١٩٦٧، القسم التاريخي، جزء ١، ص ٣.

[12]- صباغ، تاريخ العرب...، ص ٦.

[13]- زكريا قاسم، الخليج العربي...، مرجع سابق، ص ٤٩.

[14]- إنّ تشابه الاسم أدى، مع الأسف، إلى الخلط بينه وبين بحار عربي آخر غير معروف. الفضل في معرفة هذه الحقيقة يعود إلى حلقة بحث علمية موضوعية موثقة قام بها أحد طلاب السنة الرابعة في قسم التاريخ (لا أذكر مع الأسف سوى كنيته التي هي "الزعبي").

[15]- يدل على ذلك حديث هرودوت عن دوران الفينيقيين سنوياً حول رأس الرجاء الصالح، كما تدل عليه المكتشفات الآثارية الفينيقية في أمريكا(انظر هامش رقم ٧ في هذا الفصل)

[16]- خليل، المرجع السابق، ص١٢.

[17]- الشيخ زين الدين، تحفة المجاهدين في بعض أحوال المجاهدين، نشر دافيد لويز، لشبونة، ١٨٩٨، ص ٤٥.

[18]- حتّي وجرجي وجبور، مرجع سابق، ص ٨٢٥، وانظر سالم، مرجع سابق، ص ٤٤-٥٧

[19]- زكريا قاسم، الخليج العربي...، مرجع سابق، ص ٩.

[20]- انظر سابقاً وراجع مؤلفنا: المتغيرات والنظام العالمي...المعطيات السابقة نفسها.

[21]- زكريا قاسم، الخليج العربي...، ص ٤٨- ٤٩، وصادق نشأت، تاريخ الخليج السياسي، ترجمه عن الفارسية وحققه أحمد كمال حلمي وبدر الدين عباس،الكويت،١٩٧٢، ص ٦٠.

[22]- أو "فرسان المعبد"، نظمهم يوحنا الاورشليمي عام ١١١٣/٤٧٦ على أنّهم ممثلون لـ"جبهة القوى الكاثوليكية الموحدة" بزعامة البابا وحمايته(إيفانوف، مرجع سابق، ص ٣١-٣٣).

[23]- صباغ، تاريخ العرب...، ص ١٠٠-١٠١.

[24]- حول الوثائق البرتغالية بهذا الشأن راجع الأرشيف البرتغالي في لشبونة وخاصة: Antonio Dias FARINHA, Arabie Documents in the Terro Do Tombo National Archives ومذكرات آلفونسو البوكريك التي ترجمت إلى الانكليزية: The Commentaries of Great Alfonso Delboqurque, translated by Gravy BIRCH, London, 1881.

[25]- Cf. Albert KAMMERER: La Mer Rouge, l'Abyssine et l'Arabie depuis l'antiquité, Le Caire, 1925-1935, tome I, p. 86-87; R. B. SERJEANT: The Portuguese of the South Arabia, Coast, Oxford, 1963, p. 146.

(٢٦)- عباس إقبال، مطالعاتي درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس ، طهران، ١٣٢٨هـ ش، ص ٥٩

(٢٧)- Cf. The Commentaries of Great Alfonso Delboqurque, op. cit.

(٢٨)- ابن إياس، بدائع الزهور في تاريخ الدهور، القاهرة، ١٨٩٣، الجزء الرابع، ص٨٤-٨٦، وعيسى بن لطف الله، روح الروح، مخطوطة محفوظة في دار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ح، الجزء الأول، ص٥٨ ب، و: KAMMERER, op. cit., pp. 155-156.

(٢٩)- R. M. PANIKKAR: Asia and Western Dominance 1489-1945), London, 1955, p. 49.

(٣٠)- إيفانوف، المرجع السابق، ص٣٣.

(٣١)- SERJEANT, op. cit., p. 169;. WILSON, op. cit., pp. 118-119.

(٣٢)- انظر حول المراكز في الهند والسيطرة العربية عليها سالم،مرجع سابق، ص٤٥-٦٨.

(٣٣)- راجع قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكّي، البرق اليماني في الفتح العثماني (تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر)، ط. ١، دار اليمامة، المملكة العربية السعودية، ١٣٨٧/١٩٦٧، ص١٦-٢٧.

(٣٤)- إيفانوف، المرجع السابق، ص١٢٠.

(٣٥)- دعوهم بذلك لأنهم كانوا يلبسون على الرأس ما سمّي "تاج حيدر" الأحمر ذي الاثنتي ثنية كناية عن الاثني عشر إماماً(عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص ٦٧).

(٣٦)- المرجع نفسه ، ص٦٩.

(٣٧)- المرجع نفسه.

(٣٨)- المرجع نفسه، ص ٦٨.

(٣٩)- المرجع نفسه، ص ٦٨-٦٩.

(٤٠)- بديع جمعة وأحمد الخولي، تاريخ الصفويين وحضارتهم، دار الرائد العربي، القاهرة، ١٩٦٧، جزء أول، ص ٧١-٧٧، والخطيب، التنافس الدولي...، ص ٢٢.

(٤١)- جمعة وخولي، مرجع سابق، ص ٧١ و٧٣. و والخطيب، التنافس الدولي...، ص ٢٢.

(٤٢)- انظر عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص ٤٨-٤٩.

(٤٣)- الصباغ، تاريخ العرب...، ص ٧٦.

(٤٤)- عبد الكريم غرايبة، مقدمة تاريخ العرب الحديث، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠،ص ١٦

(٤٥)- الصباغ، تاريخ العرب...، ص٨٣.

(٤٦)- فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصدر العثمانية، دار المدى الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٣٣.

(٤٧)- الصباغ، تاريخ العرب...، ص ٨٠.

٤٨)- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بغداد، ١٩٦٥، جزء أول، ص ٤٥.

٤٩)- ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، طبعة ثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥، ص ٣٣، والعزاوي، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص٢٨٠.

٥٠)- محمد عبد اللطيف البحراوي، فتح العثمانيين عدن، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١١٣.

٥١)- راجع حول "أبو حنيفة النعمان" : الموسوعة العربية، سوريا- دمشق، المجلد الثامن.

٥٢)- الحصري، مرجع سابق، ص ٣٣.

٥٣)- انظر عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص ٦٩والصباغ، تاريخ العرب...، ص ٧٧.

٥٤)- جمعة وخولي، مرجع سابق، ص ٨٣، والخطيب، التنافس الدولي...، ص ٢٣.

٥٥)- انظر صالح أوزبران، البرتغاليون والأتراك والعثمانيون في الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٧٩، ص ٣٣، وزكريا قاسم، الخليج العربي...، مرجع سابق، ص ١١.

٥٦)- عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص ٦٩-٧٠.

٥٧)- كان هناك مراسلات ومفاوضات سرية بين الشاه إسماعيل الصفوي والسلطان المملوكي قانصوه الغوري(ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٤، جزء ٢، ص ٢٤،وابن إياس، مصدر سابق، والبكري الصديقي، الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة...،وعمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق،ص٧١-٧٤).

٥٨)- عقيل الخطيب، التنافس الدولي...، ص٣٤.

٥٩)- محمود علي داوود، "العلاقات البرتغالية في الخليج العربي"، (حولية كلية الآداب، بغداد، ١٩٦٠، ص٧).

٦٠)- WILSON, op. cit., p. 161.

٦١)- Cf. BRUCE James, Annals of the Honorable East India Company, London, 1810.

٦٢)- حول هذه السيطرة راجع عقيل الخطيب، التنافس الدولي...، ص ١٤٤-١٧٤، و محمود. ع. داوود، مرجع سابق، ص٥ وما يتبع.

٦٣)- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١١١.

٦٤)- انظر لاحقاً.

٦٥)- قاسم، الخليج العربي...، ص١٨.

* *

الفصل الثاني

أقاليم وسط وغربي شبه الجزيرة العربية(الحجاز ونجد واليمن) في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥

المحتويات:

أولاً)- إقليم الحجاز في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥.

ثانياً)- إقليم نجد في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث. من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥.

ثالثاً)- الحجاز والسلطنة العثمانية والحركة الوهابية في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥.

رابعاً)- إقليم اليمن في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥.

****

أولاً)- إقليم الحجاز في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:

ينقسم تاريخ إقليم الحجاز[١] في هذه المرحلة الأولى من تاريخه الحديث إلى فترتين رئيسيتين: الأولى فترة أواخر الحكم المملوكي حتى نهايته عام ٩٢٣/ ١٥١٧، والثانية فترة الحكم العثماني الممتدة في هذه المرحلة حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥، ولنا وقفة مع كلّ منهما.

I – إقليم الحجاز في الفترة الأولى من المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: فترة أواخر الحكم المملوكي حتى نهايته عام ١٥١٧/٩٢٣:

رأينا كيف فرض المماليك وجودهم الفعلي في الحجاز منذ أشرفوا بأنفسهم على عائدات ميناء جدة وحوّلوه إلى مركز انطلاق لعملياتهم البريّة والبحرية، ممّا أدّى إلى حرمان الأشراف من الاستفادة من عائداته لحسابهم الخاص، كما أدّى ذلك إلى تقليص صلاحياتهم التي كانت شبه تامة، فنما يوماً بعد يوم استياؤهم من الحكم المملوكي الذي قادت ممارساته الخاطئة إلى غضب الرأي العام العربي والإسلامي بشكل عام، وخاصة بعد هزيمته في ديو، في عام ١٥٠٩/٩١٥ أمام البرتغاليين الذين أصبح لديهم الجرأة، منذ عام ١٥٠٢/٩٠٨، كما رأينا، على الإبحار بأسطولهم حتى جدّة ليهددوا الحجاز ككل والأماكن المقدسة فيه خاصة.

وزاد الاستياء الشعبي في الحجاز من الممارسات الغاشمة لوالي جدة، حسين الكردي، بعد عودته من مصر بعد هزيمته المذكورة، وبعد تجميده لحملته الثانية التي كان يعدّها في عام ١٥١٣/٩١٩، كما رأينا سابقاً، لمحاربة البرتغاليين والقضاء على خطرهم المتصاعد باستمرار، والتي استعاض عنها بعد خلافه المذكور مع سلطان عدن الطاهري، باستعادة قمران من البرتغاليين فقط وتحصينها لتكون مصدّاً لخطرهم حين الضرورة.

وكان العالم الإسلامي عموماً ومعظم الوطن العربي خصوصاً، ومنه إقليم الحجاز بأمرائه الأشراف وبمجتمعه، بعد انهيار كلّ من القوة الصفوية والمملوكية لصالح بروز القوة العثمانية، قد تطلعوا إلى هذه القوة من أجل التصدّي للخطر البرتغالي، وذلك بعد انتصارها على الصفويين في معركة جالديران عام ٩٢٠/ ١٥١٤، وانتصارها على المماليك في معركة مرج دابق عام ١٥١٦/٩٢٢ وسيطرتها على سوريا–الشام، ثم في معركة الريدانية وسيطرتها على مصر عام ١٥١٧/٩٢٣ وإنهاء الدولة المملوكية، ثمّ مباركة الخليفة العباسي لسلطانها سليم الأول كـ "سلطان للمسلمين". وهذا مما يفسّر بعثة حاكم الحجاز، الشريف بركات،

برئاسة ابنه أبي نميّ، إلى السلطان سليم الأول في مصر بعد معركة الريدانية عام ٩٢٣/ ١٥١٧، وقيامها بتسليمه مفاتيح الكعبة، مؤكّدةً اعتراف الشريف بتبعيته له وللسلطنة العثمانية. وبالمقابل فقد أقر السلطان سليم نظام الشرافة في هذا الإقليم، وعهد للشريف بركات بإدارته وحكمه بالشراكة مع ابنه أبي نمي. ومع هذه التبعية تبدأ الفترة الثانية من التاريخ الحديث لإقليم الحجاز في هذه المرحلة، وهي فترة خضوعه للحكم العثماني.

II – الحجاز والحكم العثماني في الفترة الثانية من المرحلة الأولى من تاريخه الحديث (٩٢٣/١٥١٧-١١٥٨/١٧٤٥):

١- السلطات العثمانية والداخل الحجازي في الفترة الثانية من المرحلة الأولى من تاريخه الحديث:

أهمية الحجاز بالنسبة للسلطنة العثمانية، كما كانت بالنسبة لحكامه السابقين، يمكن تلخيصها بوجود الأماكن المقدسة فيه أولاً، وباحتوائه على الطرق التجارية البرية والبحرية الدولية المهمة ثانياً، وبأهميته بالنسبة لمصر التي تمتد مقابله على الساحل الغربي للبحر الأحمر، الذي هو أحد أبرز هذه الطرق، والذي، أي الحجاز، يشكل لها حاجزاً أمنياً دفاعياً وهجومياً ثالثاً.

هذه الأسباب كلها تفسر الاهتمام العالي والخاص للسلطنة العثمانية به[٢]، وتفسر بالتالي الامتيازات التي قررتها له منذ وجود السلطان سليم الأول في القاهرة، لاكتساب تأييده واستقطاب أهله، حيث أمر بزيادة الاعتمادات المالية المخصصة له، وعلى أن تتحمل الحكومة المصرية، كعهدها السابق، الالتزامات القديمة والمستحدثة له، والمتعلقة بأحد المصادر المهمة لكسوة الكعبة بالإضافة إلى الأوقاف المحبوسة للحرميْن الشريفيْن ولفقرائه، والتي كان يطلق عليها كلها المصطلح المعروف "الصرة"، التي كانت ترسل باستمرار وسنوياً مع قافلة الحج المصري . وأعفي أهل الحجاز بالإضافة إلى ذلك من دفع معظم الضرائب

الشخصية والعقارية، ما عدا الضرائب على أصحاب الأغنام والجمال[٣]. وأبقت السلطنة على حكمه الذاتي المتمثل بنظام الشرافة الذي استمرت مكة لأهميتها الدينية مركزاً له. لكنها أقامت إلى جانبه في الحجاز نظاماً عثمانياً، عادّةً إيّاه ولاية واحدة. وأوجدت فيه صنجقية جدّة التي رأينا سابقاً أهميتها السياسية والاقتصادية والعسكرية. وعينت عليها والياً تراوحت رتبته بين "بيك صنجق" و"باشا" برتبة وزير.

وأول باشا صنجق سمّاه السلطان سليم عليها كان حسين الرومي. واحتفظت السلطنة العثمانية بحرس عثماني في مكة والمدينة وينبع، ووضعت الحاميات لحراسة نزل قوافل الحجاج وحمايتها، وبنت الحصون على طرقها المختلفة لتضمن سلامتها. وحرصت هذه السلطنة على تعيين منصبيْن اثنيْن مهمين ورئيسين في الإدارة العثمانية، وهما القاضي والمحتسب، واللذين كانت تضمن من خلالهما سيطرتها على الشؤون القانونية والمالية والدينية، وخاصة ما تعلق منها بشؤون الكعبة والحرم المكي. وإن السلطنة إذ ضمنت السيطرة على مدن وحواضر الحجاز الأساسية، وخاصة على شواطئه، فإنها تركت أمر بواديه وقوافله ومنطقته الداخلية في يد أشرافه[٤]. ومع ذلك "لم يستطع العثمانيون أن يقيموا سيطرتهم المباشرة" على "المدينة المتميزة" مكة[٥].

لكن سيطرة السلطنة العثمانية على إقليم الحجاز لم تتمّ مباشرة، وإنما عن طريق وسيط كانت له مهمة الإشراف عليه منذ انتقل مركز حكم الدولة العربية الإسلامية إلى القاهرة، وهو الوسيط المصري. ولقد رأينا طبيعة الصلة التي تربط ما بين الحجاز ومصر، والتي دفعت السلطان العثماني، كسابقيه، إلى تكليف والي مصر بمسؤولية الإشراف المباشر على هذا الإقليم والدفاع عنه لأنه من وجهة النظر العسكرية والسياسية يعد ضمن دائرة اختصاصه ومجال سلطته. وبناءً عليه فقد كان تحت إمرة والي مصر جميع الموظفين والعسكريين العثمانيين في الحجاز، ومنهم القاضي والمحتسب وباشا صنجق جدّة.

من الطبيعي أن تنعكس أوضاع السلطنة العثمانية في عصريْها، عصر القوة الممتد حتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني في عام ١٥٦٦/٩٧٤، وتجاوزاً حتى نهاية حكم السلطان مراد الرابع عام ١٦٤٠/١٠٥٠، وعصر الضعف الممتد حتى نهايتها في الربع الأول من القرن العشرين، على نفوذها في جميع البلدان التابعة لها، ومنها إقليم الحجاز. استطاعت في العصر الأول تقليص هيمنة الأمراء الأشراف لصالح سيطرتها الفعلية عليه وعليهم، بحيث أصبح الشريف الأمير تابعاً للسلطان وغدا "موظفاً عثمانياً" يصدر بتعيينه "فرمان" سلطاني. وصار ذوو الصلة الوثيقة بالسراي أو برجاله أو بالولاة في مصر واليمن وبلاد الشام هم وحدهم من صفوف الأشراف القادرين على الحصول على منصب الشرافة والإمارة(٦). أمّا في عصرها الثاني فقد تحوّلت سلطتها إلى سلطة اسمية، ينصب اهتمامها على ضمان إرسال الصرة وقوافل الحج، مقابل بروز سلطة أمرائه الأشراف الفعلية.

وكانت السلطنة العثمانية، من خلال استغلالها وتغذيتها للصراعات المحلية، ومن خلال سلطة ولاتها في مصر واليمن، وباشاواتها في جدّة، وحاميتها العسكرية في مكة والمدينة وينبع، ومن خلال قضاتها ومحتسبيها وصلاتها مع أمراء الحجّ، تحاول وباستمرار فرض هيمنتها الفعلية في الحجاز على حساب تقليص نفوذ أشرافه. وعليه فقد كان الولاة الأتراك يعملون كل جهدهم، وكما يؤكد أحد المؤرخين، من أجل: "إذكاء روح الصراع بين الأشراف، ليتمكنوا عن طريق التفرقة بينهم من السيطرة عليهم جميعاً، مما يجعل السلطان العثماني يثق في قدرة هؤلاء الولاة، ومقدرتهم على التحكم في مقدرات البلاد وإبقائهم في منصب الولاية أكبر وقت ممكن"(٧). وبينما اتسم عهد بعضهم "بالقتل وسفك الدماء والإرهاب" فقد اتسم عهد آخرين منهم "بالصلاح والعدل والخير"(٨).

ويمكن القول إن الداخل الحجازي السياسي في هذه المرحلة، كما في معظم مراحل تاريخه الحديث والمعاصر، يتلخّص بأنه استمرار لثلاث ظاهرات رئيسة: أولاها ظاهرة الصراعات بين الأطراف المتنافسة على المكاسب السياسية

والاقتصادية، والتي كان من أبرزها الصراع بين أشراف الحجاز أنفسهم، والصراع بينهم وبين باشا صنجق جدّة العثماني على العائدات الجمركية لمينائها من جهة، وعلى النفوذ والسيطرة على شؤون الحجاز ككلّ من جهة أخرى. وكان هذا الباشا يستطيع الوصول إلى كلّ ذلك عندما كان يتولى إمارة مكة شريف مسالم أو ضعيف، أمّا الأمراء الأشراف الأقوياء فكانوا يتجاهلون في بعض الأحيان حتى أوامر السلطنة العثمانية نفسها. وكان هناك أيضاً الصراع بين الأشراف وبين العناصر البدوية، وبينهم وبين أمراء الحجّ.

والظاهرة الثانية هي ظاهرة القلاقل والاضطرابات الشعبية المستمرة بسبب هذه الصراعات وبسبب الغلاء والجوع والكوارث الطبيعية.

أما الظاهرة الثالثة فهي مسيرة قوافل الحجّ السنوية وإجراءات حمايتها وتسهيل ورعاية أمورها وتنظيمها. كان الأمير الشريف يعتمد في إجراءاته بهذا الخصوص، بالإضافة إلى قواته الخاصة، على الحصون والحاميات العثمانية العسكرية، وعلى نفوذه لدى القبائل العربية المخيّمة على طرق القوافل، لمنع بدوها وبدو غيرها من التعرض لها، في شتى الاتجاهات القادمة منها من جميع أنحاء العالم، والتي كانت تتوزعها خمسة تجمعات رئيسة: تجمع قافلة الحجّ الشامي، والمصري، والعراقي، واليمني، والعُماني. وهي ظاهرة سياسية بقدر ما هي ظاهرة اجتماعية- ثقافية- اقتصادية، نظراً للمضامين التي كانت تحملها وللأنشطة التي كانت ترافقها. ولقد أصبح دخل الحجاز من مواسم الحجّ والمكوس قسمة بين أمرائه الأشراف والحكومة العثمانية منذ عام ١٠٤٠/١٦٣٠، وعلى أن تتكفل بشؤون الحجاج وعمارة الحرمين، فمن هم أبرز هؤلاء الأمراء؟

٢- أبرز أمراء الحجاز في الفترة الثانية من المرحلة الأولى:

بدأ التاريخ الحديث لإقليم الحجاز، في مرحلته هذه كما رأينا، مع حكم الشراكة بين الشريف بركات وابنه أبي نمي، والذي استمر عدّة سنوات فقط استقلّ بعدها هذا

الأخير بالإمارة فيما بين ٩٣٠/١٥٢٤ و٩٧٢/١٥٦٥، وأبو نميّ هو أول من وضع قواعد للشرافة الحاكمة دعاها أهل الحجاز بـ "قانون أبي نميّ"[٩]. وهو عبارة عن ست وثلاثين مادة، أهمها مادة جعل الإمارة إرثاً في أسرته، ومادة منع الأشراف من الاشتغال ببعض المهن، والمواد المتعلقة بحقوق الأشراف على العامة والتي بالغ فيها كثيراً. لقد عايش السلطنة العثمانية في عصر قوتها وفي احتلالها لليمن، وتحالف معها، كما سنرى، ضدّ الاستعمار البرتغالي، ومن أجل بناء أسوار جدّة، وإصلاح الكعبة وعمارة وتوسيع المسجد الحرام المكّي، وجرّ المياه من عين زبيدة في منى إلى مكة المكرمة، وإغناء المسجد النبوي بالكثير من التحف والنفائس وأهمها الكوكب الدرّي المشهور[١٠].

لكن الشريف "أبو نمي" رفض الانصياع لبعض الأوامر السلطانية التي رأى فيها تقليصاً لنفوذه يقلل من شأنه لدى ناسه، كرفضه الانصياع لتعيين المفتي التركي في مكة في عام ٩٤٦/١٥٣٩، وكرفضه الانصياع في عام ٩٥٤/١٥٤٧ لأوامر منع الأمير الشريف من توسيع حدود الإمارة إلى أبعد من حدود الحجاز التقليدية، أي ما بين خيبر ورأس القنفذة فقط[١١]، حيث حاول، كما حاول الكثير من خلفائه، مدّ هذه الحدود لتشمل نجداً وعسير وغيرها وخاصة الإحساء. استلم بعد الأمير أبي نميّ ابنه الشريف حسن[١٢]، الذي قدم التسهيلات للعثمانيين في حروبهم ضدّ ثورة الإمام القاسم في اليمن وضدّ بني خالد في الإحساء الذين نجحوا في التصدي لحملته ضدّهم في عام ٩٦٨/١٥٨١.

حتى عام ١٠٩٩/١٦٨٨ كان الأشراف في مكة ولمدة مائة عام تقريباً من نسل عائلة بركات وحدها، أما بعد ذلك، حتى قدوم محمد علي عام ١٢٢٦/١٨١١، فقد برزت عائلة زيد من آل قتادة أيضاً، منافسة لها وتناوبت الحكم معها.

٣- إقليم الحجاز وسياسة الخارج في الفترة الثانية من المرحلة الأولى:

خضع إقليم الحجاز على المستوى الخارجي، في هذه الفترة من المرحلة الأولى من تاريخه الحديث، لظاهرتيْن أساسيتيْن: أولاهما إسهاماته، كبقية الأقاليم

العربيـة، فـي التصـدي للاسـتعمار الأوروبـي فـي محاولاتـه للسـيطرة عليـه وعليهـا، وثانيتها كانت توجهاته التوسعية باتجاه عسير ونجد والإحساء وما تعلق بها من مواقفه العدائية من الحركة الوهابية. ولنا وقفة مع كل ظاهرة منهما.

أ- الحجاز والعثمانيون والتصدّي للاستعمار البرتغالي:

بعد وفاة السلطان سليم في عام ٩٢٦/١٥٢٠ تولى السلطنة بعده ابنه سليمان القانوني الذي استمرّ في الحكم حتى عام ٩٧٣-٩٧٤/١٥٦٦. أدرك أنّ تطلعاته لتكريس السيطرة العثمانية وتوسيع دائرتها أكثر فأكثر مرتبطة بتوافر ثلاثة شروط أساسية: أولها هو شرط وجود القوة العسكرية البرية والبحرية القادرة على الانتصار، وثانيها هو شرط وجود الجبهة الداخلية الإسلامية القوية المتماسكة، وثالثها هو شرط توفر الجبهة الآنية القوية في مناطق حدود السلطنة واتصالها مع أعدائها ومنافسيها غرباً وشمالاً. وآمن بأولوية تأمين الشرط الثالث على تأمين الشرطيْن الأول والثاني، أي تأمين الجبهة العثمانية القوية في مناطق اتصالها مع العدو شمالاً وغرباً، وذلك لأنها المصدر الأساسي للخطر الحقيقي، فكان أن وجّه جهوده نحو تعزيز هذه الجبهة. ولا شك أن افتقاد أوروبا للوحدة والقوة في فترة حكمه، بسبب خضوعها للانقسامات القومية والدينية وللصراعات، ومنها الطبقية والسلطوية، كان سبباً مهماً أيضاً من أسباب تشجيعه على هذا التوجّه.

استغلّ السلطان سليمان بالدرجة الأولى انقسام أوروبا إلى معسكريْن سياسييْن متحاربيْن: معسكر أول بزعامة ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة "شارل الخامس" أو "شارلكان"، ومعسكر ثان بزعامة ملك فرنسا "فرانسوا الأول"، ليدعم هذا الأخير ضدّ الأول، وليمنع بذلك أية وحدة أوروبية "صليبية"، أي وحدة تسيّس الدين فتجيّش الناس باسم الصليب، والتي كان يدعو إليها البابا. هذا ممّا يفسّر الامتيازات التجارية التي وهبها لفرنسا وملكها فرانسوا الأول بموجب معاهدته معها عام ٩٤٢/١٥٣٥. كما استغلّ الصراع الديني في أوروبا بعد الإصلاح البروتستنتي عام ٩٢٣/ ١٥١٧، والذي قسمها ما بين فريقيْن متنازعيْن:

الكاثوليك والبروتستانت، وليدعم هؤلاء الأخيرين، موجّهاً إياهم إلى التعاون مع فرنسا، على الرغم من أنها كاثوليكية، ضدّ الإمبراطورية الجرمانية المقدسة. ولقد شكّل دعم الدولة العثمانية للبروتستانت أحد الثوابت الأساسية في سياستها خلال القرنين، السادس عشر والسابع عشر[١٣]، ممّا يفسّر منحها الامتيازات التجارية إلى إنكلترا البروتستانتية عام ١٥٨٠/٩٨٨ ثمّ إلى هولندة البروتستانتية عام ١٦١٢/١٠٢١. وكانت قد منحتها إلى البندقية وجنوة عام ١٥٢١/٩٢٧.

وأدرك السلطان سليمان أهمية تحكم دولته أولاً بالبحر الأحمر مفتاح أمن المنطقة العربية منذ القديم وحلقة الوصل بين القارات الثلاث، أفريقيا وآسيا وأوروبا، وعنصر الأساس في أمن مصر والحجاز واليمن وبقية الممالك الإسلامية على سواحله الإفريقية، وتحكمها ثانياً ببحر العرب الذي لا يمكن لطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند أن يكون مفيداً بدونه، و ثالثاً بالخليج العربي وبامتداده خليج عُمان. وتطلّع إلى استرجاع الهيمنة على الإمارات والممالك المهمة سواء في سواحل أفريقيا أو الهند أو في الطريق إليها. وكان عليها، وقد أصبحت امبراطوريتها "القوة العسكرية والبحرية الأولى في شرق المتوسط والبحر الأحمر" مجابهة الإسبان شمالاً ومجابهة البرتغاليين جنوباً[١٤]. بالإضافة إلى ذلك فقد أسهمت عوامل أخرى في إسراعه في توجهه نحو التصدّي للخطر البرتغالي، ونكتفي بذكر أكثرها أهمية:

١ً- لأن البرتغال كانت القوة الأوروبية الأكثر خطورة، والتي كانت تتقنع بلبوس الدين داعية إلى حرب "صليبية" ضدّ البلدان الإسلامية، وخاصة بعد تحالفها مع بعض الحكام الأحباش الطامعين في إشعال هذه الحرب في البحر الأحمر[١٥] غرباً، بهدف السيطرة عليه. ولقد قام أسطولها عدة مرات، فيما بين عامي ١٥١٧/٩٢٣ و ١٥٣٨/٩٤٥، باختراق البحر الأحمر، وبتهديد الأماكن المقدسة في الحجاز، وبمحاولة احتلال جدّة متحدياً القوة العثمانية فيها.

٢ً- لاتساع جبهة المواجهة مع البرتغال في البحر الأحمر وبحر العرب، ثم الخليج العربي بعد نجاح الدولة العثمانية في طرد الصفويين واحتلال بغداد عام ١٥٣٤.

٣- لخطورة الوضع في الهند واستنجاد مسلميها وحكامها المتكرر بالدولة العثمانية ضدّ الخطرين، البرتغالي والمغولي، ممّا كان يعني وجود الحلفاء المحليين الذين كان من الممكن الاستفادة منهم في تحقيق غرض مزدوج: استكمال زعامة العالم الإسلامي واستعادة الهيمنة على تجارة الشرق الغنية(١٦).

بناء عليه، كان قرار السلطان سليمان القانوني بالقيام بحملة السويس في عام ٩٤٨/١٥٤١ ضدّ البرتغاليين، بقيادة واليه على مصر سليمان باشا الخادم، والتي أجبرت أسطولهم على التراجع دون أن يجرأ على القتال. وكان على التحالف العثماني-العربي أن يواجه خطراً آخر فيه، حليفاً للعدو البرتغالي، وهو الخطر الحبشي. عملت السلطنة العثمانية على حصار الأحباش خلال استغلال وجودها على سواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية وفي مصر والحجاز، ومن خلال قيامها بالتعاون مع أشراف هذا الإقليم الأخير، وقيامها بتقديم الدعم المادي والمعنوي والحربي لمملكة عادل الإسلامية المجاورة للحبشة، والتي لم تنقطع عن حربها معها. ونجحت السلطنة في إشعال حرب إسلامية ضدّ الأحباش، اشترك فيها الحجاز، وانتهت بسقوط معظم مدنهم.

ثم، وحرصاً على عدم العزلة، في أوساط العرب والمسلمين، وشعوراً بالانتماء التاريخي لهم، وإرضاء لكنيسة الاسكندرية الشرقية التي كان يتبع لها مسيحيو الأحباش، والذين انقسموا بين مؤيد لاستمرار التبعية لها وبين الانضمام إلى الغرب والبابوية الكاثوليكية، فقد تحوّل حاكمهم الإمبراطور فاسيلاداس (Vassiladas)(١٧) (١٠٤٢/١٦٣٢-١٠٧٨/١٦٦٧) من التحالف مع البرتغاليين إلى التحالف مع العثمانيين وأشراف وعرب الحجاز، وأسهم معهم في إغلاق الموانئ في البحر الأحمر في وجه أي أسطول برتغالي، هذا بالإضافة إلى سماحه بانتشار الإسلام في بلاده. وهنا لا بدّ من التأكيد على دور نشاط ولاية "الحبش" التي تبعت للسلطنة العثمانية والتي تكونت من موانئ سواكن ومصوع وزيلع، في زيادة نسبة انتشار الإسلام في بلاد الحبش وأفريقيا. وكذلك التأكيد على أن خروج الحبشة من دائرة

النفوذ البرتغالي كان ضربة كبيرة لصالح العثمانيين والعرب في صراعهم مع هذا النفوذ، وخاصة في البحر الأحمر.

وحرصاً على منع التسلل البرتغالي، والأوروبي عموماً في هذا البحر، وتهديد هيمنة وهيبة السلطنة العثمانية من خلال تهديد الأماكن المقدسة في الحجاز، وحفظاً لهذه الهيمنة والهيبة مستقبلاً، وطمعاً في احتكار الاستفادة من العائدات الجمركية ومن مهمات نقل التجارة الأوروبية عبره، فقد منعت السلطنة الملاحة الأوروبية فيه ما بين المخا والسويس. أدّى هذا إلى بروز أهمية ميناء المخا على حساب تراجع أهمية ميناء جدّة، وكلّ منهما كان تابعاً لأشراف الحجاز التابعين بدورهم لهذه السلطنة. وهكذا نجحت السلطنة العثمانية، بسبب تعاونها مع العرب عموماً وعرب وأشراف الحجاز خصوصاً، في التصدّي بنجاح للاستعمار البرتغالي في البحر الأحمر فعاد بحراً عربياً–إسلامياً تحت الهيمنة العثمانية.

ب- الحجاز والتوسع في الفترة الثانية من المرحلة الأولى:

استمر أشراف الحجاز في هذه المرحلة في محاولاتهم التوسعية على حساب المناطق المجاورة له، وخاصة في عسير ونجد والإحساء وبعض أطراف اليمن(١٨). وكان يتمثل إخضاعهم لها في جباية الأموال وأخذ الهدايا فقط، ويتمّ سلمياً حيناً وحرباً قاسية عنيفة حيناً آخر. ولقد رأينا تخوف السلطنة العثمانية من امتداد نفوذهم هذا، ومحاولتها تقليصه، ونقض الشريف أبي نميّ لقرارها بهذا الشأن، وبحيث شمل نفوذه منطقة عسير الواقعة بين الحجاز واليمن ونجد.

وشمل نفوذ ابنه حسن أيضاً منطقة نجد، ومنها الرياض، منذ قام بحمْلَته إليها عام ٩٨٦/١٥٨٧، وكذلك منطقة الخرج منذ عام ٩٨٩/١٥٩٠. وهزم بني خالد في الإحساء وساعد العثمانيين على القضاء على إمارتهم عام ٩٩٠/١٥٩١. وانتهى نفوذ الأشراف فيها وفي نجد الشرقية مع استعادة بني خالد لسيطرتهم عليها عام ١٠٨٠/١٦٦٩. أما بالنسبة لسيطرتهم على عسير ونجد الغربية فقد انتهت مع

توحيدهما في ظلّ الدولة السعودية الأولى بعد فترة من ظهور الدعوة الوهابية التي سنتابع ردّ فعل أشراف الحجاز والسلطنة العثمانية حولها بعد تعرفنا عليها من خلال دراسة إقليم نجد في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث.

ثانياً)- إقليم نجد في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:

ينقسم تاريخ إقليم نجد في هذه المرحلة إلى فترتين رئيسيتين: الأولى الممتدة حتى ظهور الحركة الوهابية في القرن الثامن عشر، والثانية الممتدة بعده حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥،وسنبدأ بمتابعة الأولى بالطبع.

I - إقليم نجد في الفترة الأولى الممتدة قبل ظهور الدعوة الوهابية:

بقيت أوضاع إقليم نجد[١٩] في بداية تاريخه الحديث هي نفسها المسيطرة قبليه ثمّ، وبعد سيطرة العثمانيين على أطرافه غرباً في الحجاز وشرقاً في الإحساء، قد استمرّ مستقلاً عن سلطتهم تماماً، بحيث لم يظهر ضمن قائمة التقسيمات الإدارية الموضوعة في القرن السابع عشر، والتي ظلّ معمولاً بها حتى القرن التاسع عشر، وبحيث انتفى فيه أي وجود لولاة عثمانيين أو لحاميات عسكرية تركية تجوب دياره[٢٠]. إلاّ أنه بقي موضوع اهتمام ومطامع أمراء الإحساء وأشراف الحجاز، وكثيراً ما استطاعوا إخضاع معظم إماراته إلى سلطتهم. وغالباً ما خضعت منطقة نجد الشرقية إلى أمراء الإحساء مقابل خضوع منطقتها الغربية إلى أشراف الحجاز. ساعدهم معاً على ذلك انحدار أوضاع إقليم نجد المتمثّل بخضوعها لستّ ظاهرات رئيسية:

الأولى ظاهرة الشرذمة والتفرقة والصراع والفتن، فالعصبيات فيه "كانت قائمة على قدم وساق، لكل عشيرة دولة، ولكل قرية مشيخة تعتز بسلطانها وتشيد باسمها، ولكل حاكم من أولئك الحكام حوزته الخاصة يحكمها حكماً مطلقاً، لا تربطه بجاره أية رابطة"[٢١]، فتعددت الدول، وكثرت الإمارات والمشيخات، وسادها جميعاً

علاقات الفتور والجفاء والمحاربة والتآمر والصراع. وساد فيه ككلّ الظلم والقهر وفكر الجبرية والبدع والخرافات.

الظاهرة الثانية كانت متعلقة بتطور إمارة الدرعية التي كانت تنمو وتتسع جزئياً على حساب بقية جيرانها من إمارات بني حنيفة، وخاصة بعد انتصارها على آل يزيد وآل دغيثر والاستيلاء على منازلهم، والتي كان أمراؤها من أحفاد مانع المريدي وابنه ربيعة يتصارعون على حكمها[٢٢]. وعمّت الفوضى فيها وطمع فيها الطامعون، وكان أن نجح بنو خالد أمراء الإحساء في السيطرة عليها بين عامي ١١٠٧/١٦٩٥ و١١٢٢/١٧١٠. بعد ذلك عادت الصراعات فيها إلى أن استلم الحكم في عام ١١٣٧/١٧٢٥ محمد بن سعود الذي تنتسب إليه العائلة السعودية، والذي تزوج موضى بنت أبي وهطان من آل كثير، واستطاع توطيد الأمن والاستقرار في الإمارة، التي كانت قد عادت حين استلامه لها لتكون بلدة صغيرة لم يتجاوز عدد بيوتها يومئذ السبعين بيتاً[٢٣]. كانت قد تقلّصت نتيجة لانتشار الظاهرة الثالثة المتمثّلة في حمّى الصراعات والتفرقة والتفكك التي رأيناها فيها وفي إقليم نجد عموماً في هذه الفترة. وفي عهد هذا الأمير كان ظهور الدعوة الوهابية.

الظاهرة الرابعة هي انتشار وتصاعد واقع البؤس والجوع، نتيجة لازدياد الفروق الاجتماعية وانهيار الاقتصاد المحلي، بسبب ضعف تطور مستوى وفعالية القوى المنتجة وخاصة في المجتمع البدوي، وبسبب تصاعد عملية الاستغلال الاجتماعي من قبل الإقطاعيين والتجار والأمراء والمشايخ ومتعاطي الربا. وإن تراجع التجارة بشكل خاص، نظراً لفقدان الأمن وعدم استقرار النظام وانتشار الفوضى، قد أدى إلى فقدانها لأهميتها كمورد رزق لأهل نجد له تأثير رئيس في حياتهم منذ زمن طويل، حيث أن من "صفات أهل نجد التجارة"[٢٤].

الظاهرة الخامسة هي انتشار البدع والخزعبلات على حساب قواعد الدين الصحيحة، كتقديس القبور والأضرحة، وتقديم النذور تارة إلى شجرة "الذيب"

المعروفة آنذاك في نجد، وأخرى إلى غار الدرعية، أو إلى نخيل الفدا الخ...[٢٥]. وذلك لجلب منفعة أو لدفع ضرر، وبحيث أضحت هذه الأمور عقيدة راسخة عندهم. هذا في الوقت الذي كان فيه مذهب ابن حنبل هو المذهب "الغالب في إقليم نجد، فلم تذكر ترجمة لقاض من قضاة إماراته إلاّ ومن بين أوصافه الحنبلي، ولم يذكر عالم حنبلي في القاهرة أو في دمشق دون أن يكون من بين أساتذته أحد النجديين"[٢٦]. طبعاً لم يكن إقليم نجد بمعزل عن تأثير الطرائق الصوفية، مثله في ذلك مثل بقية الوطن العربي، وذلك على الرغم من الانتشار الواسع لمؤلفات ابن تيمية فيه، أي في إقليم نجد، وهو العدو الأول لهذه الطرائق.

الظاهرة السادسة والأخيرة كانت نتاج كلّ الظاهرات المذكورة، وهي بروز الحاجة إلى الإصلاح لدى بعض من الفقهاء ومن أبرزهم عثمان بن أحمد النجدي المتوفى سنة ١٠٩٧/١٦٨٥،وعُرِف بمصنفاته التي وضعها في الفقه الحنبلي[٢٧].

في أجواء جميع الأوضاع المذكورة لإقليم نجد ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبرزت حركته التي نقف عندها الآن، والتي ستكون معطياتها بالطبع أكثر غنىً عنها في كتابنا الجامعي السابق حول تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، الذي طبع عام ١٩٩٤، بحكم مستجدات وثائقها ومعطياتها اليوم.

II – إقليم نجد في الفترة الثانية من المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من ظهور الدعوة الوهابية حتى تشكل الدولة السعودية الأولى:

مرةً ثانيةً نذكّر أنّ حديثنا عن الحركة الوهابية هنا لا يتعلق بها اليوم، وإنّما هو متعلق بتاريخها الحديث الممتد منذ ظهورها في النصف الأول من القرن الثامن عشر حتى نهاية دولة محمد علي العربية عام ١٢٥٧/١٨٤١. ونذكّر أيضاً أنّها قد برزت، من حيث تقييمها في التاريخ الحديث هذا تحديداً، وليس اليوم، كقضية إشكالية أثارت كثيراً من الاختلافات التي توزّعت في ثلاث رؤى رئيسية لها، نستعرضها جميعها بإيجاز وبكلّ موضوعية واعتماداً على المصادر المعنية، كما

في كلّ إشكالية، بحيث نمتلك المعطيات والمقدمات الصحيحة التي، وحدها، تمكّننا من أن نتوصّل إلى الحقيقة التاريخية.

قبل حديثنا عن الرؤية الأولى، التي تتبنى طرح الوهابية لنفسها على أنّها دعوة "إصلاحية"[٢٨]، نجد من الضروري لفت الانتباه إلى أنّ كثيراً من أصحابها قد كتبوها في مراحل سابقة ووفق معطياتها المتداولة، حيث لم تكن قد برزت بعد المستجدات التوثيقية، ومعطيات ثورة المعلوماتية والثورة الإعلامية في الإنترنيت وشبكات وسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي التي من شأنها عولمة المعلومات أي تعميم نشرها في العالم كلّه. وبعضهم، ممن اعتمدت عليهم في عرض هذه الرؤية، أساتذة في قسم التاريخ معروفون بتميزهم العلمي والوطني والعروبي القومي الإنساني، ولو كتبوا عنها بمعلومات اليوم لكانت كتابتهم مختلفة.

هذه الرؤية تجد أنّ الوهابية في القرن الثامن عشر وفي التاريخ الحديث عموماً، وليس اليوم، كانت تطرح نفسها كدعوة "إصلاحية" لسببين[٢٩]: الأول هو أنّ مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من خلال حياته ورحلاته واطلاعه على الأوضاع المنحدرة التي آل إليها العرب والمسلمون، من تفرقة وضعف وفقر وجوع وجهل، وخروج عن أصول الإسلام، واستسلام للبدع والطرق الصوفية والعادات الوثنية، قد استشفّ حاجة مجتمعه إلى الوحدة والإصلاح، فخرج بدعوته "الإصلاحية" "السلفية"[٣٠] كما يراها أصحاب هذا الرأي. السبب الثاني هو أنها قد أسهمت في إسقاط الرابطة العثمانية لصالح اليقظة العربية والصحوة الإسلامية ببيان زيف "الإسلام الرسمي"[٣١] للحكومة العثمانية وبالتالي زيف أساسها الإسلامي الذي قامت عليه وتحكم باسمه. من هنا كان الوهابيون يتهمون الأتراك بأنهم "غير مسلمين من حيث أخلاقهم ومظاهر حياتهم"[(٣٢)]، و"يضمرون لكلّ شيء تركي استهانة لا تحتمل" وفق ما ذكره لونكريك (LONGRIGG)[٣٣]، ومن هنا كانت حركتهم تبيّن تناقض الممارسات الخاطئة للنظام الديني لهذه الحكومة مع مبادئ إسلام القرآن والسنة والسلف الصالح "لأنه لم يستطع في نظرها أن يحافظ على ممتلكات الدولة

الإسلامية، بسبب اختلال أموره، ودخول البدع والضلالات إلى عقيدته الدينية، على نحو أطمع الكفار في هذه الممتلكات، ولذا كانت دعوتها إلى تنقية هذه العقيدة مما علق بها على مرّ العصور، وضمّ الأقاليم العربية الإسلامية تحت راية التوحيد"(٣٤). وآمن ابن عبد الوهاب وأتباعه بـ"أنّ السلاطين الترك هم الذين أزالوا الخلافة من قريش وانتحلوها لأنفسهم، والعرب أولى بها من الترك"[٣٥].

الرؤية الثانية ترفض اعتبار الوهابية حركة "سلفية إصلاحية"، ليس فقط لأنها تكفيرية وخارجة بالتالي عن القرآن والسنّة والسلف الصالح، وإنما لأنّها تخدم مخططاً بريطانياً لتفرقة العرب والمسلمين، وليؤكّد بعض أصحابها الأصول اليهودية لأسرة محمد بن عبد الوهاب ولأسرة حلفائه آل سعود [٣٦]، وليرى البعض الآخر فيه عميلاً لجاسوس بريطاني هو همفر (HEMPHER) الذي فضحه في مذكراته، التي نُشِرَت لأول مرة بالتركية في الدولة العثمانية عام ١٣٠٦/١٨٨٨[٣٧]، والتي يتحدث فيها عن مهامه وأغراض دعوته في بثّ وزرع كلّ ما من شأنه ضرب وحدة وتطور وقوة ونهضة العالمين، العربي خصوصاً والإسلامي عموماً[٣٨]، ويتحدّث فيها عن أنّ "التاريخ قد أثبت أنّ الحكومات الدينية أكثر دواماً وأشدّ نفوذاً وأرهب جانباً"[٣٩] ولهذا فقد عملت بريطانيا على تحالف "المحمّديْن"[٤٠]، أي محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود، لتشكيل الدولة السعودية الوهابية.

أما الرؤية الثالثة فترى أنّ محمد بن عبد الوهاب ودون أيّ تشكيك بأصوله، وبغض النظر عن أنّه كان جاسوساً أم لم يكن، فإنّ دعوته، إذ هي تكفيرية فعلاً، فقد خرجت عن القرآن والسنة والسلف الصالح، سلف الخلفاء الراشدين، وتحوّلت إلى حركة "سلفوية" تخدم فعلاً مصالح أعداء الأمة عن قصد أو بدون قصد، والنتيجة واحدة. حيث أنّه ولمجرد أنّها قد كفّرت، زيفاً وبدون حقّ، جميع من رفض دعوتها من المؤمنين من جميع المذاهب الإسلامية، السنية والشيعية، وزرعت الفتنة وأشعلتها وفرقت المسلمين وشرّعت القتل في صفوفهم، فقد أضعفتهم أكثر فأكثر، خادمة بالتالي الأهداف الجاسوسية التآمرية لأعداء الأمة في جهودهم من أجل

تفرقتها وتجزئتها وتعطيل عقولها لتكريس تخلفها وضعفها. الأمر الجدير بالاهتمام، وذو الدلالات الهامة والذي يساعد كلّ حريص على تكوين قناعته بكلّ علمية وموضوعية، هو أنّ الممثِّل الأول بجدارة لمن رفضوا الحركة الوهابية فكراً وممارسةً، والذي كان أفضل من ردّ على محمد بن عبد الوهاب، ووقف مع الثائرين ضدّه كما سنرى، هو أخوه سليمان بن عبد الوهاب، الفقيه الإسلامي والقاضي العدل المشهود له. وإنّه إذ يؤكّد ما قاله في أخيه كثير من علماء وفقهاء المسلمين آنذاك، فقد فرض نفسه علينا على أنّه المصدر الموثوق الأول الذي يجب اعتماده في تقييمنا للدعوة الوهابية وحكمنا عليها كما سنرى. والآن ماذا عن هذه الدعوة والمواقف منها ومن وثائقها ومصادرها الحقيقية؟

نبدأ بتسمية "الوهابية": أتت نسبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المنحدر من قبيلة تميم في نجد، والذي ولد عام ١٧٠٣/١١١٥، وكان أبوه قاضي مدينة "العيينة" في أعالي نجد[٤١]. وقد أطلق أعداؤه من علماء المسلمين ومفتيهم آنذاك، وخاصة في الحجاز، هذه التسمية على دعوته ليدلوا من خلالها أن مبادئه التي يدعو إليها هي فردية ذاتية منطلقة منه حصراً، وأنها بدعة جديدة خارجة عن مبادئ الإسلام وتوقع صاحبها في الكفر[٤٢]. ونظراً لأنّ أتباعها قد خرجوا عن السنة والجماعة مثلهم مثل الخوارج، فقد أُطْلِق عليهم في الوثائق العثمانية المعنية، ومنها الموجود في دار الوثائق القومية في القاهرة، تسمية "الخوارج"[٤٣]، إضافة إلى تسمية "الوهابيين"، فماذا يقول ابن عبد الوهاب وما هي مبادئه؟

التزاماً بالموضوعية نجد أن نعرض، وبإيجاز شديد، مبادئ الوهابية وفق ما جاءت في مؤلفاته ومؤلفات أنصاره تماماً[٤٤]، ثمّ نترك بعد ذلك لأخيه الفقيه القاضي سليمان، كممثل لكلّ من رفضها من علماء وفقهاء المسلمين في الحجاز وخارجه، الردّ الإسلامي الصحيح عليها وبيان حقيقتها ومدى مصداقيتها والفرق بين مبادئها العامة حول التوحيد والتي لا خلاف عليها كما سنرى وبين تفسيراتها وتفاصيلها الخاطئة، وفي التفاصيل يكمن الشيطان.

محور الوهابية هو التركيز على التوحيد، على الإيمان بالله الواحد الأحد دون أي فعل يحمل معنى الشرك، "فلا يجوز الإشراك بالله"[٤٥]، "وما من أحد غيره يستحق التبجيل والإجلال والتقدير"[٤٦]. وعليه "لا يجوز الاستجارة إلا بالله"[٤٧]، ويجب تنقية الدين وتخليصه مما دخله من البدع وطرح كلّ ما لم يرد في القرآن والسنة من الأحكام والتعاليم، والرجوع بالدين إلى فطرته وبساطته عند السلف الصالح. لهذا يفضّل وأتباعه تسمية أنفسهم بـ"موحدين" أو "أخوان" أو "سلفيين" أو "حنابلة"[٤٨]. يقول بن عبد الوهاب إنّ دعوته لم تأت بمذهب جديد وإنما هي حنبلية المذهب، وتستند إلى مصدري القرآن والسنّة فقط، وتجتهد بما ينسجم مع ما جاء فيهما، وتعترف بالأئمة الأربعة المؤسسين للمذاهب السنية[٤٩]، وإنّها على طريقة الشيخ تقي الدين بن تيمية (٦٦١/ ١٢٦٣- ٧٢٨/١٣٢٨) بشكل أساس.

ويلاحظ بالفعل تأثر الوهابية بابن تيمية تماماً وخاصة في موقفه من النبي الكريم محمد (ص) ومن طاعة أولي الأمر والتوحيد والشرك والبدع والصوفية، حيث ترى في النبي إنساناً من البشر اختاره الله للنبوة وعليه فلا يجوز طلب أي شيء منه ولا الاستعانة والاستنجاد به ولا تقديس قبره ولا عبادة الأماكن المرتبطة بحياته[٥٠]. وترى أنّ الرعية يجب أن تطيع حاكمها إلا إذا أمر بمعصية[٥١]، "وأنّ عذاب الجحيم من نصيب كلّ متمرّد على الأمراء"[٥٢]. وتستنكر الوهابية الطرق الصوفية وكثيراً من البدع المتفشية بين المسلمين والتي ترى فيها "أم الكبائر"[٥٣]، وشركاً بالله، ويجب منعها، ومنها كذلك بدع زيارة القبور والتبرك بها والاستعانة بأصحابها، وامتد مفعول هذا المنع إلى زيارة قبر الرسول الكريم محمد (ص) وجميع قبور الصحابة[٥٤] إلخ... ومن تعاليم الوهابية تحريم شرب الدخان ولبس الحرير والتزين بالحليّ والجواهر، وتحريم النذور وإقامة المزارات ونصب القباب على القبور واعتبارها مخالفة لأحكام الدين ويجب هدمها. تعتبر الوهابية أنّ كلّ من يفعل هذه البدع هو كافر، وكلّ من لم يكفّره هو كافر أيضاً. ولتكون النتيجة بعد إعلان الدعوة اعتبار جميع المسلمين المعاصرين لها ولا يؤمنون بتعاليمها "أكثر شركاً من

الجاهليين في الجزيرة العربية"[٥٥]، أي تكفير كلّ من لم يؤمن بها سنّياً كان أم شيعياً، وعلى أنها وحدها هي الفئة الناجية يوم الحساب.

وفيما يخصّ ابن تيمية أستاذ ابن عبد الوهاب، فإنّ الغالبية العظمى من علماء وفقهاء المسلمين المعاصرين له، في الحجاز ومصر وبلاد الشام وغيرها، كانت قد رفضت أفكاره في التجسيم والتشبيه والإساءة إلى الرسول الكريم وإلى الصحابة مما يفسّر تأكيد البعض من الباحثين على تأثره بالعقيدة اليهودية[٥٦]، وأنكرت فتاويه في تعصبه وتكفيره لكلّ من لم تكن أفكاره منسجمةً مع آرائه من كل المذاهب الشيعية والسنية على حدّ سواء، ومنهم من كانوا في صفوف الأشاعرة والمعتزلة والحنبليين والحنيفيين والشوافعة والصوفيين وأتباع محيي الدين بن عربي وابن رشد والغزالي وغيرهم[٥٧]. وهو أمر من الواضح تناقضه مع ما طرحه هو نفسه، أي ابن تيمية، حول ضرورة "رفض المسارعة إلى التكفير" دون حجة بيّنة وإعلام ويقين، وضرورة الالتزام بالسنة في رفض أي تكفير لأهل القبلة والشهادة[٥٨] التي هي الإيمان بالله الواحد الأحد، والتي هي الركن الأول من أركان الإيمان والإسلام معاً عند جميع المسلمين بكلّ مذاهبهم وفرقهم دون أي استثناء. وما تقدم يفسّر اعتباره عند البعض "من أهم الشخصيات وأكثرها تناقضاً في الفقه والفكر الفلسفي الإسلامي"[٥٩].

وإذا كان ابن تيمية قد كُفِّر من قبل كثير من علماء المسلمين، وخاصة من علماء الحجاز ومصر وسوريا-الشام، لخروجه عن السنّة والجماعة، وسجن عدة مرات ومات في آخرها وفق إجماع المصادر، بتهمة الإساءة إلى رسول الله، فماذا عن موقف علماء المسلمين من تلميذه محمد بن عبد الوهاب؟ هناك شبه إجماع على أنّ محمد بن عبد الوهاب قد "قوبل بالرفض والاستهزاء والأذى"[٦٠] إثر جهره بدعوته في العيينة، بعد رحلته الأولى التي كانت إلى الحجاز في عام ١١٣٥/١٧٢٣، ووقف ضدّه معظم علماء المسلمين ومنهم علماء مكّة والمدينة، وكذلك والده وأخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، كما ذكرنا، وكلاهما عالمان

قاضيان فقيهان، ونقف عند ردّ أخيه، الذي ثبت وجوده وتأكدّت صحّة موقفه الرافض لدعوته كما رأينا وكما سنرى، باعتباره الأمثل والأفضل والجامع للمضامين العامة لجميع ردود هؤلاء العلماء كما ذكرنا. وقد عرض هذا الردّ في كتاب خاص له دُعِيَ "الصواعق الإلهية في الردّ على الوهابية"[٦١]. ويرجّح البعض أنّ سليمان لم يسمّ كتابه، لاسيما وهو في الأصل رسالة موجّهة إلى الشيخ حسن بن عيدان الذي استكتبه رأيه المعادي للدعوة كي يُصعِّد في غضب أخيه وأتباعه وحليفه السعودي ضدّه فَيُطْرد من قضاء حريملاء الذي كان طامعاً بمنصبه والذي سُلِّم إليه فعلاً عام ١١٧١/١٧٥٨. ولقد ذكر بعضهم الكتاب باسم "فصل الخطاب في الردّ على محمد بن عبدالوهاب"، وبهذا سمّاه محمد بن حميد الحنبلي في كتابه "السّحب الوابلة على ضرائح الحنابلة". وهو موجودٌ بهذا الاسم على بعض المخطوطات، لكنها متأخرة نسبياً. وفي المكتبة الأزهرية نسخة مخطوطة من الكتاب تحت عنوان "الردّ على منْ كفّر المسلمين بسبب النذر لغير الله والاستغاثة بغيره ونحو ذلك" وهناك نسخة أخرى بالعنوان ذاته في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد[٦٢].

لا أحد يشكك بوجود الشيخ سليمان بن عبد الوهاب وبموقفه المذكور المعادي لدعوة أخيه، ولكن هناك من يشكك بهذا الكتاب على أنّه من مصدر شيعي إيراني، وهناك من يرفض هذا التشكيك[٦٣] متسائلاً: لو كان الأمر كذلك فلماذا انتظرت إيران طويلاً لتقوم بذلك، بخاصة وقد نشرت الكثير حول الوهابية؟ ثمّ أنّ الطبعة الأولى من الكتاب ظهرت في الهند عام ١٣٠٦/١٨٨٨[٦٤]. ورأينا، بعد التأكّد من انسجام ما جاء فيه مع فكر الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ومواقفه، ومن منطقية كتابته له بالتالي، وبعد التمحيص في فترة نشره، التي شهدت مخاوف بريطانيا من خطورة إمكانية فقدانها السيطرة على توجهات الحركة الوهابية، أنّه كان في الخزائن البريطانية السرية، وحُجِب حيث استدعت المصالح البريطانية والغربية عموماً حجبه، ونُشِر حيث استدعت هذه المصالح نشره.

انتقد الشيخ سليمان فيه آراء أخيه محمد وفنّدها على أنّها "مذهب" متصف بالتعصب وخاص به وبأتباعه[٦٥]، مبيناً أنّ الخلاف معه ليس على مبادئ إسلامية عامة يتحدّث عنها وليست مجال جدل عند أحد، كالتوحيد والالتزام بإسلام القرآن والسنة والسلف الصالح، ولكن الخلاف هو على تفاسيرها الخاطئة وتطبيقاتها التكفيرية المنافية لحقائق القرآن والسنة والسلف الصالح، مظهراً خروج أخيه عن أصول الإسلام الصحيح وقواعد الاجتهاد وفق القرآن والسنة، وبالتالي عن إجماع السنة والمسلمين عموماً وخاصة فيما يتعلق بعدم جواز تكفير المسلمين ومن يشهد بالله وتكفيره الأمة كلّها. ويؤكّد سليمان بعد بيانه للصفات التي يُشترط وجودها عند الإمام المجتهد[٦٦]، أنّه لا وجود لها عند أخيه كلّياً ولا حقّ له بالتالي لا في الإمامة ولا في الاجتهاد، داعياً له دائماً وبصيغ مختلفة: "نبهنا الله وإياكم من الضلال" [٦٧].

يقول مخاطباً أخاه وأتباعه: "أنا أسألكم بالله هل اجتمع في رجل منكم شروط الإمامة التي ذكرها أهل العلم أو حتى خصلة واحدة من شروط الإمامة!!![٦٨]". "إنّ اليوم ابتلي الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما ولا يبالي من خالفه...ومن خالفه فهو عنده كافر...هذا وهو لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال أهل الاجتهاد، ولا والله عشر واحدة... ومع هذا راح كلامه على كثير من الجهّال فإنا لله وإنا إليه راجعون...الأمة كلّها تصيح بلسان واحد ومع هذا لا يردّ لهم في كلمة، بل كلهم كفار أو جهال...اللهم اهْدِ الضال وردّه إلى الحق"[٦٩]. "أخذتم هذا بمفاهيمكم وفارقتم الإجماع وكفّرتم أمة محمد (ص) كلّهم حيث قلتم من فعل هذه الأفاعيل فهو كافر ومن لم يكفّره فهو كافر"[٧٠]. وتزعمون أنّ كلامكم ومفهومكم إجماع؟!...يا سبحان الله أما تخشون الله!!! "[٧١]. "يا عباد الله تنبهوا وارجعوا إلى الحق وامشوا حيث مشى السلف الصالح وقفوا حيث وقفوا، لا يستفزكم الشيطان ويزيّن لكم تكفير أهل الإسلام، وتجعلون ميزان كفر الناس مخالفتكم وميزان الإسلام موافقتكم...فإنا لله وإنا إليه راجعون... أنقذنا الله وإياكم من متابعة

الأهواء"[٧٢]. ويستشهد سليمان بن عبد الوهاب بالقرآن والسنة ليبرهن على خطأ أخيه[٧٣] في تشريع تكفير وقتل وتفريق المؤمنين والمسلمين: يذكّره بقوله تعالى: "إنّ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء"[٧٤]، "إنّ الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً"[٧٥]. و"من يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً"[٧٦].

ويذكّره بقول الرسول الكريم محمد(ص): "كفّوا عن أهل لا إله إلاّ الله، لا تكفروهم بذنبٍ فمن كفّر أهل لا إله إلاّ الله فهو إلى الكفر أقرب"[٧٧]، ولأن الله وحده هو القادر على أن يعلم خفايا النفوس وهو وحده بالتالي من يحدّد المؤمن من الكافر، فإن النبيّ الكريم(ص) يقول: "إنّي لم أؤمر أن أنقّب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم"[٧٨]. ويقول: "لست أخاف على أمتي غوغاء تقتلهم، ولا عدواً يجتاحهم، ولكن أخاف على أمتي أئمة مضلّين، إن أطاعوهم فتننوهم، وإن عصوهم قتلوهم"[٧٩]. ومن باب التحذير لأخيه من خطورة ما يفعل يورد الشيخ سليمان نقلاً عن عبد الله بن مسعود قول رسول الله (ص): "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"، ويورد نقلاً عن عبد الله بن عمر قوله (ص): "اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا قالوا: وفي نجدنا؟ قال: هناك الزلازل والفتن ومنها يطلع قرن الشيطان"[٨٠].

وبوقوف أخيه، وهو الشيخ العالم والفقيه، ضدّ محمد بن عبد الوهاب منذ البداية، وباشتداد معارضة بعض الناس له واستمرار تعرضه "للاستهزاء والسخرية والطعن به والإيذاء"[٨١] فقد اضطر إلى مغادرة أهله من جديد باحثاً عن دعم لدعوته بعيداً عنهم، فكانت رحلته الثانية إلى العراق، وإلى البصرة تحديداً، في أواخر عام ١١٣٦/١٧٢٤، والتي اضطر إلى مغادرتها مطروداً منها بعد عامين فقط تقريباً من وجوده فيها، فعاد إلى حريملا حيث كانت أسرته قد انتقلت إليها بسبب خلاف والده مع أمير العيينة الجديد الذي نحّاه عن منصب القضاء فيها، فرحبت حريملا بوالده وولته قضاءها.

وكان ابن عبد الوهاب قد أقام وقتاً في الإحساء في طريقه إليها، يتصل بفقهائها ويتابع فيها جهوده في البحث والمطالعة. وهناك من ينفي وجود أية رحلات أخرى له إلى فارس أو غيرها وهناك من يؤكدها[٨٢]. والمهم أنه لم يلق الترحيب الذي كان يأمل به في حريملا، و"حدث بينه وبين أبيه كلام وجدال ثمّ بينه وبين أهلها[٨٣]، و"دارى الشيخ دعوته" حتى وفاة أبيه عام ١١٥٣/١٧٤٠، وليعلنها بعدها صراحةً، ولينشر كتابه الأول "التوحيد الذي هو حق الله على العبيد"[٨٤]. وبعد محاولة اعتداء عليه في حريملا حيث ولّي قضاؤها إلى أخيه سليمان، عاد إلى مسقط رأسه، العيينة، ليمارس نشاطه فيها بتشجيع أميرها عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر. وليقوم بعد ذلك بتحالفين اثنين كان لهما أكبر الأثر في إنجاح دعوة محمد بن عبد الوهاب، وفي انتقالها من مرحلة الجهد الفردي إلى مرحلة الجهد الجماعي، ويبينان بوضوح استخدامه، في محاولته لكسب الدعم له، الترغيب بمكاسب مادية.

التحالف الأول بعد موت أبيه في عام ١١٥٣/ ١٧٤٠ كان مع أمير العيينة المذكور الذي قال له حين اللقاء الأول: "إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلاّ الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجداً وأعرابها"[٨٥]. لقد قدم له هذا التحالف الدعم الذي ساعده على نشر دعوته وزيادة أتباعه في إقليم نجد، بداية، ثم على الانتقال بدعوته من مرحلة الجهد الفردي النظري، المتمثل في التدريس والتأليف وإقامة الندوات والمحاضرات والحوارات، ومراسلة جميع الأمراء والعلماء والمشايخ والفقهاء، إلى مرحلة الجهد الجماعي العملي[٨٦]، حيث هدم الكثير من القباب والمساجد التي بنيت فوق القبور، ومن ضمنها قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة[٨٧]، وقطع شجرة "الذيب" ذائعة الصيت[٨٨]، وإقامة الحدّ على مرتكبي الآثام[٨٩].

بعد فترة قصيرة من عمله هذا ضدّ ما اعتبره من البدع وضدّ ممارسيها، ومن خلال دعم أمير العيينة له، فقد خشي أعداؤه من العلماء والأمراء والمشايخ من تصاعد شهرته التي رأوا فيها خطراً يهدّد حقيقة الإسلام ووحدة المسلمين أولاً، ويهدّد زعاماتهم وامتيازاتهم، ثانياً، بتشجيع الناس على العصيان، فشكوا أمره وأمر سنده

عثمان بن حمد بن معمر، أمير العيينة، إلى سيّده أمير الإحساء سليمان بن محمد، مؤكّدين أنّه، أي بن عبد الوهاب، كان "يملأ قلوب الجهال والطغام بكلامه، ويقويهم بطريقته، فيخرجون على حكامهم ويعلنون العصيان"(٩٠). وأمير الإحساء هذا "كان له يد طولى في أرض العرب، لا سيما في نواحي العراق مما يلي نجد، وفي نجد نفسها، وكذا أطراف الشام، معسكره كبير ودولته عظيمة، وشجاعته معروفة، وقومه الخوالد أهل بأس شديد وخلق عديد، وكان يغزو نجد إن لم يرضه كل واحد من حكامها بشيء"(٩١). وأهله الخوالد كانوا الحكام الحقيقيين للإحساء منذ عام ١٦٦٩/١٠٨٠ حيث كان النفوذ العثماني اسمياً فيها فقط. ولم يكن عثمان بن حمد إلاّ عامل أميرهم سليمان على العيينة وتابعاً له.

بعد وصول الشكوى المذكورة، وتخوّف سليمان من الدعوة ومن صاحبها على نفوذه في نجد، كتب إلى عامله عثمان هذا يأمره بقتل بن عبد الوهاب، ويهدده إن لم يفعل بقطع الخراج عنه، وبمنع تجارة إمارته في إقليم الإحساء(٩٢). وكان أن اضطر عثمان إلى مطالبة الشيخ محمد في عام ١٧٤٥/١١٥٨ على الرغم من أنه كان قد زوّجه من عمته جوهرة ابنة الأمير عبد الله بن معمر، بمغادرة القبيلة بدلاً من قتله، وكان ذلك. ولكن تشير الكثير من المصادر إلى تآمره مع مبعوثه معه لقتله في الطريق بعد خروجه من العيينة، إلاّ أنّ هذا المبعوث قد تراجع عن تنفيذ ذلك(٩٣). هدف عثمان من نصرة الشيخ ابن عبد الوهاب كان تطلعه إلى استخدام دعوته كمسوّغ ديني إسلامي "لامتلاك إقليم نجد" بتوحيده تحت أمرته.

والهدف نفسه، والوعد نفسه من عبد الوهاب، كان وراء التحالف الثاني الذي كان له الدور الفعّال في نجاح الدعوة، وهو تحالف الشيخ عبد الوهاب مع محمد بن سعود أمير الدرعية التي لجأ إليها بعد خروجه من العيينة، والذي لعبت دوراً كبيراً في إنجازه زوجة ابن سعود، موضى بنت أبي وطبان من آل كثير، التي "كانت ذات عقل ومعرفة"(٩٤)، وساعدها أخواه الأمير ثنيان وشاري. وقد شجعت زوجها على دعم ابن عبد الوهاب قائلة له: "إن هذا الرجل أتى إليك وهو غنيمة ساقها الله

لك، فأكرمه وعظّمه واغتنم نصرته"[٩٥]. ويلاحظ بوضوح الهدف السياسي والمادي من نصيحتها بدعمه. وكان أن أتى الأمير ابن سعود إليه حيث ينزل في دار محمد بن سويلم العريني، وقال له: "أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة". فقال الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين، وهذه كلمة لا إله إلاّ الله، مَن تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد وهي كلمة التوحيد"[٩٦]. أيضاً يلاحظ الهدف السياسي والمادي في حوارهما وتحالفهما. ولما تحقّق الأمير محمد من منافع الدعوة وما فيها من مصالح سلطوية نفعية له، وخاصة من حيث استخدامها كمسوّغ لحرب المعارضين له في توسيع سلطته وملكه في نجد وفي خارجها، وقتلهم بحجّة وقوعهم في "الكفر"، وعد الشيخ بالنصر والدعم ونشر دعوته بالسيف، ولكنه اشترط عليه اثنتيْن: "ألا يرحل ويستبدل أحداً به بعد النصر، وألا يمنعه من أخذ ما كان يأخذه من مال وأعطيات من أهل الدرعية"[٩٧]. فقال الشيخ: "أما الأولى فابسط يدك الدم بالدم والهدم بالهدم. وأما الثانية فلعلّ الله أن يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها"[٩٨]. وكان أن تمّ التحالف عام ١١٥٨/١٧٤٥.

ومع اجتماع هاتين القوتين، الدينية والسياسية- العسكرية، كان التحوّل في عرض الوهابية، من الأسلوب السلمي إلى فرضها بالأسلوب القمعي الحربي أي بالسيف، وتسييسها لتكون تهمة التكفير حجةً لقتل كلّ معارضي سلطة ومطامع حليفها السعودي، في توسيع إمارته "الدرعية" لتكون الدولة الأكبر في شبه جزيرة العرب. وهكذا أخذ شأن الدعوة وإمارة الدرعية بالارتفاع والاتساع، ممّا دفع الباحثين إلى عدّ هذا التحالف النواة الأولى في ازدياد شأن آل سعود وفي بناء صرح الدولة السعودية الأولى، معتبرين محمد بن سعود مؤسسها، والدرعية عاصمتها.

ثالثاً)- الحجاز والسلطنة العثمانية والحركة الوهابية في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث حتى تشكل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:

في البداية التزم أشراف الحجاز جانب الحياد من الدعوة الوهابية، متوقعين فشلها الأكيد نظراً لرفضها من معظم القبائل نتيجة لارتكاب الوهابيين، كما يذكر

أحد الباحثين، "لأفعال خيّل معها للكثير من الناس أنهم يقصدون بها مهاجمة الدين الإسلامي نفسه"[٩٩]، أمّا بعد تأكدهم من انتشارها الأولي فقد زدادت مخاوفهم وأعلنوا عداوتهم لأصحابها، لإساءتها لمبادئ الإسلام الصحيح، أولاً، ولأن نجاحها في الحجاز يعني بالنسبة إليهم حرمانهم من جميع الموارد المالية الكبيرة التي كانت تزودهم بها عتباته المقدسة في مكّة والمدينة، وخاصة في فترة الحجّ، ثانياً، ونجاحها في نجد كان يعني بالنسبة إليهم حرمانهم من منطقة نفوذ كانت تدرّ كليهم كثيراً من الأموال والهدايا، ثالثاً.

أمّا بالنسبة للسلطنة العثمانية، المعتبرة من قبل الوهابية "خارجة عن الإسلام الصحيح"[١٠٠]،فقد كان من الطبيعي أن تؤيد أشراف الحجاز في مواقفهم العدوانية منها وأن تشايعهم "لتستميل جمهرة علماء الدين، وتكسب صفوف ملايين الأتباع الذين ورثوا هذه التقاليد، ولتحول في الوقت نفسه دون تكتل القبائل في البلاد العربية حول دعوة موحدة تجمع صفوفهم"[١٠١] ضدّها، فأخذت تعمل من وراء الستار لتغذية تحركات العداء التي كانت تدور بين أشراف مكة وأقطاب الدعوة في الدرعية دون أن تزجّ نفسها في قتال ظاهر مكشوف[١٠٢].

والشريف مسعود بن سعيد من آل زيد، والذي حكم ما بين عامي ١١٤٦/ ١٧٣٤ و١١٦٥/١٧٥١ هو أول من جاهر بالعداء لهذه الدعوة، مؤكداً تبنّي أصحابها لنحلة جديدة لا صلة لها بالتعاليم الإسلامية، وبالكفر وبالمروق عن الدين، وبمحاربة مضامينه الصحيحة وأصحابه الحقيقيين، وكانت فتوى علماء مكّة بتكفير محمد بن عبد الوهاب باعتباره "مارقاً عن الدين"[١٠٣]. وبعد أن أخذ مباركة السلطان العثماني على محاربتهم بدأ صدامه معهم بمنعهم من دخول مكة لأداء فريضة الحجّ. وفي عهد الشريف مسعود هذا تشكلت الدولة السعودية الأولى، والتي سنرى موقفه وخلفاؤه منها في فصل لاحق في القسم الثاني.

رابعاً)- إقليم اليمن في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:

علينا أن نميّز في تاريخ اليمن الحديث في هذه المرحلة ثلاث فترات رئيسية: الأولى الممتدة حتى الاحتلال العثماني الأول لها في عام ٩٤٥/١٥٣٨، والثانية الممتدة منذ هذا الاحتلال حتى الجلاء العثماني عن اليمن في عام ١٠٤٥/١٦٣٥، والثالثة الممتدة منذ هذا الجلاء حتى تشكل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥.

I - إقليم اليمن من بداية تاريخه الحديث حتى الاحتلال العثماني الأول لها عام ٩٤٥/١٥٣٨:

١- اليمن والمماليك والخطر البرتغالي حتى سقوط الدولة المملوكية والسيطرة العثمانية على الحجاز عام ٩٢٣/١٥١٧:

رأينا انتصار المستعمرين البرتغاليين على الدولة المملوكية في معركة ديو عام ٩١٥/١٥٠٩، ثمّ توجّههم إلى عدن عام ٩١٩/١٥١٣ محاولين احتلالها، وكيف استطاع أميرها عامر بن عبد الوهاب صدّهم بفضل مقاومة مواطنيه ودون مساعدة قوات حسين الكردي المملوكية في جدّة التي أتت متأخرة وبعد أن احتل البرتغاليون جزيرة قمران، وكيف قاده حنقه من تأخيرها هذا إلى رفض استقبالها وتموينها وهي في طريقها إلى الهند في عام ٩٢١/١٥١٥. وكان من الطبيعي أن تستنكر كل القوى اليمنية الأخرى موقفه هذا طالبة من الأمير المملوكي حسين الكردي "تخليص اليمن من بطش الدولة الطاهرية"(١٠٤). ونكتفي بذكر أهم هذه القوى التي كانت تتوزع اليمن وتتصارع فيه آنذاك(١٠٥)، بحيث أدّت إلى إضعافه، وشجعت بالتالي القوى الخارجية الطامعة به، البرتغالية والعثمانية، على العمل على احتلاله.

أبرز هذه القوى الدولة الزيدية في المناطق الجبلية الشمالية، والإمارة الإسماعيلية في نجران في أقصى الشمال، وفي جبال حراز بالقرب من صنعاء، والدولة الطاهرية التي تشكلت من بقايا الطاهريين والتي جعلت عاصمتها عدن،

وسلطنتا آل كثير من الكنديين في حضرموت، وعاصمة الأولى تريم وعاصمة الثانية الشحر. وهناك مناطق كثيرة أخرى سيطر عليها حكام محليون أيضاً من أمراء القبائل أو أصحاب المناصب والزعامات الروحية من صفوف الفقهاء أو غيرهم، واستقلوا بها تمام الاستقلال، وأكثرهم نفوذاً كانوا أشراف جيزان، بالإضافة إلى إمارة الفقيه أبي بكر بن مقبول حاكم لحج، وصاحب أسرة العامود التي كانت مدينة البيضاء معقلاً لها، وكان هناك أيضاً قوة الدولة المملوكية في تهامة وعاصمتها زبيد. أما في المهرة فكانت السيطرة غالباً للأمراء المحليين، وأحياناً لأمراء الكواثر، وأخرى لحكام عُمان الأقوياء منهم بالطبع.

وبمساعدة الكثير من هذه القوى، وخاصة من صفوف الزيديين وأشراف جيزان التهاميين، فقد استطاع المماليك احتلال زبيد عاصمة الطاهريين عام ٩٢٢/ ١٥١٦. وانتقلت تهامة اليمن بأسرها ومخا وتعز إلى أيديهم وأيدي حليفهم الشريف عز الدين بن أحمد. أما عدن فقد استبسلت مرة أخرى في الدفاع عن نفسها، وخاصة بعد أن وصلتها نجدة تعز الطاهرية بقيادة الأمير عبد الملك، أخو السلطان عامر، فتراجع حسين الكردي ومماليكه، وغادروها في صيف العام المذكور نفسه إلى جدّة، مكتفياً مؤقتاً بما أصبح تحت سيطرته في بقية أنحاء اليمن. ويبدو أن السلطنة المملوكية قد قررت منذ ذلك الحين أن تجعل من تهامة اليمن خط دفاع أول، وعلى أن تكون جدّة خط دفاع ثانٍ[١٠٦]. وكان حسين الكردي قد قام قبل عودته إلى جدّة بتعيين برسباي حاكماً لزبيد وقائداً لمماليك تهامة.

استمر عامر بن عبد الوهاب في رفض الاعتراف بنفوذ هؤلاء المماليك، وقرّر الاستعداد لإخراجهم من اليمن، فأعدّ جيشاً كبيراً وزحف به نحو زبيد. وبعد هزيمته معهم انسحب عامر إلى تعز ثم إلى آب، فلحقوه واستولوا على المنطقتين وعلى المقرانة وعلى ثرواته فيها لأنها كانت مقراً له. وبعدها عملت إحدى القبائل العربية على الإيقاع ببرسباي ومن كانوا معه من المماليك الذين اصطحبهم إليها بناء على طلبها ووعدها له بتسليم البلاد إليه[١٠٧]، فتولى الأمير اسكندر بعده زعامة المماليك

في زبيد، واستطاع بعد ذلك، في عام ١٥١٧/٩٢٣، أن يستولي على صنعاء، وأن يقتل السلطان عامر وأخاه عبد الملك معاً، وأن يقضي على النفوذ الطاهري مؤقتاً[١٠٨]، ولا شك بمساعدة اليمنيين أنفسهم في انتصار المماليك هذا، وخاصة من أوساط أشراف جيزان والزبيديين[١٠٩]، وذلك لضرورة التصدّي للخطر البرتغالي.

أما بالنسبة لحضرموت فقد كانت خاضعة قبيل تاريخها الحديث للدولة الكثيرية. وكانت تسيطر عليها، كبقية إقليم اليمن، ظاهرة التفكك والضعف أثناء بروز الخطر البرتغالي وقيام الصراع العربي- البرتغالي- العثماني في البحر الأحمر.

٢- اليمن والسلطنة العثمانية من نهاية الدولة المملوكية حتى الاحتلال العثماني الأول عام ١٥٣٨/٩٤٥:

إذا كان خضوع إقليم الحجاز لهذه السلطنة قد شمل جميع مناطقه، فإن خضوع اليمن لها قد اقتصر بدايةً على منطقتيْن فقط. الأولى هي زبيد، حيث كانت الدولة المملوكية قائمة برئاسة أميرها اسكندر حين تمّت هزيمة الدولة المملوكية المركزية، وتمّ احتلال العثمانيين لسوريا- الشام ومصر، وأعلن أشراف الحجاز خضوعهم للسلطان سليم. وعند وصول أنباء هذه الهزيمة إلى مماليكه انتشر الاضطراب والجدل في أوساطهم حول تحديد موقفهم من السلطة العثمانية. وحرصاً من الأمير اسكندر على حسم الخلاف ودعم موقفه ومماليكه التابعين له في اليمن لدى السلطنة العثمانية، فقد اعترف بسيادتها، فعرف منذ ذلك الحين باسكندر المخضرم، لأنه عاصر السيادتين معاً: المملوكية والعثمانية. والسلطان سليم بالرغم من عدم اقتناعه بصدق ولاء هؤلاء المماليك إلاّ أنه اضطر إلى تثبيتهم في الحكم باسم السلطنة، بهدف استغلالهم في تنفيذ خططه للسيطرة الكاملة على اليمن مستقبلاً، وبهدف الاستعانة بهم لردّ الخطر البرتغالي المتصاعد في المنطقة، فاعترف بأميرهم اسكندر حاكماً في اليمن، على أن يقيم الخطبة له، ويضرب السكة باسمه. وقد حرص هذا الأمير على إظهار الاهتمام والترحيب بهذه الشروط[١١٠].

وكانت مخاوف السلطان سليم مكانها، فبمجرد أن وثق الأمير اسكندر من رسوخ مواقعه في تهامة أعلن انفصاله الكلّي عن السلطنة العثمانية في أواخر عام ١٥٢٠/٩٢٦، وأمر بالدعاء لنفسه في خطبة الجمعة، وبنقش اسمه على النقود المحلية، وأعاد تعيين كل المناصب الحكومية المملوكية. ونظراً لرفض الأهالي لتأييده فقد استطاعت الحملة العسكرية العثمانية القادمة من جدّة الانتصار والقضاء عليه وعلى جميع زعماء تمرده بكل يسر وسهولة. لكن التمردات المملوكية لم تتوقف، وكثيراً ما اضطر والي مصر العثماني إلى إرسال قواته لإخمادها ووضع حدّ لتلك السلسلة من اغتصاب السلطة القائمة على القتل[١١١]. فبين عامي ١٥٢٠/٩٢٦ و١٥٢٩/٩٣٥ حدثت خمسة انقلابات عسكرية مملوكية على الأقل، وتغير الحكام سبع مرات أو أكثر. ولم يستقر الحكم في تهامة إلاّ في عهد الأمير المملوكي اسكندر موز كما سنرى.

المنطقة الثانية من اليمن التي وصل إليها النفوذ العثماني في هذه الفترة كانت حضرموت، حيث استطاع أمير آل كثير[١١٢] بدر الثالث أبي طويرق، الذي حكم ما بين عامي ١٥١٦/٩٢٢ و١٥٦٧/٩٧٥ أن يوطد نفوذه، وأن ينقذ دولته التي كانت مهددة بالزوال، وأن يوسع حدوده فيها. توصل إلى إنجاز ذلك بداية باستنجاده بالإمام الزيدي في أواخر عام ١٥١٩/٩٢٥، فأمدّه بقبيلة يافع فاحتل بمساعدتها أكثر حضرموت، ومنها الشحر وشبام وتريم التي وضع نهاية لأسرة الكنديين فيها. بعد ذلك، وبهدف تحقيق طموحه لتوحيد منطقته كلها في ظلّ دولة واحدة بزعامته، فقد عمل على أن يكتسب ثقة السلطنة العثمانية بنواياه وبتبعيته الصادقة لها، فنجح في ذلك، ونجح بالتالي في الحصول على دعم جيشه بالأسلحة النارية المتطورة وبالمتطوعين العثمانيين. وكان أن استطاع الأمير بدر إخماد مقاومة زعماء القبائل في منطقة حضرموت لمحاولته التوحيدية لها، فأصبحت موحدة في ظلّ سلطانه من العوالق في الغرب حتى سيحوت في الشرق، ومن شواطئ البحر العربي في الجنوب حتى رمال الربع الخالي في الشمال[١١٣].

ولم يكتف بذلك بل توسع نحو الشرق مرغماً مَهَرَة وفار على الاعتراف بسيادته ودفع الضريبة له. وبمساعدة الضباط العثمانيين فقد انتصر بدر الثالث على جميع منافسيه وجميع المتمردين ضدّ حكمه. وقامت سياسته الداخلية والخارجية على الإخلاص في تبعيته للسلطنة العثمانية التي لم تكتف بتزويده بالسلاح والمدربين والمتطوعين، وإنما كانت تمدّه بالغذاء أيضاً في سنوات الجوع. وهو بالمقابل كان يحسن التصدّي للخطر البرتغالي، ويرسل الهدايا ورؤوس الأعداء القتلى إلى استانبول، ففي عام ١٥٣٦/٩٤٣ حطم انزالاً برتغالياً كبيراً، وأسر سبعين برتغالياً، وأرسل بعضهم هدية إلى السلطان سليمان(١١٤).

كما استغلت السلطنة العثمانية كلاً من الطرف الكثيري والطرف المملوكي لصالح الإعداد لفتحها القريب لليمن، فقد استغلت طرفاً ثالثاً أيضاً هو الطرف الإسماعيلي، التابع للإمام محمد بن إسماعيل الذي كان قد هرب من صنعاء خوفاً على نفسه من الإمام الزيدي شرف الدين الذي حارب أتباعه بمجرد دخوله وأنصاره من الزيديين صنعاء لأول مرة عام ١٥١٧/٩٢٣، واستقطب قليلهم إلى طاعته، وشتّت معظمهم في جهات اليمن المختلفة. وهرب ابن إسماعيل إلى زبيد، ودخل في طاعة العثمانيين وساعدهم على حربهم ضدّ شرف الدين هذا.

أمّا بقية القوى المتنفذة في إقليم اليمن فكانت كلّها حريصة على استقلاليتها، وكان معظمها طامحاً لتوحيده في ظلّ حكها وحدها له. وكان من الممكن لها ولقوى هذا الإقليم ككلّ أن تشكل عقبة كبيرة في وجه أي احتلال خارجي، برتغالي، أم عثماني، أم غيره،لو لم تكن متفرقة متصارعة باستمرار، فالحروب لم تتوقف لا بين أطراف المماليك والزيديين والطاهريين وأشراف نجران ومنطقة عسير الجنوبية وحكام حضرموت وغيرهم، ولا في الصفوف الداخلية لكل طرف منهم. وكان من أهم نتائجها صمود قوة الزيديين على حساب انهيار قوة الباقين، فمنذ الأيام الأولى لحروب هؤلاء، أي الزيديين، مع المماليك استطاعوا أخذ صنعاء منهم في خريف عام ١٥١٧/٩٢٣، وكان أهلها أنفسهم قد استنجدوا بهم(١١٥) وساعدوهم في ذلك.

وفي خريف عام ١٥٣٤/٩٤١ استولى الزيديون على نجران أيضاً، وأخضعوا قبائل اليمن الشمالية، واضطروا أشرافها على مصالحة إمامهم شرف الدين، ثم أجبروهم على مغادرة اليمن. وبعد أن أخذ الزيديون كل الممالك الطاهرية المتبقية في الشمال، كثلا وكوكبان وذمار وحصن ذي مرمر وغيرها، فقد أخذوا في التوسع نحو الجنوب. واستغلوا استنجاد المماليك في المقرانة بهم ليقوموا بالاستيلاء عليها، ثم على رداع وباقي المراكز والحصون الطاهرية المحيطة بها، ثم على تعز. وتابعوا زحفهم وانتصاراتهم هذه على الطاهريين، بحيث لم يبق لديهم سوى عاصمتهم عدن التي فشلوا في هجومهم عليها في عام ١٥٣٧/٩٤٤[١١٦]، كما فشلوا في السنة نفسها في هجومهم على المماليك في عاصمة دولتهم زبيد.

أدركت السلطنة العثمانية أهمية اليمن بكل أبعادها الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية، وخاصة من حيث موقعها على مدخل البحر الأحمر وعلى منطقة كبيرة من امتداد بحر العرب، وحاولت منذ السنين الأولى لوجودها في الحجاز الهيمنة الفعلية عليها. وأبرز محاولاتها كانت اثنتان: الأولى عام ١٥٢٠/٩٢٦، وتمّت بناء على الأمر الذي أصدره والي مصر العثماني إلى نائب جدّة حسين الرومي، بأن يضم إليه ولاية السواحل اليمنية إلى جانب ولايته لجدّة. ونظراً لموقف المماليك العدائي من حملته، وبعد علمه بوصول حملة برتغالية جديدة متوجهة لاحتلال جدّة، فقد فضل العودة بأسطوله إليها حتى يستعد للدفاع عنها. ومن أهم نتائج هذه الحملة كان انقسام المماليك بين حزب "الجراكسة" وحزب "العثامنة" الذي كان يتظاهر بأنه أكثر ميلاً إلى العثمانيين من الحزب الأول[١١٧]. وقد انتهى الصراع بينهما بقتل الأمير اسكندر المخضرم واستلام الأمير اسكندر القرماني لدولة زبيد مكانه عام ١٥٢٤/٩٣٠. وكان هذا الأخير يميل إلى المسالمة وتسليم الأمر إلى حسين الرومي والي جدّة، ممّا أسهم، بالإضافة إلى تحالف العثمانيين مع أشراف جيزان، في نجاح الحملة العثمانية باحتلال زبيد عام ١٥٢٦/٩٣٢، ولكن بقيت سلطة العثمانيين فيها سلطة اسمية، وبقيت السلطة الفعلية للمماليك. الحملة الثانية

تمت بعد شهور من العام نفسه الذي تمت فيه الأولى، وكان لقائد أسطولها سليمان الريس الدور الفعّال فيها[١١٨]، وانتصاره أدى إلى سيطرته على زبيد وتهامة كلها، وبعد موته برز ابن أخته مصطفى بيرم[١١٩] الذي ترك الصراع في اليمن ورحل إلى الهند. وهناك التقى بسلطان كجرات الذي كان ما زال متمسكاً بالإسلام ومحتفظاً بالتقدير الكبير للثقافة العربية- الإسلامية، والذي أعجب بشخصيته وإمكاناته التي أراد توظيفها لصالح بلاده، فعينه حاكماً لميناء ديو، وكلفه بتنظيم شؤون أسطوله لصدّ الخطر البرتغالي. وقد علا شأنه منذ نجح فعلاً في صدّ هجوم برتغالي على هذا الميناء بعد وصوله إليه بسبعة أيام.

في زبيد انتهى الصراع على السلطة فيها باستلام اسكندر موز الذي نصبته السلطنة العثمانية عليها عام ١٥٢٩/٩٣٥ بموافقة الأهالي والقوات المملوكية معاً، والذي "أحبه أهل اليمن واستطابوا عدله ورعايته"[(١٢٠)]. وقد أخلص الولاء لهذه السلطنة، ضمن بعدالته تأييد العلماء والجنود وإقامة الاستقرار. إلاّ أن الاضطرابات قد عادت بمجرد انتهاء حكمه واستلام ابنه أحمد مكانه عام ١٥٣٦/٩٤٣، حيث لم يستطع إرضاء القوى الموالية للعثمانيين، وحيث اصطدم بعقبات كبيرة كان أهمها توسع الزيديين. ولا شك بأن كلّ ما تقدم قد مهّد الطريق للاحتلال العثماني الفعلي لإقليم اليمن بعد سنتين فقط، أي عام ١٥٣٨/٩٤٥، والذي معه بدأت الفترة الثانية من تاريخه الحديث الممتدة حتى نهاية هذا الاحتلال في عام ١٦٣٥/١٠٤٥.

II - إقليم اليمن في فترة الاحتلال العثماني الأول (١٥٣٨/٩٤٥-١٦٣٥/١٠٤٥):

١- اليمن والاحتلال العثماني حتى نهاية ولاية مصطفى النشار الثانية عام ١٥٥٥/٩٦٢:

رأينا كيف أصدرت السلطنة العثمانية أوامرها إلى واليها في مصر، سليمان باشا الخادم، بإعداد الأسطول اللازم للتوجه إلى الهند واستعادة السيطرة الإسلامية

على سواحلها. أما التعجيل بتنفيذ هذه الحملة فكان بسبب قيام البرتغاليين بقتل بهادور شاه سلطان منطقة كجرات التي كانت لها مكانة خاصة عند العرب المسلمين عموماً، وعندهم في شبه الجزيرة العربية خاصة، وذلك لأنها أحد المراكز الأساسية للهيمنة العربية الإسلامية التجارية والثقافية في الهند.

كانت السلطنة العثمانية تطمح أن يكون دور واليها وقائدها البحري، سليمان الخادم، في المحيط الهندي كدور واليها وقائدها البحري خير الدين بربروسا في البحر المتوسط، لكن سليمان هذا لم يكن ليملك مواصفات بربروسا، وقد عُرف عنه أنه كان فتاكاً وسفاكاً للدماء، ضعيف العقل وعديم الرأي، بالإضافة إلى شهرته بالغدر(١٢١). وهذا ما سنتلمسه من خلال متابعة سياسته وحملاته وأفعاله[١٢٢]. ونظراً لأن خطة السلطنة قد تضمنت ضرورة استكمال السيطرة على البحر الأحمر قبل التوجّه إلى الهند، فنراه وقد بدأ خطواته الفعلية بالاتصال بأمراء السواحل في جهات هذا البحر، ليضمن تبعيتهم وطاعتهم للسلطنة. وقد قدم سلطان الشحر، السلطان بدر، طاعته له مباشرة وأرسل إليه الهدايا(١٢٣)، كأول المعلنين لتبعيته.

غادرت الحملة بعد ذلك ميناء السويس عام ١٥٣٨/٩٤٥ ودخلت عدن. وعلى الرغم من حسن استقبال أميرها الطاهري عامر بن داوود لها وقيامه بتقديم كل المساعدة لأسطولها، فقد غدر به قائدها سليمان الخادم وقتله وأعوانه، وأمر جنوده باستيلاء على الميناء وتحصينه وشحنه بالمدافع. إن التخوف من أسلوب الغدر هنا، بالإضافة إلى سوء التصرف والتعالي مع الحلفاء المسلمين الهنود، قد أدّى إلى نفورهم من الحملة العثمانية، قيادة وعناصر، وإلى عدم الثقة بنواياها، ممّا أضعف دعمهم لها. مع ذلك فقد تقدمت وأوشكت على السيطرة على ميناء ديو التابع حينئذ للهيمنة البرتغالية، إلاّ أن تخوّف سليمان من وصول حملة برتغالية كبيرة لنجدة أميرها دفعه إلى الانسحاب ليس من ديو فقط وإنما من الهند كلياً، والعودة إلى السواحل العربية في شبه جزيرة العرب[١٢٤].

ولقد كثرت الأقوال والتساؤلات حول هذا الانسحاب، وكيفما كان الأمر فقد أصبح هدف سليمان باشا الوحيد بعد عودته من الهند هو إتمام فتح السواحل اليمنية لتعويض فشله المذكور أولاً، ولإكمال الخطة العثمانية المذكورة بهذا الشأن ثانياً، فتوجّه إلى الشحر ومنها إلى عدن، ثم المخا حيث رسم خطته في الغدر بوالي زبيد المملوكي، والحاكم أحمد، فقتله عام ١٥٣٨/٩٤٥[١٢٥] وذلك ليقضي على الحكم المملوكي فيها، وليعيّن أحد أمراء حملته حاكماً عليها. ولم يبق أمام سليمان سوى القوة الزيدية بزعامة إمامها آنذاك شرف الدين، فبذل محاولات كثيرة لاستدراجه والغدر به، إلاّ أنه لم يفلح. وكان أن حاول أن يستولي على تعز التي كانت آنذاك تحت هيمنة الحكم الزيدي، كي يقلص من حدود مملكة شرف الدين هذا، فلم يقدر أيضاً. ولكن ما نجح به كان إحكام سيطرة العثمانيين على مدخل البحر الأحمر الجنوبي، إذ حصّن جزيرة قمران، ثم ميناء جيزان بعد أن استولى عليه وطرد منه واليه الذي كان معيّناً من قبل أشراف مكّة، الذين كانوا قد أخضعوه منذ وقت قصير، مستغلّين ظروف ضعفه نتيجة لمنازعات محلية فيه، وعيّن كبديل له أميراً عثمانياً وجعله تابعاً للوالي العثماني في زبيد.

كما كان فشل حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند بداية لتغيير واضح في السياسة العثمانية تجاه المنطقة، حيث أصبحت تتصف بالدفاعية ضدّ الخطر البرتغالي أكثر منها بالهجومية، وبالتركيز على احتلال السواحل العربية فقد كانت أعماله في إقليم اليمن بداية لفترة جديدة في تاريخه، إذ تحوّلت أماكن الخضوع للعثمانيين فيه إلى ولاية عثمانية رسمية، لها كلّ مقومات الولايات العثمانية الأخرى، وخاصة من حيث الإدارة ووجود الوظائف العثمانية التقليدية. وعيّن عليها أول وال عثماني في عام ١٥٤٠/٩٤٧، وهو مصطفى باشا الذي اشتهر بلقب مصطفى النشّار لأنه كان ينشر اللصوص وقطاع الطرق الذين كان يقبض عليهم أثناء إمارته لقافلة الحج المصري إلى نصفين عقاباً لهم[١٢٦]، والذي تميّز عهده

بالهدوء النسبي في اليمن وبالعلاقات السلمية مع الزيديين نتيجة للمراسلة الوديّة بين السلطان العثماني وبين إمامهم المطهر، برز فيها تقدير السلطان الكبير لنسبه الزيدي العلوي "النصيري الشريفي المنتقى الحسني فرع الشجرة الزكية"[١٢٧]، وكان أن استجاب المطهر في جوابه إليه لطلبه الصلح معه، معبّراً عن تقديره الكبير له، مبيناً كيف أنّ "عساكره... قد تشاغلوا بحربنا عن جميع الحروب... وأهملوا جهاد الكفار"[١٢٨].

أما خلفه أويس باشا، فإن قيام السلطنة العثمانية بتعيينه، وهو المعروف بعسكريته الصارمة، ثم قيامها بإرسال جيش كبير له مزوّد بالمعدات والآلات الحربية الضخمة في عام ٩٥٢/١٥٤٥، كان يعني أنها قد بدأت خطتها الفعلية الجدّية للسيطرة على إقليم اليمن تماماً، من أجل تحويله إلى قاعدة حربية كبيرة لها عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي(١٢٩). لا شك أن طبيعة الجبهة الداخلية اليمنية المفككة في ذلك الحين قد أسهمت في دفع العثمانيين إلى البدء في تنفيذ خطتهم هذه. وصل التفكك والانقسام إلى داخل القوة الزيدية نفسها، وكانت سابقاً الأكثر تماسكاً وقوة، وذلك نتيجة لقيام الإمام شرف الدين بتعيين ابنه علي ولياً للعهد، كبديل عن ابنه الأكبر المدعو بالمطهر بسبب اتصافه بالقسوة والبطش ممّا كان ينفي عنه اتصافه بمواصفات العدل والعقل المطلوبة للإمامة. ولقد رفض المطهر تصرف أبيه وخرج عن طاعته، فانقسم الزيديون بين مؤيد ومعارض له.

أما إمام الإسماعيليين، محمد بن اسماعيل، فلم يكفّ لحظة عن تحريض العثمانيين على حرب الزيديين وأخذ صنعاء، مقدماً لهم الوعود الكثيرة بمعونة أتباعه لهم(١٣٠). وقامت هذه الحرب، ولم يستطع العثمانيون بقيادة أويس باشا سوى احتلال تعز وتوطيد السلطة العثمانية في المنطقة الممتدة في جنوبي اليمن حتى ذمار. واستطاع القائد العثماني ازدمر باشا، الذي كلفته السلطنة العثمانية بقيادة الجيش والاستمرار في حربه ضدّ الزيديين في عام ٩٥٣/١٥٤٦، والذي تعاون مع قوات حضرموت الكثيرية كما سنرى، فك حصاره من قبل الثوار الزيديين في زبيد

والاستيلاء على ذمار وصنعاء، فكان أن عدّ أول فاتح لليمن وعُيّن والياً عليها في عام ١٥٤٨/٩٥٥ تقديراً لجهوده. أحبّه أهل اليمن لصدقه وعدله وحسن خلقه، ولكنه لم يبق طويلاً في الولاية، إذ ما لبثت السلطنة العثمانية أن قامت بعزله، وعينت مكانه مصفى النشار في عام ١٥٥٥/٩٦٢. وكان تعيينه هذا بمثابة ولايته الثانية، والتي لم تستمر طويلاً بسبب وفاته بعد ستة أشهر فقط.

٢- المقاومة والمتغيرات اليمنية من نهاية ولاية مصطفى النشار الثانية حتى جلاء قوات الاحتلال العثماني(١٥٥٥/٩٦٢- ١٦٣٥/١٠٤٥:

شهدت الولاية العثمانية في اليمن بعد موت النشار فترة اضطراب شديد، وخاصة بعد أن قسمت إلى ولايتيْن: الأولى شملت المناطق الجبلية الشمالية وعاصمتها صنعاء، والثانية شملت منطقة تهامة وجنوب الهضبة وعاصمتها زبيد وأحياناً تعزّ. وبذلك فقد أصبح في اليمن واليان عثمانيان يتنازعان ويتنافسان على جمع الأموال وتقسيم الحدود والقوات، ولا همَّ لهما سوى جمع الثروة بأي سبيل(١٣١)، ممّا عمّق الأزمة الاقتصادية ومشاعر النقمة ليس عند الجماهير اليمنية فقط، وإنما حتى في أوساط الجنود العثمانيين أنفسهم، وخاصة بعد أن اضطربت أمور مرتباتهم بسبب الضائقة المالية نتيجة لانهيار العملة وغلاء الأسعار. ويقول المؤرخ المعروف بولائه للعثمانيين، قطب الدين المكّي النهروالي: "ثم ضعفت الرعية وانكسرت، ولم يبق معهم شيء ينهمه العسكر أو يأخذونه بالقهر منهم. صار العساكر يبيعون أثواب بدنهم إلى أن أفنوها، فباعوا أسلحتهم وما أبقوها، فشرعوا يهربون إلى مطهر، وافتقروا، وامتلأت بهم البلاد، وضعفوا عن قتال العدو، إلى أن استولى العدو على بلادهم شيئاً فشيئاً"(١٣٢).

وكان المقصود بالعدو الزيديين، ومطهر المذكور هو إمامهم بعد وفاة والده شرف الدين سنة ١٥٥٨/٩٦٥. استلم الإمامة بسبب نجاحه في توحيد أسرته حوله منذ وفاة أخيه شمس الدين عام ١٥٥٦/٩٦٣ قبل وفاة أبيه. وكان أن نجح في إعادة التماسك للقوة الزيدية. بعدها استغلّ كلّ ما تقدم من أوضاع العثمانيين في

اليمن ليشعل نار الثورة ضدّهم من جديد، وليسترجع منهم كثيراً من المناطق الهامة، وأبرزها عدن وصنعاء وذمار(١٣٣). ولخطورة الموقف فقد قررت السلطنة العثمانية في عام ١٥٦٨/٩٧٦، أي في فترة تصاعد الهيمنة الزيدية على معظم أراضيه، تحويله إلى ولاية واحدة بدلاً من ولايتين، وأرسلت في عام ١٥٦٩/٩٧٧ حملة كبيرة للتصدي له، بقيادة والي مصر سنان باشا. وإن نجاح هذه الحملة في استعادة صنعاء، وجميع المناطق التي كانت تابعة للولاية العثمانية في اليمن، دفع بعض الباحثين إلى عدّها بمثابة الفتح العثماني الثاني لليمن(١٣٤).

وبعد محاولات فاشلة للاستيلاء على الحصون الزيدية الشمالية اضطر سنان باشا في عام ١٥٧٠/٩٧٨ إلى الصلح مع الإمام المطهر، الذي، بسبب ضعف قواه، لم يمانع بالاعتراف بالسيادة العثمانية، وفي أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني، ولم يمانع في وجود حامية عثمانية رمزية صغيرة لا تزيد على ثلاثين جندياً عثمانياً في صعدة، ولكن بالمقابل يحتفظ بالمنطقة التي كان يحكمها، ومن ضمنها الظواهر وصعدة وحجّة وعفار وحصن ذي مرمر وغيرها.

بعد سنان باشا ولّت السلطنة العثمانية في عام ١٥٧٠/٩٧٨ بهرام باشا الذي اشتهر بقسوته وبسفك الدماء وبأنه "أفنى من أهل اليمن خلقاً ليس إلى حصرهم سبيل لتعذر الانحصار"(١٣٥). وفي عهده توفي أعظم الأئمة عند الزيديين آنذاك، وهو الإمام المطهر، وذلك في عام ١٥٧٠/٩٧٨ نفسه، ممّا أدّى إلى انشغالهم بتنافس الأخوة وصراعهم من جديد على الإمامة، وأعطى بالتالي الفرصة للعثمانيين باستغلال هذا الوضع لترسيخ وتوسيع نفوذهم في اليمن. مع ذلك فإن بهرام باشا لم يستطع الاستفادة جيداً من هذه الظرف، لأن مبالغته في سياسة الشدّة والعنف والظلم كثيراً، بالإضافة إلى استمرار تأزم الوضع الاقتصادي، واضطراب رواتب الجند والإداريين، لم تؤد إلى تصاعد النقمة في أوساط هؤلاء خاصة، وفي أوساط الشعب عامة فقط، وإنما أدّت إلى تمردهم العلني أيضاً(١٣٦). وفشل بهرام باشا أدّى

إلى قيام السلطة بإبعاده وتعيين مكانه مراد باشا في عام ١٥٧٦/٩٨٤. واستطاع أن يوقف التمرد، وأن يرضي الشعب بعدله وخلقه، وبتشييده لكثير من العمران.

اعتمد حسن باشا الذي استلم ولاية إقليم اليمن عام ١٥٨٠/٩٨٨ كخلف لمراد باشا، على سياسة اللين والشدة معاً، واعتنى بالعمران، وأخمد الثورات الداخلية، واستطاع من خلال حملات التأديب التي كان يقوم بها ضدّ حركات العصيان في المناطق الجبلية الشمالية الزيدية، أن يمدّ السيطرة العثمانية حتى نجران، مستغلاً الاضطرابات داخلها بسبب قيام الإمام الناصر لدين الله بخلع أولاد المطهر واستلام الإدارة عام ١٥٧٧/٩٨٥، وقد نفاهم حسن باشا جميعاً إلى استانبول عام ١٥٨٦/٩٩٤ حيث توفوا فيها. وكان من جملة أعماله احتلال ظفار وعدن(١٣٧).ولقد اعتبر كفاتح ثان آخر لليمن، مثله مثل سنان باشا تماماً(١٣٨). وفي عهده وصل اليمن علي باشا الجزائري حاكم الحبشة لإنجاده في حربه مع الزيديين، وعلى الرغم من انتصاره بداية فقد قتل في إحدى المعارك(١٣٩).

صحيح أنّ الأحوال في اليمن قد هدأت لبضع سنين بعد نفي أبناء المطهر في عام ١٥٨٦/٩٩٤، إلاّ أن هذا الهدوء "كان على السطح فقط وليس في العمق، حيث كانت تتراكم مشاعر الرفض والتمرد ضدّ العثمانيين نتيجة لازدياد شدة وطأة حكمهم، وخاصة ما تعلق منها بضخامة الأعباء المالية الملقاة على الجماهير، وبسوء تصرفات بعض الولاة والجنود العثمانيين والعمال، في صفوف المحتسبين والجباة خصوصاً، والذين كانوا في منتهى القسوة، ويسومون هذه الجماهير أكبر العذاب، كالجلد حتى الموت أو الكي بالنار أو غير ذلك"(١٤٠). وكان من الطبيعي أن تستجيب الجماهير اليمنية للثائر الزيدي الجديد الذي برز في عام ١٠٠٦/ ١٥٩٧، الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي، الذي "وجد نفسه أهلاً لإنقاذ الإمامة من الاضطهاد العثماني، ولقيادة الشعب إلى الاستقلال"(١٤١).

بمجرد إعلان الإمام القاسم لدعوته وثورته، اندفع اليمنيون، وخاصة من رجال القبائل، إلى الانضمام إليها. وبعد صمود مشرف له أمام هجمات العثمانيين

المستمرة لفترة ثمانية عشر عاماً تقريباً، والتي تخلّلتها فترات حرب وهدنة، اضطر الوالي العثماني محمد باشا إلى إبرام الصلح معه عام ١٠٢٨/١٦١٩، معترفاً له بكل ما كان تحت هيمنته من مناطق آنذاك(١٤٢)، ومن ضمنها مناطق الشمال. وبسيطرة القاسم على هذه المناطق فقد توطدت الأركان الأولى للدولة اليمنية القاسمية التي استمرت حتى قيام الثورة والجمهورية فيها عام ١٣٨٢/١٩٦٢. لكن الإمام القاسم توفي في عام ١٠٢٩/١٦٢٠، بعد شهور فقط من إبرام الصلح، فقام أتباعه بمبايعة ابنه الأكبر محمد الملقب بالمؤيد، وهو الذي قاد الثورة اليمنية من جديد عام ١٠٣٥/١٦٢٦، بعد أن وحدّ قوته تماماً، مستغلاً قيام الوالي الجديد فضلي باشا بنقض بنود الصلح المذكور. وهو الذي استطاع عام ١٠٣٨/١٦٢٩ استرداد صنعاء وتعز وعدن من العثمانيين.

وقد فشلت جميع حملات الإنقاذ المرسلة من السلطنة العثمانية لدعم تصديهم لهذه الثورة اليمنية، ووقوفهم أمام توسع النفوذ الزيدي في اليمن، فكان أن قررت الجلاء عنها كلياً، وقد نفذت قرارها هذا عام ١٠٤٥/ ١٦٣٥. أسهمت عوامل كثيرة في قرار الجلاء العثماني عن إقليم اليمن: أبرزها، على المستوى الخارجي والداخلي للسلطنة العثمانية، كان ضعف وجود الخطر البرتغالي في المنطقة في هذه الفترة وانشغال هذه السلطنة بالصراع مع الصفويين في العراق أولاً، وبإخماد الثورات في الأناضول ثانياً، وبوضع حدّ لخطر الأمير الثائر فخر الدين المعني في جبل لبنان ثالثاً، وبالتصدي لثورات العشائر ولتمرد بعض الصناجق ولمعارضة المماليك الأقوياء، رابعاً، بالإضافة إلى انشغالها بمعالجة الفوضى في صفوف القوات والإدارة العثمانية نفسها خامساً.

وأبرز العوامل على مستوى الداخل اليمني كان صمود المقاومة الوطنية، وانهيار الوضع الاقتصادي وبؤس الجماهير وازدياد نقمتها نتيجة لسياسة المسؤولين العثمانيين عموماً، ثم تفكك الجبهة العسكرية لهؤلاء المسؤولين نتيجة لتمرد جنودهم

المتكرر ضدهم. ويجب ألا نهمل دور طبيعة اليمن الجغرافية التي سهلت على الوطنيين أهل البلاد قيامهم بحرب العصابات في أماكنهم الجبلية، وصعبت على العثمانيين الغرباء اختراقها. وأخيراً فإن تراجع الأهمية الاقتصادية لإقليم اليمن منذ بداية السيطرة البرتغالية على التجارة الدولية، مضافاً إلى الخسائر الكبيرة التي تعرض لها العثمانيون نتيجة للصمود الوطني اليمني، تفسر كيف تحوّل الوجود العثماني المادي والبشري فيه إلى وجود خاسر[١٤٣] يتطلب المعالجة.

والمعالجة كانت الجلاء، وبه أصبح إقليم اليمن مستقلاً من جديد ويحكمه الأئمة الزيديون، قائدو ثورته ونضاله. وباستقلاله هذا تبدأ الفترة الثالثة من تاريخه في مرحلته الحديثة الأولى، وسنتعرّف عليها بعد تبيان أبرز أحداث حضرموت في ظلّ الاحتلال العثماني، والذي لم يقدم لها أيضاً سوى مزيد من الضعف والتخلف.

رضي سلطان حضرموت، بدر الثالث أبي طويرق، بخضوعه للعثمانيين طوال الفترة الأولى من تاريخ اليمن، لأنه كان اسمياً وعن بعد، أمّا أن يحتلوا بلاده احتلالاً مباشراً فقد رفض ذلك، وأعلن موقفه هذا بعد القضاء على الدولة الطاهرية في عدن مباشرة، في بداية الفترة الثانية الحديثة في عام ١٥٣٨/٩٤٥. وقد حصّن سواحله وصدّ الجيش العثماني الذي زحف إليها عام ١٥٤٦/٩٥٣ وأجبره على أن يرتدّ إلى زبيد حيث حاصره الثوار الزيديون وكادوا يفتكون به. لكنّ بدر خشي من أن يؤدي ذلك إلى ازدياد الخطر البرتغالي، الذي كان هذا الجيش يدعمه في التصدّي له، فأرسل نجدة له مكنته من إلحاق الهزيمة بالزيديين وإخضاع الكثير من مناطق اليمن له. لكنّه لم يعترف بالسيادة العثمانية إلاّ في عام ١٥٦٢/٩٧٠ مرسلاً الهدايا وبعض الأسرى الإفرنج إلى السلطان[١٤٤] تقرباً منه. لكن ابنه عبد الله ومعه معظم أقربائه من آل كثير قد رفضوا خضوعه هذا، وخلعوه عام ١٥٦٨/٩٧٦، فتقبل بدر عمل ابنه بروح طيبة وتوفي في العام الثاني لخلعه. وفي عهد السلطان

عبد الله بن بدر استقلت حضرموت، واتسعت حدودها، وكانت سيون عاصمة لها وبقيت كذلك بعده إلى ما بعد بداية الفترة الثالثة من تاريخ اليمن الحديث.

III- إقليم اليمن في من جلاء قوات الاحتلال العثماني حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى (١٠٤٥/١٦٣٥.١١٥٨/١٧٤٥):

كان عهد الإمام المؤيد بالله محمد القاسم، قائد المقاومة وبطل الاستقلال كما رأينا، والذي توفي في عام ١٠٥٤/١٦٤٤، وكما يقول أحد المؤرخين: "عهد خير وبركة على اليمن، استتبت فيها الأحوال، واستقبل الشعب عصراً جديداً تمتع فيه بالحرية والاستقرار بعد ما لاقاه على أيدي الحكام العثمانيين من غطرسة وبطش"(١٤٥). واستند حكمه، على الرغم من سلطته شبه المطلقة، إلى الشورى ممثلة في المحكمة العليا التي شكلها من كبار وأفضل القضاة، لتقوم بمهمتيْن معاً: الشورى والقضاء. وامتد سلطانه موحداً معظم اليمن بشمالها وجنوبها.

وبعد وفاته استلم أخوه أحمد بن القاسم مكانه لمدة سنة فقط تنازل بعدها لأخيه المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم، الإمام الورع العادل الذي رفض أن يسحب من بيت المال إلاّ ما ينفق على أوجه الإصلاح(١٤٦). ولم يحافظ على استقرار ووحدة ما وحده أبوه من اليمن فقط، وإنما توسع بنفوذه ليصل أقصى توسع اكتسبته الدولة الزيدية في تاريخها الحديث، بحيث شمل كثيراً من تهامة بالإضافة إلى يافع ولحج وعدن وحضرموت. واعتبر عهده من "أزهر عهود الإمامة الزيدية في اليمن"(١٤٧)، وكان من جملة إنجازاته تصدّيه عام ١٠٨١/١٦٧٠ لخطر البرتغاليين، حيث أفشل محاولة لهم لاحتلال ميناء المخا الشهير. وعرف خليفته، ابن أخيه، المهدي لدين الله أحمد بن الحسن بن القاسم، بلقب "سيل الليل" "لما أبداه من جرأة واندفاع في حروبه لاسيما في حضرموت". بعد وفاته عام ١٠٩٢/١٦٨١تتابع على اليمن طوال القرن الثامن عشر سبعة أئمة من سلالة الإمام القاسم أكثرهم من أحفاد ابنه الحسن. وبعد أن تولى الإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين فيما بين

عامي ١١٢٨/١٧١٦-١١٣٩/ ١٧٢٦ غدت الإمامة وراثة عمودية يرثها باستمرار الابن عن أبيه. وكان يتوقف استمرار وحدة اليمن واستقرارها وانتعاش تجارتها وازدهارها فيها على شخصية الإمام في العاصمة، وخاصة مقدرته على فرض سيطرته على المناطق المختلفة. ويلاحظ مرور إقليم اليمن بعد موت الإمام المهدي في فترة من الفوضى اضطر الأئمة فيها إلى الانشغال بمجابهة الطامعين في الإمامة من أقاربهم، وبإخماد الفتن الداخلية والمحاولات الانفصالية التي كان أبرزها محاولتان اثنتان نقف قليلاً عند كلّ منهما: محاولة حضرموت، ومحاولة لحج.

حافظ سلطان حضرموت، عبد الله بن بدر، ومن بعده خلفاؤه على استقلالها حتى عام ١٠٦٥/١٦٥٨، حيث تبعت لحكم الدولة الزيدية المركزية في صنعاء، وذلك في عهد سلطانها بدر بن عبد الله بن عمر الذي تآمر عليه عمه بدر بن عمر مستعيناً بالإمام الزيدي المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم، فبادر إلى اعتقاله رافضاً طلب هذا الإمام بإطلاق سبيله، فكان أن أرسل إليه في عام ١٠٦٥/١٦٥٥ جيشاً زيدياً هزم قواته وأجبره على الخضوع للإمامة الزيدية وإخراج عمه من السجن لتنصيبه حاكماً على ظفار التي كانت تابعة آنذاك لحكم السلطان الكثيري. ولكن وبمجرد عودة القوات الزيدية إلى صنعاء قام السلطان بدر بن عبد الله بالهجوم على عمه في ظفار عام ١٠٦٨/١٦٥٨ مجبراً إياه على الفرار والالتجاء ثانية إلى الإمام الزيدي المذكور طالباً حمايته، فكان أن أرسل جيشاً جديداً إلى حضرموت خلع سلطانها هذا ونصب عمه بدر بن عمر مكانه ليحكمها باسم الإمام حتى عام ١٠٧٣/١٦٦٢. وقد خلفه ولداه عمر ثم عيسى حتى عام ١٠٨١/١٦٧٠ حيث استلم الحكم حسن بن عبد الله بن عمر[١٤٨].

استغل أهل ظفار انشغال الإمام الزيدي المتوكل في إخماد الفتن الكثيرة التي كانت مندلعة عام ١٠٧٩/١٦٦٨ من أجل أن يثوروا طاردين عامله الزيدي عليهم، معترفين بالتبعية للسلطان الكثيري في حضرموت عيسى بن بدر الذي بقي على

إعلان خضوعه للإمام. ولكن السلطان حسن بن عبد الله بعده استغلّ الفوضى التي أعقبت وفاة الإمام المهدي أو "سيل الله" من أجل أن يعلن في أواخر عام ١٦٨٢/١٠٩٣ استقلاله عن الإمامة. وقد مات في العام نفسه فخلفه السلطان علي بن بدر ثم أخوه عيسى بن بدر الذي أهمل شؤون الدولة وسلمها إلى اليوافع الذين كان نفوذهم حول عدن في ازدياد مستمر منذ أوائل القرن السابع عشر، بحيث أصبح السلطان الكثيري صورة ليس إلاّ[١٤٩]. وكان أن ثار آل كثير بزعامة عمر بن جعفر الذي استنجد بالإمام الزيدي واستولى على الشحر، ولكن اليوافع أخرجوه منها، فلجأ إلى اليمن، ثم توفي بعد فشل محاولته الثانية لاحتلال حضرموت في عام ١٧١٧/١١٢٩، والتي سيطر اليوافع بعدها على معظمها مشكلين الدولة القعيطية اليافعية التي بقيت مسيطرة عليها في بداية المرحلة الحديثة الثانية.

بعد استقلال حضرموت بعد ذلك أخذت القبائل في الجنوب اليمني، في أواخر المرحلة الأولى من تاريخه الحديث،في الثورة فيه واحدة تلو أخرى، إلى أن انفصلت واستقلت كلها عن حكم الأئمة، واتخذ زعماؤها لقب السلطان. وكان أمير لحج، فضل بن علي، زعيم قبيلة العبدلي، أول من أعلن استقلاله فيها منصباً نفسه سلطاناً عليها في عام ١٧٣١/١١٤٤، وكان الإمام الزيدي الحسين بن القاسم (١٧٢٧/١١٤٠-١٧٤٦/١١٥٩) قد عينه نائباً عنه في عدن، فأسس أسرة العبادلة فيها. وبعد أن حصل على موافقة سيف بن قحطان، سلطان طائف السفلى اليافعي، على مؤازرته في احتلال عدن مقابل إعطائه نصف عائدات مرفئها، استولى عليها في عام ١٧٣٥/١١٤٨، ولكن وقبل مضي ستة أشهر حنث بوعده وطرد اليافعين من المدينة مهيمناً وقبيلة العبادلة عليها كلياً. وخلفه ابنه عبد الكريم بعد موته عام ١٧٤٤/١١٥٥[١٥٠].

وهكذا كان إقليم اليمن في هذه الفترة، كما هي الحال مع بقية أقاليم شبه الجزيرة العربية، يعيش واقع التفكك والصراعات، ولم يستطع الإمام الزيدي الحسين

بن القاسم الذي حكم فيما بين عامي ١١٤٠/١٧٢٧ و١١٥٩/١٧٤٦، أن يضع حداً لهذا التفكك وهذه الصراعات. واستمرّ حكمه في بداية المرحلة الثانية من تاريخ اليمن الثانية، المرحلة الممتدة منذ تشكل الدولة السعودية الأولى في عام ١١٥٨/١٧٤٥ حتى نهاية الوجود المصري لمحمد علي في عام ١٢٢٦/١٨١١. ولقد عاش اليمن في عهده فترة ظهور الحركة الوهابية وتشكل هذه الدولة في إقليم نجد المجاور له، ودون أي ردّ فعل إزاءهما يستحق الذكر.

****

هوامش الفصل الثاني

[١]- راجع ابن بشر، المصدر السابق، وابن غنام، المصدر السابق، وابن ظهيرة، المرجع السابق، والأزرقي، المرجع السابق، ودحلان، مرجع سابق، والأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مصر، ١٢٨٤هـ، وخزعل، المرجع السابق، إلخ...

[٢]- انظر سنان معروف اغلو، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية، الأحوال السياسية والاجتماعية في نجد والجاز خلال العهد العثماني، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢.

[٣]- حسين بن محمد مضيف، ماضي الحجاز في حاضره، جدة، ١٣٤٩هـ، ص٩٤. وعبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، ١٩٨٠، ص٦٥.

[٤]- أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، المملكة العربية السعودية، مطبوعات دار الملك عبد العزيز رقم ٩، دار الهلال، الرياض، بدون تاريخ، الجزء الأول، ص٢٢.

[٥]- صبري فالح الحمدي "أخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية المنشورة"(مجلة الآداب، بغداد، عدد ١٠٦، ٢٠١٣، ص ٣١٧-٣٣٨)، ص ٣٢٠.

[٦]- فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، الرياض، ١٩٦٨، ص٣١٩.

[٧]- عبد القدوس الأنصاري، تاريخ مدينة جدة، دون مكان أو تاريخ، ص٢٤٢.

[٨]- محمود شاكر، موسوعة التاريخ الإسلامي: العهد العثماني، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٤١.

[٩]- حمزة، المرجع السابق، ص٣١٨.

[١٠]- المرجع نفسه، ص٣٠٤.٣٠٥، والكوكب الدرّي هو قطعة من الماس الفاخر أقل من بيضة الحمام وتحتها قطعة أخرى أكبر منها مكفوفتان بالذهب والفضة، وضعت على جدار تجاه الوجه الشريف في حجرة قبر الرسول محمد (ص).

[11]- Cf. D. G. HOGARTH, Arabia, Oxford, 1922, pp. 55-66.

[12]- حول الأمراء الأشراف بعد "أبي نمي" انظر المحبي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٣١-٤٥٠، والجزء الثاني من ص١٤١، وأحمد زيني دحلان، المرجع السابق، و: Cf. GAURY, op. cit.

[13]- الصباغ، تاريخ العرب...، ص٩٩.

[14]- Albert HOURANI, Histoire des Peuples Arabes, Seuil, Paris, 1990, p. 291.

[15]- انظر محمد عبد اللطيف البحراوي، فتح العثمانيين عدن، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩، ص٦٦-٦٩ وص٩٦.

[16]- سالم، المرجع السابق، ص١٤٠.

[17]- Cf. Sir E. A. Wallis BUDGE, A. History of Ethiopia, London, 1928, pp. 400-403.

[18]- محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي، الطبعة الثانية، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، ١٩٨١، المجلد الثالث، الجزء التاسع، ص٢٤.

[19]- حول إقليم نجد في تاريخه الحديث راجع: ابن بشر، المصدر السابق، وابن غنام، المصدر السابق، ولمع الشهاب، المصدر السابق، وخزعل، المرجع السابق، وجمعة، مرجع سابق، والبغدادي، المرجع السابق، وفيلبي، المرجع السابق، وفاسيليف، مرجع سابق، إلخ...

[20]- الحصري، المرجع السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

[21]- خزعل، المرجع السابق، ص٣٨-٣٩.

[22]- راجع ابن بشر، المصدر السابق، وابن غنام، المصدر السابق، وفيلبي، المرجع السابق، ص ١١-٢٥، وراجع أيضاً صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٦/١٩٧٥، الجزء الأول، ص٢٩-٣٢. وانظر:
H.st .PHILBY, Saudi Arabia, London,1955. P. 9.

[23]- خزعل، المرجع السابق، ص١٥٧.

[24]- لمع الشهاب، ص ٨٣-٨٤، وعبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٢٢.

[25]- راجع ابن غنام، المصدر السابق، ص ١١-١٢، وعبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣. الغار كان في أسفل الدرعية وقيل أنّه انشق بمعجزة ليحمي امرأة.

[26]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٢٥.

[27]- ابن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٨٦.

[28]- وضعنا هذا التوصيف ضمن أقواس صغيرة دلالةً على تحفظنا عليه لأسباب ستتوضح من خلال النصوص المعنية، ومنها تناقض صفة الإصلاح مع صفة التكفير لأهل الإيمان.

[29])- راجع على سبيل المثال: منير العجلاني: تاريخ البلاد العربية السعودية، عهد عبد العزيز محمد، دون مكان أو تاريخ، ص ٢٧٩-٢٨١، وعبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٣٦-٥٢، وصلاح العقاد، "دعوة حركات الإصلاح السلفي"(المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مجلّد سابع، ١٩٥٨)، وصباغ، تاريخ العرب...، ص ١٤٥، وأحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، دمشق، ٩٨١-١٩٨٢، ص ١٠٨.

[30])- وضعنا هذا التوصيف ضمن أقواس صغيرة دلالةً على تحفظنا عليه لأسباب ستتوضح لاحقاً من خلال النصوص المعنية، ومنها تناقض صفة التكفير مع صفة السلفية، فالسلف الصالح، ممثّل بالخلفاء الراشدين بشكل خاص، كان يلتزم بالقرآن والسنة في عدم جواز تكفير من يشهد بالله، ومن يحدد المؤمن هو الله وحده. وعليه نرى الأصح توصيف الحركة الوهابية بـ"السلفوية" وليس "السلفية"، لأنها خرجت عن مضمونها الصحيح.

[31])- طربين، مرجع سابق، ص ١٠٨.

[32])- لوريمر، ا لمصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٥٧٣.

[33])- ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، الطبعة السادسة، بغداد، ١٩٨٥، ص ٢٢٥.

[34])- طربين، مرجع سابق، ص١٠٨، ولوريمر، مصدر سابق، جزء ٣، ص ١٥٧١-١٥٧٣.

[35])- انظر العجلاني، عهد عبد العزيز...، ص ٣٥-٣٦.

[36])- انظر ناصر السعيد، تاريخ آل سعود، دار الشرق للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠١٢، ومحمود أمين، دفاعاً عن ناصر السعيد، سلسلة كتب ودراسات شبه الجزيرة العربية١،دون مكان أو تاريخ،ص ١٠٧

[37])- http://en.wikipedia.org/w/index.php?title=Memoirs_of_Mr. Hempher,_The_British_Spy_to_the_Middle_East&oldid=622216042

[38])- انظر: Memoirs of Mr. Hempher, The British Spy to the Middle East
مذكرات مستر همفر: الجاسوس البريطاني في البلاد الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور ج.خ. دون مكان أو تاريخ.

[39])- المصدر نفسه، ص ٨٤.

[40])- المصدر نفسه، ص ٨٤-٨٥.

[41])- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٣١.

[42])- المرجع نفسه، ٣٦-٣٧.

[43])- هي محفوظة في دار الوثائق القومية في القاهرة،: دفاتر معية تركي خاصة بالمراسلات بين الباب العالي ومحمد علي منذ تكليفه بالقضاء على الوهابيين وآل سعود،، رقم١و٣و٤ (دفتر ٢ مفقود)،

انظر على سبيل المثال: وثيقة(٣) ذي الحجّة ١٢٢٢هـ/ يناير ١٨٠٧م، من الباب العالي إلى محمد علي، دفتر(١) معية تركي، ص٤.

٤٤)- راجع رسائله وفتاويه ومؤلفاته، وانظر بشكل خاص كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، القاهرة، بدون تاريخ، وكذلك كتاب كشف الشبهات في التوحيد، المطبعة المنيرية، القاهرة، وكتاب الكبائر، ضمن مجموعة الحديث النجدية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥/١٩٥٥، وكتاب فضل الإسلام، في مجموعة الحديث النجدية، القاهرة، هـ١٣٧٥، وكتاب ابنه عبد الله، الرسالة–في الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية، القاهرة، ١٣٤٢هـ، وانظر ابن غنام ، المصدر السابق، وابن بشر، المصدر السابق.

٤٥)- المؤلف نفسه، الكبائر...، ص ٢٠٦.

٤٦)- المؤلف نفسه، أصول الإيمان...ص ١٦٧-١٧٠، وله نفسه، الأصول الثلاثة...، ص ٨.

٤٧)- المؤلف نفسه، التوحيد...، ص ٦٠، ٧٠، ٨٦، والأصول الثلاثة...، ص ٤٢.

٤٨)- العقاد، دعوة حركات...ص ٩١، وعبد الرحيم، ص ٣٧.

٤٩)- ابن غنام، مصدر سابق، جزء أول، ص ٣٨

٥٠)- محمد بن عبد الوهاب، التوحيد...، ص ٧٤، ٨٧، ٢٠٧-٢٠٩، وكشف الشبهات...، ص ٢٣٠، وانظر عبدالله ابنه، الرسالة...، ص ٤٧-٤٨

٥١)- محمد بن عبد الوهاب، الكبائر...، ص٢٣١.

٥٢)- المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

٥٣)- محمد بن عبد الوهاب، فضل الإسلام...، ص ١٩٨، وفاسيلييف، مرجع سابق، ص ٧٨.

٥٤)- انظر لاحقاً الفصل السادس من الجزء الأول، ص ٢٦٤.

٥٥)- محمد بن عبد الوهاب، كشف الشبهات...ص٢٢٧-٢٢٨، وفاسيلييف...، ص ٩٢-٩٣.

٥٦)- منهم د. علي الشعيبي، الباحث والأكاديمي الإسلامي الذي كان تلميذا لكبار المشايخ الوهابية قبل أن يصبح واحدا من محاربيها فكرياً، وله كثير من المؤلفات في نقد الوهابية. انظر كمثال: "العور الفكري عند ابن تيمية"، ومقالاته ومنها "ابن تيمية والعقيدة الكرامية اليهودية" على موقع: http://www.arabi-press.com

٥٧)- راجع رسائله وفتاويه ومؤلفاته التي طبع معظمها بعنوان "مجموع فتاوى ابن تيمية"، في الرياض، سنة ١٣٨٢هـ ثم صدرت سنة ١٣٩٨ وفيما بعد، وذلك في 35 مجلداً، جمعها الشيخ عبد الرحمن ابن قاسم وابنه محمد بن عبد الرحمن القاسم، وانظر المواقع المعنية على الإنترنيت بمختلف توجهاتها.

٥٨)- المصدر نفسه.

٥٩)- انظر على سبيل المثال: فاسيلييف، المرجع السابق، ص ٨٠.

٦٠)- انظر على سبيل المثال خزعل، المرجع السابق، ص ٦٠.

[٦١]- سليمان بن عبد الوهاب، الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، القاهرة، دون تاريخ، وسنشير إليه بعنوانه منعاً من الالتباس.

[٦٢]- راجع المواقع الإلكترونية المعنية ومنها: www.ahlalhdeeth.com
http://liberalls.org/vb/archive/index.php/t-3120.html

[٦٣]- المرجع نفسه.

[٦٤]- المرجع نفسه.

[٦٥]- الصواعق الإلهية، ص ٨٦ وما يتبع.

[٦٦]- ومنها أن يكون "حافظاً للغات العرب واختلافها...عالماً بكتاب الله بمختلف قراءاته وتفاسيره، وبأحاديثه (ص) وأحاديث الصحابة وبمستوياتها وتقييماتها، وأن يكون ورعاً ديّناً صائناً لنفسه صدوقاً إلخ...راجع الصواعق الإلهية، ص٨.

[٦٧]- الصواعق الإلهية ، ص٣٠، وعبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٥٠.

[٦٨]- الصواعق الإلهية، ص ٦٢.

[٦٩]- المصدر نفسه، ص ٩.

[٧٠]- المصدر نفسه، ص ١٧.

[٧١]- المصدر نفسه، ص ٢١.

[٧٢]- المصدر نفسه، ص ٥٤.

[٧٣]- المصدر نفسه، ص ٦١ و٦٧ و٩٣ و١٠١.

[٧٤]- سورة الأنعام/ الآية ١٥٩.

[٧٥]- سورة الأحزاب الآية ٥٨.

[٧٦]- سورة النساء الآية رقم ٩٣.

[٧٧]- أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمر.

[٧٨]- أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي سعيد الخدري.

[٧٩]- أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة عن ثوبان بن بجدد مولى رسول الله (ص).

[٨٠]- أخرجه البخاري وأحمد والترمذي والنسائي.

[٨١]- خزعل، المرجع السابق، ص ٦٠.

[٨٢]- انظر المرجع نفسه، ص ٥٩-٦٤، وعبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٤، والشيال، المرجع السابق، ص ٥٦، ولمع الشهاب، المصدر السابق، ص ١٩.

[٨٣]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٤٣.

[٨٤]- المرجع نفسه.

[٨٥]- ابن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٩، والبغدادي، المرجع السابق، ص١٣١.

[٨٦]- عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٤٢-٤٤، وانظر رسائله في ابن غنام، مصدر سابق، ص ٢٠٥-٦٠١.

[٨٧]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٤٣، وزيد بن الخطاب هو أخو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعرف بجهاده ضدّ المرتدين في حروب الردّة.

[٨٨]- الريحاني، ص ٣٩.

[٨٩]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٤٤، وخزعل، المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٠.

[٩٠]- راجع ابن غنام، المصدر السابق، ص٧٩.

[٩١]- لمع الشهاب، المصدر السابق، ص٣٤.

[٩٢]- ابن غنام، المصدر السابق، ص٧٩، ولمع الشهاب، المصدر السابق ص٣٤. ومحمود شكري الألوسي، تاريخ نجد، تحقيق م. ب. الأثري، ط. ٢، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص١١٤.

[٩٣]- ابن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١١.

[٩٤]- حول هذا التحالف عموماً راجع المصدر نفسه، ص١١-١٢، والبغدادي، المرجع السابق، ص٢٣٢، والألوسي، المرجع السابق، ص٢١٧-٢١٨.

[٩٥]- ابن بشر، المصدر السابق، ص ١١.

[٩٦]- المصدر نفسه.

[٩٧]- المصدر نفسه.

[٩٨]- المصدر نفسه، ص ١٢.

[٩٩]- لونكريك، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

[١٠٠]- فاسيلييف، المرجع السابق، ص٩٥-٩٦.

[١٠١]- خزعل، المرجع السابق، ص٣١٨.

[١٠٢]- المرجع نفسه، ص٣١٩.

[١٠٣]- المرجع نفسه، ص ٣٢٠.

[١٠٤]- عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث،١٥١٧-١٨٤٠،القاهرة، ١٩٦٩، ص٢١

[١٠٥]- راجع: العبدلي، المرجع السابق، وابن أحمد، المرجع السابق. وفخري، المرجع السابق.

[١٠٦]- سالم، المرجع السابق، ص٩١.

[١٠٧]- ابن الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوطة محفوظة في دار الكتب بالقاهرة، تحت رقم ٢٢٤ تاريخ، ص٥٧ أ.

[١٠٨]- يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم بن محمد، أبناء الزمن في تاريخ اليمن، مخطوطة محفوظة في دار الكتب بالقاهرة، تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ، ص١٦ أ.

[١٠٩]- سالم، المرجع السابق، ص٩٣.

(١١٠)- ابن داعر، الفتوحات المرادية في الجبهات اليمانية، مخطوطة مصورة موجودة في مكتبة جامعة القاهرة، تحت رقم ٢٦٤٣١، الجزء الأول، المجلد الأول، ص١٦٦ أ.

(١١١)- Cf. Joseph de HAMMER, Histoire de l'Empire Ottomane. Paris, 1836, VI, p. 358.

(١١٢)- حول الدولة الكثيرية انظر: علي بن عقيل، حضرموت، دمشق، ١٩٤٩، ص١٧، ومحمد بن أحمد بن عمر الشاطري، أوراق التاريخ الحضرمي، المكلا، ١٩٧٢، ص٢١، وصلاح البكري اليافعي، تاريخ حضرموت السياسي، مصر، جزء أول، ص ١٢٣-١٢٧، وسعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، القاهرة، ١٣٧٨/١٩٥٩.

(١١٣)- باوزير، المرجع السابق، ص١٢١.

(١١٤)- المرجع نفسه، ص١٢٢ و ١٢٦.

(١١٥)- القاضي عبد الله بن عبد الكريم اليمني الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، مصر، ١٩١٥، ص٨٤-٨٦.

(١١٦)- ابن لطف الله، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٧٠.

(١١٧)- سالم، المرجع السابق، ص١٣١.

(١١٨)- النهروالي ، المصدر السابق، ص ٤٢-٥٣.

(١١٩)- المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٥.

(١٢٠)- ابن داعر، المصدر السابق، الجزء الأول، المجلد الأول، ص١٨٧ ب.

(١٢١)- انظر النهروالي المصدر السابق، ص٧٠.٨٥. وانظر محمد بن أبي السرور البكري، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، مخطوطة منقولة عن الأصلية ومحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥٤٢٤ تاريخ.

(١٢٢)- النهروالي ، المصدر السابق، ص ٧٠-٩٠.

(١٢٣)- باوزير، المرجع السابق، ص١٢٦-١٢٧، و: RJEANT, op. cit., pp. 77-78.

(١٢٤)- Ibid, p. 92; HAMMER, op. cit., tom. VI, p. 303.

(١٢٥)- النهروالي ، المصدر السابق، ص ٨٥.

(١٢٦)- المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١٢٧)- المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(١٢٨)- المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١٢٩)- سالم، المرجع السابق، ص١٥٧- ١٥٨.

(١٣٠)- المرجع نفسه، ص١٦٠، النهروالي، المصدر السابق، ص ١٦٩.

(١٣١) البطريق، المرجع السابق، ص٢٩.

(١٣٢)- راجع النهروالي، المصدر السابق، ص ١٧٥- ١٨١.

(١٣٣)- القاضي حسنين بن أحمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام حتى ١٩٠٠/١٣١٨، القاهرة، ١٩٣٩، ص٦٠-٦١.

(١٣٤)- عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ١٩١٦/١٥١٦، دمشق، ١٩٧٤، ص٩٤، والنهروالي هو أول من دعاه بذلك، راجع النهروالي ، المصدر السابق، ص٢٠٩-٤٥٧.

(١٣٥)- ابن داعر، المصدر السابق، ص٢١٣ ب.

(١٣٦)- المصدر نفسه.

(١٣٧)- العرشي، المصدر السابق، ص٦١-٦٣.

(١٣٨)- رافق، العرب والعثمانيون...، ص١١٤.

(١٣٩)- غرايبة، المرجع السابق، ص٣٠٥.

(١٤٠)- المطهر بن محمد الجرموزي، سيرة الإمام القاسم بن محمد، مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية في القاهرة، تحت رقم ٢٥٦٤٩، المجلد الأول، ص٧٦ ب.

(١٤١)- البطريق، المرجع السابق، ص٣٥.

(١٤٢)- ابن لطف الله، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٠٤ أ.

(١٤٣)- فخري، المرجع السابق، ص١٥٦-١٥٧.

(١٤٤)- اليافعي، المرجع السابق، ص٢٨-١٣٠، وابن عقيل، المرجع ا لسابق، ص١٧.

(١٤٥)- البطريق، المرجع السابق، ص٤٣.

(١٤٦)- المرجع نفسه.

(١٤٧)- محمد بن أحمد عيسى العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، الرياض، ١٩٥٨، الجزء الأول، القسم الثاني، ص٣٨١-٣٨٣.

(١٤٨)- اليافعي، المرجع السابق، ص١٣٢-١٣٦، وباوزير، المرجع السابق، ص١٦٢-١٩٣.

(١٤٩)- دروزة، العرب والعروبة...، الجزء التاسع، ص٨١-٨٢.

(١٥٠)- Cf. Z. H. KHOUR, The History of Aden, 1839-1872, London, 1981, p. 3; HOGARTH, op. cit., p. 99.
وغرايبة، المرجع السابق، ص٢٨٩، وقدورة، مرجع سابق، ص٢٢٧.

****

الفصل الثالث

إقليما شرقي شبه الجزيرة العربية(عمان والبحرين)
في المرحلة الأولى من تاريخهما الحديث: من بدايته
حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨

أولاً)- إقليم عُمان في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨:

I - إقليم عمان من بداية تاريخه الحديث حتى تشكّل دولة اليعاربة عام ١٠٣٣/ ١٦٢٤.

II - إقليم عمان في فترة دولة اليعاربة (١٠٣٣/١٦٢٤-١١٥٤/١٧٤١) وحتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨: من الوحدة والقوة إلى التفكك والضعف.

ثانياً)- إقليم البحرين في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨:

I - جزر البحرين في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام١٧٤٥/١١٥٨.

II - منطقة الإحساء في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية ١٧٤٥/١١٥٨.

****

أولاً)- إقليم عُمان في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨:

ما يجب تمييزه في تاريخ إقليم عُمان في مرحلته هذه انقسامه إلى فترتيْن رئيسيتيْن: أولاهما الممتدة منذ المكتشفات وبداية تاريخه الحديث (١٤٨٨/٨٩٤-

١٤٩٨/٩٠٤) حتى تشكل دولة اليعاربة في عام ١٦٢٤/١٠٣٣، والثانية الممتدة منذ تشكل هذه الدولة حتى نهايتها في عام ١٧٤١/١١٥٤ وبداية حكم أسرة آلبوسعيد التي ستشهد تكوين الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨.

I – إقليم عمان من بداية تاريخه الحديث حتى تشكّل دولة اليعاربة عام ١٦٢٤/١٠٣٣:

١- عمان وواقع التشتت والضعف والاحتلال البرتغالي والمقاومة:

في حديثنا عن هذا الإقليم قبيل تاريخه الحديث وفي بدايته رأينا استنزاف قواه في صراعيْن اثنيْن أساسييْن كانا يسيطران على جميع شؤونه السياسية، أولهما الصراع عليه على المستوى الخارجي ما بين دولة هرمز ودولة آل جبر الذين كانوا أمراء الإحساء، والذي انتهى لصالح خضوع ساحله الخليجي إلى هؤلاء الأخيرين. والثاني الصراع عليه على المستوى الداخلي ما بين الإباضيين والنبهانيين، والذي انتهى لصالح هيمنة الأولين في عهد إمامهم محمد بن اسماعيل. والنتاج الطبيعي لهذا الصراع كان ضعف جميع أطرافه وفشلها في التصدّي للمستعمرين البرتغاليين.

كان البرتغاليون، مثلهم مثل بقية المستعمرين الغربيين، يدركون الأدوار الرئيسية التي كان يلعبها عرب الخليج في الهيمنة العربية على التجارة الدولية ما بين الشرق والغرب، "واعترفوا بازدهار مدنهم وموانئهم[١]، وعرفوا كم أسهموا ومعهم العرب اليمنيون، وخاصة الحضارمة، في تأسيس ورعاية وتطوير جميع المراكز التجارية العربية- الإسلامية الممتدة في نشاطها التجاري من الشرق الأقصى، والتي امتدت على طول الساحل الشرقي لأفريقيا من رأس جردفون شمالاً حتى خليج دلجادور جنوباً"[٢]. وكانوا يدركون أيضاً، كما رأينا، أن السيطرة على التجارة الدولية مرتبطة بشكل أساسي بالسيطرة على مقدرات العرب ومراكزهم بشكل عام، وعلى مقدرات عرب الخليج ومراكزهم بشكل خاص، وخاصة في عُمان، ممّا يفسّر توجّههم نحو احتلال موانئه أولاً.

كانت البداية في عام ١٥٠٧/٩١٣ حيث قام الأسطول البرتغالي بتدمير ميناء رأس الحدّ وجميع السفن الراسية فيه. ثم تابع فاحتلّ قلهات فقريات. وبعد قصف وتدمير وحشي ومقاومة بطولية بمساعدة آل جبر[٣] سقطت مسقط، "البلد التجاري الهام والمركز السياسي الحساس والمليء بالخيرات والطيبات"[(٤)].وبعدها احتل البرتغاليون صحار ثم خورفكان فرأس مسندم، ثم دمروا وأخضعوا هرمز بعد معركة تعدّ أقوى المعارك البحرية التي خاضوها في الخليج العربي. وكان ملكها سيف الدين فتىً صغيراً وتحت الوصاية، وقد اضطر إلى الاستسلام وإلى إعلان ولائه للبرتغاليين الذين تركوا له الحكم مقابل تعهده بدفع جزية سنوية كبيرة لهم فقط. بعد ذلك ومن خلال هيمنتهم عليها أخذ البرتغاليون يمارسون سيادتهم البحرية والتجارية في الخليج، وباشروا في بناء حصن لهم فيها كان "الأول في سلسلة كبيرة من القلاع والحصون التي بنوها على سواحل الخليج العربي والمحيط الهندي"[٥]، والتي عليها ارتكزوا في فترة سيطرتهم. ولقد اضطروا إلى الانسحاب من هرمز قبل استكمال بناء الحصن، وذلك في عام ١٥٠٩/٩١٥ بسبب ضرورة قيامهم بإخماد حركات العصيان في أوساط بحارتهم بداية، ثم ضرورة توجههم إلى الهند لملاقاة الأسطول المملوكي في معركة ديو التي أسفرت عن هزيمته فيها، كما رأينا، وعن توجه البرتغاليين بعدها وبزعامة البوكيرك لتحقيق حلمهم في بناء إمبراطوريتهم الاستعمارية في الشرق، والذي لم يكن ليتمّ إلاّ بالسيطرة على بحار شبه جزيرة العرب ومنها الخليج العربي خاصة، فكان أن ركزوا جهودهم فيه.

ولما كانت هرمز السوق الرئيسة لمنطقة الخليج، فقد صمم البوكيرك على إعادة السيطرة عليها آملاً بذلك امتلاك قدرة السيطرة المطلقة على التجارة فيه، وكان شاه إيران إسماعيل الصفوي قد نجح بعد رحيلهم المذكور عنها في جرّ ملكها إلى التبعية له بدلاً من البرتغاليين. واسترد البرتغاليون السيطرة عليها عام ٩١٩/ ١٥١٣، حيث لم يجد ملكها سيف الدين مفراً من الاستسلام والقبول بالشروط القاسية التي فرضوها عليه، وكان من بينها قبول حمايتهم مقابل الإبقاء على حكمه

فيها، بالإضافة إلى دفع غرامة عسكرية وجزية سنوية كبيرة لحكومة البرتغال، إلى جانب منح البرتغاليين امتيازات في المعاملات التجارية كان من أهمها إعفاء بضائعهم من الضرائب. كما تعهد الملك سيف الدين بتقديم الخامات والعمال اللازمين لاستكمال بناء الحصن الذي بدأ البوكيرك بناءه خلال احتلالها الأول.

في عام ١٥١٤/٩٢٠ لاحظ البوكيرك أن ملك هرمز، طورانشاه الذي خلف سيف الدين، عاد إلى تبعيته للشاه الصفوي، فكان أن خدع الطرفين معاً واعداً إياهما بوعود كثيرة، كان من أبرزها الوعد بتقديم المساعدة لكل منهما في احتلال البحرين لصالحه. هذا ما تضمّنه الاتفاق البرتغالي-الصفوي عام ٩٢١/ ١٥١٥، كما تضمن مقابل اعتراف الشاه بالحماية البرتغالية لهرمز، ومقابل تخليه للبرتغاليين عن ميناء جوادر على ساحل بلوشستان، تعهد هؤلاء بتقديم المساعدة إليه لاحتلال القطيف أيضاً بالإضافة إلى البحرين، ولقمع ثورة ضدّه في مكران، وللتصدي معه للعثمانيين، وأيضاً تعهدهم بفتح ميناء جوا للتجارة الفارسية[٦].

وسرعان ما أدرك ملك هرمز طورانشاه كذب ادعاء البرتغاليين بأن احتلال البحرين بمساعدته هو من أجل إعادتها للتبعية له. وأدرك أن تحالفهم معه لم يكن إلاّ بهدف استخدامه لاستكمال فرض السيطرة البرتغالية على بقية شعوب الخليج[٧]، وازدادت نقمته بازدياد التحكم البرتغالي المستبدّ بشؤون بلاده، فكان قراره بالتخطيط لثورة خليجية عامة ضدّ الوجود البرتغالي ككلّ. معظم المصادر الأجنبية قد تحدثت عن هذه الثورة، ولكن أهم ما نعرفه عنها جاء ممّا ذكره ميلز[٨]، حيث يقول إنه في عام ١٥٢١/٩٢٧ حدثت ثورة منظمة شملت الساحل العربي وجزر البحرين، بسبب عدم رضا ملك هرمز، طورانشاه، عن التدخل البرتغالي المباشر في تنظيم دخل مملكته وفي أعمال الجمارك عنده، فخطط وزراؤه لها، وعلى أن تتمّ في جميع هذه المناطق في وقت واحد هو يوم ٣٠ تشرين الثاني.

لكن حاكم مسقط، حسين، من شيوخ بني جبر، لم ينس الدور الذي لعبه طورانشاه في مقتل الكثير من أفراد قبيلته، وعلى رأسهم الأمير مقرن كما سنرى،

ولم ينس تحالفه المذكور مع البرتغاليين ضدّ البحرين، فكان أن انتهز هذه الفرصة للانتقام منه، مضحياً بالمصلحة العامة، فأخبر البرتغاليين بأمر هذه الثورة، وساعدهم على إفشالها مقابل دعمهم له بأخذ صحارى التي كانت آنذاك تابعة لحاكم هرمز، وقاموا بمهاجمتها من البحر في الوقت نفسه الذي هاجمها هو من البرّ، وعلى أن يسندوا حكمها له مقابل اعترافه بالسيادة البرتغالية. ولم يكتف بذلك بل لاحق طورانشاه الذي هرب إلى جزيرة قشم، وأوعز لأتباعه بقتله فيها في تموز ١٥٢٣/٩٢٩، فخلفه محمد شاه على حكم هرمز. إذ كان البرتغاليون قد اعترفوا له بهذا الحكم، وليس لحسين، من خلال معاهدة ميناب التي وقعها معهم بمجرد استلامه، إلاّ أنهم أفقدوه جميع السلطات الفعلية من خلال بقية بنود المعاهدة التي أتاحت لهم التدخل الفعلي المباشر في مختلف شؤون هرمز المتعددة، وخاصة التجارية منها، والتي برّروا من خلالها كلّ إجراءاتهم القهرية ضدّ سكانها.

وهكذا انتهى الحكم الوطني في هرمز، واستمرت حركة مقاومة عربها، مثلهم مثل بقية عرب عُمان والخليج العربي عموماً، ضدّ الاحتلال البرتغالي، فتعددت ثوراتهم، وكان من أهمها ثورتا أهالي مسقط وقلهات عام ٩٣٣/ ١٥٢٧، وثورة ١٥٢٩/٩٣٥[٩] التي سنراها لاحقاً حين متابعتنا لإقليم البحرين. وفشل هذه الثورات كان يعود بالدرجة الأولى إلى الشقاق الذي زرعه البرتغاليون في صفوف الزعامات العربية، وإلى المساعدة التي منحها الشيخ راشد حاكم ميناء مسقط الهام لهؤلاء الغزاة من أجل بناء المخازن والقلاع القوية فيه، والذي جعلوه فيما بعد، وتحديداً بعد ضياع هرمز منهم، كما سنرى، مركزاً لنشاطهم التجاري والتبشيري في الخليج[١٠].

وكان أن تفشّت بعد ذلك ظاهرة التشتت والتمزق في إقليم عُمان أكثر فأكثر، واستمرت حتى قيام دولة اليعاربة، لتزيده ضعفاً على ضعف. صورة عُمان كما وصفها السالمي في الفترة السابقة لقيام هذه الدولة تعطي فكرة واضحة عن مدى هذا التفشي، إذ يقول:"لبث سيف بن محمد في بهلي، وآل عمير في سمائل، ومالك بن أبي العرب في الرستاق (أي بني يعرب)، والجبور في الظاهرة، والبرتغاليون في

مسقط وصحار وصور وقريات، وخربت عُمان بعد العدل والأمان، وعاث فيها الجبابرة وقتل فيها العلم والخير"(١١). ولا شك أن واقع استمرار الحروب والثورات والتدمير والقمع قد سبب ازدياد ضعف العُمانيين في هذه الفترة، مما يفسر هيمنة الوجود البرتغالي عليهم خلالها، كما سنرى.

٢- عمان والقوى الخارجية الرئيسية في الخليج العربي: البرتغالية والصفوية والعثمانية حتى تشكّل دولة اليعاربة ١٠٣٣/١٦٢٤:

رأينا تحالف حاكم فارس الشاه اسماعيل الصفوي بداية مع المحتلين البرتغاليين، حيث أن ظروفه لم تكن لتسمح له بمواجهتهم آنذاك، إذ كان مهدداً من السلطنة العثمانية التي استنزفت قوته في هزيمة جلديران عام ٩٢٠/١٥١٤، والمتطلعة إلى التوسع شمال وغربي بلاده أولاً، وكان يفتقد إلى القوة البحرية ثانياً، ومشغولاً بقمع حركات العصيان داخل بلاده في مكران ثالثاً، وكان تواقاً لإحلال السيطرة الفارسية محلّ السيطرة العربية في الخليج، وخاصة في عُمان والبحرين رابعاً. وكان أن عقد اتفاقية الصلح مع هؤلاء البرتغاليين عام ٩٢١/١٥١٥، والتي رأينا بنودها سابقاً. إلاّ أنه سرعان ما عاش أحداث فشل هذه الاتفاقية وقيام البرتغاليين بالسيطرة على الخليج بما فيه البحرين والقطيف، ضاربين باتفاقيتهم هذه عرض الحائط.

ثمّ كان انشغاله ببروز وجود خطر العثمانيين بعد انتصارهم عليه واحتلالهم للعراق عام ٩٤١/١٥٣٤، خاصةً وقد امتد نفوذ هذا المنافس إلى البصرة في العام نفسه، بعد إعلان حاكمها ابن مغامس تبعيتها للسلطنة العثمانية التي كانت تتطلع لتجعل منها قاعدة بحرية لأسطولها في الخليج العربي والمحيط الهندي. لهذا لم تكتف بهذه التبعية الاسمية، وإنما استغلت فرصة قيام ابن مغامس بتأييد ثورة أحد شيوخ العرب ضدّها، لتعده عاصياً، ولتصدر أوامرها إلى والي بغداد ليقوم بتأديبه عام ٩٥٣/١٥٤٦، كحجّة لدخولها محوّلةً إياها إلى ولاية عثمانية، وجاعلة منها قاعدتها البحرية العسكرية الثانية في أهميتها بعد السويس.

وهكذا أصبحت البصرة قاعدة الانطلاق للنشاط العثماني البحري في الخليج العربي بهدف التصدي للسيطرة البرتغالية فيه، والتي فشلت بسبب اعتمادها على نشاط بحري غير نظامي لبحّارين مشهورين، وعلى أنّه "حركة للجهاد الديني"[١٢]. وسنرى نتيجة حملاتهم بالنسبة للبحرين فيما بعد، أما بالنسبة لحملاتهم إلى عُمان[١٣]، فإن حملة أولهم بيري بك في عام ٩٥٩/١٥٥٢ بعد أن نجحت في أخذ مسقط من البرتغاليين، فقد فشلت في تخليص هرمز منهم، فكان أن استغلوا ذلك لاسترجاع مسقط. ولتغطية فشله هذا فقد توجه بيري بك نحو قشم حيث نهب ثرواتها وعاد بها إلى البصرة. وقد حمّله السلطان سليمان القانوني مسؤولية الفشل المذكور لمخالفته أوامره بضرورة استعانته بحامية البصرة قبل توجهه إلى هرمز.

أما بالنسبة للحملة العثمانية البحرية لسيدي علي عام ٩٦١/١٥٥٤، التي أعدت في السويس والبصرة معاً، فقد تلقت ضربة موجعة من الأسطول البرتغالي عند هرمز ثم عند مسقط، اضطرتها إلى رحلة الهرب إلى ميناء سورات. وبعدها بادر الملاحون والجنود العثمانيون إلى هجر سفنهم إلى بلادهم. أما سيدي علي فقد باع سفنه وعاد براً حاملاً إلى السلطان ثمن أسطوله[(١٤)].

وغاب النشاط البحري العثماني في الخليج العربي بعد ذلك حتى عام ٩٨٩/١٥٨١، حيث نجح الأسطول العثماني برئاسة علي بك في استغلال الفترة الزمنية التي أعقبت حدث انضمام البرتغال إلى التاج الإسباني عام ٩٨٨/١٥٨٠، من أجل أخذ مسقط، لكنّ البرتغاليين سرعان ما استعادوها مجبرين العثمانيين على الانسحاب منها[١٥]، بعد وصول الإمدادات إليهم من هرمز. ولم تؤد هذه المحاولة العثمانية إلاّ إلى لفت انتباه الحكومة الإسبانية إلى ضرورة زيادة التحصينات العسكرية البرتغالية داخلها. وقامت بالإضافة إلى ذلك ببناء قلعتين كبيرتين فيها. أما بالنسبة لنجاح علي بك هذا في فرض السيادة العثمانية على الكثير من الموانئ في الشرق الأفريقي فسرعان ما انتهى بمجرد وصول الأسطول البرتغالي إليها،

الذي نجح في أسر علي بك نفسه.ولم يفكر العثمانيون بعد ذلك في التصدي لحرب البرتغاليين، بل توجهوا إلى إقامة العلاقات التجارية المزدهرة معهم كما سنرى.

نعود إلى فارس حيث استمر حاكمها الشاه محمد خدابنده في الاستسلام لدولة الوحدة بين البرتغال وإسبانيا منذ عام ٩٨٨/١٥٨٠ في عهد الملك فيليب الثاني. وكان أن ثار أمراء القزلباش فيها احتجاجاً على تحالف هذا الشاه مع من دعوهم بـ"الكفار"، ونجحوا في إقالته سنة ٩٩٥/١٥٨٧ ليخلفه ابنه ميرزا عباس "عباس الأول"، الذي اعتبر "بحقّ من أعظم ملوك الأسرة الصفوية في قوته وذكائه وحنكته السياسية"[١٦]، واستمر في الحكم حتى وفاته عام ١٠٣٨/١٦٢٩ جاعلاً أصفهان عاصمة دولته بدلاً من تبريز، ولقد أوصل بلاده "إلى ذروة قوتها وازدهارها"[١٧]. توجّه بدايةً إلى التخلص من وصاية قادة القزلباش، معتمداً على دعم قبائل فارسية أخرى وقبائل عربية في ساحل فارس الغربي. ونظر إلى البرتغاليين "على أنهم غزاة يجب طردهم"[١٨] وكذلك الأمر بالنسبة للعثمانيين. ولتحقيق ذلك رأى أن يتحالف مع جميع القوى ذات الوجود المؤثر في الخليج وفي المنطقة عموماً، أي القوة العربية والبريطانية والإسبانية والهولندية، وعلى أن يستغلّ تنافسها وصراعاتها من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من الدعم السياسي والعسكري لبلاده[١٩].

نجح أولاً في استقطاب القبائل العربية الممتدة على الساحل الفارسي في الخليج ومنها عربستان. ونجح ثانياً في إعادة تنظيم جيشه الجديد بمساعدة البريطانييْن الأخويْن أنتوني وروبرت شيرلي، اللذيْن كان ثانيهما وسيطه في التفاوض الفاشل مع إسبانيا لجرّها إلى الحياد في صراعه مع البرتغال، وإلى التعاون معه في حربه ضدّ الدولة العثمانية. ونجح ثالثاً في الحصول على الدعم السياسي والعسكري من القوتيْن الهولندية والبريطانية، ولكن مقابل الامتيازات الواسعة[٢٠]. وما تقدم يفسّر انتصارات الشاه عباس في جبهات كثيرة، توجّه بعدها لتخليص هرمز من البرتغاليين، لكنهم نجحوا في صدّه عنها. ولم يكتفوا بذلك وإنما احتلوا ميناء بندر عباس عام ١٠٢١/١٦١٢ لمدة سنتيْن استطاع الصفويون بعدها إخراجهم منه،

بمساعدة الهولنديين الذين كافأهم الشاه الصفوي بمنحهم قاعدة حربية لهم فيه. ونظراً لمساعدة البريطانيين له، أي الشاه، في إخراج العثمانيين من سائر أراضيه عام ١٠١٤/١٦٠٥ فقد منحهم في عام ١٠٢٥/١٦١٦ حقّ امتياز الاتجار مع فارس بوساطة ميناء جسك. وبعد عام سمح لشركة الهند الشرقية بإقامة وكالة لها في شيراز وأخرى في أصفهان، وبعدها بعام حصلت على موافقته باحتكار حرير فارس في أوروبا. وفي عام ١٠٢٨/١٦١٩ أقامت مركزاً لها في جسك، وفي نهاية عام ١٠٢٩/١٦٢٠ ألحقت السفن البريطانية الهزيمة بالأسطول البرتغالي قرب هذا الميناء[٢١]. وفي العام ذاته انتصروا قربه أيضاً على تحالف بحري برتغالي-هولندي. ومنذ ذلك الحين، وبفضل الامتيازات الممنوحة لبريطانيا من الشاهية الفارسية، ومن السلطنة العثمانية منذ عام ٩٨٨/١٥٨٠، أخذت هيمنتها الاقتصادية ثم السياسية بالتزايد يوماً بعد يوم في منطقة الخليج العربي.

ونظراً لأن الخطر الأساسي بالنسبة للعرب آنذاك هو الاستعمار البرتغالي فلقد توجهوا بداية إلى التحالف مع القوى الأخرى المعادية له للتخلص منه، من فارسية وبريطانية، مما يفسّر تعاونهم مع الصفويين عام ١٠٢٩/ ١٦٢٠، ونجاحهم معاً في طرد البرتغاليين من موقع احتلوه على الساحل العربي قرب رأس الخيمة، وفي انتزاع حصون حصار وخورفكان، والتي استعادها البرتغاليون بعد وقت قصير. وما تقدم يفسر أيضاً تعاون العرب مع الصفويين والبريطانيين عام ١٠٣١/١٦٢٢ من أجل طرد البرتغاليين من هرمز لصالح تبعيتها وخضوعها لفارس مقابل حصول البريطانيين على امتيازات الحصول على قسم من وارداتها، والحصول على إعفاء تجارتهم من الضرائب فيها وفي الموانئ الفارسية القريبة منها. وقام الفرس بتدمير هرمز وبنقل معالمها العمرانية وأحجارها إلى ميناء جمبرون لتعميره، وقد أطلقوا عليه اسم "بندر عباس"[٢٢].

وهكذا انتهى وجود البرتغاليين في هرمز، وعلى الرغم من نجاحهم في اتخاذ البصرة كمركز برتغالي تجاري هام، بعد أن سمح لهم العثمانيون وحاكمها علي باشا

أفراسياب بفتح وكالة تجارية فيها عام ١٠٣٢/ ١٦٢٣، فإنهم، نظراً لأهمية هرمز بالنسبة إليهم، لم يستكينوا لطردهم منها، وحاولوا استعادتها فتصدّى لهم الأسطول البريطاني–الهولندي المشترك، وانتصر عليهم عام ١٠٣٤/١٦٢٥ بالقرب من ميناء بندر عباس. وكان هذا التصدي انسجاماً مع بنود الاتفاق مع فارس حول تكفل بريطانيا وهولندة بالدفاع عن السواحل الفارسية مقابل الامتيازات الممنوحة لهما.

إنّ البرتغال، بعد هذه الهزيمة الأخيرة وبعد يأسها من أن تجد على الساحل العربي بما فيه ساحل ميناء مسقط الذي بقي وحده تابعاً لسيطرتها، المكان المناسب البديل لقاعدتها السابقة في هرمز وذلك لشدة كراهية العرب لها(٢٣)، بخاصة وقد ظهر تصميم العرب العُمانيين على التوحّد والنضال لطردها من بلادهم، قد اضطرت إلى سياسة التفاهم مع فارس والسلطنة العثمانية، اللتين رحبتا باستمرار التعامل التجاري معها.

وكما حصلت على وكالة تجارية وامتيازات لها في البصرة، فقد قامت بعقد صلح مع فارس حصلت بمقتضاه على وكالة تجارية لها وامتيازات في ميناء كنج على الساحل الشرقي بالقرب من لنجة، وعلى أن تقسم عوائده الجمركية بين الطرفين[٢٤]. وأخذت البرتغال بعد ذلك تستغل التنافس الموجود بين مينائي كنج والبصرة الهامين[٢٥]على استقطاب حركتها التجارية، من أجل الحصول على مزيد من الامتيازات. وكان أن نجح العثمانيون في جرّ هذه الحركة إلى ميناء البصرة، من خلال الضمانات المناسبة التي قدمها حاكمها افرسياب للبرتغاليين.وإنّ ازدهار هذا الميناء قد أدّى إلى إحياء الطريق التجاري البرّي إلى حلب، والذي أصبح معبراً للبضائع البرتغالية الشرقية الآتية من الهند عبر مسقط فالبصرة فحلب.

إن ما تقدّم من تطور للأحداث قد بيّن للعرب جلياً مخاطر التفرقة والنزاعات المحلية، بخاصة وقد لمسوا بأنفسهم وجود كثير من مظاهر التفاهم والتحالف بين أعدائهم المستعمرين البرتغاليين، وبين كلّ من الدولتيْن الإسلاميتيْن البارزتيْن، اللتيْن كانتا من المفروض أن تقدما إليهم يد العون، أي فارس والدولة العثمانية،

فكان أن أدركوا ضرورة الاعتماد على أنفسهم من أجل تشكيل قوة دفاعية عربية محلّية موحّدة قادرة فعالة، فكانت قوة اليعاربة.

قبل تشكل هذه القوة، وفي أواخر عهد الدولة النبهانية تحديداً، كانت عمان مسرحاً لكثير من الصراعات المحلية[٢٦]. وكان أشهرها تلك التي تزعمها عمير بن حمير مؤيداً من قبل عدد من القبائل التي كانت تعاني من جور وظلم النبهانيين. واستطاع عمير هذا الانتصار على ملكهم سليمان بن مظفر الذي لقي مصرعه، واستلم الحكم بدلاً عنه، وخضعت له أغلب المناطق. ولكن لم يمض وقت طويل حتى عادت القبائل ترفع لواء العصيان. وبدأت أحداث الشغب بتمرد والي صحار، محمد بن مهنا، يؤيده سلطان ابن حمير، أخو الأمير عمير الذي طلب مساعدة البرتغاليين عارضاً عليهم وضع ميناء صحار تحت سلطتهم. ونتيجة للهجوم المزدوج للقوات البرتغالية والعُمانية لعمير ولحاكم هرمز عام ١٠٢٥/١٦١٦ استسلم المتمردون في صحار، واستولى البرتغاليون عليها تنفيذاً لاتفاقهم مع الأمير عمير الذي عاد إلى سمائل سعيد ومعه الكثير من الغنائم والأسلاب.

لم يتوقف الصراع في عُمان بعد ذلك، وإنما تجدّد أيضاً بين مالك أمير قبيلة يعرب، وبين بني لمك. وقد سارع الأمير عمير بن حمير إلى مؤازرة مالك فكان أن استطاعت قوتهما المتحالفة القضاء على قوات بني لمك، فاستقر مالك منذ ذلك الوقت في الرستاق. وحفيده ناصر بن مرشد بن مالك هو مؤسس دولة اليعاربة في عُمان. كان ذلك بعد أن تفاقمت ظاهرة التشتت والتمزق في عُمان، في وقت كان يزيد فيه، كما رأينا، الخطر الخارجي وخاصة البرتغالي. وقد حاول أمير قبيلة يعرب في الرستاق مالك بن أبي يعرب أن يفضّ المنازعات والمشاحنات التي كانت قائمة، ولكن دون جدوى. لذلك تشاور علماؤها من "أهل الحلّ والعقد" عام ١٠٣٣/١٦٢٤ في أمر أوضاعهم، وقرروا إحياء الإمامة الإباضية، وانتخاب ناصر بن مرشد[٢٧] لها، وأقسموا له يمين الولاء كإمام "للدفاع" عن الوطن، وبحكم "مناقبية صفاته

الشخصية التي اشتهر بها، وأهمها الاستقامة والنزاهة والتدين والعدالة وغيرها[٢٨]، مما دفع السالمي إلى القول: "كاد الإمام أن يكون نبياً"[٢٩].

II – إقليم عمان في فترة دولة اليعاربة(١٠٣٣/١٦٢٤-١١٥٤/١٧٤١) وحتى تشكّل الدولة السعودية الأولى: من الوحدة والقوة إلى التفكك والضعف:

بدأ الإمام ناصر جهوده بتوحيد البلاد وتطويع قبائلها ومنها قبائل القواسم وبني ياس التي سنراها لاحقاً، فكان هذا التوحيد الركيزة الأولى لدولته. والركيزة الثانية لها كانت تكوين قوة عسكرية بحرية كبيرة قادرة استطاعت بواسطتها تحرير مناطق عُمان المختلفة، ومدّ نفوذها عبر البحار، محوّلة إياها إلى جسر يربط بين سائر مناطق الدولة التي اتسعت حدودها لتشمل هيمنتها، بالإضافة إلى عُمان، كثيراً من المناطق الأخرى في الخليج العربي وشرقي أفريقيا والمحيط الهندي. أما الركيزة الثالثة والمرتبطة بالثانية فكانت القضاء على وجود المحتلّ البرتغالي في عُمان والخليج العربي والحرص على العلاقات الودية بهولندة وبريطانيا مع رفض أي شكل من أشكال التبعية عن طريق الاتفاقيات أو الامتيازات أو غيرها.

وكانت الفترة الأولى من حكم دولة اليعاربة التي تميّز عهدها على العموم بأنه كان عهد أمن داخلي ورخاء، ازدادت فيه الثروة وانتصر التعليم"[٣٠]، وقوي الاقتصاد ورأس المال الوطني، وكما قال السالمي "صارت خير دار"[٣١]. وساد في فترتها الأولى واقع الوحدة والقوة والتحرير، وليقيم الإمام ناصرّ دولة قومية شامخة البنيان، حملت عبء الصراع في الخليج والمحيط الهندي، وإمبراطورية عربية امتدّت إلى شرق أفريقيا"[٣٢]. وكمثال على ثقافتها العربية الإنسانية وإسلامها الحضاري الصحيح نورد احترامها لحرية الأديان وحقوق الإنسان، كما يؤكّد هاملتون، من حيث أنّهم "لم يهاجموا الكنائس ولم يقتلوا أعزلاً ولا طفلاً وكانوا يعاملون أسراهم معاملة حسنة بخلاف البرتغاليين الذين كانوا يعاملون أسراهم معاملة وحشية"[٣٣].

١- عمان وواقع الوحدة والقوة والتحرير: من تشكّل دولة اليعاربة عام ١٠٣٣/١٦٢٤ حتى بداية الصراع الهناوي-الغافري عام ١١٣١/١٧١٨:

البداية كانت كما رأينا مع المؤسس الإمام الناصر. استطاع هذا الإمام استعادة جلفار وصور ومطرح وصحار عام ١٠٥٣/١٦٤٣، والضربة العُمانية القاضية على الهيمنة البرتغالية كانت تلك التي وجهها إليها في عامي ١٠٥٨/ ١٦٤٨ و١٠٥٩/١٦٤٩، حيث أجبر البرتغاليين على عقد اتفاقية مع العُمانيين يتعهدون فيها بدفع الجزية لهم وبضمان حرية الملاحة للعرب ولجميع الأجناس في الخليج العربي والمحيط الهندي فكان أول من حقق هذا المبدأ الدولي(٣٤). لكن البرتغاليين لم يذعنوا طويلاً، حيث جاءتهم التعليمات من مركزهم في جوا باستئناف الحرب، وذلك في الوقت نفسه الذي مات فيه الإمام ناصر، والذي استلم الإمامة بعده أحد أبناء عمومته ويدعى سلطان بن سيف.

وقد افتتح حكمه بانتصاره الكبير على البرتغاليين، بتحرير مسقط عام ١٠٦٠/١٦٥٠. ولم يكتف بتطهير عُمان منهم، وإنما شرع في تتبعهم في الهند وشرقي أفريقيا، مستجيباً لاستنجاد العرب والمسلمين الذين كانت تربطهم بالعُمانيين وشائج متينة منذ القدم، حيث كان لهم دور كبير في إقامة وتشييد الكثير من مراكزهم التجارية، وفي نشر الإسلام والثقافة العربية في أوساطهم. وقد هاجم الأمير سلطان حصون البرتغاليين في الهند، فقصد ديو وسواحل الكاجرات، وعاد ببضائع كبيرة(٣٥). ويذكر هاملتون (Hamilton) كيف كان العرب في حروبهم هذه "يتركون الكنائس ولا يقتلون أحداً عن عمد ويعاملون الأسرى بأدب"٣٦.

تخوفت هولندة من هذه القوة اليعربية الصاعدة ولم تجرؤ على التغلغل في عُمان واكتفت باستئجار مركز لها في مسقط عام ١٠٨٠/١٦٦٩ للحفاظ على حركة بريدها، مع القيام بتحالفات بحرية خفيفة ومؤقتة. بعكس بريطانيا التي حاولت، منذ مساهمتها مع العرب العمانيين وفارس في طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٠٣١/١٦٢٢، جرّ عُمان إلى التحالف معها، ولكن عبثاً، حيث بقيت معاهدة

الصداقة والتجارة لممثل شركة الهند الشرقية مع الإمام ناصر، في عام ١٦٤٦/١٠٥٦، فردية وغير رسمية[٣٧]، ولم ينفّذ التسهيلات التي منحت بموجبها للسفن البريطانية، والمصير نفسه كان للمعاهدة بين ممثل هذه الشركة والإمام سلطان بن سيف في عام ١٦٥٩/١٠٦٩. وإن فرنسا التي كانت تتطلع منذ عام ١٦٦٨/١٠٧٩ لاحتلال مسقط بمساعدة الفرس، وفشلت، لم تتوقف عن محاولة توطيد العلاقات الفرنسية الودية مع العُمانيين، وتعزيز تبادل المصالح التجارية معهم، لكنّها فشلت أيضاً. والسبب واحد وهو رفض دولة اليعاربة السماح لأي نفوذ أو تسلل أجنبي، بريطاني أو غيره، إلى بلادها.

استلم الإمامة بعد سلطان بن سيف الذي "اعتمرت عمان في أيام دولته وزهرت"[٣٨]، ابنه بلعرب راعي العلم والعلماء، الذي شكرته الرعية وأثنت عليه"[٣٩]، والذي جدّد حصن يبرين من أجل أن يجمع فيه أهم علماء البلاد مع عدد من الشبان النبهاء يلقنوهم أصول العلم. وكان "يخدم الطلاب وأساتذتهم بنفسه، إذ كان يتحرى لهم الأطعمة المقوية للإفهام والذكاء"[٤٠]. أبرز شخصية إمامية أتت بعد ذلك في تاريخ اليعاربة كانت شخصية سيف بن سلطان الذي حكم فيما بين عامي ١٦٩٢/١١٠٤ و ١٧١١/١١٢٤. وفي عهده شهدت عُمان كثيراً من العمران والازدهار، ولقد حرّر جزيرة بمبا وميناء ممبا في كينيا على ساحل أفريقيا الشرقي[٤١]، وسلّم حكمها إلى آل المعمودي، وتطلع إلى إعادة السيطرة العربية-الإسلامية على التجارة الدولية بين الشرق والغرب.

أثارت القوة اليعربية في عمان في عهده مخاوف القوى الأوروبية الثلاث المتنافسة على السيطرة على تجارة الشرق آنذاك، أي هولندة وفرنسا وبريطانيا، ودفعها إلى التحالف ضدها في اتفاقية عام ١٧٠٠/١١١٢، باسم "مقاومة القرصنة"، كما رأينا سابقاً، موزعين أدوار التصدي لها، بما يخدم هيمنة كل منها على المنطقة المتعلقة بمطامعها، فكُلِّفت هولندة بهذه المهمة وحماية الملاحة في البحر الأحمر وميناء عدن، وكُلِّفت بريطانيا بها في المحيط الهندي، بينما كُلِّفت

فرنسا بها، أو ورطت من قبل منافستيها، في مضيق هرمز(٤٢)، أي في الخليج العربي منطقة التصادم الأساسية مع القوة اليعربية، ولتتحول مقاومة السيطرة الأجنبية إلى ما دعي بـ"القرصنة" المحرّمة التي يجب القضاء عليها، بينما هي مشروعة في ممارسات هذه القوى.

لقد استغلت فرنسا حقد الشاه الفارسي على دولة اليعاربة بسبب أخذها للبحرين وبسبب هيمنتها في الخليج العربي، حيث لم يدع سبيلاً إلاّ وسلكه من أجل القضاء على هذه الدولة، محاولةً إقناعه في عام ١١٢٠/١٧٠٨ بالتحالف معها من أجل ضربها، مقابل أن تتعهد فارس بأن تمنح مسقط إلى الحكومة الفرنسية، وبأن تبذل أقصى ما في وسعها لطرد الدول الأخرى المنافسة لها في سيطرتها على طريق الهند(٤٣)، وبأن تعفي الفرنسيين حسب اتفاقيتها معهم عام ١١٢٧/١٧١٥، من دفع رسوم الاستيراد والتصدير وعدم تحديد حجم تجارتهم ومنحهم الامتيازات نفسها التي تمنح مستقبلاً للدول الأوروبية الأخرى. ولقد انتهت هذه المحاولة وهذه الاتفاقية، التي لم تصدق إلاّ عام ١١٣٣/١٧٢١، مع الغزو الأفغاني لفارس عام ١١٣٤/١٧٢٢ الذي أسفر عن انهيار واضح لمركزها في مياه الخليج، فاستغل اليعاربة ذلك للحصول على مزيد من الانتصارات.

ولقد استطاع عرب رأس الخيمة ومسقط خاصةً مجابهة الفرس واحتلال جزرهم القريبة من الشاطئ الشرقي. واستطاع عرب بني معين الهيمنة على شؤون هرمز وتحويل سيادة الفرس فيها إلى سيادة اسمية. وقد رأينا كيف استطاع الإمام سلطان بن سيف انتزاع البحرين منهم في عام ١١٥٠/١٧٣٧، بالرغم من أنهم كانوا في ظل حكم نادر شاه، الشخصية الهامة التي قادت منذ عام ١١٣٥/١٧٢٣ مقاومتهم الوطنية ضد الغزاة الأفغان، وذلك في ظل الشاه الصفوي الأخير طهماسب الثاني، ونجحت في طردهم واستلام الشاهية في عام ١١٤٩/١٧٣٦. ولكن سرعان ما استغل نادرشاه هذا الصراع اليعربي على الحكم في عمان، كما رأينا، من أجل استرجاع سيطرته على مسقط وصحار والتي انتهت مع استلام أسرة آلبوسعيد

للحكم. بعد ذلك كان لابنه سلطان، المتوفى عام ١٧١٨/١١٣١، دور فعّال في حروب الأعداء. وهو الذي دخل في نزاع مع الفرس، ونجح في تحرير البحرين منهم، واستولى على بعض موانئهم. وهكذا ما أن بدأ القرن الثامن عشر حتى كان اليعاربة، كما يؤكد أحد المؤرخين: "يحكمون دولة يمتد نفوذها السياسي عبر الخليج كله إلى سواحل أفريقيا الشرقية والجنوب العربي غرباً، وإلى مشارف وادي الأنداس (سواحل الهند الغربية) في الشرق. كما برز نشاط العُمانيين التجاري وامتد على الجبهة الغربية، فقد وصل هذا النفوذ إلى البحيرات الوسطى في أفريقيا، بينما وصل إلى الجانب الشرقي إلى دلتا نهر كنج، وعلى الرغم من ارتياد سفن الدول الأوروبية لمياه الخليج العربي من وقت لآخر فإن هذه الدولة كانت مشغولة بأمور نفوذها في شبه القارة الهندية، ممّا هيأ للدول الواقعة على ضفاف الخليج، ومنها عُمان، الفرصة للمناورات السياسية والطموح في إنشاء الإمبراطوريات لها"(٤٤).

ويمكن القول إن الإمام سيف بن سلطان كان آخر شخصية قوية في تاريخ اليعاربة استطاعت الحفاظ على وحدة ونفوذ عُمان. خلفه بعد موته عام ١٧١١/١١٢٤ ابنه الإمام سلطان بن سيف الثاني الذي واصل الحرب ضدّ البرتغاليين والفرس معاً، وأخرج هؤلاء الأخيرين من البحرين وقشم ولارك. ولم يعمر طويلاً حيث توفي عام ١٧١٨/١١٣١، وخلفه ابنه سيف بن سلطان الثاني الذي شهد عهده بداية الصراع الهناوي–الغافري.

٢– عمان وواقع التفكك والضعف: من بداية الصراع الهناوي–الغافري عام ١٧١٨/١١٣١ حتى نهاية دولة اليعاربة عام ١٧٤١/١١٥٤ ثم تشكّل الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥/١١٥٨:

كان السلطان سيف بن سلطان الثاني صغير السن، فظهر زعيمان طامحان للإمامة، هما خلف بن مبارك الهناوي من قبيلة بني هنة، ومحمد بن ناصر الغافري من قبيلة بني غافر، والذي كان والي اليعاربة في البحرين. وكان أن انقسم إقليم

عُمان إلى حزبين: حزب الغافرية وأغلبهم من الفئات السنية الساكنة في منطقة الظاهرة والشرقية ونزوى، ومنهم، أي من الغافرية، القواسم بزعامة رحمة بن مطر والذين كانوا قد استغلوا فرصة الغزو الأفغاني لفارس عام ١١٣٤/١٧٢٢ من أجل أن يسيطروا على جزيرة قشم. والحزب الثاني هو الهناوية وأغلبهم من الفئات الإباضية الساكنة في الباطنة وحبرين والرستاق.

وإن تواجد المذهبين، الأباضي والسني، وتواجد القبائل العدنانية واليمنية والشمالية والجنوبية معاً في كلا الحزبيْن يدحض ما ذهب إليه البعض من تفسير لخلافهما على أساس أنّه صراع مذهبي أو قبلي. إن دراسة[٤٥] أوضاعهما المختلفة تبرز وجود الأساس السياسي والاقتصادي لتكتلهما ولتنازعهما، حيث انقسما حسب أساليب الري التي كانوا يعملون بها، وحسب موقفهم من الإمامة بين رأي الغافريين السنة بالتوريث ورأي الهناويين الأباضيين بالانتخاب. والنتيجة المؤلمة لهذا الصراع بين الحزبيْن كانت الحرب الأهلية بين قبائل عُمان. وبالرغم من وفاة الزعيميْن المذكوريْن عام ١١٤١/١٧٢٨ فإن طول فترة الانقسام والعداء والحرب قد ترك هوّة عميقة بين أتباع كتلة الهناوية وكتلة الغافرية.

وقد فضل العُمانيون استبعاد الكتلتيْن ومبايعة سيف بن سلطان الثاني في هذا العام نفسه، وكان قد كبر، ودعمه حزب الهناويين. ومن أهم الأحداث في حياته كان قيامه بمدّ نشاطه، كأجداده، إلى ساحل أفريقيا ليكمل عملية تحرير المراكز العربية- الإسلامية فيها، فحرّر عام ١١٤٤/١٧٣١ زنجبار التي كانت مسكونة بمعظمها من العرب المهاجرين من مناطق الخليج العربي، والذين أسسوا فيها مدينة كلوا. وكان البرتغاليون قد احتلوها منذ عام ٩٠٩/١٥٠٣. وأرسل الإمام سيف حملة بحرية وطدت النفوذ العُماني في الكثير من مناطق شرقي أفريقيا أيضاً، ومنها، بالإضافة إلى زنجبار، بمبا وممبسا، وربطها جميعها بدولته المركزية في عمان على أساس تمتع حكامها باستقلال ذاتي كبير[٤٦]. وسلم حكمها عام ١١٥٢/١٧٣٩ إلى آل المزروعي من بني ياس الذين سنتعرف عليهم لاحقاً.

تلا ذلك ظهور منافس جديد للإمام سيف على الإمامة والحكم، وهو بلعرب بن حمير من حزب الغافريين، فتجددت الحرب الأهلية بين أتباعهما. وكان أن استعان الإمام سيف بالفرس الذين استغلوا الوضع ليتوغلوا في عُمان، وليحاولوا تحقيق مطامعهم الخاصة فيها، فندم على سوء تصرفه، وعمل على التفاهم مع منافسه بلعرب الذي تنازل له عن الإمامة استجابة لرغبة العلماء والشيوخ، وحرصاً من الجميع على توحيد البلاد ضدّ العدو المشترك. وعادت الوحدة العُمانية، ونجح الإمام سيف في تحرير المناطق التي احتلها الفرس، بالإضافة إلى نجاحه في استرداد البحرين منهم أيضاً عام ١١٥٠/١٧٣٧ كما سنرى.

وكان ممن أسهم معه في تحرير صحار من الفرس وفي أخذ بندر عباس منهم قبائل القواسم، الذين سنتعرف عليهم لاحقاً، بالتعاون مع أحد تجار صحار البارزين آنذاك، وهو أحمد آلبوسعيد الذي كان مستشاراً للإمام سيف أيضاً، وقد سلمه حكم صحار مكافأة له[٤٧]، وهو الذي سيكون مؤسس حكم دولة آلبوسعيد في عُمان. بعد عام واحد من انتصار الإمام سيف هذا ظهر منافس آخر لحكمه هو سلطان بن مرشد اليعربي المنتخب من قبل العلماء وزعماء القبائل الذين استطاع أن يستقطبهم إليه في معظم أنحاء عُمان، ومنهم والي صحار المذكور أحمد آلبوسعيد.

وللمرة الثانية، مدفوعاً بضرورة التصدّي لمنافسه، فإن الإمام سيف قد استنجد بالفرس الذين حاولوا من جديد استغلال ذلك للحصول على أكبر عدد ممكن من مطامعهم في عُمان، فاحتلوا مسقط ثم توجهوا لحصار صحار. وبعد أن تمكن الإمام سلطان بن مرشد من فك حصارها توفي في بلاط أحمد آلبوسعيد. وبوفاة الإمام سيف بعده بأيام أصبحت عُمان بدون حاكم. ونظراً لجهود آلبوسعيد في تحرير مناطق عمان المحتلة من الفرس، وطردهم من صحار ومسقط معاً، فقد اجتمع العلماء والشيوخ في الرستاق، العاصمة، وأعلنوه إماماً عام ١١٥٤/ ١٧٤١[٤٨]. وهكذا انتهت دولة اليعاربة التي رأينا التآمر الاستعماري ضدّها سابقاً، ولتبدأ دولة البوسعيد التي شهدت تشكّل الدولة السعودية الأولى كما سنرى.

رأينا أنّ إدراك القوى الأوروبية الثلاث المتنافسة على السيطرة على تجارة الشرق آنذاك، أي هولندة وفرنسا وبريطانيا، لخطر هذه القوة العربية اليعربية على مطامعهم بهذا الخصوص، دفعهم إلى التحالف ضدها في اتفاقية عام ١١١٢/١٧٠٠، باسم "مقاومة القرصنة"، موزعين أدوار التصدي لها، بما يخدم هيمنة كل منها على المنطقة المتعلقة بمطامعها، فكُلِّفت هولندة بهذه المهمة وحماية الملاحة في البحر الأحمر وميناء عدن، وكُلِّفت بريطانيا بها في المحيط الهندي، بينما كُلِّفت فرنسا بها، أو ورطت من قبل منافستيها، في مضيق هرمز(٤٩)، أي في الخليج العربي منطقة التصادم الأساسية مع القوة اليعربية، ولتتحول مقاومة السيطرة الأجنبية إلى ما دعي بـ"القرصنة" المحرّمة التي يجب القضاء عليها، بينما هي مشروعة في ممارسات هذه القوى.

لقد استغلت فرنسا حقد الشاه الفارسي على دولة اليعاربة بسبب أخذها للبحرين وبسبب هيمنتها في الخليج العربي، حيث لم يدع سبيلاً إلاّ وسلكه من أجل القضاء على هذه الدولة، محاولةً إقناعه في عام ١١٢٠/١٧٠٨ بالتحالف معها من أجل ضربها، مقابل أن تتعهد فارس بأن تمنح مسقط إلى الحكومة الفرنسية، وبأن تبذل أقصى ما في وسعها لطرد الدول الأخرى المنافسة لها في سيطرتها على طريق الهند(٥٠)، وبأن تعفي الفرنسيين حسب اتفاقيتها معهم عام ١١٢٧/١٧١٥، من دفع رسوم الاستيراد والتصدير وعدم تحديد حجم تجارتهم ومنحهم الامتيازات نفسها التي تمنح مستقبلاً للدول الأوروبية الأخرى. ولقد انتهت هذه المحاولة وهذه الاتفاقية، التي لم تصدق إلاّ عام ١١٣٣/١٧٢١، مع الغزو الأفغاني لفارس عام ١١٣٤/١٧٢٢ الذي أسفر عن انهيار واضح لمركزها في مياه الخليج، فاستغل اليعاربة ذلك للحصول على مزيد من الانتصارات.

ولقد استطاع عرب رأس الخيمة ومسقط خاصةً مجابهة الفرس واحتلال جزرهم القريبة من الشاطئ الشرقي. واستطاع عرب بني معين الهيمنة على شؤون هرمز وتحويل سيادة الفرس فيها إلى سيادة اسمية. وقد رأينا كيف استطاع الإمام سلطان

ابن سيف انتزاع البحرين منهم في عام ١٧٣٧/١١٥٠، بالرغم من أنهم كانوا في ظل حكم الشاه نادر شاه، الشخصية الهامة التي قادت منذ عام ١٧٢٣/١١٣٥ مقاومتهم الوطنية ضد الغزاة الأفغان، وذلك في ظل الشاه الصفوي الأخير طهماسب الثاني، ونجحت في طردهم واستلام الشاهية في عام ١٧٣٦/١١٤٩. ولكن سرعان ما استغل نادرشاه هذا الصراع اليعربي على الحكم في عمان، كما رأينا، من أجل استرجاع سيطرته على مسقط وصحار والتي انتهت مع استلام أسرة آلبوسعيد للحكم.

ثانياً)- إقليم البحرين في المرحلة الأولى من تاريخه الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨:

يجب التمييز في تاريخ إقليم البحرين، الذي تعرفنا على مضمونه الجغرافي سابقاً، بين ما يتعلق منه بمنطقتيه في هذه المرحلة، أي منطقة جزر البحرين أو أوال، ومنطقة الإحساء الشاملة آنذاك لبقيته بما فيها ما يدعى اليوم بالكويت وقطر، سواء في الفترة الأولى التي شهدت الاحتلال البرتغالي والمقاومة والصراع البرتغالي- العثماني، أو في الفترة الثانية التي شهدت الصراع الأوروبي في الخليج العربي وكذلك الصراع الفارسي- العُماني-العربي.

I - جزر البحرين في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨:

١- جزر البحرين وهرمز والاحتلال البرتغالي والمقاومة وفترة الصراع البرتغالي-العثماني (١٥١٥/٩٢١- ١٦٠٢/١٠١١):

رأينا خضوع جزر البحرين قبيل تاريخها الحديث وفي بدايته، وكجزء من إقليم البحرين، لحكام آل جبر الذين توزع أبناء سلطانهم أجود بن زامل السيطرة على طول سواحل الخليج العربية. ورأينا صراعهم عليها وعلى إقليم عُمان والخليج العربي ككلّ مع حكام هرمز في فترة ظهور خطر المستعمرين البرتغاليين. وكان

بنو جبر "القوة العربية التي تحدّت السيطرة البرتغالية في أوج قوتها"[٥١]، لكن هذا الصراع والتفكك أفشل الطرفين في التصدّي لهذا الخطر كما رأينا، فكان نجاح البرتغاليين في إخضاع سواحل عُمان وهرمز لسيطرتهم، ومن بعدها جزر البحرين عام ١٥١٥/٩٢١ والإحساء ومنه القطيف، بعد صراع عنيف ضدّ مقاومة عربها بقيادة حكامهم بني جبر وعلى رأسهم الأمير محمد بن أجود، مدعين احتلالها لصالح وباسم ملك هرمز، ليبرّروا بذلك خرقهم لاتفاقهم المذكور مع الشاه.

وبالرغم من أن تبعية البحرين للبرتغاليين كانت اسمية وغير مباشرة، أي من خلال تبعيتها لملك هرمز، والتي اقتصرت على دفع الجزية له فقط، فإن عربها بزعامة آل جبر لم يتوقفوا عن تحركاتهم الثورية ضدّ هؤلاء المستعمرين، حتى في عهد حاكمهم الجديد سواريز الذي خلف البوكيرك بعد وفاته عام ١٥١٥/٩٢١، والذي أعلن رفضه لسياسة سابقه القاسية لصالح تبنيّه لسياسة إنعاش التجارة البرتغالية سلمياً دون بطش أو تنكيل[٥٢]، وسرعان ما وضح كذبه وتطلعه إلى زيادة التحكم والسيطرة الاحتكارية، بخاصة وأنّه استمر في التوسع العسكري وفي التعسف في فرض الضرائب، فكان أن استمر العرب في رفضهم للتبعية له ولوكيله طورانشاه ملك هرمز. وكان أن توجّه أميرهم مقرن بن زامل، نحو النضال من أجل الاستقلال والانفصال عنهما معاً.

كان طورانشاه بدون شك يطمح إلى استعادة ممتلكات هرمز من خلال تحالفه مع البرتغاليين، ولقد استغلّ سياسة مقرن المذكورة، ورفضه لدفع الجزية السنوية المفروضة عليه، من أجل إقناع أسياده هؤلاء بتزويده بالقوة العسكرية اللازمة لاسترجاع نفوذه الفعلي وليس الاسمي في البحرين، إمّا بسبب مطامحه أو بسبب عجزه عن دفع الجزية السنوية الكبيرة التي فرضها عليه البرتغاليون، والذي لم يرَ من وسيلة في الحصول عليها إلاّ بالسيطرة عليها، أي البحرين، وإجبارها على دفع الغرامات المالية[٥٣].

من هنا كانت حملة البرتغال وهرمز المشتركة على جزرها أواخر عام ١٥٢٠/٩٢٦ وبداية عام ١٥٢١/٩٢٧، التي نجحت في التصدّي للقوات التي أعدّها وقادها السلطان مقرن الذي وصفته المصادر البرتغالية "بالشجاعة والصمود"[٥٤] والذي وصفه ابن إياس[٥٥] بأنّه "كان أميراً جليل القدر معظّماً مبجّلاً...سيّد عربان المشرق على الإطلاق"، واعتبر استشهاده في المعركة "من أشدّ الحوادث في الإسلام وأعظمها". وهكذا أعيدت البحرين إلى الخضوع كلياً للسيطرة الهرمزية–البرتغالية، وتم تعيين حاكم من هرمز عليها يستند إلى حامية برتغالية، وبنى البرتغاليون في جزيرتها قلعة ضخمة على الساحل الشمالي. لكنهم، ورغم نجاحهم هذا،، فإنهم لم يتمكنوا من التقدم إلى القطيف "بسبب عنف المقاومة العربية، وخوفاً من أن يزج بهم عرب القطيف إلى داخل الجزيرة العربية"[٥٦].

إلاّ أنّ تحالف ملك هرمز، طورانشاه، مع البرتغاليين لم يستمر سوى شهور فقط نظم بعدها، وفي عام ١٥٢١/٩٢٧ نفسه، ثورة خليجية شاملة ضدهم. وقد لبّى قسم من عرب البحرين دعوته للاشتراك فيها، وقاموا بقتل قائد الحامية البرتغالية في بلادهم ومعه عدد كبير من جنودها. وقد رأينا سابقاً أسباب ومصير هذه الثورة الفاشلة. مع ذلك استمر عرب البحرين في مقاومتهم، وسرعان ما ثاروا من جديد في عام ١٥٢٩/٩٣٥ تعاطفاً مع الوزير شرف الدين في هرمز، الذي حاول البرتغاليون التخلص منه بسبب ممارساته المعادية لمصالحهم. وفشلت الحامية البرتغالية في قمع هذه الثورة واضطرت إلى الانسحاب من هرمز[٥٧]. إلاّ أن البرتغاليين، بفضل الإمدادات التي جاءتهم من جوا، سرعان ما نجحوا في إخضاع جزر البحرين ثانية لنفوذهم، وقاموا بخلع حاكمها العربي من أسرة الجبور ليعيّنوا بدلاً منه حاكماً فارسياً. امتدت سيطرتهم عليها منذ ذلك الحين حتى عام ١٦٠٢/١٠١١، ولكنها لم تكن مستقرة شاملة دائماً، وإنما كانت بين مدّ وجزر، وخاصة في الفترة التي شهدت دخول منافس جديد طامع في الهيمنة عليها، وهو المنافس العثماني. امتدّت هذه الفترة منذ احتلال العثمانيين للعراق عام

١٥٣٤/٩٤١، ثمّ سيطرتهم الفعلية على البصرة عام ١٥٤٦/٩٥٣، حتى آخر حملة لهم على جزر البحرين عام ١٥٥٩/٩٦٦.

إن أمراء البحرين من آل جبر، بمجرد إعلان البصرة لتبعيتها للسلطنة العثمانية عام ١٥٣٤/٩٤١، قاموا بإعلان خضوعهم بدورهم لهذه السلطنة، فمنحتهم ألقاباً عثمانية وتأكيدات ثابتة بالحماية والدعم، وأعلنت المناطق الخاضعة لها إيالةً عثمانيةً دعتها "إيالة الاحساء" التي امتدّت حتى قطر ومن ضمنها القطيف[٥٨] المحتلة من قبل البرتغاليين. بعد ذلك ولفترة قصيرة تركت هذه السلطنة مهمات النشاط البحري في الخليج العربي، كما رأينا، لروح المغامرة عند بعض بحارتها المشهورين، أمثال بيري بك ومراد بك. وقد عمدا إلى محاصرة القلاع البرتغالية، ولكن أسطولهما لم ينجح إلاّ بدخول القطيف في عام ١٥٥٠/٩٥٧. ولم يكن هذا الدخول ليتم لولا نجاح أهلها العرب بتحطيم الحامية البرتغالية فيها والاستيلاء على حصنها وحدهم. وكان هذا الحصن "نقطة الارتكاز الرئيسية للبرتغاليين في الخليج العربي"[٥٩]، فقد توجهوا نحو القطيف لاستعادته عام ١٥٥٠/٩٥٧، فاستنجد أهلها بالعثمانيين طالبين حمايتهم من الانتقام البرتغالي المهددين به. ولكن بمجرد ظهور الأسطول البرتغالي بتفوقه الواضح هرب الطرفان العربي والعثماني معاً، وقام هذا الأسطول بقصفها بعنف ودون رحمة مدمراً قلعتها ومزيلاً لتحصيناتها.

نتيجة لمأساة القطيف هذه، وما تلاها من فشل عثماني لاحتلال هرمز، رأيناه سابقاً، أدركت السلطنة العثمانية حاجتها إلى أسطول بحري قوي في الخليج العربي من أجل تصدٍّ فعّال للوجود البرتغالي فيه. وعلى الرغم من بنائها لقوة بحرية جديدة أسهم فيها كل من أسطولَيْها في السويس والبصرة، إلاّ أنها لم تكن كافية لإحراز النصر على الأسطول البرتغالي، الذي بقي أكثر قوة. وبعد عدة هزائم معه خضعت على إثرها معظم الشواطئ العربية في الخليج للبرتغاليين ثانية، فقد قررت السلطنة العثمانية تخليّها عن تخطيطها في ضرب هذا الأسطول دفعة واحدة، لصالح اعتمادها لتكتيك الحروب الصغيرة في استنزاف القوة البحرية لأعدائها في الخليج

العربي[٦٠]، والمتمثلة بمهاجمة السفن التجارية المنعزلة، وبمباغتة قوافل العدو البرتغالي البحرية، وبالاستيلاء بالتدريج على أكبر قدر ممكن من مراكزه في السواحل العربية، بالاستفادة من حركات المقاومة الوطنية المحليّة ضدّه فيها.

ونظراً لفشل كلّ من قائدي الأسطول العثماني في الخليج العربي، بيري بك ومن بعده مراد بك في هذه الحروب الصغيرة، فقد أعدم الأول واستبعد الثاني، وعينت السلطنة العثمانية القبطان علي بك كقائد جديد. وبعد معركة ناجحة له قرب ميناء خورفكان عام ١٥٥٤/٩٦١، اعتبرت من أهم المعارك العثمانية- البرتغالية، اضطر البرتغاليون فيها على الانسحاب، فقد فشل أمامهم في المعركة الثانية بعد أن استعادوا إعداد أسطولهم في عام ١٥٥٩/٩٦٦[٦١].

وعلى إثر الفشل العثماني هذا قام مصطفى باشا والي الإحساء، مصحوباً بعدد كبير من انكشارية بغداد، بمحاولة جديدة لاحتلال جزر البحرين، وبدأ بحصار المنامة، لكنه سرعان ما انسحب منها تحت ضغط البرتغاليين الذين قدموا من هرمز لمنعه من احتلالها، واضطر، بسبب نقص مؤونته، بالقبول بإنهاء المعركة معهم وبتسليم أسلحته إليهم. ومع ذلك، وعلى الرغم من وضوح نفوذ البرتغاليين في جزر البحرين آنذاك، بسبب تعامل وتساهل حاكمها، الريس مراد، معهم، فإن السلطان العثماني سليمان باشا قام بإصدار فرمان بمنح هذا الحاكم بموجبه لقب صنجق بك[٦٢]. وقبوله به كان يعني اعترافه بالتبعية، ولو الاسمية، للسلطنة العثمانية، ممّا يبرّر دافع هذا السلطان في فرمانه هذا.

منذ ذلك الحين، أي منذ عام ١٥٥٩/٩٦٦، توقفت الحملات العثمانية على جزر البحرين، وانحسر النفوذ العثماني منها، وبقيت لفترة قصيرة، مع ذلك، بمثابة منطقة عازلة بين البرتغاليين في هرمز وخليج عُمان، وبين العثمانيين في الإحساء والبصرة، فحرص أميرها على الحياد، إلاّ أنه سرعان ما عاد إلى التبعية للبرتغاليين ولحاكمهم في هرمز بعد غياب النشاط العثماني في الخليج العربي ككلّ تماماً، بسبب انغماس العثمانيين في صراعهم مع الفرس وخاصة في الفترة الممتدة ما بين

عامي ١٥٧٨/٩٨٦ و١٠٤٩/١٦٣٩. ولكن وبمجرد نجاحهم في إحدى معاركهم خلالها في الانتصار عليهم، عام ٩٨٣/ ١٥٧٥، فقد جدّدت السلطنة أمرها بالاستيلاء على جزر البحرين، موعزة إلى واليها في بغداد لدراسة المشروع، إلاّ أنها تراجعت عنه تخوفاً من نتائجه المادية الخاسرة. ولتستمر جزر البحرين بعد ذلك تابعة إلى البرتغاليين حتى عام ١٠١١/١٦٠٢، أي حتى تاريخ استيلاء الصفويين عليها، والذي معه بدأت الفترة الثانية من مرحلة تاريخها الحديث الأولى.

٢- جزر البحرين والاحتلال الفارسي والمقاومة وفترة الصراع الفارسي-العماني-العربي (١٠١١/١٦٠٢- ١١٥٨/١٧٤٥):

بعض المصادر تذكر أن السبب المباشر في طرد البرتغاليين من جزر البحرين في عام ١٠١١/١٦٠٢ هو مسلك حاكمها المعيّن من قبلهم، والذي قام بقتل أحد تجار اللؤلؤ الأثرياء فيها طمعاً في ثروته، فتمكن أخوه من الانتقام له، ونجح في الاستيلاء على هذه الجزر وأعلن نفسه حاكماً عليها. فاستاء حاكم هرمز الذي كان يعدها تابعة له، واستنجد بحاكم شيراز الذي سارع إلى إرسال قوة عسكرية نجحت في الاستيلاء عليها باسم الشاه عباس(٦٣). وفشل كلّ من حاكم هرمز والبرتغاليين بعد ذلك في استرجاعها. ولم يكتف هذا الشاه بالهيمنة عليها وطرد البرتغاليين منها، بل استمر في تنفيذ مخططه ضدّ هؤلاء الأخيرين، فسيطر على ميناء "بوشهر" ثم أقدم على حصار القاعدة البرتغالية في هرمز بتعاونه مع عربها ومع الإنكليز في عام ١٠٣١/١٦٢٢ كما رأينا.

قبل لجوء الشاه عباس إلى التعاون مع الإنكليز كان قد وطّد لفترة قصيرة علاقات الصداقة والتحالف مع الإسبان[٦٤] الذين مارسوا عليه كثيراً من الضغوط بهدف دفعه إلى إعادة جزر البحرين إلى السيادة البرتغالية بعد احتلاله لها في عام ١٠١١/١٦٠٢، وبهدف دفعه إلى رفع حصاره الذي تمّ في هذا العام نفسه لميناء جمبرون، بندر عباس فيما بعد، وإلى إقناعه بحصر إعطائه للامتيازات التجارية في بلاده، بما فيها امتياز تجارة الحرير الفارسي، بالبرتغال وحدها. ولقد تعاظمت

نقمته على البرتغاليين لأنهم استمروا في محاولاتهم المتكررة لإعادة جزر البحرين إلى التبعية لهم ولحاكمهم في هرمز، حيث كانوا يدركون جيداً أهميتها التجارية والإستراتيجية الأمنية بالنسبة لوجودهم في الخليج، وخطر استيلاء الصفويين أو العثمانيين عليها بالنسبة لهذا الوجود ككلّ. هذا بالإضافة إلى إدراكهم لأهميتها الاقتصادية أيضاً، كمرافئ وكمصدر من مصادر التموين واللؤلؤ خاصة.

نظراً لانشغال الصفويين بأمر إصرار الإسبان في مباحثاتهم معهم على إرجاع جزر البحرين إلى البرتغاليين، فإنهم لم يهتموا كثيراً في ترسيخ وجودهم فيها في البداية، فبقي اسمياً حتى عام ١٦٢٢/١٠٣١، حيث قاموا بإرسال حملة عسكرية احتلتها من جديد وفرضت سيطرتها الفعلية عليها، وذلك بعد أن قرّروا قطع صلاتهم ومباحثاتهم معهم، لأنّ الصفويين، وكما صرح الشاه عباس، لم يعودوا بحاجة إلى المساعدات الإسبانية- البرتغالية ضدّ السلطنة العثمانية، إذ إنهم كانوا قد عقدوا الصلح معها في عام ١٦١٨/١٠٢٧(٦٥)، ثم سرعان ما استغلوا في عام ١٦٢٣/١٠٣٢ ثورة بكر الصوباشي ضدّها في بغداد من أجل أن يستعيدوا سيطرتهم عليها وعلى العراق ككلّ.

منذ أن استعاد الصفويون احتلال جزر البحرين عام ١٦٢٢/١٠٣١ وهم يولّون عليها حكاماً فارسيين، ممّا أثار غضب سكانها ضدّهم، وخاصة حين كانت تتفاقم معطيات الفساد من قبل بعض هؤلاء الحكام. وعليه فقد كانت البحرين تنتظر القوة العربية التي تخلصها من هذا الحكم، وتحقق الأمن والعدالة بين طوائف أهلها جميعاً. وإذا كان بعض أهلها قد رحّب بعرب عُمان اليعاربة، كمجسدين لهذه القوة، ورحّب بتبعيتها لإمامهم سيف بن سلطان الذي نجح في أخذها من الصفويين عام ١٧٠٠/١١١٢، فإن بعضهم الآخر قد رفض هذه التبعية وهرب إلى القطيف وإلى السواحل الشرقية للخليج(٦٦).

ولم تكن قوة شاه فارس المتهالكة آنذاك، بسبب الاضطرابات الداخلية، لتسمح له باستعادة البحرين، فكان أن لجأ إلى الشركات الأوروبية في الهند وجزر الهند

الشرقية آنذاك، أي البريطانية والهولندية، ثم إلى الدولة الفرنسية التي رأينا اتفاقيته في التحالف معها ضدّ دولة اليعاربة من أجل مساعدته على احتلاله البحرين مقابل امتيازات تجارية جديدة، فرفضت كل هذه الأطراف دعمه في توجهه هذا، لأنها كانت حريصة على عدم التدخل السافر بعد في الشؤون الداخلية لبلدان الخليج.

لقد بلغ حنق الشاه نتيجة لما تقدم إلى درجة إقدامه على طلب المساعدة من البرتغاليين، في قاعدتهم الرئيسة في جوا بالهند، من أجل إجلاء العُمانيين عن البحرين في عام ١٧١٨/١١٣٠، ممّا أثار غضب البريطانيين ودفعهم إلى تقديم المساعدات إلى سلطان عُمان لتثبيت سيطرته في البحرين. ولكن ما لبث هذا السلطان أن اضطر، تحت ضغط العداء الذي واجهه به عرب الهولة، إلى المفاوضة مع فارس وإلى الانسحاب من البحرين مقابل جزية سنوية تدفعها له، فكان خروجه منها في عام ١٧١٨/١١٣٠ نفسه. وحرصاً على إرضاء سكانها، فقد حرصت فارس على عدم ممارسة الحكم المباشر فيها، وعلى تسليم شؤونها إلى عرب الهولة، على أن تبقى تحت السيادة الفارسية.

ولكن الشيخ جبارة، حاكمها وزعيم الهولة، رفض الاعتراف بهذه السيادة، مستغلاً انشغال فارس بالغزو الأفغاني وبالنضال ضدّه وضدّ الاحتلال الروسي والعثماني لبعض مناطقها الشمالية الغربية في عام ١٧٢٣/١١٣٥. وكان أن استطاع الاحتفاظ باستقلالها حتى عام ١٧٣٦/١١٤٩ حيث أطاح به الشاه نادر شاه، البطل الموحد لفارس والمحرر لها من الغزو الأفغاني، ومؤسس الحكم الافشاري بعد إلغاء الحكم الصفوي فيها، ومحرّر أراضيها المحتلة في قفقاسيا وأذربيجان من روسيا والسلطنة العثمانية التي كانت قد استرجعت بغداد في عهد سلطانها مراد الرابع في عام ١٦٣٨/١٠٤٨، ومؤسس الأسطول الفارسي[٦٧].

وحاول نادر شاه احتلال البصرة مرتين تمهيداً لاحتلال بغداد، في عام ١٧٣٣/١١٤٦ و١٧٣٥/١١٤٨، وحمّل فشله في ذلك إلى دعم البريطانيين للدولة

العثمانية، ففترت العلاقات بين فارس وشركة الهند الشرقية البريطانية التي اضطرت إلى إغلاق وكالتها في أصفهان عام ١٧٣٥/١١٤٨، ولم تعد فتحها إلاّ عام ١٧٤٢/١١٥٥، وذلك على الرغم من عودة التحالف الفارسي البريطاني منذ أواخر عام ١٧٣٥/١١٤٨ نفسه. ما أن أعلن نادر شاه نفسه شاهاً على فارس عام ١٧٣٦/١١٤٩ حتى سارع إلى تركيز جهوده في تحقيق مطامعها في السيطرة على مياه الخليج العربي، من خلال ضرب القوة العربية والسيطرة على البحرين وعُمان فيه، بدأ في عقد الصلح مع الدولة العثمانية، ثم قام بإعادة التحالف مع الهولنديين والبريطانيين ضدّ العرب على الرغم من أن تشكيل أسطوله قد اعتمد على البحارة العرب(٦٨). وكان أن ساعدوه على الاستيلاء على البحرين عام ١٧٣٦/١١٤٩، وعلى القيام بحملته إلى الساحل العُماني عام ١٧٣٨/١١٥١.

وقد انفرد الهولنديون في مساعدته لقمع التمرد الداخلي الذي قام به محمد تقي خان مع الشهبندر عام ١٧٤٣/١١٥٦. وكانوا قد تعاونوا مع البريطانيين في مساعدته لقمع ثورة الملاحين العرب في أسطوله عام ١٧٤٠/١١٥٣، وفي الاستيلاء على بعض أراضي عُمان عام ١٧٤١/١١٥٤، وذلك مقابل استعادة الهولنديين لقسم من امتيازاتهم في فارس، وقيامهم بفتح وكالة لهم في ميناء بوشهر، والذين تأخروا في فتحها حتى عام ١٧٤٧/١١٦٠، ومقابل استعادة البريطانيين لجميع امتيازاتهم، مع المزيد منها وخاصة فيما يتعلق بسيطرة شركة الهند الشرقية البريطانية على التجارة في جنوب فارس، وعلى أن تسيطر شركة روسيا البريطانية على التجارة في شمالها. وكانت هذه الأخيرة قد تشكلت عام ١٧٣٤/١١٤٧، لكنها كسابقتها التي تشكلت عام ١٥٥٥/٩٦٢، لم تستمر طويلاً(٦٩).

لم يستكن عرب جزر البحرين بعد عودتها إلى حكم فارس في عام ١٧٣٦/١١٤٩، وخاصة ممن كان موالياً منهم للشيخ جبارة زعيم عرب الهولة، والذين ثاروا بعد عام فقط، أي عام ١٧٣٧/١١٥٠. وكان أن استغلّ سلطان مسقط اليعربي، الإمام سيف، فترة الاضطراب التي رافقت ثورتهم من أجل استعادة البحرين

لسيطرته في هذا العام نفسه.ولكن الشاه نادر شاه ما لبث أن استغلّ بدوره الخلافات الحادة بين عربها من أجل إعادتها إلى الهيمنة الفارسية. وبقيت تابعة لها حتى مماته عام ١١٦٠/١٧٤٧ أي إلى ما بعد فترة تشكل الدولة السعودية الأولى، والتي سنرى علاقة إقليم البحرين بها ككلّ في فصل قادم، أما الآن فنقف عند المنطقة الثانية من هذا الإقليم، أي الإحساء، في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث.

II – منطقة الإحساء في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث: من بدايته حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:

ارتبطت منطقة الإحساء، كوجود بشري فاعل، في المرحلة الأولى من تاريخها الحديث، بمجموعتين من القبائل العربية: الأولى مجموعة بني خالد، والثانية مجموعة العتوب، وبحيث انقسم تاريخها في هذه المرحلة إلى فترتين رئيسيتن: الأولى الممتدة قبل ظهور مجموعة العتوب، والثانية الممتدة بعده.

١– منطقة الإحساء من بداية تاريخها الحديث حتى قدوم جماعات العتوب إلى الزبارة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر/السابع عشر:

أسهمت الإحساء، كمنطقة من إقليم البحرين، وكجزء من الخليج العربي، في المقاومة الوطنية ضدّ البرتغاليين، والتي قادها أمير الجبور مقرن بن زامل كما رأينا. وكان الجبور حتى ذلك الحين زعماء هذه المقاومة وحكام الإحساء. واستمروا بصفتهم هذه حتى عام ٩٣١/١٥٢٥، أي إلى أن قام راشد بن مغامس، زعيم قبيلة المنتفق من آل فضل وحاكم البصرة، باستغلال فترة الاضطرابات التي أعقبت موت الأمير مقرن عام ٩٢٧/١٥٢١،من أجل العمل على إبعادهم عنها واستلام الحكم مكانهم. واستمر آل فضل منذ ذلك الحين في الاستيلاء على الإحساء التي أعلنت، في ظلّ حكمهم، تبعيتها للسلطنة العثمانية، بمجرد أن أعلنت البصرة عام ٩٤٠–٩٤١/١٥٣٤ هذه التبعية. وبرغم ذلك فإن العثمانيين قاموا في عام ٩٥٨/١٥٥١، بعد سيطرتهم الفعلية على البصرة، باستبعاد آل فضل منها ومن الإحساء معاً،

تاركين الحكم في هذه الأخيرة لقبيلة بني خالد مقابل دفع جزية سنوية، وجاعلين منها إيالة عثمانية برتبة بيلربي أو أمير أول، وكانت القطيف إحدى صناجقها[٧٠].

تألّف بنو خالد من مجموعة من القبائل العربية القديمة، والتي تكونت من مجموعة من الأفخاذ والعشائر التي كانت ممتدة بين الكويت شمالاً وعُمان جنوباً، وكان أبرزها الجبور والعماير وآل حميد وآل عريعر[٧١] الذين سادوا واستلموا زعامتها في معظم الأحيان. ظهرت بدايات نفوذهم منذ أوائل القرن السادس عشر ونمت قوتهم الموحدة في شبه تنظيم سياسي لهم خلال القرن السابع عشر، وانشطروا قسمين: قسم فضلوا حياة البادية، وقسم استقروا في المدن والقرى، و"كانوا من رواد البحار المشهورين مثلهم مثل القواسم"[٧٢]، وسيطروا على الطرق التجارية ما بين الساحل ونجد وأواسط الجزيرة، وامتلكوا الرخاء الاقتصادي الذي مكّن أصحابه من السيطرة السياسية.

تشير الكتابات التاريخية العربية إلى أنه كان قد قوي شأن بني خالد إلى درجة أصبح شيوخها فيها بمقدورهم "أن يتحدّوا تحرشات شرفاء مكة لهم عام ١٥٨١/٩٨٩ عندما أراد هؤلاء أن يتحدوا سلطانهم في الإحساء"[٧٣]. وامتد نفوذهم من قطر جنوباً إلى الكويت شمالاً، وخضعت لهم مناطق عديدة في نجد التي كان سكانها يعترفون، كما تشير المصادر، بأن شيخ بني خالد هو أقوى جيرانهم، وكانوا يسعون إلى إرضائه بالهدايا[٧٤]. وإنّ "حكم بني خالد كان يسوده السلم والتوسع التجاري"[٧٥] في غالب الأحيان، ولقد ظهرت لديهم بوادر كثيرة لرفض الوجود العثماني، واستطاعوا أن يستقطبوا إلى جانبهم معظم قبائل الإحساء، كآل مرة والعجمان وبني هاجر، ممّا هدّد بشكل فعلي وجود ومستقبل هذا الوجود، فاضطرت السلطنة إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة فتحي باشا عام ١٥٩٢/١٠٠٠، من أجل احتلال الإحساء فعلياً، والقضاء على إمارة سلالة أجود الجبري العامري الحاكمة فيها، جاعلةً منها ولاية عثمانية برتبة بكلر بك، وعينت فتحي باشا نفسه والياً عليها كما ذكرنا سابقاً.

وبقيت تابعة للسلطنة العثمانية إلى أن استغل الأمير براك زعيم بني خالد فترة الاضطراب التي أعقبت قيام هذه السلطنة في عام ١٠٧٩/١٦٦٨ بإصدار أوامرها إلى والي بغداد بالقضاء على حليفه حسين أفراسياب وعلى عائلته كلياً، من أجل أن يضطره إلى تسليمه حكم منطقة الإحساء عام ١٠٨٠/١٦٦٩. وهكذا بدأ حكم بني خالد لهذه المنطقة. ولم تقف طموحات أميرهم براك وخليفته محمد عند الاستقلال بها، بل امتدت خارجها، فوصلت قوة براك إلى الدرعية في أواسط نجد، ووصلت قوات أخيه محمد إلى الخرج ووادي حنيفة وسدير.

استلم سعدون بن محمد الحكم بعد ابن عمه ثنيان بن براك الذي بقي فيه سنة واحدة فقط بسبب موته في إحدى غزواته عام ١١٠٢/١٦٩١. وغزت قوات سعدون الخرج ونجد والعارض، ونهبت أطراف الدرعية، وتحالف مع عبد الله بن معمر أمير العيينة، وعندما توفي، أي سعدون، تنازع في حكم الإحساء ولداه دجين ومانع وأبناء عمهما علي وسليمان ولدا محمد، وانتهى الصراع لصالح علي بن محمد الذي حكم من عام ١١٣٥/١٧٢٣ حتى ١١٣٨/١٧٢٦. وفشلت ثورة ابن عمه دجين بمساعدة قبيلتي المنتفق وظفير ضده، كما فشلت محاولة دجين هذا نفسه في اغتيال ابن عمه سليمان الذي استلم الحكم بعد أخيه، وفي عهده برز النفوذ السعودي الوهابي بعد تشكل الدولة السعودية الأولى. وبشكل عام فقد مدّ بنو خالد سلطتهم على نجد وقطر وغيرها، وعهدوا لآل مسلم منهم بالرياسة في قطر[٧٦]. واستطاعوا أن ينشروا نفوذهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر في المنطقة الممتدة ما بين قطر جنوباً حتى البصرة شمالاً، باستثناء جزر البحرين. ونظراً لقوتهم فقد كان من الطبيعي أن يلجأ إليهم جماعات العتوب المهاجرة من نجد.

٢- منطقة الإحساء من قدوم العتوب حتى تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥:

جماعات العتوب كانت في الأصل أسراً عربية تربطها وشائج القربى، ودفعها الجدب الذي أصاب قلب الجزيرة العربية لسنوات عدة، خلال النصف الثاني من

القرن الحادي عشر /السابع عشر وأوائل القرن الثاني عشر /الثامن عشر، إلى الهجرة إلى الإحساء. وحسب رواية آل صبّاح وآل خليفة(٧٧) فإن العتوب ينتمون إلى قبيلة جميلة، وهي فخذة من قبيلة عنزة العربية الكبيرة، وكانوا في الأصل ينزلون الهدار من الأفلاح في إقليم نجد الجنوبي الشرقي، ومنها هاجروا إلى قطر ثم الكويت. وذكر أمير الكويت السابق، المرحوم الشيخ عبد الله بن سالم آل صبّاح، أن أجداده سُمّوا بالعتوب بعد ارتحالهم من الجنوب شمالاً إلى الكويت، أي أنهم "عتبوا إلى الشمال"(٧٨)، وعتب أي أكثر من الترحال من مكان إلى آخر. وما يزال أمر تسميتهم بالعتوب، والطريق الذي سلكوه، وتاريخ وفودهم، موضوعاً للنقاش والجدل. ولقد توخينا في حديثنا عنهم اختيار الخبر المروي من آل الصباح والمجمع عليه من معظم الباحثين.

يميل الباحثون إلى الاعتقاد بأن تحوّل العتوب إلى أمة بحرية قد تمّ حين إقامتهم في الزبارة في قطر، في هجرتهم الأولى إليها من الأفلاج حوالي عام ١٠٨٢/١٦٧١ وفق رؤية ميمونة الصباح[٧٩]، طالبين العزة والاستقلال في أرضهم وشؤونهم(٨٠). ومدة هذه الإقامة لم تكن لتقل عن خمسين سنة(٨١)، كانوا خلالها في قطر تحت حماية بني خالد الذين كان حكامها من آل مسلم تابعين لهم، وكانوا مثلهم مثل معظم سكانها ينتسبون إلى ربيعة[٨٢]. وخوفاً من ثأر آل مسلم هؤلاء لقتيل منهم، صرعه أحد العتوبيين، فقد فرّ هؤلاء خارج الزبارة، فلحقهم آل مسلم، ولكنهم انتصروا عليهم في معركة رأس تنورة، وتابعوا هربهم إلى الكويت التي كانت تابعة لحكم أمراء بني خالد أيضاً ولكن من آل حميد(٨٣).

وأصل تسمية الكويت أنّها كانت آنذاك عبارة عن قرية صغيرة تجمعت حول كويت (تصغير للكوت بمعنى الحصن أو الملجأ الذي يقام عادة على شط بحر أو ضفة نهر)(٨٤)، والذي أنشأه أحد أمراء بني خالد المسمى براك في النصف الثاني من القرن السابع عشر. من الكويت هذه انطلقت مسيرة العتوب في التاريخ الحديث

من الوحدة إلى التفكك والانفصال. ويُعدّ عام ١٧١٦/١١٢٨ أقرب التواريخ لتحديد تاريخ نزول العتوب في الكويت، كما أنه يحدّد أيضاً بداية التنظيم الذي وضعه هؤلاء العتوب، وذلك إثر تحالف زعمائهم الثلاثة: الشيخ خليفة بن محمد من آل خليفة، والشيخ سلمان بن أحمد من آل الصبّاح، والشيخ جابر بن عتبة من الجلاهمة.

وأول نشاط سياسي لهم كان بهدف الحصول على قبول السلطات العثمانية بوجودهم في الكويت، فأوفدوا، حسبما تذكر بعض المصادر، الشيخ صباح إلى والي بغداد العثماني عام ١١٢٩/ ١٧١٧، ليشرح له عن الفقر الذي دفعهم إلى النزوح وطلب العيش، وليؤكد له أنهم يريدون العمل للحياة، ولا يبغون ضرراً بأحد. وكان أن تفهّم هذا الوالي وضع العتوب، ومنح الشيخ صباح لقب قائمقام عام ١١٣٠/١٧١٨[٨٥]. وبهذا اطمأنت نفوس العتوب إلى السلطات العثمانية، وكانت قد تأكدت من الأمان في ظلّ بني خالد. وهكذا كان حال الإحساء والعتوب فيها حين ظهور الدولة السعودية الأولى.

****

هوامش الفصل الثالث

---

[١]- Cf. The Commentaries of Great Alfonso Delboqurque, op. cit., p. 187.

[٢]– قاسم، الخليج العربي...، ص٤٦ وانظر لاحقاً.

[٣]- المرجع نفسه، ص ٦٢-٦٥ و: The Commentaries of Great Alfonso Delboqurque, op. cit. pp. 75 and s.

[٤]– WILSON, op. cit., pp. 113-115.

[٥]- راجع صادق نشأت، ص ٦١-٦٢.

[٦] – قاسم، الخليج العربي..، ص ٧٣، والعقاد، التيارات السياسية...، ص ١٨.

(٧)- راجع عباس إقبال ، مرجع سابق، ص ٦٣- ٦٥.

(٨)- Cf. Samul MILES, Countries and Tribes of the Persian Gulf, London, 1919, vol. II, pp. 150 ff.

(٩)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٧٧-٨١، وعباس إقبال، مرجع سابق، ص ٦٣- ٦٥.

(١٠)- WILSON, op. cit., p. 153.

(١١)- السالمي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٩٩.

(١٢)- الخطيب، التنافس الدولي...،ص ٣٤-٣٩، وقاسم، الخليج العربي...، ص ٨٥-٩٢.

(١٣)- راجع الخطيب، التنافس الدولي...، ص ٣٤-٣٩.

(١٤)- MILES, op. cit., pp. 172-173.

(١٥)- Cf. STEVEN, Translation of a Manuel de Faria Sousa …, vol.ll, part 2, pp.370-372.

(١٦)- الخطيب، التنافس الدولي...، ص٢٦.

(١٧)- الجاف، مرجع سابق، ص ٤٢.

(١٨)- المرجع نفسه، ص٢٧.

(١٩)- حول كلّ ما سنورده بهذا الشأن انظر: العقاد، التيارات السياسية...، ص٢٢-٢٩، وعباس إقبال، مرجع سابق، ص ٧٨-٨٦، والخطيب، التنافس الدولي...، ص٢٦-٢٨.

(٢٠)- الجاف، مرجع سابق ، ص ١٢٧ وما يتبع.

(٢١)- السيار، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢٢)- WILSON, op. cit., p. 124, 145; Percy SYKES, A History of Percia, London, 1958, p. 194. والخطيب، التنافس الدولي...، ص٨٦.

(٢٣)- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٨.

(٢٤)- BADGER, op. cit., p.111. والخطيب، التنافس الدولي...، ص ٩٤.

[٢٥])- انظر الخطيب، التنافس الدولي...، ص ١٠٠-١٠٦.

[٢٦])- السيار، مرجع سابق، ص ٤٠-٤٤، والسالمي، مصدر سابق، جزء ١، ص٣٨٨-٣٩٩.

[٢٧])- راجع أهم المصادر حوله، وهو لعبد الله بن خلفان بن قيصر، سيرة الإمام العادل ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد حسيب القبيسي، وزارة التراث القومي لسلطنة عمان، ١٩٧٧.

[٢٨])- المرجع نفسه، ص ٤٤- ٤٧، وحميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق ع. عامر وم. م. عبد الله،، سلطنة عُمان،١٩٧٧، ص ٢٦٢-٢٨٠.

[٢٩])- السالمي، مصدر سابق،جزء ثاني، ص٣- ١٣، والسيار، مرجع سابق، ص ١٥٣-١٥٤.

[٣٠])- لوريمر، مصدر سابق، جزء ثاني، ص٦٣٧، والسيار، مرجع سابق، ص ١٤٥-١٥٤.

[٣١])- السالمي، مصدر سابق،جزء ثاني، ص٩٧-١٠٠، و: BADGER ,op. cit., p. 92.

[٣٢])- الخطيب، التنافس الدولي...، ص ١١١.

[٣٣])- المرجع نفسه، ص ٢٦٧، و Alexader HAMILTON, A New Account of the East Indies, London, 1930, vol. 1, p.57.

[٣٤])- السيار، المرجع السابق، ص٥٤.٥٧، وقاسم، الخليج العربي...، ص١٢.

[٣٥])- Cf. WILSON, op. cit., pp. 154-155; MILES, op. cit., pp. 195-196, 210-215, 222.

وسرحان آلبوسعيد الأزكوي العُماني، كشف الغمة، مخطوطة في المتحف البريطاني في لندن، تحت رقم Or 6568، ص٦٩-٧٠.

[٣٦])- HAMILTON, op. cit., vol. 1, p. 51.

[٣٧])- قدورة، المرجع السابق، ص٣٢٤.

[٣٨])- ابن رزيق، المصدر السابق، ص ٢٩١.

[٣٩])- المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

[٤٠])- المصدر نفسه، والسيار، المرجع السابق، ص١٤٨-١٤٩.

Damascus University

(٤١)- السيار، مرجع سابق،ص٥٧.٥٤. وحول مسقط ما بين ١١٠٥-١١٠٦/١٦٩٤و ١٢٣٤/ ١٨١٩ راجع: الموجز التاريخي الذي أعده فرانس واردن عضو بومباي ومساعد المقيم في الخليج(في كتاب مصطفى أبو حاكمة،الكويت،الكويت،١٩٧٠،جزء١،قسم٢،ص ١٢٨-١٥٣)

(٤٢)- WILSON, op. cit., p. 195.

(٤٣)- قاسم، الخليج العربي...، ص١١٨-١١٩.

(٤٤)- السيار، المرجع السابق، ص٨١، وروبرت جيران لاند، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد بن عبد الله، القاهرة، ١٩٧١، ص٥١.

(٤٥)- حول موضوع الغافريين والهناويين راجع: MILES, op. cit., ; pp. 99-152. BADGER, op. cit. pp. 242-252. ومحمد مرسي عبد الله، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩٧٨، ص٦٣-١٠٥.

(٤٦)- غرايبة، المرجع السابق، ص٢٣٧.

(٤٧)- المرجع نفسه، ص٢٦٨.

(٤٨)- Cf. WILSON, op. cit., p. 173; MILES, op. cit., pp. 225-266. وابن رزيق، مصدر سابق، ص٣٥٠-٣٨٦. ومحمد مرسي عبد الله، دولة الإمارات العربية وجيرانها، الكويت، ١٩٨١، الجزء الأول، ص٦٩-٧١، ومحمد أمين عبد الأمير، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثاني عشر، بغداد، ١٩٦٦، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٤٩)- WILSON, op. cit., p. 195.

(٥٠)- قاسم، الخليج العربي...، ص١١٨-١١٩.

(٥١)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٦٢.

(٥٢) - المرجع نفسه، ص ٧٣.

(٥٣)- المرجع نفسه، ص٧٤.

(٥٤)- Cf. John STEVEN, Translation of a Manuel de Faria Sousa the Portugese Asia, London, 1695, vol.I, part 2, pp. 126 ff and vol. II,pp. 256-258.

(٥٥)- ابن إياس، بدائع الزهور...، جزء خامس، ص ٤٣١.

(56)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٧٦.
(57)- أوزبران، المرجع السابق، ص٢٥-٢٧.
(58)- المرجع نفسه، ص ٣٣ وما يتبعها.
(59)- إيفانوف، المرجع السابق، ص٩٢.
(60)- المرجع نفسه، ص٩٣.
(61)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٨٧-٨٩.
(62)- المرجع نفسه، ص ٨٩.
(63)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٨٢.
(64)- الخطيب، التنافس الدولي...،ص ٥٨- ٦١، وجمعة وخولي،مرجع سابق،ص٣٧٤-٣٧٦.
(65)- عباس، مرجع سابق، ص ٨٦، والخطيب، التنافس الدولي...، ص٦٣-٦٥.
(66)- قاسم، الخليج العربي...، ص٤١٤.
(67)- المرجع نفسه، ص، ١٢٠-١٢١، و SYKES, A History of Percia…,vol.ll.

(68)- الخطيب، التنافس الدولي...، ص١٩٠، وللمؤلف نفسه، ساسة إيران في الخليج العربي، الدوحة–قطر، ١٩٨٧، ص ١٠٦.
(69)- الخطيب، التنافس الدولي...،ص١٢٩.١٣٠ و١٩٢-١٩٤.
(70)- مصطفى عبد القادر النجار، التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب، البصرة، ١٩٧٤، ص٤٨-٤٩، وأوزبران، مرجع سابق، ص٣٣ وما بعدها.
(71)- لمع الشهاب، ص١٥٧-١٥٨. وحول كل ما يتعلق ببني خالد راجع قاسم، الخليج العربي... وأحمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ شرقي الجزيرة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص٦٠-٦٢، وللمؤلف نفسه، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٢٥-١١٤.
(72)- أبو حاكمة، تاريخ شرقي الجزيرة العربية...، ص ٦٣.
(73)- المرجع نفسه، ص ٦٠، وابن بشر، مصدر سابق، جزء أول، ص ٢٤-٢٥.
(74)- قاسم، الخليج العربي...، ص٣٦٤.
(75)- أبو حاكمة، تاريخ شرقي الجزيرة العربية...، ص ٦٣.

(76)- مصطفى مراد الدباغ، قطر ماضيها وحاضرها، د. الطليعة، بيروت،١٩٦١، ص ١٦٨.

(77)- أبو حاكمة، محاضرات...، ص٦٥.

(78)- المرجع نفسه، ص٦٤.

(79)- ميمونة الصباح،"نشأة الكويت"(مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية،عدد٤٦،ص١٤-١٧)

(80)- الشيخ أحمد الشرباصي، أيام الكويت، القاهرة، ١٩٥٣، ص٩، وعبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، بيروت، ١٩٦٢، ص٣١-٣٢.

(81)- أبو حاكمة، محاضرات...، ص٦٦.

(82)-عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٩٧.

(83)- حسن سليمان محمود، الكويت ماضيها وحاضرها، دون مكان أو تاريخ، ص١٤٨.

(84)- العزاوي، المرجع السابق، المجلد السابع، ص٢٣١، والرشيد، المرجع السابق، ص١١.

(85)- البصري، المصدر السابق، ص١٨.

****

القسم الثاني

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث
في مرحلتيه الثانية والثالثة:
من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥
إلى نهاية دولة محمد علي العربية عام ١٢٥٧/١٨٤١

Damascus University

الفصل الخامس

إقليما شرقي شبه جزيرة العرب (عمان والبحرين) في المرحلة الثانية من تاريخهما الحديث: من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨ إلى بداية الوجود المصري عام ١٨١١/١٢٢٦

أولاً)- إقليم عمان من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/ ١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٨١١/١٢٢٦:

I - عمان حتى نهاية حكم الإمام أحمد بن سعيد عام ١٧٨٣/١١٩٨: البوسعيد والقواسم وبنو ياس والانقسام.

II- عمان من وفاة الإمام أحمد بن سعيد ١٧٨٣/١١٩٨ حتى بداية الوجود المصري عام١٨١١/١٢٢٦.

ثانياً)- إقليم البحرين من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨ إلى بداية الوجود المصري عام١٨١١/١٢٢٦:

I - العتوب من الوحدة إلى التفكك.

II - آل الصباح والكويت حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/ ١٨١١.

III- جزر البحرين وآل خليفة والجلاهمة وبنو خالد وقطر من تفكّك العتوب حتى بداية الوجود المصري عام ١٨١١/٢٢٦.

****

أولاً)- إقليم عمان من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١٧٤٥/١١٥٨ إلى بداية الوجود المصري عام ١٨١١/١٢٢٦:

تطور إقليمي عمان والبحرين في المرحلة الثانية من تاريخهما الحديث، كما هي الحال بالنسبة إليه في المرحلة الأولى، قد ارتبط بمتغيرات الصراع الدولي في الخليج العربي في كلّ منهما، من حيث كونه محوراً أساسياً فيه. كنا قد رأينا في مدخل هذا القسم أنّ أول هذه المتغيرات التراجع التام للقوة البرتغالية، وثانيها تقلّص

الهيمنة الهولندية شيئاً فشيئاً، والثالث كان بروز الهيمنة البريطانية المتزايدة يوماً بعد يوم، والرابع هو التراجع المتصاعد للقوتين العثمانية والفارسية. والخامس هو بروز ثم نهاية القوة العربية لطرفي عرب القواسم وعرب الخرج بزعامة المير مهنا، والسادس هو بروز ثمّ تراجع هذه القوة لعرب آلبوسعيد في عمان كما سنرى الآن.

I – عمان حتى نهاية حكم الإمام أحمد آلبوسعيد عام ١١٩٧/١٧٨٣: آلبوسعيد والقواسم وبنو ياس والانقسام:

رأينا كيف انتهت دولة اليعاربة لصالح بداية حكم دولة آلبوسعيد على يدّ مؤسسها الإمام أحمد آلبوسعيد عام ١١٥٤/١٧٤١، ولم يأت شهر تشرين الثاني من عام ١١٥٧/١٧٤٤ إلاّ وقد استطاع هذا الإمام الجديد تحرير كل عمان من الفرس. وبالرغم من نجاحه هذا فقد واجه كثيراً من تحركات المعارضة في أوساط عدد من القبائل المنتمية إلى اتحادي القواسم وبني ياس. ونقف قليلاً عند كل منهما نظراً لصلتهما بتطور الأحداث. ونبدأ باتحاد القواسم الذين أكّدت حتى بعض الدراسات الغربية "على صفة الشجاعة والنخوة والحمية" لديهم، دون أن يمنعها ذلك من وصف نشاطاتهم ضدّ القوى الأجنبية في الخليج العربي "بالسلب والقرصنة"[١].

ضمّ اتحاد القواسم عدداً كبيراً من العشائر التي كانت تنضوي تحت لوائهم، ودعوا بالقواسم نسبة إلى الشيخ قاسم جدّ شيخهم المعروف راشد بن مطر[٢]. وبغض النظر عن الخلاف حول أصولهم فهم برأي الجميع عرب عدنانيون(٣). أربعة عوامل أساسية أسهمت في نشوء وبروز قوة اتحادهم في هذه المرحلة: أولها شجاعتهم وتميز خبرتهم في الملاحة، وثانيها غياب القوة البحرية الأوروبية المهيمنة فعلياً على الساحل العربي في الخليج العربي في هذه الفترة، كما رأينا. والعامل الثالث هو انهيار دولة اليعاربة وانهيار الوحدة العُمانية معها نتيجة للصراع الذي تحدثنا عنه ما بين القبائل الغافرية والهناوية، وإن وقوف الإمام آلبوسعيد لصالح هذه الأخيرة التي ساعدته في إقامة دولته قد استغلّه القواسم ذوي الانتماء الغافري،

كمبرّر لإعلان استقلالهم في المناطق التابعة إليهم في الساحل العُماني منذ عام ١١٦٠/١٧٤٧، والذي لم يأخذ صفته الرسمية إلاّ في عام ١١٧٩/١٧٦٥. والعامل الرابع هو وفاة الشاه نادرشاه عام ١١٦٠/١٧٤٧ الذي كان قد "اعتمد في تشكيل أسطوله الفارسي على البحارة العرب اعتماداً كلياً"[٤]، ومنهم القواسم الذين استغلوا وفاته وقاموا بالسيطرة على هذا الأسطول تماماً، داعمين قوتهم البحرية.

وعليه، ومن خلال نشاطهم وقيام شيخهم رحمة بن مطر بمصاهرة حاكم بندر عباس عام ١١٦٤/ ١٧٥١، وانتصاراتهم في عملياتهم البحرية المستمرة وخاصة ضد السفن الفارسية والبريطانية، فقد تمكن القواسم من تكوين أسطول بحري قوي اعتمدوا عليه في توسيع نفوذهم الذي امتد من رأس مسندم حتى دبي، ضاماً قسماً كبيراً مما يدعى اليوم بدولة الإمارات العربية، ومنها دبي ورأس الخيمة(جلفار قديماً) والشارقة وأم القيوين وعجمان، بالإضافة إلى بعض الموانئ والجزر في الساحل الشرقي للخليج، وخاصة جزيرة قشم وكنج ولنجة، والتي لم تبق طويلاً معهم حيث استطاع الشاه كريم خان الزندي استرجاعها بعد فترة قصيرة.

ولم يكتف زعيمهم راشد بن مطر القاسمي الذي خلِف شيخهم رحمة بعد موته عام ١١٧١-١١٧٢/١٧٥٨ باستعادة الهيمنة على هذه الجزر، وإنما سيطر على ولفت وعلى شناص في ساحل الباطنة. واشترك عام ١٠١٧٣/١٧٥٩ في الحروب التي كان يخوضها شيخ بندر ريق ضد الهولنديين. وبعد ثلاثين عاماً من الحكم الذي شهد مزيداً من الانتصارات والصراعات تنازل الشيخ راشد القاسمي في عام ١١٩١/١٧٧٧ عن مشيخة القواسم لابنه صقر القاسمي الذي استمر فيها حتى عام ١٢١٨/١٨٠٣، والذي استطاع السيطرة على شؤون الخليج العسكرية والبحرية في تلك الفترة. وإن هذه السيطرة قد استمرت في عهد ابنه الشيخ سلطان بن صقر، الذي استلم زعامة القواسم بعد اعتزال أبيه في عام ١٢١٨/١٨٠٣.

بالنسبة لاتحاد بني ياس[٥]هو أيضاً مجموعة قبائل، وصل عددها إلى عشرين قبيلة، تتراوح بين الصغر والكبر. بقيت قبيلة بني ياس، التي باسمها تسمى الاتحاد، أضخمها، حتى أنها اعتبرت من أكبر القبائل التي ظهرت في منطقة الساحل الجنوبي للخليج العربي. وبغض النظر عن حداثة أو قدم وجودها في عُمان، وعن قدومها من نجد أم من غيرها، فهي قبيلة عربية استقرت بداية في الظفرة ثم مدت نفوذها حولها. استلم زعامتها بعد مؤسسها الأول الشيخ ياس، الشيخ فلاح الذي إليه ينتسب آل نهيان، ثم الشيخ نهيان الذي حكم خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وعليه ضم اتحاد بني ياس عشيرة البوفلاح التي "تمثل القلب البدوي المحارب"[٦] في هذا الاتحاد. وتتألف من بطون عديدة أبرزها آل نهيان في "أبو ظبي" وآل محمد في واحة ليوا. وضمّ أيضاً الرواشد الذين يشكلون أكبر أقسام اتحاد بني ياس ويمثلون عنصراً أساسياً من عناصر السكان، والذين يعد من أهم فروعهم هو فرع البوفلاسة الذي إليه ينتمي آل مكتوم حكام دبي. وقد كان الاتحاد متماسكاً أوحى بأنه قبيلة واحدة رغم أنّه ضمّ مجموعات قبلية عديدة.

وعاش بنو ياس، مثلهم مثل القواسم، زمن حكم أسرة اليعاربة المشرّف لعُمان، وكان قد أسهم كثير منهم معها في طرد البرتغاليين وتعقبهم حتى في سواحل الهند وشرقي أفريقيا، مما يفسر استلام آل المزروعي، منهم، لحكم ممبسا وغيرها في الساحل الأفريقي فيما بعد في عام ١٨٣٩/١٢٥٥. وإن أهم الأحداث التي شهدها اتحاد بني ياس بعد ذلك هي سكنى مجموعات منهم في عام ١٧٦١/١١٧٥ في جزيرة صغيرة اكتشفوا فيها مياهاً للشرب، هي جزيرة "أبو ظبي"[٧]، ومنذ استقرار هذه المجموعة فيها بدأت هجرة مجموعات أخرى من الاتحاد نفسه من واحة ليوا في الداخل إلى الساحل، مما أعطاهم سمات الطابع السكاني البري والبحري معاً وأنعش حياتهم الاقتصادية. ومن أوائل الجزر التي استوطنوها جزيرة "صير"، وكما أخذت اسمهم ودعيت جزيرة "صير بني ياس"، فقد ارتبطوا بها وانتشرت تسميتهم بـ"أهل الصير". وإن زعيمهم الشيخ عيسى بن نهيان قد احتفظ بمركز زعامته وحكمه في

ليوا، إلاّ أنه اهتم بتفقد شؤون رعاياه المهاجرين في الساحل أيضاً. وكذلك فعل ولده وخلفه الشيخ دياب. وبعد فترة من الصراع على الحكم استطاع الشيخ شخبوط بن دياب الانتصار وإعادة التماسك إلى اتحاد ياس عام ١٢١٠/١٧٩٥. وإن من أهم أعماله كان قيامه بنقل مركز حكمه من ليوا في الداخل إلى "أبو ظبي" في الساحل.

وعلى الرغم من وجود بعض المصالح المشتركة التي دفعت ببني ياس، في كثير من الأحيان، إلى إقامة علاقات حسن الجوار مع القواسم، فإن بروز الخطر البريطاني ضدهما وضد المنطقة عموماً لم يوحدهما مع الأسف. ولا نظن أن السبب هو انتماء بني ياس إلى الكتلة الهناوية كما يشير بعضهم(٨)، وإنما هو غياب الوعي السياسي عند الطرفين. والآن ماذا عن الوعي السياسي للبوسعيد في عُمان في هذه المرحلة في فترة النفوذ السعودي؟

حرص الإمام أحمد آلبوسعيد على أن لا يشتت قواه في محاربة العرب القواسم الذين أصروا على انفصالهم عنه بحجّة تعاونه مع الهناوية، وعلى أن يواصل سياسة سابقيه اليعاربة في تنمية العلاقات العُمانية بالدول الإسلامية، وفي توطيد النفوذ العُماني العربي في الهند وشرقي أفريقيا، وذلك بعد أن نجح في التصدي لمنافسيه على الإمامة من اليعاربة وغيرهم، وفي معالجة حركات العصيان العديدة التي قام بها ابناه، سلطان وسيف(٩). وإذا كان قد فقد ولاء بعض الإمارات الواقعة على ساحل أفريقيا الشرقي، وعلى رأسها ممبسا التي كان قد استقل بها آل المزروعي بعد سقوط دولة اليعاربة في عام ١١٥٤/١٧٤١(١٠)، فإنه قد وثّق علاقاته مع الإمارات الإسلامية في الهند، وخاصة مع حاكم حيدر آباد، المشهور بنظام الدين، والذي قام بدور فعال في مقاومة الاستعمار البريطاني في الهند، ورفض تسلل هذا الاستعمار إلى بلاده.

إنّ الحرص على ضمان أمن الحركة الملاحية النشطة قد استدعى قيام الحكومة العُمانية بتطهير الخليج العربي وساحل ملبار غربي الهند من القراصنة ككلّ. وإذا كانت عملية التطهير هذه حجة مزعومة استخدمها البريطانيون من أجل

ترسيخ وجودهم في الخليج العربي على حساب منافسيهم العرب، فقد كانت بالنسبة للعرب العُمانيين، في ظل آلبوسعيد كما في ظل اليعاربة قبلهم، سياسة فعلية نجحوا من خلالها في تأمين أمن الملاحة التجارية في المحيط الهندي أيضاً[١١].

تخوف الفرس من نفوذ الإمام أحمد آلبوسعيد في الخليج وخارجه، وحاولوا تشكيل تحالفاً ضده مع عرب القواسم في رأس الخيمة وعرب بني معين في جزيرتي قشم وهرمز، ولكنهم فشلوا مقابل نجاح هذا الإمام في إقناع القواسم بالتحالف معه ضدهم، فكان هجومهما المشترك على سواحلهم وضرب ميناء بوشهر عام ١١٨٤/ ١٧٧٠، وميناء بندر عباس عام ١١٨٧/١٧٧٣. ثم سويت المشكلات بين الطرفين لفترة قصيرة جداً عادت الحرب بعدها بينهما، وكان هذا بسبب توجّه الفرس لاحتلال البصرة ومحاصرتهم لها عام ١١٨٩/١٧٧٥، فتصدّى الإمام أحمد آلبوسعيد وحده لهم، لأن تحالفه مع القواسم كان قد انتهى، ونجح أسطوله في فك حصارها[١٢]. ومنذ ذلك الحين خصصت السلطنة العثمانية مكافأة سنوية لأئمة عُمان نظير قيامهم بحماية شواطئ ممتلكاتها في الخليج العربي، بقيت مستمرة حتى بداية عهد سعيد بن سلطان، في وقت كان وجود الأسطول العثماني فيه يكاد يكون معدوماً.

بعد عودة الإمام من البصرة عام ١١٨٩/١٧٧٥ نفسه، كان عليه أن يواجه صراعاً جديداً بينه وبين القواسم، وما أوقفه كان انشغال القواسم بزعامة صقر بن راشد في أخذ جزيرتي قشم وهرمز، مستغلين موت شيخهما، ثم انشغالهم في الصراع مع عتوب البحرين، وتعاونهم مع شيخ بوشهر في حملة ضدهم. بعد ذلك ارتدوا إلى داخل عُمان من جديد، ليمدّوا نفوذهم في أواخر القرن الثامن عشر فيشمل ساحل عمان من الشارقة حتى روس الجبال، متحالفين مع عرب القيوين والعجمان وغيرهم. واستغلوا موت نادر شاه ليسيطروا على الأسطول الفارسي وعلى بعض السواحل الفارسية، والتي أخرجهم منها الشاه كريم خان الزندي، ثم عادوا إليها بعد مماته وأسسوا فيها إمارة عربية مركزها لنجة، وتتبع للعاصمة رأس الخيمة. وكعادة الإمام آلبوسعيد تجنب الصدام مع القواسم لصالح توطيد نفوذه الخارجي.

II – عمان من وفاة الإمام أحمد آلبوسعيد عام ١١٩٨/ ١٧٨٣ حتى بداية الوجود المصري عام ١٨١١/١٢٢٦:

بعد وفاة هذا الإمام في عام ١٧٨٣/١١٩٨ عاد النزاع من جديد بين أبنائه الذين كان قد عينهم حكاماً على المدن والمقاطعات في حياته. وآزرت الأغلبية ابنه الأكبر سعيد فبويع بالإمامة، واتخذ مقره في الرستاق في الداخل. وكان هذا النظام اللامركزي الذي استمر فيه الإمام أحمد خطأً جسيماً أدى إلى الصراعات والتجزئة السياسية لعُمان[١٣]. أراد السلطان سعيد أن يحتكر شؤون التجارة والملاحة للدولة، فلم يتقبل التجمع التجاري ذو النفوذ الكبير في الموانئ هذه السياسة[١٤]، والْتفّت عناصره حول ابنه حمد حاكم مسقط، دافعة إياه إلى التصرف في مملكته الساحلية باستقلالية تامة كانت هي أصل ازدواج السلطة في عُمان فيما بعد ما بين سلطنة مسقط الساحلية وإمامة عُمان الداخلية.

وحمد هذا هو الذي استولى على جزيرة زنجبار عام ١٧٨٤/١١٩٩[١٥] مما زاد في تعاظم سلطته مقابل تراجع سلطة أبيه. وبمجرد موته، أي حمد، في عام ١٧٩٢/١٢٠٧، حاول الإمام سعيد أن يسترجع سيادته على الساحل ففوجئ بمقاومة عنيدة، وتمكن أخوه سلطان من الاستيلاء على حكم مسقط. وكان أن تقلصت دائرة سلطته كثيراً لصالح أخيه هذا، حيث اعترفت به منطقة الشرقية وجعلان وعُمان الداخلية كلها باستثناء العاصمة الرستاق التي بقيت وحدها له. أي أن سلطان أعاد تقريباً توحيد عمان الساحل والداخل، وقد أبقى صحار في يد أخيه الثاني السيد قيس، والسويق في يد أخيه محمد. وظلت مدينة نخل في يد اليعاربة، وبقي للقواسم ما ذكر من مناطق نفوذهم، واستمروا في رفضهم للتبعية للأخوين في مسقط والرستاق معاً.

أمضى الإمام سلطان بدايات حكمه في سياسة التوسع الخارجي، فسيطر على قشم وهرمز والموانئ المهمة على ساحل مكران، واستولى على ميناءي شهبار

وجوادور. ومع أنه عاصر قيام الأسرة القاجارية منذ سنة ١٢٠٩/١٧٩٤، وهي من أقوى الأسر الفارسية الحاكمة في العصر الحديث، فإن قوته البحرية الكبيرة قد تحدّت وجودها واستطاعت الاستيلاء أيضاً على أهم ميناء ساحلي في فارس في ذلك الحين، وهو بندر عباس. وكان على الإمام سلطان بعد ذلك أن يتعامل مع كثير من القوى المتصارعة على إخضاع بلاده، وعلى النفوذ في الخليج العربي ككل، وأبرزها القوة الفرنسية والبريطانية والقوة السعودية(١٦).

كانت قد نجحت فرنسا منذ عام ١١٩٩/١٧٨٥ في إقناع سلطان مسقط، السيد حمد آنذاك، في الموافقة على إقامة وكالة لها فيها، وعلى عقد اتفاقية تجارية معها على أساس تبادل المصالح. وعدت فرنسا مسقط منذ ذلك الحين أحد مراكز إمداد أسطولها بالمؤن والمياه، ومنفذها إلى الساحل العربي. واستمر السيد سلطان، بعد استلامه السلطنة، في علاقات مسقط الودية هذه مع فرنسا، وسمح لها بافتتاح قنصلية فيها عام ١٢١٠/١٧٩٥.

وفي كانون الثاني من عام ١٢١٤/ ١٧٩٩ بعث نابليون برسالة إليه(١٧) يعرض فيها عليه الحماية الفرنسية لبلاده. وإن وقوعها بيد الممثل البريطاني في جدة يفسّر تصاعد جهود بريطانيا في ذلك الحين لاستقطاب عُمان ودول الخليج عامة نحو الارتباط بها. وقد أتت بداية جهودها هذه بمجرد احتلال نابليون لمصر عام ١٢١٤/١٧٩٩ نفسه، بل اطلاعها على الرسالة، إدراكاً منها أن سيطرة أية قوة معادية لها على الخليج العربي أو على مسقط، هي بمثابة التهديد المباشر والخطير لطريقها الحيوي إلى الهند، بخاصة بعد احتلال سلطان مسقط لميناء بندر عباس، الذي كان المركز الرئيسي للنشاط التجاري الدولي في المنطقة آنذاك.

وكان أن نجحت شركة الهند الشرقية الإنكليزية، وبعد فترة وجيزة من الحملة الفرنسية فقط، وفي عام حدوثها نفسه، ١٢١٣/١٧٩٨، في عقد معاهدة صداقة وتجارة ودفاع مشترك مع السيد سلطان بن أحمد، سلطان مسقط، دلت بنودها على أن بريطانيا لا فرنسا هي التي كانت أكثر تأثيراً في المنطقة. أبرز ما تضمنته كان

التعهد بحماية مسقط ومنحها امتيازات تجارية معتبرة في المستعمرات الإنكليزية، وذلك مقابل وقوف سلطانها مع إنكلترا في الأمور الدولية، أولاً، ووجوب امتناعه عن القيام بأية علاقة تجارية مع الفرنسيين والهولنديين، وعن السماح لقواتهما بالوجود في بلاده ما داموا في حالة حرب معها، ثانياً، ووجوب قيامه بإبعاد السفن الفرنسية التي كانت تتخذ مسقط كقاعدة لعمليات القرصنة ضدّ السفن الإنكليزية وغيرها، ثالثاً، ووجوب مساعدته لهذه السفن في حال قتالها مع السفن الفرنسية، رابعاً، ووجوب موافقته على إعادة بناء مركز وإقامة حامية إنكليزية في بندر عباس، خامساً، وعلى إقامة من ٧٠٠-٨٠٠ جندي بريطاني في مسقط، سادساً[١٨].

ولكن ونظراً للمصالح التجارية بين مسقط والمستعمرات الفرنسية، وخاصة جزر موريشوس في المحيط الهندي، فإنّ سلطانها، على الرغم من معاهدته هذه مع بريطانيا، لم يكفّ عن صداقته مع فرنسا، فهدّدته بضرب المصالح التجارية لبلاده مع الهند، مما اضطره إلى التخلي عن هذه الصداقة وإلى الارتباط معها كلياً، وذلك التزاماً بما جاء في المعاهدة الجديدة التي أبرمها معها عام ١٢١٥/١٨٠٠، تأكيداً على ما جاء في المعاهدة السابقة، وبموجبها عيّن أول ممثل دبلوماسي بريطاني مقيم دائم في مسقط، ولا شك أن الحاجة إلى الدعم الإنكليزي في التصدّي للخطر السعودي كان سبباً رئيساً في قيام سلطان مسقط بعقد هاتين الاتفاقيتين.

بعد أن وصل نفوذ السعوديين إلى ساحل الخليج العربي، وجاوروا العُمانيين كان لا بد وأن يحاولوا إخضاعهم إليهم أيضاً. وكعادتهم في استغلال الصراعات المحلية لإضعاف قوة المنطقة التي يتوجهون لاحتلالها، فقد استغلوا الصراع الرئيسي الذي كان مهيمناً في عُمان آنذاك بين الهناوية المؤيدة له والغافرية المعارضة. واستطاعوا استقطاب هذه القبائل الأخيرة لتدين بدعوتهم السلفية الوهابية، مما يفسّر اتهامها من قبل أعدائها بأنها من "النجديين"[١٩]. وعمد السعوديون إلى نشر دعوتهم هذه بين جميع القبائل ذات المذهب السنيّ في عمان، والتي كانت تتركز في مناطق ثلاثة: منطقة الساحل الشمالي، ومنطقة أرض

الظاهرة، ومنطقة جعلان. والمنطقتان الأولى والثانية، أي الساحل الشمالي والظاهرة، هما أولى المناطق التي تعرضت للحملات السعودية منذ عام ١٢٠٨/١٧٩٣، وأولى المناطق التي اعتنقت قبائلها الدعوة الوهابية، فآمن بها قسم من قبائل القواسم والنعيم وبني كعب وبني قتب وغيرهم. أما قبيلة بني ياس فقد ظلّت متمسكة بمذهبها المالكي(٢٠).

وعاملان أساسيان كان لهما الدور الأساسي في اعتناق قسم من القبائل المذكورة للوهابية وفي توجهها نحو التحالف مع السعوديين: الأول هو عنصر الخوف من بطش القوة السعودية بحجّة التكفير لمن لا يعتقد بفكرها الوهابي، مما يفسّر لماذا كان اعتناق الدعوة من القبائل كان يأتي في غالب الأحيان بعد خضوعها لمعارك ضارية مع السعوديين وهزيمتها أمامهم. العامل الثاني هو الطموح للحكم والنفوذ، حيث كان أمراء السعوديين يعدون شيوخ القبائل بالحكم باسمهم مستقبلاً وبتوسيع نفوذهم وخاصة بعد الاستيلاء على عُمان، والقضاء على الحكم آلبوسعيدي فيها، مما يفسّر تحالف الكثير من هؤلاء الشيوخ مع السعوديين.

موقف القبائل هذا كان أحد أهم أسباب هزيمة قوات الإمام سلطان بن أحمد أمامهم عام ١٢١٥/١٨٠٠، واضطراره إلى التنازل لهم بعدها عن واحات البريمي. وقد عدّ مؤرخ بريطاني اتفاق الإمام بهذا الشأن مع الوهابيين "أفدح خطأ ارتكبه"(٢١). وكان أن فشل سلطان بن أحمد أيضاً عام ١٢١٧/١٨٠٢ في محاولة إقناع القواسم بالمساهمة معه في هجماته المتكررة ضدّ شهيار وقشم وهرمز والبحرين(٢٢)، لانضمام قسم منهم للوهابية ولدولتها السعودية. وإنّ تعاونه مع الشريف غالب في مكّة وتقديم المساعدة ولو القليلة له في العام نفسه قد أغضب الأمير عبد العزيز فأعلن الحرب عليه بمشاركة قواسم رأس الخيمة وعتوب البحرين، فاضطرّ إلى طلب الصلح وتوقيع هدنة لثلاث سنوات٢٣.

بعد اعتزال سلطان القواسم صخر في عام ١٢١٨/١٨٠٣ خلفه ابنه سلطان الذي اتخذ ميناء الشارقة عاصمة له، وجعل عمه حسن بن رحمة نائباً في رأس

الخيمة(٢٤). ولم ينقطع سلطان عن مهاجمة السفن البريطانية، مما اضطر بريطانيا إلى عقد معاهدة معه في عام ١٨٠٥/١٢٢٠ على الرغم من نجاح أسطولها آنذاك في الانتصار عليه، وذلك لتضمن تعهده بعدم التعرض لسفنها مستقبلاً. لكن سلطان بن صخر لم يلتزم بهذه المعاهدة التي صدقتها بريطانيا في عام ١٨٠٦/١٢٢١ والتي كانت أول معاهدة بين الطرفين، مما دفعها إلى إرسال حملة بحرية جديدة في عام ١٨٠٧/١٢٢٢ انضمّ إليها سلطان مسقط، وقامت بقصف رأس الخيمة ثلاثة أيام، ثم أنزلت قوة إلى الشاطئ احتلت المدينة ودمرتها وأغرقت سفن القواسم فيها، وأسرت حاكمها حسن بن رحمة.

بعد ذلك شهدت عمان والخليج العربي عموماً في عامي ١٨٠٨/١٢٢٣ و ١٨٠٩/١٢٢٤ حدثين مهمين مترابطين قد شكلا المؤشر الواضح في مسيرة العلاقات البريطانية–السعودية. الأول هو قيام الأمير السعودي عام ١٨٠٨/١٢٢٣ بعزل زعيم القواسم الأول سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة وتعيين ابن عمه حسين بن علي بدلاً منه. ولم يكن الدافع لذلك محصوراً في تعهد هذا الأخير بزيادة مقدار الزكاة، ولا في شكوى رعايا الأول المتكررة من قساوته، وإنما نتيجة لأسباب ثلاثة رئيسية: أولها نزوع سلطان بن صقر إلى الاستقلالية عن السعوديين، وثانيها وعيه ورفضه لسياسة السعوديين المتوجهة إلى بث التفرقة بين قبائل اتحاد القواسم وإلى عزله عن رعاياه، وإلى تأييد وإبراز شخصيات أخرى من آل النعيم والرواشد وتشجيعها على تكوين مشيخات جديدة(٢٥)، مما دفعه إلى التوجّه للتحالف مع سلطان مسقط سراً ضدّهم[٢٦]. وثالث الأسباب حرص السعوديين على مهادنة البريطانيين الذين لا يثقون به رغم اتفاقيته معهم والتي لم يلتزم بها. في إطار هذه المهادنة وتفادياً لخطره فقد احتجزه السعوديون في عاصمتهم الدرعية.

ونستشهد حول صلة هذا الحدث بما قامت به بريطانيا من ضرب للقواسم في رأس الخيمة، برأي أحد أهم المؤرخين في الشأن الخليجي، وهو جمال زكريا قاسم،

واضعين تعليقاتنا على ما يورد وفق أقواس كبيرة. يقول قاسم[٢٧]: "إنّ أوثق الروايات هي تلك التي ذكرها صمويل ميلز (MILES) المقيم السياسي في الخليج العربي وفحواها أنّ السعوديين هم الذين رغبوا في مهادنة الانكليز ومن ثمّ كان خلعهم للزعيم القاسمي[٢٨]، ويستند ميلز على أنّ الانشقاق القاسمي السعودي هو الذي أتاح الفرصة لبريطانيا للتخلص من نشاط القواسم دون أن يؤدي ذلك إلى صراعها مع الدولة السعودية نفسها ومن ثمّ كانت حملة ١٨٠٩ التي حطّمت فيها بريطانيا مركز القواسم في رأس الخيمة، وأنّه على إثر هذه الحملة اتّخذ الإمام سعود قراراً بمهادنة الإنكليز، وفيما يبدو أنّ القرار كان استجابة لعروض حكومة الهند من أن يمنع أتباعه عن ارتكاب عمليات قرصنة ضدّ السفن العابرة في الخليج"[٢٩].

ويتابع قاسم[٣٠]: "غير أنّ استجابة السعوديين لهذه المهادنة من الأمور التي تثير الدهشة والاهتمام ولا ندري هل ترجع تلك الاستجابة إلى إدراك السعوديين لقوة الانكليز؟(لا بالطبع لأنّ القوة السعودية قد أصبحت آنذاك كبيرة جداً) أو عدم إدراكهم لهويتهم الدينية! ويذكر البعض "أنّ علماء الدرعية قد عقدوا اجتماعاً قرّروا فيه أن الإنكليز على دين النصارى وهم أهل كتاب، وبالتالي فإن جهادهم غير واجب على المسلمين"[٣١]. ويورد قاسم بعد ذلك رسالة الإمام سعود إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج ليونيل سميث(SMITH) بعد حملة عام ١٨٠٩، والتي يسخر فيها من تعاون الإنكليز مع "رجل لا يملك أية قوة ذاتية" (أي سعيد سلطان مسقط)، ويعدهم لو تعاونوا معه بالأمن والأمان في الخليج العربي"[٣٢].

نستطيع الآن فهم الحدث الثاني الذي تمثّل بانسحاب الحملة البريطانية التي قدّمت المساعدة الرمزية لسلطان مسقط على احتلال ميناء شناص، التابع للدولة السعودية آنذاك، في فترة حرجة إثر نبأ قدوم قوة وهابية كبيرة بقيادة مطلق المطيري، تاركة حليفها العماني دون دعم وعرضة لانتقام أعدائه السعوديين، وذلك بسبب تخلّيها عنه لصالح اتفاق جديد لها معهم. وإن بنود الاتفاق المبرم بين

المطيري والقائد الإنكليزي ليونيل سميث بعد هذه المعركة وفي عام ١٨٠٩/١٢٢٤ نفسه تؤكد هذه الدلالة، حيث نصّت على تعهد السعوديين وأتباعهم، أي القواسم وغيرهم، بعدم التعرض لسفن الإنكليز أو لرعاياهم التابعين لهم، مقابل تعهد بريطانيا بعدم تقديم أية مساعدة لسلطان مسقط في حربه ضد كل من ثار ضدّه ورفض دفع الزكاة المفروضة عليه[٣٣].

وكان أن تخلّت بريطانيا بالمقابل عن دعم سلطان مسقط رافضة طلبه المساعدة منها بصدّ هجوم المطيري على بعض المناطق العمانية، ناصحة إياه عام ١٨١٠/١٢٢٥ بقبول عرض السلام الذي تقدم به السعوديون[٣٤]. وهكذا نجح السعوديون ليس في دفع الإنكليز إلى التخلّي عن دعم أعدائهم آلبوسعيديين فقط، وإنما إلى دفع هؤلاء الأخيرين أنفسهم إلى الخضوع إلى سلطانهم أيضاً. عوامل كثيرة أخرى أسهمت في خضوعهم هذا ونكتفي بذكر أبرزها[٣٥]:

١- نجاح السعوديين باختراق الجبهة الداخلية لعُمان منذ استيلائهم على واحة البريمي عام ١٧٩٥/١٢١٠، التي أصبحت المعقل الرئيسي لعملياتهم الحربية والسياسية[٣٦]، التي استطاعوا من خلالها ومن خلال نشاط أميرهم الوهابي فيها، مطلق المطيري، دفع معظم القبائل المذكورة سابقاً إلى الخضوع لهم والإيمان بدعوتهم. ولقد استفادوا من وجود الصراع الداخلي إن بين أمراء أسرة آلبوسعيد أنفسهم، أو بينهم وبين مؤيديهم، واستفادوا من غضب الإباضيين من تزايد نفوذ الجبور، أخوال آلبوسعيديين، عند سلطانهم بن أحمد وعند أخيه سيف. وكان الجبور زعماء الغافريين والنزايين الذين اتهموا باعتناق الوهابية[٣٧].

٢- رجحان القوة العسكرية للسعوديين وحلفائهم على هذه القوة لسلاطين عمان.

٣- عدم وجود الدعم الخارجي الذي كان من المفروض، حسب طبيعة أطراف الصراع ومجراه، أن يُقدّم من ثلاث قوى: القوة الأولى هي العربية المتواجدة في الخليج والمعادية للسعوديين، والمتمثلة بعرب الأشراف وبني خالد والعتوب. وقد

رأينا كيف أخضعوا معظم فئات هذه القوة، وكيف أجبر العتوب على الامتثال لطلب الأمير سعود في الإسهام في تهديد إمام مسقط، بدر بن سيف الذي خلف السلطان سلطان بن أخيه بعد موته عام ١٢١٩/١٨٠٤[٣٨]، والذي لم يكتف السعوديون باعتناقه للدعوة الوهابية، وإنما أرادوا خضوعه التام لهم. والثانية هي قوة والي بغداد العثماني كممثل للسلطنة العثمانية، وقد غابت كليّاً عن الساحة السياسية في الخليج في هذه الفترة. والقوة الثالثة هي قوة إنكلترا، التزاماً بمعاهدتي ١٢١٣/١٧٩٨ و١٢١٥/١٨٠٠ المذكورتين سابقاً، ولكنها تنكّرت لجميع التزاماتها ولم تقدم أيّ عون جدّي لحكام عُمان، كما رأينا، لا في معاركهم مع القواسم، ولا في محاولاتهم للاستيلاء على البحرين، ولا في صراعهم مع الفرس، ولا في حروبهم مع السعوديين، وهذا يطرح كثيراً من التساؤلات حول تحديد حلفائها الحقيقيين لا العلنيين.

إن هذه العوامل هي التي دفعت بالسلطان بدر بن سيف إلى عقد الصلح مع الأمير سعود، ودفع الأتاوة له، والسماح بإقامة وكيل سعودي في مسقط يتولى جمع رسومها، والسماح لقوة سعودية باحتلال مقاطعة بركا. لكن خضوع بدر هذا قد رفضته أسرته آلبوسعيد، فكان أن قتل واستلم مكانه ابن عمه سعيد بن سلطان في عام ١٢٢١/١٨٠٦، "وكان أميراً من أكثر الأمراء الذين أنجبتهم بلاد العرب دهاء وتحرراً وثقافة"[٣٩]. والعوامل المذكورة أيضاً هي التي سببت هزيمة السلطان سعيد، وهزيمة عمه قيس معه، في حربهما مع تحالف السعوديين والقواسم وأتباعهم ممن اعتنق دعوتهم، ومنهم خالهما محمد بن ناصر الجبري الذي اتهمه سعيد بأنه هو الذي قتل ابن عمه بدر، وذلك بعد معركة خورفكان على ساحل خليج عُمان في عام ١٢٢٣/١٨٠٨. ويذكر ابن بشر أنه بعد هذه المعركة "صار جميع عُمان تحت ولاية سعود"[٤٠]، حيث استغلّ قائده مطلق المطيري انتصاره للتوغّل داخل عُمان. مع ذلك لم يستسلم سعيد بن سلطان للنفوذ السعودي[٤١]، وإنما بذل مساعيه لدى الحكومة الإنكليزية في الهند لتمدّه بالمساعدة العسكرية، ولكن دون جدوى[٤٢].

والمساعدة الرمزية التي قدّمها له الأسطول الإنكليزي في حملة عام ١٨٠٩/١٢٢٤ في ميناء شناص، والتي انسحب بعدها كما رأينا، أضرّته أكثر مما نفعته، حيث دفعت القوات السعودية إلى محاربته وهزيمته ثانية.

ومرةً أخرى لم يستسلم وظلّت الحروب سجالاً بينه وبين السعوديين. وفي عام ١٨١١/١٢٢٦ انضمت حملة سعودية بقيادة أبناء سعود الثلاثة، تركي وناصر وسعد، إلى قوات مطلق المطيري، وتمكنت من الاستيلاء على مطرح وخلفان وجعلان وصور وصحار وكثير من المناطق الأخرى وسلبوا كثيراً من الأموال[٤٣].لم يكن الأمير سعود راضياً عن تصرف أولاده هذا، الذي لم يكن بعلمه[٤٤]، وسحب قائده مطلق المطيري من عمان عقاباً له، لكنه ما لبث أن اضطر إلى إرساله إليها مرة ثانية لإخماد اضطرابات القبائل التي ثارت ضدّ آل سعود بسبب أعمال العنف الحربي التي كان أولاده قد مارسوها في حملتهم المذكورة، والتي تركت أثراً سيئاً في نفوس كثير من سكان عُمان.

أما عدم رضاء سعود عنها فكان بسبب توجهه إلى أن يعبئ قواته لمواجهة الخطر المصري-التركي القادم[٤٥]لحملة محمد علي باشا التي وصلته أنباء قدومها القريب إليه. وقد يكون عدم رضائه عائداً أيضاً إلى حرصه على عدم إغضاب الإنكليز، فاتفاقيته معهم على ما يبدو كانت على أساس إخضاع سلطان مسقط سلمياً، وبشكل لا يسيء إلى صداقتهم معه، من جهة، ولا يدفعه إلى التحالف مع الفرس والاستنجاد بهم، من جهة أخرى.

لا شك أن وصول مبعوث الأمير سعود إلى هذا السلطان للتفاهم معه على ما يرضيه في عام ١٨١١/١٢٢٦ نفسه، يفسر تراجعه عن الاستعانة بالفرس. لكن السبب الأساسي لهذا التراجع من قبل سلطان مسقط هو حرصه على الاحتفاظ برضاء بريطانيا ليستطيع ضمان الأمن لأسطوله التجاري في مساعيه الناجحة في تشكيل إمبراطوريته الواسعة في شرقي وأواسط أفريقيا، والتي جعل مركزها زنجبار

عام ١٢٤٥/١٨٢٩، والتي نجح في زراعة القرنفل فيها فتحوّل إلى مادة تجارية رابحة جداً[٤٦]. وأكد المستكشف البريطاني بورتون (BURTON)، دور هذه السلطنة العربية في حركة الكشوف في أفريقيا[٤٧].

إن ما حدث في منطقة ظفار في بداية القرن التاسع عشر يشير إلى مقدار تمسك هذا السلطان بالحفاظ على علاقاته الودية مع البريطانيين، فقد استولى على هذه المنطقة قرصان محترف وتاجر رقيق اسمه محمد بن عقيل العجايبي (١٢١٩/١٨٠٤ـ١٢٤٥/١٨٢٩). انطلق ابن عقيل هذا من ميناء صلالة في نشاطه الواسع الذي وصل إلى مدخل البحر الأحمر حيث أقام مركزاً له في جزيرة قمران بالتعاون مع شيخ اللحيّة. وتخوف البريطانيون من اتساع نفوذه المستقل عنهم، فأرسلوا حملة في صيف عام ١٢٢٢/١٨٠٧ احتلت قمران وحملت شيخ اللحيّة أحمد على وقف تعاونه مع ابن عقيل الذي هرب إلى السلطان سعيد في مسقط، فألجأه ورفض تسليمه إليهم. وعلى الرغم من قيامهم بمضايقته بشكل واضح فقد أصرّ على تأكيد صداقته لبريطانيا، رغم أنها تعمل، كما كان يردّد حرفياً على "إحراجي والحطّ من كرامتي"[٤٨]. إلاّ أنه لم يتخلّ عن صديقه ابن عقيل وأعاده إلى حكم ظفار. وسنتابع متغيرات العلاقات العمانية – البريطانية من خلال تتبعنا لأوضاع عُمان في فترة الوجود المصري الأولى.

ثالثاً)– إقليم البحرين من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:

I – العتوب من الوحدة إلى التفكك:

رأينا هجرة فئات العتوب الثلاث إلى الكويت، وكيف حصلت على القبول العثماني في وجودها فيها في ظلّ تبعيتها لبني خالد، الذين كان سلطانهم ثابت الأركان ومتمركزاً في يد شيخ واحد حتى وفاة أميرهم سليمان بن محمد آل حميد في عام ١١٦٥/١٧٥٢، حيث تصاعد الخلاف بين الأمراء المتنافسين ليؤدي إلى

ضعف هيبة ونفوذ حكمهم، مما أتاح للعتوب، كما أتاح لغيرهم من القبائل التي كانت منضوية تحت هذا الحكم، التمتع بنوع من الاستقلال الداخلي. وكان أن اتفقت أسرهم الثلاث على توزيع النفوذ والسلطة ومجالات العمل فيما بينها[٤٩]: فتولّت أسرة آل الصباح شؤون الحكم، وتولّت أسرة آل خليفة شؤون التجارة، وتولت أسرة الجلاهمة شؤون البحر بما فيها استخراج اللؤلؤ وصيد السمك.

أول حاكم من آل الصباح كان صباح بن جابر، اختاره العتوب لأنه "كان أعقلهم وأحسنهم سيرة وأقربهم لاتباع الحق" كما يؤكد الشيخ القناعي[٥٠]. وهو الذي أسهم بحسن تدبيره وسياسته، وبالإضافة إلى الأسباب الأخرى التي سنراها لاحقاً، في ازدهار الكويت الكبير. وهو الذي بنى أول سور فيها عام ١١٧٤/١٧٦٠، بعد أن أدرك زعزعة نفوذ آل خالد وعدم امتلاكهم منذ ذلك الحين للقوة الدفاعية الحامية لهم، كما أنه عمل على تزويدها بالقوة البحرية.

وإن وحدة العتوب في ظلّ حكمه وحكم ابنه بعده، إضافة إلى علاقات التحالف التي حرص كلاهما على استمرارها مع بني خالد، وبالإضافة إلى علاقات الودّ التي أقاماها مع والي بغداد وحاكم البصرة العثمانيين، قد مكنتهما من النجاح في الدفاع عن الكويت ضدّ الطامعين فيها بعد ازدهارها في هذه الفترة. لا يعرف بالضبط تاريخ وفاة الشيخ صباح، وبالتالي تاريخ استلام ابنه عبد الله لشؤون الحكم بعده، فبعضهم يحدده في عام ١١٧٦/١٧٦٢، والبعض عام ١١٩٠/١٧٧٦، وآخرون فيما قبل عام ١١٨٨/ ١٧٧٤[٥١]. وعليه رأينا أن نستخدم في حديثنا عنه في هذه الفترة تعبير "شيخ آل الصباح" أو "شيخ الكويت"، بدلاً من "حاكم الكويت"، وذلك حرصاً على الدقة.

أول الطامعين بالكويت بعد ازدهارها كان عرب بني كعب حكام عربستان في السواحل الشمالية الشرقية من الخليج، ولقد حاولوا احتلالها في عام ١١٨٠/ ١٧٦٦ فكانت موقعة الرقة بينهم وبين العتوب بزعامة شيخ آل الصباح، بالقرب من

جزيرة فيلكا. ورغم انتصار العتوب فإن الشيخ صباح قد عقد صلحاً مع بني كعب أساء فيه استغلال هذا الانتصار، فخرجت بنوده لصالحهم، وهم المنهزمون، أكثر من أن تكون لصالح العتوب المنتصرين، ممّا أغضب آل خليفة، وأسهم بالتالي في دفعهم إلى الانشقاق عن إخوانهم، ثم الهجرة من الكويت إلى الزبارة في قطر في العام المذكور نفسه. ولا شك أن توقهم إلى النفوذ والاستقلالية بحكم أنفسهم، بعد حصولهم على الثروة، قد لعب دوراً أساسياً في هجرتهم.

وبعد فترة قصيرة جداً قام الصباح بالامتناع عن مقاسمة موارد الكويت مع الجلاهمة، وطردهم منها، فلجأوا إلى آل خليفة في الزبارة، فرحبوا بهم، وعينوا لكل شيخ من شيوخهم، حسب منزلته، دخلاً يكفيه، لكنهم سرعان ما سوف يستقلّون بأنفسهم أيضاً كما سنرى. وهكذا تصدّعت وحدة العتوب، وبدأت مسيرة الحياة المنفصلة لأسرها الثلاث في هذه المرحلة الممتدة حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/ ١٨١١، والتي عكست متغيراتها تطور تاريخ إقليم البحرين فيها عموماً، مما يفسّر متابعتنا له من خلال دراستنا لها[٥٢]. وسنرى كيف "تمكّن بنو كعب وجيرانهم العتوب أن يكونا سادة على السواحل الشمالية من الخليج، كما كان القواسم وبنو ياس واليعاربة وآلبوسعيديون سادة على القسم الجنوبي...ويعني ذلك أنّ الخليج بسواحله الشرقية والغربية منطقة نفوذ عربية"[٥٣].

II – آل الصباح والكويت حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:

عدة عوامل قادت إلى نجاح آل الصباح ببناء دولتهم المستقلة في الكويت وزادت في ازدهارها التجاري في هذه الفترة: العامل الأول كان حسن إدارة الشيخ صباح وابنه عبد الله لشؤون الحكم والتجارة. والثاني هو موقعها الجغرافي المتميز على الطريق التجاري بين الخليج وسوريا–الشام، ممّا جعل ميناءها، مثله مثل ميناء البصرة، وسيطاً مهماً لنقل البضائع التجارية بين الغرب والشرق عن طريق الخليج فحلب. والثالث كان فضل قوة ونفوذ ودعم حلفائهم آل خالد[٥٤]في فترة قوتهم، ثم،

وبعد قيام السعوديين بضربهم، اضطرار آل الصباح إلى الاعتماد على ضرورة تكوين قوتهم الذاتية العسكرية التي أسهمت في حماية حركة التجارة في الكويت. والرابع كان انشغال القوى المعنية بالخليج بمشكلاتها الداخلية وحروبها فيما بينها.

والخامس كان احتلال الفرس للبصرة في عام ١١٩٠/١٧٧٦، والذي استمر ثلاث سنوات، ووقف آل الصباح موقفاً عدائياً منه. وقد أسفر عن نتيجتيْن مهمتين: الأولى هي الانتعاش الواضح في تجارة الكويت نتيجة لتحوّل الطريق التجاري بين الهند وبلاد الشام والعراق والغرب من البصرة إليها نتيجة لجمود حركتها بسبب حصارها والقتال فيها. والنتيجة الثانية هي قيام العلاقات المباشرة بين الكويت ووكالات شركة الهند الشرقية البريطانية التي أخذت تدعوها في مراسلاتها بـ "القرين"(٥٥). ومنذ ذلك الحين أخذت تتنامى هذه العلاقات الودية والتجارية أكثر فأكثر، مقابل ازدياد الخلافات ما بين الوكالة البريطانية في البصرة وما بين والي بغداد، ممّا يفسّر نقل الوكالة كلياً فيما بعد، أي في عام ١٢٠٧/١٧٩٢، من البصرة إلى الكويت، وما تبع ذلك من دعم بريطاني لحكامها من آل الصباح.

العامل السادس في تصاعد ازدهار الكويت كان ضرب الأمن وحركة التجارة في الموانئ المنافسة الأخرى لها، الزبارة والقطيف والعقير، بسبب الغزوات السعودية المتواصلة على الإحساء، ممّا أدى إلى تحوّلها إلى ميناء الكويت. والسابع كان نجاح العتوب من آل خليفة في السيطرة على البحرين في عام ١١٩٧/١٧٨٣، كما سنرى، ممّا نتج عنه مزيد من النشاط التجاري للكويت مع حلفائهم هؤلاء، إذ أسفر عن اشتغال آل الصباح في تجارة النقل واستيراد البضائع في مسقط والزبارة والقطيف والبحرين(٥٦).

العامل السابع تعلّق بجهود حكامها في المحافظة على علاقات حسن الجوار مع جميع قوى الخليج العربي. كانت هذه العلاقات ودّية سواء مع عرب عربستان من بني كعب وغيرهم، والذين وإن طمعوا فترة في احتلال الكويت إلاّ أنهم "وقفوا

حائلاً دون حدوث تعدّيات فارسية ناجحة(٥٧)، وسواء مع العثمانيين ممثلين بحاكم بغداد. وكان آل الصباح يحرصون على عدم المجابهة الصدامية مع العثمانيين في ادعاءاتهم حول تبعيتهم لهذا الوالي ولهم، وكانوا يتجاهلون مطالبه بالتبعية له حيناً، ويرفضونها حيناً، ويسكتون عنها إذا ما هُدِّدوا بخطر ثالث حيناً آخر(٥٨). واستمروا على هذه الحال إلى أن قرّرت السلطنة العثمانية، كما سنرى، الاستفادة من أسطول الكويت في الدفاع عن شط العرب. وإن حرص آل الصباح على إرضائها يفسّر إسهامم في تسهيل مهمة حملة ثويني وحملة علي باشا كيخيا بغداد ضد السعوديين الوهابيين.

أما بالنسبة لعلاقة آل الصباح مع الهولنديين في الخليج العربي، فبعض المصادر تؤكد وجودها في صفتها الودية، وبعضها تؤكد تبعية الكويت لهذا النفوذ، ولو أن ذلك مستبعد لأنها كانت تابعة آنذاك لنفوذ بني خالد ولحمايتهم(٥٩). وقد رأينا علاقتهم الودّية مع بريطانيا والتي دفعها سوء صلاتها مع والي بغداد العثماني سليمان باشا إلى تحذير الشيخ صباح من الاستعدادات العسكرية التي كان يقوم بها هذا الوالي استعداداً لضرب الكويت بسبب إصراره على رفض تسليم الشيخ ثويني زعيم قبيلة المنتفق، وكان قد لجأ إليه بعد فشل معركته مع والي بغداد المذكور، وإصراره أيضاً على رفض تسليم مصطفى آغا متصرف البصرة الذي لجأ إليه بعد فشل محاولته الاستقلالية بالبصرة وفشل ثورته ضدّ العثمانيين وواليهم في بغداد. وكان يبرر رفضه هذا دائماً بحرصه على الالتزام بالتقاليد العربية.

وكان من جملة ما حرص عليه آل الصباح تحقيق العلاقات الودية حتى مع الدولة السعودية الأولى وعناصرها الوهابية، وذلك بالرغم من حملتيْها الفاشلتيْن في الاستيلاء على الكويت، عام ١٢٠٨/١٧٩٣ و ١٢١٩/١٨٠٤(٦٠). ولكن، وانتقاماً من هجوم القواسم الوهابية على السفن الكويتية وسفن البحرين، فقد تقدموا مع أخوانهم حكام آل خليفة في البحرين، عام ١٢٢٠/١٨٠٥، بطلب إلى حكومة

بومباي بالاشتراك بسفنهم في الهجوم ضدّ رأس الخيمة وملاحقة سفن القواسم متى صار في نيتها تنفيذ ذلك، مقابل أن تضمن لهم الحماية اللازمة من التدخل السعودي–الوهابي ضدّهم بعدئذ(٦١). ولكن هذه الحكومة لم توافق، والمحاولة نفسها تكرّرت عام ١٨٠٩/١٢٢٤، وكان لها النتيجة نفسها. هل صحيح أنّ رفض حكومة الهند هذا كان بسبب التزامها بتعليمات حكومة الأم في لندن بعدم التدخل في الصراعات الداخلية، وبعدم استفزاز الوهابيين وتجنب الصدام المسلح معهم، حتى لا تتأثر حركة بريد وتجارة بريطانيا في مناطق شبه جزيرة العرب؟ أم أنّ السبب كان صلات سرّية مهدت للاتفاقيات العلنية المذكورة؟

أما بالنسبة للحماية العسكرية البريطانية للكويت، بسبب وجود الوكالة البريطانية فيها، فمصادر تؤكدها، وأخرى بما فيها الوثائق الرسمية البريطانية تنفيها(٦٢). وتبقى النتيجة هي فشل السعوديين في جميع هجماتهم ضدّ الكويت، وآخرها تلك التي قاموا بها في عام ١٨٠٨/١٢٢٣ لإجبارها على الخضوع لهم. لكنهم أخذوا يشجعون بعض أتباعهم، كرحمة بن جابر شيخ الجلاهمة في خور حسن، وكابي حسان أمير الحويلة في قطر، على قتال العتوب في الكويت وجزر البحرين وعلى مهاجمة سفنهم، ووقع القتال هذا فعلاً عام ١٨١١/١٢٢٦، ولكنه انتهى لصالح العتوب(٦٣).وهكذا استمرت الكويت مستقلة عن نفوذ الدولة السعودية.

III– جزر البحرين وآل خليفة والجلاهمة وبنو خالد وقطر من تفكك العتوب حتى بداية الوجود المصري عام ١٨١١/١٢٢٦:

١– جزر البحرين وآل خليفة والجلاهمة وبنو خالد وقطر من تفكك العتوب إلى تداعيات سيطرة آل خليفة على جزر البحرين عام ١٧٨٢/١١٩٦:

رأينا كيف هاجر آل خليفة من الكويت إلى الزبارة في قطر في عام ١١٨٠/ ١٧٦٦، وكيف لحقهم بعد فترة قصيرة من الزمن أخوانهم الجلاهمة، وكيف رحبوا بهم وأكرموهم. وإن الصلات الودية التي كانت تربطهم جميعاً ببني خالد قد سهلت

عليهم موضوع قبولهم في قطر التي كانت ما تزال في ظلّ آل مسلم بوصفهم عمال بني خالد عليها، ويحكمونها باسمهم. وبدأ الزعيم الأول لآل خليفة، الشيخ خليفة بن محمد، مساعيه الحميدة في بناء دولتهم القوية والمزدهرة تجارياً في الزبارة. والعوامل المذكورة التي أدّت إلى ازدهار الكويت هي نفسها التي أدت إلى ازدهار ميناء الزبارة . ولم يكتف الشيخ خليفة بالاستفادة من لؤلئها الذي كانت تعدّ أغنى مناطق العالم به، وإنما انتهج حُسْن سياسة التجارة الحرّة بما تضمنته من إعفاء من المكوس والضرائب، حتى يستقطب أكبر عدد ممكن من التجار إليها[٦٤].

وإنّ آل خليفة، تحسباً من هجوم قريب متوقّع من آل مسلم الذين استغلوا انشغال بني خالد بحروبهم مع السعوديين من أجل الانفراد والاستقلال بحكم قطر، والذين استاءوا من امتناعهم عن دفع الجزية لهم، وتحسباً من هجوم مستقبلي من السعوديين ومن غيرهم من الطامعين بالزبارة بعد ازدهارها التجاري، قد حرصوا على تحصينها ا تحصيناً قوياً، فبنوا السور وقلعة مرير وغيرها في عام ١١٨٢/١٧٦٨[٦٥]، بالإضافة إلى بناء قوتهم البحرية أيضاً.

لكن التهديد والتهجم عليهم أتاهم من داخل الزبارة، من إخوانهم الجلاهمة بزعامة شيخهم جابر الجلهمي الذي لم يقنع بالهبات التي قدمها آل خليفة له ولأتباعه وطلب المزيد، وحين رفض طلبه أدرك أنه لم يعد مرغوباً بوجوده فكان رحيله وقومه إلى الرويس الواقعة على مسافة قصيرة شرقي الزبارة. ولا شك أن توقه للحكم والاستقلالية قد لعب دوراً هاماً في خروجه هذا، ممّا يفسّر سرعته في بناء دولته وفي تشكيل قوته البحرية الخاصة التي أخذت تمارس القرصنة وخاصة ضدّ سفن آل خليفة،بحيث أصبحت هاجساً يقلق أمنهم. وإن التفوق العسكري لآل خليفة هؤلاء، بالإضافة إلى مقتل شيخ الجلاهمة، يفسّر انتصارهم الساحق عليهم[٦٦].

وكان من الممكن لصراع آل خليفة مع الجلاهمة أن يستمر مع بقاياهم بزعامة شيخهم الجديد رحمة بن جابر، لولا ظهور طرف آخر أشدّ خطراً أخذ يهدّد جميع العتوب عام ١١٨٩/١٧٧٥، دافعاً إياهم إلى الاتحاد من جديد وتناسي الخلافات

والأحقاد، وهو خطر تحالف عرب عربستان، أي عرب بني كعب ومركزهم الدورق، مع عرب بوشهر وعرب بندر ريق، والذين اتفقوا من أجل القضاء على دولة عتوب آل خليفة في الزبارة لتصاعد أهميتها التجارية ولاحتكارها لجزء كبير من تجارة الخليج العربي. ومما زاد من العداوة بين الطرفين قيام حكامهما باستغلال الحقن والتعصب المذهبي في حشد أنصارهما، بالإضافة إلى موقفهما المتناقض آنذاك من القتال العثماني الفارسي حول البصرة عام ١١٨٩/١٧٧٥، فبينما وقف الطرف الأول مع فارس فقد وقف الطرف الثاني مع العثمانيين ومع واليهم على البصرة(٦٧). واستمر الصراع وتصاعد بعد وضوح تطلع آل خليفة للاستيلاء على جزر البحرين.

ونجحوا في الاستيلاء عليها عام ١١٩٦/١٧٨٢، فكان أن سمّي الشيخ أحمد بـ "أحمد الفاتح" نظراً للدور البطولي الذي لعبه في هذا النجاح (٦٨). تختلف الروايتان العربية والفارسية(٦٩) حول تقييم هذا الحدث ومدى بمشروعيته، ولن نتوقف عندهما منعاً من التكرار حيث سيتمّ الحديث عنهما في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ونكتفي هنا ببيان أنّ نجاح آل خليفة قد أتى نتيجةً لاستغلالهم لظروف الفوضى والتفكك التي كانت تعيشها السلطة في فارس إثر اغتيال الشاه كريم خان الزندي عام ١١٩٣/١٧٧٩، ونتيجةً للمؤازرة التي قدموها لهم آل الصباح والجلاهمة وغيرهم وخاصة من القبائل المنتشرة في قطر(٧٠).

٢- جزر البحرين وآل خليفة والجلاهمة وبنو خالد وقطر منذ عام ١١٩٦/ ١٧٨٢ حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:

أبقى الشيخ أحمد مركز حكمه في الزبارة، وعيّن على جزر البحرين عاملاً لها ليديرها باسمه، وجعل يتنقل ما بين المنطقتيْن إلى أن توفي عام ١٢٠٩/ ١٧٩٤، واستلم ولداه سليمان وعبد الله الحكم بعده، فاتفقا على المشاركة فيه وعلى أن تكون مدينة الرفاع مركزاً لأحدهما وجزيرة المحرق مركزاً للآخر.إن نجاح عتوب آل خليفة في فتح جزر البحرين ذات الغنى العظيم، وخاصة باللؤلؤ، وذات الموقع الجغرافي

المهم، وما أعقب ذلك من نجاح تجاري وسياسي لهم، قد جلب إليهم منافسات وعداوات لم يكن لها وجود قبل هذا الفتح. فبالإضافة إلى عداوة والي بغداد العثماني، وعداوة الفرس، وعداوة عرب بوشهر وبندر ريق وبني كعب، فقد برزت عداوة الشيخ راشد حاكم رأس الخيمة وابنه، وعداوة الشيخ عبد الله حاكم هرمز وعداوة سلطان مسقط، وكذلك عداوة السعوديين التي تصاعدت نتيجة للجوء قبائل من بني خالد إليهم. وبينما كان الحضر من هذه القبائل يلجؤون إلى الزبارة والمناطق الساحلية التي لم يكن الوهابيون قد فتحوها بعد[٧١]، فإن البدو منها كانوا يتجهون صوب أراضي الكويت شمالاً.

وقبل الخوض في هذا الصراع بين العتوب والسعوديين وبني خالد نقف قليلاً عند عداوة أخرى عانى منها آل خليفة كثيراً، وهي عداوة الجلاهمة. كان هؤلاء الجلاهمة يتوقعون، وقد أسهموا بمشاركة فعّالة في فتح جزر البحرين، أن يخصص لهم جزء منها ينزلون فيه، لكن آل خليفة تنكروا لهم، فغادروا قطر غاضبين وسكنوا فترة في جزيرة خارج وفي ميناء بوشهر، ثم عادوا إلى قطر حيث استقروا في خور حسن بدلاً من الرويس، وأخذوا يمارسون القرصنة من جديد، وبقيادة شيخهم رحمة بن جابر، الذي أصبح "السوط المسلط على آل خليفة"[٧٢]، وتحالفوا مع أعداء هؤلاء من عرب الساحل الإيراني، ومن القواسم، كما تحالفوا مع سلطان مسقط وأعانوه على ضمّ البحرين وعلى أسر عدد من آل خليفة عام ١٢١٥/١٨٠٠. ولم يغفلوا التعاون مع السعوديين أيضاً كما سنرى.

رأينا كيف سيطر السعوديون على الإحساء وقضوا على حكم وقوة بني خالد فيها، وضمّوها إلى دولتهم، وجعلوها مركزاً لانطلاقهم في الخليج العربي ضدّ عُمان وعتوب الكويت والبحرين. وإنهم إذ فشلوا في إخضاع الكويت كما رأينا، فإنهم نجحوا منذ عام ١٢٠٩/١٧٩٤ في إخضاع قطر على يد حلفائهم آل عفيصان، وفي إخضاع الزبارة ثم جزر البحرين. وكانت قواتهم بقيادة أميرهم سعود قد

حاصرت الزبارة في عام ١٧٩٨/١٢١٣، فقرر أهلها من آل خليفة وعلى رأسهم شيخهم سليمان بن أحمد أن يهاجروا منها استناداً إلى قناعتهم "بأن دولة بني سعود لن تدوم وأنهم سيعودون إليها، فركبوا بأجمعهم وساروا إلى البحرين"[٧٣]. وكان أن استولت القوات السعودية على ميناء الزبارة وقد هجر كلياً، ولم يلبث أن فقد أهميته التجارية أيضاً شيئاً فشيئاً بسبب قيام حكامه الجدد بإلزام التجار بدفع الضرائب العالية على بضائعهم فيه، فخفّ إقبالهم عليه، وفضلوا العودة إلى التعامل مع ميناء البصرة أو الكويت، كما ذكرنا سابقاً.

لم تبق جزر البحرين بدورها طويلاً بعيداً عن الهيمنة السعودية، إذ إن ازدهارها التجاري وتصاعد ثرواتها وعائداتها بفضل موقعها التجاري العام في منطقة تتوسط بين مضيق هرمز وشط العرب، وبفضل سياسة وخبرة حكامها العتوب من آل خليفة في المجال التجاري، وبسبب انعكاسات ظروف ازدهار الكويت والزبارة عليها قبل احتلالها من السعوديين. ازدهارها الكبير أثار مطامع كلّ من السعوديين والفرس في احتلالها. وبالطبع لم تتوقف تطلعات سلطان عُمان بهذا الشأن نفسه. ولكن ونظراً لانشغال الفرس في هذه الفترة باضطراباتهم الداخلية، فقد تركزت الجهود لاحتلالها من الطرفين العربييْن، العُماني والسعودي، وخاصة أنها لم تشهد في ذلك الحين اهتماماً أوروبياً فعلياً بها.

قام سلطان بن أحمد، سلطان مسقط، بمحاولات ثلاث للسيطرة على البحرين، في عام ١٧٩٩/١٢١٤ و١٨٠١/١٢١٦ و١٨٠٣/١٢١٨ على التوالي. فشلت المحاولة الأولى نتيجة لاستنجاد آل خليفة بشيوخ بوشهر الذين أمدوهم بالمساعدات الفارسية التي أعانتهم في ردّ قوات مسقط، التي لم تنجح إلاّ في أخذ جزيرة الخرج عام ١٨٠٠/١٢١٥، ثم اضطرت إلى إخلائها أيضاً. ولكن كان ذلك لصالح تبعية البحرين للسيادة الفارسية(٧٤). ونجحت المحاولة الثانية لسلطان في السيطرة عليها فعيّن عليها ولده سالم، وأرغم آل خليفة على مغادرتها إلى الزبارة بعد أن احتجز خمسة وعشرين شخصاً من أعيانهم في مسقط. إلاّ أنه لم يبق فيها طويلاً، حيث

تعاون آل خليفة مع القوات السعودية في الإحساء، وأجبروه على الخروج منها[٧٥]. وقد تراجع عن محاولته الثالثة بعد أن بدأ بها، بسبب خوفه من القوة السعودية التي أصبحت البحرين تابعة لها، والتي تهدد عُمان ذاتها[٧٦].

إن تبعية آل خليفة منذ ذلك الحين للهيمنة السعودية، بالإضافة إلى تخوفهم من حلفائها القواسم، وإلى حقدهم على سلطان المذكور، قد دفعهم إلى الاشتراك في الحملة السعودية التهديدية الموجهة ضدّه في عام ١٨٠٣/١٢١٨ نفسه كما رأينا سابقاً. وهذا الحقد هو الذي دفعهم بعد ذلك إلى الاتفاق مع جماعة من القواسم على اغتياله عام ١٨٠٤/١٢١٩[٧٧]. أما رفض آل خليفة للهيمنة السعودية ولممارساتها فقد دفعهم إلى التحالف مع خليفة سلطان بن أحمد في سلطنة عُمان، وهو بدر بن سيف، للتخلص منها، راضين بدفع الجزية له بدلاً من دفعها إلى السعوديين.

ونظراً لقناعة آل خليفة بضرورة إضعاف قوة هؤلاء السعوديين من خلال ضرب القوة البحرية التي كانوا يستندون إليها في الخليج العربي، وهي قوة القواسم، فقد توجّهوا وحكام آل الصباح، كما رأينا، إلى أعداء هؤلاء آنذاك، وهم البريطانيون، فتقدموا إلى حكومة بومباي البريطانية بطلبين لاشتراك سفنهم في الهجوم الذي كانت تعدّه ضدّ القوة المذكورة في رأس الخيمة كونها المركز الرئيسي لوجودها، ورفضت بريطانيا ذلك حرصاً على عدم الاصطدام بالسعوديين من جهة، وحرصاً على عدم إغضاب فارس، من جهة أخرى، والتي كانت قد قدّمت لها امتيازات كبيرة. وغضب السعوديون من موقف آل خليفة هذا، وازداد غضبهم إذ أصروا على تحالفهم مع سلطان مسقط ورفضوا طلبهم بالاشتراك معهم ومع القواسم في حملة بحرية ضدّه أو ضدّ عتوب الكويت من آل الصباح في عام ١٨٠٩/١٢٢٤[٧٨]. وإذا كان دعم وكالة شركة الهند الشرقية البريطانية قد منع السعوديين من النجاح في احتلال الكويت، فلم يكن هناك أي دعم لجزر البحرين يمنعهم من الاستيلاء عليها، فكان أن أخضعوها تماماً في نهاية عام ١٨١٠/١٢٢٥، وعيّن السعوديون

عبد الله بن عفيصان كوكيل عنهم للإشراف على شؤونها وشؤون قطر والإحساء معها[٧٩]. واتخذ عبد الله هذا من هذه الجزيرة قاعدة له، ولكن لم يستمر طويلاً، حيث كان على القوات السعودية أن تقلص من وجودها في كل هذه المناطق من أجل استجماع قواها استعداداً للتصدي لقوات محمد علي القادمة إلى الحجاز.

واستغل عتوب آل خليفة انسحاب القوات السعودية من أجل استعادة استقلالهم، فوحّدوا قواهم التي كان السعوديون قد بعثروها ما بين الدرعية والزبارة وجزر البحرين، ثم استنجدوا بإخوانهم عتوب آل الصباح وبسلطان مسقط، وكان أن نجحوا في طرد بقايا السعوديين منها واستعادوا حكمهم المستقل فيها. وأصرَّ آل خليفة على عداء السعوديين على الرغم من أنهم طلبوا مهادنتهم، وبادروا بإطلاق جميع المعتقلين منهم لديهم وسمحوا لهم بالعودة إلى البحرين. وكما شجع السعوديون من بعيد قراصنة الجلاهمة بقيادة رحمة بن جابر، وقراصنة أمير الحويلة في قطر، أبي حسان، على ممارسة القرصنة ضدّ سفن عتوب الكويت وعلى قتالهم، فقد لعبوا الدور نفسه بالنسبة لعتوب البحرين. ولقد رأينا كيف انتهت المعركة البحرية الهائلة بين هذه الأطراف، والتي ذهب ضحيتها الكثير من الأنفس والسفن، لصالح العتوب[٨٠]. ولقد عجز السعوديون عن فرض سيطرتهم على جزر البحرين وغيرها بعد ذلك بسبب انشغالهم بحروبهم ضدّ قوات محمد علي، فكان أن خلص حكمها لفترة من الزمن لعتوب آل خليفة تماماً.

أما بالنسبة لقطر التي ظلت معتبرة في هذه الفترة كجزء من الإحساء في إقليم البحرين، كما رأينا، فإنّ الصراع الرئيسي في أوساط قبائلها كان ما بين أنصار آل خليفة من جهة، وما بين الجلاهمة وأنصارهم من جهة أخرى. ولقد تحالف هؤلاء الأخيرون مع الدولة السعودية الأولى مقدمين إليها الدعم البحري الذي ساعدها إلى حدّ كبير في نجاحها في توسيع نفوذها ليشمل شواطئ الإحساء وقطر نفسها وجزر البحرين[٨١]. وتذكر وثائق بومباي أن السعوديين وحّدوا كلاً من قطر والقطيف

وجزر البحرين في دائرة واحدة عينوا عليها عاملاً واحداً هو عبد الله بن عفيصان كنائب للأمير السعودي فيها(٨٢). وبينما يهمل المؤرخون العرب الحديث عن معظم مناطق قطر، فإنهم يهتمون إلى درجة كبيرة بأحداث منطقتي الزبارة وخور حسان فيها، الأولى لارتباطها بعتوب آل خليفة، والثانية لأنها مركز العتوب الجلاهمة. ولقد استطاع السعوديون في فترة إخضاعهم للزبارة ولقطر عموماً في توجيه الكثير من قبائلها، وأبرزهم ضدّ حكام جزر البحرين من آل خليفة، فكان نشاطهم العدائي ضدّهم، وكان توجههم بالتالي للاستقلال عنهم، والذي سنتابع تطوره لاحقاً في فصلنا القادم.

****

هوامش الفصل الخامس

---

(١)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٢٥٣، و: AICHISON, op. cit., vol. 7, p. 352.

(٢)- أبو حاكمة، محاضرات...، ص ١١٩، و MILES, op. cit.,vol.2, p. 269.

(٣)- حول القواسم والخليج وعُمان في هذه الفترة راجع لوريمر،مصدر سابق، جزء ٢، ص٩٦٧ وما يتبع و:
Bombay Government: Selection from the Records of Bombay Government. Historical Sketsh of Joasmee Tribes of Oman 1747-1853, vol. XXIV Bombay, 1856; and Bombay Govt. Historical Sketsh of the Wahabee Tribes of Arab from the year 1798-1818 by Francis Warden, vol. XXIV, Bombay, 1856, p. 31.
وانظر وثائق الحكومة السعودية: العرض التاريخي لمشكلة البريمي بين مسقط وأبو ظبي، القاهرة، ١٩٥٥، الجزء الأول، ص١٧٧، والتحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط و"أبو ظبي" وبين المملكة العربية السعودية، جزء ١، ومحمد مرسي عبد الله، المرجعان السابقان، وعبد الأمير محمد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، بغداد، ١٩٦٦،وصالح العابد، مرجع سابق، وقاسم، الخليج العربي...، وابن رزيق، المصدر السابق.

(٤)- انظر مصطفى عقيل، سياسة إيران في الخليج العربي، الدوحة، ١٩٨٧، ص ١٠٦.

(٥)- Bombay Government, S.R.B.G. vol. XXIV, Boo Felasa Tribe, Debaye, 1856, pp. 497-507.

وانظر كل المراجع بالعربية في الهامش رقم ٩، بالإضافة إلى جمال زكريا قاسم، إمارات قديمة ودولة حديثة،دولة الإمارات العربية المتحدة، معهد البحوث بالقاهرة، ١٩٧٧.

(٦)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٢٥٨.

(٧)- راجع حول ما سنذكره عن تاريخ أبو ظبي: Magor Clarence MANN, Abu Dhaby, Birth of an oil Sheikhdom, London, 1954.

(٨)-قاسم، الخليج العربي...، ص ٢٥٧.

(٩)- راجع ابن رزيق، مصدر سابق، ص٣٥٠-٤١٥. حول دولة بوسعيد بشكل عام، راجع المصدر نفسه، ص٤١٥ وما يتبعها، وجمال زكريا قاسم، بوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا، القاهرة، ١٩٦٧، ولوريمر، مصدر سابق، جزء٢، ص٦٤٤-٦٦٠. وهامش رقم ١١.

(١٠)- قاسم، الخليج العربي...، ص٢٥٩.

(١١)- العقاد، التيارات...، ص٥١.

(١٢)- ابن رزيق، المصدر السابق، ص٣٧٠-٣٧١. وانظر:

Bombay Govt., S.R.H.B., of the Rise and Progress of the Government of Muscat, vol. XXIV, Bombay, 1856, p. 172.

(١٣)- قاسم، الخليج العربي...،ص١٤٦-١٤٧،ولوريمر ،مصدر سابق، جزء٢،ص٦٦٠-٦٦١

(١٤)- العقاد، التيارات...، ص٥١.

(١٥)- المرجع نفسه، ص٥٢.

(١٦)- راجع لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٦٦١-٦٨٣.

(١٧)- انظر الرسالة في قاسم، الخليج العربي...، ص١٨٧ و:

Jan SKEET, Muscat and Oman, London, 1975, pp. 213-214.

(١٨)- أوردها مصطفى أبو حاكمة في كتابه: الكويت...، جزء أول، قسم ثاني، ص٩٧-٩٨.

(١٩)- سيد نوفل، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي، القاهرة، ١٩٦٦، جزء٢، ص٥١.

(٢٠)- مرسي عبد الله، إمارات الساحل...، ص١٤٢.

(٢١)- جون كلي، بريطانيا والخليج، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٩٧٩، الجزء الأول، ص١٦١-١٦٢.

(٢٢)- MILES, op. cit., VOL. 2, pp. 289-297.

(٢٣)- Cf. S.R.B.G. Muscat, by F. Warden, 1819, p. 174.

(٢٤)- MILES, op. cit., VOL. 2, p. 288 and 311; WILSON, op. cit., p. 202.

(٢٥)- قاسم، الخليج العربي...، ص٢٨٠.

(٢٦)- ابن رزيق، المصدر السابق، ص ٥١٧-٥١٨.

(٢٧)- قاسم، الخليج العربي...، ص ٢٨٣-٢٨٤.

[28]- MILES, op. cit., VOL. 2, p. 314 ff.

[29]- راجع لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩٩٤.

[30]- قاسم، الخليج العربي...، ص ٢٨٣-٢٨٤.

[31]- انظر عبد العزيز عبد الغني: علاقة ساحل عُمان...، ص١٦٨.

[32]- قاسم، الخليج العربي...، ص ٢٨٤-٢٨٥. وللاطلاع على النصّ الأصلي انظر وثائق الحكومة السعودية: التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط و"أبو ظبي" وبين المملكة العربية السعودية- عرض الحكومة السعودية، الجزء الأول، ص ١٢٩، و:

James, MORIER, A Journey through Persia, Armenia and Asia Minor to Constantipole 1809, London, 1919, pp374-379.

[33]- MOURIZI., op. cit., p. 67. ولوريمر، مصدر سابق، جزء ٢، ص٩٨٣ وما يتبع.

[34]- قاسم، الخليج العربي...، ص ٢٨٥-٢٨٦.

[35]- انظر تقرير واردن حول الوهابيين في أبو حاكمة، الكويت...، ص١٨٨-٢٠٠.

[36]- أمين سعيد، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، بيروت،١٩٦٥، ص٤٩.

[37]- غرايبة، تاريخ...، ص٩٣.

[38]- ابن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٣١، ولوريمر، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٦٨٤-٦٨٨.

[39]- وندل فيليبس، تاريخ عُمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الثالثة وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٤٠٩هـ، ص١٠٢.

[40]- ابن بشر، مصدر سابق، جزء أول، ص١٤٢.

[41]- انظر حروبه معهم في لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٦٩٠-٦٩٧.

[42]- العقاد، التيارات...، ص ٨٢، وعبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٢٦٨-٢٦٩.

[43]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص١١٤.

[44]- ابن رزيق، المصدر السابق، ص٥١٥.

[45]- جون كلي، المرجع السابق، ص٢١-٢١١.

[46]- فيليبس، المرجع السابق، ص١٠٢-١٤٣.

[47]- Richard BURTON, Zanzibar, City, Island and Coast, vol. I, p. 34.

[48]- غرايبة، تاريخ...، ص٩٧.

[49]- الدباغ، قطر...، ص١٧٣، ووهبة، المرجع السابق، ص٨٢ و٩٩.

[50]- الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، صفحات من تاريخ الكويت، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٥٤، ص٩-١٠.

[51]- قاسم، الخليج العربي....، ص٣٩٣.

Damascus University

(٥٢)- راجع: Bombay Govt. S.R.B.G., other Information Connected with the Province of Oman, Muscat, Bahrein and other places in the Persian Gulf, New Series, vol. XXIV, Bombay, 1856; AITCHISON, op. cit.; ووثائق عابدين في دار الوثائق القومية في القاهرة، الأرشيف الأوروبي، محفظة رقم ١٢. ومحمد بن خليفة النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، تاريخ البحرين، القاهرة، ١٩٢٣، وعلي أبا حسين، تاريخ البحرين من خلال المخطوطات والوثائق، أبو ظبي، ١٩٧٩

(٥٣)- قاسم، الخليج العربي....، ص ٣٨٣.

(٥٤)- القناعي، المرجع السابق، ص٩، ومحمد بن خليفة النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، تاريخ الكويت، القاهرة، ١٩٤٩، ص١٢٨-١٢٩.

(٥٥)- باسم جزيرة صغيرة قريبة من الكويت من غربها (أبو حاكمة، تاريخ شرقي....، ص٧٢.

(٥٦)- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٥٠٧.

(٥٧)- قاسم، الخليج العربي...، ص٣٨٤.

(٥٨)- كلي، المرجع السابق، ص٥٨.

(٥٩)- قاسم، الخليج العربي...، ص٣٩١، ولوريمر، مصدر سابق، جزء٣، ص١٥٠٢-١٥٠٣

(٦٠)- راجع سيف مزوق الشملان، من تاريخ الكويت، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٢٢-١٣٣.

(٦١)- أبو حاكمة، محاضرات...، ص١٧٨.

(٦٢)- قاسم، الخليج العربي....، ص٤٠٣-٤٠٥.

(٦٣)- ابن بشر، الجزء الأول، ص١٤٧-١٤٨ و١٥٤-١٥٥.

(٦٤)- قدورة، المرجع السابق، ص٤٢٨.

(٦٥)- لمع الشهاب، ص٧٦-٧٧. والنبهاني...البحرين...، ص١٢١.

(٦٦)- أبو حاكمة، محاضرات...، ص٨٨-٨٩، و:
Bombay Govt., H.S. of the Uttoobee…, vol. XXIV, p. 363.

(٦٧)- أبو حاكمة، محاضرات...، ص١٠٣.

(٦٨)- الدباغ، قطر...، ص١٧٤.

(٦٩)- انظر لاحقاً. وعلى سبيل المثال انظر الرواية الفارسية في علي رضا ميرزا محمد، أسانيد الخليج "الفارسي"، القاهرة، ١٩٧٩، الفصل الأول والثاني، صادق نشأت، تاريخ الخليج السياسي، ترجمه عن الفارسية وحققه الدكتور أحمد كمال حلمي وبدر الدين عباس، الكويت، ١٩٧٢. وحول الرواية العربية انظر جمال زكريا قاسم، "الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي"(من أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بغداد، ١٩٧٣)، والعقاد، التيارات السياسية...، ص١٤٣.١٥٤. وأحمد محمود صبحي، البحرين ودعوى إيران، الاسكندرية، ١٩٦٢.

(٧٠)- قاسم، الخليج العربي...، ص٤٢٠.

(٧١)- أبو حاكمة، محاضرات...، ص١٤٤.

(٧٢)- راجع حول ذلك لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١١٩٨-١٢٠٤.

(٧٣)- لمع الشهاب، ص٧٨.

(٧٤)- قاسم، دولة بوسعيد...، ص٧٧-٧٨.

(٧٥)- Cf. Bombay Govt. S.R.B.G., other Information… , pp. 137 off.

(٧٦)- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٢٧٨.

(٧٧)- مرسي عبد الله، إمارات الساحل...، ص١٩٠.

(٧٨)- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٢٧٩.

(٧٩)- قاسم، الخليج العربي...، ص٤٢٤-٤٢٥.

(٨٠)- ابن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٥٤-١٥٥، وأمين الريحاني، ملوك العرب، بيروت، ١٩٢٤، الجزء الثاني، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٨١)- Bombay Govt. H.S. of the Uttoobee..., pp. 368-369.

(٨٢)- المصدر نفسه.

****

مدخل

حول المتغيرات الدولية والعربية والإقليمية والمحلية لشبه جزيرة العرب في المرحلتين الثانية والثالثة من تاريخها الحديث:

(١١٥٨/١٧٤٥ ١٢٥٧/١٨٤١)

تمتدّ المرحلة الثانية من تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري لدولة محمد علي العربية النهضوية في عام ١٢٢٦/١٨١١، وهي موضوع الفصلين الرابع والخامس. بينما تمتدّ المرحلة الثالثة من هذا التاريخ فيما بين هذه البداية ونهاية هذا الوجود عام ١٢٥٧/١٨٤١، وهي موضوع الفصل السادس.

يمكن القول إنّ معظم المتغيرات التاريخية في هاتين المرحلتين من تاريخ بلدان شبه جزيرة العرب الحديث، إن الدولية أو العربية، ومنها المحلية المتعلقة بهذه البلدان، أو الإقليمية أي العثمانية والفارسية، قد ارتبطت بما دعي بـ"المسألة الشرقية". طُرِح هذا المصطلح لأول مرة في مؤتمر فيرونا عام ١٢٣٧/١٨٢٢، ليعبر عن واقع ملموس أقدم منه بزمن ليس قصيراً، وهو واقع ضعف الدولة العثمانية الذي كان قد بدأ منذ نهاية حكم السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤/ ١٥٦٦، ولينمو أكثر فأكثر وخاصة في هاتين المرحلتين.

بناءً على الصلة بين الشرق والغرب برز مضمونان تاريخيان أساسيان اثنان للمسألة الشرقية: أولهما عام وثانيهما خاص[١]. العام متعلق بالعلاقات بين الشرق والغرب منذ وجودهما القديم، والخاص متعلق بالتنافس بين دول الغرب الأوروبي من أجل الحصول، تحديداً، على ما يمكن من المناطق التابعة للدولة العثمانية، أو "الرجل المريض" كما دعتها روسيا[٢]. ارتبطت هذه المسألة بالكثير من المعطيات التاريخية المهمة، ونكتفي بذكر أبرزها: المعطى الأول هو الضعف العثماني ومنه الضعف العربي، من طرف، ونموّ القوة الأوروبية من طرف آخر، في شتى

الميادين الحياتية، السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية. والمعطى الثاني هو الضغوط الأوروبية المستمرة، وخاصة البريطانية والفرنسية،على الحكومة العثمانية بهدف زيادة امتيازاتها وتوسيع سيطرتها الاستعمارية في ممتلكاتها من جهة، وبهدف تحقيق عملية تغريبها سلطة وشعباً، أي تحويل انتمائها إلى الغرب الأوروبي على حساب التخلي عن انتمائها إلى الشرق الإسلامي، من جهة أخرى، وذلك بحجة مزعومة زائفة هي وحدة الانتماء "الآري الهندو- أوروبي" الذي يجمعها مع هذا "الغرب" والذي عبرت عنه فيما بعد النظرية المفبركة لليهودي الألماني شلوتزر،النظرية السامية-الحامية-الآرية، التي أكّد كثيرون كونها نظرية صهيونية[٣].

المعطى الثالث للمسألة الشرقية هو وجود توازن القوة العسكرية فيما بين الدول الأوروبية المعنية بها، والتي كان كلّ منها يحرص على تجميدها طوال وجود قناعتها بوجود هذا التوازن، ويسرع إلى تحريكها بمجرد شعوره بامتلاك القوة الفردية الضاربة التي من شأنها تزويده بحصة الأسد فيها، مما يفسر الكثير من الأزمات في هذه المسألة التي منها حملة نابليون الفرنسية على مصر وسوريا عام ١٧٩٨/١٢١٣. كما يفسر السياسة الفرنسية والروسية والبريطانية قبيل هذه الحملة وبعدها، وخصوصاً ما تعلق منها لدى بريطانيا ببروز مسألة حماية طريقها إلى الهند عبر شواطئ المتوسط وشبه جزيرة العرب.

المعطى الرابع هو ارتباط هذه المسألة بالتطورات التي كانت تحدث على المستوى القومي للبلدان التابعة للسلطنة العثمانية ومنها البلدان العربية. إن استمرار تصاعد معطيات الانحدار فيها على كل المستويات، واستمرار معاناة شعوبها من ممارسات الاستبداد والاستغلال والقهر والتخلف، ومن فقدان الأمن والحريات والمساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن مساوئ الضعف والحرب المستمرة والتبعية ونظام الامتيازات الأجنبية التي ضربت الاقتصاد الوطني كلياً، ومساوئ نظام الملل والطوائف وقتل الإبداع وتحريمه، وإصرار السياسة العثمانية والأوروبية صاحبة هذه الامتيازات على محاولات تعميق عوامل التفرقة والصراعات

الدينية والمذهبية في صفوفها، قد أدى إلى تصاعد حركة التحرر الوطني واليقظة القومية داخل بلدانها، والذي كان من أهم تجلياته في الوطن العربي دولة محمد علي العربية النهضوية التي خططت بريطانيا وقادت التآمر الغربي والدولي الاستعماري للقضاء عليها كما سنرى..

لقد شكّل هذا التصاعد التحرري العربي أحد أهم مظاهر أزمات المسألة الشرقية المتأخرة الأكثر خطراً، إن بالنسبة للحكومة العثمانية أو لقوى الغرب الأوروبي الاستعمارية الكبرى، فكان أن خططّت هذه القوى منذ ذلك الحين لتشويه الهوية الوطنية والقومية العربية بتشويه المضامين الإنسانية الحضارية للعروبة والإسلام أولاً، من خلال توظيف وتوجيه عمل المؤسسات الاستشراقية المرتبطة بما دعاه غارودي ثلاثية "لاهوت السيطرة"[٤]، أي سيطرة لاهوت السلطة والمال والدين الذي هو القناع المحرّك لهذه السيطرة، ولتضعفها من خلال الفصل ثانياً بين رابطتي العروبة والإسلام لتحوّل تلاحمهما التاريخي الحضاري إلى تناقض وعداء وحرب، من خلال توظيف وتوجيه وتصنيع تنظيمات إسلامية تكفيرية ترسّخ تناقض الإسلام كدين عن العروبة كقومية، كالوهابية، لتبعد كلاً من الواحد عن الآخر، وتزيّف في مضامينهما لرسم صورة مشوّهة تنفّر العالم منهما، وتنسيه دورهما الإنساني الحضاري في تمدين العالم.

وكان من الواضح أن القوى الأوروبية الكبرى قد اتفقت على أن حلّ أزمة المسألة الشرقية هذه بالنسبة للقسم الأوروبي من ممتلكات الدولة العثمانية يجب أن يكون من خلال تحريرها واستقلالها، مما يفسر جهودها من أجل إرغام هذه الدولة بالتدريج على الاعتراف باستقلال اليونان ودول البلقان. أما حلّ هذه الأزمة بالنسبة للقسم العربي من مناطق الدولة العثمانية، والمتبقي وحده لها، فيجب أن يكون بقيامها، أي القوى الأوروبية المتنافسة عليه، بتوزيع النفوذ فيه واحتلاله بالاتفاق فيما بينها، مما يفسر اتفاقياتها السرية والعلنية بهذا الشأن.

هذا ما يقودنا إلى المعطى الأخير في المسألة الشرقية وهو ارتباطها بالوطن العربي بشكل رئيسي، مما جعله محوراً في الصراع الدولي الأوروبي وخاصة شبه جزيرة العرب التي أخذت قوى الصراع تسيطر عليها شيئاً فشيئاً، ولصالح بريطانيا بالدرجة الأولى، كما سنرى من متابعتنا لتطورات أقاليمها في كلّ من المرحلتين الثانية والثالثة من تاريخها الحديث.

رأينا الأسباب المتعلقة بتراجع القوة العثمانية وما ارتبط بها مما سمّي بالمسألة الشرقية، أما بالنسبة لأسباب تراجع القوة الفارسية، فيمكن تلخيصها بانشغالها بحروبها مع روسيا ومع الدولة العثمانية في مناطق حدودها معهما شمالاً وغرباً، وبفقدانها للقوة البحرية القادرة على مجابهة القوتين البحريتين البارزتين آنذاك، أي العربية والبريطانية، وباستغراقها في الصراعات الداخلية على الحكم بعد اغتيال نادرشاه في عام ١١٦٠/١٧٤٧ بعد أن كان قد صبّ غضبه على جميع التجار في فارس من كلّ الجنسيات(٥). وانتهت هذه الصراعات عام ١١٦٦/١٧٥٣ بالسيطرة النسبية والمؤقتة للشاه كريم خان الزندي، مؤسس حكم الأسرة الزندية، والذي فشل في توحيد فارس. واستمر الوضع المفكك لفارس حتى قيام أسرة قاجار باستلام الحكم عام ١٢١٢/١٧٩٧ على يد مؤسسها الشاه فتح علي.

ولقد استغلت أربع قوى هذا الوضع المتردي لفارس، القوة الروسية من أجل أن تحتل قسماً من مناطقها في الشمال، والقوة العثمانية من أجل أن تحاول أن تسيطر في العراق وتأخذ قسماً من أراضيها في الشرق والشمال الشرقي، والقوة العربية من أجل أن تهيمن في الخليج العربي، والقوة البريطانية مستغلة امتيازاتها من فارس ومن السلطنة العثمانية من أجل أن تهيمن عليهما، ثمّ على هذا الخليج ككلّ، وتضرب القوة العربية فيه، ونقف الآن قليلاً عند هاتين القوتين المهيمنتين.

برز الطرف الأول للقوة العربية في المقاومة العربية ضدّ الوجود الهولندي في الخليج العربي، والذي تمثل بعرب جزيرة الخرج بزعامة الشيخ مهنا بن نصر،

والمشهور بلقب المير مهنا، وكان الهولنديون قد استطاعوا احتلالها عام ١١٦٦/ ١٧٥٣ بعد أن اضطروا إلى إغلاق وكالتهم في بوشهر وبندر عباس، وعلى أن تكون نقطة وثوب لهم على البحرين أو البصرة أو غيرها من المواقع الأخرى على شواطئ الخليج العربي. ولكي يحكموا السيطرة عليها وعلى تجارة اللؤلؤ فيها استجلبوا عناصر سكانية غير عربية من هولندة ومن الصين[٦] مما صعد المقاومة العربية ضدّهم وضدّ البريطانيين الذين نجحوا في تأسيس وكالة لهم في بندر ريق عام ١١٦٨/١٧٥٥. وإن سقوط قلعة الهولنديين في جزيرة الخرج على يد حركة المقاومة المذكورة عام ١١٧٩/١٧٦٥، واستعادة عروبة سكانها قد تلاه نجاح هذه الحركة في وضع نهاية للنفوذ الهولندي في الخليج العربي بشكل عام[٧].

وكان أن برز النفوذ العربي من جديد على الملاحة فيه بزعامة مير مهنا، ممّا أثار قلق وخوف بريطانيا، خاصة وأنه كان قد استطاع إخراجها أيضاً من بندر ريق، وأخذ يطالب بعربستان حيث الوجود العربي المهيمن فيها آنذاك بزعامة بني كعب من قبيلة الأزد المعروفة في الجزيرة العربية. وكما أضعف التحالف البريطاني مع كلّ من فارس والسلطنة العثمانية القوة العربية لبني كعب في عربستان، فقد أنهى إمارة مير مهنا عام ١١٨١/١٧٦٧. ولا شك بدور الانقسامات الداخلية في ذلك أيضاً[٨]. وسنرى أنّ التحالف نفسه سيقضي على هيمنة الطرفين الآخرين للقوة العربية، طرف عرب القواسم وطرف عرب آلبوسعيد لصالح سيطرة بريطانيا.

من المفيد بيان أنّ قوة بريطانيا قد زادت بعد سيطرتها على منطقة البنغال، أغنى الأقاليم الهندية على الإطلاق، من خلال معاهدة بلاسية عام ١١٧٠/١٧٥٧ بينها وبين البنغاليين. بعدها وبعد معاهدة باريس في عام ١١٧٧/١٧٦٣، التي أتت بعد انتهاء حرب سبع السنوات بين بريطانيا وفرنسا، والتي تنازلت لها هذه الأخيرة بموجبها عن مستعمراتها في أميركا والهند معاً، اتسعت المستعمرات البريطانية في هاتين المنطقتين، فأحكمت شركة الهند الشرقية سيطرتها على البنغال، وأخذت توسع ممتلكاتها في الهند، وبدأ يتغير وضع هذه الشركة من مجرد مؤسسة تجارية

إلى سلطة سياسية. كما اتسعت المستعمرات البريطانية في كثير من مناطق العالم الأخرى فكانت الإمبراطورية البريطانية. وازدادت قوةً بعد حصولها من فارس على وكالة بوشهر في عام ١١٩٠/١٧٧٦التي غدت نواة النفوذ البريطاني الذي امتدت أطرافه إلى الخليج العربي"[٩].

وكان أن برز لدى بريطانيا شعورها بالحاجة إلى وجود عسكري وسياسي قوي لها في الهند. وزاد شعورها هذا بعد هزيمتها في حروبها مع الأمريكيين الثائرين ضدّ احتلالها لأراضيهم طلباً للاستقلال الوطني عنها (١١٩٠/١٧٧٦-١١٩٧/١٧٨٣)، وبعد خسائرها لكثير من مستعمراتها في أميركا والمتوسط والهند نتيجة لاضطرارها إلى عقد معاهدة فرساي عام ١١٩٧/١٧٨٣ التي اعترفت فيها باستقلال دولة الولايات المتحدة الأميركية التي سرعان ما باشرت في تكوين علاقات ودّية وتجارية في عمان واليمن.

وعليه، لقد أدركت بريطانيا ضرورة ترسيخ وجودها السياسي والعسكري القوي في باقي مستعمراتها في الهند، لتتمكن من مواجهة أي خطر من الممكن أن يهددها، ويهدّد بالتالي هيمنتها العالمية على التجارة الدولية. وتلبية لهذه الضرورة أصدر البرلمان البريطاني عام ١١٩٨/١٧٨٤ قانون تشكيل هيئة إدارية للإشراف السياسي والعسكري والمالي على الممتلكات البريطانية في الهند نيابة عن الحكومة البريطانية. وبعد ذلك التاريخ انتقلت مهمات إدارة النشاط السياسي من الشركة إلى الحاكم العام في الهند وإلى مجلس الوزراء في لندن. وكان ذلك تمهيداً لانتقال الإدارة من الشركة إلى الدولة، والذي سيتأخّر حدوثه إلى ما بعد ثورة الهند عام ١٢٧٤/١٨٥٧. وقسمت هذه الهيئة إدارة الهند إلى ثلاثة مراكز رئيسية، هي بومباي ومدراس والبنغال. تبعت شؤون شبه جزيرة العرب إلى الحاكم البريطاني العام في بومباي. وقد أدّت مسيرة الأحداث إلى إدراك بريطانيا أكثر فأكثر لأهمية بحارها السياسية والاقتصادية والعسكرية بالنسبة لها، وخاصة بعد المعاناة الشديدة من ثلاثة أحداث تاريخية مهمة، شكل كلّ منها تهديداً كبيراً لنفوذها ولخطوط

مواصلاتها إلى مستعمراتها في الهند، ولهيمنتها العالمية بالتالي على طرق التجارة الدولية ما بين الغرب والشرق. ونعددها هنا لنعود إلى بعض التفصيل فيها لاحقاً.

أول هذه الأحداث كان النشاط العدائي لعرب القواسم ضدّها، والثاني كان الحملة الفرنسية لنابليون على مصر عام ١٧٩٨/١٢١٣، والثالث كان هيمنة محمد علي وتشكيله لدولته العربية النهضوية المعادية لها.

هذه الأحداث دفعت بريطانيا إلى تركيز فعاليتها السياسية من أجل حماية مصالحها الاستراتيجية في سواحل شبه الجزيرة العربية، سواحل البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي. وقد عدّت إنكلترا منذ ذلك الحين هذا الخليج أحد خطوط الدفاع الأمامية عن الهند[١٠]. ويمكن اعتبار تصاعد جهودها للهيمنة على حكومة الشاه في فارس، وعلى السلطنة العثمانية، للحصول على أعلى الامتيازات في بلديهما وفي الوطن العربي عامة، وفي شبه الجزيرة العربية خاصة، أحد أبرز المظاهر الأساسية لهذه الفعالية. وكذلك الأمر بالنسبة لتصاعد جهودها من أجل تفرقة وإضعاف الفئات العربية الحاكمة في سواحل شبه الجزيرة العربية ثم جرّها إلى عقد اتفاقيات معها تضمن لها الهيمنة الكليّة عليها جميعاً.

ولم تكتف بريطانيا بذلك بل عملت على حصار فرنسا على مستوى أوروبا، من خلال تحالفها مع بقية دولها الكبرى آنذاك، النمسا وروسيا وبروسيا، لعقد مؤتمر فيينا ضدها عام ١٨١٥/١٢٣٠، بحيث أعيدت فرنسا إلى حدودها القديمة قبل الثورة، وبحيث عكست قراراته مصالح هذه الدول فقط. وكان أن امتلأت الفترة اللاحقة لهذا المؤتمر بالإضرابات الداخلية في معظم دول أوروبا. وقد استغلت بريطانيا ذلك من أجل توسيع دائرة نفوذها الاستعماري أكثر فأكثر، وخاصة في سواحل شبه الجزيرة العربية، ومنها الخليج العربي، كما سنرى من خلال تتبعنا لمعطيات ذلك في الفصول القادمة، الرابع والخامس والسادس، المتضمنة لدراسة تطور أقاليم شبه جزيرة العرب في المرحلتين الثانية والثالثة من تاريخها الحديث، أي حتى نهايته مع نهاية الوجود المصري فيها عام ١٨٤١/١٢٥٧.

جامعة دمشق
وقل رب زدني علما
Damascus University

الفصل الرابع

أقاليم وسط وغربي شبه جزيرة العرب (نجد والحجاز واليمن) في المرحلة الثانية من تاريخها الحديث: من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١

المحتويات:

أولاً)- نجد والحجاز من تشكّل الدولة السعودية الأولى ١١٥٨/١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١.

I - تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ وتوحيد نجد.

II - الدولة السعودية الأولى وضمّ الإحساء.

III- الحجاز حتى السيطرة السعودية التامة عام ١٢٢١/ ١٨٠٦.

IV- الدولة السعودية الأولى والسيطرة الوهابية السعودية التامة على إقليم الحجاز حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١.

ثانياً)- إقليم اليمن من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥إلى بداية الوجود المصري عام١٢٢٦/١٨١١:

I - اليمن حتى نهاية حكم الإمام المهدي عباس عام ١١٨٩/١٧٧٥.

II - اليمن والدولة السعودية من نهاية حكم الإمام المهدي عباس عام ١١٨٩/ ١٧٧٥ حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١.

****

أولاً)- نجد والحجاز من تشكّل الدولة السعودية الأولى ١١٥٨/١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:

I - تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥ وتوحيد نجد:

رأينا أن تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الأمير محمد بن سعود في عام ١١٥٨/١٧٤٥ كان النواة الأولى لتشكل الدولة السعودية الأولى التي جعلت

الدرعية عاصمة لها، ومنها انطلقت في توسيع دولتها هذه، والذي كان يعني تسييس هذه الدعوة واستخدامها كأداة ووسيلة من هذه الدولة للتخلص من كل أعدائها في أوساط جميع القبائل العربية بمختلف مذاهبها بتهمة التكفير ونصرة التوحيد، وهدفها الأول كان ضمّ جميع مناطق إقليم نجد إليها. وعليه فقد كان على الوهابين مجابهة زعماء ومشايخ وأمراء هذه المنطقة، والذين كان من أبرزهم أمراء آل دواس في المنفوحة والرياض، وأمراء آل زامل في الخرج. ولقد توجهوا إليهم بعد سيطرتهم على العيينة وعلى حريملا التي امتدّت ثورتها بين عامي ١١٦٥/١٧٥٢ و١١٦٨/١٧٥٥، وكانت من أهم الثورات المعارضة للوهابيين، وقامت برئاسة قاضيها الشيخ الفقيه سليمان الذي هو أخو محمد بن عبد الوهاب، والذي هرب إلى السدير، ثمّ نُقِل بعدها مع عائلته إلى الدرعية[١١].

وإذا كان الأمير محمد بن سعود هو الذي استطاع، فيما بين عامي ١١٥٨/ ١٧٤٥ و ١١٧٩/١٧٦٥، أن يضمّ مدن وقرى العارض تحت إمارته، وكانت قبل تحالفه الوهابي لا تتجاوز البلدين أو الثلاث من القرى التابعة له في وادي حنيفة، واستطاع أن يهزم أمير الرياض دهام بن دواس دون الاستيلاء عليها، فإن ابنه عبد العزيز، الذي بويع بالإمارة بعد موته عام ١١٧٩/١٧٦٥، هو الذي استطاع توحيد نجد كلها تحت أمرته، بعد ثورات كثيرة لمعظم مناطقها ضدّ دولته، وهو الذي أعطى التكوين الجديد للسلطة، مساهماً في إقامة مملكة ثيوقراطية[١٢] مركزية كبديل عن السلطة الجزئية لزعماء القبائل[(١٣)]. وإنّ سقوط الرياض عام ١١٨٧/١٧٧٣، التي كانت عقبة كبيرة أمام الزحف السعودي–الوهابي لعبد العزيز، قد أسهم في دفع بقية الإمارات النجدية إلى الاستسلام لهذا الزحف ولحكمه. ومن أبرز العوامل الأخرى التي ساعدته في هذا التوحيد النجدي[(١٤)] كانت الآتية:

١– دور أتباع الدعوة الوهابية المنتشرين في معظم بلدان نجد، فالمهاجرون منهم إلى الدرعية قد انضموا إلى صفوف الجيش السعودي، أما الباقون فقد كانوا بمثابة الطلائع الاستطلاعية لهذا الجيش في بلدانهم، تزوده بنقاط الضعف،

وتسهم معه في القضاء على رؤوس المقاومة. وهؤلاء الأتباع هم الذين قاموا بقتل عثمان بن معمر في العيينة عام ١٧٥٠/١١٦٣ بمبرر تأكدهم من تآمره سابقاً لقتل الشيخ ومن "انحرافه" ضدّ الوهابية على عكس ما كان يظهر(١٥).

٢- الهجرة المستمرة لكثير من القبائل النجدية هرباً من القحط والجفاف أو رعب ممارسات الجيش السعودي الوهابي، مما أسهم في إضعاف جبهة المعارضة.

٣- افتقاد الوحدة والتنسيق في جبهة المعارضة ضدّ الدولة الوهابية السعودية، وميوعة الموقف عند أمرائها. لقد وصلت انقساماتهم الأسرية إلى درجة أصبحت فيها معظم البيوت الحاكمة لها منقسمة على نفسها بين مؤيد للدعوة ولأمرائها السعوديين وبين معارض لها ولهم.

٤- معرفة السعوديين الدقيقة لداخل نجد، والتي زودتهم بالقدرة على التحرك فيها بسهولة ويسر، إلى أن وحدوها في ظلّ دولتهم.

II - الدولة السعودية الأولى وضمّ الإحساء:

لم تكن مطامح الدولة السعودية تقف عند حدود توحيد نجد فقط، وإنما اعتبرتها كخطوة أولى إلى محاولة توحيد كل شبه الجزيرة العربية في ظلّ العرش السعودي الوهابي، فكانت خطوتهم الثانية العمل على ضمّ الإحساء، وذلك لأسباب اقتصادية وسياسية مهمة(١٦). أبرزها على الصعيد الاقتصادي التطلع إلى الاستفادة من امتداد ساحلها على الخليج العربي فيما يخص تأسيس الوجود السعودي فيه وفيما يخص أرباح التجارة الدولية والعربية عموماً، والتجارة على مستوى نجد وشبه جزيرة العرب على وجه الخصوص، وخاصة أرباح تجارة السكر والقهوة والبهارات، والاستفادة من خيرات الصيد واستخراج اللؤلؤ فيها، ومن خيراتها الزراعية بحكم كثرة مياهها وخصوبة واحاتها. بالنسبة للدوافع السياسية يمكن تلخيصها بالتوجّه إلى وضع حدّ لتدخل أمراء الإحساء من بني خالد في أمور نجد، والذي قد يشكل خطراً على مستقبل الدولة السعودية فيها. ولقد رأينا تدخل أمير الإحساء سليمان بن محمد

لدى عامله على العينية عثمان بن معمر ليقوم بقتل الشيخ عبد الوهاب فيها، ورأينا كيف اكتفى بإخراجه منها. والشيخ لم يكن لينسى موقف أمراء الخوالد هذا، ولم يكن ليجهل وحليفه السعودي الأمير عبد العزيز هروب بعض القبائل النجدية إليهم[١٧] وخطورتهم على مستقبلهما السياسي إن في نجد أو في خارجها على الساحل الخليجي، وحيث كانوا يشكلون أيضاً حاجزاً أمام مطامعهما في شرقي الجزيرة والعراق ومنها نهب ثروات العتبات المقدسة كما سنرى، ممّا يفسّر اندفاعهما، وبمبرر تكفيرهم، إلى محاربتهم واحتلال الإحساء بمجرد انتهائهما من توحيد نجد.

لعب إقليم الإحساء بزعامة بني خالد دوراً كبيراً في مناهضة الدولة السعودية الأولى، فكان أن بدأ الصدام المسلح بينهما منذ عام ١١٧٢/١٧٥٨، والذي شهد انقسام قبائل نجد بين مؤيد لهذا الطرف أو ذاك[١٨]. ورغم حصار بني خالد وحلفائهم النجديين للدرعية أحياناً، وانتصاراتهم بدايةً وخاصة في القصيم، فقد نجح السعوديون نهايةً في صدّ هجماتهم وفي توحيد نجد تحت سيطرتهم، ثمّ التوجّه نحو الاستيلاء على الإحساء. وبدأ هجومهم الفعلي عليها منذ عام ١١٩٨/ ١٧٨٣، مستغلين الخلافات والمنازعات الأسرية في صفوف قبائل بني خالد، سواء قبل وفاة أميرهم سعدون بن عريعر عام ١٢٠٤/١٧٩٠[(١٩)] أو بعدها في عهد خليفته الأمير عبد المحسن بن سرداح. وكما لاقوا مقاومة كبيرة وثورات عنيدة من غالبية قبائل نجد ثمّ استطاعوا السيطرة عليها وتوحيدها عام ١٢٠٧/١٧٩٢ بالتكفير والنار والقتل والهدم والرعب، فكذلك الأمر بالنسبة لإقليم الإحساء الذي أوقفت السيطرة السعودية على نجد تحالف كثير من قبائلها معه[٢٠].

استُكمِلت هذه السيطرة بعد استلام الأمير سعود بن عبد العزيز حكم الدولة السعودية، بجهود من الشيخ بن عبد الوهاب، حيث عمل عام ١٢٠٣/١٧٨٩ على انتزاع يمين الولاء له، إذ "أصدر الأوامر إلى جميع الأقاليم والمقاطعات" التي كانت خاضعة آنذاك لهذه الدولة، "للاعتراف به وقبوله حاكماً في المستقبل"[(٢١)]. ولقد

مات ابن عبد الوهاب عام ١٧٩٢/١٢٠٧ بعد أن كرّس إعطاء الدولة السعودية صيغة نظام الحكم الوراثي السلالي لأسرة آل سعود، وليستلم ابنه عبد الله مكانه مكرساً الزعامة الدينية الوهابية التوريثية لآل الشيخ حتى يومنا هذا.

وكان أن تابع الأمير سعود في أوائل عام ١٧٩٣/١٢٠٨عمليات أبيه في قتال بني خالد بزعامة أميرهم ابن سرداح، ونجح في استكمال الاستيلاء على إقليم الإحساء وعيّن عليه حاكماً وهابياً. وبعد قتل هذا الحاكم من قبل ثوار الهفوف المتمردين ضدّ حكمه استعاد زيد بن عريعر من بني خالد إمارته وهيمنته على الإحساء. ولكنه لم يبق طويلاً، فسرعان ما انهزم أمام حملة سعودية نشرت الرعب والنار والقتل، وأخضعت البلاد، وأجبرته على الفرار، وكانت النهاية ليس لحكمه فقط وإنما لحكم بني خالد بشكل عام في هذه الفترة(٢٢). واستمر منذ ذلك الحين خضوع الإحساء كلياً للدولة السعودية حتى قدوم قوات محمد علي عام ١٢٢٦/ ١٨١١، باستثناء فترة قصيرة من خضوع أميرها براك بن عبد المحسن لزعيم قبيلة المنتفق ثويني، وإسهامه في حملته ضدّ هذه الدولة في عام ١٧٨٨/١٢٠٢ والتي كان مصيرها الفشل[٢٣]، مما أدّى إلى شعور السلطنة العثمانية بخطرها أكثر فأكثر.

وزاد هذا الشعور بعد أن حول الأمراء السعوديون الإحساء إلى مركز انطلاق لهم إلى البحرين وعمان وجميع شواطئ الخليج العربي كما سنرى، ممّا دفع بعض المؤرخين إلى القول: "إن الشاطئ العربي للخليج قد أصبح في ذلك الوقت جزءاً من الدولة السعودية الكبرى"(٢٤)، وكانت بريطانيا آنذاك الطرف الأوروبي الأهم في هذا الخليج، فكيف سكتت عن هذه السيطرة لهذه الدولة؟ ألكونها فعلاً لم ترد أن تتدخل في الشؤون الداخلية للمنطقة كما كانت تعلن، ورغم أنّه كان عليها عملياً أن تتدخل، بل وتدخلت فعلاً، "بسبب أمور البريد والنخاسة وحوادث البحر من قرصنة وغيرها"[٢٥]، أم لكونها قد عقدت اتفاقاً سرياً معها في اجتماع أميرها عبد العزيز مع الضابط البحري البريطاني رينو (RENAULT)[٢٦]. وجاء هذا استمراراً لاتفاق أبيه سعود في اتصالاته المؤكدة مع الانكليز[٢٧]؟ والذي كان على صلات أكيدة أيضاً

مع نابليون أيضاً كما يذكر العجلاني [٢٨]. والمهم أنّه أصبح للحركة الوهابية أثر عميق على الشؤون الاجتماعية والسياسية في هذا الخليج[٢٩]، ووصل إلى درجته القصوى لدى السلطنة العثمانية حين توجّه هذا الخطر الوهابي نحو إقليم الحجاز.

III- الحجاز حتى السيطرة السعودية التامة عام ١٢٢١/ ١٨٠٦:

استمر الموقف العدائي للشريف مسعود (١١٤٧/١٧٣٤-١١٦٥/١٧٥٢) الذي رأيناه سابقاً من الدعوة الوهابية، وازداد ضراوة بتشكل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/١٧٤٥. وقد أرسلت إليه وفداً من ثلاثين عالماً دينياً لمناظرة علماء مكة وشيوخها حول مبادئ الدعوة، فأصرّ هؤلاء الأخيرين على موقفهم وأصدروا فتوى كفروا بها صاحب الدعوة ابن عبد الوهاب، واعتبروه مارقاً عن الدين. وبعد أن صادق عليها قاضي الشرع العثماني في مكة قاموا بنشرها ليشهدوا الناس عليه[٣٠]. ولم يتوقف أشراف مكة، ممن خلفوا الشريف مسعود عن موقف العداء هذا، والذي تمثل بشكل أساسي في رفض طلب أمراء هذه الدولة بالسماح لأهل نجد بأداء فريضة الحجّ. والشريف الوحيد الذي لاقت محاولات التفاهم هذه قبولاً لديه كان الشريف أحمد بن سعيد، وذلك ليكسب صداقتهم ودعمهم له في صراعه على منصب الشرافة مع منافسه عبد الله بن بركات المدعوم من قبل والي مصر علي بك الكبير الذي نقف قليلاً عند محاولته الاستقلالية عن السلطنة العثمانية، ومحاولته في توحيد الحجاز مع دولته في مصر.

غالباً ما شجعت السلطنة العثمانية ولاة مصر على استغلال مسؤوليتهم الإدارية في إقليم الحجاز، بهدف إحكام سيطرتهم وسيطرتها عليه، وخاصة من خلال التدخل في صراع أشرافه على منصب الإمارة. وكان هؤلاء الولاة يؤيدون شريفاً ويخلعون آخر، أو يساعدون واحداً على الثاني[٣١]. أما الوالي علي بك الكبير، المملوكي الشركسي الطامح إلى بناء دولة كبيرة له في مصر، والمتطلع إلى إحياء السلطنة المملوكية من خلال الاعتماد على الوجود المملوكي الذي كان مازال قوياً فيها، قد ذهب بعيداً في استغلاله لمسؤوليته، متجاوزاً الحدود والهدف، إذ طمح

إلى السيطرة الكاملة على إقليم الحجاز بحيث يوظفه، ليس في دعم نفوذه السياسي والديني فقط، وإنما في تزويد دولته بالموارد الاقتصادية اللازمة لتمويل طموحاته.

وكان أن استغلّ عام ١١٨٤/١٧٧٠ فرصة الصراع على منصب الشرافة بين الشريف عبد الله من عائلة بركات، والذي طلب العون منه، وبين الشريف مساعد من عائلة زيد، ليرسل حملة عسكرية قوية إلى الحجاز بقيادة مملوكه محمد بك أبي الذهب، هدفها الظاهري خلع الشريف الثاني المغتصب مساعد، وإعادة الشريف الأول صاحب الحق إلى منصبه. أما هدفها الحقيقي فهو ترسيخ الوجود العسكري المصري المملوكي في الحجاز وفي البحر الأحمر. وقامت هذه الحملة فعلاً بخلع الشريف القائم حين وصولها وهو الشريف أحمد الذي خلف الشريف مساعد إثر وفاته قبيل قدومها، وعينت الشريف عبد الله مكانه[٣٢].

ما تقدم يفسّر قيام علي بك الكبير بتعيين أحد مماليكه، حسن بك الجداوي قائم مقام على جدّة، مما اضطر الباشا العثماني فيها إلى الهرب. وانسجاماً مع تطلعات علي بك إلى الاستفادة من العائدات الجمركية الضخمة، فقد فتح ميناءها وميناء السويس ومياه البحر الأحمر كله للملاحة البريطانية، من خلال قيامه بعقد اتفاق حول ذلك مع شركة الهند الشرقية في عام ١١٨٥/١٧٧١ خارقاً بذلك القرار السلطاني بمنع الملاحة الأوروبية في هذا البحر فيما بعد ميناء المخا.

وإن السلطنة العثمانية، إذ كانت تغض النظر بالنسبة لخرق قرارها من قبل باشوات جدّة وأشراف مكّة، لثقتها بتبعيتهم لها، أولاً، ولأن سماحهم بالملاحة الأوروبية لم يتجاوز جدّة شمالاً، ثانياً، ولأن عائدات هذه الأخيرة كانت تسهم في تغطية نفقات الباشا العثماني وحكومته والأشراف مما كان يخفف من أعبائها المالية، ثالثاً، فإنها لم تكن لتسمح بهذا الخرق من علي بك الكبير، لأنه متمرد عليها ووحده يستفيد منه، ولأنه كفيل بتعريض سيطرتها على البحر الأحمر للخطر. لهذا قامت بإلغاء الاتفاق المذكور بمجرد استعادتها سلطتها في مصر[٣٣]، والتي

تمت بفضل خيانة أبي الذهب لقائده عام ١١٨٧/١٧٧٣. في الحجاز قام الشريف المخلوع أحمد بن سعيد، بمجرد عودة القائد أبي الذهب إلى مصر، باسترداد منصب الشرافة في خريف عام ١١٨٤/١٧٧٠، فعزل عبد الله، وطرد حسن الجدّاوي وقواته خارج الحجاز، مجبراً إياه على العودة إلى مصر.

وإذا كانت محاولة الشريف أحمد في الاستعانة بسعودي الدرعية وبتأييدهم العسكري لصدّ الحملة المصرية المذكورة قد فشلت، فإن محاولته في الاستعانة بالعربان لم تفشل، ولقد فعل كل ما فعل من خلال مساعدتهم له بالدرجة الأولى[٣٤]. في عهد الشريف سرور بن مساعدة الذي خلف الشريف أحمد عام ١١٨٦/١٧٧٢، والذي ارتبط بعلاقات طيبة مع شيخ البلد المصري إبراهيم بك، ومع نسيبه سلطان المغرب[٣٥]، ساءت العلاقات كثيراً مع أمراء الدرعية، بسبب رفضه للسماح لأهل نجد بأداء فريضة الحج إلاّ في حالة معاملتهم كبقية حجّاج الأعاجم من حيث دفع الضرائب والمكوس، وبشرط أن ترسل له الدرعية كل عام مائة من جياد الخيل[٣٦]. رفض أمراء الدرعية بالطبع شروطه هذه، فكان أن ساد جوّ سوء التفاهم والركود على علاقاتهم مع الأشراف في الحجاز حوالي عشرين عاماً، أي إلى أن استلم الإمارة الشريف غالب بن مساعد في عام ١٢٠٢/١٧٨٨، الذي في عهده تمّت السيطرة الوهابية السعودية التامة على إقليم الحجاز.

IV- الدولة السعودية الأولى والسيطرة الوهابية السعودية التامة على إقليم الحجاز حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:

بدأ الشريف غالب أيامه الأولى بمهادنة أمراء الدرعية السعوديين الذين لم تكن أنظارهم قد اتجهت نحو الغرب الحجازي، لأن الشرق الإحسائي كان ما يزال موضوع اهتمامهم بالدرجة الأولى، وكانوا ما يزالون حريصين على عدم الصدام المباشر مع هؤلاء الأشراف لعدم ثقتهم بعد بمقدرتهم على مجابهتهم حربياً، وخشية من إثارة الرأي العام الإسلامي[٣٧]، مما قد يسبب خطراً على مستقبل دولتهم التي لم

تتجاوز فترة النشوء والتكوين بعد. لهذا لم يتوقفوا عن محاولاتهم ومناظراتهم لإقناع علماء مكة بصحة مبادئ دعوتهم، دون وصول إلى أي وفاق[٣٨]، ولقد حذّر هؤلاء العلماء الشريف غالب من مطامع آل سعود "في القضاء على نفوذ آبائه وأجداده وفي الاستيلاء على خيرات بلاده"[٣٩].

وكان أن قرر الشريف غالب مهاجمة السعوديين الوهابيين في نجد عام ١٢٠٥/١٧٩٠، ولتبدأ المرحلة الأولى من الحرب بين الطرفين، والتي أجرى خلالها الشريف غالب، وفق لمع الشهاب، اتصالاً مع أمير الإحساء عبد المحسن بن سرداح بهدف التنسيق بين الجبهتين في حربهما ضدّ آل سعود[٤٠]. وانتهت هذه المرحلة عام ١٢٠٨/١٧٩٣ بانتصار السعوديين في الإحساء ونجد، وانسحاب الأشراف بعد انضمام بعض قبائل تربة ورنية وبيشة إلى الوهابية، وكذلك انضمام قبائل عسير وتهامة، وقيام السعوديين "بعمليات تأديبية" ضدّ مناصري الأشراف من القبائل[٤١]. ولقد استكتب الشريف جمعاً من علماء مكة والمدينة رسائل إلى السلطان العثماني لبيان الخطر الوهابي و"لطلب النجدة العاجلة لإنقاذ البلاد المقدسة من خطر عظيم يتهددها...فأهل السنّة معرضون للذبح، وقبر النبيّ (ص) سوف يستباح...ودلائل الخيرات سوف تمزّق وتحرق إلخ..."[٤٢].

بدأت المرحلة الثانية من الحرب بين الطرفين عام ١٢٠٩/ ١٧٩٤ بعمليات حربية سعودية تثير الرعب قرب تربة وضدّ القرى التي لم تعلن خضوعها للدرعية فأنزلت العقاب بها، وردّ الأشراف بحملة وصلت عالية نجد ولكنها اندحرت مهزومة. وتتابعت بعد ذلك انتصارات السعوديين في أطراف الحجاز، وفي بيشة ورنية وغيرها[٤٣]. وبعد الانهزامات المتكررة للشريف غالب، وما تبع ذلك من ضعف لقواته العسكرية، ونظراً لانشغاله بتحصين الحرمين الشريفين، وبإصلاح سور جدّة وبإعداد مقاومة البلاد خوفاً من زحف الفرنسيين الموجودين في مصر إلى بلاده، ومنه حرصه على الإشراف بنفسه على تشكيل فرق المقاومة الشعبية وتدريبها، وعلى استكمال بناء قلعة أجياد التي كان أخوه سرور قد بدأها، فقد اضطر إلى عقد

صلح مع عبد العزيز بن محمد أمير الدرعية عام ١٧٩٨/١٢١٣،اعترف فيه بالنفوذ السعودي وبحق أتباعه بدخول مكة لأداء فريضة الحج. وتفرغ بعد ذلك لإرسال قوة من الحجاز للإسهام في الجهاد في مصر ضد الفرنسيين[٤٤].

لم يبق تحت هيمنة الشريف غالب بعد انتهاء الهدنة سوى مكة والمدينة والطائف وما حولها من مناطق. وخلال فترتها التي استمرت ست سنوات قام فعلاً بتنفيذ مخططاته المذكورة المتعلقة بالإسهام في الجهاد ضدّ الاحتلال الفرنسي لمصر وإعداد بلاده لصدّه عند اللزوم. أما السعوديون فقد استغلوا فترة الهدنة في تعزيز قوتهم العسكرية والسياسية، فنشروا دعوتهم وعملوا على تشجيع عوامل الانقسام والتمرد في الجبهة الداخلية للحجاز، ووسعوا نفوذهم وخاصة في اليمن كما سنرى، وفي جنوب العراق حيث اقترفوا مأساة كربلاء، وفي سوريا–الشام أيضاً.

كانوا قد قاموا بغارتهم الأولى على العراق منذ عام ١٧٩٥/١٢١٠، حيث هددوا خلالها ميناء البصرة. وكان توجههم إليه لعدة أسباب: أولها القضاء على الخطر المتوقع قدومه من القبائل العربية فيها والتي كانت تحمي من يلجأ إليها من القبائل النجدية والإحسائية هروباً من الدولة السعودية. وثانيها هو التمهيد للاستيلاء عليها مستقبلاً. والثالث هو عدّها، كبقية المناطق التي لم تعتنق الوهابية ومنها النجدية والحجازية، دار كفر وحرب. والرابع والأهم هو تطلعها إلى نهب وسرقة الثروات المتكدسة في المساجد والعتبات الشيعية المقدسة[٤٥] وخاصة عند ضريح الحسين، والتي "كانت تثير شهية الوهابيين وجشعهم منذ أمد طويل"[٤٦].

من هنا، وفي عام ١٨٠٢/١٢١٧ تحديداً وليس عام ١٨٠١ وفق دراسة فاسيلييف[٤٧]، كان توجههم نحو كربلاء فدخلوها ليقوموا "بأقسى ممارسات التدمير والنهب والسرقة والقتل دون تمييز بين كبير أو صغير"[٤٨]، ودمروا المنائر والقباب طمعاً بذهبها"[٤٩]. وفشلوا في دخول النجف، وتوغلوا في جنوبي العراق، وداهموا الزبير والبصرة، فنزحت قبائل هذه المناطق نحو العراق والشام. وغضبت فارس، وقد اتهمت سليمان باشا والي بغداد بالعجز عن حراسة العتبات المقدسة وهددت

بإرسال قواتها إلى كربلاء[٥٠]، وطلبت منه السماح بمرور قواتها في العراق لمحاربة آل سعود، "فرفض بلباقة"[٥١]، موجّهاً اهتمامه إلى تعزيز المدن وترميم كربلاء وضريح الحسين[٥٢].

أما في سوريا فقد وصل الهجوم السعودي–الوهابي، الذي بدأ بدومة الجندل عام ١٧٩٣/١٢٠٨، إلى فلسطين وحوران في عام ١٨٠٦/١٢٢١، ولو أنه اقتصر، كما هي الحال في العراق، على القيام بالغارات وجباية الأتاوات[(٥٣)]، أي الاكتفاء بالقتل والسلب والنهب والتدمير دون احتلال للأرض[٥٤].

وكان من الطبيعي، وقد كان الوهابيون، كما تؤكّد بعض المصادر، يتوقون إلى الاستيلاء على ثروات الحرمين الشريفين في مكة والمدينة"[٥٥]، أن يتوجهوا مرةً ثانية إلى الحجاز لاستكمال عمليات السيطرة عليه، مستغلين نجاحهم في استقطاب الكثير من مؤيدّي الشريف غالب إلى تبني الوهابية والتخلّي عنه، مما اعتبره نقضاً للصلح. وانتهى هذا الصلح فعلياً بعد انشقاق وزيره وصهره عثمان بن عبد الرحمن المضايفي شيخ قبيلة العدوان[٥٦] والانضمام إلى السعوديين والحرب معهم وقيامهم عام ١٨٠٢/١٢١٧ بالاستيلاء على الطائف"التي تعد نقطة وثوب إلى مكّة مركز الشرافة"[(٥٧)]، ثم بالاستيلاء على جدّة وبعدها مكّة التي أخذوها مرتين:

الأولى في عهد الأمير عبد العزيز في عام ١٨٠٣/١٢١٨ حيث قتلوا ونهبوا و"دمروا كل الأضرحة والمزارات ذات القباب والتي أنشئت تكريماً لأبطال فجر الإسلام"[٥٨] وليس شركاً. والثانية في عهد الأمير سعود عام ١٢٢٠/ ١٨٠٥، إذ أنّ عبد العزيز بعد أن أمضى تسعة وثلاثين سنة في مهمات الإمارة تخلّى عنها لابنه سعود وانصرف إلى الراحة والعبادة. وفي عام ١٨٠٣/١٢١٨ اغتيل في الدرعية، فقيل أن هذا كان انتقاماً من الشيعة لغزو كربلاء. أما ابن بشر فيشك في هذا القول مؤكداً "أن قصد القاتل وهدفه كان سعوداً لا عبد العزيز"[٥٩].

وكما أسهم الأمير سعود قبل مبايعته، ومن خلال تعاونه مع أبيه في عملية توطيد وتوسيع الدولة السعودية الأولى، فقد استمر بعدها في إسهامه الفعال في هذه العملية، ومنه قيامه باستكمال السيطرة على الحجاز. وباستيلاء السعوديين على المدينة المنورة و"على ما في الحجرة النبوية من مجوهرات"[٦٠] عام ١٨٠٥/١٢٢٠، وبقيامهم بترسيخ سيطرتهم على مكّة تماماً عام ١٢٢١/ ١٨٠٦، يكونون قد أتمّوا سيطرتهم الكاملة على إقليم الحجاز[٦١]. وكان أن اضطرّ الشريف غالب إلى الخضوع لهم، فأبقاه الأمير سعود حاكماً عليه باسم الدولة السعودية، ولكنه أبقى على صلاته مع العثمانيين محرضاً إياهم على التحرك للقضاء عليه إلى أن صدر الأمر السلطاني بذلك كما سنرى.

عوامل كثيرة أدّت إلى انتصار السعوديين ونجاحهم هذا في حروبهم في إقليم الحجاز وسيطرتهم عليه، ومن أبرزها الآتية:

العامل الأول هو سياسة الشريف غالب في إرهاق سكان إقليمه والتي "أثارت كراهيتهم له[٦٢]. وسياسته المنفّرة في أوساط القبائل التي دفعت بعضها إلى الخروج على طاعته والانضمام إلى الدرعية كقبائل تربة ورنية وبيشة. وقد لعب خروج وزيره المضائفي عنه دوراً مهماً في نجاح السعوديين بالاستيلاء على الطائف. أما سياسة الشريف غالب الخاطئة في حربه مع أعدائه هؤلاء فقد تمثلت بشكل رئيسي في أخطائه الآتية:

١- عدم استغلال ظروف المرحلة الأولى من الحرب، حيث ضعف الطرف السعودي فيها بسبب تمركز ثقل قواته المحاربة في مناطق شرقي الجزيرة.

٢- عدم التنسيق الجدّي بينه وبين أمير الإحساء، عبد المحسن بن سرداح[٦٣].

٣- ضعف أسلوب القتال وخطط الهجوم ضدّ السعوديين في مرحلتي الحرب، مما أتاح لهم، وبشكل دائم، إعادة إعداد أنفسهم للمعركة التالية، وأتاح لهم فرصة الاستعداد للانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ضدّه، والتي بدأت بقيادة الأمير سعود منذ عام ١٧٩٤/١٢٠٩. ولا شك أن استتباب أوضاع كلّ من

الجبهة الشرقية(الإحساء) والجبهة الجنوبية(عسير وتهامة وشمال اليمن) وإخضاعهما للسيطرة السعودية، كان له الدور الفعال في إخضاع الحجاز أيضاً.

٤- إهمال الشريف غالب لمعالجة سوء الوضع الاقتصادي في الداخل الحجازي نتيجة للعمليات السعودية وما رافقها من نهب وتدمير.

العامل الثاني كان عجز السلطنة العثمانية عن تلبية نداءات الشريف غالب، التي كانت تطالبها بالمساعدات العسكرية السريعة، وذلك بسبب انشغالها بثورات الصرب وبعصيان الانكشارية، ثم بالغزو الفرنسي لمصر، وبالاعتداءات الروسية على الحدود الشمالية، وبالغزو البريطاني للدردنيل ثم لمصر سنة ١٢٢٢/١٨٠٧، مما دفعها إلى الاعتماد من جديد على قوة ولاتها المحلية في بغداد ودمشق، فكانت الحملة الثانية بقيادة أمير قبيلة المنتفق، ثويني، بإيعاز من والي بغداد عام ١٢١١/ ١٧٩٦، وكان مصيرها الفشل[٦٤]، رغم مؤازرة عرب الكويت والبحرين والزبير لها. والمصير نفسه كان لحملة علي باشا كيخيا والي بغداد أي نائبه، عام ١٢١٣/١٧٩٨، بمشاركة البحرين والكويت، إذ اضطرت إلى الصلح مع الدولة السعودية والعودة بسبب انتهاء مؤونتها.

إن فشل ولاة بغداد في مهام التصدّي للوهابيين والسعوديين قد زاد في شعور السلطنة العثمانية بخطرهم، فأمرت والي دمشق عبد الله باشا العظم ليقوم بالقضاء عليهم، وخاصة بعد أن تكرّرت غزواتهم لجنوبي الشام، وبعد أن قاموا بتهديد ولاية دمشق تهديداً مباشراً، ثم منعوا قافلة الحجّ الشامي من الوصول إلى الحجاز عام ١٢٢١/١٨٠٦. وإن إحجام هذا الوالي عن القيام بأي إجراء لمجابهتهم[٦٥] دفع السلطنة العثمانية إلى عزله وتعيين يوسف كنج باشا محلّه، وعلى أن يقوم "بالتنكيل بالخارجي، أي بالوهابي"[(٦٦)]، وبضمان فتح طريق الحجاز للحجاج. لكن عدم استجابته ومماطلته في تنفيذ ذلك[٦٧]، بالإضافة إلى سكوته عن وصول الغارات الوهابية مرة أخرى إلى حوران قد سبّب عزله ومصادرة أمواله وإعدامه، وتعيين سليمان باشا والي صيدا كبديل له، وعلى أن يتصل مع محمد علي للتنسيق معه

ضدّ آل سعود[٦٨] ولم ينجح ذلك. وقد أبدى حاكم عكا أحمد باشا الجزار لدى السلطنة العثمانية استعداده للقضاء على ابن عبد الوهاب، لكنّه كان "يفكّر بالاستيلاء على دمشق أكثر مما كان يفكّر بالحملة على الوهابيين"[٦٩].

بالإضافة إلى ما تقدم، فإنّ عوامل كثيرة أخرى، سنراها في الفصل السادس، قد دفعت السلطنة العثمانية إلى الاعتماد على واليها على مصر محمد علي وحده، ، فكان صدور أمرها السلطاني إليه، عام١٢٢٠/١٨٠٥، للقيام بتدمير الدرعية والقضاء على الدولة السعودية الوهابية، ولكنّه لم يرسل قواته لتنفيذ هذه المهمة إلاّ في عام ١٢٢٦/١٨١١.

ثانياً)- إقليم اليمن من تشكّل الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٨/ ١٧٤٥ إلى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:

I - اليمن حتى نهاية حكم الإمام المهدي عباس عام ١١٨٩/١٧٧٥:

رأينا كيف استغل أمير لحج، فضل بن علي، زعيم قبيلة العبادلة، فترة الاضطراب التي مرّت بها اليمن في ظل الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم (١١٤٠/١٧٢٧-١١٦١/١٧٤٨) من أجل أن يستقل بلحج ويأخذ عدن في عام ١١٤٤/١٧٣١. وبقيت الأوضاع هكذا في هذه الفترة التي شهدت كثيراً من الثورات والفتن الداخلية إلى أن استلم الإمامة ابن الإمام المنصور، المهدي لدين الله عباس بن الحسين. كان رجلاً ذكياً فطناً يعرف كيف يختار عماله ويدقق في البحث عن سيرتهم وأحوالهم، كما كان حسن التدبير، عالي الهمة، محباً للخير، ميالاً إلى الأدباء وأهل العلم، مطلعاً على أحوال الرعية، وكانت له هيبة في صدور الخاصة، وترك آثاراً كثيرة منها إخراج النهر الذي يدخل صنعاء المشهور باسم الغَيْل الأسود، وكان مطموراً من عهد بعيد، كما أنه عمّر في مدينة صنعاء مساجد مشهورة[٧٠].

استطاع الإمام المهدي عباس أن يخمد جميع الثورات والفتن، حتى فرض سلطته على الجميع وأعاد الأمن والاستقرار لإقليم اليمن. ومن أبرز هذه الفتن

وأطرفها، والتي أطلق عليها فتنة الساحر المكنى بأبي علامة عام ١١٦٤/١٧٥١، والذي أظهر من الشرف وادعى معرفة الطلاسم، ما عظّم أمره بين العامة، فكثر أتباعه وتمرّدوا، وخربوا الكثير من الحصون، وهددوا الإمام نفسه، "فجهز عليهم جنوده. كما أرسل السيد العلامة عبد القادر بن أحمد إلى الشرف للاطلاع على حقيقة الأحوال، ولمعرفة أمر الساحر المذكور، وإرشاد الناس وتحذيرهم منه. ثم خرجت إلى الساحر قوة كبيرة من قبائل قحطان من عسير، وقاموا بنصرته أولاً ثم تآمروا على قتله، وأرسلوا رأسه إلى الإمام المهدي"[٧١].

وفي عهد هذا الإمام المهدي عباس قدمت بعثة رحلة الباحث الألماني كارستن نيبور إلى منطقة شبه الجزيرة العربية، ووصلت اليمن عام ١١٧٧/ ١٧٦٣، فاستقبلها وسهل مهمتها كلّ التسهيل، وتضمّنت رحلة نيبور هذا كثيراً من المعطيات الموضوعية، ومنها تأكيد عروبة الخليج كما رأينا، لكنّها كانت، كما هي الحال مع بقية الرحلات الغربية التي كثرت في التاريخ الحديث، لأغراض استكشافية استعمارية أكثر منها لأغراض علمية. وقد تفاوتت هذه الرحلات في درجة موضوعيتها حسب درجة وطبيعة ارتباط أصحابها بالقوى الاستعمارية التي أفادت كثيراً مما قدّمته من أبحاث ودراسات ومسح معلوماتي حول المنطقة المعنية [٧٢]، ومنها ما أفادته بريطانيا في تحقيق مطامعها وخططها في أقاليم شبه الجزيرة العربية عموماً وفي اليمن والجنوب العربي بشكل خاص.

ومن أبرز الأحداث في عهد الإمام المهدي عباس أيضاً قيام محاولة فتنة غريبة بقدر ما هي طريفة. بدأها عام ١١٨٢/١٧٦٨ القضاة من بني العنسي الساكنين في جبل برط، حيث يذكر الجرافي أنهم كتبوا إلى العلماء في حوث وكوكبان وذمار وغيرها رسائل[٧٣] يحرضوهم فيها على الخروج على الدولة القاسمية لأن أهل صنعاء "أصبحوا مخالفين مذهب أهل البيت ويغيّرون فيه بما أدخلوه عليه من البدع". وقالوا في هذه الرسائل إن السيد محمد بن إسماعيل الأمير هو الذي غيّر مذهب أهل البيت، حيث أخذ بعض أتباعه يرفعون أيديهم ويضمونها في

الصلاة، كما طلبوا إخراجه من صنعاء، فردّ عليهم علماء حوث وكوكبان وذمار وأوضحوا لهم سفه عقولهم، وأنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه، وفيما اعتقدوا أنه بدعة من ضمّ الأيدي ورفعها، وقالوا لهم إن ذلك هو مذهب كثير من علماء أهل البيت، ومنهم الإمام زيد بن علي، وحفيده الإمام أحمد بن عيسى بن زيد وغيرهما، وأكدوا لهم أن ذلك "ثابت من السنة النبوية".

أما الطريف في هذه القصة فهو أن الردّ على أصحابها كان عبارة عن "قصيدة طنانة" قام بها الأمير المذكور "وأبطل فيها مزاعمهم"[٧٤]، بالإضافة إلى المؤلم فيها وهو هدر الطاقة الإنسانية والوقت في الاختلاف على توافه الأمور. وما لبث عهد الاستقرار والأمن في اليمن أن انتهى بموت الإمام المهدي عباس في عام ١١٨٩/١٧٧٥ واستلام ابنه علي الملقب بالمنصور بالله مكانه.

II – اليمن والدولة السعودية من نهاية حكم الإمام المهدي عباس عام ١١٨٩/١٧٧٥ حتى بداية الوجود المصري عام ١٢٢٦/١٨١١:

إنّ الإمام المنصور بالله قد "أركن أمور الدولة إلى وزراء غير أكفاء، فضعفت هيبة الحكومة في وجوه القبائل، وأخذوا يغيرون على صنعاء، ولا يرتدون عنها إلاّ مقابل حصولهم على المال المطلوب"[٧٥]. وكان "سمحاً كريماً ومحباً لبناء القصور والمساجد"[٧٦]. كثرت المحاولات الاستقلالية في عهده، ومن أبرزها وأكثرها أهمية محاولة شريف "أبو عريش"، حيث مركز حكومة تهامة اليمن على الحدود الجنوبية لإقليم عسير. وكان هذا الإقليم قد شهد تأثيراً كبيراً للحركة الوهابية في صفوف قبائله،التي كان يحكمها في هذه الفترة زعماء محليون لا تربطهم رابطة سياسية قوية لا بالشمال الحجازي الذي كان تابعاً، ولو اسمياً، للسلطنة العثمانية، ولا بالجنوب اليمني التابع للأئمة الزيديين، على الرغم من تبعيتهم الاسمية لهؤلاء الأخيرين.

استغل الأمير السعودي عبد العزيز مطامح أحد رجال عسير، واسمه محمد بن عامر الرفيدي. وكان مهاجراً إلى الدرعية وتلقى فيها مبادئ الدعوة الوهابية، وتقرب

إلى أميرها من أجل أن يتفق معه على نشر الدعوة والنفوذ السعودي في عسير مقابل تعيينه أميراً عليها.وكان أن استطاعت حملة سعودية في عام ١٨٠٠/١٢١٥ السيطرة عليها وتنصيب محمد هذا أميراً وهابياً يحكمها باسم الدولة السعودية. وبعد وفاته خلفه أخوه عبد الوهاب بن عامر المسمى "أبو نقطة" على أن يكمل تنفيذ ما تعهده أخوه من نشر للدعوة والنفوذ السعودي جنوباً في بقية أنحاء اليمن(٧٧). بدأ مساعيه هذه بحملة إلى "أبو عريش"، التي كانت تابعة إلى الإمام الزيدي ثم استقلت عنه في عام ١٧٦٣/١١٧٧، وكان شريفها حمود المسمى "أبو مسمار" قد رفض اعتناق الوهابية، وأخذ يحارب انتشارها. وقد استطاع أبو نقطة الانتصار عليه وأخذ "أبو عريش" في عام ١٨٠٢/١٢١٧. واضطر الشريف حمود الذي كان "مشهوراً بالشجاعة والكرم"(٧٨) إلى الخضوع للسعوديين مقابل استمراره في حكم "أبو عريش" باسمهم. وقد أخضعوا أيضاً معظم مدن وموانئ وقرى تهامة اليمن(٧٩).

ولقد استغلّ أبو نقطة ضعف الإمام الزيدي المنصور علي، وانشغاله بصراع أبنائه التسعة على الحكم، من أجل أن يتوغل عام ١٨٠٥/١٢٢٠، في الساحل اليمني، فأغارت قواته على مينائي اللحية والحديدية حيث أعملت فيهما النهب والسلب. ولقد وصل الخطر السعودي في اليمن عام ١٨٠٨/١٢٢٣ إلى درجة حصار صنعاء، لكن الزيديين استطاعوا ردّه عنها. وفي عام ١٨٠٩/١٢٢٤ انتهى حكم الإمام المنصور علي لصالح استلام ابنه أحمد بن علي الملقب بالمتوكل على الله(٨٠). وقد جمع العداء للسعوديين بينه وبين الشريف حمود الذي كان قد فرّ في ذلك العام نفسه من عسير نتيجة لفشل محاولته في الاستقلال بإمارته "أبو عريش".

وقد أظهر استعداده لمؤازرة الإمام وتخليص موانئه من الوجود السعودي الذي كان يهاجمها بزعامة "أبو نقطة" باستمرار، مقابل أن يعينه حاكماً على منطقة اللحية والحديدة وبيت الفقيه(٨١). وكان أن أمده الإمام بقوات لمهاجمة "أبو عريش" فاحتلها في أواخر عام ١٨٠٩/١٢٢٤ نفسه، وقتل الأمير الوهابي لعسير "أبو

نقطة"، فأسرع الأمير سعود الكبير إلى تعيين أمير جديد مكانه على عسير اسمه طامي بن شعيب، وكان من أشدّ المتحمسين أيضاً لنشر الدعوة الوهابية في اليمن كلها[٨٢].وإن قدوم محمد علي بقواته المصرية عام ١٨١١/١٢٢٦ قد منعه من ذلك كما سنرى بعد التعرف على تطور منطقة الجنوب العربي، أي عدن وحضرموت.

كان ما دعي فيما بعد باليمن الشمالي مصداً في وجه الهجوم السعودي على ما دعي فيما بعد باليمن الجنوبي، أي منطقة حضرموت ولحج وعدن، التي استغلّت الانشغال الزيدي بالهجمات السعودية وباضطراباته الداخلية من أجل أن تحتفظ باستقلالها. وكان من أبرز الأحداث التي شهدتها هذه المنطقة بروز الاهتمام البريطاني بها منذ حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨/١٢١٣، والتي كان من إحدى نتائجها المهمة وضوح أهمية سواحل شبه الجزيرة العربية، وخاصة الجنوبية، بالنسبة للهيمنة على الطريق التجاري الدولي إلى الهند والشرق عموماً، ممّا يفسّر ازدياد الاهتمام الجدي البريطاني بهذه السواحل، ومنها سواحل اليمن. وإذا كانت البعثة البريطانية برئاسة الجنرال ولسون قد فشلت في الوصول إلى اتفاق مع اليمنيين في عام ١٧٩٩/١٢١٤، فإن البريطانيين قد نجحوا في احتلال جزيرة بريم في العام نفسه. وبالرغم من موقعها المسيطر على الملاحة في مضيق باب المندب فقد غادروها بعد أشهر فقط إلى ميناء عدن، بسبب عدم صلاحيتها بعدْ للاستغلال المربح.

رحب سلطان عدن، أحمد بن عبد الكريم، بالحامية البريطانية التي حاول قائدها بلانكيت (BLUNKETT) عام ١٨٠٠/١٢١٥ إقناع الحاكم العام البريطاني في بومباي باحتلالها تماماً لاستغلال موقعها كقاعدة ومنطلق للأسطول البريطاني وكمركز تموين له بالإمدادات الغذائية، وطرح إمكان تحويل تجارة البنّ، الذي انطلق من موطنه اليمني الأول إلى البلاد العربية وتركيا وأوروبا[٨٣] ثمّ إلى بقية العالم، لتكون مستقبلاً عن طريقها بدلاً من ميناء المخا، لكنه رفض كلّ هذا،

وغادرت الحامية البريطانية ميناء عدن. هذا وإن سلطانها أحمد نفسه، الذي هو سلطان لحج أيضاً، هو الذي أبرم اتفاقاً مع بعثة بوبهام(Popham) البريطانية عام ١٨٠٢/١٢١٧، فاتحاً هذا الميناء الأخير بموجبه للبضاعة البريطانية سامحاً بإقامة وكالة تجارية بريطانية فيه، متكفلاً بحماية خاصة للرعايا البريطانيين مقابل تعهد بريطانيا بحماية رعايا السلطان إذا ما هاجمهم الفرنسيون[٨٤].

واستمرت الوكالة التجارية هذه بامتيازاتها تعمل في المخا على الرغم من كلّ المصاعب. وكما بدأ الوجود الجدّي لبريطانيا في هذا الميناء، أي المخا، منذ عام ١٧٩٩/١٢١٤، فكذلك الأمر بالنسبة للوجود الأميركي الذي كان له دور فعال في تجارة البنّ فيه منذ ذلك. وقد استطاع التجار الأميركيون إقامة أول وكالة تجارية أميركية لهم في الجزء الجنوبي من هذا الميناء[(٨٥)]، وأن وجودهم هذا قد أشار إلى بداية دخول طرف جديد في الصراع الدولي على اليمن والبحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي عموماً، هو الطرف الأميركي. هذا وكان ميناء المخا قد "وصل إلى أوج ازدهاره في مطلع القرن الثامن عشر عندما كانت تتوافد إليه سفن مختلف الأمم لتحميل القهوة"[٨٦].

أما حضرموت فقد استمر اليوافع فيها في الحفاظ على استقلالها، وقد منعوا انتشار المذهب الزيدي فيها. وظلوا في حكمها حتى عام ١٨٠٣/١٢١٨، إذ استطاع أحد أمراء آل كثير، وهو جعفر بن علي، إعادة ملك أسرته وتأسيس دولتها في سيون وتريم داخل حضرموت[(٨٧)]. وبعد وفاته عام ١٨٠٨/١٢٢٣ خلفه ولعام واحد فقط أخوه عمر بن علي، وفي عهده ضعفت الدولة الكثيرية، وأخذ اليوافع تريم منها من جديد. ثم أتى من حيدر أباد في الهند غالب بن محسن بن عبد الله الكثيري ليتزعم أسرته ولينتزع تريم ثانية من اليوافع. بعد ذلك زادت الفتن، وهيمنت التفرقة والتجزئة في حضرموت، فتوزعتها، بالإضافة إلى سلطنة آل كثير وسلطنة آل يافع، سلطنات أخرى ومنها سلطنة مهرة، وسلطنتا آل واحد غربي حضرموت، الأولى عاصمتها عزان، والثانية عاصمتها بئر علي. أما الرئاسات والمشيخات في

حواضر حضرموت وبواديها، والمعترف بها من السلطنات المذكورة، فمنها رئاسات بني فهد، وبني عمد، والعوامر، وآل نوح، الخ[٨٨]...ولقد بقيت حضرموت بمعظم إماراتها هذه مستقلة بنفسها حتى أواخر تاريخها الحديث.

****

هوامش الفصل الرابع

---

[١]- الصباغ، تاريخ العرب...، ص ٢٣٩-٢٤٣.

[٢]- المرجع نفسه، ص ٢٤٢-٢٤٣.

[٣]- انظر على سبيل المثال: فرح، المرجع السابق، و: ROSSI, op. cit.

[٤]- غارودي، المرجع السابق، ص١٥-١٦.

[٥]- الخطيب، المرجع السابق، ص١٩٦.

[٦]- المرجع نفسه، ص٢٤١، وقاسم، الخليج العربي...، ص١٧٠.

[٧]- Factory Records, Letters from Bussora, Gambroon, vol. 16, 30/11/1768 and 4/2/1769.

وانظر عبد الأمير محمد أمين، مقاومة إمارات شرقي الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربي للتغلغل الاستعماري الأوروبي ١٥٠٠-١٨٢٠، بيروت، ١٩٨١.

[٨]- راجع قاسم، الخليج العربي، ص١٧١- ١٧٢.

[٩]- عبد العزيز عبد الغني، حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي دراسة وثائقية، الرياض، ١٩٨٢، ص٢٩-٩٣.

[١٠]- العقاد، التيارات...، ص٦٠.

[١١]- خزعل، مرجع سابق، ص ٢٠٧-٢٠٩، وانظر أيضاً ابن غنام وابن بشر وفيلبي.

[١٢]- حول معنى ثيوقراطية راجع سموحي فوق العادة، موجز المذاهب السياسية، دار اليقظة، دمشق، ص ٤١، وموقع موسوعة المعرفة الألكتروني: www.marefa.org

[١٣]- Fernand J. TOMICHE, L’Arabie Séoudite, Paris, 1969, p. 34.

[١٤]- راجع ابن بشر، مصدر سابق، جزء ١، ص١٤-١٠٢، وابن غنام، مصدر سابق، ص٩-١٣٦، والعجلاني، عهد عبد العزيز ....، ص٣٩-٨١.

[١٥]- ابن غنام، مصدر سابق، ص٩٥ و١١٣ وابن بشر، مصدر سابق، جزء ١، ص١٣ و٣.

[١٦]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٨٠-٨١. وانظر عبد الله صالح العثيمين، العلاقة بين الإحساء وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من أعمال مؤتمر تاريخ شرقي الجزيرة العربية، المجلد الثاني، الدوحة، ١٩٧٦.

[١٧]- لمع الشهاب، ص٦٢، وعبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٨٠-٨١.

[١٨]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٨٠-٨٣.

[١٩]- انظر ابن بشر، مصدر سابق، الجزء الأول، ص٢٧ و٤٢ و٤٨ و٦١ و٦٢ و٨٠ و٩٩.

[٢٠]- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٥٩-٩٤.

[٢١]- ابن بشر، مصدر سابق، الجزء الأول، ص٨٣، وفيلبي، مصدر سابق، ص ١١٦-١١٧.

[٢٢]- ابن بشر، مصدر سابق، جزء ١، ص٩٧-١٠٩، وابن غنام، ص ١٥٨-١٨٥.

[٢٣]- فيلبي، المصدر السابق، ص ١١٧-١١٨.

[٢٤]- أحمد عسّه: معجزة فوق الرمال، بيروت، ١٩٦٦، ص١٧.

[٢٥]- انظر العجلاني، عهد سعود ...، ص ٢٣.

[٢٦]- انظر العجلاني، عهد عبد العزيز بن محمد...، ص ٢٤-٢٨.

[٢٧]- انظر العجلاني، عهد سعود...، ص ٢٣-٢٤، وسيديو، مرجع سابق، ص ٥١٤-٥١٥.

[٢٨]- العجلاني، عهد سعود...، ص ٢٣-٢٩.

[٢٩]- Cr. WILSON, op. cit.,p. 196.

وحول علاقة الدولة السعودية الأولى مع دول شرق الجزيرة راجع مؤلفات جمال زكريا قاسم وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بهذا الخصوص.

[٣٠]- خزعل، المرجع السابق، ص٣٢٠.

[٣١]- شاكر، المرجع السابق، ص٢٤١.

[٣٢]- رافق، المشرق العربي...، ص٢٥٨، ودحلان، المرجع السابق، ص٣٠٣.

[٣٣]- رافق، المشرق العربي...، ص٢٥٩، والعقاد، التيارات السياسية...، ص٣٧.

[٣٤]- دحلان، المصدر السابق، ص ٣٠٥.

[٣٥]- غرايبة، تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٨٤، ص٥٨.

[٣٦]- خزعل، المرجع السابق، ص٣٢٤.

[٣٧]- المرجع نفسه، ص٣٢٠، وعبد الرحيم، المرجع السابق، ص١٣٠-١٣١.

[٣٨]- ابن غنام...، ص ١٣١-١٣٣و ١٧٤-١٧٥، والسباعي، تاريخ مكة، جزء ١، ص ٣٠٢.

[٣٩]- ابن غنام، مصدر سابق، ص ١٧٥.

[٤٠]- لمع الشهاب، ص ٩٧.

[٤١]- راجع عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ١٣٣-١٣٥.

[٤٢]- العجلاني، عهد عبد العزيز بن محمد...، ص ١٤٥. وأورد العجلاني رسالتين في الأرشيف العثماني بهذا الشأن في صفحات ق- د. د في هذا المرجع نفسه.

[٤٣])- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ١٣٥-١٤٨.

[٤٤])- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بولاق، ١٢٩٧هـ، الجزء الثالث، ص٤٤، والشناوي، المرجع السابق، ص٩٣٨-٩٣٩.

[٤٥])- طربين، المرجع السابق، ص١١١.

[٤٦])- فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١١٧.

[٤٧])- المرجع نفسه، ص ١١٦.

[٤٨])- عثمان بن سند البصري، مختصر مطالع السعود، ١٣٠٤هـ، ص ٢٨، وابن بشر ، مصدر سابق، جزء أول، ص ١٢١-١٢٣، وفاسيلييف، مرجع سابق، ص ١١٥-١١٩، و:

HOGARTH , op. cit. , p. 102.

[٤٩])- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، "ديوان"، ١٨٠٣، الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٣٨-٤٠(نقلاً عن فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١١٧).

[٥٠])- Cf. L.A. CORANCEZ: Histoire des Wahabis depuis leur origine jusqu'a la fin de 1809, Paris, 1810, pp. 25,28-29,186.

[٥١])- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٢١٠ Bombay Government: Selection ; from the Records of Bombay Bombay, 1856, vol. XXIV, p.430.

[٥٢])- فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١١٨.

[٥٣])- لوتسكي، مرجع سابق، ص١٠٠-١٠١، والعجلاني، عهد سعود الكبير...، ص٦٤-٦٨.

[٥٤])- راجع عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ١٩١-٢٢١، وابن بشر، الجزء الأول، ص ٧٥-١٥٥، و:

S.H.J.BRYDGES, A brief history of the Wahaby,London, 1834, vol.2, pp. 27-28

[٥٥])- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، "ديوان"، ١٨٠٣، الإضبارة ٢٢٣٤، ص ٣٠٠(نقلاً عن فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٢٠).

[٥٦])- دحلان، مرجع سابق، ص ٢٢١، وابن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٢٢، و:

BURCKHARDT: Note…, vol. 2, p. 326.

[٥٧])- عبد الرحيم، المرجع السابق ، ص١٤٥.

[٥٨])- فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٢٠.

[٥٩])- ابن بشر، مصدر سابق، جزء ١، ص١٢٣-١٢٤، والمختار، مرجع سابق، ص٧٧-٨٠.

[٦٠])- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ١٤٨.

[٦١])- راجع بشأن الهيمنة على الحجاز: دحلان، المصدر السابق، ص٢١٦-٢٦٨، وابن بشر، مصدر سابق، جزء أول، ص١٠٣-١٣٥، وابن غنام، المصدر السابق، ص١٢٣-٢٠٥.

[٦٢])- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص١٥٠.

[٦٣])- لمع الشهاب، ص٩٧.

[64])- انظر ابن بشر، مصدر سابق، جزء أول، ص ١٠٨، وابن غنام، مصدر سابق، ص١٩٥.

[65])- ابن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٣٧-١٣٨.

[66])- طربين، المرجع السابق، ص١١٣.

[67])- انظر الدار القومية للوثائق التاريخية من يوسف كنج إلى محمد علي، محفظة(١) بحربرا، وثيقة (٨) بتاريخ ١٩ صفر ١٢٢٣/١٦ أبريل ١٨٠٨، ووثيقة (٢١) بتاريخ (١٩) ذي الحجة ١٢٢٤/٢٥ يناير ١٨١٠.

[68])- عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٢٢١.

[69])- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، "ديوان"، ١٨٠٣، الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٢١١-٢١٤.(نقلاً عن فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٢١).

[70])- الجرافي، المصدر السابق، ص١٨٣-١٩٠، وعبد الله العمري: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث (١١٦١-١٢٦٤)، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٥/١٩٠٤، ص١١-٤٣.

[71])- المرجع نفسه، ص ١٨٤.

[72])- راجع جمال زكريا قاسم: "الدوافع السياسية لرحلات الأوروبيين إلى نجد والحجاز" (من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية . الرياض، ١٩٧٧)، وأحمد فخري، اليمن...، ص٧٥-١٤٧، وبيرين، مرجع سابق، وانظر أيضاً: NIEBUHR, op. cit.

[73])- راجع الجرافي، المرجع السابق، ص١٨٧-.١٨٨.

[74]) -المرجع نفسه.

[75])- مؤلف مجهول: صفحات مجهولة من تاريخ اليمن، تحقيق وتقديم القاضي حسين بن أحمد السباغي، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، ١٣٩٨/١٩٧٨، ص١٠.

[76])- الجرافي، المرجع السابق، ص١٩٠-١٩٢.

[77])- البطريق، المرجع السابق، ص٤٨.

[78])-الجرافي، المرجع السابق، ص١٩١.

[79])- حول الوجود الوهابي في عسير والشريف حمود انظر العمري، المرجع السابق، ص١٢٧- ١٤١، وعبد الرحمن أحمد البهكلي: نفح العود في دولة الشريف حمود، الرياض، ١٤٠٢/١٩٨٢، ص١٢٨-.٢٦٨، ووهبة، المرجع السابق، ص٣٦-٤١.

[80])- العمري، المرجع السابق، ص١٤٣-١٧٩.

[81])- Henry SALT: A Voyage to Abyssinia, London, 1814, p. 124.

[82])- البطريق، المرجع السابق، ص٤٩-٥٠. وفخري، اليمن...، ص١٥٧.

[83])- الصباغ، تاريخ العرب...، ص ١٤٦.

Damascus University

[84]- إيريك ماكرو: اليمن والغرب، ترجمة حسين العمري، ط.٢، دار الفكر، دمشق، ص ٤٩-٥٦.

[85]- المرجع نفسه، ص٦٠-٦٨.

[86]- الصباغ، تاريخ العرب...، ص ١٤٦.

[87]- غرايبة، تاريخ...، ص٩٢.

[88]- دروزة، العرب والعروبة...، الجزء التاسع، ص ٨١-٨٣.

****

Damascus University

الفصل السادس

المتغيرات وأقاليم شبه جزيرة العرب في المرحلة الثالثة من تاريخها الحديث: من بداية الوجود المصري عام ١٨١١/١٢٢٦ إلى نهاية دولة محمد علي العربية عام ١٨٤١/١٢٥٧:

المحتويات:

أولاً)- المتغيرات والدولة السعودية ودولة محمد علي العربية النهضوية وبداية الوجود المصري في شبه الجزيرة العربية عام ١٨١١/١٢٢٦:

I - السلطنة العثمانية وبريطانيا ومسألة الدولة السعودية الأولى.

II - المسألة الشرقية العربية: دولة محمد علي العربية وأبرز ركائزها النهضوية وبداية الوجود المصري في شبه جزيرة العرب عام ١٨١١/١٢٢٦.

ثانياً)- أقاليم شبه جزيرة العرب وتدمير الدرعية وبريطانيا والوجود المصري حتى نهايته فيها (١٨١١/١٢٢٦-١٨٤٠/١٢٥٦):

ثالثاً)- التآمر الاستعماري العثماني-البريطاني ونهاية دولة محمد علي العربية النهضوية عام ١٨٤١/١٢٥٧.

****

أولاً)- المتغيرات والدولة السعودية ودولة محمد علي العربية النهضوية وبداية الوجود المصري في شبه الجزيرة العربية عام ١٨١١/١٢٢٦:

I - السلطنة العثمانية وبريطانيا ومسألة الدولة السعودية الأولى:

بدأت هذه المسألة، كما رأينا، مع التحالف الوهابي السعودي وتشكّل الدولة السعودية عام ١٧٤٥/١١٥٨، وبرزت بعد تبادلها مع علماء المسلمين والحكام العثمانيين فتوى تكفير بعضهم بعضاً. وتزايد خطرها مع تزايد قوتها وتأثيرها بعد

اتساعها بضم نجد والإحساء والحجاز وعسير وخضوع قسم من القواسم وبقية الدول العربية في الخليج العربي لها[1]. ووصلت قمتها في عهد الأمير سعود إذ سيطرت على الأماكن المقدسة المستظلة بحماية السلطان العثماني آنذاك، وصارت من أقوى الدول آنذاك "مما أرهب الدولة العثمانية وأقلقها"[2]. ثمّ كان وضوح خطر ممارساتها في إبراز ضعف هذه الدولة وضرب هيبتها في أوساط المسلمين،بخاصة بعد إعلان سعود نفسه "الخليفة الشرعي للمسلمين"[3]، فما هي أهم هذه الممارسات؟

١- الممارسات الوحشية للوهابيين[4]، من تكفير ونهب وتدمير وقتل لآلاف المسلمين في حروبهم في جزيرة العرب، بمختلف مذاهبهم.

٢- قيامها بعد السيطرة على المدينة المنورة، عام ١٢١٨/١٨٠٣، بالاستيلاء على ما في الحجرة النبوية من الكنوز القيّمة[5]، وبتدمير أضرحة الصحابة "ذات القباب التي أنشئت تكريماً لأبطال فجر الإسلام"[6]، والتي كان يزورها الكثيرون تقديراً لأصحابها وبعيداً عن أي معنى للشرك، كما هي الحال مع زيارة قبر الرسول الكريم (ص). وتحديد الحلال والحرام فيها يعود إلى "عدم فعل محذور عند القبر" حسب الفهم الوهابي نفسه[7]، وإلى النوايا الحسنة على مبدأ قوله (ص) إنما الأعمال بالنيات، والله وحده يعلم بهذه النيات وبما تخفي النفوس، وبالتالي فلماذا هدمها أو هدم قبابها؟ وماذا عن سرقتها ونهبها وحكم الإسلام الصريح فيها؟ وماذا عن حكم التكفير دون حقّ في شرع الله تعالى[8]؟

٣- إعلان الأمير سعود في موسم الحجّ عام ١٢٢١/١٨٠٦ أنه لم يعد للسلطان العثماني سليم الثالث أية سلطة على الحرمين الشريفين، وقيامه بمنع دخول قوافل الحجّ المصري والشامي والعراقي إلى الديار الحجازية، وبطرد القاضييْن التركييْن من مكّة والمدينة.

٤- حرص الأمير سعود على إقامة علاقات ودّية مع فارس التي "يذكر بعض المؤرخين أنّه قد أعاد لحاكمها الشاه أحسن ما أخذه من ضريح الحسين (في مأساة كربلاء) وأهداه هدايا جزيلة"[9].

٥- انتشار الخطر الوهابي السعودي ليشمل معظم شبه الجزيرة العربية، وليصل إلى بلاد الشام والعراق كما رأينا.

إن اتساع دائرة تأثير الوهابية الدولية لم يثر خوف السلطنة العثمانية فقط، وإنما أثار خوف جميع الدول المذكورة وعلى رأسها بريطانيا التي، إذ كانت تعلن حرصها على عدم التدخّل في الشؤون الداخلية للمنطقة، كما رأينا، فإنها كانت تعمل سراً وعلناً على دعم حلفائها بهدف قيامهم بما يخدم توطيد سيطرتها وخاصة في الخليج العربي. وعليه فهي كانت تريد للدولة السعودية الوهابية أن تبقى بحجم معيّن يضمن تحريكها متى وكيف شاءت في خدمة مصالحها. من هنا كانت حكومة بومباي "توصي بعدم إغضابها" وإبقاء "الصلات الحسنة معها بالاحترام المتبادل والنية الحسنة لا بالنصوص والعهود المكتوبة"[١٠]، أي سرّية. أما أن تتجاوز حجمها المرسوم لها وأن تعجز عن منع القواسم بعد تبعيتهم لها من مهاجمة السفن البريطانية باسم الجهاد، فهذا ما لم يكن مقبولاً. والآن ماذا عن دولة محمد علي؟

II - المسألة الشرقية العربية: دولة محمد علي العربية وأبرز ركائزها النهضوية وبداية الوجود المصري في شبه جزيرة العرب عام ١٢٢٦/١٨١١:

صحيح أنّ بداية التاريخ العربي الحديث قد شهدت بداية النهاية للزمن العربي، زمن الهيمنة العربية العالمية، اقتصاداً وثقافةً وحضارةً طوال العصور القديمة والوسطى، وأنّ مسيرته قد شهدت انحدار الوطن العربي الكبير، ولكن سرعان ما ما ظهرت الانبثاقات الأولى الهامة لليقظة وللنهضة ولحركة التحرر العربية، والتي تجسدّت بشكل خاص في الثورات الشعبية التحررية والمحاولات الاستقلالية والتوحيدية الوطنية في الوطن العربي بمغربه ومشرقه. من بين أبرز هذه المحاولات في المغرب العربي كانت محاولة السلطان المنصور الذهبي في مراكش حيث بويع عام ١٥٧٨/٩٨٦ كإمام للمسلمين، والذي، كما أكّد أحد الباحثين، "أصبحت قلوب أهل المشرق بأجمعها مقبلة عليه وعقولهم حاضرة إليه لاشتياقهم إلى إمارته

العربية"[١١]. ولقد أسهمت هذه المحاولة، وبعدها المحاولات الاستقلالية النهضوية الهامة لكلّ من فخر الدين المعني وظاهر العمر ضدّ الاحتلال العثماني، ودولة اليعاربة ضدّ الاستعمار البرتغالي، في التمهيد للمحاولة الأقوى للنهضة في هذا المشرق العربي، وهي محاولة الدولة النهضوية العربية لمحمد علي الذي كان، على حد تعبير ماركس(MARX)، "الشخص الوحيد الذي كان في وسعه استبدال العمامة المفتخرة التركية برأس حقيقي"[١٢]، والذي شكّلت دولته أبرز التحديات لبريطانيا وللسلطنة العثمانية وذلك بفعل إنجازاتها على كلّ صعيد[١٣].

أتى محمد علي مصر كضابط تركي في الفرقة الألبانية التي أرسلتها السلطنة العثمانية عام ١٧٩٩/١٢١٤ للتصدّي للحملة الفرنسية. وسرعان ما أدّى تميزه الذاتي إلى أن يترقى وتنتخبه فرقته قائداً لها[١٤] عام ١٨٠٣/١٢١٨. وكان من أبرز أسباب قوته بعد ذلك شعبيته الواسعة نتيجة لدعمه للأهالي في التصدي الفاعل لممارسات المماليك الظالمة، وحبّ وتقدير العلماء من الوطنيين له بقيادة عمر مكرم ثمّ انتخابه والياً على مصر، وليضطر المركز السلطاني، تحت إصرارهم، إلى إصدار فرمان تعيينه عام ١٨٠٥/١٢٢٠.

صحيح أنّ شعبيته قد زادت بعد إسهامه الفعال في التصدّي للحملة البريطانية بقيادة فريزر عام ١٨٠٧/١٢٢٢،وفي انتصار المقاومة وإخراج الإنكليز من مصر، ولكنها تسارعت مع إنجازاته المذهلة في تكوين دولته العربية المدنية النهضوية العصرية القوية على الصعيدين الداخلي والخارجي[١٥]. يمكن إيجاز أبرز ركائز دولة محمد علي، والتي تفسر إنجازاتها هذه، في خمس ركائز أساسية مترابطة:

١- الأولى وعي محمد علي لتكامل عملية الإصلاح والتطوير داخلياً وخارجياً، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

٢- الثانية استيعابه لأهمية امتلاك الدولة للقوة العسكرية، البرية والبحرية، الكفيلة بضمان أمنها الوطني الداخلي والخارجي.

٣- الركيزة الثالثة إدراكه لأولوية توطيد حكمه وسلطته، ومنه تخلصه من المماليك، ومن وصاية الطرف المتعصب والمتطرف من المشايخ، وضرب فئة الإقطاعيين المدنيين والدينيين، وضمان دعمه الخارجي، ومنه تحالفه مع فرنسا ومحاولة إرضاء المركز السلطاني، ووضع عيون ساهرة على مصالحه ومصالح دولته في الداخل والخارج. وقد يكون من أهم ما قام به في الداخل اعتماده على الشعب المحلي بغالبيته العربية العظمى، في جميع مؤسسات الدولة، ومنها الجيش الوطني والجهاز المالي والضريبي ودواوين المشورة المنتخبة من سكان المدن الكبرى والهامة، وإنجازه للإصلاح الزراعي وربط الفلاحين والبدو بأرض الدولة الموزعة عليهم، وتطوير التعليم والبحث العلمي وتشجيع البرجوازية الوطنية وخاصة الصناعية[٦٦] ومنها صناعة الأسلحة.

٤- الركيزة الرابعة كانت حرصه في تكوين دولته على الجمع بين صفتين أساسيتين: صفة الدولة الإسلامية أولاً، وصفة الدولة العصرية ثانياً، مدركاً حقيقة الارتباط التكاملي بين الإسلام والمعاصرة في مضمونهما الحقيقي.

٥- الركيزة الخامسة لدى محمد علي كانت ضرورة اعتماد دولته على الدمج الحكوماتي والشعبي بين ثلاث روابط: الإسلامية والعروبية والوطنية،مما كان يعني إدراكه لعلاقة الترابط التكاملي الحضاري الإنساني غير التناقضي فيما بينها. وإدراكه هذا يفسّر تركيزه وأولاده وضباطه من غير العرب على الانتماء العروبي لدولته في مضمونه الحضاري غير العرقي، من حيث أنّه الانتماء الجامع لشعوبها المؤلفة من بلدان جميعها عربية، أرضاً وشعباً ولغةً وتاريخاً وثقافةً، أي بلدان مصر والسودان سوريا الشام وشبه الجزيرة العربية. وطبعاً عناصر الشعب والأرض واللغة المشتركة في أية دولة هي التي تحدّد هويتها الوطنية والقومية وليس عنصر السلطة فيها أياً كانت هوية وأصول أصحابها. وينقل عمارة عن أحد الفرنسيين كان قد التقى إبراهيم باشا بالقرب من طرسوس في الأناضول سنة ١٢٤٩/١٨٣٣، قوله: "إن إبراهيم باشا يجاهر علناً بأنه

ينوي إحياء القومية العربية، وإعطاء العرب حقوقهم، وإسناد المناصب إليهم سواء في الإدارة أم في الجيش، وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً... وتتجلى فكرته هذه في منشوراته وفي مخاطباته لجنوده في الحرب الأخيرة بسوريا، فإنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التليد"[١٧].

وكانت كوادره عربية الانتماء الحضاري بغض النظر عن أصولها العنصرية، ومن ضمنها التركية، حسبما أكّد أحد كبار مستشاريه قائلاً: "إننا جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا... ولقد اندمجنا في تلك الأمة العربية التي سبقت أوروبا إلى الحضارة، وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذي يتجلى للناظرين في المدن الزاهرة التي أنشأتها، والعمائر الجميلة التي أقامتها"[١٨]. كلّ ما تقدّم يثبت التوجّه والهوية العروبية لدولة محمد علي الذي أكّد كثير من الباحثين استعرابه[١٩]. أما ما ذكره البعض حول نفي توجهه العربي وعلى أنّه كان "يهدف إلى السيطرة على الخلافة الإسلامية والجلوس محلّ الخليفة العثماني في القسطنطينية"[٢٠] ليس إلاّ، فهو أمر لا دليل عليه، بخاصة وأنّ السلطان العثماني لم يكن في ذلك الحين خليفةً لا اسماً ولا مهاماً[٢١].

بدأت المسألة الشرقية المصرية منذ نجاح برجوازية وعلماء مصر وأهلها في طرد الوالي العثماني وانتخاب محمد علي كحاكم عليها، وتحوّلت إلى مسألة شرقية عربية بعد توحيده ما بين مصر وبين البلدان العربية المشرقية التي ضمّها، وهي بلدان السودان وسوريا وشبه الجزيرة العربية. لم يكن خافياً على بريطانيا خطورة دولة محمد علي القوية الحديثة منذ بدأت في مصر، فكيف بعد أن توسعت إلى أكبر دولة عربية-إسلامية وازدادت قوتها وإنجازاتها النهضوية على كلّ صعيد، وبعد أن توضّحت تطلعات حاكمها إلى استعادة السيطرة العربية-الإسلامية على التجارة الدولية لصالح دولته المستقبلية. ولم يكن خافياً على السلطنة وبريطانيا أهداف محمد علي من قيامه بمحاولته النشطة لإحياء طريق البحر الأحمر الذي كان طريقاً عالمياً إلى الهند والشرق الأقصى، وتوسيع علاقات دولته التجارية مع

بلاد العرب والهند، ودخوله في مشاركات مع التجار العاملين فيها، ولماذا كتب بنفسه إلى شركة الهند الشرقية عام ١٢٢٥/١٨١٠ من أجل حثّها والاتفاق معها على إحياء المواصلات إلى الهند عن طريق البحر الأحمر وخليج السويس(٢٢).

كان مما أثار مخاوف السلطنة العثمانية وبريطانيا من كلّ من دولة محمد علي العربية النهضوية والدولة السعودية الوهابية أيضاً، صلاتهما بالقوة الفرنسية العدوة والمنافسة الأولى للدولة البريطانية آنذاك. وإذا كان هدف الدولة السعودية الوهابية من هذا التحالف مع فرنسا هو الحصول على الدعم الأوروبي الذي من شأنه تزويدها بالسلاح والخبرة واكتساب دعم بقية القوى الأوروبية، فإن هدف حركة محمد علي منه كان، بالإضافة إلى ذلك، الحصول من فرنسا على مستلزمات الدولة العصرية، وخاصة أسرار العلم والصناعة الحديثة. أما بالنسبة لفرنسا فكانت تأملّ أن يساعدها حليفها السعودي بالسيطرة على طريق منافستها بريطانيا إلى الهند. وكانت "تقدر أنها بفضل صداقتها لمحمد علي ومركزها القوي في مصر، ستفيد فائدة كبرى فيما إذا نجح في إقامة الإمبراطورية العربية"(٢٣).

لكلّ ما تقدم من الأسباب المتعلقة بدولة محمد علي والدولة السعودية، من التي أثارت مخاوف كلّ من بريطانيا والسلطنة العثمانية أكثر فأكثر على مصالحهما ومستقبل وجودهما في العالم العربي، كان اتفاقهما على أسلوب ضرب عصفورين بحجر واحد، أي ضرب إحداهما بالأخرى(٢٤). وبناء عليه صدرت الأوامر السلطانية إلى محمد علي بالتوجه إلى شبه جزيرة العرب لتدمير الدرعية والقضاء على الدولة الوهابية فيها، بأمل أن تكون النتيجة ضرب قوة الدولتين معاً.

لم يكن هدف هذا التآمر العثماني- البريطاني خافياً على محمد علي، لكنه تجاهله وفي نيته تحويل تطور الأحداث بما يخدم تحقيق مطامحه التوحيدية التوسعية، وخصوصاً ما تعلق منها بالسيطرة على المشرق العربي وبإحياء طريق البحر الأحمر، والذي، كما يؤكد أحد الباحثين: "كان في نيته أن يعمل له حتى لو لم تكن هناك حركة وهابية متمردة على السلطان"(٢٥)، مما يفسر إظهار استعداده

لدى هذا السلطان للقيام بهذه المهمة. وهكذا قرر توجهه إلى شبه جزيرة العرب. ولقطع الطريق أمام أي تآمر عليه، وبالرغم أن الأوامر قد صدرت إليه منذ عام ١٢٢٠/ ١٨٠٥، إلاّ أنه لم يبدأ التحضير لحملته إلاّ في عام ١٢٢٤/١٨٠٩، بعد أن وطدّ سلطته داخل مصر بالقضاء على كل معارضة له فيها، مملوكية أو غيرها، وبإجراء الإصلاحات على كل صعيد، وباستقطاب الجماهير العربية من خلال توجهات ولديه، طوسون وإبراهيم، العروبية الواضحة[٢٦]. ثم كانت حملته إلى شبه الجزيرة العربية عام ١٢٢٦/١٨١١، وكانت معها بداية الوجود المصري فيها.

ثانياً)- أقاليم شبه جزيرة العرب وتدمير الدرعية وبريطانيا والوجود المصري حتى نهايته فيها (١٢٢٦/١٨١١-١٢٥٦/١٨٤٠):

مرّ الوجود المصري في شبه الجزيرة العربية في ثلاث فترات رئيسية: أولاها الممتدة منذ بدايته عام ١٢٢٦/١٨١١ حتى انسحاب معظم قواته العسكرية عام ١٢٣٤/١٨١٩. والثانية الممتدة منذ هذا الانسحاب لمعظم القوات المصرية من شبه جزيرة العرب حتى عودتها إليها إثر توقيع معاهدة كوتاهية عام ١٢٤٩/ ١٨٣٣ بين السلطان العثماني ومحمد علي، أقرّ إليه بموجبها سيطرته على سوريا.أما الثالثة فهي الممتدة منذ هذه العودة للقوات المصرية، إثر هذه المعاهدة، إلى رحيلها ونهاية الوجود المصري في شبه جزيرة العرب عام ١٢٥٦/١٨٤٠. ونقف عند أبرز الأحداث فيها في كل فترة، وخاصة ما تعلق منها بالحدث المحوري المستمر الذي هو التآمر البريطاني للسيطرة على السواحل العربية.

I -أقاليم شبه جزيرة العرب وبريطانيا في الفترة الأولى للوجود المصري فيها:من بدايته عام ١٨١١ حتى انسحاب معظم قوات محمد علي عام ١٢٣٤/١٨١٩:

١- شبه جزيرة العرب وبريطانيا والوجود المصري فيها من بدايته حتى تدمير الدرعية عام ١٢٢٦/ ١٨١٨:

في عام ١٢٢٦/١٨١١ كان يوجد، وفق تقرير قنصل روسيا في مصر، "خلاف شديد بين عبد الوهاب وشريف مكة"[٢٧]، وفي خريف هذا العام دخلت القوات

المصرية إقليم الحجاز بقيادة طوسون بن محمد علي، ونجحت في أخذ ميناء ينبع، لكنها فشلت في معركة وادي الصفراء بالقرب من المدينة المنورة، فاستغلّ محمد علي ذلك ليهوّل في قوة السعوديين مطالباً بإعطائه ولاية الشام التي "بدون مواردها لا يمكن لقواته أن تحقق أمل السلطان في استخلاص الحرمين"[٢٨]، لكنه لم يجد قبولاً لمطلبه فغض الطرف عنه إلى حين. وأتى إبراهيم باشا أخو طوسون بنجدة مصرية استطاعت بمساعدة بعض القبائل العربية أن تأخذ المدينة المنورة ثم مكة والطائف ثم جدّة عام ١٨١٢ ولقد استمرت الاحتفالات في القاهرة سبعة أيام[٢٩].

وهكذا نجحت القوات المصرية في استرداد تبعية الحجاز والحرمين الشريفين للسلطنة العثمانية التي قلّدت طوسون باشوية جدة ومشيخة الحرم وقلدت إبراهيم باشوية ولاية الحبشة، وفيها ثغرا السودان الهامان مصوع وسواكن. وعندما قامت القوات السعودية للأمير عبد العزيز بمحاصرة المدينة المنورة لاستعادتها أتى محمد علي باشا نفسه بالنجدة المصرية الجديدة في تشرين الأول عام ١٢٢٨/ ١٨١٣ مترأساً محمل الحجّ المصري[٣٠]. وإن افتقاده للثقة بنوايا الشريف بركات، على الرغم من الدعم الذي قدمه للقوات المصرية، دفعه إلى نفيه إلى سلانيك حيث توفي فيها، وعين مكانه أخاه الشريف سرور بن يحيى الذي بقي مدة أربعة عشر عاماً.

في محاولة لعزل محمد علي، من جهة، وللحصول على الدعم البريطاني من جهة أخرى، عقد الأمير السعودي عام ١٢٢٩٦/١٨١٤ اتفاقاً مع بريطانيا تعهد فيه باسم السعوديين وباسم القواسم بعدم التعرض للسفن البريطانية[٣١]. وبعض المصادر تشير إلى أن هذا الاتفاق كان قد تمّ منذ بعيد معركة شناص في عام ١٢٢٥/١٨١٠ بين الأمير السعودي مطلق المطيري وقائد الحملة البريطانية[٣٢]، وهناك بعض المراجع تنفي وجود هذا الاتفاق الأخير[٣٣].

استطاع طوسون في ربيع عام ١٢٣٠/١٨١٥ التوغل في نجد والانتصار على الأمير عبد الله في الدرعية، مرغماً إياه على عقد معاهدة الصلح التي بموجبها ترك

له إمارة نجد والقصيم، مقابل قيامه بالاعتراف بتبعية الحجاز إلى الإدارة المصرية، وتعّهده بالتبعية للسلطان العثماني وبالخضوع أيضاً إلى الوالي المصري في المدينة المنورة، وكذلك بتأمين سلامة الحجّ، وبإرجاع الكنوز المنهوبة من مكّة والمدينة، وبالتخلي عن البدع الدينية والمثول أمام السلطان في حال استدعائه. وبعدها وضع طوسون حاميات مصرية في مناطق الحجاز الهامة وعاد إلى مصر، إذ إنّ خوف أبيه محمد علي قد تركّز على أمنه الداخلي، فقرر هذه العودة، في أيار ١٨١٥/١٢٣٠، تحسباً من إنزال جديد يقوم به البريطانيون عليها، أو حتى من هجوم تركي[٣٤]. لكن السعوديين لم يلتزموا بهذه المعاهدة، فكلف محمد علي ابنه طوسون، الذي كان "يميل إلى أولاد العرب"[٣٥]، بمواصلة تنفيذ المهمة ضدّ السعوديين في الشمال تنفيذاً للأوامر السلطانية. وكان أن نفّذ أمره وعاد إلى حربهم منذ عام ١٨١٦/١٢٣١ حتى تدمير الدرعية عام ١٨١٨/١٢٣٣.

في اليمن استطاع الأمير سعود الاحتفاظ بالولاء الوهابي له في عسير في ظلّ أميرها وصنيعته طامي بن شعيب. وكان أن استطاع وهابيو عسير بقيادة المرأة غالية ردّ القوات المصرية عن تربة في هجومها الأول عليها[٣٦]. ولم ينجح الهجوم الثاني لهذه القوات ضدّها وضدّ القنفذة بعدها، ولكن وفاة الأمير سعود واستلام ابنه عبد العزيز مكانه كانت لصالح انتصار المصريين وسيطرتم في عسير، إذ تخلى في حروبه عن خطة أبيه في فتح جبهات صغيرة متعددة من شأنها إضعاف خصمه وبعثرة قواه وجهوده، وتبنّى أسلوب المعارك الكبيرة والفاصلة والتي انتهت بهزيمته. استغل محمد علي المتغيرات هذه كما استغل الصراع الموجود في عسير بين أميرها الوهابي بن شعيب وبين الشريف حمود، أو "أبو مسمار"، شريف "أبو عريش"، ليتحالف مع هذا الأخير، ولينجح عام ١٨١٥ في أخذ رنية وبيشة اللتين كان يعدهما العرب "مفتاحي اليمن الشرقي"[٣٧].

وإن اكتفاء محمد علي بذلك وعودته المذكورة إلى مصر قد أزعجا الإمام الزيدي المتوكل على الله أحمد بن المنصور (١٨٠٩/١٢٢٤ـ١٨١٦/١٢٣١)

الطامح إلى إرجاع تهامة والمناطق التي أخذت منه فيها من قبل السعوديين والشريف حمود. "وكان على جانب عظيم من الذكاء والفطنة، كما كانت له خبرة عظيمة بأحوال الخاصة والعامة"(٣٨). وقد أرسل في عام ١٢٣٠/ ١٨١٥ للسلطان محمود الثاني وللباشا محمد علي طالباً منهما النجدة. فأرسلوا إليه واعدين إياه بتلبية طلبه. لكن هذه النجدة لم تأت في عهده وإنما أتت في عهد ابنه عبد الله الملقب بالمهدي، والذي استلم الإمامة بعد وفاته عام ١٢٣١/١٨١٦.

فيما يخصّ إقليم عمان: رأينا سابقاً انقساماته إلى ثلاث مناطق نفوذ أساسية: منطقة نفوذ آل سعيد على مسقط ومعظم عُمان الداخلية ومركزهم مسقط، ومنطقة نفوذ القواسم في ساحل عُمان الشمالي ومركزهم رأس الخيمة، ومنطقة نفوذ بني ياس ومركزهم "أبو ظبي". ورأينا انقسامات أهله بين وهابيين وأباضيين، وغافريين وهناوين. ورأينا كيف اخترقت بريطانيا الجبهة الوهابية–السعودية، مستغلّةً حرص السعوديين على استقطاب تأييدها لهم، من أجل أن تضرب القواسم.

وكان أن قامت الدولة السعودية الوهابية بحجز سلطان بن صخر زعيم القواسم، في الدرعية، والذي ما لبث أن هرب لاجئاً إلى سلطان مسقط في عام ١٢٢٨/١٨١٣، مزوداً برسائل من محمد علي باشا إلى هذا السلطان، وكان قد حمّله إياها ابنه طوسون الذي التقاه في هذا العام نفسه في موسم الحجّ في الحجاز(٣٩). ومن الملفت للنظر أن سلطان بن صخر بعد أن اتصل بالإنكليز وعاهدهم على احترام اتفاقية ١٢٢١/١٨٠٦ السابقة بينه وبينهم، قد تلاقت رغبات هؤلاء الإنكليز مع رغبات محمد علي وسلطان مسقط على السعي لإعادته على مشيخة القواسم وإلى الشارقة(٤٠). وبتأييد من بريطانيا وبمساعدة شيوخ القبائل العربية على الساحل الشرقي للخليج، وخاصة الشيخ شخبوط شيخ بني ياس في "أبو ظبي"، حاول السلطان سعيد احتلال رأس الخيمة مرتين في عام ١٢٢٨/١٨١٣ وعام ١٢٢٩/١٨١٤، وقد فشل في الأولى، ونجح في الثانية في إجبار حاكمها، الشيخ حسن بن رحمة، على الموافقة على انفصال الشارقة عنه،

وكان سلطان بن صخر قد نجح في الاستيلاء عليها، وعلى أن يستلم رحمة حكم رأس الخيمة، بينما يستلم سلطان بن صخر حكم الشارقة. وتكرس منذ ذلك الحين انقسام القواسم ما بين مؤيد لسلطان بن صخر المتحالف مع المصريين والإنكليز وسلطان مسقط، وما بين مؤيد لحسن بن رحمة الحليف الوهابي للسعوديين.

بالنسبة لإقليم البحرين: على الرغم من أن ممثلي شركة الهند الشرقية كانوا قد لفتوا الانتباه منذ عام ١٦١٣/١٠٢٢ لأهمية البحرين[٤١]، وأن أحدهم وهو المستر أوين قد اقترح احتلالها منذ عام ١٧٠٠/١١١٢، وأن المقيم البريطاني في بوشهر في عام ١٨١٤/١٢٢٩، بناء على مباحثاته مع حاكمها الشيخ عبد الله، قد اقترح توقيع معاهدة معه تتضمن تعهده بتنفيذ مطالب حكومة بومباي المتعلقة بعدم التعرض لكل سفنها ورعاياها وبريدها وممتلكاتها، مقابل تعهدها بتأمين الحماية البريطانية له ضدّ المطامع الفارسية ببلاده، فإن الحكومة البريطانية قد أهملت كل هذه الاقتراحات وتعمدت ألا تتدخل في شؤون البحرين بسبب عدم دخولها بعد في دائرة اهتمامها الفعلي الذي كان مركّزاً على استقطاب فارس للتحالف معها من أجل تأمين مصالحها في سواحلها، وعلى الحرص بالتالي على استمرار إرضائها، ومنه غضّ النظر عما كانت تصرّ عليه حول حقّها في تبعية البحرين إليها رافضةً الاعتراف بشرعية حكم آل خليفة فيها. ولن نتوقف عند هذا الموضوع منعاً من التكرار، إذ ستتم العودة إليه في الجزء الثاني المخصص للتاريخ العاصر حيث برزت هذه المسألة بقوة[٤٢]. مع ذلك، ورغم رفض فارس للاعتراف بحكم آل خليفة في البحرين، فقد قام هؤلاء بالاستنجاد بها لمجابهة الحملة لاحتلال البحرين من قبل تحالف الجلاهمة وسلطان مسقط في عام ١٨١٧/١٢٣٢.

والآن ماذا عن أوضاع عتوب آل صباح الكويت؟ شهد هؤلاء في بداية هذه الفترة وفاة شيخهم الحاكم عبد الله الصباح الذي استطاع بحسن سياسته أن يحافظ على استقلاليتها وأن يتصدى لكل محاولات الفرس وعرب بني كعب وبوشهر والسعوديين لاحتلالها، وان يزيد في ازدهارها. إذ كان "حاكماً حازماً قريباً إلى الحقّ

محباً للعدالة حسن السياسة لا يبتّ في أمر مهم إلاّ بعد مشاورة كافية، وكان لا يخالف الجماعة فيما يرونه صواباً"(٤٣). وجاء بعده، كخليفة له ابنه الشيخ جابر، المسمى بجابر العيش لكثرة تصدقه على الفقراء(٤٤)، ونجح مثله فيما ذكرناه، منذ استلامه عام ١٨١٤/١٢٢٩ حتى وفاته عام ١٨٥٩/١٢٧٦.

وكان من أبرز ما قام به في هذه الفترة تقديم مساعداته لقوات إبراهيم باشا أثناء حصارها للدرعية(٤٥) أولاً، وقيامه بدور المصدّ الناجح للمحاولات المستمرة من قبل عرب بوكعب من أجل احتلال البصرة والمحمرة ثانياً، والتي بنيت عام ١٢٢٧/ ١٨١٢ وأقامت إمارتها المستقلة في شمال شط العرب على يد أمرائها من قبيلة بوكاسب التابعة آنذاك لعرب بني كعب، والتي شهدت منذ ذلك الحين الصراع العثماني–الفارسي لضمها، والذي ستكون نهايته لصالح فارس عام ١٨٣٩/١٢٥٥. ومن أبرز ما تميز به الشيخ الحاكم جابر أيضاً كان حفاظه، كأبيه، على العلاقات الودية للكويت مع كلّ القوى المتنفذة المتصارعة المحيطة بها من عثمانية ومصرية وبريطانية، مع استمراره في تحالفه مع هذه الأخيرة.

شهدت سياسة بريطانيا في شبه جزيرة العرب في هذه الفترة تغييرات هامة تركّزت على اهتمامها بالسيطرة على الخليج العربي ككلّ بما فيه ساحله الغربي، بعد أن كان منصباً في الفترات السابقة على الهيمنة على ساحله الشرقي والجنوبي فقط. وباشرت في ذلك ومنه ضرب القواسم، بعد أن ضمنت مباركة السلطنة العثمانية وسكوت فارس وتعاون معظم الحكام العرب، بدافع الحاجة إلى حمايتها حتى في صراعاتهم فيما بينهم. ثمّ أخذت في إقامة المزيد من الوكالات السياسية والتجارية، بالإضافة إلى تشكيل القوة البحرية البريطانية المتجولة فيه بهدف ضمان هيمنتها الفعلية عليه. وأخذت بريطانيا أيضاً في تصعيد نشاطها هذا في الخليج العربي بعد انتهاء الحرب العامة في أوروبا وانعقاد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ كما ذكرنا سابقاً، حيث خرجت من الحروب النابليونية بممتلكات أكثر اتساعاً في الشرق والغرب، ممّا جعلها أكثر اهتماماً بالمحافظة على الطرق البحرية المؤدية إليها. وقد

عملت على أن يزودها المؤتمر المذكور، الذي كانت تسيطر عليه تماماً، بالشرعية الدولية التي من شأنها أن تساعدها على فرض هيمنتها في الخليج العربي وفي غيره من البحار، وذلك من خلال توصياته بشأن مكافحة ظاهرتي الرقّ والقرصنة، والتي جعلتها شعارها الذي تتقنع به لفرض سيطرتها البحرية الاستعمارية.

٢- شبه جزيرة العرب وبريطانيا من تدمير الدرعية حتى انسحاب معظم قوات محمد علي عام ١٢٣٤/١٨١٩:

بعد استئناف طوسون للحرب عام ١٢٣١/١٨١٦، نتيجة لخرق الدولة السعودية للاتفاقية المذكورة، استطاعت القوات المصرية الداعمة له بقيادة إبراهيم باشا الاستيلاء على الرس وبريدة وعنيزة والتوغل في القصيم. وبعد أن أخذت شقرا استولت على العاصمة الدرعية ودمرتها في أيلول ١٢٣٣/ ١٨١٨، وأسرت أميرها عبد الله وأرسلته إلى الآستانة حيث قتل فيها. وقد أرسل شيخ رأس الخيمة حسن بن رحمة حملة إلى القطيف لتذهب إلى الدرعية للمساهمة مع أمرائها في الدفاع عنها ضدّ قوات إبراهيم باشا، ولكنها وصلت متأخرة(٤٦).

واستكمل إبراهيم باشا سيطرته على نجد وقضاءه على الدولة السعودية الأولى، وأسر أقرباء الأمير وكبار قواده وأرسلهم إلى مصر، وعين محمد بن مشاري بن معمر أميراً عليها. وأعرب السلطان العثماني عن "ارتياحه العميق لهزيمة أعداء الإسلام"[٤٧]، وأمر بصلاة جماعية شكراً لله "على إبادة الفئة "التي خرّبت مكة والمدينة ونشرت الذعر في قلوب الحجاج المسلمين وعرضتهم للخطر"[٤٨]. وعبّر شاه فارس في رسالة إلى محمد علي "عن تثمينه لدحر الوهابيين"[٤٩].

صحيح أن الدولة السعودية قد سيطرت على معظم شبه جزيرة العرب، وامتد تأثيرها الإيديولوجي الوهابي إلى داخل الوطن العربي وخارجه، وازدادت قوتها، إلاّ أنها كانت تحمل عوامل انهيارها في داخلها. وإن سقوطها أتى كنتاج للكثير من الظاهرات والتناقضات التي كانت تفككها من هذا الداخل ببطء، وبحيث كان بوسع

أي تدخّل قوي أن يؤدي إلى بدء عملية انهيارها(٥٠)، فكان التدخل المصري الذي أنهاها تماماً. ومن أهم هذه الظاهرات والتناقضات تعصبها المذهبي الشديد وعنفها المتناقض مع صحيح الإسلام والسلف والإصلاح. وهذا ما يفسّر، كما يؤكّد أحد الباحثين، وجود " نفور الأهالي، من سنّة وشيعة، من فعال القسوة والعنف التي صحبت مساعي الوهابيين لنشر مبادئهم"٥١، على سبيل الإرهاب. ويفسّر بالتالي هجرة الكثير منهم، وخاصة في مكة والمدينة وجدة(٥٢) ومعظمهم من السنة.

يؤكّد كثيرون: "أنّ شدة آل سعود في تطبيقهم لنظمهم كانت أحد العوامل، التي نفّرت منها النفوس، ولم تساعدها على خلق شعور وطني بين رعاياها، أو إيجاد ولاء للدولة ونظمها"٥٣. وكما استعدت سياستها التعصبية الإرهابية الدولة العثمانية السنّية كما رأينا، فقد استعدت الدولة الفارسية الشيعية أيضاً، وخاصة بعد مأساة كربلاء، فأخذت بتقديم المساعدات العسكرية لأعداء آل سعود، وذلك رغم محاولة هؤلاء إقامة علاقات ودية معها في محاولة لمنع تعاونها مع حكام مسقط٥٤.

وما تقدم يفسر قيام القبائل العربية بتقديم الكثير من المساعدات إلى إبراهيم باشا في حربه ضدّ القوات السعودية، وتقديم بعض أهل نجد للكثير من المعلومات إليه حول الدرعية، وكلّ هذا أسهم في إنجازه لمهمته في تدميرها٥٥. وإنّ استياء البدو الذين فقدوا مصادر رزقهم وأُجْبروا على دفع الزكاة للحكام السعوديين، كان مما دفعهم إلى تقديم العون إلى قوات محمد علي بأمل إنقاذهم منهم. ولا شك بدور عونهم هذا في انتصاراتها ضدّهم، وبالتالي في انهيار دولتهم، الدولة السعودية الأولى. والآن ماذا عن الإحساء في هذه الفترة؟

بعد تدمير الدرعية توجّه إبراهيم باشا إلى الإحساء بناء على دعوة صريحة تلقاها من آل عريعر الذين شجعوه على فتحها على أن يكونوا نواباً عنه في حكمها، كما تشير بعض المصادر(٥٦)، وانسجاماً بدون شك مع تطلعات والده للوصول إلى سواحل الخليج. وكان أن نجح بالاستيلاء عليها في عام ١٢٣٣/١٨١٨ نفسه، ودون أية مقاومة، بفضل مساعدة آل عريعر من بني خالد، فسلمهم الحكم فيها. أما

عامل الوهابيين عليها، ابن عفيصان، فقد هرب إلى البحرين. وهكذا عاد حكم بني خالد في الإحساء، وسرعان ما أتموا هيمنتهم على القطيف.

أما بالنسبة للقواسم بعد تدمير الدرعية، فقد تحولت رأس الخيمة إلى مركز انطلاقهم في نشاطهم المعادي لوجود البريطانيين في الخليج العربي. وكان أن قاموا في شتاء عام ١٨١٨/١٢٣٣ نفسه بتوجيه ضربة قاسية للسفن الإنكليزية أدّت إلى احتجاج عنيف من قبل شركة الهند الشرقية. أعقب هذا الاحتجاج وهذا الحدث قيام الحكومة البريطانية في نيسان ١٨١٩/١٢٣٤ بتحديد مسار سياستها الجديدة في الخليج على أساس التدخل العسكري والسياسي، بحسب الأسس الثلاثة الآتية(٥٧):

أ- احترام الأوضاع السياسية الداخلية في الخليج، فلا تتدخل السلطات البريطانية لصالح أحد من الرؤساء إلاّ بناء على طلبه،وحينئذ تؤيد صاحب الحق المشروع.

ب- عدم تشجيع السلطات البريطانية في الهند للأتراك العثمانيين على مدّ سيطرتهم إلى منطقة الخليج العربي بعد أن استولى إبراهيم باشا على نجد وجميع البلدان التابعة للوهابيين.

ج- وضع أنظمة بحرية للملاحة في الخليج، وحق تفتيش السفن بالاتفاق مع القبائل.

تحت ستار "مكافحة الرقيق" تارة، و"مكافحة القرصنة" تارة أخرى نظمت بريطانيا جهودها من أجل القضاء على أسطول القواسم، الذي يؤكد أحد ضباط الأسطول البريطاني في الهند أنه قد تمكن من بسط سيطرته على جميع أرجاء الخليج بساحليه العربي والفارسي، ووصل نشاطه إلى الهند. وأصبحت السفن البريطانية، كما أكد تشيسون(AITCHISON) وكيل الوزارة لحكومة الهند في الخارجية البريطانية(٥٨): "إما تؤسر أو تجبر على الفرار طلباً للنجاة". وقد توجهت السياسة البريطانية في هذه الفترة إلى ضرب القواسم أولاً.

أما سلطة آل عريعر من بني خالد في الإحساء فإنّها لم تستمر طويلاً، إذ سرعان ما عادت القوات المصرية لإبراهيم باشا في عام ١٨١٩/١٢٣٤ لتسيطر

بنفسها عليها بمساعدة عتوب الجلاهمة، الذين كافأهم، بإعطائهم مدينة الدمّام كمركز لهم، فاستقروا وبنوا قلعة فيها. وقد استولت قوات إبراهيم باشا على كل أموال وسلاح آل سعود وممن كان ذا علاقة بهم، وقتلت قاضي الإحساء وجميع أعضاء الوعظ والإرشاد التابعة للوهابيين.

أدرك آل عريعر أن دورهم قريب فهربوا إلى العراق(٥٩)، حيث أقنعوا واليها المملوكي داوود باشا بالاتصال بالباب العالي وتنبيهه عن مدى خطورة النفوذ الذي وصل إليه محمد علي، والذي أنذرتها عنه بريطانيا أيضاً، وخاصة بعد سيطرته على السواحل اليمنية على البحر الأحمر. إن محمد علي باشا، حرصاً على صداقة الإمام الزيدي وعلى الفوائد المتعددة الكثيرة، قد أرسل حملة مصرية في كانون الأول ١٨١٩/١٢٣٤، نجحت في الاستيلاء على "أبو عريش"، وعلى جيزان والحديدة وزبيد وبيت الفقيه واللحية، وهي الجهات التي كان الشريف حمود قد اغتصبها من الإمام الزيدي.

بسقوط الدرعية وعودة الإحساء والحجاز ونجد وعسير إلى التبعية للسلطنة العثمانية انتهى وجود الدولة السعودية الأولى تماماً. كانت بريطانيا تتوقع نجاح تآمرها مع السلطنة العثمانية في ضرب قوة هذه الدولة وقوة دولة محمد علي لبعضهما بعضاً فتتخلص منهما معاً، ولكن، وعلى عكس توقعاتها وآمالها، فإنّ قوة محمد علي قد ازدادت. لقد اكتفى بتدمير الدولة السعودية لصالح إعادة تبعية الحجاز ونجد وعسير إلى السلطنة العثمانية عام ١٨١٨، أما فيما عدا ذلك فقد استمرّ بنشاطه وصلاته خدمة لمصالحه وتطلعاته. وطالما أن توسعه وتعزيز صلاته مع المشايخ والحكام العرب في شبه الجزيرة كان يتم باسم هذه السلطنة فإنه لم يثر أي احتجاج ضده من بريطانيا، أما أن يتم ذلك باسمه وخدمة لمطامحه في تكوين دولته العربية القوية، وأن تصل جيوشه إلى الهيمنة على ساحل الإحساء في الخليج العربي، بالإضافة إلى هيمنتها على بعض سواحل البحر الأحمر اليمنية

الشمالية، فهذا ما كانت ترفضه تماماً. إن تخوف بريطانيا على مواقعها ومصالحها في الخليج قد دفعها إلى إنزال قواتها في القطيف، مباشرةً بعد وصول الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي إلى الإحساء عام ١٨١٩/١٢٣٤ نفسه.

قامت بذلك كشكل من أشكال التهديد غير المباشر له، بهدف الضغط عليه لإقناعه بالتحالف معها للقضاء على القوة البحرية للقواسم بحجة أنهم من الوهابيين. وقد عرضت عليه هذا التحالف بعد عودته إلى المدينة ثم إلى جدّة، حيث التقى فيها في العام نفسه، بمبعوثها سادلر (SADGLIER) والذي، ولتسهيل الأمر على إبراهيم باشا فقد أكّد له نجاح بريطانيا في زرع الانقسام في صفوف الوهابيين. إن رفض إبراهيم باشا، المعروف بتفاخره بانتمائه العربي[٦٠]، لعرض بريطانيا هذا في ضرب قوة القواسم، وقيامه برفض هدية مبعوثها إليه وطرده[٦١]، قد زاد في مخاوفها من الوجود العربي المصري ومن إمكان تحالفه مع قوة هؤلاء بدلاً من ضربها، فكان أن ضغطت باتجاهين اثنين: اتجاه تصعيد الثورة الوطنية في اليونان، واتجاه دفع السلطان العثماني ليعطي أوامره إلى محمد علي الذي كان ما زال تابعاً له، بسحب جيوشه من الإحساء ومن سواحل اليمن لمساعدتها في إنهاء هذه الثورة.

ونجحت بريطانيا في مخططها هذا، حيث قام محمد علي، انصياعاً لأوامر السلطنة ولكي يقطع الطريق على بريطانيا في استغلال أي سوء للتفاهم بينهما، بسحب معظم جيشه في الأيام الأخيرة من عام ١٨١٩ نفسه ، من الإحساء حيث أعاد آل عريعر إلى حمها على أساس تبعيتها لوالي بغداد والسلطنة العثمانية، ومن اليمن حيث قام بتسليم هذه الموانئ اليمنية على البحر الأحمر إلى الأمام نفسه مقابل إعلان خضوعه للسلطنة العثمانية، وقيامه بدفع جزية سنوية، يرسل بدلاً عنها مقداراً معيناً من البنّ إلى مصر باسم السلطان[٦٢]. واحتفظ بأبي عريش التي أسر أميرها، وعيّن عليها أحد الأشراف الموالين له، وهو علي بن حيدر. وكان انسحابه هذا الحدث الذي ارتبطت به بداية الفترة الثانية من الوجود المصري.

II – أقاليم شبه جزيرة العرب وبريطانيا في الفترة الثانية للوجود المصري فيها: منذ انسحاب معظم القوات المصرية ١٢٣٤/١٨١٩ حتى عودتها إثر معاهدة كوتاهية عام ١٢٤٩/١٨٣٣:

اتسمت هذه الفترة بوجود اسمي بحت للوجود المصري، تمثل فقط بتبعية بعض الولاة الذين عيّنهم محمد علي من أجل حكم منطقة الإحساء وإقليمي الحجاز ونجد وعسير باسم السلطنة العثمانية، ووجود بعض الحاميات المصرية في هذين الإقليمين. وإنّ الانسحاب المصري من الإحساء عام ١٢٣٤/١٨١٩ قد أضرّ، لا شك، بوضع العتوب الجلاهمة بشكل خاص، ولكن فشل حروبهم المتكررة ضدّ آل خليفة بعده، بتشجيع من الوهابيين من القواسم، هو الذي أضعف قواهم المادية والمعنوية في هذه الفترة، ولكن دون أن يضع حداً نهائياً لفعاليتهم ونشاطهم. أما من استفاد من هذا الانسحاب فهما طرفان اثنان: أولهما الطرف البريطاني، وثانيهما الطرف السعودي– الوهابي، كما سنتبيّن، ونبدأ بالأول.

١– بريطانيا وأقاليم شبه جزيرة العرب الشرقية والخليج العربي: معاهدة الساحل المهادن عام ١٢٣٥/١٨٢٠:

إن بريطانيا بمجرد اطمئنانها إلى انسحاب الجيش المصري وغياب خطره عن الخليج، والذي سعت لتحقيقه كما رأينا، وحرصاً على عدم إثارة شكوك السلطنة العثمانية، قامت بالانسحاب من ميناء القطيف، بخاصة بعد أن فقدت عدداً كبيراً من جنودها فيه بسبب الأمراض[٦٣]، وأخذت، وبمباركة هذه السلطنة، تعمل على ضرب بقايا القوة العربية الإسلامية في سواحل شبه جزيرة العرب، في الخليج العربي، وخاصة العمانية والقواسم، لتفرض نفسها كبديلة لها في الهيمنة عليه. واستغلت بريطانيا الصراع الفارسي– العماني من أجل أن تزيد في مشاعر الاستعداء بين الطرفين، لتمنع أي تقارب بينهما من شأنه إنهاء هذا الصراع، ولتستغل ذلك في إقناع كليهما بالحاجة إلى دعمها.

وباستثناء بعض الفترات القصيرة فقد كان تحالفها قائماً مع فارس، التي كانت في ظل حكم اللأسرة القاجارية الذي بدأ منذ عام ١٧٩٧/١٢١٢. ولقد أفادت من كونها كانت قد استطاعت منذ عام ١٨٠٩/١٢٢٤ جرّها إلى التخلي عن تحالفها مع فرنسا ثم إلغاء جميع معاهداتها مع بقية الدولة الأوروبية لصالح تحالفها معها وحدها. في أيلول من عام ١٨١٩/١٢٣٤، وفي ظلّ الأسس والحجج المذكورة سابقاً، استغلت بريطانيا تحالفها مع سلطان مسقط لتشدّه إلى التعاون معها في ضرب القواسم. بدأت برأس الخيمة فقصفته ستة أيام متواصلة، ثم أتمت إخضاع موانئ القواسم الأخرى بعد مقاومة كبيرة دامت شهرين. وقد شاركت فرق سلطان مسقط بمهاجمتهم(٦٤). وأخيراً نجح الإنكليز في خرق أسطول القواسم، وإجبار حكامهم، حسن بن رحمة في رأس الخيمة وسلطان بن صخر في الشارقة وشخبوط في دبي، على توقيع معاهدة السلام والصلح العامة عام ١٨٢٠/١٢٣٥.

كانت هذه المعاهدة بداية للهيمنة البريطانية الفعلية في الخليج العربي، حيث تضمنت بنودها العشرة الأساس شرعنة هذه السيطرة باسم المراقبة البريطانية للسفن والأنشطة والأحداث في الخليج العربي لضمان المحاربة الجماعية المشتركة لكلّ الأطراف الموقعة "لجميع أعمال السلب والقرصنة في البر والبحر بصفة دائمة" وكذلك محاربة "قتل الأسرى" و"خطف الرقيق"(٦٥). ودعيت هذه المعاهدة بـ"معاهدة الساحل المهادن" أو "معاهدة الساحل المتصالح". ووقع عليها أيضاً كلّ من شيخي أم القيوين والعجمان، ليتكرس بذلك انفصالهما عن الزعامة القاسمية، وبالتالي تفكك الاتحاد القاسمي. وسرعان ما انضمت إليها مسقط وعُمان اللتين رأينا انفصالهما وصلتهما ببريطانيا سابقاً، وكذلك جزر البحرين.

في جزر البحرين كان شيخا آل خليفة، عبد الله وسليمان، يعملان للحصول على الحماية البريطانية[٦٦] حتى قبل هذه المعاهدة. كان ذلك نتيجة لتخوفهما على بلادهما وحكمهما من طبيعة الظروف المحيطة، والمتمثلة بوجود ثلاثة أطراف تهدد وجودهما في البحرين: الطرف الفارسي الذي كان يصرّ على تبعيتها إليه وعدم

شرعية آل خليفة في حكمها، والطرف العثماني الممثّل في أطماع حاكم البصرة ووالي بغداد بها، والطرف العربي ممثلاً بالجلاهمة وبسلطان مسقط الذي لم تتوقف محاولاته لضمها إليه[٦٧]، وبالوهابيين من صفوف القواسم. أرادا هذه الحماية لأنها، برأيهما، كانت كفيلة بتحقيق هدفين هامين: أولهما ضرب التحالف الفارسي- البريطاني وزرع الخلاف بين طرفيه، ممّا يضعفهما معاً، والثاني ربط المصالح البريطانية بحماية البحرين التي ستضمن أمنها وازدهارها وخاصة التجاري، وبالتالي ستضطرّ إلى ضمان هذه الحماية باستمرار من جميع الأطراف المهدّدة لها. وعليه رحّب الشيخان الحاكمان لجزر البحرين، بتوقيع معاهدة السلام البحرية العامة بين شركة الهند الشرقية والساحل المهادن أو المتصالح عام ١٢٣٥/١٨٢٠. ولا ندري كيف غاب عن الجميع خطورة تسليم أمن البلاد إلى الحماية الأجنبية؟

لا شك بدور قيام بريطانيا بتأجيج مشاعر الخوف لدى الشيخين من جميع الأطراف المذكورة ، ولا ندري كيف غاب عن الشيخين دلالة أنّ بريطانيا، قبل توقيع معاهدة السلام المذكورة، قد بررت قبولها بالموقف الفارسي على أنّه بهدف حماية البحرين من المطامع العثمانية والمطامح المصرية، وبحجّة ضرورة إرضاء فارس لاستقطابها ضدّ المطامع الروسية. أما بعد توقيعها وضمان تبعية شيوخ وحكام الساحل العربي كلهم ومنهم شيوخ البحرين، وضمان بالتالي هيمنتها على الخليج العربي دون مساعدة الفرس، فإنها اعترفت بعروبتها وبشرعية آل خليفة فيها، رافضة قيام فارس بمحاولة استخدام معاهدتها معها عام ١٢٢٩/١٨١٤ من أجل جرّها إلى دعمها لها في احتلال البحرين، مؤكدة لها أن هذه المعاهدة هي دفاعية وليست هجومية[٦٨]. والدلالة هي بالطبع أنّ مصالح بريطانيا هي التي تحركّها باستمرار في تحديد أعدائها وحلفائها.

طبعاً لم تكن إمارة "أبو ظبي" بحكم تبعيتها لحكم آل شخبوط بعيدة عن هذه الأحداث، إذ سرعان ما انضمت بدورها إلى هذه المعاهدة. وكان أميرها شخبوط بن

دياب الذي حكمها منذ عام ١٧٩٥/١٢١٠، والذي أدى انتقاله بمركز حكمه إليها إلى ازدهارها الاقتصادي وإلى توسع حلف بني ياس القبلي، قد تنازل عن الحكم في عام ١٨١٦/١٢٣١ لابنه محمد، الذي بقي فيه عامين فقط، خلفه بعدهما أخوه طحنون الذي استمر في حكمها حتى عام ١٨٣٣/١٢٤٩[٦٩]، وفي عهده كان انضمام "أبو ظبي" إلى المعاهدة.

بعد ذلك، وباسم الإشراف على تنفيذ هذه المعاهدة، ومراقبة شؤون الملاحة في الخليج العربي للتأكد من احترام بنودها وخاصة ما تعلق منها بـ"محاربة الرقيق والقرصنة"، فقد استطاعت بريطانيا، وقد أصبحت القوة العسكرية البحرية الرئيسية في الخليج العربي، السيطرة شيئاً فشيئاً على جميع شؤونه وبلدانه، مستغلة النزاعات العربية، وسياسة فرّق تسد من جهة أولى، وتحالفها مع القوة البحرية العربية الوحيدة البارزة آنذاك، وهي القوة العمانية من جهة ثانية، والتي أسهمت بريطانيا في التصدّي لثورة ونفوذ بني علي في جعلان ضدّها في عام ١٨٢٠/١٢٣٥[٧٠]، وكذلك امتيازاتها الواسعة جداً من كل الأطراف المعنية آنذاك، أي الطرف العربي العثماني والفارسي، من جهة ثالثة. وكلّ ذلك كان مما ساعدها أيضاً على العمل على السيطرة في بقية سواحل أقاليم شبه الجزيرة العربية، كما سنرى من خلال متابعتنا لمتغيرات هذه الأقاليم في الفترة المعنية.

٢- أقاليم شبه جزيرة العرب وبريطانيا من معاهدة الساحل المهادن حتى عودة القوات المصرية إثر معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣/١٢٤٩: الدولة السعودية الثانية:

لم يكن ليخفى على بريطانيا اهتمام محمد علي في اليمن بالبن كمادة تجارية عالمية رابحة، ولا تطلعاته الاقتصادية إلى التحكم في الموانئ اليمنية. ونظراً لأنها كانت قد عقدت اتفاقاً مع سلطان لحج، منذ عام ١٨٠٢/١٢١٧، فتحت بموجبه عدن أبوابها للتجارة البريطانية، فقد توجهت نحو العمل على قطع الطريق على

محمد علي، بمحاولة السيطرة على بقية هذه الموانئ لصالحها الخاص، وخاصة ميناء "المخا" المعدّ كأهم سوق لمحصول البن اليمني، ومركزاً للتجارة عند العرب منذ قرون عديدة، ويطلق اسمه في أوروبا وأميركا على أجود أصناف البن[٧١].

استغلت بريطانيا قيام المتصرف اليمني في المخا في عام ١٢٣٥/١٨٢٠ بالقبض على حرس وكالة أعمال بريطانية وعلى القنصل البريطاني وأحد الربابنة الإنكليز، وبإهانتهم رداً على قيام هذه الوكالة باحتجاز أحد السكان العرب وحبسه في بنائها على الرغم من إطلاق سراحه بناءً على طلب هذا المتصرف، من أجل أن ترسل حملة بحرية بريطانية كبيرة إلى المخا تهدد باحتلاله إن لم يذعن الإمام الزيدي على إعطائها الامتيازات في هذا الميناء، ومنها تخفيض الرسوم الجمركية على بضائعها، والسماح لها بإقامة دار إنكليزية مزودة بأربعين حارساً.

ورفض الإمام المهدي عبد الله أن يخضع لهذا التهديد بداية، ولكنه وبعد أن أخذت السفن الحربية بضرب الميناء وتهديمه، ورأى ضعف قوته الدفاعية استسلم ووقّع في عام ١٢٣٦/١٨٢١[٧٢] المعاهدة المتضمنة لهذه الامتيازات البريطانية في هذا الميناء الذي ضمن لها نافذة مهمة جداً في البحر الأحمر، تماماً كما ضمنت لها امتيازاتها في ميناء عدن نافذة مهمة جداً في بحر العرب، وكل ذلك، رغم احتجاج محمد علي والسلطنة العثمانية نفسها[٧٣].

بعد ذلك انشغلت بريطانيا بالإعداد ثم المشاركة المباشرة في الحرب اليونانية في عام ١٢٤٣/١٨٢٧ ضد حليفتها الدولة العثمانية التي لم تكن لتسمح لها لتقضي على ثورة اليونان بمساعدة قوات محمد علي، لقد أرادت إلهاءها بهذه الثورة عن عرقلة تنفيذ مطامعها في سواحل شبه جزيرة العرب، أما أن تسمح لها بالنجاح في ضربها، وهي الثورة "الأوروبية" فهذا أمر آخر. وكانت النتيجة التحالف الأوروبي بما فيه دولتا بريطانيا وفرنسا برغم عدائهما التنافسي وامتيازاتهما وصلاتهما الوطيدة مع السلطنة العثمانية، ضدّ قوة الطرف العثماني–العربي وخاصة القوة البحرية العربية المصرية.

مع ذلك سرعان ما نسيت السلطنة العثمانية هذا الحدث الذي أعطى التقييم الفعلي لأصدقائها وأعدائها، فتحولت إلى صداقة بريطانيا والتحالف معها من جديد ضد العرب ومحمد علي، الذي بعد أن رفضت تنفيذ وعدها له بإعطائه ولاية الشام كمكافأة له بعد قضائه على الدولة السعودية الأولى، وولاية كريت والمورة أو عكا كبديل عنها كمكافأة على دعمها في الحرب اليونانية، قرر أن يستقل بمصر وأن يحتفظ بوجوده في السودان وشبه الجزيرة العربية، وخاصة في الحجاز واليمن، وأن يضم سوريا إليه، وأن يوحدها جميعاً في ظل حكمه ودولته الواحدة. إنّ وجود محمد علي في شبه الجزيرة العربية قد رسّخ إدراكه لأهميتها خصوصاً، ولأهمية المنطقة العربية عموماً ولوحدة أمتها ولتكاملها وخاصة اقتصادياً، وإدراكه بالتالي للروابط المصرية–العروبية ولدوافع تفريط السلطنة بها. ولا شك أنّ ما حصل في جزيرة العرب قد زعزع ثقة محمد علي، وكذلك ثقة الكثيرين ومنهم عساكره وكوادره، بوجود ارتباط فعلي لدى السلطنة بالرابطة الإسلامية ومصالح المسلمين، ولكن ما أنهى هذه الثقة تماماً هو ما حصل في اليونان التي ذهب إليها تلبية لطلبها أيضاً، والتي أوصلته إلى القناعات الآتية:

أ– الروابط العروبية التي تربط مشرق الوطن العربي ومغربه من خلال الاتصال والتواصل بين عناصر أسطوله المصري وعناصر الأساطيل التونسية والجزائرية والطرابلسية.

ب– الضعف الكبير للسلطنة العثمانية، ومنه استسلامها للضغوط الأوروبية وقبول استقلال اليونان، بعد استنزاف موارده وجيشه البري، وبعد أن ضُرِبت في معركة نافارينو عام ١٨٢٧/١٢٤٣ جميع الأساطيل المذكورة ومنها أسطوله.

ج– وكان من نتيجة حملة اليونان "أن زاد كره محمد علي للسلطان واحتقاره لدسائس حكومته، وأصبح أكثر تصميماً على الاستقلال عنه... وتحول إلى التقارب مع فرنسا"[٧٤]، وعلى أن تدعمه في مشروعه التوحيدي مقابل أن تكون صاحبة الامتيازات الأولى في بلدانه.

وإنّ بروز تفريط السلطنة العثمانية بالمنطقة والرابطة العربية الإسلامية آنذاك، إثر قيام فرنسا باحتلال الجزائر في عام ١٢٤٦/١٨٣٠، ودون أي ردّ فعل مؤثر من قبلها، كان من الأسباب الهامة التي دفعت محمد علي ليستعيد تشكيل قوته العسكرية البرية والبحرية كي ينصب نفسه بالقوة حامياً لدولته العربية القوية الحديثة التي قرّر تأسيسها في مشروعه التوحيدي النهضوي عموماً، ومنه قراره بضم سوريا، أي سوريا–الشام، وكان قد ضمّ السودان منذ عام ١٢٣٥/١٨٢٠. بدأ محمد علي مشروعه هذا بالتوجه إلى أخذ عكا في عام ١٢٤٧/١٨٣١ رافضاً الأمر السلطاني بالانسحاب منها، فاعتبر منذ ذلك الحين خارجاً على السلطنة العثمانية التي أصدرت فتوى بتكفيره والجهاد ضدّه. وقد تابع أخذ وتوحيد البلاد السورية، ثم توجهت قواته نحو الأستانة، فاضطر السلطان العثماني عام ١٢٤٩/١٨٣٣، إلى توقيع معاهدة كوتاهية معه، والتي تنازل له فيها عن سوريا، مما أتاح له الفرصة بعد ذلك إلى تركيز جهوده في شبه جزيرة العرب، ليعيد ويستكمل سيطرته عليها، لا لصالح السلطنة العثمانية هذه المرة، وإنما لصالحه الخاص.

رأت بريطانيا أن تستغل انشغال محمد علي بحربه هذه مع السلطنة العثمانية، ونجاحها في استعادة تحالفها معها ضدّه وضد المصالح العربية عموماً، لتستكمل مساعيها في ترسيخ هيمنتها في الخليج العربي، من خلال جهودها في استغلال وتعميق ظاهرة التشتت والاختلاف في الصف العربي، وبالتالي ضعفه وحاجة كل طرف فيه إلى دعمها، من أجل توقيع معاهدات الصلح المتجددة في الثلاثينيات بين أطراف معاهدة ١٢٣٥/١٨٢٠ نفسها وعلى نسقها، والتي ضمنت لها جميعها استمرار هذه الهيمنة، بخاصة وأنها كانت قد ضمنت احتكار التحالف مع الطرف الآخر من الخليج وهو الطرف الفارسي كما رأينا سابقاً.

لقد كانت بريطانيا تحرص على الالتزام بسياسة المحافظة على شكل من أشكال التوازن في الخليج بين قوتي طرفيه، العربي والفارسي، وبما يضمن لها بقاء

وحماية هيمنتها فيه. هذا من ضمن الأسباب التي تفسر امتناعها عن دعم فارس في أطماعها بالاستيلاء على البحرين وعمان. أما اتفاقها المذكور مع هذه الأخيرة فيفسر سكوتها عن نجاحها في أخذ الكثير من السواحل الفارسية، بما فيها بندر عباس. وقد انشغلت فارس في أواخر هذه المرحلة، بالإضافة إلى موضوع استرجاعها لهذه السواحل، بصراعها مع السلطنة العثمانية حول إمارة مدينة المحمرة، التي كان عرب بني كعب قد أسسوها في عام ١٨١٢/١٢٢٧ وجعلوها مركزاً لإمارتهم في جنوب عربستان، والمستقلة عن كلتا الدولتين معاً، الفارسية والعثمانية، والذي، أي هذا الصراع، سوف ينتهي، بعد فترة قصيرة من خروج قوات محمد علي، بنجاح فارس في ضمها إليها مع بقية أراضي عربستان حسب اتفاقية أرضروم الثانية مع هذه السلطنة عام ١٨٤٧/١٢٦٣، لتبرز مشكلة عربستان منذ ذلك الحين. ومما نجحت فيه فارس أيضاً قيامها بانتهاز فرصة غياب السلطان السيد سعيد المستمر عن مسقط، بعد نقل مركز حكمه إلى زنجبار في عام ١٨٣٢/١٢٤٨، من أجل أن تعيد سيطرتها على السواحل الشرقية للخليج، وبترحيب بريطانيا بذلك، وعلى أن تبق مقاطعة جوادور تابعة لسلطنة مسقط، للأسباب التي رأيناها سابقاً، وخاصة ما تعلق منها بوجود التوازن بين القوتين الفارسية والعربية في الخليج ودائماً لصالح الهيمنة البريطانية فيه.

بالنسبة لعمان، وكعادتها، استغلت بريطانيا انقساماتها المذكورة من أجل العمل على استمرار وتعميق ظاهرة الصراع والتشتت بين فئات شعبها العربي منعاً من توحده في قوة واحدة من شأنها امتلاك القدرة على استعادة الهيمنة العربية على الطريق إلى الهند، بخاصة وأن نفوذها البحري، أي عمان، ومنه "تنافس أسطولها مع الآخر البريطاني على نقل البضائع بين الهند وبلدان الخليج"[٧٥]، كان ما زال حقيقة واقعة، وأن نفوذها في أفريقيا، لاسيما في ساحلها الشرقي كان لا منازع لها فيه، والذي توصلت إليه منذ تركيز معظم سلاطين البوسعيد، منذ النصف الثاني

من الثامن عشر، على ترسيخ وتوسيع النفوذ العماني في الهند وأفريقيا والذي كانت دولة اليعاربة قد وطدت أركانه فيهما قبلهم(٧٦).

بعد فترة من الصراع، فيما بين عامي ١٨٢٠ و١٨٣٢، بين طرف إمارة الشارقة التي كانت تعتبر نفسها وريثة دولة القواسم الغافريين، وبين طرف مشيخة "أبو ظبي" زعيمة بني ياس الهناويين والتي كانت دبي من توابعها حتى ذلك الحين، وبعد توقف أعمال الغوص على اللؤلؤ وسوء أحوال الطرفين المعيشية، وفشل الوساطة العربية لحاكم لنجة في تسويته، وازدياده بعد اغتيال الحاكم طحنون عام ١٨٣٣/١٢٤٩ وتنازع أخويه على السلطة في أبوظبي ولينتهي بحكمهما المشترك لها، ودعم حكومة الرياض لها مقابل الجزية٧٧، استطاعت بريطانيا السيطرة على الطرفين من خلال استغلال حاجتهما إلى الهدنة البحرية. وكان أن عقدت هذه الهدنة بإشراف المقيم العام البريطاني عام ١٨٣٥/١٢٥١ ثمّ تحوّلت من هدنة مؤقتة تجدّد سنوياً إلى هدنة دائمة عام ١٨٤٢/١٢٥٨٧٨.

واستغلت بريطانيا حاجة سلطنة مسقط إلى دعمها لها في صراعها مع فارس والدولة السعودية من جهة، وحاجتها، أي سلطنة مسقط، إلى ضمان أمن أسطولها التجاري ومساعي سلطانها سعيد الناجحة لتشكيل إمبراطوريتها الواسعة في شرقي وأواسط أفريقيا، جاعلاً من زنجبار مركزها عام ١٨٢٩/١٢٤٥، من جهة أخرى، من أجل استمرارية تحالفها معها الذي كان قد بدأ كما رأينا منذ عام ١٧٩٨/١٢١٣، والذي ضمن لها الحليف العربي الذي ساعدها ضد عدوها العربي الصامد في الخليج العربي، أي العدو القاسمي.

ولقد فتح السلطان سعيد "ممتلكاته العربية والإفريقية للامتيازات الأجنبية وذلك بمقتضى المعاهدات التي عقدها مع ثلاث دول كبرى، الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا"٧٩. وكانت مسقط في عهده أول من تعاون من عرب المشرق مع الولايات المتحدة الأمريكية، إذ عقدت معها معاهدة في عام ١٨٣٣/١٢٤٩، حصلت من خلالها على امتيازات "الأمة المفضلة" والتي استمرت مئة عام(٨٠).

أما بالنسبة للطرف الثاني الذي استغل ظروف انشغال محمد علي وقواته بالحرب مع السلطنة العثمانية من أجل استعادة قوته ونفوذه وهيمنته في شبه الجزيرة العربية، فكان الطرف السعودي. لقد استغل السعوديون الحرب اليونانية ١٢٣٥/١٨٢٠-١٢٤٥/١٨٢٩ التي انشغلت بها كلّ الأطراف الخارجية المعنية بشبه جزيرة العرب، العثماني والبريطاني والمصري، من أجل السيطرة من جديد على نجد والقصيم كلها، بما فيها الرياض التي جعلها أميرهم تركي بن عبد الله، الهارب من مصر عام ١٢٣٨/١٨٢٤، عاصمة لدولته الجديدة، الدولة السعودية الثانية، في عام ١٢٣٩/١٨٢٤[٨١]، مستغلين ضعف المواقع المصرية بسبب انتفاضة القصيم ووجود حاميتين فقط في الرياض.

ثم استغل السعوديون انشغال القوات المصرية والعثمانية بحربهما معاً ما بين عامي ١٢٤٧/١٨٣١ و١٢٤٩/١٨٣٣، وانشغال بريطانيا بتثبيت هيمنتها في الخليج العربي، وانشغال عرب الجزيرة بصراعاتهم الداخلية، ثم انشغال الحاميات المصرية الموجودة في إقليم الحجاز بثورة عسير، من أجل توسيع حدود دولتهم هذه بإخضاع شمر وحائل والإحساء والبحرين، والحصول على مهادنة الكويت وعلى التزام عمان بدفع الجزية لهم. وكاد تركي أن ينجح باستعادة معظم بلدان الدولة التي أقامها جدّه سعود، وبحيث أصبح الخليج كله يعترف بسلطتهم عام ١٢٤٩/١٨٣٣، ويدفع الجزية لهم[٨٢].

ورغم أن السعوديين لم يقربوا إقليم الحجاز حرصاً على عدم إثارة قوات محمد علي ضدهم، فإن هذا لم يمنعهم من تقديم الدعم السري لثورة عسير الرافضة لوجود هذه القوات، والتي استمرت طويلاً نتيجة لغياب علاقات التفاهم بين الوالي المصري والشريف في مكة محمد بن عون وكان "شخصية لها مكانتها واحترامها"[٨٣]، ثمّ انتهت بالتعاون بينهما بفضل حكمة سياسة محمد علي وتوجيهاته في رسائله المتبادلة مع هذا الشريف الذي كان الدور الكبير في القضاء على تمرّد القائد الألباني محمد آغا، الملقب بـ "تركجة بلماز" (الذي لا يعرف التركية) وجنده في

مكة ضد القائد العسكري خورشيد باشا، أكفأ رجال محمد علي في الجزيرة العربية، مجبراً إياه على العودة إلى مصر، ومعلناً نفسه والياً عثمانياً للحجاز، ولتصل سيطرته، باسم السلطان العثماني، إلى الاستيلاء على الموانئ اليمنية الهامة، الحديدة وزبيد والمخا.

وكان أن تغلبت حملة مصرية قادها الوالي حاكم الحجاز السابق أحمد باشا يكن على المتمردين في عام ١٨٣٢/١٢٤٨، مجبرة تركجة بلماز هذا على الهرب(٨٤). وإنّ هربه ورجاله على سفينة إنكليزية إلى بومباي[٨٥] يدلّ على صلة تمرده المذكور ببريطانيا. وهكذا عاد إقليم الحجاز إلى الهيمنة المصرية، أما بالنسبة لليمن فقد أرسل إليها في أوائل عام ١٨٣٥محمد علي إبراهيم باشا يكن، وهو ابن أخته وأخو أحمد باشا يكن، ونجح في فتح كامل الساحل اليمني بما فيه اللحية وقمران والحديدة ومخا وغيرها، وباستثناء عدن. والسؤال الآن ما مصير هذا الإقليم ومصير الدولة السعودية الثانية وشبه جزيرة العرب عموماً في الفترة الثالثة من الوجود المصري فيها وما شهدته من تآمر بريطاني ضدّه؟

III- أقاليم شبه جزيرة العرب في الفترة الثالثة للوجود المصري فيها: من عودة القوات المصرية إثر معاهدة كوتاهية إلى نهاية هذا الوجود عام ١٢٥٦/١٨٤٠: السيطرة العربية المصرية:

قام محمد علي باشا، في ضوء استيعابه لسياسة جميع القوى المعنية بشبه الجزيرة العربية، برسم مخططه في فرض سيطرته عليها، وخاصة سواحلها الجنوبية والشرقية والتي تعني التحكم في طريق البحر الأحمر والخليج العربي، طبعاً لحساب مطامحه في تشكيل دولته العربية الواحدة القوية أو "إمبراطوريته"، وفق التقارير البريطانية التي اعتبرت أنها ستشكّل خطراً كبيراً على بريطانيا وعلى طريقها إلى الهند(٨٦).

تضمن مخطط محمد علي جهوده على كل الأصعدة. فعلى الصعيد العثماني توجه إلى محاولة فك الارتباط التحالفي ما بين السلطنة العثمانية وبريطانيا، محذراً

هذه السلطنة من خطر مشاريع حليفتها هذه على الفرات ودجلة في العراق، ومن خطر مخططاتها وسياستها في الخليج وشبه الجزيرة على مصالحها والمصالح الإسلامية عموماً. وعلى الصعيد الأوروبي ومنه البريطاني توجه إلى ترسيخ تحالفه مع فرنسا، باعتبارها القوة الأوروبية المنافسة والعدوة لبريطانيا. هذا في الوقت نفسه الذي كان يطمئن بريطانيا فيه على عدم المسّ بوجودها في الخليج،من باب حرصه على عدم الاصطدام معها ريثما يصل بسيطرته إلى مبتغاه. ويمكننا إيجاز خطواته على الصعيد العربي، والتي انطلقت من محاولة استغلال وحدة الانتماء العربي ما بين مصر وشبه الجزيرة وبقية المناطق العربية، في الخطوات الآتية.

كان من الطبيعي أن تتعلق خطوته الأولى بتوطيد النفوذ لصالحه الخاص في إقليم الحجاز والأماكن المقدسة فيه، فعاد قائده خورشيد باشا عام ١٢٥٢/١٨٣٦ ليعمل على استعادة هيبة الوجود المصري، والتي اهتزت صورتها بعد التمرد المذكور لتركجة بلماز. وكان من الطبيعي أيضاً أن تتعلق خطوته الثانية بالقوة المحلية الرئيسية ذات التأثير الفعلي وهي القوة السعودية، التي استلم فيصل بن تركي حكمها عام ١٢٥٠/١٨٣٤[٨٧]. وبدلاً من إضاعة الوقت والجهد في حرب هذه القوة فإنّ إبراهيم باشا قد سعى إلى تحويلها إلى دولة حليفة وتابعة له تماماً، من خلال عمله على استلام ربيبه الأمير خالد، أو "دميته" حسب تعبير لوريمر (LORIMER)[٨٨]، لإمارتها عام ١٢٥٣/١٨٣٧، ثم السعي عام ١٢٥٤/ ١٨٣٨ لاستعادة نفوذها في الإحساء. ولقد جعل خورشيد باشا مدينة عنيزة في نجد، حيث "استقبل بحفاوة وإكرام بالغين وبتأكيد الولاء والإخلاص من قبل السكان"[٨٩]، قاعدة رئيسية له يمارس فيها نشاطه الدبلوماسي المكثف في أوساط شيوخ وحكام وقبائل الخليج العربي من أجل استقطابهم إلى التعاون معه ومع الأمير خالد، وكان أن أعلن آل الرشيد في حايل وآل السديري في إقليم السدير ولاءهم فثبتهم في إماراتهم. بينما كان حاكم الإحساء من قبله، سعد بن مطلق، قد جعل من القطيف فيها منطلقه لممارسة هذا النشاط نفسه، وباسم الأمير خالد لاسترجاع مجد جدّه.

وهكذا تحولت الدولة السعودية في هذه الفترة إلى واجهة للحكم المصري لمحمد علي، يعمل من خلالها على بسط نفوذه في نجد والخليج العربي بشكل خاص. ولقد نجح بن مطلق باسترجاع واحة البريمي عام ١٢٥٥/ ١٨٣٩، المفتاح الرئيسي لعمان، محولاً إياها إلى مركز جديد لممارسة نشاطه المذكور باسم الأمير خالد. وفي العام نفسه كانت معاهدة البحرين مع خورشيد باشا، والتي تضمنت تبعيتها للأمير خالد وقبولها بدفع الجزية السنوية له، مع ترحيب البحرين بالمصريين حسب تأكيد الوثائق المصرية(٩٠). وكانت العلاقة الودية لخورشيد باشا مع الكويت قد بدأت منذ مساهمة قوات أميرها جابر الصباح في عام ١٨٣٨/١٢٥٤ بتسهيل استعادة الهيمنة السعودية المصرية على الإحساء.

أما بالنسبة لسلطان مسقط فقد استمرت علاقات محمد علي الودية معه منذ أعلن تأييده السريع للأمير خالد في صراعه ضد الأمير فيصل، وتعمقت أكثر حين وقف محمد علي إلى جانبه في خلافه مع الأمير خالد بعد أن قام هذا بتعيين سعد ابن مطلق المطيري حاكماً على عمان كافة في البر والبحر، مما يعني تبعية مسقط له ومطالبتها بالتالي بالولاء ودفع الزكاة. وقد طلب محمد علي من الأمير خالد إرضاءه فوراً، مما يفسر غضب هذا الأمير وصلاته بمساعد المقيم البريطاني في البحرين من أجل محاولة تجديد علاقات الود والصداقة التي كانت بين أبيه سعود والحكومة البريطانية(٩١). وأن علاقات سلطان مسقط الودية هذه مع محمد علي لم تمنع استمرار تحالفه الوثيق أيضاً مع بريطانيا التي عقد معها اتفاقية تجارية عام ١٨٣٩/١٢٥٥[٩٢].

في اليمن، وبعد احتلال بريطانيا لجزيرة سوقطرة سنة ١٢٥٠/ ١٨٣٤ ثمّ انسحابها منها بعد عام، لم يكتف محمد علي بالسيطرة على تهامة عام ١٢٥١/ ١٨٣٥، وإنما قام عام ١٨٣٧/١٢٥٣،بالسيطرة على كل مناطقها باستثناء صنعاء التي بقيت بيد الزيديين[٩٣]. وعلى الرغم من تأكيداته على حرصه بعدم المسّ بمصالح بريطانيا، فإن تخوفها منه كان مستمراً، وكان يزداد مع كل خطوة من

خطوات مساعيه المذكورة في السيطرة على شبه جزيرة العرب ومع كلّ جهد من جهوده في خلق دولته العربية القوية عموماً، وفي توسيع نشاطها العالمي وخاصة التجاري، والذي زاد بعد أن نظم تجارة البن وحصرها بإدارة مركزية في جدة منذ عام ١٨١٩/١٢٣٤، واستقطب أصحابها بترك حرية التصدير لهم في قراره في عام ١٨٣٥/١٢٥١، والذي جدد في عام ١٨٣٧/١٢٥٣ (٩٤).

و"أبصر البريطانيون أنّ مصالحهم تقضي بألا يكون محمد علي قابضاً على طرقهم إلى الهند وبأ لا يكون محتكراً للتجارة معها"٩٥، ومع بلدان الخليج العربي والبحر الأحمر أيضاً. وزادت مخاوفهم بهذا الشأن بعد أن قام بتعيين وكلاء تجاريين في بومباي، وبعد أن أخذ بتصدير البضائع الأوروبية والمصرية معاً إلى الهند، والتي بدأت بمنافسة البضائع البريطانية نفسها، وبعد أن أصدر أوامره بمنع السفن القادمة من بومباي من الصعود في البحر الأحمر شمالي جدّة، وبعد أن توجه إلى إعداد أسطوله التجاري الخاص في الخليج العربي، بعد أن هيمن على معظم موانئ البحر الأحمر بحيث غدا ما يشبه "بحيرة مصرية"(٩٦). وزاد أكثر بعد أن احتكر التجارة في السودان، ومنها تجارة الصمغ والعاج وجلود الحيوان(٩٧)، وبعد أن أدخل الصناعات الحديثة إلى السودان "ليتمكن السودانيون من الاعتماد على أنفسهم"(٩٨)، وليتمكن هو من الاستفادة منهم في المصانع المصرية ذكوراً وإناثاً(٩٩)، وبعد أن احتكر تجارة الحرير في الشام، ووقف ضدّ المشروع البريطاني في تجربة الملاحة بالبواخر في نهر الفرات فيما بين عامي ١٨٣٤/١٢٥٠ و ١٨٣٥/١٢٥١ والتي كانت بمباركة السلطنة العثمانية(١٠٠). وكان أن صعدت بريطانيا تحركها ضد محمد علي ودولته على أربعة مستويات:

الأول مستوى عمان حيث أخذت تعمل بالتعاون مع حليفها السلطان سعيد على تأليب شيوخ بني النعيم في واحة البريمي بهدف إشعال الفتن والثورات ضدّ الوجود المصري، وحيث توسطت في إنهاء النزاع بين هذا السلطان وبين ابن عمه المستقل عنه بصحار لتقنعهما بضرورة اتفاقهما ضد خطر هذا الوجود.

والمستوى الثاني هو استغلال معاهدة السلام العامة المعقودة بينها وبين شيوخ الساحل العربي من أجل الضغط عليهم ودفعهم إلى كتابة تعهدات خطية "بتأييد السياسة البريطانية ضد السياسة المصرية"(١٠١). ولم تكتف بهذا الضغط بالنسبة للبحرين، بل استغلت كالعادة خوفها من المطالبات الفارسية بها من أجل أن تدفعها إلى إلغاء اتفاقها مع خورشيد باشا في عام ١٢٥٦/١٨٤٠. ونظراً لتخوفها من إمكان تعاطف سلطان بن صخر، زعيم القواسم، مع المصريين نتيجة لما كانوا قد قدموه له من مساعدة لاستعادة حكمه في الشارقة، فقد أضيف نصّ خاص به تعهد فيه صراحة بعدم إجراء علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد علي وأنصاره أو أي قوة أجنبية أخرى، قبل موافقة الحكومة ابريطانية، وأن يعتبر حلفاء هذه الحكومة حلفاءه وأعداءها أعداءه.

المستوى الثالث الذي نشطت فيه بريطانيا ضد دولة محمد علي هو التحالف مع أعداء خطه العروبي الموحد داخل دولته نفسها، في صفوف الإقطاعيين واليهود لتشكيل عناصر "الثورة المضادة"(١٠٢) لثورته داخلياً، ولتعمل على تأليب الجماهير العربية الإسلامية ضدّه، وخاصة في سوريا والسودان. وكان أن بدأ دعمها الفعلي لتشكيل الحركة الصهيونية منذ ذلك الحين (١٠٣).

والمستوى الرابع هو الاحتجاج الرسمي لدى خورشيد باشا ولدى محمد علي. وإن خوفها من امتداد وجودهما المصري إلى العراق دفعها إلى تعزيز قواتها في البصرة واحتلالها لجزيرة الخرج في عام ١٢٥٤/١٨٣٨(١٠٤). أما الخوف من امتداده إلى اليمن بعد أن وصلها الخبر بأنّ الإمام الزيدي يوشك على الاعتراف به، وعلى فتح أبواب العاصمة صنعاء لقواته، قد دفعها إلى الإسراع باحتلال عدن عام ١٢٥٥/ ١٨٣٩، بموافقة السلطان العثماني[١٠٥]، لمنع هذا الاعتراف. باشرت بعد ذلك التخطيط السريع والتآمر لإنهاء وجود محمد علي في شبه جزيرة العرب خصوصاً، وللقضاء عليه وعلى دولته العربية عموماً.

ثالثاً)- التآمر الاستعماري العثماني- البريطاني ونهاية دولة محمد علي العربية النهضوية عام ١٨٤١/١٢٥٧:

كان احتلال عدن، من جملة ما كان، ضربة كبيرة لمطامع فرنسا التي كانت ما تزال المنافسة الرئيسة لبريطانيا آنذاك، والتي لم تنس دور هذه ضدها، وخاصة في خروجها من مصر، وفي صدور الكثير من قرارات مؤتمر فيينا ضد مصالحها، فبقيت على عدائها لها، والذي لم يكن مانعاً في عام ١٨٣٠/١٢٤٦ من وعدها لها بالتخلي عن دعم محمد علي مقابل سكوتها عن احتلالها للجزائر. كانت فرنسا على دراية تامة بنشاط منافستها السياسي لدى زعماء ومشايخ القبائل في شبه الجزيرة العربية لتثير مخاوفهم منها ولتبعدهم عن التعامل معها، ومنهم سلطان مسقط وسلطان لحج وعدن والإمام الزيدي. وكانت تدرك أيضاً غرض البريطانيين من احتلال عدن المذكور،

وقد أخبر قنصلها في القاهرة محمد علي به مؤكداً أنه: "لم يكن احتكار البن في اليمن وجعل الجزيرة العربية كلها سوقاً لبضائعهم ومصنوعاتهم فحسب، بل أنهم يهدفون أيضاً إلى السيطرة على مدخل البحر الأحمر حتى يساعدهم ذلك في المستقبل على غزو مصر وضمها إلى أملاكهم"(١٠٦). كان تحذير فرنسا هذا لتأجيج عداء محمد علي لبريطانيا، ومن منطلق التزيّ بلبوس صداقته وشده إليها أكثر فأكثر بعيداً عن غريمتها. هذا في الوقت نفسه الذي كانت فيه قد اتفقت وإياها سراً على ضرورة الحدّ من نفوذه، ولو أنهما قد اختلفتا حول درجة هذا الحدّ. ثلاثة أسباب كانت وراء تحول فرنسا نحو هذا الاتفاق.

السبب الأول مشاركتها والقوى الغربية جميعاً، وخاصة بريطانيا، في مشاعر التخوف من مستقبل دولة محمد علي العربية النهضوية القوية الواحدة على مصالحها في الشرق والغرب، والتي كانت تتمتع بكل الإمكانيات اللازمة لاستعادة المجد والنظام العالمي العربي، وبالتالي لإسقاط النظام العالمي الغربي. وإن وجود

التاريخ المشترك، وخاصة الإسلامي، كان ما يزال يمارس تأثيره في محبة الشرق الإسلامي، الآسيوي والأفريقي، للعرب، وفي تطلعه إليهم كبديل عن الهيمنة الاستعمارية الأوروبية. ولقد كانت رغبة فرنسا في الحدّ من توسع ونفوذ هذه الدولة دون القضاء عليها، بعكس رغبة بريطانيا باعتبارها كانت تمثل زعامة النظام الغربي المهدد، والأكثر تضرراً وتخوفاً بالتالي من بقية قواه الأوروبية، والتي أخذت على عاتقها استنفار التآمر العثماني- الأوروبي من أجل تحقيق رغبتها هذه[١٠٧].

السبب الثاني كان تحرك المسألة الشرقية ليس لصالح طرف محمد علي ودولته العربية فقط، وإنما لصالح طرف المنافسة الرئيسة لفرنسا وبريطانيا معاً أيضاً، أي طرف روسيا في تحالفها مع النمسا. إن تهديد قوات محمد علي للآستانة في نيسان عام ١٨٣٣/١٢٤٩، على الرغم من وقوفها في كوتاهية بناء على أوامره، قد دفع السلطان العثماني محمود الثاني إلى الاستنجاد بروسيا التي أرسلت قواتها فوراً إلى البوسفور لحماية السلطنة. وإن إدراك بريطانيا وفرنسا لمطامع روسيا في احتلال الآستانة والسيطرة بالتالي، وحليفتها النمسا، على الدولة العثمانية كلها، قد دفعهما إلى إقناع السلطان بقبول طلبات محمد علي، مؤقتاً، لقطع الطريق أمام روسيا لتحقيق مطامعها هذه بحجة الدفاع عن السلطنة.

وكان أن وقع معه كما رأينا سابقاً معاهدة كوتاهية في أيار ١٨٣٣/١٢٤٩، والتي تنازل له بموجبها عن سوريا، وولى ابنه إبراهيم باشا ولاية أضنة، وأعطاه كريت وشبه جزيرة كانديا التي كلفت الباب العالي جهود عشرين سنة كي ينتزعها من البندقية. وهكذا جمّد خطر محمد علي مؤقتاً بالنسبة للدولة العثمانية. مع ذلك لم يكتف السلطان محمود الثاني بالوقوف عند ذلك وانتظار تنفيذ الوعود البريطانية بالعمل على إزالة هذا الخطر تماماً، وإنّما دفعه خوفه وضعف دولته إلى توقيع معاهدة هنكار اسكاله سي مع روسيا في صيف عام ١٢٤٩/ ١٨٣٣ نفسه، مرتبطاً معها بموجبها بحلف دفاعي وهجومي، مقابل قبوله بإغلاق مضائق الدردنيل في وجه المراكب الغربية المسلحة، أي في وجه منافسي وأعداء روسيا، ومنهم بريطانيا

وفرنسا. مما يعني بالنتيجة أنها قد أصبحت سيدة البوسفور والدردنيل، ويعني البداية في تحقيق مطامعها في حلّ المسألة الشرقية لصالحها.

لكن هذه المطامع سرعان ما ضُرِبت من خلال التآمر العثماني- البريطاني الجديد ضدّها وضدّ دولة محمد علي بشكل خاص، والذي أسفر عن معاهدة بلطة ليمان في عام ١٨٣٨/١٢٥٤، التي كانت بمثابة الإطار الاستغلالي الجديد" للاستعمار البريطاني(١٠٨)، الذي استكمل من خلاله سيطرته الاقتصادية بتدمير الاقتصاد العربي خصوصاً والعثماني عموماً(١٠٩). ولم يستسلم محمد علي لهذه المعاهدة، وزاد قوةً بعد انتصاره في معركة نزب على القوات العثمانية عام ١٨٣٩/١٢٥٥، والتي قام الأسطول العثماني فيها بالانضمام كاملاً إلى جانب محمد علي١١٠. ولقد شهدت السلطنة العثمانية في هذا العام نفسه موت سلطانها محمود الثاني واستلام السلطان عبد المجيد مكانه.

كان هذا الانتصار يعني السقوط النهائي والوشيك للسلطنة في قبضة محمد علي، وبالتالي تصفية المسألة الشرقية لصالح تشكيل إمبراطوريته العربية- الإسلامية وتحقيق مطامحه الدولية المذكورة، وخاصة من حيث استعادة النظام العالمي العربي-الإسلامي، أي السيطرة على التجارة الدولية، كسوق ومراكز ومواد وأدوات، وبالتالي نهاية النظام العالمي الغربي وزعامته البريطانية. وكان أن تداعت قوى هذا النظام الغربي العظمى إلى تلبية دعوة زعامته هذه إلى الاستنفار وإلى مؤتمر في لندن يناقش الأزمة والحلّ الجماعي لها في عام ١٢٥٦/١٨٤٠، وكان أن برز الخلاف بين فرنسا وبريطانيا.

أرادت فرنسا تسوية تستطيع من خلالها تقليص نفوذ محمد علي جزئياً وبحيث يزول خطره، وعلى أن تحتفظ بصداقتها وحلفها معه ضماناً لخدمة مصالحها في المنطقة، بينما أصرت بريطانيا على إنهاء قوته تماماً. وكان أن عملت على عقد المؤتمر لبقية القوى ودون فرنسا في تموز ١٢٥٦/١٨٤٠، لتخرج بمعاهدة لندن

الأولى، بينها وبين روسيا والنمسا. ونصّت على منح محمد علي ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدى حياته، وعلى أن يعيد المناطق الأخرى إلى الدولة العثمانية، وأن يدفع جزية سنوية للسلطان، وأن تحصل مصر على استقلالها الداخلي بشرط تحديد جيشها وأسطولها. وقد أعطت المعاهدة الحق للسلطان بسحب ولاية عكا من محمد علي إذا لم يستجب خلال عشرة أيام، وبحرية التصرف ضده إذا لم يستجب خلال عشرة أيام أخرى. ولم يستجب فكانت حربه مع العثمانيين المدعومين من قبل قوات الحلفاء المذكورين، وخاصة الأسطول البريطاني. وهنا برز تأثير نتيجة السبب الثالث في تحول موقف فرنسا وتخليها عن وعودها بدعم محمد علي، وهو تعهد السلطنة العثمانية وبريطانيا باحترام مصالحها في المنطقة العربية، وخاصة في سوريا الطبيعية والمغرب العربي. تمثل هذا التأثير بتعاظم التآمر الدولي وضعف موقف محمد علي، فكان قراره بالانسحاب من سوريا ومن الجزيرة العربية عام ١٢٥٦/١٨٤٠، على أن تبقى له مصر والسودان.

وهذا ما نصت عليه معاهدة لندن الثانية[١١١]، التي أسفر عنها مؤتمر لندن الذي عقد بحضور فرنسا هذه المرة في عام ١٢٥٧/١٨٤١. تضمنت أن مصر ولاية عثمانية ذات استقلال داخلي، ووراثية لمحمد علي الذي سمحت له بضم السودان إليه مقابل عائدات سنوية للسلطنة، ومع التعهد بالتنازل عن ضمّ سوريا نهائياً، وبإعادة الأسطول العثماني إلى السلطنة، وبمنع مصر من القيام بعقد أية معاهدات تجارية. وحددت عدد الجيش المصري ومنعته من القيام بإنشاء السفن الحربية إلاّ بموافقة السلطان. ونفذت هذه المعاهدة وانسحب محمد علي من كل المناطق التي كان قد أخذها خارج مصر والسودان. وصدر الفرمان السلطاني بمنحه مصر وراثية له ولذريته مقابل تقديمه ربع مدخولها إلى السلطنة.

وهكذا نجح التآمر البريطاني- العثماني في القضاء على دولة محمد علي العربية النهضوية. ونظراً لأن هذا التآمر كان ما بين طرف عثماني ضعيف وطرف

بريطاني قوي، فقد كان من الطبيعي أن يقود نجاحه في ضرب هذه الدولة إلى خدمة هذا الطرف القوي بالدرجة الأولى. يتوضح ذلك في ضآلة المكتسبات العثمانية إذ انحصرت في استعادتها للهيمنة الاسمية فقط على المناطق التي انسحب محمد علي منها، في سوريا وبعض أقاليم شبه الجزيرة العربية. أما فوائد ومكتسبات بريطانيا فأبرزها وأخطرها كانت معاهدة بلطة ليمان كونها "أولى حلقات التطبيق العملي للثورة المضادة"(١١٢)، والتي لم تدمر الاقتصاد العربي فقط، وإنما كامل الاقتصاد العثماني ولصالح رأس المال البريطاني وقواه الاستعمارية.

ومن أهم مكتسبات بريطانيا أيضاً سيطرتها الفعلية على معظم سواحل شبه الجزيرة العربية، أولاً، وخاصة بعد انتهاء الوجود المصري فيها عام ١٢٥٦/ ١٨٤٠، وسيطرتها التامة على السلطنة العثمانية لتحركها متى وكيف تشاء ثانياً، وباتجاه تغريب انتمائها وتخليها عن انتمائها الشرقي الإسلامي ثالثاً، والذي منه تواطؤها المستمر حتى بعد نهاية دولة محمد علي ضد المصالح العربية والإسلامية ككلّ لحساب خدمة وتعزيز مصالح زعامة وقوى النظام الرأسمالي الاستعماري الغربي، وسكوتها عن استكمال هذه الزعامة والقوى لاحتلال الكثير من البلدان العربية، وكذلك سكوتها عن هجرة اليهود ونشاط استيطانهم في فلسطين(١١٣)، مما أسقط الرابطة العثمانية كلياً لصالح الرابطة القومية واليقظة العربية التي جسّدتها دولة محمد علي العربية. ولنا عودة إلى أهمية حدث نهاية هذه الدولة في خاتمة الجزء الأول من هذا الكتاب.

****

هوامش الفصل السادس

[١]- حول كل ما يخص المحاولة الوهابية– السعودية سواء في دولتها الأولى أو الثانية راجع بشكل خاص: ابن بشر، المصدرالسابق، وابن غنام، المصدر السابق، ومؤلفات محمد بن عبد الوهاب، وفاسيليسيف، المرجع السابق، ومؤلفات منير العجلاني حول "تاريخ البلاد العربية السعودية"، وكذلك عبد الرحمن

عبد الرحيم، وأحمد زيني دحلان، المرجع السابق، ولمع الشهاب، المصدر السابق، وفيلبي، مصدر سابق. ومن أجل وجهة النظر البريطانية في المحاولة راجع النصوص المعنية بها في لوريمر، مرجع سابق، القسم التاريخي، و:

Selection From the Records of Bombay, XXIV.

[2]- أمين سعيد، المرجع السابق، ص٧٥.

[3]- انظر دار الوثائق القومية، محافظ مكاتبات من وإلى محمد علي: من يوسف كنج إلى محمد علي، محفظة(١)، بحر برا، وثيقة (٨) بتاريخ ١٩ صفر١٢٢٣/١٦ أبريل ١٨٠٨.

[4]- راجع ابن بشر، الجزء الأول، وفاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٣٤-١٥٧، وعبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٥٩-٢٢٠.

[5]- طربين، المرجع السابق، ص١١٤، و الصباغ، تاريخ العرب الحديث...، ص ١٤٤.

[6]- راجع ابن بشر، الجزء الأول، وفاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٣٤-١٥٧، وعبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٥٩-٢٢٠.

[7]- راجع منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية- الدولة السعودية الأولى -عهد عبد العزيز بن محمد، دون مكان أو تاريخ، ص ٢٤١.

[8]- انظر ردّ سليمان بن عبد الوهاب في الصواعق الإلهية، مصدر سابق، ص ١٤-٦١.

[9]- راجع منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية- الدولة السعودية الأولى -عهد سعود الكبير، دون مكان أو تاريخ، ص ٣٠-٣٢.

[10]- راجع العجلاني، عهد سعود الكبير...، ص ٣٠-٣١.

[11]- غرايبة، مرجع سابق، ص٢٥.

[12]- كارل ماركس وف. انجلز، المؤلفات الكاملة، المجلد ٩، ص٢٠٢، (الطبعة الروسية).

[13]- حول محاولة ودولة محمد علي راجع بشكل خاص: وثائق عابدين في دار الوثائق القومية في القاهرة، والجبرتي، مرجع سابق، والرافعي، مرجع سابق، ومؤلفي محمد عمارة، فجر اليقظة...، مرجع سابق، والعروبة في العصر الحديث، دار الوحدة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨١، و: H. DODWELL, The Founder of Modern Egypt, Cambridge, ed.2, 1967; F. MENCIN: Histoire de I'Egypte, Le gauvernment de Mohammed Aly, Paris, 1823.

ومن أجل وجهة النظر البريطانية في المحاولة راجع : لوريمر، مرجع سابق، القسم التاريخي، و:
Selection From the Records of Bombay.

[14]- الصباغ، تاريخ العرب الحديث...، ص ٢٦٢.

[15]- نجاح محمد وأبو جبل، تاريخ الوطن العربي الحديث...، ص٣٣٠-٣٣٣ و٣٧٥- ٤٠٢.

[16]- عمارة، العروبة...، ص ٥-١٩٨.

[17])- الفرنسي هو البارون(Boislecompte): عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص ٤١٤

[18])- عمارة، العروبة...، ص ١٤٦-١٤٧.

[19])- منهم محمد كرد علي، خطط الشام، ط. ٣، بيروت، ١٩٨٣، جزء ثالث، ص ٥٠.

[20])- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ٤١٤-٤١٥.

[21])- انظر المرجع نفسه، ص ٨٤-٨٦، والصباغ، تاريخ العرب الحديث...، ص ٩٥-٩٧.

[22])- طربين، المرجع السابق، ص ٨٥.

[23])- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق، ١٩٦٩، ص ١٦٦.

[24])- العجلاني، عهد سعود الكبير...، ص٩٤.

[25]) - طربين، المرجع السابق، ص٨٥.

[26])- راجع الجبرتي، المصدر السابق، وعمارة، العروبة...، ١٤٥-١٤٧.

[27])- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، "ديوان"، ١٨١٢، الإضبارة ٢٢٨٢، ص ١٢٨(نقلاً عن فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٧٢).

[28])- دار الوثائق القومية، القاهرة، دفتر (١) معية تركي، وثيقة (٨٠)، بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٢٢٦- ١٢ يناير ١٨١٢، من محمد علي إلى كبير آغات دار السعادة.

[29])- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، "ديوان"، ١٨١٣، الإضبارة ٢٢٨٥،ص ٣٢٥(نقلاً عن فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٧٤).

[30])- فيلبي، المصدر السابق، ص١٩٣.

[31])- انظر عبد العزيز عبد الغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، البصرة، ١٩٧٨، ص١٦٩.

[32])- V. MOURIZI (Shaikh Mansur), History of Seyd Said Sultan of Muscat, London, 1819, p. 67.

([33])- عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٢٨٢-٢٨٣.

[34])- Cf. BURCKHARDT: Note…, vol. 2, pp. 33.

[35])- العجلاني، عهد سعود الكبير...، ص ٣٤٠.

[36])- المصدر نفسه...، ص١٤١-١٤٥.

[37])- البطريق، المرجع السابق، ص٥٠.

[38])- الجرافي، المرجع السابق، ص١٩٣.

[39])- قاسم، الخليج العربي...، ص٢٨٧.

[40])- Cf. MOURIZI, op. cit., p. 54.

[41])- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٢٧١-١٢٧٢.

[42])- انظر سابقاً الفصل الخامس ولاحقاً الفصل المعني في الجزء الثاني.

[43])- القناعي، المرجع السابق، ص١٠.

[٤٤]- قاسم، الخليج العربي...، ص٤٠٦.

[٤٥]- المرجع نفسه.

[٤٦]- المرجع نفسه ، ص٢٨٩.

[٤٧])- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، "ديوان"، ١٨١٨، إضبارة رقم ٢٣٢١، ص ٤٣٥.

[٤٨])- المصدر نفسه، ص ٤٧٩-٤٨٠.

[٤٩])- عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٤٠٠-٤٠١.

[٥٠]- فاسيلييف، المرجع السابق، ص١٦٢-١٦٦.

[٥١])- طربين، المرجع السابق، ص ١١٣.

[٥٢]- Ibid, p. 349. ، وفاسيلييف، المرجع السابق، ص١٦٥.

[٥٣])-عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

[٥٤])- المرجع نفسه، ص ٢٩٠- ٢٩١، و: Bombay Govt., op. cot., XXIV, p. 183

[٥٥])- عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

[٥٦]- محمد بن عبد الله الأنصاري، تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد، الرياض، ١٩٦٠، الجزء الأول، ص١١٤.

[٥٧]- العقاد، التيارات...، ص١٠٢-١٠٣.

[٥٨]) – Cf. C.U. AITCHISON, Collection of Treaties, 1892, 1909, Calcutta, vol. XI, p. 198.

[٥٩]- محمد عربي نخلة، تاريخ الإحساء السياسي، دار السلام، الكويت، ١٩٨٠، وانظر عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٨٣، الجزء الثاني، ص٦٥٦.

[٦٠]- عمارة، العروبة...، ص١٤٥-١٤٧، وانظر يوسف جميل نعيسة، محاضرات في التاريخ العربي المعاصر، مطبعة الداودي، دمشق، ١٩٨٤-١٩٨٥، ص٢٥-٢٧.

[٦١]- لوريمر، مصدر سابق، جزء ٢، ص١٠١٠-١٠١٢. فاسيلييف، مرجع سابق، ص١٩٠.

[٦٢]- البطريق، المرجع السابق، ص ٥٠-٥١.

[٦٣]- فاسيلييف، المرجع السابق، ص١٩٠.

[٦٤]- حول هذه ا لحملة انظر:

Bombay Govt., op. cot., XXIV, p. 314; Charles R. LOW: History of the Indian Navy 1613-1863; 1877, vol. 1, pp. 351 ff.

وراجع السيابي، المرجع السابق، ص٩٥-١٧٠.

[٦٥]- انظر المعاهدة في قاسم، الخليج العربي...، ص٣٢٣.٣٢٥، وفي العقاد، التيارات...، ص ١٠٥-١٠٦، وخاصة المادة الأولى ١ و٢ و٧ و٨ و٩.

[66])- قاسم، الخليج العربي...، ص ٤٢٦.

[67]- انظر لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٦٩٧-٦٩٨.

[68]- محمود صبحي، المرجع السابق، ص٩٦-٩٨.

[69]- Bombay Covt., op. cit., vol. XXIV, Cf. Hannell, The Beniyas Tribes.

[70]- مرسي عبد الله، إمارات الساحل...، ص٢٥٩-٢٦٢.

[71]- المرجع نفسه، ص٥٥.

[72]- المرجع نفسه، ٥٦-٥٧.

[73]- دار الوثائق القومية، القاهرة، محافظ...: محفظة رقم ٨، وثيقة رقم ١٧، تاريخ ٦ ذي القعدة ١٢٣٧هـ، ترجمة التقرير الرسمي المعطى من الدولة العلية إلى سفير إنكلترا في الآستانة.

[74])- رافق، المشرق العربي...، ص ٢٩٦.

[75])- العقاد، التيارات السياسية...، ص ٨٠.

[76]- راجع جمال زكريا قاسم، بوسعيد في عُمان وشرقي أفريقيا، القاهرة، ١٩٦٧، وفضلو حوراني، الملاحة العربية في المحيط الهندي، القاهرة، ومحمد عدنان مراد، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، دار دمشق، ١٩٨٤، وكذلك منشورات ندوة "تاريخ عُمان" التي عقدت في أيلول ١٩٩٤ في مسقط وذلك في أعداد صحيفة "عُمان"، تاريخ ٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ أيلول ١٤١٥/١٩٩٤.

[77])- MANN, op. cit., pp.35 and s.

[78]- حول هذه الأحداث راجع العقاد، التيارات السياسية...، ١١٠-١١٣.

[79])- العقاد، التيارات السياسية...، ص ١٢٦-١٣١.

[80]- بونداريفسكي، الغرب ضدّ العالم الإسلامي، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٥، ص٦٤.٦٥.

[81])- لمعرفة المزيد حول تطور هذه الدولة انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب.

[82]- WILSON,op. cit., p. 198.

[83])- البطريق، المرجع السبق، ص ٦٦.

[84]- دار الوثائق القومية...، دفتر ٤٠ معية تركي،من محمد علي إلى محمد بن عون شريف مكة، وثيقة رقم ٨٢٨، صفر ١٢٤٨هـ، ص ١٣٠، و البطريق، مرجع سابق، ص٦٢-٧٣

[85])- البطريق، مرجع سابق، ص ٧٢.

[86]- Harford L. HOSKINS, British Routes to India,London, 1928, p. 269.

[87])- فيلبي، المصدر السايق، ص ٢٥٢-٢٥٩.

[88]- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٣٠٤ و١٦٣٨.

[89])- فيلبي، المصدر السايق، ص ٢٧٧.

(٩٠)- كان هذا الترحيب، حسب الوثائق المصرية، بأمل التخلص من خطر الإنكليز وسلطان مسقط وفارس(دار الوثائق القومية، القاهرة، محافظ الحجاز ١٢٥٤هـ، محفظة رقم ٢٦٧ ومرفق لها رقم ١٣٧ حمراء. وتؤكد بعض الوثائق الإنكليزية هذا الترحيب بينما تنفيه أخرى (دار الوثائق القومية، القاهرة، الوثائق المنقولة عن وزارة الخارجية البريطانية، محفظة رقم /١٢/).

(٩١)- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٦٤٨.

(٩٢)- العقاد، التيارات السياسية...، ص ١٢٨.

(٩٣)- راجع الوثائق المعنية في دار الوثائق القومية، القاهرة، محافظ ، وخاصة المتبادلة بين محمد علي وقائد الجيش المصري إبراهيم يكن: وثائق أعوام هـ١٢٥٠-١٢٥٤ هـ.

(٩٤)- انظر دار الوثائق القومية، القاهرة: مضبطة مجلس جدة بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٤، في وثيقة رقم /٣٣/ محفظة ٢٦٤.

(٩٥)- سيديو، مرجع سابق، ص ٥١٨.

(٩٦)- عمر سالم عمر بابكور، "سياسة حكام مصر تجاه الرقيق" (مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد/٥/، مجلد/١/، مارس،١٩٩٧،ص٤٦٩-٥٢٨)، ص٤٨٢

(٩٧)- الوقائع المصرية عدد ٣٨٨، ٣ محرم ١٢٤٨.

(٩٨)- دار الوثائق القومية: دفتر ٢٦ معية تركي مكاتبة رقم ١٠٠ تاريخ ٢٩ رجب ١٢٤٢.

(٩٩)- المصدر نفسه، دفتر ١٠ معية تركي مكاتبة رقم ٥٤١ بتاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧.

(١٠٠)- عمارة، العروبة...، ص١٦٢.

(١٠١)- لوريمر، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٦٤٢-١٦٤٣ و:

Cf. J. B. KELLY: Britain and Persian Gulf, 1795-1880, Oxford C. Paress, 1968, pp. 290-342.

(١٠٢)- انظر عمارة، العروبة...، المرجع السابق، ص ١٦٩-١٩٨ وانظر لاحقاً.

(١٠٣)- المرجع نفسه، ص١٨٠-١٨٣.

(١٠٤)- قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات...، ص٦٦.

(١٠٥)- دار الوثائق القومية، القاهرة، محافظ...: من الكابتين هينز إلى إبراهيم يكن، وثيقة عربية بدون رقم، محفظة ٢٦٧، تاريخ ١٣ ذي القعدة ١٢٥٣هـ.

(١٠٦)- انظر البطريق، المرجع السابق، ص٩٥.

(١٠٧)- لوريمر، المصدر السابق، الثالث، ص١٦٤ وما يتبع.

(١٠٨)- عمارة، العروبة...، ص١٧٦-١٧٩.

(١٠٩)- طربين، المرجع السابق، ص٢٧١.

(١١٠)- لوريمر، المصدر السابق، ثالث، ص١٦٤٠.

(111)- انظر مؤلفنا: تاريخ الوطن العربي الحديث...، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(112)- عمارة، العروبة...، ص١٦٩-١٩٨.

(113)- وهنا تبدو الحقيقة صارخة من المقارنة بين القرارات السلطانية "المعلنة" وبين الحركة المستمرة لهذا الاستيطان على أرض الواقع، وليكن المرجع هنا مؤلفاً ذا انتماء عثماني وهو أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الأزهر د. عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٩٧٣-١٠٠٢.

****

Damascus University

القسم الثالث

التاريخ الحضاري الحديث لشبه جزيرة العرب

وخاتمة الجزء الأول

Damascus University

الفصل السابع

أهم معطيات التاريخ الحضاري الحديث لشبه جزيرة العرب: أبرز السمات العامة لأوضاعها السلطوية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية

المحتويات:

أولاً)- أبرز السمات الجغرافية-الطبيعية لشبه جزيرة العرب:
ثانياً)- أبرز السمات السلطوية والاقتصادية والاجتماعية لشبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث:
I - أبرز السمات السلطوية.
II - أبرز السمات الاقتصادية والاجتماعية:
ثالثاً)- أهم عوامل منع قيام تحوّل رأسمالي في شبه الجزيرة العربية:
رابعاً)- أهم نتائج ضعف البرجوازية العربية الوطنية في واقع شبه الجزيرة العربية:
خامساً)- أبرز السمات الثقافية لشبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث.
سادساً)- بعض مظاهر الدور الإعماري لبرجوازية شبه جزيرة العرب التجارية: امتداد الوجود العربي الحضاري في آسيا وإفريقيا.

****

كنا قد تعرفنا في المقدمة على مضامين كلّ من ميادين التاريخ الحضاري، السلطوية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ورغم أننا نرى من الضروري هنا دراسة جميع السمات المتعلقة بجميع هذه الميادين سواء منها ذات الصبغة العربية المشتركة أو الخاصة بشبه جزيرة العرب، فإننا نجد أنفسنا مضطرين أن نكتفي بالإشارة إلى أبرزها فقط، نظراً، أولاً، لأننا تعرضنا لبعضها من خلال دراسة التاريخ السياسي في جميع بقية فصول هذا الكتاب، إضافة إلى التمهيد بالطبع، بحكم التداخل والصلة الجدلية بين معطيات الجانبين السياسي والحضاري، وبالتالي

استحالة الفصل التام بينهما. ونظراً، ثانياً، لضرورة الالتزام بالتوازن وعدم الإطالة في صفحات الكتاب. ونظراً، ثالثاً، لامتداد وجود جميع المعطيات العامة للتاريخ الحضاري للوطن العربي عموماً ولشبه جزيرة العرب خصوصاً، قبيل تاريخهما الحديث مما ذكرناه في الفصل التمهيدي، إلى واقعهما طوال هذا التاريخ.

كنا قد تعرفنا في التمهيد على سمات الموقع الجغرافي الاستراتيجي لشبه الجزيرة العربية وأهميته، وخاصة فيما يتعلق ببحارها الثلاثة، أي البحر الأحمر، وبحر العرب، والخليج العربي وامتداده خليج عمان. ونتعرف الآن على سماتها الجغرافية–الطبيعية لكونها المنطلق الهام لوجود بقية السمات ولمعرفتها.

أولاً)– أبرز السمات الجغرافية–الطبيعية لشبه جزيرة العرب:

إن التغيّرات الجيولوجية والمناخية لشبه جزيرة العرب، والتي ذكرناها في التمهيد، تفسّر جغرافيتها الطبيعية المؤلفة من المناطق الرئيسية الآتية التي تتوزع ما بين أراضٍ صالحةٍ للزراعة لوجود المياه فيها، وأراضٍ يمكن إصلاحها بالوسائل العلمية الحديثة، وأخرى غير صالحة:

I – **الجبال والهضاب:** وتتكون من سلسلة السراة التي تقسم إلى سراة عسير شمال اليمن وسراة الحجاز ومن السلسلة الجنوبية الممتدة منذ جبال اليمن إلى أن تشمل جبال عُمان ومنها الجبل الأخضر، ومن المنطقة الجبلية في نجد، وهي هضبة تدعى بجبل شمر أو طيء قديماً، وتتألف من سلسلتي أجا وسلمى، بالإضافة إلى جبل طويق. وتتوزع الهضاب في كل بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية.

II – **تهامة أو غور تهامة:** من التهم أي شدة الحرّ وركود الريح. وتتكون من السواحل المنخفضة الواقعة بين الجبال والبحر الأحمر، وهي حارة شديدة الرطوبة كأنها بقاع جهنم في الصيف.

III – **السهول:** وتتوزع الخصبة منها بندرة في أواسط الجزيرة العربية وفي حجازها وخاصة في الأودية، وبكثرة في جنوبها اليمني وساحلها الشرقي، في عُمان والإحساء والبحرين، وتشمل أيضاً الدارات وهي أرض سهلة لينة، وأشهرها دارة

آرام التي كانت مملوءة بشقائق النعمان. وتتوزع السهول غير الخصبة في البوادي والصحارى.

IV- **الأنهار والأودية:** شبه جزيرة العرب قليلة الأنهار والبحيرات يغلب عليها الجفاف. فيها أنهار صغيرة أو جعافر. ولكن ما يميزها أنها كثيرة الوديان التي تطغى عليها السيول عند سقوط الأمطار، والتي قد تكون قوية وسريعة وجارفة، ومن الممكن أن يستفاد منها في الأغراض الزراعية والصناعية، وأبرزها وادي سرحان، ووادي الدواسر، ووادي طوى، ووادي العقيق إلخ...

V - **الصحارى:** تتشكل من ثلاث مجموعات صحراوية: أولاها مجموعة الحرار أو الأراضي البركانية السوداء، وتكثر في الأقسام الغربية، وهي متصلة بحرار سوريا في منطقة حوران ولاسيما في الصفاة، وتوجد في المناطق الوسطى وفي المناطق الشرقية الجنوبية من نجد، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية، وخاصة على مقربة باب المندب وعند عدن. وما زالت القصص المرعبة عن النشاط البركاني متداولة برغم من توقفه منذ القرن الثالث عشر الميلادي. بعض الحرار ذو مياه حارة كبريتية كالموجود في عسير والحجاز واليمن وحضرموت وعُمان والإحساء، وبعضها ذو مياه كثيرة عادية كحرار الحجاز وخاصة خيبر المستغلة جيداً بالزراعة، وكانت الحرار موطناً من مواطن التعدين القديمة(١)، ويدرسها العلماء اليوم لاكتشاف الموارد الطبيعية والثروات الكامنة في الأرض.

والمجموعة الثانية هي مجموعة الدهناء ذات الرمال الحمراء في الغالب، وبعضهم يسميها النفوذ الصغرى، وممتدة من النفوذ الكبرى في الشمال إلى حضرموت ومهرة واليمن جنوباً-غرباً، وإلى عُمان جنوباً-شرقاً. والقسم الجنوبي منها هو المسمى بالربع الخالي حسب تسمية ابن ماجد لها. وقد اكتشفوا طرقاً تجارية عربية قديمة فيها(٢). واشهر مناطق الدهناء وبار ويبرين في جهتها الجنوبية الشرقية، والأحقاف في منطقتها الغربية، وكلها كانت مأهولة بحضارات عربية قديمة جداً، كحضارة عاد.

والمجموعة الثالثة هي مجموعة النفود الكبرى ذات الرمال الحمراء أو البيضاء، وتبدأ من واحة تيماء في منطقة تبوك حتى مسافة ٤٥٠ كم نحو الشرق. وتتصل مع بادية الشام التي تعد امتداداً لها في بادية السماوة أو الحماد.

IV- **المناخ والأمطار**: من السهل، بعد معرفة الجغرافيا الطبيعية لشبه جزيرة العرب وموقعها وسط الأرض قرب خط الاستواء، معرفة المناخ الغالب فيها، أي المناخ الحار والجاف، باستثناء السواحل حيث الرطوبة المعتدلة في سواحلها الجنوبية والشرقية، والرطوبة الشديدة في التهائم في ساحلها الغربي. وهي تتمتع في المرتفعات والوديان والواحات بالمناخ المعتدل. وبالنسبة للأمطار فإن شبه جزيرة العرب تستفيد من الأمطار الموسمية التي تكثر في بعض أماكنها، كاليمن والحجاز وعُمان، بالإضافة إلى النفود الشمالي وجبل شمر حيث تسقط شتاءً، وقد يزداد انهمارها فتكوّن سيولاً عارمة جارفة تكتسح كل ما تراه أمامها، وتغمر الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان. وتقلّ هذه الأمطار كثيراً في الصحارى الجنوبية، فلا يصيبها إلاّ رذاذ، وكثيراً ما تفتقد حتى هذا الرذاذ. ومنذ القديم والسكان، وخاصة في اليمن وعُمان، يحجزون مياه السيول والأمطار في سدود فوق الأرض أو في صهاريج تحت الأرض، من أجل سنوات القحط.

ثانياً)- أبرز السمات السلطوية والاقتصادية والاجتماعية لشبه جزيرة العرب:

I - أبرز السمات السلطوية:

يمكن إيجاز السمات الأساس للسلطة في شبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث في سمتين اثنتين رئيسيتين انعكستا على طبيعتها كمؤسسات وإيديولوجيا وسياسة على مختلف المستويات الداخلية والخارجية: الأولى خاصة بدولها في الحضر وهي الطبيعة الثيوقراطية لأنظمة حكمها المتمثّلة في أساسها الديني المستند إلى الحق الإلهي، كما رأينا، سواء التي تبعت منها لزمن قصير أو طويل، اسمياً أو فعلياً، إلى نظام الحكم العثماني مثل إمارة الأشراف في الحجاز ومثل بعض مناطق اليمن ومنطقة الإحساء، أو إلى نظام الحكم الفارسي مثل جزر

البحرين، أو إلى نظام الحكم المستقل مثل الدولة السعودية الأولى. ونظام الحكم الثيوقراطي هو في معظم الأحيان من أنواع الحكم المطلق الذي لا يجوز لأحد مخالفة الحاكم فيه، لأنّ قوانينه من المفترض أن تكون "شريعة الله"، التي هي شريعة الإسلام بالنسبة لأنظمة الحكم المذكورة. وإنّ تسييس الدين بما يخدم فساد هذا الحاكم ورجاله كان يشوّه مضامينه الحقيقية، بحيث وصل الأمر، كما رأينا، إلى ضرب صلة الرحم بفتاوى قتل السلطان لأخوته عند السلطنة العثمانية[٣]، وإلى تدمير وحدة الجماعة والوطن والأمة بفتاوى التكفير عند معظم هذه الدول وخاصة ذات الأنظمة الأسرية الوراثية.

ومن المفيد أن نعرف، لكي نفهم أفضل، أنّ السلطنة العثمانية التي تبعت لها أهم أقاليم شبه الجزيرة العربية في تاريخها الحديث، على سبيل المثال، وكما يؤكّد كثيرون، "لم تؤلف دولة...كانت عبارة عن أسرة أو بالأحرى أحد أعضاء أسرة السلطان عثمان، يختاره الجيش رئيساً له ويعينه حاكماً عاماً"[٤]. وهو الجيش الذي أُبْعِد منه، حتى إلغائه عام ١٢٤٢/١٨٢٦، الأتراك والأحرار عموماً، ليصبح جيش الرقيق الذي توزعت زعاماته ومنها الانكشارية جميع مواقع القرار في الحكم، مما يفسر تسمية البعض له بـ"نظام الرقّ"[٥]، وليصبح، بعد موت السلطان سليمان القانوني الذي كان يلقب نفسه بـ"ظلّ الله على الأرض"[٦]، السبب الأول لضعف السلطنة وانحدارها كمركز وولايات، خارج شبه جزيرة العرب وداخلها.

لا شك أن غياب شرط وراثة الحكم إضافة إلى التركيز على الصفات المناقبية الموضوعة كشروط للأئمة المرشحين عند الزيديين في اليمن والإباضيين في عمان، ومنها الدين الصحيح والتقوى والعدالة والعلم والرأي السديد وغيرها، وذلك في عملية انتخابهم من قبل أهل العقد والحلّ من العلماء والفقهاء والقضاة وأهل الحكمة والرأي كممثلين عن عامة الناس، بالإضافة إلى وجود الشورى عندهم، ممثلة عند الزيديين بـ"مجلس القضاء" وعند الإباضيين بـ"مجلس الشراة" وهم من اشتروا آخرتهم بدنياهم، كانت مما حوّل نظام الحكم الثيوقراطي، غير الوراثي لديهم، نظرياً على

الأقل، وليس عملياً برأي البعض، إلى نظام "شبيه بالنظام الجمهوري الحديث"، وفق "أقصى أسلوب ديموقراطي حسب ظروف البيئة والعصر"[٧]، وخاصة من حيث تقليص السلطة المطلقة نسبياً للكثير من حكامهم الأئمة، وكذلك الأمر بالنسبة لأمراء القواسم قبل اعتناقهم للوهابية. ولم يكن الأمر ذاته بالنسبة لشورى الحكومة الوهابية السعودية، وذلك لاقتصارها على استشارة الأمراء السعوديين وزعامات القبائل والعلماء وآل الشيخ عبد الوهاب وأصحاب الرأي(٨) والجميع بالطبع وهابيون، فسيطر الخوف من تهمة الكفر التي كانت، حسب معظم المؤرخين، السيف المسلّط المانع لبيان أي رأي مخالف للوهابية.

السمة الأساس الثانية للسلطة خاصة بمجتمعات شبه جزيرة العرب القبلية، وهي، وفق تأكيد كثير من الباحثين، الطبيعة "الفردية الديمقراطية لنظامها القبلي"[٩]. هذه الطبيعة تتجلّى في أنّ شيخ القبيلة، الذي من المفترض أن يكون أفضلها مناقبياً، "هو رئيسها ومتصرفها الاقتصادي، وهو قاضيها والحكم فيها وممثلها لدى الخارج، وهو قائدها في الحرب وبوسعه" أن يعلن الحرب ويعقد الصلح"[١٠]. الطبيعة الديمقراطية تتجلّى في أنّ الشيخ لا يتخذ قراراته الهامة دون استشارة وجهاء القبيلة أو مجلسها[١١] الذي كان يحتفظ، كما يؤكد فاسيليف، "بسمات التنظيم الديموقراطي للمجتمع العشائري"[١٢]. يقول الرحالة الإنكليزي دوتي: "في المجلس يتكلم من يشاء، ويرتفع هنا صوت أبسط أبناء القبيلة لأنه من أبنائها"[١٣]. ويضيف أنّ المجلس هو كذلك "شورى للشيوخ ومحكمة اجتماعية، ويراجعه أبناء القبيلة في أي وقت للنظر في شؤونهم...ويصدر القرار دوماً دون تحيّز ودون أي ارتشاء، وهو قرار نهائي"[١٤]. ويبين بوركهاردت أنّ هناك إلى جانب هذه السلطة "المدنية" التي يمثلها الشيخ سلطة "عسكرية" يمثلها العقيد[١٥] قائد شؤون الحرب والمحاربين. ومن المهم الإشارة إلى دور سياسة وممارسات الوهابية في الدولة السعودية الأولى في التراجع الكبير لهذا الواقع السلطوي القبلي الديموقراطي في شبه جزيرة العرب لصالح الواقع السلطوي المركزي الثيوقراطي القمعي[١٦].

II – أبرز السمات الاقتصادية والاجتماعية:

إن خصوصية الجغرافيا الطبيعية المذكورة لشبه جزيرة العرب، وخاصة من حيث تعددّ بيئاتها الطبيعية، الجبلية والسهلية والصحراوية والساحلية، وبيئاتها المناخية، الباردة والحارة والمعتدلة، إضافة إلى أهمية موقعها الاستراتيجي وخصوصية تاريخها، تفسّر سمات جغرافيتها الاقتصادية والبشرية[١٧]. نراها، فيما يخصّ جغرافيتها الاقتصادية، تمتلك غالب الثروات الاقتصادية، إن الحيوانية كالسمك والإبل والغنم والماعز والحمير والخيل وغيرها،أو الثروة النباتية كاللبان والنخيل ذي القدم التاريخي وذي المكانة المقدسة عند العرب القدماء، وكالكروم والحبوب والرز والقطن والخضر والفواكه، بعضها بحجوم كبيرة وبعضها بحجوم قليلة، أو الثروة المعدنية كالذهب والبترول والحديد وغالبية المعادن الأخرى، أو الثروة الاستراتيجية المتمثلة في موقعها الجغرافي المتميّز والحاوي على الطرق التجارية الدولية ما بين الغرب والشرق منذ القديم. أما جغرافيتها البشرية فإن ما تقدم كله يفسّر سماتها الرئيسية الآتية:

١- **تنوع بنيتها الاجتماعية-الاقتصادية:** يتمثّل هذا التنوع بالنسبة لنوعية العمل، بانقسامها ما بين حضر يمارسون جميع الأنشطة الاقتصادية ومنها الصيد والزراعة والحرفة والصناعة والتجارة الداخلية والخارجية إلخ...، وما بين بدو رحل من رعاة الإبل غير مستقرين، وأشباه بدو من رعاة الأغنام والماعز شبه مستقرين ويمارسون الزراعة والترحال معاً إلى مسافات غير بعيدة وذات مصادر مائية. ويتمثّل بالنسبة للوضع الطبقي بوجود "علاقات طبقية من طراز ما قبل الرأسمالية"[١٨]، في مجتمعات شبه الجزيرة العربية، نتيجة لتعدد أنماط الإنتاج فيها دون هيمنة لأي منها، بحيث كانت توجد الطبقات والفئات الرئيسية الآتية[١٩]:

أ- طبقة الإقطاع المؤلفة من الأرستقراطية العقارية في وسط الفئات الحاكمة وزعامات القبائل وشيوخها، ومن الإقطاعيين المتوسطين والصغار.

ب- البرجوازية الوطنية المؤلفة بالدرجة الأولى من كبار التجار والصناعيين، وسنرى أسباب ضعفها ونتائجه لاحقاً. وكان هناك البرجوازية الطفيلية: الكومبرادور (أي وكيلة الشركات الأجنبية) المتنفّذة، وكبار المرابين.

ج- البرجوازية الصغيرة أو الوسطى، كأصحاب المهن الحرة والحرفيين وصغار الفلاحين والموظفين وغيرهم.

د- الفئات الشعبية الكادحة من صفوف الأجراء والعمال والرعاة والعبيد، الذين لم يكن لأوضاعهم الجيّدة، نسبياً، أن تقارن بأوضاعهم القاسية في العالم كلّه، وخاصة من حيث التعامل الإنساني وتسهيل عتقهم وحصولهم على حريتهم[٢٠].

٢- **نمو معطيات سيطرة المجتمع الذكوري أكثر فأكثر** في شبه الجزيرة العربية. تمثّل بشكل أساس في تراجع واقع المرأة وسيطرة الأسرة الأبوية الكبيرة أكثر فأكثر سواء في بيئة الحضر أو الريف أو البداوة، وحيث كانت السلطة تنتقل من الأب إلى الابن، وخاصة بعد انتشار الفكر الوهابي، وغياب الفهم الصحيح للمضامين الحقيقية للدين الإسلامي في تكريم المرأة وضمان حقوقها الإنسانية ومنها حرية الفكر والرأي والاختيار والحركة، والقيام بضرب الأعراف القبلية في وجوب احترامها وحمايتها، وذلك رغم موقعها الهام في ممارسة أعمال الزراعة وكثير من الحرف اليدوية كصناعة الخيام والخرج والسجاد الخياطة وغيرها[٢١].

٣- **تعدد أنشطتها الاقتصادية:** بحيث نرى نشاط الزراعة يمارس حيث توجد المياه، مثل اليمن الجنوبي حيث الأمطار، ووادي القرى والباطنة والإحساء والبحرين وغيرها حيث تكثر العيون والينابيع، بالإضافة إلى جميع الأماكن والأودية التي تكثر فيها المياه الجوفية والتي تستخرج منها بحفر الآبار. ونرى نشاط الصيد بأنواعه البحري والبري، بالإضافة إلى صيد اللؤلؤ في البلدان الشرقية المطلة على الخليج العربي، ونرى نشاط الصناعة والحرف اليدوية والحضرية في المدن والمراكز الهامة، كصناعة الجلود والنسيج والبسط والحصر والسيوف والرماح والأدوات المنزلية والسفن الخ...

ونرى النشاط التجاري المستفيد من شرايين المواصلات الداخلية والعالمية فيها، ما بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، والذي يتوضع، منذ القديم ومنه رحلة الشتاء والصيف وخلال التاريخ الحديث، في العقد الحساسة فيها، وخاصة في الحجاز وعدن وحضرموت وعُمان، متضمناً التجار والوكلاء والمواد المختلفة للتجارة المتداولة، تصديراً واستيراداً ووساطة توزيعية، على المستوى العالمي والعربي والمحلي في كل مرحلة تاريخية مرّ بها. أما بالنسبة للنقد[٢٢] فقد تشكّل من العملات المحلية أولاً، من دنانير ذهبية وريالات فضية وقروش نحاسية وأجزائها، وأهمها اليمنية والعمانية والحجازية والطويلة(عملة الإحساء)، ومن العملات العربية ثانياً، ومن الأخرى الأجنبية ثالثاً، وأهمها العملات الهندية والجنيه الذهبي الإنكليزي إلخ..

٤- **تعدد أنماط الإنتاج فيها**: نرى فيها نمط الملكية المشاعية وخاصة في الأوساط البدوية، ونرى نمط الإنتاج الرقي العبودي ونمط الإنتاج الإقطاعي في جميع حواضرها متعايشاً مع نمط الإنتاج البرجوازي وخاصة في سواحلها. لنأخذ إقليم اليمن كمثال يحتذى في بقية أقاليمها: بعض الباحثين يرى أنه برغم من وجود هذه الأنماط فيها فإن الأسلوب الإنتاجي المهيمن عليها هو الإنتاج الإقطاعي نظراً لوضوح وجود العلاقات الإقطاعية الاستغلالية الممارسة على الفلاحين من طبقة ملاك الأراضي[٢٣]. والبعض يرى في الطبيعة الثيوقراطية للحكام، من عثمانيين وفرس وعرب، وفي وجود أنماط الانتاج الذكورة المتعايشة، بالإضافة إلى وجود الإنتاج والبطء في وتيرة التطور العام للقوى المنتجة وللمجتمع عموماً، أسباباً موجبة للتأكيد على أنّ أسلوب الإنتاج المهيمن في شبه جزيرة العرب هو أسلوب الإنتاج الآسيوي[٢٤].

والبعض يرى في غياب الملكية الخاصة لصالح ملكية الدولة نمطاً إنتاجياً حراجياً[٢٥]. وإننا إذ نؤكد وجود صفة التمايز بين أنماط العلاقات الإنتاجية المذكورة أولاً، إن في إقليم اليمن أو في شبه جزيرة العرب أو في الوطن العربي

عموماً، ووجود الدولة في مرحلة التحضر والمدنية وليس البربرية ثانياً، ووجود الملكية الخاصة للأرض ولغيرها ثالثاً، فإننا ننفي وجود هذا الأسلوب للإنتاج الآسيوي والحراجي لانتفاء شروطهما. ونظراً لوضوح وجود قوتين معاً: قوة أسلوب الإنتاج الإقطاعي، وقوة الدور النامي البارز والمؤثّر لنمط الإنتاج الرأسمالي التجاري، فإننا نحبّذ ما أكده بعض الباحثين من وجود ما أسموه "مرحلة ما قبل الرأسمالية"[٢٦]، ولكن بمعنى المرحلة الوسيطة التي تسبق ثورة القضاء على الإقطاعية لصالح الهيمنة الرأسمالية الكليّةً. والآن ما هي أهم العوامل التي منعت قيام هذه الثورة في الوطن العربي ومنه شبه جزيرة العرب؟

ثالثاً)- أهم عوامل منع قيام تحوّل رأسمالي في شبه الجزيرة العربية:

I - عامل غياب الاستقرار والأمن الداخلي والخارجي:

كان هذا الغياب نتيجة لاستمرار عوالم التدمير والخوف الخارجية لمدة طويلة، أولاً،إذ شهد التاريخ الحديث الاحتلال العثماني والفارسي والأوروبي لكثير من مناطق شبه جزيرة العرب، ومنه الاحتلال البرتغالي لبعض سواحلها إثر اكتشاف البرتغاليين للطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، والذي رأينا نتائجه على الاقتصاد الغربي والعربي عموماً، وعلى البرجوازية العربية ونهاية هيمنة نظامها العالمي الإعماري لصالح البرجوازية الأوروبية وسيطرة نظامها الغربي الاستعماري على وجه الخصوص، والذي تزعمته بريطانيا إثر قيامها بثورتها الصناعية. وكان، ثانياً، نتيجة لاستمرار الصراعات العربية والإقليمية،ومنه الصراع العثماني-الصفوي، وكذلك الصراعات الداخلية ومنها الصراع على الحكم الذي تعرفنا عليه وعلى نتائجه من خلال متابعتنا لتاريخ شبه جزيرة العرب السياسي.

والصراعات الداخلية الأخرى في شبه جزيرة العرب كثيرة ولكننا نكتفي بالحديث الموجز عن بعضها. منها الصراعات الفئوية بين الحضر والبدو والتي أسفرت عن النهب البدوي وعن بروز زعماء بعض القبائل البدوية القوية الذين كانوا يتكفلون

بحماية الحاضرات وحماية قوافل التجار والحجاج مقابل ضريبة "الخوة" أو "الأخاوة" وجمعها أخاوات(٢٧). ولقد ابتز هذا النهب قسماً كبيراً من المنتوج الفائض وأحياناً من المنتوج الضروري. وكان هناك الصراعات الاجتماعية نتيجة للنهب الإقطاعي سواء من قبل أصحاب الملكية الإقطاعية الكبيرة للأرض من بين العرب في أوساط حكامهم وزعمائهم وشيوخهم، أو من قبل الولاة أو المتولين على الأوقاف أو الحكام أو الملتزمين في ظلّ المحتلين الأجانب إلخ.... وأفظع ممّا عرقل النمو البرجوازي الوطني كان وجود النهب الناتج عن اندماج النهب البدوي والإقطاعي بالنهب الحكوماتي، والذي تمثّل بالدولة السعودية التي كانت تقوم به باسم الزكاة٢٨. فانتشر البؤس والفقر والاستغلال والقهر الاقتصادي والسياسي معاً في أوساط الفلاحين(٢٩)، ولتكن بالتالي ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة أو إلى الخارج.

وزادت الصراعات الاجتماعية مع ازدياد التفاوت الاجتماعي بين أوضاع الفئات الحاكمة المرفهة وفاحشة الثراء وبين فئات الشعب البائسة وشديدة الفقر. وكثيراً ما كانت الفئات العليا من حاكمة ومتنفذة تسعى لحرف هذه الصراعات عن مسارها الحقيقي السياسي ضدّها نحو معارك أخرى تحت مسميات مختلفة تستنفذ قواها بعيداً عنها وبما يضرّ ولا ينفع، كالمسميات القبلية والمذهبية. وإن هذا السعي، بالإضافة إلى تأثير الانتماءات القبلية والتعصبية، يفسّر وجود كثير من هذه الصراعات في شبه جزيرة العرب. والنتاج لكل هذه الصراعات هو مزيد من غياب مناخ الأمن والاستقرار والمبادرة والقدرة الشرائية، والذي هو شرط ضروري للنمو البرجوازي المتصاعد، وبالتالي لتحقيق الثورة البرجوازية الصناعية.

II – عامل التأثير الفعّال للعلاقات الإقطاعية وللعلاقات البطريركية- العشائرية القبلية:

إنّ تأثير العلاقات الإقطاعية، بطبيعتها الانفصالية وبنهبها الاستغلالي وبفكرها القمعي المتخلف، يتجسّد في عرقلة كلّ ما تقدّم ذكره من شروط لوجود وتطور المشروع البرجوازي الوطني، وخاصة نمو معطيات الوحدة السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والثقافية الوطنية والقومية. وإنّ تأثير هيمنة العلاقات البطريركية- العشائرية القبلية في دول ومجتمعات شبه جزيرة العرب هو الأكثر خطورة، إذ تعني غياب أو ضعف أجهزة الدولة المركزية التنفيذية والتشريعية لصالح تعزيز المعايير القبلية القائمة على العصبية القبلية المتمثلة في الولاء للقبيلة وشيخها، وعلى الاحتكام للعرف القبلي. إضافةً إلى احتقار الأنشطة والأعمال اليدوية ومنها الحرفية والمهنية، وتعزيز النفسانية الانفصالية، من حيث أن "كل قبيلة في الواقع ليست سوى مجتمع خاص داخل المجتمع العام"[٣٠]. هذا ممّا عرقل توحيد السوق الداخلية الضروري للنمو البرجوازي، وبالتالي تكوين الوحدة الوطنية والقومية. ولا شك بدور السياسة الاستعمارية العثمانية، وبعدها البريطانية، في ضرب هذه الوحدة، حيث "لم يكن من مصلحتها أن تسود الألفة بين الطوائف وأن يتعامل أهل الوطن الواحد بالحسنى، فكان أكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني"[٣١].

III- عامل طبيعة أنظمة الحكم الثيوقراطية وسيادة النظام المعرفي- القيمي التعصبي القمعي المتخلف:

إنّ الحكومات الشخصية الثيوقراطية المطلقة، وغياب الوجود الفعّال لمؤسسات الدولة التي من شأنها ضمان الأمن في شبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث، ومنها قوة القوانين إن بصيغتها المدنية أو بصيغتها الدينية بمضامينها الإسلامية الصحيحة، ومنه حماية الملكيات ورؤوس الأموال الخاصة، قد أدى إلى استحالة الانتقال إلى العلاقات الرأسمالية، "إذ كان معدوماً أول وأهم شرط من شروط العمل لأصحاب المشروع البرجوازي وهو صيانة شخصية التاجر وممتلكاته"[٣٢].

وإذا ما عرفنا أنّ النظام المعرفي- القيمي هو الذي يحرك الإنسان فكراً وتفكيراً وفعلاً وعملاً، وفق مكوّناته، أدركنا مدى خطورة معظم أنظمة الحكم الثيوقراطية في شبه الجزيرة العربية، من التي كانت متخلفة واستبدادية، في تشكيل وتعميم النظام المعرفي-القيمي التعصبي القمعي المتخلّف القائم على تسييس الاسلام والمضامين المتداولة الخاطئة وغير الحقيقية له، معرفةً وقيماً دينية، قيم التكفير والقمع الفكري

والعنف والخنوع للقوي وعطالة العقل والعلم، مما كان من شأنه إعاقة كلّ تطوير في المجتمع، برجوازياً كان أم غير برجوازي. لقد وصل الأمر عند الدولة السعودية الوهابية إلى تعطيل التجارة بتحريمها مع من دعتهم بـ"المشركين"، وبحيث ظلّت محرّمة مع الشام والعراق حتى عام ١٨١٠/١٢٢٥(٣٣)، وإلى مصادرة بضائع المخالفين مع استثناء أتباعها الذين كانوا يبيعون في الهند المجوهرات المنهوبة(٣٤).

IV- عامل نظام الامتيازات وغياب السياسة الاقتصادية في حماية البرجوازية الوطنية والاقتصاد الوطني عموماً:

هذا الغياب كان العامل الأساسي في ضعف نمو البرجوازية العربية الوطنية، وفي استمرارها بالتالي دون القوة المطلوبة للقيام بالثورة البرجوازية. وفي الوقت الذي كانت الحكومات الأوروبية تحرص فيه على السياسة الاقتصادية المركنتلية لصالح حماية اقتصادها الوطني وبرجوازيتها الوطنية، كانت الحكومات في الوطن العربي ومنه شبه جزيرة العرب، إن العثمانية أو الفارسية أو العربية في معظمها، تفتقد لأية حماية جدّية لرأس المال الوطني فيها، إذ اعتمدت نظاماً هو كفيل بتدميره شيئاً فشيئاً لصالح القوى الخارجية الأوروبية المنافسة له، وهو نظام الامتيازات.

مع ذلك، ونظراً لما كانت تتمتع به كل من الزراعة والصناعة العربية من تفوق تاريخي مستمر، فقد حافظت الزراعة على تقدمها حتى القرن السابع عشر، وحافظت الصناعة على هذا التقدم حتى القرن الثامن عشر أي حتى قيام الثورة التقنية في أوروبا، حيث كانت ما زالت تصدر منتجاتها إلى أوروبا نفسها، أما بعد ذلك فقد بدأت تزاح حتى من الأسواق المحلية(٣٥). امتد تأثير نتائج نظام الامتيازات للدول الغربية، والمعطاة من معظم الفئات الحاكمة في الوطن العربي، وخاصة من السلطنة العثمانية والشاهية الفارسية وسلطنة البوسعيديين والعتوب، على حقول الاقتصاد العربي وميادين الدولة والمجتمع كافةً، بحيث كوّنت الجاليات الأوروبية لنفسها إطارات إدارية تحت أشراف قناصلها، "كأنها دول في داخل الدول، وكانت خط الاستكشاف الاستعماري الأول" (٣٦) للوطن العربي، ومنه شبه جزيرة العرب.

النتاج الأساسي لكل ما ذكرنا من عوامل منع التحول البرجوازي العربي كان اختلاط العلاقات البطريركية العشائرية القبلية بالعلاقات الطبقية والعلاقات الدينية والمذهبية، بحيث كان كثيراً ما يتوحد الإقطاعي والبرجوازي التجاري بالزعيم القبلي والديني والمذهبي وبالحاكم صاحب السلطة المطلقة. وكان لهذا التوحد والاختلاط، ولكل ما أوردناه من عوامل مانعة للتحوّل البرجوازي الوطني، نتائج خطيرة إن على مستوى الخارج أم الداخل نقف قليلاً عند أهمها.

رابعاً)- أهم نتائج ضعف البرجوازية العربية الوطنية في واقع شبه الجزيرة العربية:

من أهم نتائج ضعف البرجوازية العربية الوطنية في واقع شبه الجزيرة العربية خصوصاً، وفي واقع الوطن العربي عموماً في التاريخ الحديث، ثلاث نتائج مترابطة جدلياً: اثنتان منها سلبيتان وواحدة إيجابية فقط.

I - **النتيجة السلبية الأولى** لاستمرار ضعف البرجوازية العربية هي حاجتها لأصحاب السلطة والقرار والنفوذ داخلاً وخارجاً، مما يفسر تحالفاتها مع البداوة والإقطاع على مستوى الداخل، وتبعيتها، ليس كلياً بالطبع، للقوة الرأسمالية الدولية على مستوى الخارج. كلّ ذلك كان مما أوقعها في العجز عن قيامها بالتحوّل الثوري الذي قامت به البرجوازية الأوروبية في التاريخ الحديث، من حيث التغيير الجذري لبنية الدولة التحتية والفوقية، سواء في مجال السيطرة على الحكم والسلطة وإنجاز الدولة المدنية الليبرالية العلمانية الديمقراطية، أو في مجال تصفية الإقطاع وعقلنة الاقتصاد والمجتمع وإنجاز الثورة الصناعية التقنية والثورة القومية النهضوية. لكن هذا العجز لم يمنع وجود فعاليات خاصة هامة للبرجوازية العربية في التاريخ الحديث، وخاصة في شبه جزيرة العرب وفي سواحل إفريقيا والهند كما سنرى.

II - **النتيجة السلبية الثانية** أتت بتأثير الطرف الرجعي المتخلف في تحالفات البرجوازية العربية الداخلية، الطرف البدوي-الإقطاعي الذي فرض عليها

إيديولوجيته الجبرية المتمثلة في صيغة تسييسه للإسلام من خلال تفسيراته الخاطئة له بحيث بث عند الجماهير العربية روح الاستكانة لواقع ظلمها وضعفها وتخلفها على أنه "قدر مكتوب" أو "قسمة ونصيب"[٣٧]، وبحيث بطل دور العقل النقدي الإبداعي لديها الذي يدعو إليه الإسلام الحقيقي في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

إن قيام البرجوازية العربية بتبني هذه الإيديولوجيا التي زيّفت حقيقة الإسلام القائمة على ضرورة التطوير والتغيير في ضوء الحرية والعلم والعقل ومستلزمات المصلحة العامة،كان معناه، وهي الفئة الاجتماعية الوحيدة المرشحة، بحكم طبيعتها، للقيام بالثورة الثقافية العقلانية والعلمية، تعطيل إنجاز هذه الثورة في التاريخ الحديث وترسيخ تخلف المجتمع عموماً، إن في شبه جزيرة العرب أم في خارجها، بخاصة من خلال إسهامها الكبير في تعميق تأثير وانتشار المضمون السلطوي الخاطئ للإسلام الذي كان يحرك كل الأنشطة العربية ليحصرها في دائرة التفرقة والتمذهب والتعصب والقدرية والبدع وعطالة العقل والجهل وبقية مظاهر التخلف، والتي انعكست سلباً على جميع فئات المجتمع برجاله ونسائه عموماً وعلى وضع المرأة فيه بوجه خاص[٣٨]، بعيداً عن مضمون الإسلام العقلاني الجماهيري التحريري التوحيدي الحضاري الحقيقي.

III- النتيجة الثالثة وهي وحدها الإيجابية هي التأثير الإيجابي النسبي للطرف التقدمي في التحالف المذكور، وهو طرف البرجوازية العربية الوطنية الطامحة دائماً إلى توحيد السوق المحلية والقومية في ظلّ دولة مركزية، فكان أن استخدمت تحالفها هذا لتجرّ طرفيه الآخرين الممثلين في الزعامة البدوية والإقطاعية، إلى دعمها في بعض محاولاتها التوحيدية النهضوية، ومنها، بل أبرزها في تاريخها الحديث كما رأينا، كانت دولة اليعاربة.

وإنّ تأثير عوامل الفكر البرجوازي الوحدوي على الإقطاع العربي، إلى جانب تأثير بقية عناصر الوحدة العروبية المادية والروحية بالطبع، ومنها التاريخية

وخاصة عراقة الحضارات الزراعية لديه، هي التي تفسّر اتصافه "بالسمات الباعثة إلى التوحيد... والخالقة للمشاعر القومية المبكرة...وبعدم اتساع ظاهرة التجزئة لديه إلى كثير من الإمارات الإقطاعية[٣٩] على عكس الحال بالنسبة للإقطاع الأوروبي.

خامساً)- أبرز السمات الثقافية لشبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث:

سنكتفي هنا بالوقوف عند أهم هذه السمات وأكثرها دلالةً، من حيث تأثيراتها الكبيرة على جميع الأوضاع الثقافية ككلّ. وحتى نفهم فظاعة التحوّل المفجع للوطن العربي المشرقي، ومنه شبه الجزيرة العربية، لصالح الغرب الاستعماري، علينا أن نفهم طبيعة التطور التاريخي الجيو- سياسي- الحضاري لكلّ منهما. إنّ الصلة بينهما في جميع ميادينها قد اتّخذت، بالدرجة الأولى، ولآلاف السنين طوال العصور القديمة والوسطى حتى الثورة الصناعية الأوروبية في القرن الثامن عشر، شكل الصراع الذي "لم يكن بين حضارتين مختلفتين"[٤٠]، كما هو الآن في إحدى سماته الجزئية، وإنما كان صراع الحضارة للشرق العربي مع همجية ما دعاه الباحثون الغربيون أنفسهم بـ"العصور الحجرية"[٤١] و"عصور الظلام"[٤٢] للغرب الذي استمر في تخلفه بالنسبة لهذه الحضارة حتى هذه الثورة التي قلبت المواقع، إذ أنهت التقدم العربي العريق الذي امتد لآلاف السنين، لصالح التقدم الغربي منذ أقلّ من ثلاثمائة سنة فقط، والذي قام وانطلق من معطيات النظام الإعماري للحضارة العربية القديمة ثمّ الإسلامية بعطاءاتها ومخطوطاتها المنهوبة[٤٣] التي ما زالت تستفيد منها أوروبا في إنجازاتها العلمية.

تجسّد هذا التحوّل بشكل رئيسي في مكونات ومعطيات النظام المعرفي-القيمي السائد في الوطن العربي في تاريخه الحديث ولو بنسب وصيغ مختلفة، وما يهمنا هنا منه شبه جزيرة العرب. إنّه النظام المعرفي-القيمي التعصبي القمعي المتخلف الذي تحدثنا عن بعض معطياته سابقاً، حين حديثنا عن طبيعة أنظمة الحكم الثيوقراطية ودورها في تشكيله وتعميمه، النظام القائم على المضمون المسيّس

الخاطئ للدين، معرفةً وقيماً، بعيداً عن مضامينه الحقيقية، مضامين العقلانية والعلم والخلق والعمل الصالح والتقوى والحرية وحقوق الإنسان، وليشوّه الإسلام في صورة ما دعاه غارودي[٤٤] بـ"المستنقع الأسود" حيث "مرض الإسلاموية" التي زيّفت حقيقته. هذا النظام كان يمارس تأثيره في قتل الطموحات والحلم المحفّز للتغيير نحو الأفضل، وفي ترسيخ اليأس والاستسلام للواقع بالتالي مهما كانت مرارته باسم وجوب القناعة والرضا به لدى الفرد والجماعة[(٤٥)]، وفي تدعيم النفور من أي جديد ومنه النفور من أي تفسير أو تأويل للقرآن تستدعيه، بالضرورة، قواعد البلاغة في اللغة العربية وإعمال العقل والعلم، وفي قمع الأنا والآخر من خلال نظرة معيارية ذاتوية تعصبية جامدة، وليكون نظاماً مفتقداً للحرية المسؤولة الملتزمة بالأخلاق، وللعقل النقدي البناء الموضوعي العلمي، وللمبادرة الفردية التي هي أساس كل مبادرة حرة تغييرية إبداعية، لصالح غلبة طابع التقليد والانغلاق وضعف وتيرة التطور على مستوى كل الفعاليات.

وكانت فئة علماء وفقهاء الدين ممن لعب دوراً مهماً جداً أيضاً في سيطرة هذا النظام المعرفي-القيمي التعصبي القمعي المانع لوجود العقل العلمي الحرّ الإبداعي الضروري لأي مشروع نهضوي حقيقي، برجوازي أو غير برجوازي. وكما يؤكد كثيرون، "إن انشغال معظم أفرادها مع الزمن بالنواحي الإدارية، والتصاق بعضهم بالسلطة الحاكمة،وسيرهم الفكري التقليدي، ونظرتهم المحدودة، بل المحلية الضيقة، والنظر إلى الوراء دائماً، وإلى الأمور دون ملاحظة التطورات الكبيرة التي يعيشها العالم، والتي أخذت تطرق باب البلدان العربية، حرم المجتمع العربي من ديناميكيته وأضعف قواه التطورية، وبذلك أسهموا في ضعفه وتأخره وركود فكره"[٤٦].

هذا إضافة إلى الإسهام في تعميق الفكر القمعي المذهبي التعصبّي ضدّ الآخر على حساب رابطة المواطنة والمساواة أمام القانون، والذي مارسه مشايخ معظم الحكومات الثيوقراطية وخاصة الوهابية، وكذلك العثمانية التي كانوا فيها

"أكثر تعلقاً بالدولة وكرهاً للثورة والتجديد"(٤٧). كان هذا على الرغم من وضوح ضرورة التغيير والنهضة والوحدة للتصدّي للأخطار الاستعمارية المتزايدة يوماً بعد يوم، والتي استوعبتها دولة محمد علي النهضوية جيداً، كما استوعبت مضامين الإسلام الحقيقية للسلف الصالح.

إنّ النظام المعرفي- القيمي التعصبي القمعي المتخلف قد انعكس على كلّ الحقول الثقافية مسهماً في تخلّف المجتمع بشكل عام أكثر فأكثر.انعكس على غياب العلوم المدنية لصالح العلوم الدينية، مما أدى، إضافةً إلى تسييس الدين، إلى تخلف هذه العلوم الأخيرة نفسها وعجزها لدى كثيرين عن التأويل والتفسير الصحيح للقرآن والسنة والتراث، مما جعلها تعصبية قمعية تكفيرية. وانعكس على الفنون التي تراجعت إلى درجة وصلت عند الوهابية إلى تحريم "الموسيقى والإنشاد الصاخب وحلقات الذكر والرقص"[٤٨]، وانعكس على الآداب لصالح بروز الشعر في مدح أصحاب الحكم والقرار ليس إلاّ. وانعكس على نظام الأسرة لصالح سيطرة القيم الذكورية في تراجع احترام حقوق المرأة الإنسانية كما رأينا. وانعكس على وحدة المجتمع لصالح تفرقته وتفككه إلى أديان ومذاهب بعيداً عن انتماء المواطنة الذي هو فوق كلّ الانتماءات دون أن ينفيها أو يقلل من احترامها، والجامع للكلّ في إطار مساواة الجميع أمام سيادة القوانين، والمجسّد خير تجسيد للحديث الشريف المعروف: "الناس سواسية كأسنان المشط".

ونقف عند واقع المسلمين، باعتبارهم الغالبية العظمى في شبه جزيرة العرب، لنرى كيف كانوا وما زالوا يتفرقون مع الأسف، بعيداً عن تعاليم الإسلام في الحضّ على الوحدة، ورغم كونهم يتفقون جميعاً على الأساس الذي هو أركان الإسلام (الشهادة والصلاة والصوم والزكاة وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وأركان الإيمان (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر). ويتفقون كذلك على أنّ المصدرين الأولين والمنطلق للتشريع هما القرآن والسنة، ولا يختلفون سوى

على تحديد بقية مصادر الفقه والتشريع، فينقسمون بين أهل الحديث الذين يكتفون بهذيْن المصدريْن للشريعة الإسلامية، فيكونون إما على مذهب ابن حنبل، مثل الموجودين بشكل خاص في نجد حيث تسود بداوة وبساطة الحياة ومتطلباتها، أو على مذهب مالك مثل الموجودين في عُمان، وبين أهل رأي لا يكتفون بهما وإنما يؤمنون بالقياس والاجتهاد حسب مذهب أبي حنيفة المتبنى من قبل الدولة العثمانية وفي البلدان التابعة لها، والذي كان أتباعه موجودين مع بقية المذاهب في إقليم الحجاز والبحرين، أو يؤمنون بالعقل والإجماع حسب مذهب جعفر الصادق الشيعي، مثل الموجودين في الساحل الشرقي والجنوبي وخاصة في الإحساء والبحرين واليمن، أو يؤمنون بالإجماع والقياس حسب المذهب الشافعي كالموجودين في الجنوب اليمني، أو يؤمنون بالاجتهاد المستمر والممثل للمصلحة الإسلامية العامة في واقعها المتجدد، وبما ينسجم مع القرآن والسنة، كالزيدية والإباضية.

وجميع هذه المذاهب، التزاماً منها بمبادئ الإسلام الحقيقية والتوحيد فيه قرآناً وسنّةً، وكما بيّن سليمان بن عبد الوهاب في ردّه على أخيه[٤٩]، كانت ترفض خطيئة تكفير أي مؤمن يشهد بالله، من هنا أتى رفض معظمها للوهابية التكفيرية التي أفتت بتكفير كلّ خصومها[٥٠]. لقد كان من أهم معطيات طبيعة الدولة الثيوقراطية عموماً توظيف تفسير الدين وجميع مؤسساته وفقهائه بما يخدم المصالح الخاصة للحاكم وللفئة المتنفذة حوله، في المحافظة على ما هو قائم.

وكان أفضل من يمثّل هذا التوجّه، كما رأينا، السلطنة العثمانية والدولة السعودية الأولى بإيديولوجيتها الوهابية التي يؤكّد كثير من الباحثين، ومنهم فاسيلييف، أنّها تمثّل "الظلم المنظّم" و"تتضمن أحكاماً... تجسّد مصالح الوجهاء"[٥١]، ومنها وجوب طاعة الناس للحاكم والأمير، وممارساتها الخاطئة لأعمال العنف والنهب التي طالت حتى الحجرة النبوية، والتدمير الذي طال حتى قبور الصحابة، والاستغلال الضرائبي وتطويع الفلاحين وإلهائهم عن أعمالهم الزراعية دون تعويض إلخ... ولها الدور الأكبر في انتشار ثقافة الإرهاب والخنوع

والتمذهب والتكفير وعطالة العقل والإيمان بالبدع والسحر والتقليد والقدرية والصيغ المنحرفة من الصوفية، على حساب تراجع ثقافة الإسلام الصحيح، أي القائم على استخدام العقل والعلم والتوحيد والعمل الصالح والتطوير والإعمار، وقيم الحرية والشورى والمحبة والعدل والمساواة وغيرها من حقوق الإنسان والشعوب.

ونرى أصحاب ما دعي بالإسلام الزائف يبالغون،على حساب بيان مضمونه الحقيقي، في تظاهرهم بالتنفيذ العلني للطقوس الإسلامية الشكلية أمام العامة بهدف الحفاظ على إرضائها وتغييبها عن الجوهر والأساس، ومنه التركيز على الجانب الديني دون المدني في كلّ مظاهر التسويق والإعلام والثقافة والعمارة والفنون والتربية والتعليم الخ...

من هنا جاء اقتصار مهام التعليم في شبه جزيرة العرب على رجال الدين في الكتاتيب والمدارس القليلة والجوامع، وجاء بروز العلوم الدينية واللغوية التي أدّى انخفاض مستواها، نتيجة لكلّ ما ذكرنا ولتدنّي مستوى جميع العلوم الأخرى، إلى سيطرة البدع والفكر التكفيري القمعي الذي أساء إلى حقيقة الإسلام. كان هذا مقابل غياب العلوم الحياتية المدنية، باستثناء القلة من البيمارستانات والمدارس لتعليم بعض العلوم العقلية وخاصة الطب[٥٢]. هذا إضافة إلى تقصير الخدمات الحكومية في مجال العلم والتعليم، وإلى الغياب شبه الكامل لمساهمات القطاع الخاص فيه نتيجة للعوامل المذكورة وللضربات المستمرة التي وجهت إليهم من فئاتهم الحاكمة. وكانت النتيجة التخلف في كلّ علم، ديني أو مدني، واقتصار صفة "العلماء" على علماء الدين فقط.

يستثنى من مستوى التعليم المتدني هذا واقع التعليم في دولة اليعاربة ونسبياً في دولة آل سعيد، وفي دولة محمد علي الدينية الإسلامية المدنية العصرية، حيث وصل فيها إلى أعلى المستويات والمواصفات، ولتبرز عودة ارتباط صفتي العلم والعلماء بالجانب المدني أيضاً لكل العلوم التاريخية والرياضية والهندسية والفلكية والفيزيائية والعسكرية والطبية وغيرها. لكنّ وجود هذه الدولة القصير في شبه جزيرة

العرب، والذي لم يكن فعلياً إلاّ في مرحلته الثالثة التي استمرت مابين عامي ١٢٤٩/١٨٣٣ و ١٢٥٦/١٨٤٠، وحيث كان عليها، كما رأينا، تركيز اهتمامها في مجابهة تآمر التحالف العثماني–البريطاني وبقية القوى الدولية الاستعمارية ضدّها، يفسّر عدم فعالية تأثيرها الحضاري فيها في كلّ الميادين ومنها ميدان التعليم.

أخيراً، أية مقارنة بين معطيات الواقع الثقافي الحضاري في التاريخ الحديث لشبه جزيرة العرب كما بالنسبة للوطن العربي عموماً، وبينها في عهود الدولة العربية–الإسلامية في العصور الوسطى، تبيّن تراجعاً كبيراً، رغم بقاء تقدمها العربي العالمي حتى قيام الثورة الصناعية في بريطانيا في القرن الثامن عشر، ورغم بقاء الدور الإعماري العربي الذي استمرت البرجوازية التجارية العربية بالقيام به، والذي هو موضوع وقفتنا الآتية ذات الدلالة الواضحة.

سادساً)– بعض مظاهر الدور الإعماري لبرجوازية شبه جزيرة العرب التجارية: امتداد الوجود العربي الحضاري في آسيا وإفريقيا:

وقفتنا هي عند إنجاز حملت البرجوازية العربية في شبه الجزيرة العربية وخاصة في عُمان واليمن والحجاز، شرف الإسهام الكبير بالقيام به، إلى جانب البرجوازية العربية عموماً ومنها السورية، منذ التاريخ القديم ومروراً بالوسيط، وانتهاء بالتاريخ الحديث، وهو إنجاز توسيع دائرة النفوذ والوجود العربي الحضاري سياسياً واقتصادياً وثقافياً، شرقاً على مستوى الهند وبقية آسيا والشرق الأقصى، وغرباً على مستوى أفريقيا، وخاصة عن طريق التجارة ونشر الإسلام. لقد كان العرب أول من سلك الطريق البحري إلى سواحل الهند والصين واندونيسيا والفيليبين وغيرها شرقاً، وإلى السواحل الإفريقية غرباً. وأقاموا فيها جميعاً مدناً ومراكز تجارية واستيطانية، لم يكتف تجارها بنشاطهم الاقتصادي وإنما قاموا مشكورين بنشاط سياسي– ثقافي تمثل في نشر اللغة العربية والإسلام بين سكان هذه المراكز، لتتعرب جميعها.

ونكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة القليلة فقط، فنقول: إن سلطنة بونتانياك في بورينو، المؤسسة عام ١١٨٦/١٧٧٢، وسلطنة برليس في ملايو، قد أنشئتا من قبل الحضرميين الذين "لهم الفضل في نشر الإسلام في تلك البقاع"(٥٣)، ورسخوا فيهما الثقافة العربية الإسلامية. وإن المراكز التجارية في الساحل الأفريقي الشرقي يعود الفضل في إنشائها وتعريبها وإسلامها إلى عرب عُمان وتجارها بشكل خاص، ويمتد أبرزها من رأس جردفون شمالاً حتى خليج دلجادور جنوباً، أي ما يدعى اليوم بدول القرن الأفريقي التي انضمت إلى الجامعة العربية. ويعود الفضل في عروبتها في مضمونها الحضاري غير العرقي إلى العرب المذكورين الذين اندمجوا بين سكانها فأسهموا مع الحركة التجارية المزدهرة للتجار العرب، وخاصة في شبه جزيرة العرب، في نشر الثقافة العربية–الإسلامية في صفوفهم، وبالتالي في تعريبهم.

واستندت هذه الحركة التجارية إلى المبادرة الفردية حيناً وإلى دعم الدولة العربية حيناً آخر، وخاصة في ظلّ دولة اليعاربة ثمّ دولة آلبوسعيد(٥٤). قام اليعاربة بالقضاء على النفوذ البرتغالي على المناطق المذكورة، بحيث شملت سيطرتهم قسماً من سواحل الهند والجزيرة العربية وشرقي أفريقيا(٥٥). ولم يكتف البوسعيديون بذلك وإنما بلغ نفوذهم الاقتصادي منطقة البحيرات الاستوائية وأعالي الكونغو أيضاً(٥٦). رأينا تأكيد بيرتون لدورهم في تقدم حركة الكشوف الجغرافية في شرق أفريقيا(٥٧). ما تقدم يفسّر وجود العدد الكبير من العرب والمسلمين في البلدان الممتدة من أفريقيا إلى الشرق الأقصى، كما يفسّر وجود الحركة العمرانية الواسعة المتطورة في عُمان وحضرموت، من ناطحات سحاب وقصور وطرق وغيرها، كما يفسّر وجود فئة مثقفة ووضع متميز ومتقدم للمرأة فيهما بالنسبة لبقية بلدان شبه الجزيرة العربية(٥٨).

أخيراً نؤكّد: ليس القصد من التذكير بهذا الإنجاز، كمثال على عطاءاتنا الحضارية، أن ندوخ ونتلاشى في تغنينا به وبالماضي العربي، وإنما أن نعرف مقدار أنفسنا، فنستعيد الثقة بطاقاتنا وإمكانياتنا، ونتعلم كيف نوظفها في منحاها

الصحيح، في خدمة قضايا الوطن والأمة الحقيقية، قضايا تكوين القوة الذاتية النهضوية على كلّ صعيد، بحيث نتمكّن من استعادة دورنا الحضاري العالمي.

****

هوامش الفصل السابع

---

[1]- جواد علي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٤٩.

[2]- انظر يوريس زارينز: "الباحثون يستكشفون طرقاً لقوافل قديمة تؤدي إلى الربع الخالي" (بحث قدم في ندوة "عُمان في التاريخ" التي عقدت في مسقط فيما بين ٢٤-٢٧ أيلول ١٩٩٤. وقد نشر في الملحق الخاص بصحيفة عُمان، تاريخ ٢٥ أيلول ١٩٩٤، ص١٠).

[3]- انظر حكمت قفلجملي، التاريخ العثماني رؤية مادية، تعريب فاضل لقمان، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٧، ص ٧٦-٧٧ و٢٢٢.

[4]- رولان موسنيه، تاريخ الحضارات العام القرنان السادس عشر والسابع عشر، ترجمة يوسف وفريد داغر، ط.٢، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ١٩٨٧، ص ٥٥٧.

[5]- الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر....، ص ١١٤-١١٦.

[6]- انظر كمثال رسالته إلى فرنسيس الأول ملك فرنسا: حتّي وجورجي وجبور، مرجع سابق، ص ٨١٠ و: Roger B. MERRIMAN, Suleiman the Magnificent, Cambridge, 1944, p.130.

[7]- عقيل الخطيب، التنافس الدولي...، ص ١١٠، السيار، المرجع السابق، ص٤٦.

[8]- ابن بشر، مصدر سابق، ص ١٢٥، وعبد الرحيم، المرجع السابق، ص٢٣٢-٢٣٣.

[9]- راجع فاسيلييف، المرجع السابق، ص ٥٤-٥٥.

[10]- JAUSSEN A. Coutumes des Arabes au pays de Moab, Paris, 1908, pp. 140-145.

[11]- BURCKHARDT, Notes…,vol. 1. P. 117.

[12]- فاسيلييف، المرجع السابق، ص ٥٥.

[13]- DOUGHTY Ch., Travels in Arabia Deserta, Cambridge, 1888, vol.1, p. 248.

[14]- Ibid, op. cit., vol.1, p. 248-249.

[15]- BURCKHARDT, Notes…,vol. 1.p . 296.

[16]- Ibid ,vol. 2. Pp. 132-139, 172. و فاسيلييف، المرجع السابق، ص ١٤٨-١٦٦.

[17]- من المصادر الهامة، في إلقاء الضوء على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في شبه جزيرة العرب في تاريخها الحديث، كتب الرحلات للرواد من العلماء والمغامرين الغربيين، وخاصة: BURCKHARDT, Notes… ; NIEBUHR: Travels… ويوجد موجز ومقتطعات هامة من هذه الكتب في بيرين، مرجع سابق. وكذلك كتب الرحالة الروس ومنها: الدار العربية للموسوعات، الرحلة السرية للعقيد الراسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز، بيروت، ٢٠٠٨. وهناك الدراسات المعنية في المؤتمرات والندوات العربية حول تاريخ شبه الجزيرة العربية، ومنها دراسة سهيلة زين العابدين حماد، "الحياة الاجتماعية في دول شرقي شبه الجزيرة العربية في القرون الثلاثة الأخيرة"(ندوة "إقليم الخليج العربي على مرّ عصور التاريخ" التي أقامتها جمعية اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في ٢٣-١٩٩٦/١١/٢٥، ص ٣٨٣- ٤٤٦) و:

Bombay Government: Selection from the Records of Bombay Government, op. cit.; A. SALDANHA , East India Companies Connection with the Persian Gulf (1600-1800), Selection from Bombay State Papers, Calcutta, 1908.

[18]- فاسيلييف، المرجع السابق، ص ٣٦.

[19]- انظر المرجع نفسه، ص٢٢-٦٤.

[20]- المرجع نفسه، ص ٥٢-٥٤.

[21]- انظر زين العابدين حماد، مرجع سابق، ص ٤٠٦ و٤١٩.

[22]- راجع: مؤسسة النقد العربي السعودي، تطور النقود في المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٨، الصفحات الخاصة بتطور النقود في شبه الجزيرة العربية في تاريخها الحديث.

[23]- سلطان أحمد عمر، نظرة في تطور المجتمع اليمني، بيروت، ١٩٧٠، ص٢١ و٣٢ و٣٨

[24]- قائد نعمان الشرجبي، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، بيروت، بالتعاون مع مركز الدراسات والبحوث اليمني في صنعاء، ١٩٨٦، ص ٩١-١٠٠ و١١٥-١٢٣.

[25]- Samir AMIN, Le Developpement Inégal, Ed. de Minuit, aris, 1973.

[26]- انظر فاسيلييف، المرجع السابق، ص٣٦.

[27]- BURCKHARDT, Notes.., vol. 1. pp. 193-194, vol. 2. pp. 9-34.

[28]- انظر ابن شهاب، مصدر سابق، ص١٧٢-١٧٧،وأبو حاكمة، محاضرات...، ص ١٩١.

[29]- فاسيلييف، المرجع السابق، ص٥٢-٧٣.

[30]- الشرجبي، المرجع السابق، ص٥٥-٦١.

[31]- محمد كرد علي، خطط الشام، ط.٣، مكتبة النوري، دمشق ١٩٨٣، جزء ثاني، ص٧٤.

[٣٢]- انظر فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١، ص٢٠-٢٤.

[٣٣]- BURCKHARDT, op. cit., vol. 2, pp. 140-141.

[٣٤]- البصري، المصدر السابق، ص٣٥، وفاسيلييف، المرجع السابق، ص١٦٤.

[٣٥]- الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر...،ص١٧٦، ولوتسكي، مرجع سابق، ص٢٢.

[٣٦]- الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر...، ص١٨٥.

[٣٧]- المرجع نفسه...، ص٢١٢.

[٣٨]- انظر الدباغ، الجزيرة العربية...،ص٥٧-٥٨ و٦١-٦٢، ووهبة، مصدر سابق،ص١١٣-١١٧، وسلطان ناجي، "الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمرأة في المجتمع اليمني"(مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، نيسان ١٩٨٠)، وأحمد جمال ظاهر،المرأة في دول الخليج العربي، الكويت، بدون تاريخ، والسيّار، مرجع سابق، ص١٣٢-١٣٣.

[٣٩]- عمارة، فجر اليقظة...، ص ٢٢٣-٢٢٧.

[٤٠]- انظر عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦، ص ١١.

[٤١]- راجع بريستد، المرجع السابق، ص ٣٨ و ٦٦٣-٦٧٠.

[٤٢]- هو مصطلح متداول للتعبير عن الواقع الأوروبي في معظم العصور الوسطى.

[٤٣]- انظر: ليلى الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩، الجزء الثاني، ص٩٠٣-٩٠٧.

[٤٤]- غارودي، نحو حرب...، ص٤٣، وله: الإسلام، ت. وجيه أسعد، بيروت،١٩٩٦، ص٧٨.

[٤٥]- الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر...، ص١٦٩.

[٤٦] - المرجع نفسه.

[٤٧]- طربين، المرجع السابق، ص١٥.

[٤٨]- فاسيلييف، مرجع سابق، ص ٩٥. و: BURCKHARDT, Notes…, vol. 1, p. 102; vol. 2, p. 115

[٤٩]- راجع كتابه "الصواعق الإلهية"، مصدر سابق.

[٥٠]- فاسيلييف، مرجع سابق، ص ٩٢-٩٣.

[٥١]- انظر على سبيل المثال: المرجع نفسه، ص ٩١-٩٢.

[٥٢]- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، المجمع العلمي، دمشق، ١٩٤٨، جزء ثاني، ص ١٢٧-١٣٥.

[٥٣]- الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر...، ص١٤٧.

[٥٤]- قاسم، "استقرار العرب في سواحل شرق أفريقيا"(مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، المجلد العاشر)، وللمؤلف نفسه مع صلاح العقاد، زنجبار، القاهرة، ١٩٥٩. وله أيضاً دولة بوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا...، وحول الملاحة العربية وازدهارها في المحيط الهندي انظر فضلو حوراني، الملاحة العربية في المحيط الهندي، القاهرة، وجيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، ترجمة وتلخيص يوسف كامل، القاهرة، ١٩٢٧. وانظر الأبحاث المعنية بهذا الموضوع في ندوة "تاريخ عُمان" التي عقدت في مسقط فيما بين ٢٤ و٢٨ أيلول ١٤١٥/١٩٩٤، وقد نشر معظمها من خلال ملخصات لها في صحيفة "عُمان" في ملحق خاص عن هذه الندوة في الأعداد ذات التاريخ: ٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ أيلول ١٤١٥/١٩٩٤. وانظر: Sir Reginald COUPLAND, East Africa and its Invaders, London, 4th Ed., pp,16 -68;

[٥٥]- راجع السيار، المرجع السابق، ص ٧٢-٩٩.

[٥٦]- جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية . الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٥، ص٢٠٥-٢٠٦.

[٥٧]- انظر سابقاً، و: BURTON, op. cti. Vol.1. p. 34

[٥٨]- الدباغ، الجزيرة العربية...، ص٥٥-٥٦.

****

Damascus University

الخاتمة

تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث:

نتائج ووقفات ودروس وعبر

المحتويات:

أولاً)- نتائج وانعكاسات هامة لجدلية الداخل والخارج في تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث.

ثانياً)- وقفات تاريخية مختارة: دروس وعبر:

I - حول إشكالية تقييم الحركة الوهابية بين الأمس واليوم.

II - وقفة أخيرة عند حدث النهاية للتاريخ الحديث وضرورة الوعي.

****

أولاً)- نتائج وانعكاسات هامة لجدلية الداخل والخارج في تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث:

إننا، وكما قمنا بهذه الدراسة لتاريخ شبه جزيرة العرب الحديث استناداً إلى منطلقاتنا المعرفية والمنهجية التي تعرفنا عليها في المقدمة، فإننا نقوم الآن بعرض أهم النتائج والانعكاسات لجدلية الداخل والخارج فيها استناداً إلى هذه المنطلقات نفسها. ونذكّر ما أكّدناه في المقدمة حول أنّ الفهم الصحيح لهذه الجدلية يفسّر وجوب "رفض أيّ تضخيم أو تحجيم لأيّ من العوامل الخارجية والداخلية... حتى يمكن الاستفادة من عبرها ودروسها".

رأينا فيما يخصّ نتائج أوضاع الصراعات والتفكك والضعف والانحدار في شبه الجزيرة العربية والداخل العربي عموماً، وفيما يخصّ أهم المتغيرات العالمية الكبرى في العصور الحديثة، والتي أثّرت بقوة في التاريخ السياسي والاقتصادي على الصعيد الدولي والعربي والمحلي لشبه جزيرة العرب الحديث، كيف ولماذا برز

متغير المكتشفات الجغرافية من قبل الأوروبيين الإسبان والبرتغاليين، في بداية هذا التاريخ،وأولها طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند (٨٩٣/١٤٨٨-٩٠٣/ ١٤٩٨)، بكونه الحدث الحاسم في نهاية النظام العربي-الإسلامي العالمي الإعماري المهيمن طوال العصور الوسطى الذي عولم أي نشر وعمم معطيات التمدن والحضارة على المستوى العالمي، لصالح بداية النظام الغربي الأوروبي الاستعماري الاستغلالي.

ورأينا كيف ولماذا أدّى متغيّر الثورة الصناعية، في بريطانيا في القرن الثامن عشر، إلى انتقال مشعل التقدم من الموقع العربي الذي بقي حاملاً له، رغم كلّ المعيقات، طوال العصور القديمة والوسطى ومعظم العصور الحديثة، لصالح استلام أوروبا لهذا المشعل وتراجع العرب إلى موقع التخلف منذ نلك الحين، وكيف أدّى أيضاً إلى تموضع بريطانيا في مركز هذا النظام كأقوى قوة اقتصادية وكزعيمة لبقية القوى الرأسمالية الكبرى، وأدّى بالتالي إلى بداية نظامها العالمي الاستعماري الذي استمرّ إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

ورأينا نتائج جدلية انعكاسات ذلك كلّه على أوضاع شبه جزيرة العرب بخاصة والأوضاع العربية عموماً، إن من حيث الصراعات الدولية والامتيازات وممارسات الاحتلال الأجنبي البرتغالي والعثماني والهولندي والبريطاني والفرنسي، أو من حيث حركة المقاومة والتحرر الوطني، وحركة اليقظة العربية في البحث عن أسباب ما وصل إليه الواقع العربي من ضعف وانحدار، وعن سبل النهضة واسترجاع الماضي المجيد والكرامة، ولتكون دولة اليعاربة مثلاً يحتذى به في الاعتماد على النفس والتوحد والقوة العسكرية الذاتية من أجل ضمان الأمن والتحرر والازدهار.

ولاحظنا كيف "لم يستطع العثمانيون"، على عكس دولة محمد علي، "فهم الدور التاريخي للشعب العربي، ولا مركز الوطن العربي الاستراتيجي والحضاري، فعزلوا الولايات العربية عن كلّ نشاط سياسي وقضوا على حيوية المجتمع العربي وحرموا العرب من أية سمة قيادية"[١].وإنّ إهمالهم وتقصيرهم وتخلفهم، هم ومعهم الحكومات الفارسية والعربية نفسها حينذاك، قد أسهم في مساعدة الأوروبيين الاستعماريين على

الانقضاض على الخليج العربي ومعظم سواحل شبه الجزيرة العربية. ووضح لنا الدور المشرف للقواسم في التصدّي الناجح للقوى الاستعمارية الأوروبية في هذا الخليج وعلى رأسها بريطانيا، قبل أن ينهار اتحادهم بفعل دور الدولة السعودية الأولى في انقسامهم وضربهم من قبل بريطانيا. وتوصلنا إلى حقيقة الحركة الوهابية التكفيرية من مصادرها وممارساتها واعتماداً في الردّ عليها على مصدر لشيخ فقيه مشهود له، هو الشيخ سليمان أخو محمد بن عبد الوهاب نفسه. وتابعنا مسيرة التحالف السعودي–الوهابي منذ تشكّل الدولة السعودية الوهابية الأولى إلى نهايتها، ثمّ تابعنا بإيجاز شديد تشكّل الدولة السعودية الوهابية الثانية.

وفهمنا أنّ العوامل الرئيسية الثلاثة التي أدّت إلى سقوط الرابطة العثمانية وبروز النزعة العروبية القومية النهضوية، والتطلع نحو الإصلاح والتحرير والوحدة والمستقبل الأفضل، هي الآتية: أولها ممارسات السلطنة العثمانية، باستثناء ما تعلق منها بحرصها على حماية الأماكن المقدسة في الحجاز، لسياسة خارجية وداخلية مرفوضة، وخاصة ما تعلق منها بالعنصرية المعادية للعرب[٢] وبالامتيازات والتفريط بالمصالح الإسلامية والعربية، ومنه عدم جدّيتها في حماية هذه المصالح وفي الدفاع عنها في الخليج العربي لصالح السيطرة الأوروبية التي انتهت إلى السيطرة البريطانية فيه. والسبب الثاني كان دور الحركة الوهابية، بغض النظر عن أهدافها الحقيقية، في فضح زيف هذه الرابطة العثمانية مبيّنةً قيامها على الفهم العثماني الخاطئ للإسلام وعلى ممارسات عثمانية بعيدة عن مبادئ القرآن والسنة وعن مسالك أوائل الصحابة. أما السبب الثالث فكان الرؤية الملموسة للفرق الكبير الذي عاشه العرب ما بين ممارسات الاستبداد والنهب والفساد والتخلف وغياب الأمن والجمود من قبل الحكم العثماني، وبين ممارسات حكم الشورى والقانون والإصلاح والتنظيم والتحديث وضمان الأمن من قبل حكم دولة محمد علي العربية. بين حكم إسلام صوري يضطهد العروبة، وبين حكم إسلام حقيقي يفتخر بها وبحضارتها ودورها الإنساني.

وتابعنا فيما يخصّ التاريخ الحضاري الحديث لشبه جزيرة العرب أهم سمات أوضاعها السلطوية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأبرزها هيمنة أنظمة الحكم الثيوقراطية فيها، وتعدد بناها الاجتماعية، كبيئات وأنشطة، وكانتماءات طبقية وعنصرية ودينية ومذهبية، وكأنماط إنتاج متنوعة لصالح هيمنة ما دعي بـ "فترة ما قبل الرأسمالية"، وعجز البرجوازية العربية عن القيام بثورتها وتعرفنا على عوامل هذا العجز وأهمها نظام الامتيازات الأجنبية.

ورأينا نتائج غلبة الفهم الخاطئ للأديان، وخاصة فيما يتعلق بالإسلام الذي تدين له الغالبية الساحقة في شبه جزيرة العرب، على ثقافة المجتمع ومسيرة تطويره وتغييره، وعلى النظام المعرفي-القيمي الذي يحرك الإنسان فكراً وتفكيراً وقولاً وفعلاً. وأدركنا خطورة تأثير ثقافة التكفير في ضرب وحدة المجتمع وقوة الدولة. وتأكدنا، من خلال الاطلاع على طبيعة التحالفات وأطراف الصراعات أنّ الدوافع الحقيقية التي تحرّك هذه الصراعات، ومنها الصراع العثماني-الصفوي، هي سياسية-اقتصادية بالدرجة الأولى، وليست اللبوسات الإيديولوجية الدينية أو المذهبية لها سوى أقنعة مؤثرة وفاعلة لحشد الأنصار وقتل الأعداء والمنافسين. ولنتأمل في أنّ أطراف الصراع الرئيسي، بين السلطنة العثمانية والدولة السعودية الوهابية الأولى ودولة محمد علي في مصر، كانت جميعها من أصحاب المذهب السني، وكانت آلاف ضحايا هذا الصراع من المسلمين السنة بالدرجة الأولى ومن غيرهم من كلّ الفئات، والأمر نفسه بالنسبة لضحايا صراعات الدولة السعودية الأولى في توسعها في نجد والحجاز واليمن.

ولو تأملنا في بقية التحالفات ومنها تحالف السلطنة العثمانية والشاهية الفارسية مع بريطانيا ضدّ القوة البحرية العربية للمير مهنا في جزيرة الخرج، وتحالف آل خليفة في البحرين مع فارس ضدّ هجوم مسقط والجلاهمة، إلخ...لأدركنا صحّة ما تقدم حول الدوافع المحركة للصراعات والتحالفات أكثر فأكثر. وكما يؤكّد زكريا قاسم :"إنّ استقراء الأحداث التاريخية يؤكّد لنا أنّ الخلافات الطائفية والقبلية كانت

أقصر الطرق للمخططات الاستعمارية في المنطقة. وليست الخطورة في استغلال القوى الاستعمارية لتلك الخلافات بل إنّ الخطورة تتفاقم حين تعمد القوى المحلية المتنافسة إلى الاستعانة بالقوى الخارجية لتصفية حساباتها فيما بينها. ولعلّ في وقائع التاريخ من العبر ما يفيد القوى العربية والإسلامية في الخليج العربي في وقتنا الحاضر"[٣]، بل وفي الوطن العربي كلّه.

ثانياً)- وقفات تاريخية مختارة: دروس وعبر:

سننهي حديثنا بثلاث وقفات مختارة لتكون الأكثر دلالةً وفائدة من حيث استخلاص الدروس وأخذ العبر من الماضي بما يخدم في بناء قوة وأمن وازدهار الحاضر والمستقبل: الأولى حول إشكالية تقييم الحركة الوهابية بين الأمس واليوم، والثانية حول ضرورة الوعي، والثالثة حول نهاية دولة محمد علي العربية النهضوية.

I - حول إشكالية تقييم الحركة الوهابية بين الأمس واليوم:

من واجب المؤرخ والباحث في التاريخ متابعة مستجدات الأحداث والمصادر والوثائق والمراجع، حول أي موضوع قام أو يقوم بدراسته، من أجل أن يثبت على ضوئها حقائقه الموثقة. وهذا ما قمنا به فيما يخصّ موضوع الحركة الوهابية، وبحيث لم يعد تقييمها قضية إشكالية كما كان فيما يتعلق بها في التاريخ الحديث، بل تحوّل إلى موقفين واضحين كنا قد تعرفنا على فكرهما جيداً في الفصل الثاني: الأول موقف طرف أتباعها التكفيريين، حيث ذكر ابن سند أن أتباع ابن عبد الوهاب يعتقدون بـ"كفر جميع من على وجه الأرض من المسلمين الذين لم يعتقدوا بمعتقدهم"[٤]، والثاني موقف طرف أعدائها الرافضين لها. وقد تبيّن بوضوح، وخاصة من خلال رد" الشيخ القاضي الفقيه سليمان بن عبد الوهاب على دعوة أخيه، التناقض الكبير بين مبادئ القرآن والسنة والسلف الصالح وبين فكره التكفيري وفتاويه في قتل المؤمنين والمسلمين وفتنتهم، وكذلك ممارسات أتباعه وأمرائه في الدولة السعودية الأولى للاستبداد والظلم والنهب والعنف والتدمير.

وحركة الوهابية هي التي تحولت عام ١٩١٢ في الدولة السعودية الثالثة إلى حركة الإخوان المسلمين التي شكلها أحد زعامات آل الشيخ[٥]، أي آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وقد وضح في الوقت الحاضر ارتباط تنظيمات الحركة الوهابية التكفيرية الإرهابية، بقوى تحالف الصهيونية والاستعمار والرجعية العربية، التي تتوزع مهام صنع وتمويل وإعداد وتدريب تنظيماتها بمسميات مختلفة، ومنها مسمى القاعدة وجبهة النصرة وتنظيم داعش (دولة الإسلام في العراق والشام) التي لا أحد يجهل ممارساتها الوحشية الخارجة عن الإسلام، لتوظّفها في تنفيذ تآمرها لضرب النسيج الوطني في بلدان الوطن العربي والعالم الإسلامي وللقيام، بالوكالة عن قوى تحالف الصهيونية والاستعمار، بحروب ضدّ أعدائها وكلّ من يهدد مصالحها في أي من دول العالم، تُرْبِح هذه القوى كلّ شيء دون أن تخسرها أي شيء.

وليكن من أخطر جرائمها عولمة، أي تعميم، ما دعي بـ"ثقافة التكفير والقتل" على أنّها مرتبطة بالإسلام وبالعرب، مما يؤدي إلى استنفار العداء العالمي لهما، ودعم كلّ تآمر للقضاء عليهما، لصالح وجود الكيان الصهيوني ومطامعه التوسعية، في امتداد دولته من النيل إلى الفرات كبداية، وفي امتداد السيطرة الصهيونية على العالم كلّه كنهاية، فهل نعتبر ونعي؟

II – وقفة أخيرة عند حدث النهاية للتاريخ الحديث وضرورة الوعي:

إذا ما روفق التآمر المذكور بغياب الوعي السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، القومي والوطني والديني والإنساني، عند معظم الحكام والجماهير معاً، فالمصاب كبير. إنّ هذا الغياب في شبه جزيرة العرب خصوصاً وكما في معظم الوطن العربي، كان وما زال العامل الأول في ضعف الدولة وبالتالي في تبعيتها للقوى الخارجية وفقدانها للقرار الوطني. لا أحد يجهل دور بريطانيا في قيام المشيخات بالانفصال واحدة تلو الأخرى من اتحاد القواسم واتحاد بني ياس، لتشكل "دويلاتها" أو "إماراتها" أو "مشيخاتها" الخاصة بها، فكان انفصال إمارة الشارقة عن

رأس الخيمة، ثم أم القيوين وعجمان عن الشارقة، ثم دبي عن "أبو ظبي" الخ.. ويلاحظ في أواخر التاريخ الحديث التوجّه الانفصالي للكويت ولقطر، والذي أدّى، بالإضافة إلى انضمام الإحساء إلى نجد منذ تشكل الدولة السعودية الأولى، إلى تقلّص المضمون الجغرافي لإقليم البحرين لينحصر في نطاق جزر البحرين أو "أوال: فقط. وكذلك ظهرت التوجهات الانفصالية في اليمن الجنوبي عن اليمن الشمالي. وهكذا أعطت بريطانيا برهاناً تاريخياً جديداً على صحة المقولة السياسية المعروفة "فرق تسد"، وما علينا سوى حسن الاستيعاب والوعي والاتعاظ.

أما تآمرها الدولي ضدّ دولة محمد علي العربية النهضوية، التي امتدت ما بين عامي ١٨٠٥/١٢٢٦ و١٨٤١/١٢٥٧، والتي طبعت العصر بطابعها، بحيث غدا بالنسبة لكثير من الباحثين "عصر محمد علي"(٦)، والذي هو موضوع وقفتنا الأخيرة لأنّ نهايتها هي حدث نهاية التاريخ الحديث لشبه الجزيرة العربية، وللوطن العربي ككلّ، فهو خير مثال على فظاعة التآمر الاستعماري ضدّ هما.

لقد نجح التآمر البريطاني- العثماني-الدولي في ضرب المحاولة التوحيدية النهضوية لدولة محمد علي، التي، اعتماداً على المصادر التاريخية وعلى دراستها شعباً وسلطةً وأرضاً وهدفاً، عدّها كثير من الباحثين بمثابة الثورة العربية البرجوازية المتوجهة إلى إحياء الدولة العربية القوية الحضارية (٧)، التي لو انتصرت لغيّرت مجرى التاريخ العالمي، معتبرين سقوطها تآمراً موجعاً لصالح رباعي "الثورة المضادة" لدولة محمد علي ولحركة التحرر العربية عموماً، أي رباعي الغرب الأوروبي الاستعماري أولاً، والاحتلال العثماني المتواطئ المتخلف ثانياً، والنفوذ الإقطاعي الرجعي ثالثاً، والعمالة من أوساط اليهودية رابعاً، والتي بدأت بريطانيا منذ ذلك الحين بإعدادها فعلياً لتكون الحاجز المدعّم أمام أية محاولة حقيقية مستقبلية في خلق دولة عربية قوية موحدة٨. مرّةً أخرى نؤكد: ما علينا سوى حسن الاستيعاب والوعي والاتعاظ.

علينا، كي نحقق الغاية المرجوة من معرفة دروس وعبر التاريخ، البحث عمّا يوحدنا، والسعي فيما يقوينا، والعمل على إصلاح أنفسنا ومجتمعنا، بما يخدم إنجاز المشروع القومي العربي النهضوي في خلق الدولة العربية الديمقراطية الحضارية القوية الواحدة. وهو إنجاز سهل وصعب في آن واحد: سهل إذا أردنا وصممنا لأنّ كلّ شروطه المادية والروحية متوفرة، وصعب إذا ما تخاذلنا لأنّ تآمر القوى الاستعمارية العظمى كبير ومدروس ومنظم ومستمر في زمننا الحاضر. إنّه الحلم العربي النهضوي الذي يتطلب إنجازه وجود خمسة عناصر أساسية: الحكومات العربية الوطنية المخلصة، والمؤسسات الحكومية الفاعلة على كلّ صعيد سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، والجماهير العربية الواعية، والمجتمع المدني المنظم، والطليعة الوطنية البناءة، وكم نأمل أن يكون أبناؤنا الطلبة من هذه الطليعة.

****

هوامش الخاتمة

---

[١]- خليل أحمد، مرجع سابق، ص ٨٧-٨٨.

[٢]- هذا ما تدلّ عليه كثير من الوثائق العثمانية، انظر الوثيقة الأهم في غرايبة، مرجع سابق، ص١٩-٢٠، وعبد الكريم رافق، "الهوية والانتماء في بلاد الشام في العهد العثماني" (مجلة دراسات تاريخية، العدد ٨١-٨٢، عام ٢٠٠٣، ص١١٥-١٤٧)، ص١٣٧-١٣٩.

[٣]- قاسم، الخليج العربي...، ص ٤٨٦.

[٤]- عثمان بن سند البصري، تاريخ بغداد، بومبي، ١٢٠٤هـ، ص ٢٣.

[٥٥]- هو قاضي الرياض عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف(نجاح محمد وكاميليا أبو جبل، تاريخ الجزيرة العربية المعاصر، جامعة دمشق، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١٥٤-١٥٥).

[٦]- الرافعي، مرجع سابق وعنوانه: عصر محمد علي، وغرايبة، المرجع السابق، ص٨٨.

[٧]- كلّ الدراسات ومعظم المراجع العلمية تؤكّد ذلك (انظر كمثال: عمارة، العروبة...).

[٨]- المرجع نفسه، ص ١٧١-١٩٨.

الجزء الثاني

تاريخ شبه جزيرة العرب المعاصر

الفصل الأول

الحجاز منذ ١٨٤٠-١٩٢٦م

مقدمة: العثمانيون والحجاز

أولاً: السياسة العثمانية في الحجاز في أعقاب انسحاب القوات المصرية

ثانياً: أمراء مكة ١٨٤٠-١٩١٦م

١. محمد بن عبد المعين بن عون

٢. عبد المطلب بن غالب بن مساعد

٣. عبد الله بن محمد بن عون

٤. حسين بن محمد بن عون

٥. عون الرفيق بن محمد بن عون

٦. علي بن عبد الله بن محمد بن عون

٧. الشريف حسين بن علي بن محمد بن عون.

ثالثاً: علماء الحجاز ودورهم في الحكم

١. العلماء وقضية الأوقاف.

٢. العلماء وفتنة جدة الكبرى(١٨٥٨م)

رابعاً: المدينة المنورة والخط الحديدي الحجازي

١. محطة اللاسلكي

٢. الخط الحديدي الحجازي(١٩٠٠-١٩٠٨م)

خامساً: ثورة الشريف حسين بين الدافع الديني والقومي

١. موقف عبد العزيز آل سعود خلال الثورة

٢. الشريف حسين والسنوات الأخيرة من حكمه

هوامش الفصل الأول

Damascus University

مقدمة: العثمانيون والحجاز

امتاز حكم العثمانيين في الحجاز، عن حكمهم لأرجاء الوطن العربي الأخرى بوجود ازدواجية أو ثنائية في السلطات التنفيذية والإدارية بين العثمانيين والأشراف أمراء مكة وهو مالا نجد له مثيلا خارج الحجاز. وكان الوجود العثماني في الحجاز يتمثل في: والي جدة، محافظ المدينة المنورة، شيخ الحرم المكي، شيخ الحرم المدني. بينما كان يتمثل النفوذ المحلي، إن صح التعبير، في: الشريف أمير مكة، المفتي والقاضي والمحتسب والعلماء....

وعلى الرغم من أن الدولة هي التي كانت تعيّن الشريف وتعزله، فإننا لم نجد واحداً من أمراء مكة بين عامي(١٨٤٠مو١٩٢٦م) كان على اتفاق أو تفاهم مع والي جدة، أو محافظ المدينة أو السلطة العثمانية نفسها. وسنحاول فيمايلي، تسهيلاً للبحث، حصر الحديث عن سياسة الدولة العثمانية في الحجاز، على قدر المستطاع.

أولاً: السياسة العثمانية في الحجاز في أعقاب انسحاب القوات المصرية

بعد انسحاب القوات المصرية من الحجاز، اضطرت الدولة إلى إبقاء تنظيمات محمد علي الإدارية والمالية، كما كانت، حتى لا تثير غضب الناس في الحجاز، الذين وجدوا في عهد محمد على القصير من التنظيم والتطوير والتقدم، ما لم يجدوا له مثيلا طوال القرون التي حكمتهم فيها الدولة العثمانية. فقد أبقت الدولة الرواتب ومخصصات الجراية من القمح والعدس والشعير التي دأب الولاة في عهد محمد علي على توزيعها على الناس، كما أبقت المعاشات التي رتبها محمد علي للأشراف وعلماء مكة وأعيانها ووجهائها(١).وكان محمد علي قد جدّد دفاتر قمح الجراية المرتبة لأهالي مكة، ورتبها على نظام جديد لأنه وجد أن التجار والأغنياء قد استولوا على هذه الجرايات، وليس بأيدي الفقراء منها شيء، كما أبقى في الحجاز كميات ضخمة من الميرة واللوازم والذخائر، أخذتها الدولة بموجب اتفاقية لندن(٢).وقد عزا بعض الباحثين ذلك إلى حسن النوايا من قبل الباب العالي، وهذا ليس دقيقا، فالعثمانيون لم يفكروا بحكم الحجاز جنبا الى جنب مع الأشراف(٣). بل كانوا يخافون من قيام حاكم وطني على غرار محمد علي باشا في مصر، أو

داوود باشا في العراق فينظم البلاد ويفرض نفسه واليا عليها، ولذلك آثروا أن تمرّ العاصفة بسلام ريثما تنتهي فترة الهدنة مع أهل الحجاز، لأن الدولة كانت حريصة على عدم وجود قلاقل في الحرمين تشوّه صورة السلطان، حامي الحرمين في العالم الإسلامي، لأن مواسم الحج والعمرة كانت أنسب الفرص لانتشار الأخبار السارّة والسيئة. ونظراً لانعدام الانسجام بين أمراء مكة والولاة العثمانيين فقد كانت الدولة العثمانية تفضّل تغيير الوالي حسماً للنزاع مع الأشراف فقد حكم الحجاز منذ رحيل محمد علي وحتى عام١٨٨١م أي في غضون أربعين عاماً اثنان وعشرون والياً بمعدل والٍ كل سنتين تقريباً، وكل هؤلاء الولاة كانوا يحاولون كما سنرى تشديد قبضة العثمانيين على الأراضي المقدسة لكنهم كانوا يصطدمون "بالرأي العام" القوي المتمثل في أمير مكة وعلمائها. وكما قلنا فقد كان النفوذ العثماني الحقيقي في الحجاز يتمثل في والي جدّة حيث القنصليات والمفوضيّات الأجنبية والعربية، وحيث القوة العسكرية التي تأتمر بأمر الوالي(٤). وكما ذكرنا فقد كان لمحمد علي دالّة على الدولة العثمانية، وكان أمير مكة الشريف محمد بن عون يعد من أخلص أتباعه، ولذلك فإنه عندما اصطدم بوالي جدة عثمان باشا وتعذر الاتفاق بينهما اقترح محمد علي على الدولة:

- عزل عثمان باشا من الولاية ونقله إلى المدينة، شيخاً للحرم المدني.
- نقل محمد شريف باشا من مشيخة الحرم المدني إلى ولاية جدة ومشيخة الحرم المكي، فجاءت الموافقة على ذلك تماماً(٥).وخرج محمد بن عون منتصراً، ولكن الدولة لم تنس له ذلك، فإنه ما كاد يتوفى محمد علي عام١٨٤٨م حتى وسّعت اختصاصات الوالي العثماني للحد من نفوذ أمير مكة. فقد أصبح الوالي يجمع بيده علاوة على مشيخة مكة مجموعة من المسؤوليات ذات الأثر القوي، منها:
- الإشراف على الحسبة – البلدية – وتعيين المحتسب.
- كما دخلت في اختصاصاته مسائل تتعلق بالقضاء وتحريك القوة العسكرية، وتعيين المفتي وعزله، كما حدث عندما عزل المفتي السيد عبد الله مير غني من إفتاء مكة المكرمة، وعيّن محمد الكتبي، بسبب معارضة الأول لقانون الأوقاف، وقد تم ذلك كله على يد حسيب باشا والي جدة(٦).

- ومن أخطر الوظائف التي أضيفت إلى الوالي حق تعيين شريف مؤقت لمكة في حال سفر الشريف الأصيل، وغالبا ما كان الولاة يطلبون استدعاء الشريف إلى استانبول، أو تكليفه بمهمات عسكرية طويلة ليعين الوالي بديلاً عنه، ويمضي في غيابه ما يراه مناسباً(٧).

وكانت سلطة تحريك القوات العسكرية من اختصاص أمير مكة فسُحبت منه، كما أن التعليمات الواردة من العاصمة إلى الوالي كانت تحجب عن أمير مكة، الأمر الذي كان يزيد الفوضى والازدواجية في إدارة الحجاز. وكانت وظيفة مشيخة الحرم المكي، التي يمارسها الوالي، تسمح له بفرض آرائه في أمور الحجّاج والحرم والنظام التعليمي فيه وفي المدارس المحيطة به، وكان يجمع أحياناً بالإضافة إلى ذلك وظيفة شيخ الحرم المدني أيضاً، كما حدث في عهد الوالي محمد وجيهي باشا عام١٨٦٤م، الذي توفي في جدة ودفن في قبة الصحابي عبد الله بن العباس(٨).وبعد ثلاث سنوات من وفاة محمد علي، عزل أمير مكة القوي محمد بن عون ونقل مع أولاده إلى استنبول، وعينت الدولة واحداً من أشد أعدائه هو الشريف عبد المطلب بن غالب، الذي اختير ليكون أكثر مرونة مع الدولة، وليضع حداً لسلطات ابن عون، ولكن الدولة كانت بهذا العمل كالمستجير من الرمضاء بالنار، ذلك أن عبد المطلب أراد أن يثبت أنه ليس أقل من سلفه، فاصطدم سريعاً بوالي جدة كامل باشا الذي اقترح عزله قبل استفحال خطره، كما سنرى، وتمّ عزله، وهكذا انعكست الصورة. وعندما فتحت قناة السويس عام١٨٦٩م، وصار بإمكان الباب العالي إرسال الحملات العسكرية عبرها، أرسلت قوات عثمانية إلى اليمن عام١٨٧٢م دون مساعدة الأشراف(٩).وأخيراً وبعد انتشار محطات البرق ومدّ الخط الحديدي الحجازي ازدادت قبضة العثمانيين على الحجاز، ثم ازدادت تلك القبضة الغليظة قوة بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد ومجيء الطورانيين من رجال الاتحاد والترقي.

ثانياً: أمراء مكة (١٨٤٠-١٩١٦م)

حكم مكة المكرمة بين عامي(١٨٤٠- ١٩١٦م) سبعة من الشرفاء كان أشهرهم وأكثرهم أهمية، عميدهم محمد بن عون الذي حكم نحواً من ٢٦سنة وابنه عون الرفيق الذي حكم زهاء ٢٤سنة، وحفيده الشريف حُسين بن علي الذي حكم

١٧سنة وقاد الثورة العربية الكبرى[١٠].وكانت العادة أن يقرأ فرمان تعيين الشريف، في مكة المكرمة ثم يعاد قراءته كل عام في موسم الحج، ويسمى ذلك بفرمان تثبيت الولاية[١١].

١. **الشريف محمد بن عبد المعين بن عون(١٨٢٧-١٨٥١م):** عيّنه محمد علي. وثبّت السلطان محمود هذا التعيين وقد كان هذا الشريف يتمتع بمهارات قيادية وإدارية عالية جداً، تجلت بوضوح في تنظيم انسحاب القوات المصرية من الحجاز إلى مصر دون حصول أي عوائق أو مشكلات أو خسارة، ليس هذا فحسب، بل إنه حصّن جدة، وفرض حراسة مشدّدة على الأراضي المقدسة، خوفاً من هجوم أوروبي محتمل على قوات محمد علي في الحجاز[١٢].وكانت علاقة محمد بن عون بوالي جدة عثمان باشا حسنة، ثم لم تلبث أن ساءت، فأرسل عثمان باشا قواته لمحاصرة الشريف في مدينة "المبعوث" بقيادة كرد عثمان، فلم يكترث الشريف. وطالب عثمان باشا الدولة بتعيين الشريف علي بن غالب مكان ابن عون، فلم يتم الأمر، وكانت النتيجة كما بيّنا سابقاً، تثبيت محمد بن عون، ونقل عثمان باشا الذي مات قهراً في جدة. وفي عام١٨٤٧م، منحت الدولة العثمانية رتبة "باشا" وهي لا تكلفها شيئاً، إلى أولاد ابن عون: عبد الله وعلي والحسين وعون الرفيق ثم رُقُوا إلى رتبة الوزارة. وفي عام١٨٤٨م أرسلتهم في مأمورية عسكرية طويلة في عسير، وفي مدة غيابهم، كما يقول ابن دحلان:"كانت أكثر الأحكام بتصرف حسيب باشا، ورتب مجلساً من العلماء والمفتيين يوم الأربعاء من كل أسبوع، وصار يكرمهم غاية الإكرام، ادعى أنه يريد تحقيق الشرع الشريف، وأعطى العلماء هدايا جزيلة، ثم أظهر نيته الحقيقية في انتزاع الأوقاف من الأشراف"[١٣].وفي عام(١٨٥٠م)، عزل ابن عون ونقل مع ولديه عبد الله وعلي إلى استنبول بأمر من الصدر الأعظم رشيد باشا، وتمت العملية بأسلوب الدولة التقليدي القائم على الغدر والسرية والمفاجأة. فقد كان عبد الله وعلي في زيارة مجاملة للوالي "آقة باشا" فأمرهما بالصعود إلى المراكب قبل تجهيز أمورهما، ثم أرسل واستدعى والدهما وأرسل الجميع إلى استنبول"معززين مكرمين".وبعد سنتين أعيد ابن عون إلى إمارة مكة وعندما وصلها كانت القوات العثمانية تعيش

حالة رعب وهلع وذعر في عرفات، وقد أطبقت عليها قوات عبد المطلب، وكما قال له ابن دحلان: "وفي تلك الليلة١٨٥٥م جاء البشير من جدة بوصول الشريف محمد بن عون، فباتت العساكر في تلك الليلة في فرح وسرور مظهرين الزينة وأطلقوا المدافع والصواريخ. وفي الصباح لاذت قوات الشريف عبد المطلب بالفرار" [١٤].وهكذا نجد أن إعادة الشريف لم تكن بسبب تقدير السلطان له بقدر ما كانت حرصاً على مصلحة الدولة.

لقد كانت الدولة العثمانية شديدة التمسك بالمظاهر، وبعيدة عن الاهتمام بالأمور الدينية الحقيقية، ذلك أن نقيب الأشراف في استنبول كان أول من يدخل على السلطان في الأعياد وهذا المظهر الشكلي البحت لم يكن يعني أن الدولة تقدر الأشراف، وإنما كان تقديمه رغبة من السلطان بالظهور بالمظهر الديني أمام الناس الذين كانوا يؤمنون بهؤلاء الاشراف. وأما ابن عون فإن آخر أعماله في مكة كانت القضاء على ثورة عبد المطلب وتسليمه إلى كامل باشا والي جدة الذي أوصله إلى استنبول، وتوفي ابن عون عام(١٨٥٧م)، عن سبعين عاماً، قضاها في الحروب والمعارك ودفن في قبة السيدة آمنة والدة النبي الكريم بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة[١٥].

٢. **الشريف عبد المطلب بن غالب بن مساعد:** تولى إمارة مكة للمرة الأولى من قبل أحمد باشا والي جدة عام(١٨٢٦م)، ثم عزله محمد علي في العام التالي[١٦]. ثم أعيد عام(١٨٥٠م)، وبدأ عهده بالصدام مع والي جدة آقة باشا الذي سرعان ما عزل. وجاء كامل باشا واستمرت العلاقات الحذرة بينه وبين عبد المطلب، ولم يكن أحدهما على ثقة بالآخر، ثم أشيع أن كامل باشا ينوي الغدر بعبد المطلب، كما هي عادة الأتراك، فهرب إلى الطائف، وصار يشنُّ الغارات على الحجاز مستهدفاً القوات العثمانية، ومما ساعد الفتن على الانتشار صدور فرمان منع بيع الرقيق الذي أدى إلى ثورة عامة عمت مكة بأسرها حتى الحرم، واستطالت الحرب حتى اضطرت الدولة إلى إعادة ابن عون كما ذكرنا وفي عهد ولايته الثالثة عام(١٨٧٩م) اصطدم بناشد باشا والي جدة، فعزلته الدولة وأرسلت صفوت باشا الذي لم يلبث أن اختلف مع عبد المطلب، فعزل وخلفه أحمد عزت باشا الروزنامجي، ولم تفلح الدولة في

التفاهم مع عبد المطلب، وكان قد بلغ من الكبر عتياً، فعزلته بعدما حاصرته بالقوات العسكرية، وانحصرت بعده إمارة مكة في آل عون[١٧].

٣. **الشريف عبد الله بن محمد بن عون:** أكبر أولاد محمد بن عون، تولى الإمارة عقب وفاة والده١٨٥٧م وكان يحمل رتبة وزير باشا، ومن أعضاء المجلس الخاص. وقد وصف بحبه للعلوم والآداب والحكمة، وكانت له مجالس علميّة مشهورة، وكان شديد الهيبة على الأعراب والأشراف، وكان دخوله مكة المكرمة ملفتاً للنظر، فقد دخل الحرم ومعه ميزاب الكعبة الذهبي، هدية من السلطان عبد المجيد[١٨]. وقد شهد عهده أحداثاً عالمية وعربية مهمة:

أ. فقد افتتحت قناة السويس رسمياً ١٨٦٩م.

ب. وعاصر أربعة من سلاطين آل عثمان هم: عبد المجيد، وأخوه عبد العزيز، والسلطان مراد، والسلطان عبد الحميد.

ج. ومن أهم ما حصل في عهده أيضاً، تدريب أهل مكة على حمل السلاح واستخدامه والانضباط العسكري، كالجيش النظامي ذلك أنه بعد تفاقم خطر روسيا وتهديدها لإستنبول والعالم الإسلامي، دعا الشريف عبد الله إلى حمل السلاح، فأقبل الناس عليه إقبالاً شديداً، وكان يدربهم العسكريون العثمانيون وكان ذلك ١٨٧٧م، وتعلم آلاف من الناس حمل السلاح ووضعوا أنفسهم تحت تصرف السلطان عبد الحميد، ثم توقف التدريب بعد أربعة شهور فقط وماتت الفكرة في مهدها، وكان يمكن أن تغير تاريخ المنطقة[١٩]. وكانت وفاة الشريف عبد الله في مكة المكرمة١٨٧٧م، ودفن في قبّة ابن عباس.

٤. **الشريف حسين بن محمد عون:** وخلف أخوه عبد الله الذي لم يلبث أن اغتيل في جدة بعد ثلاث سنوات من حكمه، ودفن في قبر والده في قبة السيدة آمنة، وكان في الثانية والأربعين[٢٠].

٥. **عون الرفيق بن محمد بن عون:** وصل إلى جدة يوم وقفة عيد الأضحى١٨٨١م، وقرىء فرمان تعيّنه في البيت الحرام في اليوم التالي وقد أجمعت المصادر التي تحدثت عنه، أنه كان طاغية جبّاراً، جريئاً في

سفك الدماء، شرهاً لما في أيدي الناس لم ينج أحد من ظلمه، ولا سيما الحجاج والمعتمرون. وقد وصفه اللواء إبراهيم رفعت باشا، أمير قافلة الحج المصري بالقول:"وليس أدلّ على فداحة ظلمه وتفاقم شرّه وتماديه في غية مما كتب فيه ووضع عنه. من ذلك رسالة "ضجيج الكون من فظائع عون". ورسالة "خبيئة الكون فيما لحق ابن مهنّا من ابن عون". وهما رسالتان: الأولى للسيد محمد الباقر العلوي، والأخرى للشريف محمد بن مهنّا العبذلي، وكيل الإمارة بجدة[٢١]. وقد وصف بأنه ذكي، ويدعى بـ سيدنا، وأن راتبه الشهري كان ١٥٠٠ ليرة عثمانية ذهباً[٢٢]. وقال رفعت باشا، وهو شاهد على العصر بمناسبة افتتاح" المسافر خانة" وهو المبنى الكبير الذي بناه السلطان عبد الحميد لينزل فيه فقراء الحجاج، سنة١٩٠٠م. إنه حضر والي جدة، وبعده بعشرين دقيقة شرّف أمير مكة عون الرفيق، وقبل يده جميع الحاضرين، ثم أمر بقراءة خطبة كلها مديح للسلطان عبد الحميد[٢٣]. ويذكر أنه يلقب بسيد الجميع، تمييزاً له عن بقية الأشراف، وهو الحاكم الذي لا ينازع في أمر ولا يرد له قول، ينفي من يشاء، ويحبس من يشاء، بيده عقد الأمور كلها، وكل حكام مكة طوع أمره: من أحمد راتب باشا المشير إلى أصغر موظف، فإن عارضه أحد عُزل في الحال، لأن الشريف له يد قوية في الدولة، والشكاوى التي ترسل ضدّه إلى الأستانة تعود إليه ليفصل فيها بنفسه، والويل لمن يشتكي. وهناك الشريف علي باشا وله سلطة على الأعراب فقط، وهو الذي يتفاوض معهم وينقل لهم توجيه عون الرفيق[٢٤]. وقال في معرض جمع إعانة الخط الحديدي الحجازي، وهو وصف نادر ينقل صورة الأماكن المقدسة بمنتهى الوضوح في تلك الأيام: "إن عون الرفيق أمر بجمع ريال من كل حاج معونة للسكة الحديد، فدفع بعضهم، وامتنع بعض، فأمر بحبس جميع الحجاج بمكة بعد انتهاء مناسك الحج سبعة أيام، والغريب أن الحبس طال الذين دفعوا أيضاً. لأنهم مرتبطون بقافلة الحج التي جاؤوا معها، لا يستطيعون مفارقتها. ووصلت شكاوى الحجاج إلى الوالي، فأرسل مندوباً عنه إلى مكة فضربه عون الرفيق كما ضرب الوفد الذي

جاء معه. وعلّق اللواء إبراهيم رفعت باشا على ذلك بالقول: "ولئن دام الحال على ذلك، فإن الحجاج سينصرفون عن الحج، وبذلك يموت أهل الحجاز لأنهم يعيشون على موارد الحج[٢٥]. وأشار كذلك. "أنه بعد أن دفع جميع الحجاج إعانة الخط الحجازي وخرجوا إلى بلادهم، حوصروا في مضيق شديد الوعورة، وطولبوا بدفع ريال واحد عن كل جمل، ووكل بهذه المأمورية موظف واحد فقط، كان عليه وحده أن يجمع الرسوم عن آلاف الجمال التي تشكل قافلة الحج في ذلك الجو الحار الذي كان الناس يموتون من شدّة الزحام والحر، ولم يكن يسمع آنذاك إلا عويل الصبيان وولولة النساء واستغاثة المساكين". ولم يستطع أحد أن يفسر سبب سكوت السلطان عبد الحميد وذلك لأن المظهر الأساسي للقناع الديني للدولة العثمانية والذي هو سلطتها الأيديولوجية الأساسية للسيطرة على الجماهير الإسلامية وليس الحرص على راحة الحجاج وانتشار الأمان والعدل في الأماكن المقدسة. ونرى من المناسب أن نصف مكة المكرمة كما كانت ١٩٠٣م في عهد ابن عون. كان فيها مبنى "المسافر خانة" ويقع إلى الغرب من مكة. ومقبرة المعلا، وفيها قبة عظمى للسيدة خديجة الكبرى أم المؤمنين، وفيها قباب للصحابة والصالحين. والثكنة الحميدية، وفيها يقيم والي جدة عند زيارة مكة. وكان فيها ست جوامع كبيرة و٦٧ مسجداً صغيراً. وفيها محكمة شرعية بجوار الحرم. وست مدارس للعلوم. و٤٣مكتباً للصبيان، ومكتبتان عامتان. ومستشفى عسكري وآخر مدني للغرباء. وفيها حمامان وثلاث قلاع وثلاث تكايا و١٩ رباطاً للفقراء، و٨٠ طاحونةً و٦٠ تنوراً ٩٥ ومقهى، و٣٠٠٠ دكان و٦٥٠٠ دار ذات طبقات[٢٦]. ويعيش الفقراء في مكة على ما تقدمه لهم التكية المصرية في أجياد من الحساء والخبز، وهذه التكية بناها محمد علي. وكثير من نساء مكة وجواريها الفقراء يتعيشن بما يأخذن من هذه التكية، ويزيد عددهن على٤٠٠٠، كما هو مسجل في سجلات التكية. وأخيراً فإن سكان مكة في مطلع القرن العشرين كانوا نحواً من ١٢٠٠٠٠نسمة.[٢٧].ومات عون الرفيق في الطائف عام١٩٠٥م عن٦٧عاماً، وبقي أهل مكة يتداولون

قصصه وغرائبه.ومن القصص الغريبة الخيالية التي نسبت إليه أنه هو الذي دبّر مقتل مدحت باشا في سجن الطائف في نيسان١٨٨١م، وقد نقل هذه الرواية الدكتور العيدروس(٢٨). وقال إنه لهذا السبب اكتسب الشريف عون ثقة السلطان عبد الحميد، وهذا غير صحيح أصلاً لأن الذين قتلوا مدحت باشا هم تسعة عسكريين أتراك بقيادة اليوزباشي إبراهيم الشركسي، كما جاء في تاريخ مدحت الذي وضعه ابنه ونقله عنه جرجي زيدان.

٦. **الشريف حسين بن علي بن محمد بن عون:** كان وأولاده في ضيافة السلطان عبد الحميد الإجبارية وكان يقيم في مقر فاخر على البوسفور. وعندما شغر منصب أمير مكة، كان هو أكبر أحفاد عون في الرابعة والخمسين. فوجه رسالة إلى السلطان عبد الحميد عن طريق الصدر الأعظم كامل باشا جاء فيها: "بناءً على وفاة عمي عبد الإله بن محمد أمير مكة، بعد عزل ابن عمي الشريف علي بن عبد الله وخلو مقام الإمارة، ولأني أكبر أفراد الأسرة الهاشمية وأحقها بمقام الآباء، أسترحم جلالة السلطان أن يتكرم بإيصالي إلى حقي الذي لا يخفى على جلالته مع صداقتي وإخلاصي" (٢٩). وبعد فترة من هذا الطلب استدعاه السلطان عبد الحميد وقلده الإمارة رغماً عن معارضة رجال الاتحاد والترقي، ذلك العداء الذي استحكم بين الطرفين حتى أتى على السلطنة العثمانية ومنصب الشرافة معاً. وقبل سفره اجتمع به السلطان عبد الحميد لمدة ساعة ونصف وقال له:(إني لست بالأمين على الدولة والمُلك من هذه الفئة المتغلبة) **فرد الحسين قائلاً:** "إن السلطان يستطيع اللجوء إلى البلاد العربية، وإني وغيري سيكونون أعوانه ويجلبون له المال، ولن يكون بوسع الاتحاديين الوصول إليه. وكان هذا هو اللقاء الأخير بين الرجلين، حيث عاد الحسين من ذلك التاريخ صديقاً للسلطان عبد الحميد، عدواً للاتحاديين. ولذلك فإنه عندما زاره وفد الاتحاد والترقي في جدة، تكلم رئيسه عبد الله قاسم بصيغة فيها استعلاء على الشريف، الذي رد عليه بالقول: إن هذه البلاد حريصة على الاحتفاظ بحقها.. فليذهب كل منكم

ليشتغل بما يخصّه، وإن السلطان الآمر بالدستور، يفتخر هو وأسلافه بأنهم خدام الحرمين الشريفين.. وإن دستور بلاد الله هو شريعة الله وشريعة نبيّه صلى الله عليه وسلم.."[٣٠].

وكان واضحاً أن الحسين ينوي الحكم بدستور الله، لا دستور الاتحاديين وهذا يعني ببساطة أن ثورة الحسين بن علي كانت ضد تسلط الاتحاديين وعنصريتهم، وليست ضد الدولة العثمانية نفسها، وقد عدّد الحسين في منشور الثورة بُعد الاتحاديين عن الفضيلة والدين وسوء معاملتهم لحريم السلطان عبد الحميد وكبار رجاله. ومما جاء في فرمان تعيينه الصادر في شوال١٣٢٦هـ،١٩٠٨م. "وأمرنا المشار إليه أن يستقبل الحجاج ذوي الابتهاج، المتوجهين من سائر ممالكنا الشاهانية، ويوصلهم إلى مكة سالمين، ويشيّعهم بكل اعتناء ودقة إلى الشام... وأن يستجلب من العموم الدعوات الخيرية لذاتنا الشاهانية، وأن يهتم في توفيق الأمور والمصالح الواقفة والجارية بالعدل والحقانية متحداً مع وزيرنا والي الحجاز وقمندان الهمايونية كاظم باشا". وعندما أراد والي جدة وهيب باشا تطبيق قانون إدارة الولايات العثمانية على الحجاز، وقرر مد الخط الحديدي الحجازي إلى مكة وجدة والطائف، تجمهر الناس، قبل الشريف، في مكة، ورفضوا القانون وأعلنوا أنهم متمسكون بالشروط التي اتفق عليها الشريف أبو نمي مع السلطان سليم ١٥١٧م، ولن يحيدوا عنها بأي حال، ولذلك سرعان ما جاءت برقية من استنبول بوقف مد السكة الحديد، وتجميد القانون المذكور، وتثبيت حقوق الأشراف والحجاز الخاصة والقديمة[٣١]. وكان هذا نصراً كبيراً للحسين في وجه الاتحاديين. ومن جهة أخرى حاول الحسين توسيع حدود إمارته في عسير ونجد، فأوكل إلى ولديه عبد الله وفيصل بمهاجمة الأدارسة والوهابيين، وفي ١٩١١م قاد بنفسه حملة ضد قبائل بني الحارث ومطير استطاعت إدخالها في طاعة أمير الحجاز، بعد أن كانت تتبع سلطان أمير نجد السعودي، وكانت هذه الهجمات بداية النهاية لإمارة الحسين والحجاز إلى الأبد.

ثالثاً: علماء الحجاز ودورهم في الحكم.

كان مفتو مكة الأربعة، والقضاء والعلماء ومن إليهم، يشكلون القوة الثالثة في الحجاز بعد قوة الدولة والأشراف، فهم همزة الوصل بين السكان من جهة، والحكام من الجهة الأخرى، سواء أكان الحكام أمراء مكة أم العثمانيين، من السلطان فما دونه. وعلى الرغم من أنهم كانوا يتقاضون الرواتب والهبات من الدولة والأشراف فقد يمثلون الرأي العام الشعبي خير تمثيل في الحرمين وسائر مدن الحجاز. فالمفتي أحمد بن دحلان كان يصدر الفتاوى، ويعيّن المدرسين والموظفين في المسجد الحرام، ويشرف على شؤون التعليم إلى جانب شيخ الحرم وهيئة العلماء في المسجد، كما كان يراقب تصرفات الولاة والموظفين ويتصدى للظلم كما يراه هو من وجهة النظر الشرعية. ولذلك يمكن تشبيه هؤلاء العلماء بأنهم سدٌّ منيع ضد اختراق الحرمات، وضد تجاوزات الحكام، ولم يكن وجودهم ونشاطهم مقتصراً على الحجاز، بل كان لهم وجود مؤثر في جميع أنحاء العالم الإسلامي، لكن أهميتهم في الحجاز كان لها وضع خاص، بحسب أهمية الحجاز نفسه. ومن الأمور المعلومة بداهة، أن الدولة العثمانية الإسلامية كانت بحاجة إلى موافقة العلماء والمفتين كتغطية شرعية تبريرية لما تصدره من قرارات أو فرمانات، وبعد نجاح بريطانيا في طرد محمد علي من الشام والحجاز ونجد واليمن، ازداد تدخّل بريطانيا في شؤون الدولة الداخلية تحت ستار تحرير العبيد والقضاء على الرق، مع أنها كانت تستعمر العالم وتستعبد شعوبه استعباداً لا مثيل له. وزاد تدخلها بعد حوادث السّتين، وانضمت إليها روسيا وفرنسا، وصارت هذه الدول هي الحاكم الحقيقي للدولة العثمانية، وهي المحرض الرئيس على إصدار القرارات والفرمانات التي تتعارض مع الأصول الشرعية كما سنرى. وكان الناس، وفي مقدمتهم العلماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يدركون ذلك جيداً، ولذلك نجدهم في الحجاز بالمرصاد لهذه السياسة الاستعمارية التي كانت تنتهجها بريطانيا وحلفاؤها، والتي تجلت بوضوح تام في الدول التي ابتليت مبكراً بالاستعمار الغربي مثل تونس ومصر والسودان والجنوب العربي، والخليج العربي والهند وغيرها. لقد كان أقصى ما يهمهم هو الأمان والاستقرار ورخص الأسعار وأن يكون المسلم مرفوع الرأس موفور الكرامة، وان تكون الشريعة مُصانة محفوظة، يفسرها أهلها لا الحكام ولا

بريطانيا أو روسيا وسنعرض فيما يلي نماذج وطنية لدور العلماء في الحجاز ضد الظلم والتعدي.

١. **العلماء وقضية الأوقاف:** رغب السلطان محمود الثاني(١٨٠٨-١٨٣٩م) في تشديد قبضة الدولة على أراضي الأوقاف في أنحاء الدولة كافة. وقد أراد السلطان محمود إنشاء مركزية لتنظيم أمور الأوقاف وجمع ريعها ووضعه تحت تصرف الدولة لصيانة الأوقاف وتعميرها والصرف على المشاريع الخيرية.[٣٢]. وعندما وصلت هذه التعليمات إلى الحجاز عام١٨٥٠م أبدى العلماء وعلى رأسهم قاضي جدة ومفتي مكة اعتراضهم على هذه التنظيمات التي تمس حياتهم، وقاموا بإثارة الرأي العام ضد هذه القرارات وسادت حالة من الفوضى والقلاقل. وعندما جمع والي جدة حسيب باشا العلماء والفقهاء قال له مفتي مكة السيد عبد الله الميرغني:"لا يسوغ لك بحال، فعزله وعين السيد محمد الكتبي مكانه، فكتب أهل مكة محضراً ووضعوا فيه إشارات العلماء والأشراف ووضعوا عليه أختامهم ووجّهوا به إلى استنبول مستنكرين رغبة حسيب باشا في نزع الأوقاف من أصحابها الشرعيين، فما كان بوسع السلطان إلا عزل حسيب باشا، وتجميد الفرمان الخاص بالأراضي، والعودة إلى النظام القديم، وكان هذا الفرمان للمرة الأولى في تاريخ الفرمانات السلطانية العثمانية مكتوب باللغة العربية وليس التركية. وقد قرأ بحضور الشريف محمد بن عون، وحسيب باشا، وعلماء مكة وأهاليها، الذين خرجوا من هذه المعركة منتصرين"[٣٣].

٢. **العلماء وفتنة جدة الكبرى عام١٨٥٨م:**اكتسب أهل مكة وجدة وعلماؤها خبرة عالية في امور الاحتجاج والرفض والتصدي للانحراف، وكان واضحاً أن الدولة العثمانية لم تنس ما حل بسمعتها على أيديهم، لذلك اتخذت في هذه المرة موقفاً شرساً للغاية من أهالي جدة وعلمائها، مع ان الفتنة نشبت بالأصل دفاعاً عن شرف الدولة العثمانية من الناس المخدوعين بها. وخلاصة الحادثة أن أحد أهالي جدة المدعو "صالح جوهر" كانت له سفينة تجارية يرفع عليها العلم البريطاني، فأراد رفع العلم العثماني بدلاً عنه، فاستاء القنصل البريطاني في جدة من ذلك ورفض السماح لجوهر باستبدال العلم، فبادر هذا الى نامق

باشا، والي جدة، وحصل منه على موافقة رسمية على رفع العلم العثماني على سفينته فبادر القنصل البريطاني إلى السفينة ورفع عليها علم بلاده الاستعماري بعد أن انزل العلم العثماني وداسه بالأقدام، وتكلم بكلام مهين بحق المسلمين. فغضب أهل جدة وثاروا وانطلقوا الى دار القنصل، فلم يجدوه، ووجدوا نائبه مستر بيجpage فقتلوه وقتلوا معه عدداً من الأجانب، وتوجهوا الى حارة النصارى بجدة فنهبوا أموالهم. فرد الانكليز فوراً، بقصف جدة بالقنابل من سفينة حربية لهم، فاجتمع الشعب مع العلماء والتجار في جو عاصف وعرضوا على الوالي إغراق السفينة، وإعلان الجهاد، وقال له تجار جدة: "إن كثيراً من أهل البحر الموجودين تحت أيدينا لهم معرفة وصناعة بتفريق المراكب." فاعترض الوالي، وقرر الاستسلام لقائد السفينة الانكليزية الذي أصر على محاكمة المتهمين. ورفعت القضية الى الباب العالي، فكان أكثر جُبناً وتراجعاً من واليه في جدة، فقد سلم الأمر للإنكليز وحلفائهم الفرنسيين، وطلب من الوالي المصادقة على أحكامهم مهما كانت. وجاءت "اللجنة" إلى جدة في عام١٨٥٨م وتشكلت "محكمة عرفية" واستجوبت المتهمين الذين احتجزهم والي جدة وبعد محاكمات طويلة أصدرت الأحكام التالية:

١) الإعدام لعبد الله المحتسب في جدة، وسعيد العامودي كبير التجار فيها وعدد من التجار والعلماء يقدر باثني عشر رجلاً.
٢) نفي نقيب السادة الأشراف وقاضي جدة وبعض التجار نفياً دائماً ومؤقتاً.
٣) سجن الذين وقع منهم النهب.

وسلموا الأحكام للوالي الذي نفذها بحذافيرها، ثم قبضوا من الدولة قيمة المنهوبات كاملة، وكما قال ابن دحلان: "لقد كانت هذه الحادثة من أعظم المصائب على أهل الاسلام" وإمعاناً من الانكليز والفرنسيين بالتشفي من المسلمين، طلبوا بعد تنفيذ الاحكام، من أمير مكة عبد الله بن محمد ابن عون أن يصطحبهم لزيارة مكة المكرمة ورؤية الكعبة، فاحتال عليهم حتى صرفهم عن ذلك، دون أن يجرؤ بالقول الحق: "إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا" قرآن كريم[٣٤]. وكانت هذه الحادثة نقطة تحول

حادة في نظرة أهل الحجاز عامة، والمسلمين معهم، تجاه مصداقية الدولة العثمانية وفي كونها حامية للحرمين الشريفين، أو حامية لمصالحها هي ومصالح المستعمرين. الأمر الذي جعل الحجاز أنسب مكان لانطلاق الثورة العربية الكبرى. وعندما كثر ظلم عون الرفيق، بمعرفة من السلطان وولاته في جدة، وجد العلماء أنهم قد أصبحوا وجهاً لوجه مع السلطان عبد الحميد، وكانت الشكاوي على عودة الرفيق تعود اليه كما قدّمنا، ولذلك قرر العلماء التصدي مباشرة له، لأنه لم يصل بعد إلى درجة ضرب العلماء، كما كان يفعل بالآخرين وممن تصدى لظلم ابن عون في مكة:

١) الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي مكة الأكبر.
٢) الشيخ عايد، مفتي المالكية بمكة.
٣) السيد عبد الله الزواوي مفتي الشافعية بمكة.
٤) الشيخ عبد الرحمن الشيبي حامل مفاتيح الكعبة

وعلى أثر ذلك نفي الثلاثة الأولون وطلب من الرابع أي يسكن بجوار الطائف. ونتيجة لهذه الأعمال المتوالية من السلطنة أصبحت نظرة علماء الحجاز وأهله نظرة عدم ثقة وازدراء للدولة العثمانية.

رابعاً: المدينة المنورة والخط الحديدي الحجازي:

كانت المدينة المنورة متصرفية عثمانية بدرجة سنجق، ولها نوع من الارتباط بمكة المكرمة وأمرائها، كما سنرى، وكان يتبعها أربعة أقضية هي: ينبع البحر، والسوارقية والوجه والعقبة. ومن قرى المدينة وضواحيها: قباء وقربان والعوالي، من الجنوب والعيون والبركة وخيبر في الشمال وفدك والفقرة والجمراء والصفراء وينبع النخل في الشمال والغرب. وقد بقي وضع المدينة الإداري على حاله، حتى عهد محافظها على رضا باشا الركابي عام١٩١٢م حيث أصبحت ملحقة مباشرة بالعاصمة، وأعطيت لمحافظها صلاحيات واسعة تجعله الآمر الوحيد فيها، وقطعت كل علائقها بمكة المكرمة. وقد كان في هذه الاجراءات فوائد كبيرة للمدينة، فقد صار فيها مديريات للمعارف والمالية والأوقاف[٣٥].

وكان يحكم المدينة المنورة في العصر العثماني الأخير:

- المحافظ، وهو من قبل الدولة.

- وشيخ الحرم المدني، وهو عثماني أيضاً.
- والمحتسب الذي يعينه المحافظ، ووظيفته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراقبة الأسعار والموازين والأمور الأخرى، وفي عصر الاتحاديين، ألغيت وظيفة المحتسب، ونقلت صلاحياته إلى "البلدية" التي صارت مسؤولة عن تخطيط المدن وتنظيم الشوارع، والإشراف على المباني وشق الطرقات.

وكان للأشراف سلطات غير واضحة في المدينة، ولهم مندوب يقيم فيها، لكن لم تكن له صلاحيات مهمّة. وكان في المدينة قوات عسكرية عثمانية تتألف من:

١) ثلاثة طوابير، في كل طابور ٣٥٠جندياً بكامل سلاحهم، ولهؤلاء العسكر قائمقام وأميرالاي.
٢) مائة عسكري من سلاح المدفعية يقيمون في القلعة.
٣) طابور سواري واحد "أي فرسان".
٤) وطابور "بيادة" أي مشاة كل مهما لا يضم أكثر من ٢٠٠جندي[٣٦].

وهكذا نجد أن مجمل القوة العثمانية في المدينة كانت بحدود١٦٠٠ عسكري وكان العسكر ملزمين بالبقاء في ثكناتهم وعدم استعراض عضلاتهم أمام الناس. وكان من أشهر محافظي المدينة المنورة بعد عهد محمد علي داود باشا الكرجي، والي بغداد الأشهر وقائد الجيش فيها، وقد كان ذا مواهب إدارية عالية وطموح قوي للرياسة والادارة، على غرار محمد علي ومدحت باشا، ورغماً عن المدة القصيرة التي قضاها في المدينة والتي انتهت بوفاته فيها فقد استفادت منه المدينة فوائد جمة، ومن أهم منجزاته فيها التجديد الشامل للحرم النبوي الشريف ١٨٤٨م والذي تمّ بأمر من السلطان عبد المجيد، بناء على اقتراح داود باشا. وقد جرت توسعة الحرم في الجهتين الشرقية والغربية، وفتح فيه في الجهة الشمالية باب عرف بباب عبد المجيد، كما أضيفت إليه صالتان من الجهة الشمالية. وتوفي داود باشا عام١٨٥٠م قبل انتهاء التجديد الذي اكتمل عام ١٨٥٦م، ولا تزال آثار هذا التجديد باقية حتى اليوم[٣٧]. وفي أوائل القرن العشرين، شهدت المدينة المنورة ثلاثة انجازات حضارية، كان لها بالغ الأثر في تاريخها وهي: بناء محطة اللاسلكي، ومد الخط الحديدي الحجازي من دمشق، وبناء الجامعة الاسلامية.

١) **محطة اللاسلكي:** في أوائل عام١٩٠٠م، وبينما كانت التبرعات تجمع لبناء الخط الحديدي الحجازي، وصلت الى المدينة المنورة بعثة من الخبراء الأتراك والألمان، واختارت موقعاً شمالي المدينة وبنت عليه محطة اللاسلكي، ووصلت الأجهزة عن طريق ينبع وبضمنها برج حديدي طويل تشدّه حبال معدنية، وتم بناء مركز اللاسلكي وتجهيزاته بسرعة فائقة وقبل نهاية العام، عُيّن السيد علي ناصر ليكون المسؤول الإداري فيها، وهو أحد وجهاء المدينة، باشرت المحطة بثّ البرقيات الرسمية إلى استنبول وتلقي الفرمانات والأخبار منها[٣٨]. ومع اكتمال بناء المحطة عُين للمدينة محافظ صلف متغطرس فظ، يقال له علي باشا مرمحين، فرض الرسوم على أهل المدينة وأرعب أهلها فثاروا عليه بقيادة: أنور عشقي المحتسب، وحاصروا المحافظ في مبنى الحكومة وكادوا يفتكون به. ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا برقية من محطة اللاسلكي الى استنبول، تتضمن مظالمه واستبداده، فجاء الأمر في اليوم التالي بعزله وإلغاء الرسوم الجائرة، وتم تعيين: حسن حسني خلفاً له. وكان ذلك أمراً جديداً بالنسبة لسكان المدينة المنورة، دفعهم كما سنرى، إلى المزيد من الحركات الثورية. ذلك أنهم لم يلبثوا أن ثاروا على المحافظ الجديد حسن حسني وطالبوا بعزله، فعُزل وعين شيخ الحرم المدني عثمان فريد باشا محافظاً جديداً بالإضافة إلى المشيخة، وفي عهده كان وصول الخط الحديدي الحجازي. وثار عليه أهل المدينة وهم يظنون أنه سيعزل، لكن الدولة أرسلت لجاناً للتحقيق، ورفضت عزله، وقد أمرت لجنة التحقيق بنفي أربعة وثمانين من كبار أعيان المدينة إلى الطائف، ثم أطلقت سراحهم بعد١٨ شهراً وأعيدوا الى المدينة، ولم تقم لأهل المدينة بعد ذلك قائمة[٣٩].

٢) **الخط الحديدي الحجازي(١٩٠٠-١٩٠٨م):**في شهر نيسان عام١٩٠٠م أعلن السلطان عبد الحميد عن مشروع الخط الحديدي الحجازي من دمشق إلى مكة المكرمة. فقد افتتح السلطان عبد الحميد التبرعات بمبلغ ٣٢٠٠٠٠ليرة عثمانية ذهباً وتبرّع كذلك كل من: أمير الكويت وسلطان المكلا، وشاه ايران، وسلطان مراكش وأمير بخارى ومسلمو الهند وسنغافورة وأندونيسيا وقد بلغت ميزانية المشروع كاملة نحواً من ١٥ مليون ليرة ذهبية تم

تغطيتها بالكامل، واستمرت الأموال بالتدفق على لجنة المشروع، حتى بعد اكتمال بناء الخط(٤٠). وأمر السلطان عبد الحميد بخصم١٠% من رواتب العسكريين والمدنيين لتمويل الخط، وكان الحجاج يدفعون ريالاً واحداً عن كل حاج إعانة للخط، كما ذكرنا آنفاً.

وكانت أوروبا منذ البداية تعارض بشدة هذا الخط لأسباب دينية بالدرجة الأولى، فهو يوحد بين العرب والمسلمين في أنحاء العالم، ويدعم موقف الرابطة العربية والاسلامية، ويشدّد من قبضة الدولة على الحجاز واليمن والجزيرة العربية، ويخفف من ايرادات قناة السويس لأن السفر عبر القناة من استنبول حتى جدة كان يستغرق نحواً من ١٢يوماً، مقابل أربعة أيام فقط عبر الخط الحديدي الحجازي.(٤١). وكانت أوروبا ولا سيما إنكلترا قد عارضت بشدة من قبل خط حديد: "برلين- بيزنطة- بصرة B.B.B"ونجحت في تعطيله، للأسباب نفسها، فحاولت منعه كعادتها ووضعت العراقيل أمام مسلمي الهند حتى لا تصل تبرعاتهم، لكل الطوفان الاسلامي اجتاح هذه المعارضة وقضى عليها. وتضافرت الجهود الرسمية والشعبية على إنجاح المشروع بدافع ديني بالدرجة الأولى.

- فقد عمل فيه زهاء٧٠٠٠٠٠ عامل معظمهم من العرب تماماً مثلما حصل عند حفر قناة السويس.
- وكان المدير الإداري للمشروع رجلاً عسكرياً فذاً، أعطي صلاحيات واسعة لإنجاح المشروع، فاستغلها أحسن استغلال، وأدار المشروع بكفاءة عالية جداً، وهذا الرجل هو المشير كاظم باشا قائد الجيش الخامس ومن الناحية الفنية كان يدير المشروع المهندس الألماني العالمي، الخبير في أمور السكة الحديد: الهر مسنر. وبدأ العمل من دمشق ثم المدينة المنورة. ففي دمشق تم استملاك أراض واسعة أقيم عليها مبنى الخط الحديدي الحجازي، ومستودعات اللوازم والأجهزة، في منطقة البرامكة، ثم مُدّ الخط من دمشق إلى المزيريب بسرعة فائقة، ثم وصل الى معان فتبوك التي جرى الاحتفال فيها في شهر أيلول١٩٠٦م بوصول الخط الحديدي الحجازي إليها(٤٢). وفي المدينة المنورة، وفي٢٥شعبان

١٣٢٥هـ/١٩٠٧م وصل المهندسون الألمان والاتراك والعرب واختاروا موقع المحطة ومسجد المحطة في غربي المدينة، وحضر معهم عثمان باشا محافظ المدينة، وتم تشغيل أول محطة كهربائية في المدينة في مسجد المحطة، ثم المحطة نفسها فيما بعد. كما تم اختيار المسار الذي ستمد عليه القضبان الحديدية من المدينة باتجاه الشام. وبنيت على الطريق الذي بلغ طوله١٣٠٣كيلومتراً من دمشق الى المدينة المنورة أربع وسبعون محطة، أكبرها محطة الانطلاق ومحطة الوصول. وأخيراً في آب عام١٩٠٨م اتصل الخطّان من الشمال والجنوب واكتمل بناء الخط الحجازي، ووصل أول قطار عليه قادماً من الشام٣١آب عام١٩٠٨م، وكان لوصوله صدى عظيم في أنحاء العالم، وحضر رجال من دول كثيرة إلى المدينة، وأقيمت فيها الاحتفالات الخيالية، وفرح ٣٠٠مليون مسلم لهذه المناسبة الخالدة. وتوطدت بذلك سمعة السلطان عبد الحميد الدينية، وصار فعلاً حامي الحرمين الشريفين(٤٣). وخليفة المسلمين في العالم. وكما هي العادة في التاريخ الحديث للعرب، فإن لحظات الانتصار والنجاح تكون قصيرة بعكس سنوات الهزيمة والقهر، وذلك لأن الغرب الأوروبي نصب نفسه حارساً ومراقباً للأماني العربية والاسلامية، هذا الغرب، وفي مقدمته إنكلترا، رأى، وما يزال يرى أن الأهداف التي حققها الخط الحديدي الحجازي سابقاً، أو سيحققها في حالة إعادة تسييره، تتعارض مع المصالح الغربية، فهذا الخط يعمل على تقوية روابط المسلمين بالعرب، وتقرب بينهم، وهذا بحد ذاته أمر عظيم. وسارت الأمور كما يشتهي الغرب تماماً، وذلك عندما أطيح بالسلطان عبد الحميد الذي كان يحمل شعار الجامعة الاسلامية، وجاء رجال الاتحاد والترقي الطورانيّون الذين كانوا يحتقرون العرب والعروبة والاسلام معاً، ثم كانت الثورة العربية الكبرى، التي سخّرها الانكليز لضرب القوات العثمانية في الشام والحجاز واليمن، تمهيداً لاحتواء العالم العربي في الشرق، بعد احتوائه في مصر والمغرب، وبطبيعة الحال، نسفوا الخط الحديدي الحجازي لاعتبارات عسكرية، ثم شكّلت لجان كثيرة لإعادة تسييره بعد

انتهاء تلك الاعتبارات. وهكذا مات المشروع الذي استغرق بناؤه ثماني سنوات، مات بعد ثماني سنوات فقط من رؤيته النور، وماتت معه الآمال بوحدة العالم الإسلامي أو تضامنه، أو حتى الوحدة العربية أو التضامن العربي. وقد أحدث الخط في السنوات القليلة التي عاشها آثاراً اقتصادية كبرى، حيث كانت عرباته تنقل الباعة والمشترين من كل مكان، فأقيمت الأسواق والمخازن، وتدفقت على المدينة سلع العالم الإسلامي، ولا سيما الشام، حتى إنه حمل في ١٩٠٩م قرابة٩٢٠٠٠ طن من المواد الغذائية وارتفع الرقم في العام التالي إلى١١٢٠٠٠ طن وكثر مجيء الزوار والمجاورين والمعتمرين والحجاج.

خامساً: ثورة الشريف حسين بين الدافع الديني والقومي:

إن الوعي القومي العربي عند العرب إبَّان الثورة كان ضعيفاً، أو كان مندمجاً في التيار الاسلامي ذلك أن سقوط مصر وتونس ومراكش ومن قبلها الجزائر، ثم ليبيا، بيد الدول الغربية، وأخبار المذابح التي نقلها السكان والمهاجرون، من كريت والبلقان واليونان أوجدت في البلاد العربية وبالتحديد في مصر والحجاز والشام والعراق قلقاً عميقاً يشوبه الخوف والترقب من التيار الغربي. وكذلك نجد أن بيانات الحسين كانت تركز على الناحية القومية، وذلك للحد من قوة الدعوة إلى الجهاد الاسلامي التي رفعها السلطان العثماني عام١٩١٥م عند دخول تركية الحرب الى جانب دول الوسط، وكان كل فريق يحاول اجتذاب المسلمين إلى صفه، ولم يكن ثمة شك في ان كفة السلطان العثماني هي الراجحة وبقيت كذلك حتى مذابح عام١٩١٦م، التي كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. وقد ذكر فخري البارودي الذي زار القسطنطينية قبيل الثورة أنه عندما زار عبد الكريم الخليل رئيس"المنتدى الأدبي، حدثه عن التوتر الذي كان قائماً بين الشبيبة العربية والشبيبة التركية، وأن العرب أحرقوا إدارة إحدى الصحف التركية لطعنها بالعرب، وتهجمها على الجنس العربي. كما انهم كانوا يمثلون الروايات العربية على مسارح القسطنطينية، رداً على شبيبة الأتراك الذين كانوا يستغلون شتى المناسبات لإظهار عظمة العنصر التركي وتحقير العنصر العربي. وكانت الأحقاد تتأجج في الصدور"[٤٤]. وقد أشار إلى ناحية غاية في الأهمية عندما قال بعد

ذلك: "الأتراك متدينون طبعاً، في أكثريتهم ما عدا الشبيبة الحاكمة في ذلك الوقت، وعلى الخصوص الفلاح التركي، فإنه من أكثر الناس تديناً، وينظر إلى العرب نظرة الاحترام والإعظام، ويتبرّك بالتمسح بهم، بعكس الشبيبة المثقفة التي تضمر الحقد للعرب" [٤٥]. وهكذا نجد أن الاتحاديين كانوا يمثلون القوة المتحكمة ولا يعبرون عن الشعب التركي وقد كان تعصبهم ضد العرب هو الذي أدى إلى القضاء على الدولة العثمانية أتراكاً وعرباً. لقد كانوا ينفثون في قومهم سم العنصرية التركية ويحبذون سياسة التتريك وسط الهتافات التي لا تنقطع عن: الحرية والاتحاد والمساواة والإخاء والعدالة. ولقد كان الأمير عبد الله في تلك الفترة في القسطنطينية وكان يمتاز بتحمسه الشديد لنسبه وإظهار فضل العنصر العربي حتى إن الاتحاديين ارتابوا في أنه هو الذي كان يحرض والده على التصلب في موقفه. وكان مثل والده يطمع في استقلال الحجاز ومن بعد استقلال العرب في الشام والعراق[٤٦]. ولم تكن الظروف تسمح بنشر هذه الفكرة العربية وإعلانها في تلك الفترة، ولذلك استترت من خلف الدعوة الى الاسلام. لقد استند الحسين الى دعامتي القومية العربية والدين، لكنّه غلب الحديث عن مصالح الإسلام. وبدأ منشوره بالتنديد بالأعمال المنافية للدين، من وجهة نظره، التي قام بها الاتحاديون، وعدّ الثورة واجباً دينياً قيضها الله لبلوغ الاستقلال، ودعا جميع المسلمين، العرب والأتراك والأرناؤوط والبوشناق وغيرهم، إلى تأييده، لماله "من حق في أعناقهم" من حيث هو شريف مكة. وكان هدفه التقليل من أثر الجهاد الإسلامي الذي أعلنه السلطان خليفة المسلمين ويطمع في النهاية إلى القضاء تماماً على فكرة الخليفة الإسلامي العثماني، بوصفه خليفة المسلمين، وكانت هذه الخلافة العثمانية التي تجمع حولها آنذاك ٣٠٠ مليون مسلم تقض مضاجع بريطانية والغرب. ولقد عبر السفير البريطاني لدى الباب العالي عن هذه المخاوف في تقريره السنوي بما نعته: "إنها سياسة ماهرة للسلطان أن يظهر أمام ٣٠٠ مليون مسلم بمظهر الخليفة والزعيم الديني الروحي للإسلام وذلك عند مد سكة حديد الحجاز، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء، وصارت إرادته هي الشريعة المطبقة على الأرض"[٤٧]. ذلك أنه في المنشور الذي أصدره يوم ١٠جمادى الأولى١٣٣٥هـ /٤آذار١٩١٦م، الذي بدأه بالآية الكريمة: ﴿ وعد الله الذين أمنوا

منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾.

يقول: فمن تأمل في وقاحة الفئة التورانية يوم خلعهم السلطان عبد الحميد من نهب داره وحليّ أزواجه وبناته وفيما أتوه من نهب الحجرة النبوية المطهرة ونحن على يقين بأن الله تعالى عندما اقتضت حكمته خزيهم والانتقام منهم خصنا وشرفنا بذلك[٤٨]. يقول في ختام المنشور المذكور: "وعليه فإننا نعلن لمن بقي من مسلمي الممالك التركية خصوصاً جيشها وقواده بأنهم إذا لم ينهضوا لإسقاط حكومة هؤلاء التورانيين، فإننا نقطع آخر أمل لنا بعودة رونق الإسلام لتلك المملكة ورابطته بأهلها، وتكون فاتحة براءتنا منها طيّ اسم سلطانها من خطب الجمعة، التي أبقينا فيها اسمه حتى الآن حرمة لآثار أسلافه وأملا بقيامه بتحرير البلاد من الفئة التورانية المتغلبة". وعلى الجانب الآخر أي في الناحية العثمانية كانت أوجهُ القوة في الموقف العثماني تتمثل في:

(١) كراهية العرب والمسلمين للغرب الأوروبي: معرفة العالم الإسلامي جيداً في الهند وأفريقية ومصر والبلقان وغيرها، النوايا الحقيقية لبريطانيا، الشريك القوي للشريف حسن وكذلك موقف الشريك الثاني فرنسا، والشريك الثالث روسيا القيصرية وأطماعهم في بلاد الشام والعراق والخليج العربي. وقد ظهرت علامات واضحة تدل على عمق الوعي السياسي في مرحلة الثورة، وقد تجلى ذلك في عدة وجوه. فعندما عقد مؤتمر باريس١٩١٣م، بتشجيع وتأييد من فرنسة، ومن خلفها شركاؤها، قام وفد من الشخصيات العربية بجولة في اوروبا، أعلنوا فيها بصراحة أنهم يستنكرون انعقاد مؤتمر باريس كما يستنكرون وجود المؤيدين للمؤتمر في بلاد الشام. وقد نشر فخري البارودي نصّ برقية موجهة من دمشق الى الدولة العثمانية، كان مما جاء فيها: "لا لمؤتمر باريس". ونصّها: "نشر بعض السوريين المعروفين في أوروبا بياناً صرّحوا فيه أنهم سيعقدون مؤتمراً للوقوف في وجه الأطماع الأجنبية في سورية وفلسطين. وقد بلغنا أن جماعة في دمشق يقبحون عمل هؤلاء السوريين الذين يحاربون الاحتلال الأجنبي لسورية، وكأنهم سرَّهم ما حل بإخوانهم في طرابلس الغرب والروم إيلي من النكبات المؤلمة، وقد ساء عملهم هذا كل محب للخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية ومبغض

للسيطرة الأجنبية"[٤٩]. وقد وقع على هذه البرقية عدد كبير من رجالات الشام، ليس فيهم موظف حكومي واحد، وممّن وقع على البرقية المذكورة رجال أعدموا فيما بعد يوم ٦أيار مما يدل بصورة قاطعة على مدى التحوّل في مواقف رجال العرب بين(١٩١٣و١٩١٦م)، بفعل سياسة جمال باشا القاسية. ومن أبرز هؤلاء: علي العسلي، متري قندلفت، رشدي الشمعة، عبد الوهاب الانكليزي، شكري العسلي، محمد كرد علي، خليل مردم بيك، محمد فخري البارودي، لطفي الحفار، خير الدين الزركلي، وعبد الرحمن الشهبندر.[٥٠]. وعندما زار سلطان مراكش دمشق ١٩١٣م صرّح في اجتماع عام أن احتلال فرنسا لبلاد الشام أمر ضروري لا محيد عنه، وقريب الحدوث. وعندما وجدت الجمعية العربية الفتاة أن الأطماع الغربية في الأرض العربية، لم تعد خافية، أصدرت في مطلع العام١٩١٥م البيان التالي: "إنه إذا تحقق أن للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد، فإن الجمعية ملزمة بأن تعمل إلى جانب تركيا، لكي تقاوم التدخل الأجنبي مهما تكن صورته".[٥١]. والجدير بالذكر أن الجمعية العربية الفتاة تأسست في باريس عام١٩١١م وأسسها سبعة من العرب درسوا في باريس، وقام أحد أعضائها توفيق الناطور بتأسيس فرع لها بالاستانة ثم نقل مركز الجمعية من باريس الى بيروتُ ثم الى دمشق. وكان هدف الجمعية السياسي استقلال البلاد وتحريرها من الحكم العثماني أو أية سيطرة أجنبية.

(٢) الجهاد الإسلامي: عندما أعلن الشريف ثورته، كان يدعى للسلطان العثماني على منابر الحرمين الشريفين، قبل الدعاء للشريف نفسه، وهذا يعني أن تجاهل السلطان العثماني، والمناداة صراحة بإسقاط الخلافة العثمانية في الأستانة كان سيعرض ثورته للفشل الذريع. لذلك ركز انتقاداته على جماعة الاتحاد والترقي، وبقي الدعاء للسلطان حتى مُضي سنة من عمر الثورة، وهذا الأمر فعله الشريف حسين ووافقته عليه بريطانيا التي كانت تنتظر الوقت المناسب لإلغاء الخلافة الإسلامية من أساسها وعدم احتمال عودتها تحت أي ظروف. ولقد استغلت الحكومة العثمانية موضوع الجهاد الإسلامي إلى أبعد الحدود، فإنه بالإضافة إلى مد الخط الحديدي الحجازي

الذي سهل اجتماع المسلمين السنوي لمعالجة مشكلاتهم، كما هو الهدف الحقيقي من الحج، بوشر بإنشاء الجامعة الاسلامية التي تربط المسلمين ثقافياً ودينياً، وقد تحدثنا عن ذلك في موضعه. إنه بالإضافة إلى ذلك، قامت الدولة العثمانية عقب انضمامها إلى ألمانيا والنمسا في الحرب باحتفالات خيالية لإعلان الجهاد الإسلامي وهي الكلمة التي كانت وماتزال ترعب الغرب الأوروبي، يقول جورج أنطونيوس: "إنه في ١٥كانون الأول١٩١٤، وصلت راية النبي صلى الله عليه وسلم باحتفال مهيب الى دمشق، وكان في استقبالها جمال باشا وحكومة دمشق وعشرات الآلاف الذين اندفعوا وراءها يعلنون أنهم سيلبون دعوة الجهاد التي أطلقها الخليفة". وكان قد جرى إخراجها من الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة يوم٣٠تشرين الثاني١٩١٤م شهده عشرون ألفاً من المسلمين، وفاز بشرف نقلها عميد آل الرسول وأكبرهم سناً السيد علوي بافقي هو أبناؤه الثلاثة" وقد استقرت الراية في المسجد الأقصى الشريف، وأقيم لاستقبالها احتفال عظيم، مات في نهايته الشريف علوي المذكور، فاعتبر موته شهادة في سبيل الله".(٥٢)

وهكذا نرى أنه ثمة اندفاع واسع من وراء دعوة الجهاد التي أطلقها الخليفة، وهو ما أرعب بريطانيا، وجعلها تفكر بدهاء شديد كيف تقضي على فكرة الجهاد، أو على الأقل تضعفها وتذهب ببريقها. وقد شاءت الأقدار أن تسير الأمور في الجانب البريطاني، وكأن بريطانيا هي التي تخطط لها. ذلك أن جمال باشا– كما يذكر معاصره المؤرخ جورج أنطونيوس – كان لوصوله إلى دمشق وقع حسن في النفوس فقد كان عاقداً العزم على كسب السكان العرب لموالاة تركية واستمالة المسلمين الى جانبها في الحرب. ويقول جورج انطونيوس: "إن بعض الموظفين الأتراك قد داهموا قبل وصوله دمشق بقليل القنصليتين الفرنسيتين في دمشق وبيروت وفتشوهما، فعثروا على رسائل فيها اتهام لبعض الشخصيات العربية المعروفة، وكانت هذه الوثائق تتضمن أدلة على ما بذلوا من نشاط لا فرق بينه وبين الخيانة. لكن جمال باشا اكتفى بإخبار الشريف حسين بما عثر

عليه، ووضع تلك الأوراق في أحد الأدراج وأقفل عليها، ثم وجه عزمه على تحرير مصر". ولكن ونتيجة فشله في حملتي القناة "السفر برلك" وعدم إعلان الشريف حسين للجهاد الإسلامي ضد الدول المتحالفة بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا، جعله عصبياً يريد تحقيق النصر بأي ثمن، فرجع إلى دفاتره القديمة وأخرج الوثائق المذكورة وأعدم من أعدم، فكأنه بذلك كان يخدم بريطانيا لا تركية وتحولت المواقف. ويجب التنويه عن ازدواجية السياسة البريطانية تجاه كل من عبد العزيز آل سعود والشريف حسين فقد انصب اهتمام حكومة الهند على العراق والطرق البرية والبحرية المؤدية إلى الهند بينما كان اهتمام المكتب العربي بالقاهرة والمرتبط بوزارة الخارجية بلندن يرتكز على الأهمية الاستراتيجية لقناة السويس. وعلى أي حال يجب التأكد أنه بغض النظر عن التباين في وجهات النظر السياسية بين المكتب العربي من جهة وحكومة الهند من جهة أخرى تبقى المصالح الاستعمارية العليا في المنطقة توجه وتحكم نشاط كلا المركزين سواءً في القاهرة او في بومباي. ولا يستبعد أن تكون الازدواجية التي تحدثنا عنها فيما يخص السياسة البريطانية تجاه ابن سعود والشريف حسين عبارة عن توزيع الأدوار. لأن بريطانية كانت بحاجة لكليهما بقصد إزاحة النفوذ العثماني من الجزيرة العربية. وتجدر الاشارة هنا إلى أن رجال الحركة الوطنية في سوريا كانوا قد تنبهوا إلى أهمية قيادة الشريف حسين للثورة العربية ضد العثمانيين، لذلك بادروا إلى الاتصال به بواسطة الشخصية الوطنية المعروفة فوزي البكري، وعندما أوفد الحسين ولده فيصل في آذار ١٩١٥ للتنسيق مع الزعماء الوطنيين في دمشق اتفقوا معاً على شروط إعلان الثورة وفق البرنامج القومي وملخصه: مقابل اعتراف بريطانية باستقلال البلاد العربية، وإلغاء الامتيازات كافة الممنوحة للأجانب يتعهد رجال الحركة الوطنية بتأييد الحلفاء ضد العثمانيين وقرروا عقد اتفاقات اقتصادية وعسكرية بين الدولة العربية العتيدة وبريطانية بعد الحرب وقرروا مبايعة الحسين ناطقاً باسمهم وقائداً للثورة. والجدير بالذكر أنه أثناء اجتماع فيصل ابن الحسين بأقطاب جمعيتي العهد والفتاة السريتين لم يقم آنذاك أي خلاف

بين المؤتمرين في دمشق حول تحديد مستقبل العرب بل أقر فيصل الشروط وحملها إلى والده، وعلى أساسها قامت المفاوضات مع بريطانيا فكانت رسالة الحسين الأولى إلى مكماهون تعبر عن آراء زعماء العرب جميعاً كما وضعت في بروتوكول دمشق مطالبة بالاستقلال والتحرر والوحدة.

درس الحسين نتائج مهمة ابنه فيصل في دمشق، وتبادل الرسائل مع كبير المسؤولين البريطانيين في مصر، مكماهون الذي عين في حينه مندوباً سامياً على مصر والسودان، حول التعاون بين الطرفين، وتجدر الاشارة إلى أن شروط الحسين تجاه الانكليز كانت الشروط نفسها التي تضمنها البرنامج القومي الذي وضعه الوطنيون في دمشق مضافاً إليه شرط آخر الحسين وضعه وهو وجوب اعتراف بريطانية بخلافة عربية.

لا شك في أن تنفيذ حكم الاعدام في شهداء ٦أيار١٩١٦م قد سرّع في قيام الثورة العربية، وعمق الاستياء ضد العثمانيين في المنطقة وفي ٥ حزيران عام١٩١٦م أعلن الشريف حسين الثورة على العثمانيين وأصدر بياناً دعا فيه جميع زعماء الجزيرة العربية الانضمام الى الثورة من أجل الاستقلال وبعدها أخذت الأموال والامدادات تتوارد إلى جدة ليستخدمها الشريف حسين في تجنيد القبائل واستمالة زعماء الجزيرة العربية.

١. موقف عبد العزيز آل سعود خلال الثورة العربية الكبرى:

بعد نشوب الثورة بوقت قصير أرسل الحسين بن علي إلى عبد العزيز بن سعود مبالغ من المال تربو قيمتها على خمسة وعشرين ألف ليرة ذهباً، ولكنه لم يكتب له عن أسباب إرسال تلك الاموال ولم يكشف له عن سر إرسالها[٥٣]. فأرسل اليه ابن سعود وفداً مكوناً من أخيه محمد، ومشاري بن جلوى، وعبد العزيز بن تركي، ومعهم كتاب يؤكد فيه ابن سعود أنهم سوية في هذه الحرب ونتيجتها مشتركة[٥٤]. وأكد استعداده لمزيد من المساهمة في الحرب.

وحاولت الدولة العثمانية خلال ذلك استمالة ابن سعود إليها عن طريق والي الحجاز العثماني غالب باشا، الذي كان يعلم ما يدور بين الحسين والانكليز، وطلب اليه القدوم الى الحجاز لتسليمه منصب الإمامة وإدارة الأماكن المقدسة. ولكن ابن سعود تذرع بأنه والشريف حسين يد واحدة[٥٥]. فقد كان يخشى أن

يؤدي به القبول إلى معاداة الانكليز له في وقت كان يسعى لمصادقتهم.

وعندما تبين لابن سعود أن الشريف حسين يطمع بإمارة عربية مستقلة تحت إمرته، كتب بذلك إلى برسي كوكس الذي أصبح معتمداً لبريطانية في بغداد[٥٦]. ثم اجتمع معه بالعقير وأفصح له بأنه لو تم ذلك فإنه سيؤدي إلى المساس باستقلال ابن سعود في نجد والاحساء. لكن كوكس كان مهتماً بمصلحة بريطانيا، ولم يكن تواقاً لإثارة أي خلافات بالجزيرة العربية، ومع هذا أكد له أن الانكليز ضامنون استقلاله وأن أي حركة على الشريف حسين تعني حركة على الانكليز. وطلب كوكس من ابن سعود عدم التعرض للشريف حسين، فوعده بذلك على شرط ألا يتحدث الشريف حسين باسم العرب، أو يدعو نفسه ملكاً لأن هذا سيخلق وضعاً غير ملائم له، كما طلب ألا يتدخل الحسين في شؤون نجد وأن ترسم الحدود بين نجد والحجاز[٥٧]. لقد حاولت إنكلترا الحيلولة دون اشتداد التناقضات بين الحسين وابن سعود، إلا أن ابن سعوداً منذ البداية لم يكن يثق بالحسين، ولإدراكه أن بريطانيا هي الأقوى مركزاً في الجزيرة العربية جعله يتجه نحوها. وبقصد إظهار النوايا الحسنة قام. بمصادرة٧٠٠جمل، اشتراها أحد التجار لإرسالها إلى العثمانيين، وسلمها إلى الإنكليز في الكويت[٥٨]. وقد اضطر ابن سعود الى تحسين علاقاته مع الحسين بسبب الضغط البريطاني، بخاصة وأن الدولة العثمانية كانت تمول خصم ابن سعود أمير حائل ابن الرشيد بأسلحة ومعدات. ولأن بريطانيا يهمها الحصول على إجماع الزعماء العرب في الجزيرة العربية، وإزاحة النفوذ العثماني من المنطقة بأسرع ما يمكن فقد هيأت لقاء في الكويت في ٢٠ تشرين الثاني١٩١٦م، دعت إليه كلاً من عبد العزيز آل سعود، والشيخ خزعل شيخ المحمرة، والشيخ جابر الصباح وعدداً كبيراً من أمراء القبائل، وحضر عن الجانب الانكليزي السيد برسي كوكس الذي استقبل بحفاوة في "قصر الصيف" مقر الاجتماع حيث قام بإلقاء كلمة حاول فيها إظهار النيات الحسنة لبريطانيا تجاه العرب، وزعم أن بريطانية تهدف إلى جمع كلمة العرب، ولم شملهم ليكونوا كتلة قوية يتمكنون بوساطتها صد أي اعتداء يقع على بلادهم من الخارج[٥٩]. وتجاوب الحضور مع وعود المندوب البريطاني وأعلن عبد العزيز في رده: "أن الحكومة العثمانية

تسعى إلى إضعاف الأمة العربية، لكن بريطانيا تهدف إلى توحيد القادة العرب". وأضاف قائلاً: "كلكم يعلم أنني عدو الأتراك، وهم أعداء لي وسأطردهم ولو بقيت وحدي لأنني لا أنسى ما لقيته على أيديهم. لذا أعاهد الحكومة البريطانية بألا يأتيها أي ضرر ما دامت تراعي المعاهدة المعقودة معي وأعدها أيضاً بأنني لا أنضم إلى أي حلف ضدها، وأوكد لها أن العرب لا يجتمعون عليها بسوء إذا لم أكن أنا معهم، وأني أرغب في أن يجتمع أمرنا على مساعدة الحلفاء"(٦٠).

ويمكن القول إن النفوذ البريطاني في الجزيرة العربية أخذ بالاتساع بعد لقاء الكويت، وزادت سيطرته على مجمل النشاط السياسي فيها. وقد وجه الشريف حسين برقية إلى عبد العزيز عن طريق الحاكم السياسي في العراق برسي كوكس يشكره فيها على ما تم إنجازه في لقاء الكويت، وفي ٢٧ تشرين الثاني قلد كوكس كلاً من عبد العزيز آل سعود والشيخ جابر الصباح وسام نجمة الهند. وفي اليوم نفسه زار ابن سعود البصرة واستعرض الإنكليز أمامه الأسلحة الحديثة، ورأى الطائرات لأول مرة وربما ترك هذا انطباعاً عميقاً لديه. وتم خلال الزيارة التفاهم على المعونة الشهرية لأمير نجد وهي خمسة آلاف جنيه استرليني بالإضافة إلى إرسال أربعة رشاشات وثلاثة آلاف بندقية مع ذخيرتها على أن يتعهد عبد العزيز مقابل ذلك بتجنيد أربعة آلاف شخص ضد حائل(٦١). وفي هذه الأثناء قامت قوات الشريف حسين بمهاجمة الجيش العثماني في مكة وبعد معارك دامت ثلاثة أيام أجبر ذلك الجيش على الاستسلام(٦٢). وعلى أثر ذلك تم تحرير ميناء جدة على البحر الأحمر، ومع بداية شهر أيلول١٩١٦م كانت أهم المناطق الحجازية باستثناء المدينة تحت سيطرة العرب. ولا شك في أن الحسين قد استفاد من المعونات الانكليزية بتجنيد مجموعة من القبائل العربية، وهذا ما ساعد على التوغل نحو الشمال والاستيلاء على العقبة حيث تم الاتصال بالقوات البريطانية القادمة من سيناء، ودفع الجيشان "العربي والانكليزي" بالقوات العثمانية نحو الشمال "خط معان – بئر السبع". وكان الضغط الانكليزي قد ازداد خلال ذلك على ابن سعود لمهاجمة إمارة جبل شمر التي كانت تقلق القوات الإنجلوهندية في وادي الرافدين. كما

حاول الإنكليز الاستفادة من إمكانات ابن سعود لوقف تهريب الأسلحة عبر بوادي الجزيرة العربية وقد أرسل برسي كوس بعثة انكليزية على رأسها هاري سانت جون فيلبي. وعلى أثر المباحثات التي أجرتها البعثة مع عبد العزيز آل سعود تعهد هذا الأخير ببدء العمليات النشيطة ضد إمارة شمر إذ قدم له الانكليز السلاح[٦٣]. وفي آب١٩١٨ بدأت حملة عبد العزيز على جبل شمر، وشارك فيها فيلبي إلى جانب خمسة آلاف شخص من النجدين[٦٤]. لكن تأزم الوضع على الحدود ما بين الحجاز ونجد بسبب واحة الخرما التي أثيرت مجدداً، وقيام الحسين بعقد صلح مع أمير حائل أقلق أمير نجد. وعندما كان الشمريون على وشك الاستسلام لعبد العزيز أمره الانكليز بالعودة لأن انتصاره في حائل ربما يسبب ازعاجاً للشريف حسين. فما كان من عبد العزيز إلا أن عاد مع الحملة مع غنيمة قدرها ألف وخمسمئة جمل وآلاف الأغنام وعشرة آلاف خرطوشة. وفي أواخر عام١٩١٨م بعث الشريف حسين بقوة لكي تستولي على الخرما وبالمقابل أرسل ابن سعود الإخوان لنجدة خالد بن لؤي أمير الخرما. ودمروا القوات التي جاءت من مكة، وكان هذا غاية التحدي للشريف حسين. وأخذ خالد يشن غاراته على المناطق التابعة للحسين في وقت كانت المدينة المنورة لا تزال تحت سيطرة العثمانيين. ومع استسلام الحامية العثمانية في المدينة المنورة في تشرين الثاني ١٩١٨ انتهت الحرب بالنسبة للجزيرة العربية، وفي كانون الأول من العام نفسه استسلمت ألمانيا وبذلك انتهت الحرب العالمية الأولى. ولكن نتائج الحرب بالنسبة للعرب أسفرت عن التجزئة والاحتلال في منطقتي العراق وسورية وفقاً للاتفاقيات السرية والوعود المتناقضة خلال الحرب- سايكس- بيكو، وتصريح بلفور. وقد برهن كل ذلك أن وعود بريطانيا للعرب لم تكن أكثر من حبر على ورق، فقد استغلت بريطانيا التضحيات والدماء العربية لتدعيم نفوذها وسيطرتها على المنطقة ضاربة عرض الحائط بالطموحات العربية في الاستقلال والتحرر. وهذا ما أقر به لورنس نفسه[٦٥]. وفي النهاية فإنه بعد عرضنا للتيّارات المتباينة التي رافقت الثورة العربية وسبقتها ثم تلتها نخلص إلى القول : لقد كانت هذه الثورة عربية في فكرها هدفها الاستقلال والتحرر. هي ثورة عربية اشترك فيها الحجازي والشامي

والمصري والعراقي وكلهم حاربوا من أجل تحرير العرب الرازحين تحت ثقل الأحكام العثمانية. الثورة قامت من أجل هدف واضح وصريح ألا وهو الاستقلال لكن البريطانيين خدعوا الشريف حسين وطعنوا العرب جميعاً باتفاقيات سايكس- بيكو وبوعد بلفور وبالوقت نفسه الذي كانوا يفاوضون العرب كانت تدور مباحثاتهم مع فرنسا وروسيا لاقتسام تركة الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا كانتا قد أعدتا مخططاً استعمارياً للمنطقة بقصد احتلالها وتمزيقها، وزرع كيان غريب وسط هذا الوطن ألا وهو إسرائيل. وهكذا قدر للاستعمار تحطيم الوحدة السياسية للوطن العربي حيث تكاملت عملية الغدر فقسمته إلى خمس وعشرين وحدة سياسية ترزح تحت حكم الفرنسيين والبريطانيين والاسبان والإيطاليين في آسيا وإفريقيا العربية. وبذلك فقدت الأقطار العربية وحدة الترابط والتواصل، وتوجب على العرب أن يناضلوا لعشرات السنين من أجل رفع نير الاستعمار أولاً، ومن أجل إعادة التواصل من جديد نهائياً.

٢. الشريف حسين والسنوات الأخيرة من حكمه:

واجه الشريف حسين بعد نهاية الحرب العالمية الأولى صدمات متوالية منها انهيار أحلامه بقيام دولة عربية موحدة. وبعد أشهر قليلة نادى ابنه فيصل١٩١٩ أن سوريا بحدودها الطبيعية دولة مستقلة لا علاقة لها بسائر البلدان العربية الموحدة. وبعدها بأيام سدد الوهابيون للحسين الطعنة في منطقة تربة حيث أبادوا الجيش الحجازي النظامي. اشتركت الحجاز في مؤتمر الصلح في فرساي وكانت أول حكومة عربية تشترك في مؤتمر دولي ومثل الأمير فيصل الحجاز في المؤتمر وهاجم بشدة المعاهدات السرية التي اقتسمت بموجبها الدول الكبرى الدول العربية، ولم يستطع فيصل بن الحسين في مؤتمر الصلح أن يحقق لأبيه أو للحجاز أو للعرب أي حق، وحاول الحسين أن يرسل ابنه عبد الله ممثلاً له في مؤتمر الصلح لكن الجنرال اللنبي أعاده من مصر. اجتمع ممثلو الشعب السوري في مؤتمر عقد في دمشق وأعلنوا فيه وحدة سوريا واستقلالها ومبايعة فيصل ملكاً في ٨آذار١٩٢٠ واغتنمت فرنسا الفرصة وأرسلت إنذاراً إلى فيصل، وقضت على حكومة فيصل في سوريا في ٢آب١٩٢٠، وكان الأمير عبد الله بن الحسين قد استقر

في عمان أميراً على إمارة شرقي الأردن بينما استقر الابن الآخر فيصل ملكاً على العراق في ٢٣آب١٩٢١. واعتقد الانكليز أن تأمين العرشين لولدي الحسين قد يجعله يتساهل مع الانكليز بتوقيع معاهدة يعترف فيها بشرعية التجزئة، لكن الحسين أصر على حقه بالدفاع عن قضية عرب فلسطين وعدّها داخلة في نطاق البلاد التي وعده الانكليز باستقلالها وحاولت بريطانية مرة أخرى أن تحمل الحسين على توقيع معاهدة للاعتراف بمركز بريطانيا الخاص في فلسطين والعراق لكنه رفض وكذلك قام الحسين في الرابع من آب١٩٢٤ بتوجيه رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا ناشده فيها عدم التنكر لوعود بريطانيا للعرب خلال الحرب. لكنه قبل مضي شهر على هذه الرسالة كان عبد العزيز آل سعود قد بدأ بغزو الحجاز. وأثناء زيارة الشريف حسين إلى عمان في ١٨ كانون الثاني١٩٢٤م أعلن آنذاك عن إلغاء الخلافة العثمانية فبويع الحسين خليفة من قبل الكثير من أهالي فلسطين وسوريا والأردن والعراق. ولكن لم يمض وقت قصير على هذه البيعة حتى كان عبد العزيز آل سعود قد بدأ استعداداته لإنهاء عهد الأشراف في الحجاز فبدأ عملياته في الطائف واستباحها ثم انسحب الحسين إلى جدة وأجبر على المغادرة الى عمان ومن هناك إلى قبرص حيث مات منفياً فيها أما الملك علي بن الحسين فقد غادر الحجاز كذلك على البارجة البريطانية نفسها التي نقلت أباه ودخل ابن سعود جدة في ٢٥ كانون اول عام١٩٢٥م معلناً انتهاء القتال وفي ٨كانون الثاني١٩٢٦م بويع ابن سعود ملكاً على الحجاز منهياً بذلك عهد الأشراف[٦٦]. وهكذا لعب عبد العزيز آل سعود دوراً مهماً فقد تخطى منصب الشرافة وأراد أن يكون قائداً للعرب وحاكماً عليهم ليس في الحجاز ونجد فقط بل في معظم أنحاء الجزيرة العربية. وبعد سيطرة ابن سعود على الحجاز دخل في معركة سياسية مع المسلمين لا سيما مسلمو الهند الذين أيّدوا عبد العزيز في البداية ضد الشريف حسين على أن تكون في الحجاز إدارة ديمقراطية تمثل العالم الإسلامي كله، وبالفعل أعلن ابن سعود أن مستقبل الحجاز سيقرره مؤتمر يشترك فيه المسلمون جميعاً ووجه عبد العزيز آل سعود مذكرات إلى الدول الإسلامية لعقد المؤتمر منها (إيران –

تركيا – العراق – مصر). وأعلن ان الحجاز أمانة بيده إلى أن يقرر أهله انتخاب حاكم يرتضونه. بعد أربعة عشر يوماً غيّر ابن سعود سياسته بعد أن أذاع أن أهالي الحجاز عقدوا البيعة له. مما أحدث ردة فعل عنيفة ضده في مصر والهند وعدّوا ابن سعود اغتصب البيعة لنفسه. لكن ابن سعود سرعان ما انصرف إلى تنظيم الحجاز فوضع له دستوراً خاصاً نص على وجود مجلس استشاري ومجلس تأسيسي وعين ابنه فيصل نائباً عنه وبدأت الدول تعترف وتقر بهذا الواقع وأولها الاتحاد السوفييتي الذي سرعان ما أرسل رسالة تهنئة لابن سعود بالحجاز ثم تلته بريطانيا وتركيا وفرنسا وهولندا وأمريكا وإيطاليا، ثم رضخت الدول العربية والإسلامية لهذا الأمر الواقع.

هوامش الفصل الأول

[1]) محمد أمين توفيق، تاريخ أشراف الحجاز، دراسة و تحليل لخلاصة الكلام في بيان البلد الحرام، دار الساقي بيروت،١٩٩٣، ص٧١.

[2]) أحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، بيروت، الدار المتحدة بدون تاريخ، ص٣٥٣

[3]) توفيق، المصدر السابق، ص١٦.

[4]) إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين، القاهرة بدون تاريخ.ج١ ص٢٣-٢٥. لقد وصف أمير المحمل المصري جدّة١٩٠١ فقال: "إنه يحيط بجدة سور ارتفاعه أربعة أمتار وفيه تسعة أبواب. وفيها مبنى الحكومة وثكنات العسكر ومكتب للبرق وبناء للمجلس البلدي وآخر للحجر الصحي وثالث للجمارك. وفيها حمام واحد وفندقان و٣٥ مسجداً. وفيها أربعون مقهى، وصيدلية واحدة ومكتب لتعليم الصبيان. وفيها مستشفى ومطبخ للجير وأربعون مخزناً تجارياً كبيراً. وفيها٩٠٠ دكان و٤٧ طاحون و٤٧ فرناً و١٠ مطاعم – وعدد من الأسواق، وعرض شوارعها ٨-١٥ متراً. وعدد سكانها زهاء ٢٥٠٠٠ نسمة. ويمر بها كل عام ١٢٠٠٠٠ حاجاً". وذكر رفعت باشا أن فيها مجلساً للأحكام وقاضياً شرعياً وأن المجلس البلدي من الأهلين.

[5]) دحلان، المصدر السابق، ص٣٥٦.

[6])المصدر نفسه، ص٣٥٨.

[7])توفيق، المصدر السابق، ص٧٢.

[8])دحلان، المصدر السابق، ص٢١٨-٢٢٧.

[9]) محمد حسين العيدروس، تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، مؤسسة "عين للدراسات" في القاهرة١٩٩٦، ص٣٨٣.

[10]) دحلان، المصدر السابق، ص٣٨٠.

[11]) العيدروس، المرجع السابق، ص٣٨٢.

[12])دحلان، المصدر السابق، ص٣٥٨.

[13])المصدر نفسه، ص٣٦٥.

[14]) المصدر نفسه، ص٣٦٦.

[15]) أبي الطيب تقي الدين ابن أحمد ابن علي الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه عمر عبد السلام تدمري، دار الكتب العلمية ببيروت، بدون تاريخ، ص٣١٢-٣١٣.

Damascus University

[16])دحلان، المصدر السابق، ص٢٦٧.
[17])الفاسي، المصدر السابق، ص٣١٣.
[18])دحلان، المصدر السابق، ص٣٧٥.
[19])المصدر نفسه، ص٣٧٧.
[20])رفعت، المصدر السابق، ص ٢٧٥.
[21])خير الدين الزركلي، الاعلام، ج٥،، ص٩٩.
[22])رفعت، المصدر السابق،ج١، ص٤٥.
[23])المصدر نفسه، ص٦٤.
[24])المصدر نفسه، ص٧١.
[25])أحمد الحوفي، ديوان شرقي القاهرة١٩٧٩، ج١، ص٣٨١.
[26])المصدر نفسه، ص١٨٦ – ٢٠٣.
[27])العيدروس، المرجع السابق، ص ٣٨٥.
أيضاً جرجي زيدان، مشاهير الشرق، دار الحياة، بيروت ،ج١، ص٤٧٩.
[28])دحلان، المصدر السابق، ص٣٨٤.
[29])المصدر نفسه، ص٣٨٤ – ٣٨٥.
[30])غرايبة، تاريخ العرب الحديث، دمشق ١٩٦٠، ص٣٢٥.
[31])توفيق، المصدر السابق، ص٧٨ – ٧٩.
[32])المصدر نفسه، ص٧٩.
[33])للتوسع حول الحادثة انظر دحلان ص٣٦٧.
[34])عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة١٩٩٣، ٣ أجزاء، ج٣، ص٣٧ – ٣٨.
[35])بدر، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٨٣.
[36])المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨٣، أيضاً دحلان، ص٣٦
[37])بدر، المرجع السابق، ج٣، ص٥.
[38])رفعت، المصدر السابق، ج٢، ص١٠٥.
[39])بدر، المرجع السابق، ج٣، ص١٣. أيضاً محمد عارف بن أحمد المنير، السعادة النامية الأبدية في السكة الحديدية الحجازية، مخطوط في مكتبة الأسد، رقم ١٠٧٦٨، ويقع في ٣٤ورقة، انظر الورقة الثانية.
[40]) العيدروس، المرجع السابق، ص٣٨٨.

(41) بدر، المرجع السابق، ج٣، ص١١.
(42) المرجع السابق، ج٣، ص٢٨.
(43) المرجع نفسه، ص٣٢.
(44)أوراق فخري البارودي ١٨٨٧ -١٩٦٦ نشر وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٩ تحقيق دعد الحكيم ج١، ص٢٣٨.
(45)المصدر نفسه، ص٢٤١.
(46)جورج انطونيوس، يقظة العرب، تعريب علي حيدر الركابي، مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٦، ص٢٠٤.
(47)أنيس صايغ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، دار الطليعة بيروت ط١، ١٩٦٦، ص٦٧.
(48)المنشور موجود في مركز الوثائق التاريخية بدمشق.
(49)جريدة المقتبس، العدد ١٢٠٥، السبت ٣١ أيار١٩١٣.
(50)أوراق البارودي، مصدر سابق ص ٦٨، أيضاً القبلة مكة المكرمة ٢٥ شوال ١٣٣٤هـ.
(51)أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٦.
(52)المصدر السابق، ص٢٣١.
(53)أمين الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته، مطبعة يوسف صادر بيروت١٩٢٨، ص ٢١١. أيضاً صدى الأحوال العدد٤٢٢ تاريخ ١٩٢٥/٢/٤.
(54)حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، ٤ أجزاء ط٢، ١٩٦٢، ص ٦١-٦٣.
(55)حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين لندن ١٩٣٥، ص٢٣١-٢٣٢.
(56)ألكسي فاسيليف، تاريخ العربية السعودية، ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطة، دار التقدم موسكو ١٩٨٦، ص ٢٩٣.
(57) Philpy,(h.s.t) saudia, Arabia, first edition, London 1955. P.273
(58)القبلة العدد ٢٢ الاثنين ٢محرم ١٣٣٥ هـ - ١٩١٦م، ص٢.
(59)خزعل، المرجع السابق،ج٣،ص١٠٥.
(60)المرجع نفسه، ص١٠٧.
(61) Philpy, op. cit p.274
(62)القبلة العدد١ السنة الأولى الاثنين ١٥ شوال١٣٣٤ هـ -١٩١٦م.
(63)فاسيليف، المرجع السابق، ص٢٩٤.
(64) Philpy, op. cit p.275-276
(65)قال لورانس "بما أني لم أكن أحمق نهائياً، فقد رأيت إذا انتصرنا نحن في الحرب فإن وعودنا

Damascus University

للعرب ستكون حبراً على ورق. ولو كنت مستشاراً نزيهاً لبعثت رجالي إلى ديارهم ولما سمحت لهم بالمجازفة بحياتهم من أجل هذه القضية. إلا أن الحماسة العربية كانت أداتنا الرئيسية لنكسب الحرب في الشرق، لذلك أكدت لهم أن إنكلترا ستبقى على العهد نصاً وروحاً.. ولكنني بالطبع كنت على الدوام أشعر بالمرارة والخجل".

فاسيليف المرجع السابق، ص٢٨٥-٢٨٦.

[٦٦])غرايبة، المرجع السابق، ص٣٤٩ -٣٥٠.

Damascus University

الفصل الثاني

الدولة السعودية الثانية(١٨٤٣-١٨٩١م)

أولاً: قيام الدولة السعودية الثانية على يد فيصل بن تركي

ثانياً: الحرب الأهلية عواملها ومراحلها

ثالثاً: الموقف العثماني والبريطاني من الحرب الأهلية

رابعاً: وقوع نجد تحت سيطرة آل الرشيد

خامساً: موقف الدولة العثمانية من آل الرشيد

هوامش الفصل الثاني

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أولاً: قيام الدولة السعودية الثانية على يد فيصل بن تركي.

في عام ١٨٤٣ عاد فيصل بن تركي إلى بلاده، فاراً من مصر بمساعدة الأمير عباس بن طوسون[١]. ليحكم إمارته للمرة الثانية(١٨٤٣-١٨٦٥م)، وشهدت هذه المرحلة من حكمه فترة من الازدهار والقوة واستطاعت الدولة لسعودية الثانية فرض سيطرتها على الخليج العربي واستطاع فيصل استعادة جميع الممتلكات التي فقدها السعوديون[٢]، فأخضع أولاً الإحساء، وقضى على المنازعات بين القبائل مثل آل مرة[٣] والعجمان[٤]. واتخذ الهفوف قاعدة لمهاجمة البحرين وأجبر شيوخها على دفع الجزية، ثم تحرك إلى قطر فاستسلم حاكمها وتمكن فيصل من تزويد دولته بأسطول كبير بـ٣٠٠ سفينة حربية[٥]. وكانت بريطانيا في تلك الأثناء توالي توطيد سيطرتها غلى سواحل الخليج العربي بعد انسحاب قوات محمد علي، الأمر الذي أدى إلى اصطدامها بالدولة السعودية، وعملت على الوقوف في وجه فيصل بن تركي بخاصة عندما عمل على ضم البحرين فأرسلت قوة بحرية للتدخل ضد فيصل واضطر الأخير إلى عقد صلح مع شيخ البحرين. وعندما عاود فيصل بن تركي التدخل في البحرين بعد ثمانية أعوام عادت بريطانيا من جديد لمعارضته ووجهت إنذاراً إلى قائد الجيش السعودي، وقامت بضرب ميناء الدمام عام ١٨٥٩. وتولت بريطانيا الوساطة بين مسقط وفيصل بن تركي، ودفعت بحاكم مسقط إلى القبول بدفع جزية سنوية للسعوديين قدرها ٥٠٠٠ريال[٦] دون تمكين فيصل من السيطرة على البحرين. وخلال عام١٨٦٣م قامت فرنسا بإرسال وليم بلجريف william palgrave إلى بلاد العرب، وهو الرحالة الإنكليزي المشهور، والذي كان ضابطا في الجيش الهندي وملماً باللغة العربية، كلفه نابليون الثالث القيام برحلة إلى بلاد العرب ليكشف حقيقة الوضع فيها فوصل الرياض عام١٨٦٣م فترة حكم فيصل بن تركي. وكان الغرض الأول والأساسي من رحلته هو الدراسة السياسية والكشف عن مجال الامتيازات في جزيرة العرب، وذلك لحساب فرنسا. خشيت بريطانيا أن تؤدي رحلة بلجريف إلى الأضرار بمصالحها، فسارعت إلى إرسال لويس بلي Louis pelly المقيم السياسي في بوشهر عام١٨٦٤م لمقابلة فيصل بن تركي والحصول منه على وعد بعدم الإضرار بالتجارة والتباحث معه عن مصالح الإنجليز والسعوديين الخاصة في منطقة

الخليج[٧]. لاشك في أن قوة فيصل بن تركي كانت قد بلغت الذروة في ذلك الحين، اعتماداً على ما جاء في بيان بلي الذي قدمه إلى حكومة الهند عن اتساع أملاك فيصل. والذي أشار فيه إلى أن الدولة السعودية تسيطر على الساحل الغربي من الخليج وساحل عمان وتأخذ الزكاة العينية والنقدية من شيوخ البحرين وأبو ظبي ودبي وأم القوين والعجمان والشارقة ورأس الخيمة. واستطاعت بعثة بلي أن تنجح في تحسين علاقات الإنجليز مع السعوديين إذا تعهد فيصل بمعاقبة رعاياه فيما إذا اعتدوا على السفن البريطانية [٨]. كان لموت فيصل بن تركي في رجب١٢٨٢هـ/١٨٦٥م[٩]. أعظم الأثر في تعجيل عهد الفتن والمنازعات في الدولة السعودية الثانية، وكان سبباً في تمزيق البيت السعودي، وتمزيق وحدة البلاد الخاضعة له، وأدّى في النتيجة إلى سيطرة آل رشيد على نجد، وتعمقت السيطرة العثمانية على الإحساء واضطر آخر أئمة آل سعود عبد الرحمن بن فيصل إلى الخروج من الرياض ليعيش فترة غير قليلة لاجئاً في الكويت بكنف آل الصباح. وكان فيصل قد ترك من الأولاد الذكور أربعة وهم: عبد الله، ومحمد، وسعود، وعبد الرحمن[١٠]. وطبقا للقاعدة المتّبعة في وراثة الحكم في الدّولة السعودية بويع الابن الأكبر بالإمامة، وكان فيصل قبل موته قد جعل من ابنه محمد واليا علي المنطقة الشمالية، بينما استقل ابنه سعود بالخرج والأفلاج في حين بقي كل من عبد الله وعبد الرحمن في الرياض[١١].

ثانياً: الحرب الأهلية عواملها ومراحلها:

لم تكن الأسباب العميقة للحرب الأهلية وليدة موت فيصل بن تركي، بل كانت تعود في جذورها إلى فترة حكمه، وهذا ما تشير إليه وقائع التنافس بين أولاد فيصل بن تركي من جهة، وعودة العداوات القديمة التي كانت قائمة بين القبائل من جهة أخرى [١٢]. تلك العداوات التي تعيد إلى الأذهان الحروب الطويلة التي قادها آل سعود ضد القبائل المعارضة للدعوة السلفية وعلى هذا الأساس يتبادر إلى الذهن سؤال: هل الحرب القائمة بين الأخوة حرب فردية بطلاها عبد الله وسعود ؟ أم أنها حرب قبلية؟.

الواقع لم تكن حرباً بين أخوين متنازعين على السلطة فقط، بل كانت حرب قبائل سببتها العداوات القديمة إلى أن جاء الصراع الأخوي وأيقظها، ولذلك تجمعت

أسباب عدة فجرت الحرب الأهلية، وأهمها:

١. طمع سعود في تسلم الإمامة، ورفض مبايعة أخيه عبد الله بالإمارة، وقد سبق لسعود أن عبّر عن حسده لأخيه عبد الله زمن حكم أبيه، وذلك نتيجة صعود عبد الله سلم الشهرة بين رجال الحكم والرؤساء المحليين[١٣]. ولم يكتف سعود بعدم مبايعة أخيه بل لجأ إلى طلب المساعدة ضده فاستجابت له قبائل العجمان وبعض قبائل بدو الدواسر وبني مرة.

٢. ومن العوامل التي شجعت الحرب الأهلية وجود خلاف قديم بين أفراد سلالة تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الذين أحيوا الحكم السعودي بعد سقوط الدرعية، وسلالة أولاد عمومتهم سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، فشجع الفرع الأخير الفتنة وزاد في إذكائها طمعا في انسلاخ الحكم الأول علهم يتمكنون من السيطرة عليه[١٤].

٣. استفاد بعض الزعماء المحليين من صراع الأخوة لإعلان الانفصال عن الرياض. فقد شجعت معظم القبائل الكبيرة الصراع بين عبد الله وسعود ومن أبرز هذه القبائل قحطان والعجمان ومطير وعتيبة وبنو مرة وعنزة وبنو خالد[١٥].

٤. يحاول بعض المؤرخين الإشارة إلى أن عبد الله بن فيصل كان متعصباً في شؤون الدين بينما كان سعود يميل إلى الاعتدال والتسامح[١٦]. لكن المدقق الموضوعي لتاريخ تلك الفترة يمكن أن يعّد هذا العامل ثانوياً لأن الانقسام وإن أخذ طابعاً دينياً في الظاهر إلا أنه كان في جوهره سياسياً.

٥. لا شك في أن تمركز قوة سعود وأبنائه في الخرج جنوب الرياض، كان عاملاً قويا من عوامل تحريض القبائل ضد عبد الله ومنح سعوداً إمكانات كبيرة استفاد منها إلى أقصى حد[١٧].

في عام١٨٦٦م اتجه سعود إلى عسير ونجران وأبها لطلب العون، وقد التقى سعود قوات أخيه عبد الله في مكان يدعى المعتلا، وكانت نتيجة المعركة هزيمة قوات سعود، وقتل زعيم قبائل شامر بن علي بن سريعة وجرح سعود بيديه، وفر مع باقي رجاله إلى الاحساء.

وقد ترتب على وقعة المعتلا نتائج عدة:

منها فرار سعود ورجاله إلى المنطقة الشرقية، وهناك أتيح له التخطيط من أجل فصل المنطقة الشرقية عن أخيه عبد الله كي تفقد الرياض جزءاً من أراضيها ومنفذاً مهماً على الخليج العربي. أما بالنسبة لعبد الله، كشفت موقعه المعتلا له عن أعدائه الذين تحالفوا مع سعود في منطقة القصيم، وهذا ما جعله يلجأ إلى التنكيل بقبائل العجمان. كما عزل محمد السديري عن إمارة الأحساء وعين خلفاً له ناصر بن جبر الخالدي وأرسل حملات تأديبية ضد آل مرة في الشرق، وضد بدو الجنوب في الدواسر، وبقي عبد الله مع قواته في منطقة الإحساء قرابة أربعة أشهر يراقب الأحداث عاد بعدها إلى الرياض في أواخر عام١٨٦٩م. وقد استفاد سعود من عودة قوات أخيه عبد الله إلى الرياض فعقد حلفاً مع العجمان بعد أن استمال زعيمهم راكان بن حثلين، ويبدو أن سعوداً وعده بحكم المنطقة الشرقية في حال انتصارهم، وهذا يتوافق مع أهداف العجمان بالعودة إلى مركزهم القديم [١٨]. توجهت قوات سعود والقوات المتحالفة معه إلى الإحساء "الهفوف"، وهناك اصطدمت بحامية المدينة بقيادة ناصر بن جبر الخالدي الذي أجبرت قواته على التراجع إلى المدينة وحاصر سعود المدينة أربعين يوماً، ولم تنقذها النجدات التي أرسلها عبد الله من الرياض حيث تمكنت قوات سعود من دحر تلك القوات في موقعة بئر جودة في كانون الأول١٨٧٠م، وتم النصر فيها لسعود. وتجدر الإشارة إلى أن سعود دخل الرياض دون قتال، لكنه أعمل فيها السلب والنهب جزاءً لموقفها العدائي منه، ومنذ ذلك الحين أصبح سعود الحاكم الفعلي في نجد بدلاً من أخيه عبد الله وجاءه زعماء البلاد يعلنون ولاءهم التقليدي[١٩]. وانتهت بذلك الفترة الأولى من حكم عبد الله بن فيصل لنجد وتوابعها، وبدأت فترة حكم أخيه سعود الذي سيطر على الحكم بالقوة. وبدأت منذ ذلك الحين الأخطار المحدقة بالدولة السعودية بالظهور، وأهمها التدخلات الخارجية في شؤون الأسرة السعودية أكثر من أي وقت مضى، ومن العوامل التي هيأت لتلك التدخلات عدم استسلام عبد الله لحكم أخيه سعود، فقد حاول تجميع بعض مؤيديه في موقع يدعى البره إلا أنه هزم مرة أخرى على يد قوات سعود[٢٠]. عند ذاك فكر عبد الله أن يستعين بالعثمانيين، فأوفد رسولاً إلى العراق اسمه عبد العزيز أبا بطين ومعه ثلاث رسائل:

الأولى إلى مدحت باشا والى بغداد، والثانية إلى خليل بك والي البصرة، والثالثة إلى السيد محمد الرفاعي نقيب أشراف البصرة. وكانت هذه الرسائل كلها تتضمن الشكوى من أخيه سعود، وطلب مساعدة الدولة العثمانية للحد من نفوذ سعود ومقاومته[٢١]. وهكذا نلاحظ أن الصراع بين سعود وعبد الله قد تخطى حدود نجد إلى العراق، وأخذ الصراع أبعاداً جديدة التقت فيه عدة قوى متنازعة.

ثالثاً: الموقف العثماني والبريطاني من الحرب الأهلية:

لم تقف الدولة العثمانية من صراع الأخوة موقف المتفرج، بل كانت دوماً تتحين الفرص من أجل تثبيت سلطتها في الخليج ونجد والأطراف الأخرى من الجزيرة العربية. وإذا كانت الدولة العثمانية قد اكتفت آبان حكم الإمام فيصل بن تركي بتبعيته الإسمية، فإنها في فترة صراع عبد الله وسعود صارت تتدخل بشكل ملموس لتنفيذ ماكانت تخطط له. وقد جاء طلب عبد الله المساعدة من مدحت باشا فرصة مناسبة لتأكيد السيادة العثمانية داخل الجزيرة العربية بالذات حيث الحرمان الشريفان، وتعزيز مركزها خصوصاً في الولايات الشرقية من الجزيرة العربية ولاشك في أن فتح قناة السويس ١٨٦٩ قد أغرى الدولة العثمانية في تسيير حملات بحرية إلى جانب القوات البرية لتنفيذ مخططاتها وتقوية موقعها في مواجهة التواجد الانجليزي في الخليج. لقد أشرف مدحت باشا بنفسه على تجهيز حملة عسكرية من خمسة آلاف جندي، وأسند قيادتها إلى نافذ باشا. كما قدم مدحت باشا إلى الكويت ليشرف على سير الحملة ونجاحها، بعد أن ضمن دعم رئيس عشائر المنتفق ناصر السعدون، وعبد الله بن صباح حاكم الكويت. ومن جهة أخرى كان مدحت باشا قد أرسل عدداً من أعوانه إلى الإحساء متنكرين ليقفوا على قوة سعود العسكرية وقلاعه ورجاله، ومعرفة الأماكن التي يمكن الاقتراب منها بالسفن الكبيرة. ومع أن تلك الخطوات كانت تتم بسرية تامة إلا أن حكومتي الهند ولندن عرفتا بتفاصيل الحملة، ففي تقرير بعث به القنصل البريطاني في مصر إلى وزارة الخارجية البريطانية في ٣٠ كانون الأول ١٨٧٠ ذكر أن الخديوي أكد له بناء على أنباء وصلته من الآستانة بأن الحكومة العثمانية تعد حملة في بغداد للسيطرة على بعض مناطق الساحل العربي للخليج، وعلى أثر التقرير اقترح وزير الخارجية البريطانية الدوق أرجيل Argil في ٢٠كانون الثاني١٨٧١م، على السفير

البريطاني في الآستانة هنري أليوتHennry Elliot أن يستطلع عن ظروف تلك الحملة وجاءت الأخبار تؤكد أن تلك الحملة، وقوامها ست فرق واثنا عشر مدفعاً، تتجه براً وبحراً إلى القطيف والدمام. هنا سارعت حكومة لندن للاتصال بالآستانة، شارحة طبيعة الوجود البريطاني في المنطقة والذي لايسمح لأي قوة بحرية منافسة بالتواجد في المنطقة. وحصل أليوت على تصريح من الحكومة العثمانية جاء فيه:"ليس لدى الحكومة العثمانية أدنى نية لمعارضة الوضع البريطاني في الخليج العربي، بل الهدف الأساسي للحملة هو تأمين الاستقرار في نجد، والتي هي مقاطعة عثمانية قام فيها سعود بخلع عبد الله الحاكم الشرعي في نظر العثمانيين"[٢٢]. وعادت الدولة العثمانية وأكدت من جديد أن كل ماتهدف إليه هو استقرار الأمور في تلك البقاع حتى يستقر أمر الحجاج،وحتى لا تقع مفاتيح المدن المقدسة في أيدي شيوخ مشاغبين لأن ذلك سيحط من كرامة السلطان، وأكدت أن هذه هي غاية الأسطول في تلك البقاع[٢٣]. لكن الموقف الفعلي للحكومة العثمانية كان على عكس ما أعلنته الآستانة رسمياً، إذ جاء على لسان مدحت باشا أن السيادة العثمانية ممتدة على نجد، وعبد الله بن فيصل هو مفوض من قبل السلطان "قائم مقام" وسوف ترسل القوة العثمانية للقضاء على أخيه سعود.أبحرت الحملة العثمانية من البصرة في أيار ١٨٧١م، ووصلت إلى رأس تنورة قرب الدمام اليوم، وراقب مدحت باشا بنفسه الحملة فاستعان بعدد من سفن الغوص الكويتية "نحو ٨٠ سفينة" كي تساعد الحملة على نقل المؤن والعتاد. كذلك أرسل الكويتيون قوتين، القوة الأولى بحرية وقادها عبد الله بن الصباح، والثانية برية وقادها مبارك بن الصباح مساهمة منهم في الحملة. ووصلت إلى القطيف، واحتلتها، ومن ثم تقدمت إلى الاحساء واستولت عليها[٢٤]. بعد ذلك صرح نافذ باشا قائد الحملة بأن خطته تقتضي استعادة الرياض من سعود، ومساعدة عبد الله على تسلم الحكم ثانيةً. لكن ظهر فيما بعد لعبد الله بن فيصل أن الغرض الأساسي من حملة الاحساء لم يكن إعادته إلى السلطة أو حمايته من أخيه سعود كما كان يتوقع، بل إن مدحت باشا أراد إنهاء حكم السعوديين تماماً وإدارة البلاد كأي اقليم عثماني. لذلك هرب عبد الله من المعسكر العثماني وترك رسالة لنافذ باشا مضمونها:"أن العثمانيين بدلاً من أن يعيدوا إليه السلطة انتزعوها منه ومن اسرته ولن يثق بهم

ثانيةً، واستقر عبد الله نهائياً قريباً من البصرة، ثم لم يلبث أن تحرك باتجاه العاصمة الرياض. لذلك خشي مدحت باشا من إثارة القلاقل ضد العثمانيين فاستبدل حامية الاحساء بجنود أشداء خاصةً بعد أن دب المرض بمعظم أفرادها" [٢٥] لم يأبه مدحت باشا لاحتجاجات عبد الله التي بعث بها إلى السلطات العثمانية، والتي شكا فيها من الأوضاع السائدة في الجزيرة العربية بعد دعوته للعثمانيين للتدخل في بلاده وكان عبد الله قد أعلن في مكاتباته للباب العالي إنه على استعداد لدفع الزكاة الشرعية والأعشار وتنظيم الأمور على أساس اعتراف الباب العالي به إماماً على المقاطعات السعودية. لكن مدحت باشا أعلن أن الاحساء أصبحت من الممتلكات العثمانية وأنكر ادعاء السعوديين عليها، وعين نافذ باشا متصرفاً على الأحساء وعلى المقاطعات التابعة لها، وشكل بها إدارة عثمانية فجعلها لواء من ألوية العراق كما عين فيها وفي ملحقاتها حكاماً للشرع. لكن فشل سعود في الإدارة الداخلية واضطراره إلى تقاسم الحكم مع أبناء عمومته الذين ساعدوه ضد عبد الله، وارهاقه السكان بالضرائب لتلبية احتياجات أنصاره من البدو، كل ذلك شجع الثورة ضده داخل الرياض وما حولها، وأتاح لعبد الله فرصة العودة ثانيةً إلى الحكم. فاستغل عبد الله الأحداث الداخلية في الرياض، ودخلها دون مقاومة تذكر، بعد أن كان سعود قد أجبر على التخلي عن الحكم لعمه عبد الله بن تركي، وقد قام هذا الأخير بتسليم السلطة لعبد الله فور دخول الرياض. لكن الأمور لم تستقر له نهائياً لأن أخاه سعود فر إلى الدلم مركز الخرج، وجمع الحشود لمحاربته.والتقت قوات الطرفين في وقعة الجزعة عام ١٨٧٣م.وعلى أثر ذلك سقطت الرياض مرة ثانية بيد سعود بن فيصل وفر عبد الله إلى الكويت ليقيم في الصبيحية عند قبائل قحطان المؤيدة له[٢٦]. ومنذ عودة سعود إلى الحكم في الرياض. قرر استعادة إقليم الاحساء لدولته، فراسل "بلي"Belly" المقيم البريطاني في الخليج وذكر له أنه الآن سيد نجد، وهو المسيطر على الوضع تماماً وأن علاقته مع السكان طيبة، وهو يؤيد بريطانيا لأنها المسؤولة والحامية لمنطقة الساحل[٢٧]. واعتماداً على دعم الانكليز أرسل سعود إلى العثمانيين ينذرهم بإخلاء القطيف. لكن إنذار سعود لم يترك أي صدى لدى العثمانيين، وعلى العكس من ذلك حاول مدحت باشا الاعتماد من جديد على عبد الله لإضعاف أخيه سعود.

كذلك طلب مدحت باشا من شيخ البحرين إقامة قاعدة عسكرية عثمانية في البحرين لكن شيخها عيسى بن علي رفض الطلب بعد استشارة المقيم البريطاني بلي الذي حذره من عاقبة استخدام بلاده في حالة الحرب بين العثمانيين والسعوديين(٢٨). في تلك الفترة واجه مدحت باشا ثورة داخلية في العراق أدت إلى عزله وتسلم رؤوف باشا مكانه. ونتيجة للضعف التدريجي لقوة العثمانيين في المنطقة، عمل الانجليز على التوفيق بين سعود وعبد الله والاستفادة منهما معاً ضد العثمانيين. هذا مايفسر اتفاق الأخوة سعود وعبد الله ومحمد أولاد فيصل بن تركي على الذهاب إلى القطيف سوية لإعداد مقاتلين يضغطون على العثمانيين كي ينسحبوا من الاحساء. وقد تم الاتفاق بين الأخوين عبد الله وسعود على مهاجمة العثمانيين كل من جهته، فالأول يهاجم الأحساء والثاني يهاجم القطيف. وعند التصادم بين السعوديين والعثمانيين تكبد الطرفان خسائر فادحة جعلت السعوديين والعثمانيين على استعداد لقبول مبدأ المفاوضات. خصوصاً بعد أن تفشت الأمراض المعدية بين أفراد الحامية العثمانية من جهة، ومن جهة أخرى خاب أمل سعود في الدعم الانجليزي له بالحجم المطلوب. وأدى هذا في النهاية إلى نوع من التفاهم المؤقت بين السعوديين والعثمانيين على أن تبقى الأحساء والقطيف لعبد الله وسعود مقابل دفع الزكاة الشرعية والأعشار للدولة العثمانية. واتفق الطرفان على أن يرسل سعود أحد أخوته كمفاوض إلى بغداد. لكن تلك المفاوضات لم تسفر عن شيء فقد تابعت السلطات العثمانية المحاولات لتشديد قبضتها على الاحساء. وأرغمت عبد الرحمن بن فيصل على البقاء سجيناً في بغداد حتى عام١٨٧٤م. أقدم ناصر باشا السعدون على تعيين بزيغ بن عريعر من بني خالد وهم الأعداء التقليديون لآل سعود على الأحساء. وفي عام ١٨٧٣ زار ناصر باشا الأحساء وبدأ بسحب معظم الحاميات وأحل مكانها قوات من الأكراد وبعض القبائل العربية التي استطاعت الدولة العثمانية كسب تأييدها(٢٩). وخلال تلك الفترة استطاع عبد الرحمن بن فيصل الفرار من أسره في بغداد والقدوم إلى الأحساء عن طريق البحرين، والتف السكان حوله محاولين الاستيلاء على الأحساء لكن تقدم قوات ناصر باشا السعدون شتت جمعهم، وأنقذ حامية الأحساء من الحصار. وبعدها تولى ناصر باشا متصرفية الأحساء في عام ١٨٧٥م وعاد

إلى البصرة تاركاً ابنه مزيد يحكم المنطقة[٣٠]. عندها عاد عبد الرحمن إلى الرياض بعد أن علم بمرض أخيه سعود الذي توفي في كانون الثاني ١٨٧٥م. وقد بويع عبد الرحمن من قبل أهل الرياض إماماً وحاكماً لنجد، واستمر في حكمه ما يقارب السنة، لكن مالبثت الأوضاع أن تبدلت حين قدم أخوه عبد الله وبرفقته أخوه محمد من بادية العجمان وطالب لنفسه بالإمامة، ونشبت بينهما معركة لم تكن حاسمة، وأخيراً توصلا إلى حل تمركزت بموجبه قوات عبد الله في الشمال، وسيطر عبد الرحمن على الرياض والجنوب [٣١]. أما أبناء سعود فكانوا بجانب عمهم عبد الرحمن لأنه كان يؤيد والدهم خلال فترة حكمه الأخيرة. ولم تستمر فترة الهدوء هذه طويلاً إذ سرعان ما ثار أولاد سعود مطالبين بالحكم لأنفسهم. فما كان من عبد الرحمن وعبد الله إلا أن اتفقا من جديد ضد أولاد أخيهم سعود واسترداد السلطة ودخل عبد الله الرياض سنة ١٨٧٦م. ولم يكن العهد الثاني لحكم عبد الله الفيصل موفور الحظ، بسبب الصراع الطويل على السلطة ولأن العثمانيين كانوا يحتفظون بمراكز عسكرية كثيرة تعزل نجداً عن الاتصال بالبحر عند المناطق المجاورة للأحساء، وهذا ماجعل السلطة الفعلية لعبد الله لا تتعدى العاصمة الرياض بقليل.

رابعاً: نجد تحت سيطرة آل الرشيد:

لاشك في أن صراع الأخوين . عبد الله وسعود . كان الفرصة المناسبة لتحقيق مشاريع آل الرشيد التوسيعية. فالرياض وحائل لم تكونا على وئام بل كانت حائل تسعى للتوسع على حساب الأولى وكانت الرياض معنية بالحد من سلطة آل الرشيد ومشاريعهم التوسعية في الأقاليم المجاورة أو على الأقل الحد من استقلال إمارة حائل التي كانت تتمتع باستقلال اداري منذ زمن فيصل بن تركي. ومن جهة أخرى كان يهم الدولة العثمانية القضاء على السعوديين مما جعلها تشجع آل الرشيد إذ اتجهت للأمير الشمري محمد بن عبد الله الرشيد(١٨٧٢-١٨٩٧م) وأمدته بالمال والسلاح. وعندما حاول عبد الله بن فيصل الاستيلاء على القصيم استولى أولاً على عنيزة لكن بريدة قاومته وطلب أهلها العون من محمد بن الرشيد الذي أسرع وضمها لإمارته. وزاد تلك الأوضاع سوءاً انتهاز أبناء سعود تلك الظروف لمحاصرة عمهم في الرياض في تشرين الثاني١٨٨٧م، وأعلن محمد بن سعود نفسه أميراً عليها. وكان الأمير عبد الله قبلها بقليل قد طلب النجدة من حاكم

حائل الذي لم يتردد في انتهاز الفرصة. وكان طلب عبد الله حجة بيد محمد بن الرشيد لإنقاذه من جهة ولبسط سلطة آل رشيد على كل ممتلكاته من جهة أخرى[٣٢]. فاستنفر ابن الرشيد القبائل لإنقاذ عبد الله الفيصل من سجن أبناء أخيه وتقدم حتى وصل إلى مشارف الرياض، فخرج إليه عبد الرحمن بن فيصل وأخوه محمد والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف يفاوضونه. فأقسم لهم ابن الرشيد أنه لا غرض له سوى إخراج عبد الله من سجنه، وعاهدهم على أن تكون الولاية في بلدهم لآل سعود فصدقوه. ولكن ما لبث بعد دخوله المدينة عام١٨٨٨م أن ظهر بمظهر الفاتح وبعد أن خرج عبد الله من سجنه أرسله إلى حائل ثم ألحق به أخاه عبد الرحمن. وقيل إن محمد الرشيد أمن أولاد سعود على دمائهم وأموالهم. وأقام من قبله سالم السبهان عاملاً على الرياض[٣٣]. وبذلك يكون ابن الرشيد قد عزز موقفه كحاكم بلا منازع على وسط الجزيرة العربية. وفي عام١٨٨٩م مرض عبد الله الفيصل في حائل مرضاً شديداً وطلب العودة إلى الرياض فسمح له محمد بن الرشيد بالعودة مع أخيه عبد الرحمن لأن محمد بن الرشيد أراد كسب قلوب أهالي نجد بخاصة أن عبد الله كان مريضاً ولا خوف منه، وبالفعل توفي عبد الله في الرياض بعد مجيئه بيومين في ٢ربيع الثاني١٣٠٧هـ/٢٤تشرين الثاني١٨٨٩ م. بموت عبد الله تولى الحكم بعده أخوه عبد الرحمن الذي طلب من محمد بن الرشيد عزل فهاد بن رخيص، وكان محمد بن الرشيد قد عينه عاملاً على الرياض بدلاً من سالم السبهان . كي يجمع عبد الرحمن مقاليد الحكم بيده. فما كان من محمد ابن الرشيد إلا أن عزل فهاد بن رخيص وعين مكانه ابن سبهان العدو اللدود لآل سعود، وهذا ما يثبت أن الحكم والأمر كان بيد آل الرشيد وسلطة عبد الرحمن لم تكن سوى سلطة صورية. حاول ابن السبهان المخلص في ولائه لابن الرشيد التخلص من آل سعود بناءً على رغبة سيده محمد بن الرشيد، فقرر في عام١٣٠٧هـ/١٨٨٩م أن يكون عيد الأضحى موعداً لتنفيذ الخطة وإلقاء القبض عليهم وصولاً إلى التخلص منهم نهائياً. لكن عبد الرحمن بن فيصل كشف المؤامرة. وعندما دخل سالم السبهان للسلام على عبد الرحمن في قصر الرياض ألقى عبد الرحمن القبض عليه وعلى من كان معه وبقي السبهان أسيراً حتى حصار الرياض الأخير من قبل محمد الرشيد وحين ثار أهالي القصيم على محمد

الرشيد طلبوا نجدة عبد الرحمن بن فيصل فحاول تلبية طلبهم لكن محمد بن الرشيد لم يمهلهم، بل جرد حملة ضدهم متجهاً نحو الرياض فحاصرها شهراً وأكثر وحين أدرك ابن الرشيد أن موازين القوى ليست في صالحه اقترح فتح باب المفاوضات ليعيد ترتيب أموره. ووافق عبد الرحمن وأرسل وفداً برئاسة أخيه محمد وابنه عبد العزيز والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف قاضي الرياض وتوصلوا إلى التالي: (١)إطلاق سراح سالم السبهان.(٢) أن تكون السلطة لآل سعود في الرياض. (٣) أن يرحل ابن الرشيد إلى حائل[٣٤]. وبعد أن تم الصلح التفت ابن الرشيد إلى تصفية حسابه مع أهالي بريدة. بعد أن فشل في فتح الرياض فجرد حملة من عربان شمر وحرب والتقى قوات القصيم في مكان يدعى القرعا انتصر فيه على أهالي القصيم في سنة ١٨٩٠م وهنا لجأ ابن الرشيد إلى الحيلة فأمر قواته بالمسير إلى أرض سهلية فتوهم أهالي القصيم أنه هزم إلا أن فرسانه انقضوا على القوات القصيمية وقتلوا منهم نحو ألف قتيل وعرفت هذه الوقعة باسم وقعة المليداء وكان لها الفضل الأكبر في إرساء سلطة آل الرشيد على جميع أنحاء نجد.

خامساً: موقف الدول العثمانية من آل الرشيد:

نتيجة لاستتباب الأمر نهائيا لابن رشيد خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه لذلك لجأت إلى عملية حفظ التوازن في الجزيرة بمساندتها زعيماً ضد آخر. وقد تبين ذلك بوضوح خلال رحيل عبد الرحمن إلى الأحساء ومعاملته من قبل حاكم الأحساء العثماني بكرم بالغ. وعرض عليه الأخير أن يعترف بالسيادة العثمانية ويوافق على إقامة حامية من الجنود العثمانيين في بلاده على أن يدفع ضريبة سنوية مقدارها ألف ريال سنوياً للدولة العثمانية بحجة أنها . أي الدولة العثمانية . ستتكفل بإنهاء حكم ابن الرشيد، ويشير أمين الريحاني إلى أن الذي قام بالمفاوضات بين عبد الرحمن والعثمانيين ضابط عثماني من أصل لبناني يدعى زخور عازار اجتمع مع عبد الرحمن وولده عبد العزيز سنة١٨٩١م لكن عبد الرحمن رفض تلك الشروط، وانتقل بعدها إلى واحة يبرين "جبرين". ومنها إلى الكويت التي وصلها عام١٨٩٣م بعد أن تلقى دعوة من حاكمها محمد بن الصباح، لأنه في تلك الأثناء كان شيخ الكويت محمد بن الصباح على اتفاق مع العثمانيين بأن شخصية مثل عبد الرحمن هي أفضل من يصلح لمنافسة آل الرشيد

وقد سبق للعثمانيين أن خصصوا لعبد الرحمن راتباً شهرياً قدره ستون ليرة عثمانية تدفع له بواسطة حاكم الكويت لذلك كله وجهت إليه الدعوة للإقامة في الكويت مع أسرته وبالفعل وصلها واستقر فيها حتى عام١٩٠٣م. في هذه الأثناء وصلت قوة ابن الرشيد إلى ذروتها وشمل سلطانه أكثر من ثلث الجزيرة العربية لكن نقطة ضعفه تجلت في عدم امتلاكه أي مدينة ساحلية رغم حاجته الماسة إلى السلاح والذخيرة إذ كان يحصل على أكثر ذخائره من ميناء الكويت الذي يخص ابن الصباح، ومن ميناء العقير التركي في منطقة الأحساء. ومنذ أن استقر عبد الرحمن في الكويت واجه محمد بن الرشيد صعوبات في استيراد حاجياته لذلك عزم على احتلال أحد الميناءين لنفسه ولم يكن راغباً في تدهور العلاقة مع العثمانيين في الأحساء لأن ذلك سيجعل كل العلاقات التجارية مع العراق متعذرة. لذا لم يبق أمامه سوى الكويت. وكان وضع الكويت السياسي وسلوك مبارك المتمرد ضد الأتراك يشكلان الفرصة المناسبة للشروع في تحقيق أهداف محمد بن الرشيد السياسية والاقتصادية، كما أن اندفاع مبارك باتجاه الإنجليز جعل العثمانيين يؤيدون خطط ونوايا ابن الرشيد تجاه الكويت. وعلى هذا الأساس بدأ محمد بن الرشيد في سنة١٨٩٥م بالعمل ضد حاكم الكويت، لكن طموحات ابن الرشيد بقيت بعيدة عن التحقق خصوصاً أن الإنجليز أخذوا يقاومونها بما استطاعوا من قوة ونفوذ، وذلك خشية أن تعرقل طموحات ابن الرشيد تنفيذ السياسية البريطانية في المنطقة[٣٥]. وهذا ولم يعش محمد ابن الرشيد طويلاً بعد ذلك إذ سرعان ما توفي بمرض ذات الجنب عام١٨٩٧م. تسلم الإمارة من بعد محمد بن الرشيد ابن أخته عبد العزيز بن متعب الرشيد(١٨٩٧-١٩٠٦م)، وكان وضعه صعباً للغاية نظراً لاتساع الرقعة التي كانت عليه أن يحكمها. ولعل إغلاق ميناء الكويت في وجهه زاد من اعتماده على العثمانيين بهدف الحصول على السلاح والذخائر. ومن جانب آخر فإن استمرار مبارك في ولائه للإنجليز جعل العثمانيين يقدمون مساعداتهم بسخاء إلى عبد العزيز بن متعب الرشيد، ولاسيما المال والسلاح، إضافة إلى راتب شهري قدره ٢٣٠جنيهاً مخصصاً له[٣٦].وقد تحالف شيخ الكويت مبارك الصباح مع زعيم المنتفق سعدون باشا أبو عجيمي ضد آل الرشيد. وفي أواخر ١٩٠٠م-أوائل ١٩٠١م جمع شيخ الكويت قواته وتوجه إلى القصيم، وهناك

التحق به خصوم ابن الرشيد، أمثال عبد الرحمن بن فيصل وبعض الأمراء السعوديين وأتباعهم من قبائل العجمان ومطير. ويشير القنصل الروسي في البصرة أداموفAdamof إلى أن الجيش الكويتي حقق نصراً على المهاجمين، وتمكن من الاستيلاء على الرياض، ومن هناك توجه مبارك نحو حائل عاصمة ابن الرشيد.لكن عبد العزيز بن متعب ابن الرشيد تمكن من الحصول على أسلحة وأعتدة حربية إضافية من العثمانيين، فعبأ قواته وجهزها تجهيزا جيداً، وتمكن على أثر ذلك من دحر الكويتيين وأتباعهم في شباط١٩٠١م على مقربة من الصريف. وبعد الانتصار الذي تحقق لعبد العزيز بن متعب الرشيد، حاول الاتصال بالحكومة البريطانية عام١٩٠١م، علّه يتمتع بالمزايا التي يتمتع بها شيخ الكويت [٣٧]، واستغل فرصة طلب السلطات البريطانية منه تسوية الخلافات مع الكويت، فأرسل مبعوثاً من طرفه يدعى فهد باشا، وحمله رسالة إلى مستر راتسلوRatislow السفير البريطاني في البصرة، مفاده أن الحكومة العثمانية لن تنجد سيده بالسرعة المطلوبة، لذلك فهو يرغب في الدخول تحت الحماية البريطانية بشروط[٣٨]. إلا أن بريطانيا رفضت تلك الشروط المتضمنة خلع مبارك وتنصيب ابن أخيه. كذلك لم ترغب بريطانيا أن يكون لحائل سيطرة على الكويت. ويمكن القول إن بريطانيا لم تكن راغبة في إغضاب الدولة العثمانية أكثر مما يتطلبه تنفيذ السياسة البريطانية في المنطقة[٣٩].

Damascus University

هوامش الفصل الثاني

[1]) أحمد بن زيني دحلان، تاريخ إشراف الحجاز ١٨٤٠ . ١٨٨٣م، تحقيق وتحليل د. محمد أمين توفيق دار الساقي ص٣١.

[2]) عثمان ابن بشر،عنوان المجد في تاريخ نجد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض دون تاريخ، ج١، ص١١٠.

[3]) آل مره: من أقدم القبائل العربية وأصحها نسباً وأشدها مراساً منازلها تمتد من جنوبي الطريق الموصلة بين الأحساء والرياض إلى جهات الخرج وجهات العقير وإلى واحتي جافور أو جبري حتى أواسط الربع الخالي، فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، المطبعة السلفية١٩٣٣م، ص١٩٤.

[4]) العجمان: كان العجمان في الماضي يسكنون نجران. ثم ارتحلو شرقا فوصلوا إلى الإحساء خلال فترة حكم تركي بن عبد الله فأحسن إليهم وأنزلهم ديره بني خالد. وبعد أن تولى فيصل بن تركي عاملهم بالحسنى وقويت شوكتهم حتى عصوا على الدولة العثمانية. أمين الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته، مطبعة يوسف، صادر بيروت، ١٩٢٨، ص٢٠١- ٢٠٢.

[5]) جمال زكريا قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات العربية من ١٨٤٠- ١٩١٤م، دار البحوث العلمية . الكويت، ط٢ ١٩٧٤م، ص٧٦-٧٧.

[6])المرجع نفسه،١٨٤٠-١٩١٤م، ص٧٧.

[7]) للتوسع حول رحلة بلي انظر عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، صراع الأمراء، دار الساقي بيروت،ط١،١٩٩٠،ص١٩٧-١٩٩.

[8]) قاسم، الإمارات العربية،١٨٤٠- ١٩١٤م، ص٧٩.

[9]) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، مطبوعات دار الملك عبد العزيز. بدون تاريخ،ج١،ص١٦٩.

[10]) خير الدين الزركي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ط١، بيروت ١٩٧٠م،ج١، ص٤٧.

[11]) أحمد عبد الغفور عطار، صقر الجزيرة، مطابع المؤسسة العربية، جدة،١٩٧٢م، ج١، ص٢٠٣.

[12]) ابراهيم جمعة، الأطلس التاريخي للدولة السعودية، منشورات دارة الملك عبد العزيز ١٩٧٧، ص١٢٧.

[13]) Saldanha, (a) The Persian Culfprecies of Najed Affairs 1804 -1904 volune V. Archive Edition 1986.P.36.

[14]) سعيد، المرجع السابق، ج١، ص١٧٠-١٧١.

[15]) الريحاني، تاريخ نجد، ص١٧٥.

[16]) عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ الدولة السعودية الثانية، دار المريخ للنشر، الرياض ١٩٨٠، ص١٧٦.

[17]) أبو علية، تاريخ الدولة، ص١٧٦-١٧٧.

[18]) أبها هي من إمارات عسير، تحيط بها الجبال وتعلو عن سطح البحر ٢٢٧٥ م تكثر فيها المزارع يسكنها اليوم ١٨٠,٠٠٠ نسمة ويتبعها ٤٢٧ قرية، الموسوعة العربية العالمية، الرياض ١٩٩٦م،مجلد١٦، ص٢٤٢.

[19]) ابراهيم بن صالح بن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، منشورات دار اليمامة للبحث والنشر، ط١، ١٩٦٧،ص٤٤.

[20]) صلاح الدين المختار، المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ ، ص٣٦١- ٣٦٢.

[21]) أبو علية، المرجع نفسه،ص١٨١.

[22]) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، تأليف لجنة التأليف والترجمة والنشر، لندن ١٩٣٥، ص٢٦٥.

[23]) أبو علية، المرجع السابق، ص١٨٣.

[24]) قاسم، تاريخ الإمارات، ص١٨١ نقلاً

Turkish Jurisdiction ,part I (f.o.76/5108) P.P 8-11

[25]) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن لحكومة الهند بالخليج، ١٨٥٨-١٩١٤م، الرياض، ١٩٨٢، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ص ٢١٢، نقلاً عن

(I.O) Secret Letters I , from India 31 may 1878

[26]) عبد الغني، المرجع السابق، ص٢٧.

[27]) جورج لورمير، دليل الخليج، القسم التاريخي، طبع على نفقة سمو أمير دولة قطر١٩٦٨م، ج ٢، ص١٦٧٩.

[28]) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، أمراء وغزاة ، دار الساقي، بيروت، ط١٩٨٨،١م، ص١١٤-١١٦.

[29]) أبو عليه، المرجع السابق، ص١٨٩.

[30]) Saldanha , O.P cit , Vo1 , V.P 37-39

أيضاً، مخطوط مجهول،المؤلف، مخطوط أمراء آل سعود وأمراء الوهابية في العارض واليمامة، رقم ١٠٧٤٣،مكتبة الأسد، ص٨-١٠.

[31]) قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات، ١٨٤٠-١٩١٤م، ص١٩٥.

[32]) وهبة، المرجع السابق، ص٢٦٧.

Damascus University

[33]) قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات،١٨٤٠ – ١٩١٤م، ص١٩٧.

[34]) ضاري بن فهيد الرشيد، نبذة تاريخية عن نجد، مخطوطة كتب بيد وديع البستاني في بومباي بالهند، طبعت بإشراف حمد الجاسر، بيروت، ١٩٦٨، ص١٥.

[35]) عبد الله بن فيصل كانت تربطه مع آل الرشيد رابطة المصاهرة، فقد كان متزوجاً من نوره شقيقة محمد بن الرشيد. أنظر: أ. موزل، تاريخ بيت ابن الرشيد، مجلة العرب، ج٧و٨، كانون الثاني وشباط، ١٩٧٦، تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة، الرياض، ص٥٧٠.

[36]) سعيد ١، المرجع السابق، ص١٨١.

[37]) لقد كتب الكولونيل ميد Meed عام ١٨٩٧ المقيم السياسي البريطاني في بوشهر مذكرة سرية عن الكويت أشار فيها إلى أنه " إذا أدخلت الكويت تحت حمايتنا فسوف تصبح بلا شك من أكثر المواقع أهمية في الخليج العربي، ويضيف أن الحماية البريطانية تعني مركزة مصالحنا السياسية في مياه الخليج وعلى سواحله ".

فتوح عبد المحسن الخترش، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠ – ١٩٢١م، منشورات ذات السلاسل، ط ٢، ١٩٨٤، ص٣٣.

[38]) أ. موزل، تاريخ بيت ابن الرشيد، مجلة العرب ج ٧ وج ٨ كانون الثاني ١٩٧٦،ص٥٤٩– ٥٧٤ تصدر عن دار اليمامة.

[39]) Saldanha (JA),The culfprecies of Kuwait affairs, 1896-1904 Volum V. Archive Edition 1986. No. 144. P.36

الفصل الثالث

الدولة السعودية الثالثة(١٩٠٢-١٩٧١م)

أولاً: العلاقة بين عبد العزيز آل سعود ومبارك الصباح

ثانياً: عبد العزيز آل سعود وإعادة فتح الرياض

ثالثاً: موقف القوى الخارجية من إعادة فتح الرياض

رابعاً: توسعات عبد العزيز في بقية أراضي نجد وردود الفعل

خامساً: علاقات عبد العزيز الخارجية بعد ضم الأحساء وتوقيع معاهدة القطيف عام(١٩١٥م).

سادساً: الدولة السعودية الثالثة في مرحلة التوسع بعد الحرب العالمية

١. القضاء على إمارة حائل في عام(١٩٢١م)
٢. تسوية حدود نجد مع الكويت والعراق وشرقي الأردن(مؤتمر العقير عام١٩٢٢م)
٣. الاستيلاء على شمال عسير(١٩٢٣م)
٤. بسط السيطرة على الحجاز عام(١٩٢٤-١٩٢٥م)

سابعاً: معاهدة جدة ١٩٢٧ وتسوية العلاقة مع بريطانيا

ثامناً: سياسة عبد العزيز آل سعود الداخلية(١٩٣٢-١٩٥٣م)

تاسعاً:الصراع على السلطة بين الملك سعود وولي العهد فيصل

عاشراً: النفط وآثاره في تطور المملكة العربية السعودية

هوامش الفصل الثالث

Damascus University

أولاً: العلاقة بين عبد العزيز آل سعود ومبارك الصباح:

أثناء إقامة عبد العزيز آل سعود في الكويت نشأة علاقة متينة بينه وبين مبارك الصباح وكثيراً ما كان مبارك يدعو عبد العزيز إلى الاجتماع به في منزله ويتحدث إليه في موضوعات السياسة المحلية والدولية، ويشرح له مركز بريطانية وقوتها في المنطقة[١]. وكان عبد العزيز تلميذاً ذكياً، تعلم من أستاذه مبارك أحابيل السياسة، ووفق في فهم الأوضاع السائدة في جزيرة العرب كل الفهم، وقد استوعب عبد العزيز ما كان يقصه عليه مبارك من حوادث وأخبار تجري بين مبارك وجواسيس الإنكليز والألمان[٢]. واستناداً لما تقدم، أخذ مبارك يقرب عبد العزيز منه، فيرحب به حين يزوره، ويفسح له مكاناً في مجلسه. وكان عبد العزيز يفهم ما يدور حوله وخاصة علاقات مبارك الوطيدة مع الانكليز[٣]. وقد سمح مبارك لعبد العزيز بحضور جلساته السرية خلف الأبواب الموصدة التي تحادث فيها مبارك مع ممثلي الدول الكبرى، وهذا ما جعل عبد العزيز على دراية بأساليب المفاوضات مع الأجانب ومعالجة المنازعات الإقليمية[٤]. وهكذا بدأ عبد العزيز يخرج على يدي مبارك من عالمه العربي الاقليمي إلى مسرح السياسة العالمية الكبرى في الوقت الذي تبلور فيه الصراع العالمي الإقليمي حول الكويت[٥]. كما أن دأب عبد العزيز على الاحتكاك مع التجار الوافدين إلى الكويت من أقصى الهند والشرق، مكنه من معرفة الأحداث الجارية في العالم[٦]. لذا فإن إقامته في الكويت الميناء المفتوح على العالم، أثر فيه وجعل شخصيته تتبلور كرجل دولة أكثر مما لوكان في نجد.

ثانياً: عبد العزيز آل سعود وإعادة فتح الرياض:

منذ موقعة المليداء عام١٨٩١م، التي انتصر فيها ابن الرشيد على عبد الرحمن بن فيصل واضطر الأخير مع ولده عبد العزيز إلى الجلاء عن الرياض وتوجههما للإقامة مع قبائل البدو في الصحراء بقيت فكرة استعادة الرياض لا تفارق ذهن عبد العزيز بن سعود على مدى السنوات العشر(١٨٩١-١٩٠٢م) التي سيطر فيها آل الرشيد على الرياض. ولذلك فإن مشاركة عبد العزيز في الأحداث داخل الجزيرة العربية بعد خروجه من الرياض كان يحركه هاجس العودة إليها واستعادة سلطة آل سعود فيها وما حولها، فزيارته إلى قطر، ثم خروجه إلى واحة يبرين، ونشاط والده لاستمالة القبائل هناك وانتقاله للعيش في كنف حاكم

الكويت عام١٨٩٣ كل ذلك حاول عبد العزيز أن يسخره في خدمة هدفه الكبير ألا وهو تحرير الرياض من آل الرشيد. وبذلك يكون عبد العزيز هو صاحب فكرة استعادة الرياض وقد بادر بطرحها أولاً على أبيه، ثم على الشيخ مبارك الصباح، الذي منح فكرة الفتح تأييده السريع(٧). وساهم في تجهيز الحملة بما احتاجته، فقد أعطى لعبد العزيز أربعين بعيراً وثلاثين بندقية ومائتي ريال وبعض الزاد وأربعين رجلاً أكثرهم من آل سعود(٨). وكان هدف الحملة محدداً سلفاً وهو الوصول إلى الرياض وانتزاعها من حكم ابن الرشيد. خرج ابن سعود مع رجاله من الأماكن التي كانوا يتجولون فيها بين حرض ويبرين، وكان قصدهم الرياض. فدخل الرياض ليلاً، واتجه نحو بيت امرأة من أقاربه، وبقي هناك ينتظر خروج عجلان أمير الرياض المعين من قبل ابن الرشيد، وبعد طلوع الشمس خرج عجلان يريد بيته فأدركه عبد العزيز آل سعود ودارت بينهما معركة كانت نتيجتها قتل عجلان وبعدها دخل عبد العزيز إلى الرياض في(٤شوال١٣١٩هـ/١٥كانون الثاني ١٩٠٢م)(٩). ولم يجد عبد العزيز بعد استيلائه على الرياض أي عقبة، وأظهر له الناس الكثير من التأييد والولاء. لأن سكان الرياض كانوا قد قاسوا من نير ابن الرشيد، وكانوا على استعداد لمساندة أي عمل من شأنه أن يخلصهم من حكمه، لذا ساندوا عبد العزيز. وأشار كثيرون منهم فيلبي(١٠) إلى هذه الحادثة "فتح الرياض" الفذة وشبهوها بأعمال أبطال الإغريق(١١) وهذا وتشير التقارير البريطانية إلى أن ابن سعود كسب خلال استيلائه على قلعة الرياض ضمن ما كسب مائتي بندقية بالإضافة إلى جمال وأحصنة وأمتعة(١٢).

ثالثاً: موقف القوى الخارجية من إعادة فتح الرياض:

في الواقع كان انتصار عبد العزيز آل سعود واستعادة الرياض انتصاراً لمبارك على خصمه ابن الرشيد. ونظراً للعلاقة الوطيدة والتحالف المطلق والكامل بين ابن سعود ومبارك تلك العلاقة التي تطورت من علاقة شخصية إلى علاقة سياسية. فإن أول عمل قام به ابن سعود بعد فتح الرياض كان إرساله ناصر بن سعود إلى الكويت مبشراً وطالباً الدعم(١٣). وبادر مبارك بالكتابة إلى والي البصرة يعلمه بما حدث في الرياض كي ينتقل الخبر بدوره إلى الباب العالي، وبذلك تكون السلطات العثمانية قد تلقت الأنباء عن طريق مبارك الذي استمر بمساندة صديقه

عبد العزيز في القضاء على المناوشات التي قام بها عبد العزيز الرشيد لاستعادة الرياض. وكان هدف مبارك من ذلك هو طمأنة الدولة العثمانية من ناحية ولاء ابن سعود لها ليستغل النزاع ما بين ابن سعود وابن الرشيد. وأشار مبارك على ابن سعود إلى إحاطة الرياض بسور يقيها هجمات ابن الرشيد. وأخذ ابن سعود بنصيحة مبارك، وبنى السور خلال أربعين يوماً من الفتح [١٤]. لم ينقطع مبارك عن مناصرة عبد العزيز، فكان يبعث إليه بالقوافل المجهزة بالأطعمة والذخيرة والأسلحة، ويزوده فوق كل ذلك بالخطط الحربية لأنه رأى في انتصاراته على خصمه ابن الرشيد ما يشفي حقده عليه، خاصةً بعدما ناله من خسائر في معركة الصريف. وقد تكون مساعدات مبارك ضئيلة، ولكنها كانت غاية في الأهمية لأن ابن سعود آنذاك كان معزولاً عن العالم الخارجي لولا صلته بالكويت، وما يصله من مساعدات. وربما يعود صغر حجم مساعدات مبارك إلى الضغط البريطاني على مبارك. وكانت السلطات البريطانية على علم مبكر بخروج ابن سعود من الكويت، وطلب السفير البريطاني في استنبول من القنصل البريطاني في البصرة تحذير مبارك من بغية السماح لأنصاره بغزو أراضي ابن الرشيد [١٥]. وربما كانت بريطانيا حريصة على ألا يقع مبارك في موقف غير مضمون النتائج، وكانت أميل إلى أن يتابع مبارك تقديم العون لابن سعود بطريق غير مباشر، وأن لا يزج قواته في مناوشات نجد الداخلية خشية أن يهدد ذلك موقف بريطانيا في الكويت. يضاف إلى ذلك أن بريطانيا كانت حريصة على عدم إعطاء الفرصة للعثمانيين لتقوية نفوذهم في المنطقة. إلا أن حياد بريطانيا المعلن تجاه الصراع بين ابن الرشيد وابن سعود لم يكن إلا نظرياً. ويؤكد أحد المصادر المهتمة بعلاقات نجد والكويت أن بريطانيا رغم أنها كانت غير راغبة بمساعدة الوهابيين بصورة مباشرة فليس هناك أدنى شك في انتصارات عبد العزيز كانت ستصبح مستحيلة دون ضمان بريطانيا لسلامة الكويت [١٦]. وظل مبارك مهتماً بما يجري في نجد كل الاهتمام، ولكنه كان يتصرف سراً فقد تم تحذيره بناء على تعليمات حكومة الهند، وكانت الأخيرة تخشى من عودة انتصار ابن الرشيد ثانيةً وما يترتب على ذلك من إتاحة الفرصة للدولة العثمانية في السيادة على وسط الجزيرة العربية، مما يهدد المصالح البريطانية في الخليج. وعندما طلب مبارك من بريطانيا تزويده بالمدفعية للدفاع

عن الكويت، امتنعت بريطانيا عن تلبية طلبه، إذ كانت قد وصلتها معلومات مؤكدة عن دعمه السافر لابن سعود، وخاصةً عندما جاء محمد بن عبد الرحمن شقيق عبد العزيز إلى الكويت وعاد مزوداً بالبنادق والجمال [١٧]. وعادت بريطانيا تحذّر مبارك مجدداً. أما فيما يتعلق بموقف ابن الرشيد من تحركات عبد العزيز آل سعود فنلاحظ أنه كان على علم مسبق باستعدادات عبد العزيز آل سعود لاستعادة الرياض، لذا استبق الأحداث وقدم شكوى إلى الدولة العثمانية يحتج فيها من سلوك عبد العزيز آل سعود وطلب العون من السلطات العثمانية. وذكر في شكواه أن للحكومة البريطانية خططها في إقامة علاقات وثيقة في وسط الجزيرة العربية. عن طريق ابن سعود وشيخ الكويت. واتهم ابن سعود بأنه أداة بيد البريطانيين الذين يطمعون بالسيطرة على العرب. على أثر ذلك أصدرت الدولة العثمانية أمراً إلى متصرف الأحساء بمنع ابن سعود من التزود بالمؤن. لكن عندما وصلت ابن الرشيد أخبار احتلال الرياض تظاهر بعدم الاهتمام وقال: "أرنب محجره وأهلها مقيمون"[١٨]. أي بإمكانه القضاء على ذلك الخصم متى شاء ولا داعي للعجلة، لكنه في الواقع كان قلقاً للغاية وهذا ما تثبته رسالة بعث بها مبارك إلى المقيم السياسي في الخليج ذكر فيها أن ابن الرشيد يعد ما جرى في نجد خطة واسعة، شاركت فيها بريطانيا ومبارك وابن سعود، وأن ابن سعود لا يمكنه القيام بها وحده[١٩]. ومع هذا فإن ابن الرشيد لم ييأس وأرسل تحذيراً إلى مبارك واضطر الأخير لتعبئة قواته[٢٠]. وكذلك أوفد رسولاً إلى والي البصرة يعلمه بما حدث، ويطلب المدد والمساعدة من الدولة العثمانية ومكث الرسول مدة في البصرة، إلى أن عاد بالجواب لابن الرشيد، ومفاده أن الدولة العثمانية لا يمكنها مساعدته مساعدة فعالة[٢١]. ويتضح أن عزوف الدولة العثمانية عن مساعدة ابن الرشيد هو دليل قاطع عن التراجع التدريجي للنفوذ العثماني لصالح الإنكليز في المنطقة. وتشير التقارير البريطانية أيضاً إلى أن السلطات العثمانية، سمحت للوضع الجديد في نجد أن يستمر حيث مازال عبد العزيز مسيطراً على الرياض، وأشار والي البصرة إلى أن عبد العزيز صرح أنه تحت سلطة السلطان [٢٢] وأعاد عبد الرحمن بن فيصل ثانيةً تأكيد الولاء للدولة العثمانية من خلال رسالة بعثها إلى رجب النقيب في(صفر ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م)، ليتولى نقل مضمونها إلى والي البصرة جاء

فيها:"ونحن في مكان وحال من الأحوال ما نزال بحول الله نؤدي الخدمات لحضرة أمير المؤمنين باذلين الجد والاجتهاد فيما يحصل به رضاه منقادين إلى أوامر الدولة العلية، فنرجو من مرام وتفضيلات وإحسان أمير المؤمنين بحلول أنظاره علينا ورفع تعديات ابن رشيد"[٢٣]. وعندما لم يحصل ابن الرشيد على مساعدات من الدولة العثمانية قرر الاعتماد على نفسه في مواجهة خصمه، فأخذ يستعد للهجوم على الرياض واسترجاعها، وبدأ يفاوض القبائل لتشد ازره ومن ضمنها قبيلة الظفير التي تقيم شمالاً بالقرب من حدود الكويت، على ماء يدعى الوقباء. فعلم مبارك بتلك الاستعدادات، واتخذ الاجراءات المناسبة التي كفلت إحباط مخطط ابن الرشيد.

رابعاً: توسعات عبد العزيز في بقية أراضي نجد وردود الفعل الخارجية:

عقب استعادة الرياض بدأ عبد العزيز بالإعداد لتوسعات جديدة فعمل على بسط سلطته على المقاطعات الجنوبية من نجد والتي كانت مثار حروب دائمة بين آل سعود وآل الرشيد، وهي الخرج والشعيب والوشم، وقد استطاع عبد العزيز في عامي(١٩٠٢-١٩٠٣م) السيطرة على تلك المقاطعات والتي لم تكن تخضع لآل الرشيد. ومع بداية عام١٩٠٤م جهز ابن سعود حملة على القصيم "بريدة وعنيزة" في أواسط نجد، وبسط سلطته عليها. وهذا ما بعث القلق لدى السلطات العثمانية لعدم ترحيبها بنهضة السلطة السعودية في نجد، وما قد ينتج عنها من تطلع السعوديين نحو الساحل. وهكذا عضدت الدولة العثمانية حليفها ابن الرشيد، وأمدته بالمال والجند، وبعثت قوات بقيادة فيضي باشا والي البصرة لدعم قواته [٢٤]، واضطر عبد العزيز إلى التراجع عن القصيم مؤقتاً. وبعدها اقترحت الدولة العثمانية أن تبقى القصيم منطقة محايدة بين ممتلكات ابن سعود وابن الرشيد على أن توضع حاميات عثمانية في بريدة وعنيزة، ويعين عليها حاكم عثماني. ودارت المفاوضات في الكويت وأصر مبارك على عبد الرحمن بن فيصل قبول أن تكون القصيم محايدة لأنه وجد فيها حماية للكويت. لم تلبث تلك المفاوضات أن توقفت نتيجة الثورة التي نشبت في اليمن في عام١٩٠٤م، بغية التخلص من السيطرة العثمانية، ومع ذلك نفذت الاتفاقية فيما بعد، لكن أفراد الحامية العثمانية لم يستطيعوا البقاء في القصيم بعد أن تكرر الاعتداء عليهم. وفي عام١٩٠٦م أرسل

عبد العزيز انذاراً إلى سامي باشا الحاكم العثماني في القصيم يبين فيه عدم رغبة أهل البلاد بوجود الأتراك وخيره بين الحرب أو الرحيل، فقرر الباشا الرحيل وبذلك تمت لعبد العزيز السيطرة النهائية على القصيم وولى. عليها أخاه الأصغر سعد بن عبد الرحمن. وبعد أن أصبحت قوة ابن سعود حقيقة واقعة، لجأت الدولة العثمانية إلى أسلوب جديد في التعامل معه تمثل في مهادنته وخلق نوع من العلاقات الثنائية بينها وبينه. ومن الثابت أن الدولة العثمانية منحته آنذاك ثلاثين جنيهاً شهرياً من خزانة البصرة، ومائة قطعة من الأقمشة وبضع حمولات من القمح سنوياً[٢٥]،لكن عبد العزيز اتجه لتدعيم علاقته أكثر فأكثر مع الانكليز. في١٢أيار ١٩٠٤م بعث عبد العزيز آل سعود برسالة إلى برسي كوكس persy cox عن طريق الشيخ مبارك الصباح، عرض فيها استعداده لقبول ممثل الحكومة البريطانية في بلاطه لقاء مساندة بريطانيا له في مقاومة خصومه[٢٦]. وقوبل هذا الطلب باستجابة ضمنية من الحكومة البريطانية، لكنها فضلت التريث في التدخل السافر بأمور نجد، وذلك لعدم إثارة الدولة العثمانية[٢٧]، ومع حكومة ألمانيا تتعلق بمد الخط الحديدي إلى بغداد، وكذلك كانت تود التفاهم مع روسيا للوصول إلى اتفاق حول إيران، ومع ذلك فقد سارعت بريطانيا وعينت الكابتن نوكس nox مقيماً بريطانياً في الكويت، وطلبت إليه تجاهل حركة مرور الأسلحة لصالح عبد العزيز آل سعود، وفي حالة احتجاج الدولة العثمانية فإنه يطلب منها عدم التدخل بالنزاع بين عبد العزيز وآل الرشيد[٢٨] وربما تكون بريطانيا قد سمحت بمرور الأسلحة خوفاً من انتصار ابن الرشيد وبذلك تتاح الفرصة للدولة العثمانية للسيطرة على وسط الجزيرة العربية، ومن ثم تهديد المصالح البريطانية في الخليج العربي. إلا أن سفير بريطانيا في الأستانة أو كونور o, connor اعترض على تقديم المساعدة لعبد العزيز لأنه كان يشك في أن تصبح سياسة الدولة السعودية بعد إعادة تأسيسها إقليمية وتحاول استعادة المناطق التي كانت تسيطر عليها الدولة السعودية السابقة، وخاصة زمن فيصل بن تركي، هذا واعتبر اوكونور أن سيطرة العثمانيين على الاحساء لن تكون أشد خطراً من السيطرة السعودية، إلا إن عبد العزيز لن يعمل على مساعدة بريطانيا أكثر مما يعمل على مد نفوذه[٢٩]. وكانت هذه وجهة نظر حكومة لندن، لكن حكومة الهند كان لها رأي آخر خوفاً

على وضعها في الكويت وحماية المشيخة من الخطر الألماني. فقد خشي حاكم عالم الهند كيرزونCurzon من احتمال وصول كل من عبد العزيز آل سعود والعثمانيين إلى اتفاق قد يكون نتيجته اعتراف ابن سعود بسيادة الدولة العثمانية. لذا فكر بضرورة مساندة عبد العزيز حتى أنه فكر بإرسال ضابط بريطاني إلى الرياض. لكن جون برودريكJhon Brodrik الوزير المسؤول عن شؤون حكومة الهند في لندن، عارض هذا التسرع من قبل كيرزون، ورفض إرسال أي مبعوث إلى داخل نجد دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية في لندن. وقد صدر عن حكومة لندن بيان في عام ١٩٠٤ جاء فيه أن بريطانيا ترغب في إفهام الجميع بأن نفوذها ومصالحها يجب أن تقتصر على ساحل الخليج دون الجزيرة العربية. وفي هذه الأثناء استغل عبد العزيز توقف المنازعات المؤقت بينه وبين آل الرشيد ليزحف بقواته عام١٩٠٥م إلى شبه جزيرة قطر، تلبية لدعوة تلقاها من قاسم آل ثاني الذي كان يواجه ثورة داخلية شنها ضده أخوه أحمد[٣٠]. والجدير بالذكر أن عبد العزيز وجدها فرصة مناسبة ليضم إمارة آل ثاني التابعة للدولة العثمانية إلى حكمه، لكن أحلام ابن سعود لم تتحقق بسبب التحالف الذي تم بين أحمد بن ثاني وحاكم أبو ظبي الهناوي، وهذا ما اضطر عبد العزيز آل سعود إلى التراجع، ولا يغير من هذه الحقيقة إعلان عبد العزيز بأن سبب حملته التوفيق بين قبائل البدو "آل مرة والعجمان من جهة" وزعماء قطر من جهة ثانية ليظهر أمام السلطات البريطانية مدى تعلقه بالأمن والنظام[٣١]. لقد أثارت زيادة قوة عبد العزيز مخاوف جديه لدى شيوخ أبو ظبي والساحل العماني– المرتبطين بمعاهدات مع بريطانيا – وهذا ما جعل بريطانيا ترسل تعليماتها إلى الوكيل البريطاني في الكويت من أجل أن يتصل بالشيخ مبارك ويعلن له أن الحركة التي يقوم عبد العزيز بالنسبة لإمارات تربطها ببريطانيا عدة اتفاقيات أمر لا يروق للحكومة البريطانية ولا تنظر إليها بارتياح[٣٢]. إلا أن برسي كوكس المعتمد السياسي في الخليج أدرك أن عبد العزيز قد أصبح الآن سيداً على أواسط نجد ولا يجوز للحكومة البريطانية أن تتجاهل ذلك بل عليها أن تتعامل مع الوقائع الجديدة، وقد بعث كوكس رسالة بهذا الشأن إلى حكومة الهند في ١٦أيلول١٩٠٦م عرض فيها أهمية التوصل إلى اتفاق مع عبد العزيز ويلخص كوكس هذه الفوائد بالآتي:

أ. إن تجاهل محاولات عبد العزيز بإنشاء صداقة معنا قد يجعل منه عدواً.
ب. إن التفاهم معه سيزيل قلق سلطان مسقط وشيوخ ساحل الصلح العماني خوفاً من توسعه.
ج. إن تأييد ابن سعود سيساعدنا على قمع القرصنة في المناطق الشمالية للخليج.
د. إن هنالك دلائل تشير إلى أن تدخل الترك في أواسط جزيرة العرب سيوحد القبائل في مقاومتهم تحت زعامة ابن سعود، فإذا لم نؤيدهم فقد يتصلون بدولة أخرى(٣٣).

اهتمت وزارة الهند للأمر وعكفت على دراسته خلال الأشهر الأخيرة من١٩٠٦م والشهور الأولى من١٩٠٧م. وظل ابن سعود يرسل بعروضه إلى المقيم السياسي في الخليج، وخلال عام١٩٠٦م بعث برسول شخصي ثم توسط شيخ قطر، وأخيراً شيخ الكويت مبارك. وتضمن فحوى عروضه إشراكه في نظام الإمارات المتصالحة ورغبته إذا قبل طلبه الترحيب بوجود معتمد سياسي بريطاني في بلاده وإقامة ارتباطات شبيهة بتلك التي تربط الشيوخ المتصالحين والمتعلقة "بالقرصنة"و"تجارة الرقيق" وعدم التفريط بأي أرض لدولة أخرى وسيطرة بريطانيا على شؤون بلاده الخارجية. ولم تتسرع بريطانيا بقبول هذه العروض علانية لأنها كانت تخشى أن يؤدي قبولها إلى إرباك علاقاتها مع الباب العالي من ناحية، ولأن ابن سعود لم يكن في مركز يمكنه من الدخول في أي التزامات تجاه جيرانه. وتذرعت الحكومة البريطانية بأن الحد الساحلي لشرقي الجزيرة هو الحد الذي تنحصر داخله مصالح بريطانية ونفوذها ولا شيء يربط الحكومة بالحرب الدائرة في وسط الجزيرة. وكان إحياء الدولة السعودية في نجد من جديد قد أثار القلق على وضع المشيخات الست في ساحل عمان، ولم يشعر حكام تلك المشيخات بالخطر إلا في سنة١٩٠٦م حينما قام عبد العزيز بنشاط حربي في الركن الجنوبي الشرقي من نجد قرب عمان. فدعا زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي إلى عقد مؤتمر من المشيخات الست للبحث في أمر الدفاع عنها، وهدد بتأديب حاكم دبي لأنه امتنع عن حضور المؤتمر، كما عقد محالفة مع حاكم مسقط، وأدى هذا إلى تكتل الشيوخ المرتبطين بمعاهدات مع الإنكليز لمواجهة الدولة السعودية الناشئة وكان وضع حاكم قطر قاسم آل ثاني مختلفاً، إذ لم يكن مرتبطاً حتى ذلك الوقت

بمعاهدة مع الإنكليز، كما أن انتشار الدعوة السلفية "الوهابية" في بلاده كانت تقربه من آل سعود، وكان قد ذهب للترحيب بعبد العزيز حينما ظهر قرب ساحل السلام أواخر عام ١٩٠٥م[٣٤]. ونتيجة لمخاوف الشيوخ المرتبطين بمعاهدات مع الإنجليز أرسل كوكس "المعتمد البريطاني في الخليج" إلى الكابتن نوكس knox"المعتمد البريطاني في الكويت" طالباً منه الاتصال بالشيخ مبارك بوصفه صديقاً حميماً لابن سعود للاستفسار من عبد العزيز فيما إذا كان سيستمر في التمسك بتعهدات أسلافه "والمقصود هنا تصريح عام١٨٦٥م الذي قدمه عبد الله بن فيصل، بعدم تدخل السعوديين بشؤون الإمارات التي لها علاقة مع بريطانيا"[٣٥]. ويبدو أن مباركاً عارض فكرة زيارة عبد العزيز آل سعود إلى مشيخات الساحل خوفاً على مصالحه الخاصة. لأنه خشي حصول ابن سعود على منفذ ساحلي سواء أكان عنوة أو بالاتفاق مما يؤدي إلى تحويل تجارة نجد بعيداً عن الكويت. وعلى أي حال أن الزيارة لم تتم بسبب معارضة مبارك أو بسبب ما نقل لابن سعود من تحذيرات بريطانيا. لم يكتف عبد العزيز بما حققه من انتصارات على آل الرشيد في منطقة نجد، بل أخذ يعد الخطط للتوسع خارجها، وبذات الوقت أدرك أن تحقيق طموحاته هذه لابد أن تحظى بموافقة بريطانيا الضمنية أو العلنية. ولذلك نرى أن سياسة عبد العزيز اتخذت تجاه هذه المسألة مبدأ المرونة والدأب وعدم اليأس من جهة، وتهدئة الأوضاع الداخلية لتوطيد أركان حكمه من جهة ثانية.

١. **فشل محاولات عبد العزيز آل سعود الأولى لفتح الأحساء:**

أخذت قوة عبد العزيز تزداد، وأموره تتوطد، وخاصةً بعد معركة روضة مهنا التي دارت في(٨صفر١٣٢٤هـ/١٣نيسان١٩٠٦م)[٣٦] وذهب ضحيتها أمير حائل عبد العزيز بن متعب الرشيد، وبموته زال كل اثر للقلق من نفس عبد العزيز آل سعود واطمأن إلى استقرار حكمه حتى الحدود الشمالية للقصيم. وقد حل محل عبد العزيز بن الرشيد ابنه متعب بن عبد العزيز الذي تاق للسلم والهدوء فدخل في مفاوضات مع ابن سعود انتهت بأن تكون حائل وملحقاتها وشمر له، وأن تكون نجد بما فيها القصيم لابن سعود. ونتيجة للوضع الجديد، الذي جعل عبد العزيز القوة المسيطرة في وسط الجزيرة العربية بدأ يفكر جدياً بالحصول على منفذ له على البحر وكان ابن سعود منذ عام١٩٠٣م قد جس

نبض البريطانيين حول مدى تقبلهم لفكرة إعادة الأحساء ومقدار المساعدة التي يمكنهم تقديمها(٣٧). وفكر الأمير عبد العزيز بإثارة الموضوع من جديد مع البريطانيين فأرسل مبعوثاً خاصاً يدعى مساعد بن سويلم، في شباط عام١٩٠٦م لمقابلة المعتمد السياسي البريطاني في البحرين السيد برسي كوكس، وشرح له أن عبد العزيز يشعر الآن أنه قوي بحكم انتصاراته المتلاحقة في نجد وأنه يستطيع ضم الأحساء له. لكن الإنجليز لم يتحمسوا لاقتراحات ابن سعود خوفاً من إثارة المشكلات مع الدولة العثمانية. ولم يعد ابن سعود إلى بحث الموضوع ثانيةً إلا عام١٩١١م، وذلك خلال المقابلة التي تمت بين الأمير عبد العزيز آل سعود والكابتن البريطاني شكسبير Skespiar لدى زيارة الأخير له(٣٨). ويبدو أن زيارة المبعوث البريطاني شكسبير كانت لتقصي الحقائق بالاطلاع على التطورات السياسية في منطقة نجد ومعرفة قوة عبد العزيز عن كثب ومدى تطلعاته بالنسبة للخليج العربي. إلا أن المبعوث البريطاني لم يعط تعهدات لابن سعود بشأن ضم الأحساء مع أن ابن سعود أكد على ضرورة ضمها إلى نجد والحصول على منفذ بحري على الخليج(٣٩).
وحاول عبد العزيز أن يستغل فترة ضعف العثمانيين في المنطقة فعرض على الإنجليز خطته الرامية إلى مفاتحة الباب العالي بحقه الشرعي والتاريخي بالأحساء، وفي حال الرفض سيعمد إلى تخليصها بالقوة، ولكن الإنجليز اتخذوا من جديد موقف التريث وعدم إبداء الحماسة اللازمة لأفكار عبد العزيز حول الأحساء، إلا أنهم أظهروا لعبد العزيز أن لديه من القوة ما يكفي لضم الأحساء دون أي مساعدة انجليزية. وفي واقع الأمر كان الإنجليز قد ضمنوا الهدوء في منطقة الخليج الساحلية بحكم المعاهدات التي تم عقدها بين بريطانيا وبين أمراء تلك المناطق من جهة وبسبب تعهدات عبد العزيز بعدم المساس بتلك المشيخات من جهة ثانية وعلى هذا الأساس أخذ عبد العزيز يترقب الفرصة السانحة لضم الأحساء إليه.

خامساً: علاقات عبد العزيز الخارجية بعد ضم الأحساء وتوقيع معاهدة القطيف عام١٩١٥م:

كانت الدولة العثمانية قد أدركت أن أهالي الأحساء عمقوا صلاتهم بعبد

العزيز آل سعود حتى إنهم كانوا على استعداد لفتح أبواب مدينة الهفوف "في منطقة الأحساء" أمامه إن هو أراد ذلك. وفي برقية رقمها/٢٢٢٦٧٧/مؤرخة في٥كانون الأول١٣٢٢هـ صادرة عن الفريق صدقي باشا قائد الجيش السادس السلطاني في بغداد، وهي رد على الإرادة السنية التي صدرت بشأن سوق أربع أفواج من الجند النظامي إلى متصرفية نجد لإحلال الأمن فيها، جرى التأكيد على أن أهالي البلاد الذين يميلون لابن سعود قد كتبوا له خفية يعلنون له بأنه إذا ما أراد أن يجعل لواء الأحساء بيده فسوف يفتحون له أبواب المدينة وتشير البرقية كذلك إلى أن الحكومة المحلية لا تستطيع الدفاع عن الأحساء وهذا ما جعل إمكان ضم الأحساء أمراً واقعياً وغير معقد، وأكد لعبد العزيز أن انتصاره محتم. وفي هذه الأثناء انتقل الموقف الانجليزي من حالة التريث إلى حالة تشجيع عبد العزيز على احتلال الأحساء لهدفين:

الأول: القضاء على بؤرة النفوذ الألماني – التركي في الخليج العربي، لأن بقاء الأحساء بيد الأتراك يعني وصول الألمان والأتراك إليها، وقد وجدت انجلترا أن تصفية تلك البؤرة لا يتم إلا على يد ابن سعود[٤٠].

والثاني: إبقاء ابن سعود في حالة نشوب حرب عالمية تحت حماية انجلترا لحاجته للمساندة "وتحقق هذا بعد أن عقدت معه معاهدة القطيف والتي سنأتي على ذكرها فيما بعد".

وفي١٣نيسان١٩١٣م هاجم ابن سعود برجاله مدينة الهفوف واستولى عليها، ومن بعدها احتل القطيف وأصبحت تلك المنطقة تحت سيطرته[٤١]، وخيّر عبد العزيز أفراد الحامية العثمانية الهفوف بين التسليم أو الموت المفاجئ، لكنهم استسلموا واضطر سليمان نظيف بك والي البصرة إلى سحب القوات العثمانية إلى العقير، ومنها إلى البحرين، هذا وكان عددهم لا يزيد على أربعمائة نفر منهم تسعون في القطيف. وحاول العثمانيون اتخاذ البحرين مركزاً لمناوراتهم الحربية[٤٢]، واحتج عبد العزيز لدى الانكليز إلا أنهم تغافلوا عن ذلك، فكتب عبد العزيز إلى الشيخ عيسى يقول "أيليق بكم تحريض العدو علينا ونحن أصدقائكم، فإذا كنتم لا تتلافون مثل هذه الأعمال فالتبعة في ما قد يعقبها عليكم". وبعث عبد العزيز إلى المقيم البريطاني في الخليج برسي كوكس يطالب مرة أخرى إقامة

علاقات ودية معه. ويذكر كوكس أن عبد العزيز كتب يشكو إليه من سماح الإنكليز للأتراك باستخدام البحرين مؤكداً له من جديد أنه راغب في أن تربطه ببريطانيا علاقات وديّة. وقد حاول العثمانيون استعادة قلعة العقير، لكن عبد العزيز هزمهم وسلم زمام الأمور إلى ابن عمه عبد الله بن جلوى، ولم تعمد الدولة العثمانية إلى ارسال حملة لاستعادة الأحساء لخشيتها الاصطدام بالإنكليز وما سيكلفها ذلك من نفقات طائلة لا يسعها تحملها، وهي تعاني من أزمة مالية شديدة لذا رضيت بالأمر الواقع، ورأت أن تصالح عبد العزيز وتجعله صديقاً لها وفي١٩١٤م قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى وصل النقيب رئيس الوفد العثماني إلى الكويت بهدف مفاوضة عبد العزيز، بشأن الأحساء وتم الاجتماع في الصبيحية والتفاوض على ما يلي:

١. أن يقبل عبد العزيز سيادة الدولة عليه وعلى نجد، وأن يكون متصرفاً للأحساء مدة عشر سنوات.
٢. أن يؤدي ستة آلاف ليرة سنوياً إلى خزانة البصرة.
٣. أن يوافق على أن ترابط حامية عثمانية في العقير.

ورفض عبد العزيز الشروط باستثناء البند الأول، وانتهى الأمر بأن اعترفت به الدولة العثمانية والياً على نجد، ومتصرفية الأحساء، وأصدرت فرماناً يمنحه لقب الباشا[٤٣]، وأن تنتقل ولاية نجد بالوراثة بين أبناء عبد العزيز. وبعد أن ضم عبد العزيز الأحساء أخذت بريطانيا تغير من موقفها تجاهه لأنه أصبح على اتصال مباشر بالسياسة الإنكليزية ويشترك اشتراكاً فعلياً في توجيه السياسية الدائرة في الخليج، بخاصة بعد أن سيطر على ميناءي العقير والقطيف وأصبحت مناطق نفوذ بريطانيا محاذية له من الشرق في الخليج العربي ومن الشمال الشرقي في إمارة الكويت، وأخذت بريطانيا توجه اهتماماً متزايداً إليه. وكان عبد العزيز بدوره يستشير صديقه مبارك حول مدى العلاقة مع الإنكليز، ونصحه مبارك بالابتعاد عن بريطانيا كي يبقيه محصوراً داخل الجزيرة العربية. ولا يتحول عبد العزيز إلى الشخصية الأولى المقربة لدى الإنكليز. وساعد نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا على تدخل بريطانيا بوجه خاص في الجزيرة العربية لتكسب زعماءهما إلى جانبها. وبالمقابل

كانت الدولة العثمانية تبسط سيطرتها على سورية والعراق، وتهدد الإنكليز في منطقتين مهمتين هما قناة السويس، ومنطقة الخليج العربي، وتسيطر على سواحل البحر الأحمر مما يسمح لها بالاتصال بمصر والسودان والتوغل في القارة وخلق المصاعب أمام الدول الاستعمارية الأخرى، كما أنها تحتفظ بفرقتين عسكريتين في اليمن، يمكنها أن تهدد بهما قاعدة عدن تهديداً مباشر[٤٤]. وكان إعلان السلطان للجهاد وموافقة شريف مكة عليه يهدد بتحويل الحجاز إلى مركز ثورة ودعاية إسلامية، تعمل على إثارة الشعوب العربية الإسلامية وغير العربية التي كانت تخضع لحكم الحلفاء في الهند ووسط آسيا وشمال أفريقيا وغربها. وأدركت بريطانيا هذا الوضع، بخاصة أنها كانت تتحكم في سبعين مليوناً من المسلمين في الهند، علاوة على مسلمي مصر والسودان، وكذلك كانت روسيا تتحكم في مسلمي وسط آسيا. وكانت المنطقة التي ستتأثر بإعلان الجهاد عبارة عن دائرتين الواحدة داخل الأخرى.

الأولى: هي البلاد العربية والتي تمر فيها معظم خطوط المواصلات الامبراطورية.

والثانية: أوسع منها وتضم العالم الإسلامي غير العربي، ولم يكن من السهل الهجوم على منطقة قناة السويس إلا من البلاد العربية، وهذا هو السبب في تفكير الانكليز في محاولة ضرب الدولة العثمانية في أقاليمها العربية بفصل العرب عن العثمانيين في منطقة الشرق العربي، ثم بوضع كل من هاتين القوتين في مواجهة الأخرى، بشكل يسمح بإضعافها ويسهل السيطرة على كل منها.

وفكرت بريطانيا في أن تبحث عن زعيم عربي يقود الجزيرة العربية ضد العثمانيين، واختلف الساسة البريطانيون بشأن من ينصبونه زعيماً، فقد حاول لورنس Lawrance ومن معه من رجال المكتب العربي Arab Bureau في مصر جعل الشريف حسين رئيساً بينما كانت حكومة الهند India Office ترى دعم نفوذ عبد العزيز آل سعود وجعله رئيساً على الجزيرة العربية. وأيد كل منهم وجهة نظره. فأرسلت حكومة الهند الكابتن شكسبير الوكيل البريطاني في الكويت "والذي كانت تربطه صداقة مع عبد العزيز" في أواخر عام١٩١٤م إلى الرياض، وكان الغرض من هذه البعثة تحقيق هدفين:

الأول: دفع عبد العزيز لمحاربة آل الرشيد مجدداً.

والثاني: إضعاف قوة العثمانيين من خلال هزيمة حلفائهم آل الرشيد(٤٥).

وكان شكسبير مزوداً بتعليمات من برسي كوكس المقيم السياسي في الخليج "والذي كان تابعاً لحكومة الهند" تقضي أن يستغل طموح عبد العزيز ويجعله يعلن الحرب على الدولة العثمانية على أن تتكفل بريطانيا بمساعدته إذا ما قام بهجوم على الشام أو العراق. وربما خشي عبد العزيز الإقدام على ذلك وأفهم المبعوثين الإنكليز أنه يرغب في إقامة أحسن علاقات الود مع بريطانيا وأنه يريد الارتباط بالإنكليز، ويستدل على ذلك من محاولاته أنفة الذكر، إذ كان يخشى أن تحتل بريطانيا موانئ نجد والأحساء بحجة أنها من ممتلكات الدولة العثمانية(٤٦). طالب من جديد بعقد معاهدة محددة الشروط تعترف فيها بريطانيا بأنه مستقل في بلاده. إلا أن تلك المعاهدة التي ألح عبد العزيز كثيراً على عقدها لم تعقد إلا في٢٦كانون أول عام١٩١٥م، عندما اتفق مع برسي كوكس في دارين قرب القطيف على إبرامها ومن بنودها:

١. أن الحكومة البريطانية تعترف وتقبل بأن نجداً والأحساء والقطيف وجبيل وملحقاتها والمرافئ التابعة لها للأمير ابن سعود وآبائه من قبل، وهي تعترف بابن سعود حاكماً مستقلاً عليها.
٢. أن تلتزم الحكومة البريطانية بمساعدة عبد العزيز ضد أي دولة أجنبية.
٣. يتعهد عبد العزيز أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أي حكومة أو دولة أجنبية وعلاوة على ذلك فإنه يتعهد بإعلام الحكومة عن كل تعرض أو تجاوز يقع من قبل حكومة أخرى على الأراضي التي ذكرت آنفاً.
٤. يتعهد ابن سعود بأن تبقى الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة مفتوحة، وأن يحافظ على الحجاج في أثناء ذهابهم إلى الأماكن المقدسة ورجوعهم منها.
٥. يتعهد ابن سعود بصورة قطعية أن لا يتخلى ولا يبيع ولا يرهن ولا يقبل بصورة من الصور ترك قطعة أو التخلي عن الأراضي التي ذكرت آنفاً ولا يمنح امتيازاً في تلك الأراضي لدولة أجنبية أو لتبعة دولة أجنبية دون رضى الحكومة البريطانية وأن يتبع نصائحها التي لا تضر بمصلحته.
٦. يتعهد ابن سعود كما تعهد آباؤه من قبل بأن يتحاشى الاعتداء على الكويت

والبحرين ومشايخ قطر وسواحل عمان المشمولة بحماية الحكومة البريطانية ولها صلات عهدية مع الحكومة المذكورة وأن لا يتدخل في شؤونها، وتحدد حدود هذه الأقطار فيما بعد.

٧. الحكومة البريطانية وابن سعود يتفقان فيما بعد بمعاهدة على التفصيلات التي تتعلق بهذه المعاهدة.

ونظرة تحليلية إلى هذه المعاهدة توضح إبرامها كان لمصلحة بريطانيا لأنها يمكن أن تؤدي إلى ضمان المواصلات البريطانية إلى العراق. كما أن اجتذاب بريطانيا ابن سعود لصفها جعلها تضمن عدم عدائه للشريف حسين بخاصة وأنّ الشريف كان منوطاً به دور مهم وهو إعلان الثورة على الدولة العثمانية. هذا بالإضافة إلى رغبة حكومة الهند في إيجاد علاقات صداقة ما بين عبد العزيز وشيخ قبيلة عنزة الواقعة على حدود العراق كي يؤثر عليه، ويجعله يقف إلى جانب بريطانيا. أما بالنسبة لابن سعود الذي كان مطوقاً بالنفوذ الإنجليزي في الكويت والحجاز وعسير(٤٧) بعد أن وقع الإدريسي معاهدة مع انجلترا عام١٩١٥م فكان من مصلحته كسب صداقته(٤٨).وأمنت معاهدة القطيف جانب بريطانيا في أثناء الحرب، وأخرجت عبد العزيز من صف العثمانيين دون محاربتهم. كما أن محاربة عبد العزيز لآل الرشيد حلفاء العثمانيين في الحرب قد شلّ حركتهم، ومنعهم من المشاركة الفعلية بجانب العثمانيين. وقد أوقفت المعاهدة عبد العزيز مؤقتاً عن التعرض للشريف حسين وأفادته بالحصول على معونة مالية ساعدته على الحروب ضد آل الرشيد(٤٩). فقدم له الإنكليز عشرين ألف جنيه مقدماً وألف بندقية وسمحوا له بشراء ذخائر من البحرين. وتم الاتفاق على أن تدفع بريطانيا له مساعدة شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه(٥٠) واعترف سلطان نجد للبريطانيين بحق الإشراف على علاقاته الخارجية مثل جميع أمراء الخليج والجنوب العربي، وأصبح عبد العزيز بذلك أحد الأمراء الذين ساعدوا بريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى.

ويلاحظ أن معاهدة القطيف وإن عنيت بالحدود الشرقية لممتلكات ابن سعود، إلا أنها لم تلتفت إلى الحدود الغربية بدليل أنها لم تحو في بنودها أي التزام من قبل ابن سعود بعدم الاعتداء على الشريف حسين، الأمر الذي ترك الفرصة سانحة لابن سعود لتوجيه نشاطه نحو الحدود الغربية لممتلكاته(٥١). ونتيجة للمصلحة

المشتركة ما بين عبد العزيز وبريطانيا على قتال ابن الرشيد دارت معركة في كانون الثاني١٩١٥م في مكان اسمه جراب في شمال نجد، اشترك الكابتن شكسبير فيها مع الجيش السعودي كمشرف على المدفعية السعودية، وفي أثناء المعركة أصيب برصاصة طائشة أودت بحياته. ويعد موته كارثة للإنكليز وخسارة لابن سعود[٥٢]. وكتب ابن سعود إلى برسي كوكس المقيم السياسي في الخليج يخبره بمقتل الكابتن شكسبير جاء فيه: قاتلنا ابن الرشيد في الأرطاوي، فوقعت معركة حامية، وأصيب مع الأسف الشديد صديقنا الحميم ومريد الخير لنا الكابتن شكسبير إصابة عن بعد ثم قضى نحبه، فالرجاء إنباء الحكومة المرزوءة بحزني وأساي وقد أكدنا عليه لزوم تركنا قبل المعركة لكنه أصر على الحضور قائلاً: " أنا مأمور بأن أكون معكم، فإذا تركتكم أكون قد خالفت حكومتي وما يحتمه علي شرفي، وعلي أن أبقى على كل حال ". وهذا يؤكد أن ابن سعود شن حربه على آل الرشيد تحت ضغوط انكليزية بحتة وقد انتهت هذه المعركة لا غالب ولا مغلوب وفاز الأعراب في كلا الفريقين بالأسلاب والغنائم. وبعد أن تحول ابن سعود إلى قوة مسيطرة في وسط الجزيرة العربية، وبعد أن أظهر قدرة سياسية فائقة في التغلب على ما واجهه من أحداث عقب انتصاره على ابن الرشيد، كل ذلك جعل بريطانيا تولي اهتماماً كبيراً لتعميق العلاقات مع الزعيم الذي فرض سيطرته المطلقة على أكبر أجزاء الجزيرة العربية.

سادساً: الدولة السعودية الثالثة في مرحلة التوسع بعد الحرب العالمية الأولى:

١- القضاء على إمارة حائل في عام١٩٢١م:

بقي هاجس الاستيلاء على جبل شمر يقض مضاجع عبد العزيز آل سعود وخاصة بعد مؤتمر القاهرة١٩٢١م الذي عقده ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانية مع المعتمدين البريطانيين في المنطقة والذي وضع بنية الشرق الأوسط لفترة ما بعد الحرب. لذلك أدرك عبد العزيز أنه إذا لم يسرع في إخضاع قبائل شمر نهائياً فإن جبل شمر سوف يفلت منه. وفي آب١٩٢١م عاد عبد العزيز إلى موقع قرب حائل على رأس قوة كبيرة من ضمنها قوات الإخوان بزعامة فيصل الدرويش[٥٣]. وبعد شهرين من الحصار أوفد أعيان

المدينة أحد وجهاء آل السبهان للتفاوض مع عبد العزيز حول استسلام المدينة. ولم تنقذ محمد بن طلال الرشيد طلبات الاستغاثة من السلطات البريطانية،ولم يجد أمامه سوى الاستسلام بشرط أن تصان حياته، ونقل كأسير للرياض[٥٤]. ويبدو أن بريطانيا كانت قد ألحت على عبد العزيز مراراً خلال الحرب للتخلص من إمارة حائل. وهو أمر يؤكده فيلبي فيقول: " ومع ذلك فقد حذرته "يقصد ابن سعود" في أحاديثي الخاصة معه أنه إذا أراد أن يصبح عاملاً مهما في اعتبارات بريطانيا وحساباتها عليه أن ينتهي من أمر ابن الرشيد، ويزيله من مسرح الجزيرة، وقلت له إن لابن الرشيد أصدقاء أقوياء ما زالوا يحلمون بإعادته، وعندها سينفذ عند الحاجة الدور الذي يطلب إليه تنفيذه ضد ابن سعود وضد الشريف نفسه[٥٥]. ومن ذلك الحين أخذ يوطد أقدامه في الشمال، بعد ضم جبل شمر بكامله إلى ملكة في تشرين أول١٩٢١م، وانتهى بذلك وجود إمارة جبل شمر المستقلة، وبايع السكان في حائل ابن سعود ونصب ابراهيم السبهان والياً عليهم. وكان باعتقاد ابن سعود أن إضافة مقاطعة جبل شمر لملكه سيساعد على حل أزمته الاقتصادية حيث ألمت بالجزيرة العربية آنذاك سنوات قحط وجفاف. ويذكر أن ابن سعود قد أقر بالضغوط الإنكليزية بشأن إنهاء إمارة حائل وبررها أمام الإخوان **بقوله:**" أما بشأن ابن الرشيد فالإنكليز قد استعجلوني حقاً أمر قتاله، ولن أحاول أن أخفي عليكم هذه الحقيقة ولن يجني ثمار المعركة والنصر سوانا نحن. سيقدمون لنا السلاح والذخيرة، وسنصبح في موقف أفضل لتسوية الحساب وسيرفع الإنكليز يدهم عن قبائل الصحراء جميعاً متى فتحنا حائل، وأما الحاكمون المفسدون في أطراف البلاد فسيخضعون لسيطرتنا، ويتاح لنا إذ ذاك أن نعيش في سلام[٥٦]. ويقصد بذلك الحسين إذ كان الإخوان يريدون محاربة الحسين قبل أن يحاربوا ابن الرشيد.

٢- **تسوية حدود نجد مع الكويت والعراق وشرقي الأردن:(مؤتمر العقير١٩٢٢م).**

كانت مسألة الحدود الثابتة أمراً جديداً نوعاً ما على حكام الجزيرة العربية، ومن وجهة نظر ابن سعود كان يعد كل قبائل شمر وعنزة تابعة له، بمعنى أن رعاياه متواجدون في مناطق بعيدة يعدها الإنكليز جزءاً من العراق. ومع أن القبائل ألفت التنقل بحرية ما بين العراق والجزيرة العربية وسورية، فقد أدت

الخلافات والاشتباكات فيما بينها إلى تفاقم النزاعات بين نجد والعراق، خاصةً في خريف عام١٩٢١م عندما عين يوسف بن سعدون قائداً لفيلق الجمالة العراقي المشكل حديثاً. وكان الأخير يحمل عداءً شخصياً لشيخ قبيلة الظفير حمود بن سويط الذي فر إلى الرياض مستجيراً بعبد العزيز آل سعود وعاد بعد مدة مع مجموعة من الإخوان برئاسة فيصل درويش، فهاجموا سوية معسكر يوسف بن سعدون عام١٩٢٢م وأبادوه، وأرسل الإنكليز طائراتهم لنجدة العراقيين. وعند ذلك سرّحت الحكومة العراقية فيلق الجمالة وأقالت قائده يوسف ابن سعدون، وبعدها هرب إلى الرياض ليعرض خدماته على عبد العزيز. وأصر الإنكليز منذ ذلك الحين على ضرورة إقامة حدود ثابتة بين العراق ونجد وتحديد الحدود ما بين قبائل الظفير والعمارات التي هي فخذ من قبيلة عنزة التابعة للعراق، بينما جعلت قبائل شمر تابعة لابن سعود. وفي٥أيار عام١٩٢٢م عقدت اتفاقية المحمرة التي شارك في وضعها عن الجانب السعودي أحمد بن ثنيان، وعن الجانب العراقي صبيح نشأة والسير برسي كوكس عن الجانب البريطاني ومن أهم ما جاء في هذه المعاهدة:

(١) تتعهد الحكومتان "العراق ونجد" أن تمنعاً تعديات عشائرهما على الطرف الآخر ويكون الطرفان مكلفين بتأديب عشائرهما.

(٢) كل عشيرة من عشائر أحد الطرفين إذا قطنت في أراضي الطرف الآخر فهي مجبورة أن تكون خاضعة للرسوم المرعية.

(٣) يقر الطرفان بأن العشائر التي هي تحت اسم عشائر المنتفق والظفير والعمارات راجعة إلى حكومة العراق، وقبائل شمر ونجد إلى نجد. ولأجل تبيان الآبار والأراضي المستعملة من قبل كل هؤلاء حصل الاتفاق بشأن تشكيل لجنة مؤلفة من أهل الخبرة، لكل حكومة شخصان تحت رئاسة أحد رجال الحكومة البريطانية المنتخب من قبل المندوب السامي وتجميع اللجنة في بغداد لسن الحدود القطعية والطرفان يتقبلانها دون اعتراض.

(٤) إذا حصل جفاء بين إحدى الحكومتين وحكومة بريطانيا تكون هذه المعاهدة منفسخة.

Damascus University

لكن ابن سعود رفض إبرام الاتفاقية لأن مندوبه وقعها قبل أن يستأذنه، ولأن الاتفاق لم ينص على إعادة العشائر النجدية النازحة إلى العراق وهي الظفير والعمارات وبعض الشمريين طبقاً للتعليمات الصادرة إلى مندوبه أحمد ابن ثنيان. أما بالنسبة لحدود نجد مع إمارة شرقي الأردن فقد تحرك الإخوان في حزيران عام١٩٢٢م باتجاهها فاستولوا على واحة الجوف ثم على تيماء وتبوك وأرغموا أهلها على دفع الزكاة للرياض، ثم تابع الإخوان زحفهم نحو وادي السرحان، وقد أبدى "نوري الشعلان، "شيخ الرولة" ميلاً إلى ضم إمارته إلى إمارة شرقي الأردن وفقاً لرغبة الإنجليز. إلا أن ابن سعود طالب بمنطقة الرولة لأنها جزء من إمارة شمر التي آلت إليه، وعّد الاستيلاء على وادي السرحان أمراً مهماً. ومع تقدم الإخوان نحو وادي السرحان أصبحوا على مقربة من حدود سورية وأخذوا يهددون بقطع ممر الارتباط المباشر بين المناطق الواقعة تحت النفوذ البريطاني، وأدرك كوكس أن من الضرورة القصوى وضع حدود ثابتة بين جميع المناطق الواقعة تحت النفوذ البريطاني وتسوية كل قضايا الحدود المعلقة بين نجد والمناطق المجاورة، لأن بريطانيا باتت في ذلك الوقت تخشى من توسع نفوذ عبد العزيز آل سعود وعدم القدرة على كبحه. لذلك لجأت إلى الحل الضاغط وعلى هذا الأساس قرر كوكس إجراء لقاء شخصي مع عبد العزيز في٢١ تشرين الثاني عام١٩٢٢م وهو ما عرف بلقاء العقير(٥٧). واستمر اللقاء ستة أيام تخللته جلسات سرية بين ابن سعود والمندوب برسي كوكس، وأخرى علنية، اشترك فيها سعيد الدملوجي ممثلاً عن حكومة نجد وصبيح نشأة عن الجانب العراقي.

أدرك عبد العزيز آل سعود في لقاء العقير أنه مطوق من جميع الجهات بعدد من الدويلات التي خلقتها بريطانيا. ولكن ذلك لم يمنعه من المطالبة بحدود عشائرية تمتد على المساحة الجغرافية التي تنتشر فيها تلك القبائل وأصر على أن قبيلة الظفير هي قبيلة تقطن العراق وهي له لذلك رأي من الضروري أن تمتد حدوده إلى الفرات، إلا أن برسي كوكس، حسب رواية ديكسون وكيل المندوب السامي في العراق وأحد المشاركين في لقاء العقير، رفض طلب عبد العزيز موضحاً صعوبة وضع نظام للآبار والمراعي التي تمتلكها كل قبيلة(٥٨)

وتشير المصادر إلى أن برسي كوكس استخدم أسلوب الضغط المباشر على عبد العزيز لإرغامه على قبول رسم الحدود بين نجد وما جاورها، وفق مارسمته بريطانيا ومصالحها مع مختلف الأطراف الخاضعة لنفوذها. وفي كانون أول عام١٩٢٢م وضعت بروتوكولات العقير التي عدت كملاحق لمعاهدة المحمرة فقد نص البروتوكول الأول(٥٩) على رسم الحدود النهائية بين العراق ونجد ورسم المنطقة المحايدة التي يحق للقبائل العراقية والنجدية أن تستخدمها للرعي وكيفية الاستفادة من الآبار شريطة عدم استخدام مصادر المياه لأغراض حربية. كما نص البروتوكول الثاني(٦٠) على أن لأي قبيلة تروم أن تكون تحت رعاية حكومة أخرى الحق في ذلك. كما تم التوصل إلى اتفاقية بين نجد والكويت وقعها عن الجانب السعودي سعيد الدملوجي، وعن الجانب الكويتي الميجور مور نيابة عن شيخ الكويت، نصت على مايلي:

أ. تعيين الحدود لمقاطعة الكويت.

ب. تعيين حدود المنطقة المحايدة بين حدود الكويت الجنوبية وحدود الأحساء الشمالية

ج. الاتفاق على أن يمارس كل من حاكمي نجد والكويت حقوقاً متساوية في الإقليم المحايد. وفي حالة اكتشاف النفط يقتسم دخله مناصفةً(٦١).

والخلاصة: فإنه يمكن القول: إن بريطانيا استطاعت في لقاء العقير أن تملي إرادتها في الجزيرة العربية، ولكن عبد العزيز آل سعود استطاع بدوره تحقيق الكثير من مطالبه، بخاصة أنه كان يفكر حينذاك بتجهيز حملة على غرب الجزيرة، وأصبح بوسع كوكس أن يلمح له بعدم ممانعة بريطانية في استيلائه على الحجاز، من المعروف أنه في لقاء العقير لم يتم التوصل إلى اتفاق حول الحدود مع شرقي الأردن، وفي عام١٩٢٣م زحفت كتيبة من القوات الأردنية واحتلت الكاف.

ويذكر أن نوري بن الشعلان هو الذي شجع الحكومة الأردنية على احتلال منطقة قريات الملح ومن ضمنها الكاف(٦٢). ولكن القوات الأردنية سحبت تلك القوات منها لحاجتها إليها في توطيد الأمن في الداخل، ولكن أبقت خمسين جندياً في الكاف. واحتج ابن سعود على هذه التدابير، وأخذ يهدد

باحتلال قريات الملح وابعاد القوات الأردنية عنها. فسارعت بريطانيا إلى دعوة ابن سعود وممثلي الحكومتين العراقية والأردنية إلى تسوية الحدود بينهما وذلك في المؤتمر الذي عقد في الكويت في١٧كانون الأول١٩٢٣م برئاسة الكولونيل نوكس المعتمد البريطاني بالخليج، وحضر مندوبون عن شرقي الأردن ونجد والعراق. واقتصرت مطالب شرقي الأردن والنجديين على منع الغزو بين القبائل وأن ينظم الانتقال بين البلدين حسب الأصول الدولية وأن تدفع الحكومة النجدية تعويضات عن الخسائر التي لحقت بشرقي الأردن في أثناء هجوم الوهابيين عام١٩٢٢م، ورفض المندوب النجدي هذه المطالب، وانفض المؤتمر دون الوصول إلى نتيجة[٦٣]. إذن في مؤتمر العقير حددت الحدود بين السعودية وجاراتها الكويت والعراق وشرقي الأردن. أما بالنسبة للحدود مع إمارات الساحل العماني وعمان فقد اكتسبت المسألة حدة وخاصة في مطلع الأربعينيات عندما بدأ البحث عن النفط وهذا أدى إلى تصدع العلاقات بين بريطانيا والسعودية حول واحات البوريمي وادعاء كل من أبو ظبي وسلطنة مسقط ملكيتها، والسعودية ادعت أنها تابعة لها وهذا ما سوف تناوله تفصيلياً في الفصول القادمة.

٣- الاستيلاء على شمال عسير١٩٢٣م:

كانت عسير أول ولاية عربية اشتركت في الحرب العالمية الأولى بجانب الحلفاء، عندما توصل محمد بن علي الإدريسي إلى عقد معاهدة مع المقيم البريطاني في عدن في أيار١٩١٥م أعلن فيها الادريسي عن وقوفه إلى جانب الحلفاء ضد العثمانيين. وتأتي أهمية هذه المعاهدة بالنسبة لبريطانية من خلال الدور الذي أوكل إلى الإدريسي وهو تعطيل خطوط المواصلات العثمانية بين الحجاز واليمن، الأمر الذي يهدد مؤخرة الجيش العثماني في حال الهجوم على عدن. كما تجلت أهمية الإدريسي بالنسبة للحلفاء خلال الحرب في سيطرته على منطقة ساحلية مكنته من الحيلولة دون استعمال العثمانيين لشواطئ عسير كقاعدة بحرية[٦٤]. وعلى إثر وفاة محمد الإدريسي في(١٣٤١ هـ/١٩٢٣م) حل محله ولده علي بن محمد الإدريسي، فوقعت الأسرة الإدريسية في فوضى المنازعات الشخصية. لذا حاول الشريف حسين والإمام يحيى أن يوسع كل منها

منطقته على حساب الأدارسة، فلم ينجح الشريف حسين في محاولاته استنهاض بني شهر من سكان أبها، ليكونوا وآل عائض يداً واحدة على ابن سعود مقابل مدهم بالمال والسلاح، بخاصة بعد أن تمكن الأمير فيصل بن عبد العزيز من فتح أبها وإلحاق الهزيمة بالقوة التي أرسلها الشريف حسين في تهامة في أوائل عام١٩٢٣م. وفي ربيع الأول من سنة(١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) وبعد أن دخلت قوات عبد العزيز مكة ظافرة وظلت أكثر من سنة وهي تطارد قوات الأشراف لإجلائهم عن الحجاز انتهز الإمام يحيى هذه الفرصة لبسط سيطرته على إمارة عسير التي كانت تحت الحماية السعودية منذ عام١٩٢٠م فاحتل الحديدة وتابع زحفه شمالاً حتى وصل ميدي، فلما وجد الأدارسة ماحل بهم عزلوا علي الإدريسي وولوا مكانه عمه الحسن الإدريسي الذي سارع إلى طلب النجدة من عبد العزيز آل سعود، ووافق كل من الملك عبد العزيز آل سعود والحسن بن علي الإدريسي على عقد معاهدة مكة في(٢١تشرين الثاني١٩٢٦م)، وبذلك يكون عبد العزيز قد بسط حمايته على القسم الذي يحكمه الأدارسة في تهامة[٦٥].

٤- بسط السيطرة على الحجاز عام ١٩٢٤-١٩٢٥م:

كانت علاقات الحسين قد ساءت مع بريطانيا عندما رفض إقرار معاهدة فرساي والمصادقة عليها والمتضمنة الانتداب البريطاني على فلسطين وتسليم سورية للفرنسيين[٦٦]. وقد حاولت بريطانيا عقد معاهدة عسكرية مع الحسين عام١٩٢٢م، مقابل إعانات مادية من بريطانيا على أن يعترف لها الحسين بمصالح في الحجاز، ولكنه رفض ذلك حرصاً منه على المصالح القومية، وظل الحسين يطالب الحكومة البريطانية بتنفيذ الوعود التي قطعتها على نفسها خلال الحرب، لكنه لم يحصل على أي رد. ومع إلغاء الخلافة الإسلامية عام١٩٢٤م استغل الشريف حسين الفرصة لإشغال هذا المنصب وأعلن نفسه خليفة في(١٤آذار١٩٢٤م)، وقد عدّت هذه الخطوة من جانب الشريف تحدياً لطموحات ابن سعود في السيطرة على الحجاز والجزيرة العربية كلها من جهة، ومن جهة ثانية. خشيت بريطانية فقدان سيطرتها على ملك الحجاز الذي تعدّه خصماً محتملاً بعد أن ساءت العلاقات معه، وقد يعيق إحكام سيطرتها

الاستعمارية على الشرق الأوسط في حال سيطرته على المسلمين في المنطقة. وظل ابن سعود يراقب الأوضاع ويتحين الفرص، وحين أيقن أن الاستياء البريطاني من الحسين قد وصل مداه بسبب موقف الأخير من قضية فلسطين. قرر غزو الحجاز. في تموز عام١٩٢٤م، وفي أثناء قدوم رؤساء الإخوان للسلام على ابن سعود بمناسبة عيد الأضحى، عرض عليهم فكرة غزو الحجاز، ولقي القرار ارتياحاً وقبولاً في نفوسهم خاصةً أن ابن سعود أدخل لهم فكرة تطهير بيت الله من سلطة الشريف حسين الذي أساء معاملة الحجاج المسلمين وفرض عليهم الضرائب، مع عدم العناية اللازمة براحتهم وأمنهم. بالإضافة إلى إغراء الإخوان بالمكاسب والأموال التي سيحصلون عليها. ورأى ابن سعود أن الفرصة أصبحت مهيأة لإنزال ضربته بالشريف حسين. لذا قرر أن يبدأ بالطائف قرب مكة فتقدمت قواته بقيادة سلطان بن بجاد وابن لؤي فاستولت عليها (صباح ٧صفر١٣٤٣هـ/٥أيلول١٩٢٤م) واستباحتها لمدة ثلاثة أيام[٦٧]. ورافق الاحتلال أعمال القتل والسلب والتشريد على يد الإخوان[٦٨]، مما أحدث ردة فعل قوية في الجزيرة العربية كلها. وأجبر هذا عبد العزيز في(٢٢أيلول) على إصدار أمر يحذر فيه البطش والسلب ويعلن الحفاظ على أموال أهل الحجاز ودمائهم. وأصبح وضع الحسين ميؤوسا منه ولم تجد توسلاته لدى الحكومة البريطانية للتدخل من أجل وقف ابن سعود كما فعلت في أثناء معركة تربة، وحجة بريطانيا كانت أن الخلافات بينهما تعود لأسباب دينية، وقد يفسر عزوف بريطانية عن التدخل إلى رغبتها في دمج الإمارات المتعددة لتصبح السيطرة البريطانية أسهل منالاً على دولة واحدة تحت قيادة أحد أكبر مؤيديها. في هذه الأثناء اجتمع أعيان الحجاز، ومنهم أشراف مكة وعلماء الدين وكبار التجار في جدة، وقرروا خلع الحسين لعلّ ذلك يرضي ابن سعود ويوقف زحفه المتزايد على الحجاز ولم يكن أمام الشريف من مخرج سوى القبول بما قرره ذلك الاجتماع، وتم تنصيب علي ابن الشريف حسين ملكاً على الحجاز في (٦تشرين الأول عام١٩٢٤م)[٦٩]. وبعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ تم الإعلان عن قيام الحزب الوطني الحجازي الذي ضم في ذلك الحين أبرز وجهاء الحجاز كمحاولة أخيرة لإنقاذ الحكم الهاشمي في الحجاز. وقامت قيادة الحزب الوطني

بتوجيه كتاب إلى ابن سعود تناشده فيه المروءة والإسلام على أن يترك الحجاز لأهله الذين لا دخل لهم في الخلاف بينه وبين الحسين، إلا أن آمال الحزب الوطني المعقودة على ترضية ابن سعود باءت بالإخفاق، حين أصر ابن سعود على ضرورة مغادرة الملك جدة، وفي الوقت ذاته كانت قوات عبد العزيز تتقدم من مكة مما اضطر الملك إلى الانسحاب إلى جدة. وفي تشرين أول عام١٩٢٤م دخلت قوات عبد العزيز مكة[٧٠]. والجدير بالذكر أن عبد العزيز نفسه كان قد تريث في دخول مكة بهدف الوقوف على رأي بريطانيا وعندما تأكد أن بريطانيا لا تمانع في ذلك تابع تقدمه. ولم تجد محاولات الحزب الوطني إجراء مفاوضات مباشرة مع ابن سعود لأن الأخير كان يهدف إلى بسط سيطرته على الحجاز بأكمله. وفي(٥كانون الأول عام١٩٢٤م) دخل ابن سعود مكة، وأعلن برنامجه وهو تطهير البلاد المقدسة وجعل الامر في البلاد المقدسة شورى بين المسلمين وكتاب الله هو مصدر التشريع. وقد حصل ابن سعود على تأكيد لحياد الدول الأجنبية عبر قناصل تلك الدول، وهو أقصى ما كان يتمناه. وبعد أن قامت طائرة بإلقاء مناشير فوق مكة أرسلها الملك علي أعلن فيها عن اعتزامه استرداد المدينة، جهز ابن سعود الإخوان وبدأ حصار جدة واستمر الحصار ما ينوف عن السنة بذل خلاله الملك ما كان يستطيع وأنفق جميع ما كان يدّخر. وتشير بعض المصادر إلى وصول أساطيل فرنسا وبريطانيا إلى جدة خلال فترة الحصار، ليس بهدف مساعدة الملك علي أو بث الطمأنينة في قلوب أهل جدة، وإنما كان إنذاراً للوهابيين بعدم التعرض لرعايا تلك الدول[٧١]. وربما كان سبب تقاعس الأمير عبد الله والملك فيصل عن مساندة أخيهما في جدة خشيتهما على منصبيهما أو إدراكهما مدى مساندة بريطانيا لابن سعود التي عملت كل ما في وسعها لتضمن له النصر الأكبر. في(تشرين الأول عام١٩٢٥م) وصل الكولونيل جلبرت كلايتونGlayton المندوب المفوض من قبل الحكومة البريطانية والمخول بأن ينوب عن الحكومة العراقية في الاتفاق والتوقيع إلى مقر عبد العزيز في الحجاز. وأبدى الأخير قدراً كبيراً من الاعتدال والمرونة وحسن تقدير للأمور فمقابل اعتراف بريطانيا بضم الحجاز إليه وافق على ضم العقبة ومعان إلى إمارة شرقي الأردن بعد أن أصرت بريطانيا على

وجوب ضمهما، فالعقبة هي المنفذ الوحيد لشرقي الأردن. أما معان فأهمية ضمها لا تقل عن أهمية ضم العقبة إذ إنها تقع على سكة حديد الحجاز، وهذا يكسبها أهمية خاصة للمصالح البريطانية. وتمخض عن ذلك اللقاء اتفاقيتي بحرة وحدّه[٧٢] بين بريطانيا وعبد العزيز في(١و٢ تشرين الثاني عام١٩٢٥م)، ونظمت اتفاقية بحره الحدود بين العراق ونجد ونصت على أن إغارة العشائر القاطنة في أراضي أي من الدولتين على أراضي الدولة الأخرى يعد اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه من قبل الحكومة التابعة لها. كذلك نصت على تأليف محكمة خاصة من ممثلي الحكومتين للنظر في تفاصيل أي تعد يقع وراء حدود كل من الدولتين، ومن حق العشائر عبور الحدود بقصد الرعي بعد الحصول على إذن بذلك[٧٣]. أما في اتفاقية حدّه فقد ثبتت الحدود ما بين نجد وشرقي الأردن، وتنازل بموجبها ابن سعود لشرقي الأردن عن الممر الذي يربطه بالعراق. وتضمنت الاتفاقية نصوصاً مماثلة لاتفاقية بحره بشأن غزو الأراضي، والمحكمة المختصة بالنظر بتفاصيل الدعاوي المتعلقة لذلك وعن رخص المراعي كما منعت الاتفاقية من استغلال الدعاية الدينية لكل بلد ضد الآخر[٧٤]. عندما عرف الملك علي مضمون اتفاقيتي بحره وحدّه أدرك أن أيام حكمه أصبحت معدودة خصوصاً بعد أن رفض كلايتون مساندته. لذا قرر الاستسلام. وفي مساء الثلاثاء (٢٩جمادى الأولى١٣٤٤هـ/١٦كانون الأول ١٩٢٥م) جاء إلى دار المعتمد البريطاني جوردن Jordan في جدة يطلب منه بذل الوساطة لدى ابن سعود للتسليم. وأبرق المعتمد إلى حكومته يستأذنها في أداء المهمة، فردت بالموافقة، فأرسل المعتمد إلى ابن سعود في مقر قيادته كتاباً بأنه يرغب بمقابلته. وجرت مقابلة المعتمد جوردن مع ابن سعود، وتم التسليم وفق الشروط التالية: تعهد الملك علي بتسليم جميع الأسرى، وكذلك تعهد ابن سعود ببقاء موظفي الحكومة الملكيين في مراكزهم، بالإضافة إلى السماح للملك علي باصطحاب جميع أمتعته الشخصية وسيارته على أن يبرح الحجاز خلال فترة قصيرة[٧٥]. واستسلمت جدة في(٢٢كانون الأول ١٩٢٥م). وغادر الملك علي البلاد ليعيش لاجئاً في بلاط أخيه. وكانت المدينة المنورة قد استسلمت في٦كانون الأول ١٩٢٥م ودخلها محمد بن عبد العزيز[٧٦].بعد ذلك قام أشراف

وعلماء وأعيان جدة بمبايعة عبد العزيز آل سعود ملكاً على الحجاز وتقبل البيعة منهم وأصبح يعرف ابن سعود بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بدءاً من كانون الثاني١٩٢٧م. وإثر مبايعة ابن سعود ملكاً على الحجاز انعقد مؤتمر إسلامي كبير بالهند وشكل بعثة إسلامية توجهت إلى الحجاز وطالبت عبد العزيز بأن تتولى لجنة تمثل الإشراف على الأماكن المقدسة، إلا أن ابن سعود ضاق ذرعاً بمطالب اللجنة وأمرها بالمغادرة على باخرة تنقلها إلى الهند، وكي لا يظهر عبد العزيز بمظهر المعادي لمشاعر المسلمين تجاه الأماكن المقدسة دعا في عام ١٩٢٦م إلى عقد مؤتمر إسلامي بمكة في شهر حزيران، وأراد من وراء ذلك إضفاء صفة شرعية على ضم الحجاز إليه وتوجه ابن سعود برسائل الدعوة إلى عاهلي مصر وأفغانستان وإلى الرئيس التركي وملك العراق وإمام اليمن وإلى المجلس الأعلى الإسلامي في القدس ورئيس جمعية الخلافة في بومباي وإلى سائر الحكومات الإسلامية يدعوهم إلى حضور المؤتمر ويعاهدهم بأنه سيرعى الأماكن المقدسة على أفضل وجه وتأمين أفضل الظروف للحجاج. شارك في المؤتمر الإسلامي تسعة وستون مندوباً من مختلف الدول الإسلامية، واستطاع ابن سعود إقناع المؤتمرين أنه أصبح سيد الحجاز القوي ولن يقبل بأي تدخل في شؤونه الداخلية، وقد خلق ذلك استياء لدى بعض المندوبين من "الهند" عبّروا عنه بمغادرة المؤتمر، لكنهم لم يستطيعوا تغيير أي شيء، وأما الذين بقوا فقد أقروا بالأمر الواقع. وجرى بذلك الاعتراف بابن سعود إماماً وحامياً للحرمين.

سابعاً: معاهدة جدّة ١٩٢٧م وتسوية العلاقة مع بريطانيا:

بعد أن أصبح عبد العزيز ملكاً على الحجاز ونجد وملحقاتها عام١٩٢٧م، رأت بريطانيا ضرورة التوصل إلى اتفاق جديد مع ابن سعود يأخذ في الحسبان المتغيرات الجديدة في الجزيرة العربية والموقع المهم الذي تبوأه ابن سعود في المنطقة. وعلى هذا الأساس قام المندوب المفوض من قبل الحكومة البريطانية جلبرت كلايتون في شهر أيار١٩٢٧م، بإجراء مفاوضات مع عبد العزيز في جدة انتهت بالتوصل إلى عقد معاهدة صداقة وحسن جوار في ٢٠ منه وألغيت بموجبها معاهدة العقير "دارين". وأكدت الاتفاقية على التزام الطرفين

بمنع استعمال بلديهما كقاعدة للأعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلام والسكينة في بلاد الفريق الآخر، كما اعترفت بريطانيا نهائياً باستقلال ممتلكات ابن سعود ورفعت القيود المفروضة على علاقاته الخارجية[٧٧]. وتضمنت معاهدة جدة تعهد ابن سعود بمواصلة احترام السلامة الإقليمية لإمارات شرقي الجزيرة العربية الواقعة تحت الحماية البريطانية وتعهد بالتعاون مع بريطانيا في سبيل القضاء على الاتجار بالرقيق. وعقب توقيع المعاهدة توالى اعتراف الدول بابن سعود ملكاً على الحجاز ونجد وملحقاتهما[٧٨] وبعد أن توطدت أركان الدولة أصدر ابن سعود مرسوماً ملكياً بتوحيد أجزاء الملكة في(٢٨جمادى الأول١٣٥٠هـ/١٨أيلول١٩٣٢م) وأصبحت تسميتها المملكة العربية السعودية وذلك ابتداء من(٢٢أيلول/١٩٣٢م). وأصبح لقب رئيس الدولة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية وهكذا تكون المملكة العربية السعودية أول دولة عربية في العصر الحديث تنال استقلالها وتقيم علاقات خارجية على أسس عصرية حديثة. ولأول مرة، بعد أن تم تحقيق وحدة الجزيرة العربية عرفت تلك المساحات الشاسعة وتلك القبائل الكثيرة المتنافرة حكومة مركزية واحدة.

ثامناً: سياسة عبد العزيز آل سعود الداخلية ١٩٣٢-١٩٥٣:

رغم أن السلطة الفعلية كلها تركّزت بيد الملك وحاشيته فقد شُكِّل بلاط ملكي يتألف من: (١) المجلس الخاص الذي كان يحضره الملك والوزراء والمستشارون وكبار العلماء. (٢) الشعبة السياسية واختصت بالشؤون الخارجية. (٣) الديوان الملكي واختص بالشؤون الداخلية. (٤) شعبة البرقيات. (٥) شعبة البادية. (٦)شعبة المحاسبات والأعطيات. (٧) شعبة الوفود والضيافة. (٨) شؤون القصر الملكي. (٩) شعبة أهل الجهاد. (١٠) شعبة الخزينة الخاصة.(١١) شعبة الخيل. (١٢) شعبة الإبل. (١٣) شعبة السيارات. (١٤) شعبة الإذاعة. (١٥) شعبة الحرس الملكي. (١٦) الشعبة الصحية.

ومع كل هذا النظام والتشعيب إلا أن كلمة الملك عبد العزيز آل سعود كانت هي الكلمة الفاصلة في كل القضايا. ولقد راودت ابن سعود فكرة تأسيس جيش نظامي. وعرض على الضباط الهاشميين الانتقال للخدمة لديه وشكل من بينهم الوحدات النظامية. ثم استقدم ضباطاً من سورية والعراق للعمل في الدائرة

العسكرية[٧٩]. ونظم الجيش على شكل كتائب وألوية ثم افتتحت مدرسة عسكرية في الطائف وتم توحيد الزي العسكري وشارات الرتب. وفي عام ١٩٣٥ أسست وكالة الدفاع وفي عام ١٩٤٦ أنشئت وزارة الدفاع. كما اهتم الملك بأمور الطيران، وأرسل عشرة شبان إلى إيطاليا لتعلم الطيران وبعد عودتهم تم شراء عدد من الطائرات وبعدها أنشئت في الطائف مدرسة للطيران وتلاها إنشاء أربع مدارس لتعليم الهاتف اللاسلكي في مكة وجدة والمدينة والرياض. وحاول عبد العزيز آل سعود توطيد علاقاته بالدول الأخرى فأدرك أن مديرية الشؤون الخارجية هي الأداة التي تستعين بها الدول في إدارة وتوجيه علاقاتها بالدول الأخرى وبالمنظمات الدولية في تنفيذ سياستها الخارجية. وأخذ ابن سعود يطور علاقاته مع بريطانيا وإيطاليا وسويسرا وألمانيا وتركيا والعراق والكويت وبقية الدول العربية فطور علاقاته من معتمديه إلى مفوضية ثم إلى السفارات. وأقام علاقاته على أسس عصرية حديثة بعد أن وحد الجزيرة وعرفت الأمن والنظام. وساء وضع عبد العزيز الصحي في أواخر أيامه فلم يعد يستطيع التنقل إلا على كرسي نقال لكن أشد ما كان يخشاه هو حدوث تنافس بين ولديه الكبيرين سعود وفيصل فإنه طلب منهما قبيل وفاته أن يقسمان على أن لا يتقاتلا وكان يذكر ماحل بأبيه وأعمامه بعد وفاة جده فيصل بن تركي فخاف أن يؤدي الشقاق إلى تقسيم مملكته. توفي عبد العزيز في ٩تشرين الثاني ١٩٥٣ في الطائف. وأقسم زهاء مائة أمير اجتمعوا عند جثمانه يمين الولاء لسعود الذي بايعوه ملكاً. ولفيصل ولياً للعهد. ونقل جثمان ابن سعود جواً إلى الرياض حيث دفن وفق التقاليد الوهابية دون شاهد أو ضريح.

تاسعاً: الصراع على السلطة بين الملك سعود وولي العهد فيصل:

منذ أن تسلم سعود مقاليد الحكم أعلن عن تمسكه بأصول الدين وأن خطته ستسير على خطى والده وأن مهمات حكومته تعزيز الجيش ومكافحته الفقر والجوع والمرض وتأسيس وزارات للمعارف والزراعة مشيراً إلى الرغبة في إجراء التحديث والتطوير مع الالتزام بالتقاليد ومراعاتها. لكن ما لبثت المملكة أن تعرضت إلى أزمات مالية بسبب إفراط الملك وحاشيته في تبذير الأموال وانخفاض عوائد النفط. ثم قامت اضطرابات عمالية في المنطقة الشرقية "الأحساء" وبدأت أمارات التذمر بين الموظفين والمثقفين حتى إن عدداً من كبار آل سعود وكبار العلماء باتوا

مقتنعين بضرورة تنحية سعود ومبايعة ولي عهده فيصل واستنجد سعود بالأمريكان. وفي٢٤آذار١٩٥٨م قام فيصل بجمع الأنصار من حوله وقدموا إنذاراً إلى الملك سعود كي يسلم السلطة لفيصل لكن سعود حاول الاستنجاد بالأمريكان[٨٠]لكنه لم يلق الدعم منهم ثم ما لبث أن رضخ سعود للأمر الواقع. وتسلم فيصل مقاليد السلطة وألقى خطاباً في ١٨ نيسان ١٩٥٨ أعرب فيه عن سياسته الخارجية وأن بلاده على استعداد لإقامة علاقات صداقة من كل دولة لا تعادي الحكومة السعودية ثم أصدر الملك فيصل مرسوماً يبين فيه صلاحيات مجلس الوزراء وصلاحيات الملك، فقد منح رئيس مجلس الوزراء السلطة الإدارية أما السلطة السياسية فهي بيد الملك. وطرح المرسوم مهمة تنظيم المالية ومكافحة الرشوة. لكن سعوداً لم يلق سلاحه بتنازله عن السلطة بل ظل دائماً يحاول التقرب من علماء الدين. وفي٢١كانون الأول١٩٦٠م قدم فيصل استقالته ووافق سعود على ذلك وشكلت حكومة جديدة وعاد سعود إلى السلطة مجدداً. وكانت سياسته مناوئة للغرب لأن أمريكا تساند إسرائيل ولم يسمح بتجديد القاعدة الجوية الأمريكية في الظهران وبالفعل سلمت أمريكا القاعدة إلى السعودية عام ١٩٦٢ وأصبحت القاعدة من أكبر المطارات في العالم. لكن الصراع ما لبث أن عاد مجدداً بين الأخوين سعود وفيصل. وبسبب تدهور صحة سعود اضطر لتعيين فيصل رئيساً للحكومة وشكل فيصل الحكومة في ٣١ تشرين الأول عام ١٩٦٢ وطرح برنامجاً من عشرة بنود[٨١] منها أهمية وضع نظام أساسي للحكم مستمد من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة خلفائه الراشدين وكذلك أشار برنامج الحكومة لمسألة نظام الإدارة المحلية وأن يكون للقضاء حرمته وأن تقوم بكل جدٍ لنشر دعوة الإسلام وتثبيت دعائمه و"إصلاح وضع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكذلك النهوض بالمستوى الاجتماعي للأمة والاهتمام بالتطور الاقتصادي والتجاري والانتعاش المالي". وبعدها أخذ فيصل عهداً للإطاحة بأخيه فغادر جدة متوجهاً إلى الرياض واجتمع مع الأمراء وشيوخ القبائل وعلماء الدين حيث عرضوا على سعود التنازل عن العرش وفي ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٤ اجتمع علماء الدين في منزل مفتي الديار السعودي محمد بن ابراهيم آل الشيخ وبلغ عدد المشاركين زهاء مائة أمير و٦٥ عالماً وصادق مجلس الوزراء في ٢ تشرين الثاني على قرارين:

فتوى العلماء بمبايعة فيصل ملكاً ورسالة وقعها جميع أفراد الأسرة المالكة تبايع فيصل ملكاً وتدين له وبايع الملك الجديد أعضاء مجلس الشورى وممثلو أهم المحافظات وفي ٤ تشرين الثاني ١٩٦٤ أقسم الحرس الوطني يمين الولاء لفيصل لكن سعود لم يؤد يمين الولاء لأخيه حتى عام ١٩٦٥ وغادر البلاد حيث توفي في أثينا عام ١٩٦٩ ونقل جثمانه إلى مقبرة في الرياض ودفن بجوار والده عن سبع وستين سنة. ومنذ أن اعتلى الملك فيصل العرش بدأ بتطوير مؤسسات الدولة وأبرزها استبدال المجلس الأعلى للتخطيط "الهيئة المركزية للتخطيط" وتحولت هذه الهيئة إلى وزارة فيما بعد وكذلك طوّر نظام الحكم فوسع صلاحيات المجلس الوزاري الذي تولى شؤون الدولة الرئيسية وطوّر النظم الإدارية التي شملت المناطق والقطاعات المختلفة وفق نظام مكتوب يحدد الصلاحيات كما يحدد المسؤوليات في القطاع الخاص والعام. واستعان بالأكفاء من السعوديين وأصبحت الوظائف الحساسة في القطاع الخاص والعام للسعوديين على أن يستعين بغيرهم في المشاريع الإنشائية الجديدة. وبالنسبة للجيش فقد قوى الملك فيصل الجيش وزوده بأسلحة متطورة إضافة إلى الاهتمام بالتنمية الاجتماعية والصحية. أما بالنسبة لعلاقات المملكة خلال حكم الملك فيصل فأبرزها مع الولايات المتحدة الأمريكية لكن العلاقات مع بلدان أوربا الغربية واليابان فكانت علاقات ودية أما علاقاته فكانت بعيدة مع الاتحاد السوفيتي. وبالنسبة لعلاقات المملكة مع الدول العربية فكانت علاقات دائماً وطيدة وجيدة بخاصة أن المملكة لم تكن بعيدة عن القضايا العربية وخاصة قضية فلسطين والتأكيد على عروبتها فقد قدمت السعودية الدعم للشعب الفلسطيني ولمنظمة التحرير الفلسطينية. وهكذا نلاحظ مما تقدم أن فيصل ورث دولة موحدة فكان عليه استكمال وتطوير ما بدأه والده عبد العزيز من الإصلاحات لأن حكم سعود كان يمثل فترة انتقالية لكن عهد فيصل اتسم بدخول المملكة إلى واجهة الدول الكبرى وأخذت تلعب دوراً مؤثراً في الأحداث العربية والعالمية.

عاشراً: النفط وآثاره في تطور المملكة العربية السعودية:

لقد نتج عن اكتشاف النفط وتصديره بكميات تجارية تحويل ثقل السعودية الاقتصادي من البحر الأحمر حيث موارد الحج إلى الخليج حيث موارد النفط.

ولقد طرأ تطور كبير على السعودية منذ انتاج حقول الظهران للنفط واكتشاف حقول أخرى في الدمام والقطيف[٨٢] وازدادت عوائد السعودية من البترول ما بين(١٩٣٨-١٩٧٣م)، أكثر من ثمانية آلاف وخمسمائة مرة، في عام١٩٣٨م كان الدخل نصف مليون دولار ارتفع إلى ٤,٣ مليار دولار عام١٩٧٣م. وحتى عام١٩٤٥م لم تكن الحكومة السعودية تتلقى من عائدات النفط أكثر من خمسة ملايين دولار سنوياً من شركة آرامكو لكن العائدات تضاعفت حتى وصلت إلى٥٥مليون دولار عام(١٩٤٩م). وشهدت فترة الخمسينات من هذا القرن توسعاً هائلاً في العمليات التنقيبية وبناء خطوط الأنابيب ما بين حقول السعودية في الدمام وغيرها إلى موانئ البحر المتوسط: ويعد خط التابلاين الممتد على مساحة ١٧٢٠كم^{2} من أكبر المشروعات البترولية التي حققتها رؤوس الأموال الأمريكية، وما بين(١٩٥٠-١٩٥٢م) كانت السعودية تحتل المكانة الأولى بين دول الشرق الأدنى والأوسط المصدرة للنفط. وبالنسبة لعوائد البترول كان يخصص الجزء الأكبر منها لينفق على الأغراض الاستهلاكية وبقيت خزينة الدولة في السعودية حتى الخمسينات هي نفسها خزينة الملك الخاصة ولم تعرف السعودية نظاماً مالياً موحداً حتى عام١٩٥٢م فكان هناك الريال السعودي والجنيه الذهبي الإنجليزي والروبية الهندية، وبقيت الجمعية التجارية الهولندية هي البنك الرئيس للسعودية ما بين(١٩٢٦-١٩٥٢م) عندما بدأ عمل البنك الفرنسي ثم البنك العربي ومصرف الشرق الأوسط البريطاني. ومع التعديل الذي حصل في عقود الامتياز الذي أعطى السعودية نصف الأرباح من البترول وهي أول دولة عربية حصلت على نصف الأرباح افتتحت ثلاثة مصارف وطنية المصرف التجاري الوطني ومقره جدة ومصرف الرياض ومصرف التسليف الزراعي. ومع نهاية عام١٩٧٤م بلغ عدد المصارف ١٢مصرفاً لها ٧٢فرعاً إضافة إلى ١٠مصارف أجنبية ويمكن القول أن معظم مداخل الدولة واقتصادها ما يزال قائماً على استخراج البترول وتصديره. وقد أوجدت صناعة النفط طبقة عاملة في السعودية لا تزيد عن ٤٠ألف عامل وتتجمع هذه الطبقة في المنطقة الشرقية من المملكة وكانت خطة أرامكو صرف أجور لهؤلاء العمال وإبعادهم عن سلك الحركات السياسية. لكن الوعي العمالي أثبت وجوده فقد أثبتت لجنة العمال في الظهران عام١٩٥٣م وجودها عندما طالبت برفع

مستوى المعيشة وإدخال تحسينات في وسائل النقل والمواصلات وطالبت بإسكان جيد والإكثار من بناء المدارس. كما طالبت بإنشاء نقابة عمالية وبالفعل قامت شركة أرامكو بإدخال بعض الإصلاحات الاجتماعية للعمال. وفي عام(١٩٥٦م) قام العمال بإضراب حمل شعارات قومية عربية ويرجع ذلك إلى التطورات القومية التي حدثت في العالم العربي ما بين(١٩٥٢-١٩٥٩م) بما في ذلك مقاومة حلف بغداد ووقوع العدوان الثلاثي على مصر[٨٣] وأثّر هذا العدوان على السعودية حيث بادرت إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا وفرضت حظراً على النفط المصدر إلى بريطانيا وفرنسا. أما بالنسبة للصناعة فقد بقي الإنتاج الوطني الصناعي حتى مطلع الستينات مقتصراً على الضروريات التقليدية وهي من عمل الحرفيين ثم أخذت المعامل الصغيرة في المنطقة الشرقية بإنتاج القناني والمرطبات وورش لأثاث المنازل وحتى عام١٩٦٠م لم يكن في السعودية صناعة وطنية متطورة. لكن في عام١٩٦١م أنشئت الهيئة العليا للتخطيط التي وضعت سياسة التنمية الاقتصادية بالتنسيق مع الوزارات كافة. وفي عام١٩٦٤م صدر مرسوم لحماية الصناعة المحلية فألغيت الرسوم المفروضة على الاستيراد والمعدات ثم عدل اسم وزارة التجارة إلى وزارة التجارة والصناعة وكلفت بوضع تدابير لحماية الصناعة الوطنية وتقديم التسهيلات للرأسمال الوطني لاستيراد معدات صناعية ولقد سهل مرسوم حماية الصناعة الوطنية إنشاء ١٨٨شركة واستثمرت أكبر الرساميل في قطاع البناء. أخذت المعامل بالظهور مثل معامل الثقاب والصابون والحلويات والمواد الغذائية وتلاها إنشاء ورشات الميكانيك لتصليح السيارات. وكذلك أولت الدولة تعمير المدن وإنارتها بالكهرباء وتوفير الخدمات الصحية اهتماماً كبيراً إضافة إلى التشجير. وعلاوة على وجود البترول وهو عماد الاقتصاد السعودي فقد اكتشفت كذلك ثروات طبيعية أخرى مثل الجبس والنحاس والملح الحجري والفضة والذهب لكن استثمار هذه الثروات تأخر قليلاً. في عام١٩٦٤م أنشئت وزارة التنمية الزراعية وشرعت بإقامة مراكز زراعية في جيزان والمدينة والقصيم والرياض والهفوف وأخذت الدولة تهتم بالزراعة فنلاحظ التحول الكبير من الزراعة التقليدية إلى الزراعة المعتمدة على التكنولوجيا والآلة لكن مع بداية السبعينات طرأ تطور على الإنتاج الزراعي بسبب تدفق المنتجات الزراعية على

السعودية من بلدان ثانية وبسبب هجرة الشباب إلى المدينة للعمل في أجهزة الدولة أو التجارة. ولذلك واجهت الزراعة مشكلات عديدة وبقيت السعودية تستورد ما تحتاجه من الخارج رغم مساهمة الحكومة ببناء السدود وحفر الآبار ولكن مع كل هذا الاهتمام لم تعط الزراعة سوى مردود محدود. أما في مجال التعليم فقد كان يقوم بالتعليم في السعودية هيئات دينية ومدنية وحكومية، ثم أحدثت وزارة المعارف سنة(١٩٥٤م).وكان التعليم مقتصراً على الذكور حتى الستينات عندما افتتحت أول مدرسة لتعليم البنات، ثم ازداد هذا العدد حتى أنشئت وزارة المعارف "الإدارة العامة لتعليم البنات" وهي الهيئة المسؤولة عن استقدام المدرسات العربيات من الخارج، وإعداد البنات السعوديات للتدريس في مختلف المراحل الدراسية. أما في التعليم العالي فقد افتتح أول معهد للتعليم العالي في السعودية سنة(١٩٤٩م) وهو كليّة الحقوق الإسلامية[٨٤]ثم افتتحت جامعة الرياض سنة(١٩٥٧م) وكذلك تضم ثماني كليات، ثم جامعة أم القرى وجامعة جدّة سنة(١٩٦٧م) ثم افتتحت جامعة الملك فيصل في الدمام، وجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران، إلى جانب مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية في الرياض التي تقوم بمهمات البحث العلمي التطبيقي[٨٥]والتعليم بالمراحل كافة غير مختلط. وصدر عام١٩٧٠م برنامج الحكومة حول سياسة التعليم وأكد أن المهمة الأساسية للتعليم هي التعريف بالدين. وهذا التوسع بالتعليم ساعد على ارتفاع المستوى الثقافي والمعارف الإنسانية والعصرية لدى سكان المملكة. إضافة إلى إيفاد أعداد كبيرة من أبناء السعودية للدراسة خارج المملكة مما ساهم في تطور المستوى الثقافي وتحسينه. ونتيجة لما تقدم نلاحظ التغير الذي طرأ على المجتمع السعودي فدخلت الحضارة المادية وتغيّرت أنماط الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والخدمات.

Damascus University

هوامش الفصل الثالث

[1]) داكوبرت فون ميكوش، "عبد العزيز"، ترجمة أمين رويحة، بيروت بدون تاريخ، ص٢٦.

[2]) عمر أبو النصر، سيد الجزيرة العربية ابن سعود، مطبعة الوفاء بيروت، بدون تاريخ، ص٣٨.

[3])ميكوش، المرجع السابق، ص٣٦.

[4]) المرجع نفسه، ص٣٩-٤٧.

[5]) المرجع نفسه، ص٣٦.

[6]) أبو النصر، المرجع السابق، ص٣٨-٣٩.

[7]) الريحاني، تاريخ نجد، ص١٠٨.

[8]) أحمد عبد الغفور عطار، المرجع السابق، ص٢٣٧-٢٣٨

[9]) ابراهيم بن صالح بن عيسى، المرجع السابق، ص٢٠١

[10])فيلبي(١٣٠٢-١٣٨٠هـ/١٨٨٥-١٩٦٠م)، هاري سانت جون فيلبي، مستشرق بريطاني، وأعلن إسلامه في عام١٩٣٠، ووضع كتاباً عن الجزيرة العربية.

[11]) Philpy, (J.B) Arbabia. London 1930, Pp. 171-173.

[12]) Bidwell (Robin) The Affairs Of Kuwait 1896-1905. Vo1. 2foreignOffice Confidential Part IV.P.46.

[13]) خزعل، المرجع السابق، ج٢،ص١٧٦.

[14]) حمد الجاسر، مدينة الرياض عبر أطور التاريخ، الرياض، ١٩٦٦م، ص١٢٠.

[15]) Bidwell,Op.Cit, Vo1.2. Part IV.P.113.

[16]) خالد محمود السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ١٩٠٢- ١٩٢٢م، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨، ص٧٧.

[17]) Bidwell, Op.Cit, Vo1.2.Part V.P2.

برقية من قائد السفينة كوزال الراسية في بوشهر إلى القيادة في ١٩٠٢/١١/٢١.

[18]) Bidwell, Op. Cit, Vo1.2.P. 124.

رسالة من مبارك للمقيم البريطاني في الخليج ١٩٠٢/١/٣٠.

[19]) Bidwell, O.P. Cit, Part IV.P.63.

[20]) Bidwell, Ibid, Part IV.P.60.

برقية من القنصل البريطاني في دمشق إلى السفير البريطاني في استنبول في ١٩٠٢/٣/١٢.

(21) Bidwell, Op. Cit, Vo1.2.P.79

(22) خزعل، المرجع السابق، ج٢،ص١٧٨.

(23) لوريمر، المصدر السابق، ج٣،ص١٧١٨.

(24) قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات ١٨٤٠- ١٩١٤،ص٣٠١.

(25) زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٠.

(26) فيلبيي، الذكرى العربية الذهبية، ترجمة مصطفى كمال فايد، مطبعة الاعتماد بمصر، بدون تاريخ، ص٤٧.

(27) Dickon (H.A.B) Kuwait And Her Neighbors, London,1956.P.P140-141.

(28) لوريمر، المصدر السابق، ج٣،ص١٧١٩

(29) قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات ١٨٤٠- ١٩١٤، ص٣٠٤-٣٠٥.

(30) Bidwell, The Affairs Of Arabia 1905-1906. Vo1.2.P.23

(31) سعيد، تاريخ الدولة، ج٢، ص٦٤-٦٦.

(32) كيلي(ج ب) الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية، تعريب خيري حماد، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ،ص١٦٣

(33) العقاد، التيارات السياسية في الخليج،ص ٢٠٢ أيضاً.Bidwell, op. cit, vo1.2.p.40

(34) للتوسع حول تصريح ١٨٦٥.

انظر: قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات ١٨٤٠-١٩١٤، ص٣٠٥

(35) الزركلي، شبه الجزيرة العربية، ج١،ص ١٦٩

(36) تركي بن محمد بن سعود الكبير، علاقة بريطانيا بالملك عبد العزيز آل سعود من(١٩٠٢-١٩٢٥م) بحوث المؤتمر العالمي عن عبد العزيز آل سعود ١٩٨٥ ص١-٢

(37) عبد الفتاح حسن أبو عليه، دراسة في مصادر الجزيرة العربية، دار المريخ، الرياض، ط١، ١٩٧٩، ص٢٣٨.

(38) تركي بن محمد بن سعود الكبير، علاقة بريطانيا، ص٤-٥.

(39) Couldrup(Lawrence), The Ikwan Movement Of Central. Arabia-Studies VI Edited By Sergeant And Bidwell. Scorpion Communicayions, London Publish For The Middle East Center University Of Cambridge 1982p.P. 161-162.

(40) خزعل، المرجع السابق، ج٢ ص١٩٥.

(41) الريحاني، تاريخ نجد، ص١٨٦.

(42) جلال يحيى، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص٥١٩.

(٤٣) يحيى، المرجع السابق، صفحة ٥٢٠.
(٤٤) خزعل، المرجع السابق، ج٣، صفحة ٥٨.
(٤٥) قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات العربية، ١٨٤٠- ١٩١٤م، ص٣٢٠.
(٤٦) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربي، ١٩١٤- ١٩٤٥م، دار الفكر العربي، ط١ ١٩٧٣، ص١٩-٢٨.
(٤٧) صحيفة الأحرار، العدد ٢٠١٨، تاريخ ١٩٣٢/١١/١٥.
(٤٨) Williams, (ston), Britain and the arab states, a survey of anglo- arab relation 1920-1948. London luzac, 1948p.182.
(٤٩) جان جاك بيربي، جزيرة العرب، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٦٠م، ص٥٣.
ويذكر المؤلف أن ابن سعود تلقى في الحقبة ما بين(١٩١٧-١٩٢٢م) من التاج البريطاني مبلغ ٤٧٧٣١٠ جنيهات إسترلينيه.
(٥٠) أبو عليه، مصادر الجزيرة العربية، صفحة٢٤٠.
I.O. L/P/ And S/10384 File 2182 (1913) Part I
(٥١) Bidwell (robin) the arab bulletin of the arabberoue in cairo. 1916-1919. Archive edition 1986 Vo11 II bulletin No. 38.p.14.
(٥٢) الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته، ص٢٤٩-٢٥٠.
(٥٣) Philby, Saudi Arabia, London 1955,p.266.
(٥٤) خيري حماد، "فيلبي قطعة من تاريخ العرب"، منشورات المكتب التجاري، بيروت بدون تاريخ، ص٨٥.
(٥٥) ميشان، المرجع السابق، ص١٤٨
(٥٦) صحيفة السلام، ٢٠ نيسان ١٩٢٨م.
(٥٧) Dickson, Kuwait and her neighbours, p.274-275.
(٥٨) Document Of The British Colonial Office About Arabia, From 1921-1945. Vo1.7 1927-1931 P.RO.PP 87-111
(٥٩) وزارة الخارجية السعودية، مجموعة المعاهدات(١٣٣٩-١٣٥١هـ/١٩٢٢-١٩٣١م)، ص٥.
(٦٠) جريدة السلام، تاريخ ٢٠نيسان ١٩٢٨.
(٦١) Dickson, Opcit P,P 272-273.

[62]) علي محافظة، تاريخ الأردن المعاصر في عهد الإمارة، ط١،عمان، ١٩٧٣م، ص٥٠-٥٦.
[63]) محافظة، المرجع نفسه، ص٥٧.
[64]) فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن، ص٣٤٧.
[65]) صحيفة الأحرار، العدد ٢١٨، تاريخ٢٥ تشرين الثاني١٩٣٢م.
[66]) انطونيوس، المرجع السابق، ص٣٦٥-٣٦٦.
[67]) صحيفة صدى الأحوال، العدد ٤٦٣، بيروت، ١٩٢٤م.
[68]) القبلة، العدد٨٢١، الخميس(١٩صفر ١٣٤٣هـ/١٨أيلول ١٩٢٤م).
[69]) جورج رنتز، "فيلبي مؤرخ المملكة العربية السعودية"، مجلة الدرعية، السنة الأولى، العددالثاني،١٩٩٨م، ص٨٣.
[70]) صدى الأحوال، العدد ٣٤٢،(٢-١١-١٩٢٤م)
[71]) حماد، فيلبي قطعة من تاريخ العرب، ص١٦٧
[72]) صحيفة فتى العرب،(الثلاثاء ٦ جمادى الأول ١٣٤٤هـ/الأول من كانون الأول ١٩٢٥م).
[73]) Documents Francais Des Affaires Extranets Concern at Lelevant. Arabia: Durant Les Snnees 1918-1920. To Me 17
[74]) Dickson, Kuwait And Her Neighbors P.284.
[75]) سعيد، المرجع السابق، ص١٧٩-١٨٠.
[76]) أم القرى، العدد٥، ٨ كانون الأول ١٩٢٥م.
[77]) صحيفة أم القرى، العدد١٢٩، السنة الثالثة ١٩٢٧/٥/٢٧م.
[78]) Toynbee, (annold), survey of international affairs. Oxford, univercite. Press London hunphraymillford 1929p.286.
[79]) أوراق نبيه العظمة، وثائق لم تنشر، مديرية الوثائق التاريخية، ملف ١٢٨/٣، القسم الخاص رقم ٣١.
[80]) صحيفة الشباب، العدد ٤٩٣٩، ٩ تشرين الثاني ١٩٥٤م.
[81])فاسيليف، المرجع السابق، ص٤٥٥-٤٥٧.
[82]) قاسم، الخليج العربي ١٩١٤-١٩٤٥، ص٤٨٣-٤٨٤.
[83]) قاسم، الخليج العربي، ١٩٤٥-١٩٧١، ص٤٨١.
[84])فاسيليف، المرجع السابق، ص٥٦٥-٥٦٧.
[85]) الموسوعة العربية العالمية، المجلد ١٢،ص٢٧٢.

Damascus University

الفصل الرابع

الكويت(١٨٤٠-١٩٦٥م)

أولاً: أوضاع الكويت منذ نهاية الوجود المصري وحتى نهاية حكم محمد الصباح بين عامي(١٨٤٠م-١٨٩٦م)

ثانياً: حكم مبارك الصباح بين عامي(١٨٩٦م-١٩١٥م)

ثالثاً: إخماد محاولات التغلغل الروسي ومعاهدة الحماية البريطانية

رابعاً: مواجهة بريطانيا لأطماع ألمانيا

خامساً: الاتفاقيات اللاحقة مع بريطانيا

سادساً: التطور السياسي للكويت ما بين(١٩١٧-١٩٦٥م)

١. عصر الشيخ سالم بن مبارك بين عامي(١٩١٧-١٩٢١م)

٢. عصر الشيخ أحمد الجابر بين عامي(١٩٢١-١٩٥٠م)

٣. حكم الشيخ عبد الله السالم الصباح بين عامي(١٩٥٠-١٩٦٥م)

سابعاً: مقدمات الاستقلال وإنهاء معاهدة عام(١٨٩٩م)

ثامناً: أثر النفط في تطور الكويت

هوامش الفصل الرابع

Damascus University

Damascus University

أولاً: أوضاع الكويت منذ نهاية الوجود المصري حتى نهاية حكم محمد الصباح بين عامي (١٨٤٠- ١٨٩٦).

توفي الشيخ صباح الثاني عام١٨٦٦م وله أولاد كثيرون، وتسلم الحكم من بعده عبد الله الثاني بن صباح الثاني من عام(١٨٦٦-١٨٩٢م). وأبرز ما عُرِفَ في عهده، المجاعة التي حصلت في الكويت عام١٨٦٧م، واستمرت حتى عام١٨٧٠م وكذلك تقديمُهُ المساعدة لأمير المحمرة ومناصرته له ضد قبيلة النصار من بني كعب، وتدخلهُ في النزاع عام١٨٦٧م الذي وقع بين أفراد أسرة آل خليفة في البحرين. وقد لجأ إليه حاكمها آنذاك محمد آل خليفة، فحاول التوَسُّط في الصلح بين الأخوة، لكنه أخفق فعاد إلى الكويت مصطحباً معه محمد آل خليفة(١). ورغم قرب الكويت من السلطة العثمانية الحاكمة في العراق فإنه لم تقم سيطرة عثمانية فعلية عليها قبل عام١٨٦٩م. بل كان الأمر مجرد نوع من التعبية الاسمية. وما كاد مدحت باشا يصل إلى ولاية بغداد عام١٨٦٩م حتى عمل على تنظيم علاقة الدولة العثمانية مع الكويت، فاستصدر فرماناً يقضي بإعلان الكويت سنجقا تابعاً لبغداد على أن يتوارثها آل الصباح ويحصل الشيخ الحاكم فيها على لقب قائم مقام. وكذلك أن ترفع السفن الكويتية العلم العثماني. ومقابل ذلك تعفى من دفع الجمارك. إن الذي جعل مدحت باشا يتصرف على هذا النحو، هو أن أصحاب السفن كانوا يلجؤون إلى رفع الأعلام الأجنبية، خاصةً الإنجليزية، كي يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة للأجانب. وقد عد ذلك بوادر حماية انجليزية على الكويت، يمكن أن تهدد البصرة والعراق. توفي الشيخ عبد الله في عام١٨٩٢م وتسلم الحكم بعده الشيخ محمد بن الصباح بين عامي١٨٩٢-١٨٩٦م. وقد أشرك أخاه "جراح" في إدارة شؤون الكويت. أبرز ما ميز عهده قدوم ماجد الدويش شيخ قبيلة مطير وأناخته بالقرب من الكويت، وقد ظنّه الشيخ محمد ضيفاً فقدم له واجب الضيافة. لكن ماجد الدويش كان يبيت أمراً وهو محاربة قبيلتي العوازم وعريب دار التابعتين للكويت. وبالفعل مالبثَ أن هاجمهم ونهب أموالهم ومواشيهم. فأرسل الشيخ محمد قوة بقيادة أخيه مبارك تمكنت من هزيمة الدرويش واسترجاع ما استولى عليه(٢). وخلال حكم الشيخ محمد طلب إليه الأتراك التعاون معهم في إقرار الأمور بالأحساء التي كانت قد بدأت تضطرب الأحوال فيها عام١٩٨٢م.

فأرسل إليها قوة كبيرة في عام١٨٩٣م بقيادة مبارك الصباح، وقد جاءت عن طريق البر واستطاعت أن تحقق استتباب الأمور فيها.

ثانياً: حكم مبارك الصباح بين عامي١٨٩٦-١٩١٥م.

في عام١٨٩٦م قام مبارك بقتل أخويه محمد وجراح، بمساعدة ولديه جابر وسالم(٣). وتسلم السلطة. ولقد أسهبت المصادر في تحليل أسباب القتل فمنها من يعيد ذلك إلى إشراك الشيخ محمد أخاه جراحاً في الحكم مما أوغر صدر مبارك وأثار حسده. وبعض المصادر تشير إلى أن محمداً أوكل أخيه مبارك شؤون حفظ الأمن في البادية وكان قصده من ذلك إبعاده عن الحكم، وقد فطن مبارك إلى هدفه وفعل ما فعل. ومن الأسباب الأخرى التي تُذكر التقتير في صرف الأموال لمبارك وقد كانت هذه الأموال ضرورية لحفظ النظام بين عربان بادية الكويت. ومهما تعددت الأسباب فمن الواضح أن تضامن الشيخ محمد مع الشيخ جراح وسعيهما لإبعاد أخيهما مبارك كان السبب في إقدام مبارك على قتلهما وتنصيب نفسه حاكماً على الكويت في حزيران عام١٨٩٦م. وتشير بعض المصادر إلى أن أهم أسباب اتساع شقة الخلاف بين الأخوة إنما كانت مشورة يوسف بن عبد الله بن الإبراهيم وهو تاجر ثري من تجار الكويت يرتبط برباط المصاهرة مع آل الصباح. فقد أوضحت هذه المصادر أن يوسف الابراهيم كان يعمل من أجل تقويض حكم آل الصباح بتحريض من الدولة العثمانية، التي وعدته بتنصيبه حاكماً على الكويت. ولكن بعد قتل مبارك لأخويه، قام يوسف ابراهيم بمناصرة أولاد محمد وجراح كي يثوروا ضد مبارك الصباح. واستمرت جهوده في هذا الصدد أحد عشر عاماً، ولم تتوقف إلا بوفاته عام١٩٠٦م. وكان هو أحد الأسباب المقلقة لحكم مبارك الصباح على مدى أحد عشر عاماً(٤). ففي٣٠حزيران عام١٨٩٧م وصلت إلى الكويت الحملة التي أعدها يوسف الابراهيم في هنديان على الساحل الفارسي للخليج. ورغم سرية الحملة فإن مباركاً علم بقدومها، وكان مستعداً للقائها بحراً. وعندما شاهد يوسف الابراهيم استعداد الكويت للمعركة بقيادة مبارك عاد أدراجه وتوجه إلى شيخ البحرين طالباً المساعدة. وبالمقابل كان مبارك قد طلب من شيخ البحرين التوسّط بينه وبين أولاد أخويه، لكن شيخ البحرين رفض القيام بتلك المهمة، لم يستطع يوسف الابراهيم اقناع شيخ البحرين بمساعدته، فتوجه إلى

الدوحة وطلب مساعدة شيخها جاسم بن محمد آل ثاني. فلبى طلبه وأعد حملة برية وبحرية للسير بها إلى الكويت، لكنه تراجع عن رأيه ولم ينفذ ما عزم عليه. فما كان من يوسف الابراهيم إلا أن اتجه إلى عبد العزيز بن رشيد حاكم جبل شمر. وكان ابن الرشيد يأمل أن يتخلص من مبارك الصباح، لأنه آوى خصمه عبد الرحمن بن فيصل وأولاده وأكرمهم. في عام١٩٠١م توجه مبارك وعبد الرحمن ابن فيصل على رأس جيش لغزو ابن الرشيد في عقر داره في نجد وشمر، لكن ابن الرشيد تمكن من هزيمة مبارك في الصريف. واضطر مبارك للانسحاب بعد أن خسر معظم مقاتليه[٥]. وأصبحت الكويت بعد هزيمة الصريف معرضة للخطر خاصةً بعد محاولات الدولة العثمانية فرض سلطتها المباشرة على مبارك سواء عن طريق ولاة البصرة أو عن طريق عبد العزيز الرشيد حاكم جبل شمر. خلال حكم مبارك الذي استمر حتى عام١٩١٥م والذي أحدث انقلاباً في أوضاع الكويت[٦]، لعبت الكويت دوراً حساساً، ليس في السياسة المحلية فقط بل على صعيد الصراع الدولي حول المنطقة أيضاً. وكان مبارك بعد أن استتب الأمر له، قد اتصل برجب باشا والي بغداد والشيخ أبي الهدى الصيادي شيخ الإسلام في استنبول، وأغدق الأموال على رجال الدولة العثمانية في بغداد واستنبول، وكان يسعى من وراء ذلك إلى حصوله على اعتراف السلطان العثماني به حاكماً على الكويت[٧]. إلا أنه لم يفلح، لأن الشيخين المقتولين محمد وجراح كانا من أشد المؤيدين للدولة العثمانية. عند ذاك اتجه مبارك بشكل كلي طالباً الدعم والتأييد من بريطانيا، وكان أول عمل قام به زيارة الكولونيل ميد[٨]Meed المقيم السياسي البريطاني في بوشهر[٩] فتقدم إليه بطلب رسمي لكسب تأييد الحكومة البريطانية فوعده ميد أن يبذل جهوده لدى حكومته. لم تتسرع الحكومة البريطانية في تنفيذ طلب مبارك واندفاعاته، وعندما طلب السفير البريطاني في الآستانة فيليب كوري Philip Coree رأي حكومته كان رد وزارة الخارجية البريطانية أنه من غير المنطق تجاهل النفوذ العثماني تجاهلاً تاماً، خاصةً أن نهج الحكومة البريطانية كان يتبع تعميق السيطرة وبسط النفوذ التدريجي على المنطقة من جهة وعدم الاصطدام ما أمكن مع الدولة العثمانية من جهة ثانية. وهذه السياسة سابقة على تسلم مبارك للحكم، ولم تتسرع في تغييرها بعد وصول مبارك مباشرةً إلى السلطة. فتظاهرت بالاعتراف للدولة

العثمانية بالسيادة من البصرة إلى العقير على الأرض فقط[١٠]. أما في البحر فكان على الحكومة البريطانية أن تواصل ممارسة نوع من الحماية المشتركة وصولاً إلى الظرف المناسب الذي يسمح بالسيطرة البريطانية على جميع السواحل. وفي أواخر عام١٨٩٧م بدأت السياسة البريطانية تتضح أكثر باتجاه دعم حاكم الكويت علانية ومواجهة أية محاولات عثمانية بتغيير الأوضاع السائدة في الكويت. وقد بررت بريطانية سياستها الجديدة بمعلومات أرسلها الكولونيل ميد حول نية العثمانيين إرسال قوات عسكرية من البصرة إلى الفاو[١١] واستناداً إلى أوامر الخارجية البريطانية كان رأي حكومة الهند أنه لابد من اتخاذ اجراءات سريعة لمساعدة حاكم الكويت ومنذ ذلك الزمن أصبحت فكرة الحماية البريطانية على الكويت مهيأة. فقد كتب الكولونيل ميد المقيم السياسي البريطاني في بوشهر مذكرة سرية عن الكويت قال فيها:"تمتلك الكويت ميناءً رائعاً، وإذا دخلت تحت حمايتنا فسوف تصبح بلا شك من أكثر المواقع أهمية في الخليج الفارسي "العربي"، أضاف إلى ذلك إمكان إقامة نهاية الخط الحديدي فيها، الخط الذي يمكن أن يمتد في المستقبل من الإسكندرية أو بور سعيد ويجعلنا في موقف القادر على حماية هذا الخط[١٢]. وهكذا ازداد الدعم البريطاني لمبارك الذي حظي بالإعجاب من قبل الساسة البريطانيين لشخصيته القوية وفطنته السياسية. فقد خشي البريطانيون من أن الإحجام عن منح مبارك الحماية سيدفعه إلى أحضان العثمانيين. وتشير المصادر البريطانية إلى وصول برقية سريّة إلى نائب الملك في الهند اللورد كيرزون Lord Curzonمن وزير الخارجية اللورد سالزبوريSalisbury تقول: "إنه إذا وجدت حكومة الهند أنه من السهل ممارسة الحماية على الكويت، فسيوافق اللورد سالزبوري وزير الخارجية على هذه الخطوة وسوف يؤيدها سياسياً ودبلوماسياً إذا ما اعترضت الدولة العثمانية على إعلانها"[١٣]. عارضت الدولة العثمانية النوايا المعلنة في إعلان الحماية على الكويت. ففي ١٨٩٩ كتب الملحق المتخصص في الشؤون الشرقية بالسفارة البريطانية في الآستانة سانديسون Sandison حول اللقاء الذي جرى بينه وبين الصدر الأعظم العثماني، قائلاً: "إن الصدر الأعظم العثماني يصر على السيادة العثمانية على الخليج العربي تمتد جنوباً حتى القطيف". وأكّد أن أي تدخّل من جانب البريطانيين سيؤدي إلى مصاعب سياسيّة

سواء على المستوى الدولي أو المحلي[١٤] كما عبّر الصدر الأعظم عن عدم اقتناعه بأن هدف بريطانيا هو وضع حد للقرصنة. وتجارة الرقيق، مؤكداً أن الامبراطورية العثمانية على استعداد تام لدعم أية أفكار إنسانية تؤدي إلى القضاء على القرصنة. وأن احتلال الكويت ليس ضرورياً من أجل تحقيق هذا الهدف. لكن موقف الدولة العثمانية لم يتجاوز الاحتجاج والتحذير إدراكاً منها لعدم قدرتها على مواجهة القوة البحرية الانجليزية.

ثالثاً: إخماد محاولات التغلغل الروسي ومعاهدة الحماية البريطانية.

بعد أن تمكّن الإنجليز من تثبيت مواقعهم في الخليج العربي على حساب النفوذ العثماني بعد وصول مبارك للحكم في الكويت، كان عليهم مواجهة عقبات جديدة ارتبطت باهتمام الدول الأوربية الأخرى بالكويت. وكانت سياسة روسيا القيصرية تجاه الخليج العربي يحركها هدف الوصول إلى المياه الدافئة عبر الأراضي الإيرانية ثم الخليج العربي. وقد اصطدمت نوايا روسيا هذه بمقاومة فورية وعنيفة من جانب الإنجليز خصوصاً بعد أن اكتشف الانجليز بأن الكونت كابينست ابن أخ السفير الروسي في فيينا تقدم للباب العالي بمشروع مد سكة حديد من طرابلس الشام إلى الخليج العربي ووافقت وزارة الأشغال العثمانية على المشروع مع بعض التعديلات[١٥]. كما ترافق المشروع الروسي الآنف الذكر مع افتتاح قنصليات روسية في البصرة وبندر عباس وبوشهر، والإعلان عن تنظيم خط بحري لنقل البضائع والمسافرين بين أوديسا على البحر الأسود والخليج العربي خصصت له أربع سفن. لقد عبّرت بريطانيا عن قلقها الشديد إزاء الأطماع الروسية في الخليج العربي على لسان اللورد سالزبوري وزير الخارجية آنذاك بأنه لو تحقق مشروع كابنيست سيتحول الخليج إلى منطقة نفوذ روسيّة. لذلك سارعت بريطانيا لربط الكويت بمعاهدة حماية على غرار المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع مختلف إمارات الخليج العربي[١٦] خلال القرن التاسع عشر. التي كانت تنطوي جميعها على مواد تمنع الأمير أو الشيخ الموقع على المعاهدة أن يتخلى أو يؤجر أو يرهن لأي سبب من الأسباب قسماً من أراضيه، إلا بإذن بريطانيا، الدولة الوصيّة التي لم تكن تقدم مقابل ذلك سوى إعلان حمايتها لإمارات الخليج ومشيخاته. كما أن تلك المعاهدات ليست مقيّدة بزمن معيّن ولذلك يمكن اعتبارها

أبديّة. وعلى هذا الأساس توجه الكولونيل ميد في٢١كانون الثاني١٨٩٩م إلى الكويت على ظهر السفينة لورنس ووصلها في٢٣كانون الثاني١٨٩٩م. وبعد وصوله وقع ميد مع مبارك اتفاقية مجحفة بحق الكويت(١٧)، وفق الشروط التالية:

١. يتعهد الشيخ مبارك عن نفسه وعن ورثته بألا يستقبل في بلاده وكلاء أو ممثلين لدولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية.
٢. يتعهد بألا يتنازل أو يبيع أو يؤجر أو يرهن جزءاً من أراضيه لحكومة أو لرعايا دولة أجنبية كما لا يسمح باحتلال جزء من أراضيه أو استخدامه لأي غرض دون موافقة الحكومة البريطانية وينطبق هذا على جميع الأراضي التي تقع في حوزة الشيخ مبارك والتي يعتقد أنها قد آلت آنذاك إلى ملكية أحد رعايا دولة أجنبية.
٣. رفع العلم الإنجليزي على الكويت، وإقامة وكيل قنصلي فيها(١٨).

والجدير بالذكر أن الاتفاقية الآنفة الذكر لم تلزم بريطانيا بأي شيء تجاه الكويت سوى التعهد الشكلي بالدفاع عن الكويت "ضد أي خطر خارجي"، ومن الواضح هنا أن الاتفاقية قد مهّدت الطريق أمام التدخل الواسع لبريطانيا في الشؤون الداخلية للكويت ونجد وجنوب العراق(١٩). بدأ مبارك منذ شهر أيار ١٨٩٩م يعلن عن اجراءات جمركية جديدة مستنداً إلى تأييد البريطانيين له. وأقام إدارة للجمارك في الكويت وفرض الرسوم على الاستيراد بنسبة٥% من قيمة البضائع التي تصل إلى الميناء بما في ذلك البضائع الواردة من البصرة وغيرها من الموانئ(٢٠) التركية علماً أنها ام تكن تدفع أي رسوم من قبل. ويشار إلى أن بريطانيا لم تكن راغبة في الإجراءات الجمركية التي اتخذها مبارك، خشية أن تتحرك الدولة العثمانية ضده بشكل أكبر، وخاصة أن الاتفاقية بقيت طي الكتمان. وعندما حاولت الدولة العثمانية التحرك مجدداً ضد مبارك أصدرت بريطانيا إنذاراً إلى الحكومة العثمانية تعلن فيه:أنها ترتبط بعلاقات ودّية مع الشيخ مبارك، وإذا حاولت الدولة العثمانية اتخاذ أية اجراءات ضد مبارك فإن الحكومة البريطانية ستقف بجانبه. وترافق ذلك الإنذار مع إبحار سفينة حربيّة بريطانية باتجاه الكويت لحماية مبارك ضد أي اعتداء يقع عليه، ونجح البريطانيون فيما بعد في إقناع السلطان العثماني بأن الوالي حمدي باشا والي البصرة والذي عرف بعدائه

للبريطانيين ولشيخ الكويت بأنه يمثل عقبة في طريق أي تفاهم بريطاني عثماني، لذلك قام السلطان بتنحيته عن منصبه، وهذا يمكن اعتباره تراجعاً جديداً من جانب الدولة العثمانيّة أمام الحكومة البريطانيّة. وهكذا استطاعت بريطانيا أن تبعد الدولة العثمانيّة شيئاً فشيئاً عن النفوذ في الكويت كما استطاعت بريطانيا أن تخمد محاولات روسيا التغلغل في المنطقة.

رابعاً: مواجهة بريطانيا لأطماع ألمانيا:

من المعروف أن ألمانيا قد تأخرت عن غيرها من الدّول الكبرى في إيجاد موطئ قدم لها في إفريقيا وآسيا، واقتصرت المصالح الألمانيّة في الشرق حتى عام١٨٧٠م على بعثات دينية تبشيرية[٢١]. ونتيجة للإفلاس الذي أصاب الخزينة العثمانيّة عام١٨٧٥م فتح المجال واسعاً أمام الممولين الإنجليز والفرنسيين والألمان لتنفيذ مشاريع في الإمبراطورية العثمانية مثل خطوط البرق وسكك الحديد، وإنشاء المصارف. ومن الواضح أن ألمانيا كانت بأمسّ الحاجة إلى إيجاد أسواق لتصريف منتجاتها، وكذلك للاستفادة من مرافق الشرق وثرواته، وأيضاً لإيجاد موقع لها لتدخل مجال التنافس الاستعماري. وقد لعب الكونت هتزفيلدHitzweld السفير الألماني في استنبول دوراً كبيراً في توطيد النفوذ الألماني في الدولة العثمانية، فقد استطاع أن يستغل نفور الباب العالي من الإنجليز ليتقرب من السلطان. ففي عام١٨٨٣م توصّل هتزفيلد إلى موافقة السلطان العثماني على أن تتولى بعثة عسكرية ألمانية تدريب الجيش العثماني وبالفعل وصلت تلك البعثة إلى الدولة العثمانية بقيادة المارشال فون دير غوتز[٢٢]Won Der Gotx . وعندما تولى وليام الثاني William II عرش ألمانيا عام١٨٨٩م أظهر رغبة شديدة في توطيد النفوذ الألماني في الدولة العثمانية، فعرج أثناء جولته في أوروبا على الآستانة، ولقي من السلطان عبد الحميد الثاني كل الترحاب. وأعقب هذه الزيارة التوقيع على معاهدة تجارية بين ألمانيا والدولة العثمانية في عام١٨٩٠م. وفي عام١٨٩٨م قام وليام الثاني امبراطور ألمانيا بزيارة جديدة إلى الدولة العثمانية، ونتج عن هذه الزيارة إنشاء خط الملاحة الألماني لشرق المتوسط[٢٣] لتسيير السفن التجارية بين بحر الشمال وشرق المتوسط، وأخذت السفن الألمانية تبحر إلى الموانئ العثمانية وسواحل المتوسط، وفي عام١٨٩٩م أسس جماعة من الممولين الألمان البنك

الألماني الفلسطيني في القدس، وفتحوا له فروعاً في غزة وحيفا ويافا والناصرة وبيروت ودمشق وحلب. وقد سبق لألمانيا أن حصلت على امتياز خط حديدي من اسكيشر إلى قونية التي تم الوصول إليها. كذلك في عام١٨٩٩م حصلت ألمانيا على امتياز تنفيذ سكة حديد أنقرة وبغداد عبر الممتلكات العثمانية. لم تنظر بريطانيا في البداية إلى اهتمام ألمانيا بشؤون الدولة العثمانية وخاصة إلى إيصال سكة حديد ألمانيا إلى الخليج، لأن ذلك قد يساعد في إيقاف أطماع روسيا والتي كانت تشكل مصدر قلق جدي لبريطانيا. لكن الحكومة البريطانية سرعان ما أدركت خطورة المشاريع الألمانية على نفوذها في الشرق الأدنى، وتهديد مصالحها السياسية والاقتصادية. أعلنت ألمانيا في البداية أن أهدافها في المنطقة لا تتعدى الشؤون الاقتصادية، لكن بعد أن قفزت واردات ألمانيا عن استثماراتها في الممتلكات العثمانية إلى أرقام عالية، وتطورت الأطماع الألمانية إلى محاولات عقد معاهدة سياسية مع الدولة العثمانية تستطيع من خلالها ألمانيا الحصول على مرفأ لها في الخليج العربي(٢٤). أثار هذا كله ثائرة بريطانيا التي خشيت من وصول الألمان إلى الكويت وعرقلة السياسة البريطانية في الخليج عموماً الشيء الذي يهدد نفوذها إلى الهند(٢٥). فسارعت إلى سد باب البحر أمام ألمانيا عن طريق استغلال المعاهدة المعقودة مع شيخ الكويت، ذلك أن اشهار إعلان الحماية على الكويت كان السبيل الأفضل أمام بريطانيا لمنع وصول الألمان إلى الكويت. وعندما قامت البعثة الألمانية بزيارة الكويت عام١٩٠٠م وقدمت للشيخ مبارك عرضاً مغرياً لمنح الشركة الألمانية امتياز إنشاء محطة نهاية الخط الحديدي في الكويت ما امتنع مبارك عن قبول ذلك وفقاً لما تعهد به في الاتفاقية المار ذكرها بحجة أنه هو المسيطر على أرضه وليس السلطان العثماني. وحاول الألمان تحريض الحكومة العثمانية ضد شيخ الكويت، وتوجهت حملة فعلاً لكنها عادت عندما وجدت السفن الحربية البريطانية تهيمن على الخليج العربي. سارع مبارك لإخبار الكولونيل ميد المقيم السياسي البريطاني في بوشهر بكل ما جرى بينه وبين البعثة الألمانية، وقد أزعجت هذه الأشياء ميد، حيث نظر إلى البعثة الألمانية كجزء من مؤامرة تركية تهدف إلى جذب الألمان إلى الخليج العربي وذلك لإضعاف النفوذ البريطاني فيه **وقال ميد:** "علينا أن نحمي مركزنا في الخليج، وأن نكون على استعداد للدفاع عنه

ضد أي دولة، كما سيكون وجود التمثيل العثماني والروسي والألماني ضاراً بمصالحنا في منطقة الخليج العربي". وأوضح هذا للعثمانيين أن الإنجليز بسطوا نفوذهم الفعلي على الكويت التي كانت تفصل ما بين مقاطعة الأحساء ومقاطعة البصرة، ولأن وقوع الكويت بين هاتين المنطقتين من شأنه أن يقطع امتداد السيطرة العثمانية دفع الحكومة العثمانية للبحث عن وسائل جديدة لتغير الأوضاع في الكويت. وكان عبد العزيز بن متعب الرشيد هو السلاح المناسب لخلخة النفوذ البريطاني في الكويت، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً وبقي النفوذ البريطاني في الكويت والمنطقة يتوطّد عاماً بعد آخر. واضطرت الدولة العثمانية للقبول بتسوية مؤقتة عام ١٩٠٢ حول وضع الكويت، جوهرها عدم التدخل في الشؤون الداخلية أو بتعبير أصح سلمت الدولة العثمانية بالأمر الواقع. وجاء على لسان وزير خارجية بريطانيا اللورد ساندیسونSandison عام ١٩٠٣:"أن تأسيس أية قاعدة بحرية أو أي مركز في الخليج من قبل أيّة دولة من الدول يعتبر تهديداً خطيراً لمصالح بريطانيا وسنقاومه بكل وسيلة"[٢٦]. وبهذا دخلت الكويت فعلاً تحت الحماية البريطانية وتتالت فيما بعد تنازلات حكام الكويت أمام بريطانيا التي أصبحت المسيطر الفعلي على شؤون الكويت على الأصعدة كافة.

خامساً: الاتفاقيات اللاحقة مع بريطانيا:

لم تكن معاهدة عام ١٨٩٩ آخر المعاهدات مع انجلترا خلال حكم مبارك. ففي أيام عام١٩٠٠م تعهد مبارك بعدم الاستمرار في تجارة الأسلحة في الخليج. وهي أسلحة كانت تهرب إلى أفغانستان عبر ميناء الكويت. وكذلك وافق عام١٩٠٤م على تعيين معتمد انجليزي سياسي في بلاده[٢٧] وقد وصل الكابتن نوكس Knox إلى الكويت وأحسن مبارك استقباله. وكان الهدف من تعيين الوكيل السياسي هو محاولة الحد من تحركات الشيخ مبارك خارج حدود الكويت، وتجنيب البريطانيين المشكلات التي قد تنجم عن مثل تلك التحركات كالحروب مع أمير جبل شمر ابن الرشيد وكذلك للتخفيف من حدة التوتر السياسي على الحدود مع ولاية البصرة العثمانية. في عام١٩٠٧م تم الاتفاق بين الشيخ مبارك والوكيل السياسي نوكس على تأجير بندر الشويخ للإنجليز، لاستخدامه مرسى لسفن الأسطول الحربي البريطاني. وفي عام١٩١١م وافق الشيخ مبارك على أن يسمح

للأجانب بالتفتيش على الإسفنج واللؤلؤ، في مياه الكويت. وفي عام١٩١٢م وافق على إنشاء خط للتلغراف اللاسلكي في بلاده. وفي٢٧تشرين الأول عام١٩١٣م منح للإنجليز امتياز التنقيب عن النفط واستخراجه. ومن البديهي أن هدف بريطانيا من وراء كل هذه المعاهدات كان إقصاء أي دولة أجنبية عن الكويت[٢٨] واستمرت هذه الاتفاقيات سارية المفعول حتى بعد وفاة الشيخ مبارك.

سادساً: التطور السياسي للكويت ما بين عامي١٩١٧-١٩٦٥م.

١. عصر سالم بن مبارك بين عامي١٩١٧-١٩٢١م:

كان الشيخ سالم متديناً شجاعاً، كان يؤيد استمرار تدفق القوافل المحملة بالبضائع إلى السعودية ممّا أثار امتعاض الإنجليز، فوجهوا إليه احتجاجاً شديد اللهجة وهدّدوه قائلين إن بريطانيا لن تنفذ وعودها بالمحافظة على سلامة الكويت إذا تعرضت لخطر خارجي. وربما أدرك سالم ذلك عندما علم بنية عبد العزيز آل سعود تجاه بلاده، إذ أن الشيخ مبارك قد أرسل عام١٩١٥م حملة كويتية بقيادة سالم لمساعدة عبد العزيز آل سعود المحاصر في الهفوف، ساعدته على هزيمة أعدائه قبائل العجمان. لكن سالماً، بتوجيه من والده مبارك، منح العجمان بعد هزيمتهم مأوى في الكويت، الأمر الذي حال دون تمكين عبد العزيز آل سعود من ملاحقتهم، وكان ذلك الموقف بداية النزاع بين مبارك وابن سعود، الذي تمخض عن موقعة الجهرة بين الكويت والإخوان جيش عبد العزيز آل سعود بقيادة فيصل الدويش. وفي عام١٩٢٠م بدأ حصار السعوديين للجهرة، وكان الشيخ سالم على علم بنوايا عبد العزيز آل سعود تجاه الكويت فشرع يبني سوراً جديداً لحماية الكويت وقد تمّ له ذلك خلال شهرين[٢٩] واستمر هذا السور قائماً حتى عام١٩٥٧م عندما هدم نتيجة اتساع المدينة وامتدادها خارجه. وبدأت جماعات الإخوان تتحرك صوب الكويت شمالاً، فاتجه الشيخ سالم إلى الجهرة مع العديد من سكان الكويت وانضم إليه البدو ووقع الهجوم. وفي البداية لم يكن القتال لمصلحة الكويتيين، فاضطر الشيخ سالم وصحبه اللجوء إلى القصر الأحمر والتحصّن فيه. ولم يستطع الدويش اقتحام القصر، وقد أنهكت قواته حول الجهرة فانسحب من القتال. كانت آثار هذه المعركة إيجابية، إذ وقف أهالي الكويت صفاً واحداً مدافعين عن استقلالهم، واستطاعوا أن يجبروا بريطانيا على

تنفيذ وعودها حسب اتفاقية عام١٨٩٩م إذ قامت الطائرات البريطانية في العراق المحتل بإلقاء منشورات تحذر فيها الغزاة. ورابطت السفن الحربية البريطانية في ميناء الكويت. وقد عجّلت هذه الأحداث في عقد مؤتمر العقير عام١٩٢٢م لتسوية الحدود في الجزيرة العربية. واستمرت العلاقات سيئة ما بين الشيخ سالم وابن سعود حتى وفاة الأول. أهم ما ميّز عصر الشيخ سالم تخفيض الرسوم الجمركيّة إلى٤% وإلغاء الرسوم على الصادرات، وقيام انجلترا بمد خط التلغراف من العراق إلى الكويت. وقد شكلت انجلترا لجنة اسمتها لجنة الحصار التجاري لمراقبة البضائع الداخلة إلى الكويت والخارجة منها(٣٠).

٢. عصر الشيخ أحمد الجابر بين عامي١٩٢١-١٩٥٠م:

تُعزى نهضة الكويت الحاليّة إلى الشيخ أحمد الجابر الذي تميّز عصره بالنهضة العلميّة والثقافيّة، فقد تأسست المكتبة الأهليّة والنادي الأدبي وأنشئت المدرسة الأحمديّة. وتم في عهده إرسال أول بعثة علميّة لطلاب الكويت للدراسة في العراق. وانشئ أول طريق بري للسيارات بين الكويت والبصرة عام١٩٢٨م. ورسمت الحدود نهائياً بين الكويت ونجد عام١٩٢٢م. واكتشف البترول في عام١٩٣٧م. وفي العام، نفسه بدأ باستقدام العبثات التدريسية من فلسطين وسورية ومصر(٣١)، وأنشئ المجلس التشريعي عام١٩٣٨م. وفي عام١٩٣٤م منح امتياز البحث عن الزيت لشركة زيت الكويت Kuwait oil. Coفي أرض الكويت، وأثناء حكم الشيخ أحمد سويت الخلافات ما بين السعودية والكويت ووقعت اتفاقيات صداقة وحسن جوار ومعاهدة تجارية ومعاهدة تسليم المجرمين عام١٩٤٠م. وفي عام١٩٤٨م منح امتياز البحث عن الزيت واستغلاله مدّة ستين عاماً إلى شركة American Independent Oil co.أمريكان انديبيندنت أويل أوف كومبني(٣٢). وآخر دائرة تم تأسيسها خلال حكمه هي دائرة الأوقاف عام١٩٤٩م. لقد كان قريباً من الدول العربيّة، فقام بزيارة إلى الريّاض لتأكيد حسن الجوار وكذلك إلى مصر. كانت وفاته في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٥٠. ومن بعده نودي بابنه الشيخ عبد الله السالم الصباح حاكماً على الكويت.

٣. حكم الشيخ عبد الله السالم الصباح بين عامي١٩٥٠-١٩٦٥م:

خطّت الكويت أيضاً في عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح خطوة كبيرة في

مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، خاصة في أعقاب الإنتاج البترولي الكبير، حيث تحول رأس المال التجاري من النقل البحري الذي كان يميز مجتمع الكويت ما قبل النفط، إلى عمليات استثمارية داخليّة، إضافة إلى العمل بالتجارة الخارجيّة، بما يتوافق مع متطلبات المجتمع الكويتي الجديد. ففي عام١٩٥٢م تأسس أول بنك وطني، ليس في الكويت فحسب بل في منطقة الخليج العربي أيضاً. وحصلت الرأسمالية الوطنيّة على حماية كافية، عندما اقتصرت المساهمة في الشركات الوطنية على الكويتيين وحدهم. وحرمت مزاولة التجارة على الأجانب[٣٣] وأخذت تزداد حاجة المجتمع الكويتي إلى عمال وفنيين. ولذلك وفد الكثيرون من الدول الأخرى إلى الكويت للعمل فيها. وفي عام١٩٥١م بدئ بإنشاء مركز تدريب مهني ثم أنشأت دائرة معارف الكويت الكلية الصناعية عام١٩٥٥م. وكان الغرض منها إعداد طبقة من الفنيين من أبناء الكويت، مزودين بثقافة صناعية تؤهلهم للعمل في النواحي الصناعية التي تحتاجها البلاد في نهضتها الحديثة. ورغم هذا الانعطاف إلى الاستثمارات الداخلية ظلَّ للنشاط التجاري دور كبير في حياة الكويت الاقتصادية وقد أخذ يبرز أكثر فأكثر.

سابعاً: مقدمات الاستقلال وإنهاء معاهدة عام١٨٩٩م:

ظلت الكويت مرتبطة بمعاهدة الحماية مع بريطانيا منذ عام١٨٩٩م حتى إلغاء هذه المعاهدة عام١٩٦٠م. وبالرغم من بنود الاتفاقية المقيدة لاستقلال الكويت الداخلي والخارجي، فإنَّ التطورات التي بلغتها في أعقاب إنتاج النفط، أتاحت لها فرصة إدارة شؤونها الداخلية والخارجية، فقد وقعت معاهدة مع شركة يابانية من أجل التنقيب عن النفط في المياه التابعة لها وذلك في عام١٩٥٨م، وكانت الكويت سبّاقة إلى الاتصال بجامعة الدول العربية والاشتراك في أنشطتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ولبّت دعوتها إلى توثيق الروابط القوميّة في إمارات الخليج العربي وسائر البلاد العربية بهدف تعزيز التعاون معها، وقد ساهمت الكويت كذلك مع الجامعة العربية بإنشاء مكتب لمقاطعة إسرائيل، لأنها تنبهت منذ البداية إلى خطورة اليهود في البلاد العربية، فأصدر الشيخ أحمد الجابر عام١٩٤٧م مرسوماً بطردهم خارج البلاد[٣٤]، وعلى الصعيد الدولي اشتركت الكويت في منظمة الصحّة العالمية والطيران المدني والاتحاد الدولي للبريد ومنظمة

اليونسكو. ومنذ عام١٩٥٩م أخذت الكويت تخطو خطوات هامة في مجال تحقيق استقلالها. ففي١٩كانون الأول عام١٩٥٩م أصدر الشيخ عبد الله السالم الصباح مرسوماً لتنظيم القضاء وجعله شاملاً لجميع الاختصاصات القضائية، وإليه يعود الفضل في حل الخصومات داخل الكويت. وبذلك أخذت تتخلص من الأنظمة البريطانية. وفي عام١٩٦٠م وافقت بريطانيا على أن تفرض الكويت سيادتها القضائية على جميع المقيمين فيها دون استثناء. وتبع ذلك إصدار مجموعة من التشريعات المدنية الجنائية، قام خبراء مختصون بوضعها. وأحرزت الكويت تقدّماً في مجال إصدار قانون النقد الكويتي في عام١٩٦٠م، إذ كانت تتعامل سابقاً بالروبيّة الهنديّة فأصدرت نقداً خاصاً بها. أما في مجال التنظيم الإداري فقد بدأت مرحلة جديدة في الإعداد لإنشاء مؤسسات دستورية حديثة. وأبرز ما ميّز هذه الفترة إصدار قانون الجنسيّة. فالكويتي هو الذي عاش في الكويت دون انقطاع منذ عام١٩٢٠م. وأوضح قانون الجنسية أنه يحق للعرب اكتساب الجنسيّة الكويتيّة بعد إقامة لا تقل عن عشر سنوات وترفع هذه المدة إلى ١٥سنة لغير العرب. ونصّ على أن الزوجة الأجنبيّة المتزوّجة بكويتي لا يحق لها اكتساب الجنسيّة إلا بعد زواج مستمر لا يقل عن عشر سنوات. ويحق لوزير الداخليّة سحب الجنسيّة من المتجنسين إذا اقتضت مصلحة البلاد ذلك. وتمهيداً لاستقلال الكويت، أنشئت قنصليات كويتيّة في بعض العواصم العربيّة. وسمح لبعض الدول العربيّة بإنشاء قنصليات لها في الكويت. وفي١٩حزيران عام١٩٦١م ألغت الكويت معاهدة عام١٨٩٩م. وأبدت بريطانيا موافقتها على ذلك، وتبودلت بينهما وثائق إلغاء المعاهدة، فأرسل المقيم السياسي البريطاني في الخليج وليم لوس luce بمذكرة إلى عبد الله السالم الصباح تضمنت النقاط التالية:

(١) إلغاء معاهدة ٢٣كانون الثاني عام١٨٩٩م لأنها لا تتفق مع سيادة واستقلال الكويت.

(٢) تستمر علاقات الصداقة بين البلدين.

(٣) يتشاور البلدان في الأمور التي تهمهما، عندما تستدعي الضرورة ذلك.

(٤) استعداد حكومة صاحبة الجلالة لمساعدة الكويت إذا طلبت منها ذلك.

(٥) تستمر هذه الاتفاقيّة سارية المفعول حتى يبدي أحد الطرفين رغبته

في إلغائها. وهكذا عدّت هذه المذكرة وموافقة الأمير عليها بمثابة إلغاء لاتفاقية عام١٨٩٩م.لكن في١٣أيّار عام١٩٦٨م ألغيت اتفاقيّة عام١٩٦١م وذلك تمشياً مع سياسة بريطانيا التي أعلنت انسحابها العسكري من منطقة الخليج قبل نهاية عام١٩٧١م. وفي٢٠حزيران تم قبول الكويت عضواً في جامعة الدول العربيّة[٣٥]. وهكذا فقد كان، إعلان استقلال الكويت بداية انطلاقها في طريق التطوّر، إذ خطت خطوات مهمة في تنظيماتها الداخليّة وتحولت إلى دولة دستوريّة وتأسس فيها مجلس تأسيسي. وكان هذا المجلس إيذاناً ببدء مرحلة استقلالية تستكمل الكويت خلالها أسباب الحكم الدّستوري الذي يستهدف خير البلاد. وقد قسّمت الكويت إلى ١٠دوائر انتخابيّة كل دائرة تنتخب نائبين عنها. وفي١٧كانون الأول عام١٩٦٢م تحولت دوائر الحكومة إلى وزارات كي تتناسب مع التطور الحديث. وقد صادق الشيخ عبد الله السالم الصباح على دستور الكويت الذي تضمنه ١٨٣مادة في خمسة أبواب تتعلق بالدولة ونظام الحكم فيها وبالحقوق والواجبات العامة وبالسلطات والأحكام العامة والمؤقتة. فنص الباب الأول على أن الكويت دولة عربيّة مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الأمة العربيّة ودينها الإسلام، ولغتها الرسميّة العربيّة. وأن الحكم فيها يكون محصوراً في يد ذريّة الشيخ مبارك الصباح، وقد اشترطت اجراءات خاصة لاختيار ولي العهد. أمّا البابان الثاني والثالث فتضمنا مجموعة من الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة كحقوق الأسرة والعمل والعدالة والواجبات العامة، وكلها تدور حول فكرة الحريّة والمساواة. أمّا الباب الرابع فيتعلق بصلاحيات الأمير الدستورية وكيفيّة تشكيل مجلس الأمّة، وبأحكام خاصة بالسلطة التنفيذية وينص الباب الخامس على الأحكام المتعلقة بتعديل الدستور، وقد أوضح أنّه لا يجوز أي تعديل للدستور إلا بعد مضي خمس سنوات على الأقل من تاريخ بدء العمل فيه. ونصّ الدستور أيضاً على استقلال القضاء الذي كان في الماضي حكراً على الأسرة الحاكمة.

ثامناً: النفط وآثاره في تطور الكويت:

بقي سكان الكويت حتى أواسط الثلاثينات يعيشون على القنص والصيد

واستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة. وقد ساعد موقع الكويت الجغرافي على تنمية حالتها الاقتصادية وازدهارها. فهي تؤلف عقدة مواصلات بحرية وبرية على ساحل الخليج العربي. وتعد مركزاً للوافدين إليها من نجد والإحساء وبادية الشام. وكذلك هي سوق لتصريف البضائع والمنتوجات كالصوف والجلود. ويسجل تاريخ التجارة الكويتية أن ازدهارها ونموها تحققا في عهد الشيخ مبارك الصباح الذي اتفق مع شركات البواخر على أن ترسو بواخرها في ميناء الكويت بدلاً من تفريغ حمولتها في ميناء المحمرة واستيرادها من هناك من قبل التجار الكويتيين. وكان لمساهمته، في تقديم رؤوس الأموال من ماله الخاص أثر كبير في تنشيط حركة التجارة الكويتية، ومنها صفات التاجر الكويتي الذي يتحلى بالصدق والأمانة ويتحاشى الغش في تعامله ولا يلجأ لكتابة المقاولات والسندات لأنه لا ينكث العهد(٣٦). وكانت الكويت تصدّر الصوف والأسماك وتستورد المواد الغذائية وذلك لقلة المياه والتربة الصالحة للزراعة. إذ يكاد القطاع الزراعي يكون معدوما فيها فتضطر دائما للاستيراد(٣٧). وقد قامت بتجربة في منطقة العبدلي وتسمى منطقة المشاريع الزراعية فأنشأت عدة مزارع نموذجية ووفرت لها المياه والتربة ووزعتها على المزارعين، ومع هذا فما زالت الزراعة محدودة وتعاني من نقص الأمطار التي لا تزيد معدلها على ١١٠ملم. أما الصناعة فقد كانت قبل ظهور النفط تقتصر على صناعة السفن الشراعية التي اتقنها وأبدع بها الكويتيون، وكذلك استخراج اللؤلؤ. لكن بعد ظهور النفط الذي شكل العمود الفقري للتنمية الاقتصادية وقلب كل الموازين، فأصبحت الكويت محط أنظار كثير من شركات النفط ومنطقة جذب لتيارات حضارية مختلفة مما أثر في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية(٣٨). فبذلت محاولات منذ عام١٩٥١م لتحويل المجتمع الكويتي إلى مجتمع الرفاهية بخاصة بعد أن ازدادت واردات النفط نتيجة مناصفة الأرباح وحسم الدخل المتحصّل عليه من البترول إلى ثلاثة أقسام: قسم يدفع للمصروفات الجارية وقسم لأعباء التطوير والقسم الثالث يستغل في البنوك الأجنبية. وترتب على تضخم واردات النفط ظهور طبقات رأسمالية سيطرت على أعمال الإنشاءات الحديثة والخدمات العامة. وأصبحت هذه الطبقة تحتل مع شيوخ الأسرة الحاكمة قمة الهرم الاجتماعي، بينما اتجه عدد من المشتغلين بالحرف التقليدية كصناعة اللؤلؤ،

وصيد الأسماك وبناء السفن تركوا أعمالهم واتجهوا إلى الصناعات المتعلقة بالنفط. وترتب على تدفق موارد النفط ظهور طبقة رأسمالية وطنية ساهمت إلى حد كبير في تأسيس شركات نفط وطنية والجدير بالذكر أن اتفاقيات النفط تنص على أفضلية التعيين للعمال العرب والأفضلية للكويتيين ثم للبلدان العربية المجاورة ومع هذا بقي يعمل في هذه الشركات آلاف العمال من الهنود والباكستانيين. وقد شهد قطاع النفط في الكويت بعض الانتفاضات العمالية التي كانت متأثرة إلى حد كبير بأحداث العالم العربي وخاصة العدوان الثلاثي عام١٩٥٦م على مصر وحرب عام١٩٦٧م فعلى أثر نكسة حرب حزيران أوقفت الكويت ضخ النفط إلى الدول التي أدينت بتواطئها في العدوان ولم تستأنف الكويت الضخ إلا بعد أن عرفت أن ضخ النفط يكلف الدول المنتجة الخسائر وفضلا عن أنه يمكن تخصيص حصيلة من موارد النفط لمساعدة الدول العربية التى تضررت من العدوان، وفي عام١٩٧٥م أقدمت الكويت على خطوة مهمة وحاسمة في مجال النفط عندما فرضت سيطرتها الكاملة على إنتاجه وتسويقه لاغية نظام الامتيازات الأجنبية[٣٩].ويمكن القول إن مجتمع الكويت تحول بين عشية وضحاها من مجتمع بسيط إلى مجتمع منفتح ثري، فالكويت ثالث دولة في العالم من حيث دخل الفرد فيها في السنة. وقد كان للمرأة الكويتية دور اقتصادي، في المجتمع الكويتي وذلك من خلال عملها اليدوي في صنع بيوت الشعر "الغزل" وخياطة الملابس أو المبيعات "الدلالة"[٤٠] والحياكة. وكان في الماضي للنساء، سوق خاص بهن هو سوق الحريم. وبعد ظهور النفط اختفى هذا الدور واقتصر على نساء البدو. وفي منتصف السبعينات، برزت ظاهرة جيدة تمثلت باتجاه المرأة الكويتية نحو التجارة وخاصة التجارة في المحلات الخاصة لبيع الملابس. ثم العمل في تجارة العقارات، وإنشاء الشركات. ونجحت المرأة الكويتية بهذا المجال[٤١]. وإذا ما استمرت المرأة تعمل وتهتم بالاقتصاد وخاصة خلال العقدين القادمين فإن شكل المجتمع الكويتي سيتغير خلال القرن الحادي والعشرين. أما بالنسبة للتعليم في الكويت فهناك صلة بين التجار والتعليم. فقد قام كبار التجار بفتح كتاتيب من أموالهم الخاصة لتعليم أبنائهم وأبناء الفقراء. لكن الكتاتيب لم تتطور إلى مدارس ولم تعمر طويلا لاعتمادها على التبرع الفردي. وكان المعلمون في الكتاتيب لا يحسنون الكتابة

الصحيحة ولا قراءة القرآن القراءة السليمة. ولكن مع تطور التجارة في الكويت واحتياج التجار ورجال الأعمال إلى كتبة ومحاسبين لتنظيم التعليم فقام التجار وأعيان الكويت بتأسيس أول مدرسة نظامية عام١٩١٢م أطلق عليها المدرسة المباركية نسبة إلى الشيخ مبارك الذي أسهم بإنشائها. واشترك بالتدريس فيها مدرسون من البلاد العربية وأول من عمل بالتعليم فيها الشيخ حافظ وهبة. وكان يوسف القناعي أول مدير لها. وكانت هذه المدرسة تعتمد على التبرعات، فقد تبرع لها التاجر عبد الرحمن آل إبراهيم بمبلغ ١٢٠ألف روبية[٤٢]. وفي عام١٩٣٦م دعا جماعة من التجار ومنهم محمد أحمد الغانم إلى اجتماع لمساعدة التعليم، فقرروا فرض ضريبة قدرها٠,٥% على الواردات يعود ريعها لمشاريع التعليم واستقدمت بعثة من فلسطين عام ١٩٣٦ للتعليم في الكويت وظل هذا الأمر يسير ببطء حتى اكتشاف البترول، فتأسست في عام١٩٥٠م ست وثلاثون مدرسة وفي عام١٩٦٢م بلغ مجموع المدارس ١٢٨مدرسة[٤٣] أما مراحل التعليم في الكويت فهي مثل المراحل في البلاد العربية إذ يتدرج الطفل من التعليم في رياض الأطفال إلى التعليم الابتدائي فالمرحلة المتوسطة ثم المرحلة الثانوية ويكون التركيز خلال هذه المرحلة على النواحي القومية ودروس التاريخ وإبراز مقومات الأمة العربية إضافة إلى الاهتمام بالنواحي العلمية والنظرية. أما التعليم الثانوي فكان مقتصرا على الفتيان ثم ألحقت فصول خاصة بالبنات. ففي عام١٩٥١م كان عدد الطالبات في المرحلة الثانوية ١٢طالبةً. وفي عام١٩٦٢م بلغ ٧٣٩طالبة. وهناك معاهد للمعلمات مدة التعلم فيها ثلاث سنوات تتخرج منها الفتيات ويصبحن مدرسات. وتدرس فيها إلى جانب المنهاج الثانوي مواد التدبير المنزلي. إضافة إلى ذلك فقد اهتمت وزارة التربية بإحداث المعاهد كمعهد المعلمات والمعهد الديني ومعهد النور الذي أنشئ للمكفوفين ومعهد الأمل الخاص بالصم والبكم لكلا الجنسين. وإلى جانب ذلك اهتمت الكويت بنشر التعليم خارج الخليج العربي بهدف نشر المعرفة، فقد افتتحت مدرسة عام١٩٥٢م في بومباي لتعليم أبناء الجالية العربية والهنود دروساً بالعربية[٤٤]. وأنشأت أيضاً معاهد التعليم المهني لتوفير الفنيين للعمل بالصناعة، ومعاهد دراسات تجارية. ومع كل هذا التشجيع للعلم أخذت الكويت توفد طلابها للخارج للدراسة والتخصص. أما في مجال التعليم

الجامعي، فقد بدأ التفكير بإحداث جامعة عام١٩٦١م، فأنشئ مجلس مؤقت لجامعة الكويت وافتتحت الدراسة عام١٩٦٤م بكليتين للآداب والعلوم ومن ثم أقيمت الجامعة التي طورت الحياة الثقافية بإجراء البحوث العلمية وكان القصد من ذلك توفير حاجات الكويت لمدرسين ومهندسين وأطباء وقانونيين. وافتتحت فيها الدراسة في١٥تشرين الأول عام١٩٦٦م باحتفال حضرة الشيخ سالم الصباح. ومضت الجامعة تؤدي رسالتها العلمية، فاستقدمت أساتذة زائرين من جامعات عربية وأجنبية. وزودت بمكتبة لتؤدي رسالتها في تقديم الخدمات وتيسير سبل الطلاب في الاطلاع والمعرفة.

هوامش الفصل الرّابع

[١]) محمود، المرجع السابق، ص ١٦٦

[٢]) محمود، المرجع السابق، ص ١٦٧

[٣]) عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص١٤٤.

[٤]) أحمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠- ١٩٦٥، طباعة ونشر ذات السلاسل، ط١، ١٩٨٤م، ص٣٠٧- ٣٠٨.

[٥]) أبو حاكمة، المرجع نفسه، ص ٣١٢

[٦]) الرشيد، المرجع السابق، ص١٤٤.

[٧]) أبو حاكمة، المرجع السابق، ص٣٠٨.

[٨])لوريمر، المصدر السابق، ج٣، ص٣٩٢٦.

[٩]) بوشهر، ميناء على الشاطئ الفارسي، يقع في الجزء الشمالي من الخليج، وكان يوجد فيه مقر المقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج.

خالد محمود السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ١٩٠٢-١٩٢٢، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٢٥

[١٠]) قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات، ١٨٤٠-١٩١٤، ص ٢٧٠.

نقلاً عن: Curzon Persia and the persion Question Vo1. III p.462

[١١]) Saldanha, precies of Kuwait affaires vo1. V.p17.No.46.

[١٢])الخترش، تاريخ العلاقات السياسية لبريطانيا، ١٨٩٠- ١٩٢١، ص ٣٣

[١٣])الخترش، المصدر السابق، ص ٣٤.

[١٤])الخترش، تاريخ العلاقات السياسية...، ص ٣٤-٣٥

[١٥]) Saldanha,, precies of Kuwait affaires volum v, No. 58p.19.

أيضاً: Wilson (Amold), the Persian Gulf, London 1954, p.252.

[١٦]) في عام١٨٩١م عقدت بريطانيا معاهدة مع عمان.

انظر: قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ص٤١٢-٤٥٠

[١٧]) Saldanha,, precies of Kuwait affaires volum v, No.63.p.21.

[١٨]) صلاح العقاد، الاستعمار في الخليج الفارسي، طبعة الألف كتاب، ٢١، بإشراف وزارة التربية والتعليم بمصر. ص١٤٩

[١٩]) قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات ١٨٤٠- ١٩١٤، ص٢٧٢.

[٢٠]) Saldanha,, precies of Kuwait affaires volum v, No.91.p.25.

[21]) محمود علي الداوود، الخليج العربي والعلاقات الدوليّة ١٨٩٠-١٩١٤ دار المعرفة القاهرة، ١٩٦١م،ج١ ، ص٢٠٨.

[22]) سليم طه التكريتي، الصراع على الخليج العربي، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد١٩٦٦م، ص٨٨.

[23]) التكريتي، المصدر السابق، ص٨٨-٨٩.

[24]) خزعل، المرجع السابق، ص١٢٢.

[25]) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولية العثمانية، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت ١٩٦٠م، ص١٩٦.

[26]) محمود، المرجع السابق، ص١٨٦.

[27]) المرجع نفسه،. ص١٨٧.

[28]) أبو حاكمة، المرجع السابق، ص٣٢٩-٣٣١.

[29]) أمين الريحاني، ملوك العرب، دار الجليل، بيروت ط٨ ١٩٨٧، ص ٦٥١

[30]) راسم رشدي، كويت وكويتيون، دراسات في ماضي الكويت وحاضرها، بيروت ١٩٥٥، ص٦١-٦٤.

[31]) رشدي، المرجع نفسه، ص٦٤.

[32]) محمود كامل، المرجع السابق، ص٤٨٩.

[33]) قاسم، الخليج العربي١٩٤٥-١٩٧١، ص٤٠.

[34]) المرجع نفسه، ص ٤٧.

[35]) محمود، المرجع السابق، ص٣٦٣.

[36]) سنان، الكويت زهرة الخليج، ص ١٣٢.

[37]) بدر عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الكويت الاجتماعي والاقتصادي، ط٢، الكويت،١٩٨٦م، ص٢٤٨-٢٤٩.

[38]) محمود، المرجع السابق، ص١١.

[39]) الخصوصي، المرجع السابق، ص٢٤٧-٢٤٨.

[40])أ.لوشر، الكويت عام١٨٦٨م، ترجمة عبد الله ناصر الصانع، نشر مكتبة الطليعة، الكويت، ط١، عام١٩٥٩م، ص٢٩.

[41]) نورية السداني، المرأة الكويتية في القرن الحادي والعشرين، بدون تاريخ، ص٤٦-٤٧.

[42]) الرشيد، المرجع السابق، ص٣٦٧-٣٦٨.

[43]) محمود، المرجع السابق، ص٢٥٥.

[44]) محمد الحسيني عبد العزيز، حضارة الكويت ودول الخليج منشورات ذات السلاسل، ط١٩٧٥،٢م، ص٧٨.

الفصل الخامس

البحرين(١٨٤٠م-١٩٧١م).

أولاً: البحرين منذ حكم محمد بن خليفة عام(١٨٤٢م)حتى حكم حمد بن عيسى عام(١٩٢٣م)

ثانياً:عهد الشيخ حمد بن عيسى(١٩٢٣-١٩٤٣م)

ثالثاً:النشاط الأمريكي والروسي في البحرين

رابعاً:عهد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة(١٩٤٣-١٩٦١م)

خامساً: عهد الشيخ عيسى بن سلمان بن حمد آل خليفة

سادساً: الحركة الوطنية في البحرين

سابعاً: استقلال البحرين.

ثامناً: أثر النفط على تطور البحرين

هوامش الفصل الخامس

Damascus University

أولاً: البحرين منذ حكم محمد بن خليفة عام١٨٤٢م حتى حكم حمد بن عيسى عام١٩٢٣م.

عندما تقدّمت القوات المصريّة بقيادة خورشيد باشا لاحتلال البحرين، بادرت بريطانيا بالتصدي لها، نظراً لأهمية البحرين السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، فشدد بالمرستون على استخدام القوة. وإن تطلّب الأمر احتلالاً فعلياً فإن ذلك ستقوم به حكومة بومباي بقصد منع القوات المصريّة من تحقيق أهدافها. لذلك سارع الأدميرال فردريك متيلاندMaitland قائد البحرية البريطانية في الهند إلى منطقة الخليج العربي، لتقديم الحماية لشيوخ البحرين. وقد خيّب ظهور القوة البريطانية آمال خورشيد باشا في تحقيق نواياه خاصةً أنه كان قد عقد اتفاقاً عام١٨٣٩م مع حاكم البحرين الشيخ عبد الله آل خليفة وكان هذا الاتفاق يقضي بأن تدفع البحرين جزية قدرها ألفا كرونة مقابل حماية الحاكم البحريني من منافسية الفرس وسلطان مسقط. لكن بعد ظهور القوات البريطانيّة أوعز المقيم البريطاني للشيخ عبد الله بالتراجع عن اتفاقيّة مع خورشيد باشا. وهكذا باءت المحاولات المصرية بالإخفاق[١] لأن بريطانيا منذ أن عقدت معاهدة مع البحرين عام١٨٢٠م لقمع القرصنة كانت تقاوم أي قوة تريد السيطرة على البحرين. ولقد تعرض الشيخ عبد الله بن خليفة لنزاع شديد مع حفيد أخيه الشيخ محمد الذي كان يشترك معه في الحكم. ويبدو أن محمداً تلقى مساعدات فعّالة من المقيم البريطاني، فتمكن من طرد جده المسن الذي لجأ إلى ميناء بوشهر وتسلم زمام الحكم. وأخذ الكولونيل هنل، نظراً لما له من خبرة في شؤون البحرين والخليج، يتدخّل في أمور البحرين. لكن محمد بن خليفة لم يحترم تعهداته مع الحكومة البريطانية، بل أخذ يوالي اتصالاته مع حكومة فارس والحكومة العثمانية، طالباً حماية كل منهما عندما أحس بالضغط البريطاني عليه بعد توقيع معاهدة عام١٨٥٦م بشأن إلغاء الرقيق وقد تعهد فيها بأن يلقي القبض على جميع الأرقاء الذي يتم إدخالهم إلى أي جزء من بلاده، وأن يسلمهم إلى سفن الأسطول البريطاني، وأن يحتجز كل سفينة من سفن رعاياه تقوم بنقل الرقيق. لذلك ونتيجة هذه الضغوط، حاول التقرب من الدولتين العثمانية والفارسية، فوضع في قلعة أبي ماهر فوق البرج الغربي علماً عثمانياً وعلى البرج الشرقي علماً إيرانياً[٢]. وفي عام١٨٥٨م أرسلت الدولة

العثمانيّة وفداً عثمانياً إلى البحرين، لكن بالمرستون لم يلبث أن أرسل احتجاجاً إلى الأستانة يذكّر فيه أن حكومة البحرين مستقلة بحكم ارتباطها مع بريطانيا بمعاهدات خاصة أهمها معاهدة إلغاء تجارة الرقيق، ولا يجوز لأي دولة فرض سيطرتها عليها. ولم تصر حكومة الآستانة على موقفها، بل بادرت إلى سحب وفدها. وقد أخذت بريطانيا تفكر بعقد معاهدات جديدة مع البحرين، لتدعيم سيطرتها، فكان توقيع معاهدة عام١٨٦١م، التي اعترف فيها الشيخ محمد بن خليفة بشرعية الاتفاقيات السابقة، وتعهد بوقف القرصنة، وعرض الخلافات بينه وبين جيرانه على بريطانيا التي تعهدت بحمايته. واعترف كذلك بحق المقيم السياسي البريطاني في الخليج بمحاكمة الرعايا البريطانيين المقيمين في البحرين[٣]. ويبدو أن بريطانيا أخذت تتخوف من القوة البحرية التي كان يملكها شيخ البحرين، إذ استطاع الشيخ محمد بن خليفة قبل توقيع المعاهدة أن يفرض سيطرته على الأحساء والقطيف. وعلى إثر ذلك، تقدّم الكابتن جونز على رأس أربع سفن بحرية وتمكن من محاصرة المنامة وطلب من شيخ البحرين أن يقلل من عدد السفن التي يستخدمها بحجة أن أسطول البحرين يهدد الملاحة والتجارة في الخليج، وأن الحكومة البريطانية ستقدم له الحماية إذ ما احتاج إليها. وأنها تعد استخدام السفن لأغراض حربية، وخاصة في معارك الشيخ محمد بن خليفة، ضد قطر، خرقاً صريحاً لهذه الاتفاقيات. ثم قامت بإرسال المقيم السياسي في الخليج إلى البحرين ومعه ثلاث سفن لإنذار الشيخ محمد ومطالبته بالتخلي عن الحكم لأنه أخل بشروط الاتفاق وفقد حقوقه في الحكم بسبب غارته على قطر. وحاول الشيخ محمد تبرير موقفه بأنه دفاع عن إمارته، لكن المقيم البريطاني وجه بوارجه باتجاه قلعة أبي ماهر فهدمتها وأطاحت بالعلمين العثماني والإيراني وأحرقت السفن الشراعية العائدة للشيخ محمد. وتم تنصيب علي بن خليفة حاكماً على البحرين. أما الشيخ محمد فقد غادرها إلى الكويت. وفي عام١٨٦٩م التمس الشيخ علي بن خليفة من المقيم البريطاني السماح لأخيه محمد بالعودة إلى البحرين. وما كاد محمد بن خليفة يعود حتى أخذ يحيك المؤامرات ضد أخيه. فقد تقدم إلى القطيف وأخذ يجمع قوات لاستعادة حكمه[٤] فساندته قبيلة بني هاجر، ولقي الدعم من سكان البحرين الناقمين على حكم علي بن خليفة الذي أثقلهم بالضرائب، ونجح

الشيخ محمد في مهاجمة قلعة "أبو ماهر" وقتل الشيخ علي وكثير من شيوخ البحرين وتمكن من احتلال المنامة والمحرق. ولما كانت عودة محمد بن خليفة للحكم تحدياً للنفوذ البريطاني، فقد أسرع بلي بالتدخل بعدة طرادات حربية وتمكن من إلقاء القبض على الشيخ محمد وأرسله هو ومن معه إلى بومباي(٥). وأرغمه على دفع غرامة قدرها ٢٠٠ ألف روبية. وتسليم كل سفنه التي اشتركت في الهجوم على قطر. ثم عين الشيخ عيسى بن خليفة عام١٨٧٠م حاكماً على البحرين وساعدته بريطانيا بقوة بحرية لتعزيز وحماية حكمه الذي استمر حتى عام١٩٢٣م. وخلال عهده الطويل توثقت العلاقات بينه وبين بريطانيا إلى أبعد الحدود خاصة عندما حاول العثمانيون تأكيد سيطرتهم مجدداً على الأحساء عام١٨٧١م وأبدوا رغبتهم بالسيطرة على البحرين(٦). فقد أرسل مدحت باشا كتاباً يطلب فيه من الشيخ عيسى إعلان ولائه للدولة العثمانية، لكنه سلم الكتاب للإنكليز وقال:" حسبي بريطانيا صديقة وحليفة"(٧). وعندما حاولت ألمانيا التقرب من الشيخ عيسى بوساطة معتمدها التجاري في البحرين فإن الشيخ عيسى أجاب بأنه لا يؤثر على صداقة بريطانيا أحداً.

والسؤال هنا : هل كانت بريطانيا تقوم فعلاً بحماية الشيخ عيسى وبلاده حسب المعاهدة الموقعة بينهما عام١٨٨٢م والتي تعهّد بموجبها الشيخ عيسى أن لا يعقد اتفاقيات مع أي دولة سوى بريطانيا وألا يسمح لغيرها بتعيين ممثلين في البحرين أو إقامة مراكز لتموين السفن بالفحم؟

ومن المعلوم أن الشيخ عيسى قد وقع كذلك معاهدة مع بريطانيا عام١٨٩٢م تعهد فيها أن لا يبيع ولا يؤجر ولا يتنازل عن أي جزء من البحرين لأي دولة غير بريطانيا(٨). وفي الحقيقة فإن بريطانيا لم تقف بجانبه أثناء الأزمات. وخير شاهد على ذلك، ضرب الزبارة والتي كانت مقر آل خليفة في قطر، عندما قدموا من الكويت. وبعد ذلك انتقلوا منها إلى البحرين وقد كانت بؤرة للفتن والثورات لأنه كان يسكنها الجلاهمة وآل ابن علي وبنو هاجر المتنافسون على السيادة ففي عام١٨٩٣م قاموا بفتنة في الزبارة وتأهب الثائرون للهجوم على الخليفيين في البحرين فبعثت حكومة البحرين إلى المقيم السياسي في بوشهر تستأذنه بالدفاع عن نفسها فحذرها الوكيل من نقض الاتفاق. لكنها طالبته بالدفاع

عن البلاد حسب الاتفاق بينهما. لكن المقيم اشترط مقابل الدفاع، شروطاً جديدة منها أن يكون لبريطانيا وكالة في البحرين. ويكون للوكالة حق الإشراف على الرعايا البريطانيين. ولم يسع الشيخ عيسى إلّا الرضوخ لمشيئة المقيم السياسي وقبول شروطه، فقامت البوارج البريطانيّة الراسية في الخليج بتفريق الثائرين بالقنابل. وتهدم إثر ذلك قسم كبير من الزبارة وفر سكانها. ولم يكتف المقيم السياسي بهذا الإجراء، بل ذهب ببوارجه إلى مغاصات اللؤلؤ واستولى على جميع السفن العاملة في الغوص وقادها مع اصحابها إلى البحرين، فسجن الرؤساء منهم وأمر بإحراق سفنهم جميعاً[٩]. وفي عام١٩٠٣م قام خادم ألماني بإهانة ابن أخ الشيخ عيسى لكن هذا ضربه، فشكاه إلى رئيسه ورفع دعوى إلى الوكيل السياسي وإلى حكومة ألمانيا، فاضطرت الحكومة البحرينية إلى الاعتذار لحكومة ألمانيا ودفعت إلى الخادم الألماني مبلغ ثلاثة آلاف روبية تعويضاً عن الإهانة إلا أن هذه التسوية لم ترض الوكيل السياسي في بوشهر برسي كوكس فجاء بمراكبه الحربية إلى البحرين وعرض على الشيخ عيسى مطالبه وشروطه فنفذها الشيخ مادة مادة. وأبرزها حرق ما تبقى من سفن البحرين الحربية، والحكم على ابن أخ الشيخ عيسى بالنفي إلى بومباي في الهند. وتتالت تنازلات الشيخ عيسى أمام الإنكليز، ففي عام١٩٠٩م وافق على أن تتولى الحكومة البريطانية ممارسة السلطة القضائية على الأجانب في البحرين، وفي عام١٩١٢م أذاع المقيم السياسي بياناً في البحرين منع بموجبه أهالي البحرين من بيع السلاح[١٠]. وأدّى هذا العجز والاستسلام المطلق للإنكليز إلى نشوء اضطرابات داخليّة، مما دفع الوطنيين أن يطالبوا الشيخ عيسى بوضع حد لهذه الاعتداءات وبإنشاء مجلس يضم ذوي الرأي ويكون مخولاً لحق القضاة الشرعيين وعزل غير الوطنيين واتخاذ الأسباب الكفيلة بحفظ حقوق السكان البحرينيين. ولما تم إنشاء هذا المجلس أوعز المعتمد السياسي للشيخ عيسى بأن هذا المجلس يعمل على خلع عظمتكم. فسرعان ما حّله. ولأن مطالب الوطنيين كانت ضد رغبة المعتمد البريطاني فقد قام هذا المعتمد باعتقال عبد الوهاب الزياني الذي كان على رأس المطالبين بالإصلاح. تدخل الإنكليز مرة أخرى عام١٩٢٣م إثر فتنة بين عربي نجدي وفارسي، فعزلوا الشيخ عيسى ونصبوا ابنه حمد حاكماً[١١] مكانه. لكن الشيخ عيسى أرسل برقية احتجاج إلى وزارة

الخارجية البريطانية ضد الوكيل البريطاني الماجور ديلي. غير أنّ الحكومة البريطانيّة تجاهلت شكواه. وأرسل المقيم البريطاني في الخليج رسالة شديدة اللّهجة للشيخ عيسى تنص على ضرورة إدخال الإصلاح إلى البحرين. لقد كانت بريطانيا هي المتحكّمة في أمور البحرين وتستغل أصغر الأمور من أجل عزل شيخ وتولية آخر، حسب ما تراه في مصلحتها فقط. وهكذا تحولت البحرين مستعمرة بريطانية من النّاحية العملية إذ أنّ السلطات البريطانيّة كانت تمارس إدارة الشرطة وتدير أجهزة الحكومة وتسن اللوائح إضافة إلى أنّها كانت تتولى حق التمثيل الخارجي. وقد أرسلت تشارلس بلجراف Belgrave ليكون مستشاراً لحكومة البحرين. وبعد ستة أشهر من وصوله أصبح قائداً عاماً للشرطة ورئيساً للعدل ومراقباً عاماً لإدارة الماليّة والصحّة والأشغال. فأصبح بذلك الحاكم الفعلي للبحرين. وعندما تم عزله حل مكانه بريطاني آخر احتل مركز سكرتير عام حكومة البحرين. وظّل كثير من الدوائر يديرها مديرون بريطانيون حتى الاستقلال[١٢].

ثانياً: عهد الشيخ حمد بن عيسى(١٩٢٣-١٩٤٣م).

لم يكن الشيخ حمد، خلال السنوات الأربع الأولى لتسلمه مقاليد الحكم، يتصرف في أمر إلا بمشورة ديلي. وتخلّلت تلك السنوات محاولات بريطانيا فرض الإصلاح على البحرين[١٣] فبدأت بتخفيض المخصصات الماليّة العائدة لأفراد الأسرة الحاكمة حتى ٣٠،٠٠٠ روبيّة سنوياً في حين كان مرتب الشيخ عيسى وحده يصل إلى ٤٠٠٠ روبيّة شهرياً. ورأت بريطانيا ضرورة إصلاح الجمارك من وجهة نظرها بأن جعلتها تحت إشراف موظفين بريطانيين. لذلك انتدب المستر بور Bower من قسم جمارك الهند لتنظيم جمارك البحرين[١٤]. واتجه الإصلاح كذلك إلى إعادة تنظيم الميزانيّة وتسجيل الأراضي وإصلاح نظام الغوص. وهدف الإصلاح إلى تعليم أولاد الشيخ حمد كونهم مرشحين لتقلد شؤون الحكم فأرسلوا إلى الكليّة الرئيسية في الهند لتلقي العلم. كما انتقلت عاصمة البحرين إلى المنامة بدلاً من المحرق العاصمة السابقة وما عدّته بريطانيا إصلاحات من وجهة نظرها، عدّه الوطنيون في البحرين تدخلاً فعلياً من جانب بريطانيا في شؤونهم وزيادة في سيطرتها على أمور البحرين. بدأ الشيخ حمد تطبيق الإصلاحات في الإدارة الماليّة والتعليم والشرطة. وتوثّقت أكثر فأكثر، علاقاته مع بريطانيا. وأبرز ما تم تنظيمه

حول إصلاح أنظمة الغوص كان إرغام التجار على الاحتفاظ بحسابات منظّمة يتولى أمرها موظفون من قبل الحكومة وأن يحمل كل غوّاص دفتراً خاصاً تصدره الحكومة وفيه توضيح لحسابه مع النواخذة وكذلك إسقاط الدين عن الغواص المتوفي كيلا يرث ابنه ديونه. كذلك، أدخل إصلاح يحرم على النواخذه بيع اللؤلؤ إلا بحضور مندوبين عن الغواصين. وأنشئت محاكم خاصة لحل مشاكل الغوص[١٥]. وقد تم تسجيل ملكيّة الأراضي باعتبار التسجيل شرطاً أساسياً للتملك. أما مشاكل البحرينيين، فقد تولى الشيخ حلها والقضاء فيها، بينما كانت الخصومات بين البحرينيين والأجانب تعالج في جلسات مشتركة بين شيخ البحرين والوكيل البريطاني. ورداً على هذه الأمور دعا الوطنيون إلى عقد مؤتمر تمخضت عنه عدّة قرارات وقد جاء في نص الوثيقة الصادرة عنه ما يلي: "نحن الموقعين أدناه من أعيان رؤساء وعساكر وعلماء وتجار. بما لنا من صفة التمثيل لأهالي البحرين، نظراً إلى ما حل في بلادنا وانتابنا في شرفنا وحقوقنا وحقوق حكومتنا وبما أنّنا على ثقة تامة من أن بريطانيا منصفة لا ترضى بإهانة شعب مسالم ولا نسلم بما أجراه الميجر ديلي من نقض ما بيننا وبينها من اتفاق ومعاهدة وحيث أنه لا سبيل إلى رجوع الحق إلى نصابه إلّا بإعلان مطالبنا فإننا نطالب بما يلي :

١. استمرار حاكمنا وأميرنا الشيخ عيسى في مباشرة الأمور كما كانت سابقاً بدون مداخلة القنصل مع المحافظة على ما بيننا وبين بريطانيا من مودة وإذا أراد الشيخ عيسى أن ينيب عنه الشيخ حمد مثلاً فلنا عليه ما لنا على والده.
٢. أن تجري الأحكام جميعها بحسب الشرع الإسلامي.
٣. تشكيل مجلس شورى من عموم الوطنيين ينظر في مصالح البلاد.
٤. تأليف هيئة من أربعة أشخاص مرضيين عالمين بعرف الغوص مهمتم النظر والفصل في جميع دعاوى الغوص.
٥. وقوف القنصل عند نص الاتفاق الذي بين الحكومة البريطانية وحكومة البحرين الشيخ عيسى فلا يتداخل في الأمور الداخلية.
٦. انتخبنا منا اثني عشر شخصاً وهم عبد الوهّاب الزياني والشيخ عبد اللطيف بن محمود والسيّد عبد الله بن ابراهيم لأجل المطالبة بتحقيق الوسائل المشروعة. فهم وكلاء عنا مفوضون" [١٦].

لكن الشيخ حمد بمعاونة الوكيل البريطاني، تخلص من أبرز الوطنيين فتم ترحيل أحمد بن خليفة إلى بومباي وعبد الوهاب الزياني إلى عدن. وبعد ذلك تحولت الحركة الوطنيّة إلى حركة سلميّة، فظهر المنتدى الإسلامي بالبحرين لكنّه تحول فيما بعد إلى هيئة سياسيّة. وقد أثّرت الأزمة الاقتصادية العالميّة التي اجتاحت العالم خلال الثلاثينات، على أحوال البحرين، فانخفضت موارد الدخل خاصة إثر انتشار اللؤلؤ المصنّع. وبعد اكتشاف النفط توجه الغواصون للعمل في شركات البترول حيث العمل الدائم والأجر الثابت[١٧].وبالرغم من تشديد بريطانيا قبضتها على البحرين فقد حدثت انتفاضة فيها عام١٩٣٨م نتيجة ما كانت تنبه إليه صحف العراق من تنديد بالمركز البريطاني في الخليج ومطالبتها البحرينيين بإنشاء مجلس تشريعي. وعبر الوطنيون البحرينيين عن استيائهم من شركة نفط البحرين لتجاهلها حقوق العمال الوطنيين. ومع نشوب الحرب العالميّة قمعت الحركة الوطنيّة. وفي نهاية هذه الحرب عادت بريطانيا لتعزيز نفوذها أكثر وخاصة بعد نقل المقيمية البريطانية عام١٩٤٦م من بوشهر إلى البحرين التي أصبحت قاعدة للاستعمار البريطاني[١٨].

ثالثاً: النشاط الأمريكي والروسي في البحرين:

أخذ النفوذ الأمريكي يظهر من خلال البعثة الأمريكية التي اتخذت البحرين مركزاً لها. ورغم أن البعثة الأمريكية ركزت جهودها على المجالات الطبية والتعليمية فإنها أبدت استيائها من الأنظمة التي فرضتها بريطانيا على البحرين، مثل إدخال كثير من الموظفين الإنكليز في الإدارات الحكوميّة. ولقد أنشأت هذه البعثة مشفى للرجال والنساء. وكان التعليم يتم بمدارسها مجاناً. ورغم أنّه كان للبعثة هدف تبشيري في المنطقة فإنها لم تنجح بتحقيق أغراضها. ولم تسعفها الأساليب الخادعة في ذلك، كفرضها إقامة صلاة قبل تقديم العلاج للمرضى، وأن كل مريض لا يحضر الصلاة لا يأخذ الدواء. لقد استطاع الشعور الإسلامي العام آنذاك أن يقضي على آمال البعثة في تحقيق أغراضها التبشيريّة.

أما النشاط الروسي فقد بدأ يظهر في البحرين عام١٩٢٩م على شكل تجاري، حيث قامت شركة "الشرق" الروسية بفتح وكالة لها هناك لكن بريطانيا عارضت الشركة خوفاً من تسرب الأفكار الشيوعية إلى البحرين. وضغطت على

الشيخ حمد بن عيسى لإصدار إعلان. بمنع التعامل التجاري مع روسيا. وكذلك صدرت تعليمات إلى السلطات الجمركية بعدم تفريغ بضائع السفن الروسية وعدم السماح لأي شخص فيها بالنزول إلى البحرين. وكان لألمانيا أيضاً نشاطات تجارية في البحرين من خلال شركة الونكهاوس ومحاولات شركة أندوتش الألمانية فتح وكالة لها في البحرين لتجارة الأصداف لكن بريطانيا أوعزت للشيخ أن يكون جميع موظفي الوكالة من البريطانيين أو البحرينيين. وكانت بريطانيا تقلص أي تعامل للبحرين مع أي دولة غيرها[١٩].

رابعاً:عهد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة بينعامي(١٩٤٢.١٩٦١م):

تسلم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة مقاليد الحكم بعد وفاة والده عام١٩٤٢م. وخلال عهده تضاعفت ثروة البحرين وازدادت المشروعات العمرانية والإنشائية فتقدمت المؤسسات الصحية وتوثقت العلاقات مع الدول العربية والأجنبية. ففي عام١٩٤٢م كان دخل البحرين ٣،٧٥٠،٠٠٠روبية ارتفع عام١٩٦١م إلى٧٥مليون روبية وتأسست خلال حكمه هيئة الري والصحة والمواصلات. وتم التركيز على المشاريع وخاصة في مجال الكهرباء وبناء المطار المدني. وشاد المستشفيات واستقدم الأطباء الاختصاصيين. كذلك أنشئت البلديات وتشكلت مجالس وهيئات مثل المجلس الإداري. ووقعت قوانين كان من أبرزها قانون العمل والسير والمرور. وقد توفي الشيخ سلمان عام١٩٦١م تاركاً الحكم لابنه عيسى بن سلمان بن حمد آل خليفة[٢٠].

خامساً: عهد الشيخ عيسى بن سلمان بن حمد آل خليفة:

أخذت وطأة نظام الحماية تخف، مما أتاح لحكومة البحرين تطوير مؤسساتها الإدارية وتزويد هذه المؤسسات بمزيد من الاختصاصات. فبعد أن كان المجلس الإداري عام١٩٥٦م محدود الصلاحيات وله مستشار بريطاني، أقيم مجلس الدولة في عام١٩٧٠م على أسس جديدة وشكل قيامة خطوة أولى نحو إعلان الاستقلال. وقد أشار الشيخ عيسى في خطابه السنوي بتاريخ ١٦ كانون الأول عام١٩٦٩م إلى رغبته في اتخاذ خطوات من شأنها تطوير البحرين فأصدر ثلاثة مراسيم:

المرسوم الأول: ينص على إنشاء مجلس للدولة، لأن مجلس الدولة هو الجهاز

التنفيذي والإداري الذي يتولى تنفيذ السياسة العامة للدولة، وفق القوانين والمراسيم والأنظمة. ويحدد هذا المرسوم اختصاصات مجلس الدولة في إصدار القرارات الإدارية وسن المراسيم والأنظمة وإعداد الميزانية. وتكون مناقشات هذا المجلس سرية.

أما المرسوم الثاني: عام١٩٧٠م فيختص بالتنظيم الإداري للدولة فهو يقسم الدولة إلى/١١/دائرة رئيسية، بحيث تندمج بعض الدوائر تحت قائمة واحدة. ويعطي المرسوم لرئيس الدائرة حق وضع الأنظمة وإصدار اللوائح، وإصدار قرارات خاصة بدائرته بعد عرضها على المجلس.

أما المرسوم الثالث:عام١٩٧٠م فيختص بتعيين رئيس مجلس الدولة وتعيين أعضاء مجلس الدولة رؤساء للدوائر الحكومية[٢١]. والجدير بالذكر أن مجلس الدولة الذي أنشئ بمرسوم عام١٩٧٠م أصبح مجلساً للوزراء. وقد أعلن عن تكوينه صباح ١٤آب عام١٩٧١م أي يوم الاستقلال. وهكذا يتبين من التنظيم الإداري، أن الحاكم هو رأس النظام كونه رئيس الدولة. ويأتي بعده مجلس الدولة، فالدوائر المختصة والبلديات. والشيخ هو من يعين رئيس مجلس الدولة وأعضاء المجلس وجميعهم مسؤولون أمام الحاكم. أما القضايا التنفيذية، فمتروكة لأعضاء المجلس. وكل منهم مسؤول أمام الحاكم. وبما أنه لا توجد هيئة تشريعية في البحرين فقد كان هناك مؤسسات يمكنها أن تعبر عن اتجاهات الرأي العام، وإن لم تكن ذات قوة سياسية بالمعنى المألوف، لكنها تؤدي أدواراً تعكس مشكلات ومتطلبات المجتمع البحريني. وهذه المؤسسات هي الجمعيات والصحافة والأندية التي انتشرت بشكل كبير وكانت تنوف على/١٠٠/نادٍ وجمعية تكاد تغطي البحرين. وأهمها النادي الأهلي ونادي البحرين. أما في مضمار الصحافة فقد كانت البحرين سبّاقة فيه وأبرز صحفها صحيفة البحرين التي صدرت منذ عام ١٩٣٢ وقد اتخذت الصحف، بين سنوات(١٩٥١-١٩٥٦م) موقف المعارضة من نظام الحماية، فعبرت بذلك عن أماني الشعب البحريني في الاستقلال والحريّة.

سادساً: الحركة الوطنيّة في البحرين:

تميّزت البحرين عن دول الخليج العربية بكثرة التنظيمات الجماهيرية، بخاصة فيما يتعلق بالحركة العمالية. فمنذ عام١٩٥٣م لوحظ نهوض حركة مناوئة

للإقطاع والإمبريالية وفي مطلع عام١٩٥٤م حصلت اضرابات كبيرة قام بها مستخدمو النقل ثم عمال اللؤلؤ، في المنامة والمحرق والحد. وطالب المتظاهرون بإجراء انتخابات عامة للمجلس التشريعي. وعندما وصل سلوين لويد وزير الخارجية البريطاني إلى المنامة في عام١٩٥٦م وكان في طريقه إلى الهند، استقبله عشرة آلاف مواطن بحريني بشعارات مناوئة للإنكليز، وبوابل من الحجارة وطالبوا بطرد المستشار السياسي بلجريف من الإمارة وقام رجال الشرطة بتفريق المتظاهرين باستخدام القنابل المسيلة للدموع[٢٢]. وبعد وصول أنباء تأميم قناة السويس عمت الانتفاضات في البحرين وأغلقت المتاجر ودمرت بنايات تابعة للمؤسسات البريطانية، ورفض عمال شركة نفط البحرين تقديم الوقود للطائرات البريطانية والفرنسية في مطار البحرين الدولي وقد قابلت بريطانيا هذه التظاهرات بإجراءات حازمة، فوصلت إلى البحرين وحدات بريطانية وأعلنت حالة الطوارئ. وتحت ضغط الجماهير، اضطرت بريطانيا إلى إبعاد بلجريف وعدد من موظفي الإدارة السياسية البريطانية. وفي عام١٨٦٢م أعلنت جبهة التحرير الوطني الميثاق الوطني الذي طالب بحرية الوطن واستقلاله وطرد البريطانيين والمستشارين الأجانب من البحرين. وفي أواخر عام١٩٦٥م بدأ إضراب عام في البحرين شمل جميع مناحي الحياة، فأرسلت بريطانيا قطعاً من الأسطول لقمعه وإنهائه ولكنها بسبب هذه الأحداث والضغوطات والتظاهرات المناوئه اضطر إلى إعطاء البحرين استقلالها. إن بريطانيا التي ظلت خلال أكثر من ثلاثة قرون ترسم سياسة الخليج وتنفذها لمصلحتها وتعقد الاتفاقيات غير المتكافئة مع حكامه وتعين من تشاء من الشيوخ أخذت في النهاية تواجه حركات قومية تسعى للاستقلال والابتعاد عنها وعن غيرها.

سابعاً: استقلال البحرين:

بدأت مقدمات الاستقلال في البحرين تسير بخطى حثيثة، فقد اشتركت البحرين في كثير من المنظمات العربية والدولية ثم أقدمت على إنهاء جميع المساعدات والاتفاقيات السياسية والعسكرية التي تربطها مع بريطانيا وكذلك قامت بريطانيا بإلغاء معاهداتها معها وتم ذلك في١٤آب عام١٩٧١م، وهو اليوم الذي أعلن فيه استقلال البحرين. وتبادل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة والسير أرثر

جفري المقيم السياسي في الخليج المذكرات الخاصة بإلغاء المعاهدات. واستبدلت المعاهدات السياسية: بمعاهدات صداقة. وبتوقيع الاتفاقية أصبح السير آرثر جفري سفير بريطانيا للبحرين[٢٣]. ثم قامت بريطانيا بإخلاء قاعدتها العسكرية في الجفير عام١٩٧١م بعد أربعة أشهر من الاستقلال. إلا أن وزارة الدفاع الأمريكية استأجرت قسماً من القاعدة ابتداء من اليوم الذي تم فيه إخلاء بريطانيا لها. فحلت القوات الأمريكية مكان البريطانية. وأشارت أمريكا في هذا الصدد إلى أن استئجار القاعدة لا يترتب عليه أية التزامات عسكرية أو سياسية إزاء البحرين. وأن ذلك كان ضرورة حتمية أملاها تغلغل الأسطول السوفيتي وفي ٦آب١٩٧١م بعد يومين من إعلان الاستقلال، صدر قرار تسمية إمارة البحرين دولة البحرين[٢٤]. وأبدلت لقب حاكمها بلقب أمير وأبدل المجلس الوزاري بمجلس الدولة. وتقدّمت البحرين لعضوية الجامعة العربية، وأصبحت الدولة الخامسة عشر كذلك تقدمت لعضوية الأمم المتحدة وأصبحت الدولة الـ١٢٨ في المنظمة. بعد إعلان الاستقلال، بعثت حكومات العراق وإيران والسعودية والكويت برقيات تهنئة. وأعلنت البحرين في بيان الاستقلال تضامنها مع الشعب الفلسطيني والأمة العربية وكل القضايا الوطنية العربية.

ثامناً: النفط وآثاره في تطور البحرين:

كان اقتصاد البحرين حتى عهد قريب يقوم على استخراج اللؤلؤ والمتاجرة به. وهو العمل الذي شكل مصدراً قوياً للثروة منذ القديم. فمن مغاصات البحرين التي تعد من أكبر مغاصات اللؤلؤ في العالم، كان يستخرج أجود أنواع اللؤلؤ. وكان موسم الغوص يبدأ في شهر أيار وينتهي في تشرين الأول. ويقوم الحاكم بافتتاح هذا الموسم الذي يعد عيداً وطنياً للبحرين. ولقد أشار الرحالة بلجريف[٢٥] إلى كثرة القوارب العاملة بصيد اللؤلؤ، وقدرها عام١٨٦٢م بنحو ٢٠٠٠-٢٥٠٠قارب. وكل قارب عليه ما بين ٨-٢٠شخصاً. وكان اللؤلؤ المستخرج يباع إلى كبار التجار الذين يذهبون إلى الهند للمتاجرة به، إذ كانت بومباي من أكبر الأسواق، ومنها يصدر إلى الخارج حيث يتم تصنيفه وتثقيبه. وتذهب أكبر الكميات منه إلى أمريكا وفرنسا. ويتم توزيع ثمن اللؤلؤ على رجال السفينة كل حسب جهده. فهناك "النواخذا" ربان السفينة والغيص مهمته الغوص والبحث عن

الأصداف و"السيب" ومهمته خدمة السفينة "والنهام" وهو مطرب السفينة. وكانت العلاقة شخصية بين التجار والغواصين، إلى أن تدخلت الحكومة ووضعت نظاماً لهذه المهنة. لكن ظهور اللؤلؤ الاصطناعي في العشرينات أدى إلى انخفاض قيمة اللؤلؤ الطبيعي في السوق العالمية.وإلى جانب العمل باستخراج اللؤلؤ، عمل أهالي البحرين بالزراعة التي تركزت في الجزء الشمالي من البلاد حيث تتوفر ينابيع المياه. فكانت تزرع أشجار النخيل. ويقال إن في البحرين أكثر من ٨٠٠نوع من التمر[٢٦]. إضافة إلى الرمان والتين والموز والخوخ والمشمش والكمثرى والنارنج والخضراوات المتنوعة وكل هذه الزراعات كانت تسد حاجة الاستهلاك المحلي. وقد تأسست دائرة للزراعة، أخذت تسعى جاهدة لتطوير العمل الزراعي فاستوردت فسائل النخيل وأشجار الفواكه من البلدان العربية وباعتها للمواطنين بسعر الكلفة بقصد توسيع. زراعتها وإكثار أصنافها[٢٧]. وأعدت فرقاً لمكافحة الآفات والحشرات الضارة بالزراعة. ورسمت الدولة خططاً للاسترشاد بخبراء من البلدان العربية لتطوير الزراعة وتنظيم الري وإرسال بعثات إلى الكليات الزراعية في البلدان العربية للحصول على الخبرة، إضافة لذلك يجري استثمار معادن عن طريق شركات مساهمة وطنية، وتساهم الحكومة بالنصيب الأكبر من صناعة الإسمنت واستغلال المناجم وإلى جانب ذلك يوجد الغاز الطبيعي والصناعات الخفيفة مثل تعليب الأسماك وتجفيفها. أما أهم موارد البحرين فهو البترول. فمنذ عام١٩١٤م أكد شيخ البحرين التزامه بعدم السماح باستغلال النفط في بلاده دون استشارة المعتمد السياسي في البحرين. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى أخذ الجيولوجيون يبحثون عن حقول النفط في الساحل الشرقي لجزيرة العرب وفي عام١٩٢٣م حصل هولمز الأسترالي على ترخيص من عبد العزيز آل سعود للتنقيب عن النفط في الأحساء. وقام بحفر عدة آبار في البحرين. وتبين له أن الكميات خلافا لرأي الخبراء الذين أرسلتهم بريطانيا إلى أن الكميات غير مشجعة. لذلك قصدهولمز أمريكا لبحث هذا الأمر مع الجهات المعنية هناك. وقد تنازلت بريطانيا عن هذا الامتياز في عام١٩٣٠م إلى شركة كاليفورنيا. وسرعان ما اكتشفت شركة استاندارأويل اف كاليفورنيا النفط في البحرين، فتفجر أول بئر في عام١٩٣٢م جنوب العوالي في السفوح الشرقية لجبل الدخان. وحفرت آبار ثانية ووصل المعدل

اليومي للنفط المستخرج إلى ٣٠،٠٠٠برميل. أنشئت مصفاة للتكرير في عام١٩٣٦م وجرى توسيعها وأصبح معدل ما تكرر (٢٥) ألف برميل يوميا. ولسهولة التصدير، أنشأت الشركة رصيفا لرسو السفن الناقلة. وتم إنشاء معمل لصنع البراميل من أجل تعبئة الزيت ومشتقاته بقصد التصدير للخارج. وصارت عوائد النفط تتراوح ما بين(١٠٥-١١٢) مليون روبية. خصصت منها (٧,٥) ملايين روبية سنويا ميزانية للحكومة وثلث يودع في المصارف البريطانية احتياطا للحكومة والثلث الباقي يصرف على الحاكم وأسرته. لقد كان لإنتاج النفط تأثير كبير في نواحي الحياة كافة، فقد أدى إلى تغيير نظام الأسرة وميزانياتها الاقتصادية وأثر في البنية الوظيفية لها، وفي وضع المرأة ومركزها وحتى اليد العاملة حيث تطلع معظم أهالي البحرين للعمل في الوظائف الإدارية والمهنية والتجارية. فهاجر قسم منهم إلى السعودية والكويت سعيا وراء العمل في شركات النفط، نظرا لارتفاع الأجور وسعيا وراء الرفاهية. وترتبت على النهضة التي شهدتها البحرين نتيجة اكتشاف النفط واستغلاله نمو طبقة عمالية ساهمت في رفد الحركة الوطنية في البحرين التي كانت أسبق إمارات الخليج العربي في قيام الحركات الوطنية وربما يعود ذلك لأنها كانت أسبق في مجال التعليم إضافة لوجود طبقة عمالية سابقا كانت تعمل في الغوص على اللؤلؤ، فقد هاجمت مجلة ((صوت البحرين))شركات النفط الاحتكارية المستبدة فطالبت بتنظيم العلاقات بين العمال وشركة النفط وتحسين مستواهم ورفع أجورهم، وخاصة بعد أن قامت شركة بابكو(نفط البحرين) بطرد العمال الذين طالبوا بحقوقهم فقام العمال بإضرابات لحمايتهم من منافسة العمال الأجانب. وفي عام ١٩٦٥م قامت شركة بابكو بتسريح ٥٠٠عامل عربي دفعة واحدة بقصد إحلال أجانب مكانهم لكن العمال أضربوا لمدة تسعة أيام حيث أجبرت بابكو على عودة العمال المسرّحين. والجدير بالذكر أن الحركة الوطنية بالبحرين كانت أعنف الحركات التي شهدتها منطقة الخليج حيث طالب أفرادها بتوزيع السلطات بين المواطنين وأعضاء الأسرة الحاكمة وهذا ما أقلق بريطانيا خشية أن تمتد هذه الحركات التحررية إلى إمارات ثانية في الخليج العربي. لاشك أن البترول ساعد البحرين على أن تصبح مركزا ضخما للخدمات والمواصلات بين دول الخليج والعالم فقامت فيها المصارف

والشركات وزاد العمران واتسعت المدن ونشطت التجارة مما جعل البحرين مركزا تجاريا مهما في الخليج.

التعليم والنهضة الثقافية: حتى بداية العقد الثاني من هذا القرن، لم يكن يتوفر في البحرين سوى الشكل التقليدي للتعليم (الكتاب) وهو قائم على تعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب أحيانا. ولم يلق هذا التعليم دعما من قبل الحكومة بل كان الآباء يتحملون نفقة تعليم الأبناء. لكن في عام١٩١٩م وضع حجر أساس لأول مدرسة من قبل الشيخ عيسى بن خليفة في مدينة المحرق أطلق عليها اسم "مدرسة الهداية". وكان التعليم يسير فيها بخطى بطيئة، نظرا لقلة عدد الأساتذة الذي كانوا يأتون من البلاد العربية المجاورة. وبعدها افتتحت مدرسة ثانية في المنامة، وعهدت للشيخ حافظ وهبة سفير السعودية بلندن، مهمة تنظيم هاتين المدرستين. وقد اتصل مجلس المعارف البحريني بالمجمع العلمي بدمشق لاستقدام بعثة تعليمية إلى البحرين من سورية[٢٨] وفلسطين. ووصلت أول بعثة سورية في عام١٩٢٣م واستمرت بالعمل مدة خمس سنوات. وفي عام١٩٢٨م بدأ تعليم البنات في البحرين وقد أثار ذلك احتجاجات ومعارضة من قبل المحافظين. وكان الفصل تاما بين مدارس البنين والبنات. وظلت مديرية تعليم البنات مستقلة تحت إدارة امرأة حتى عام١٩٦٠م. وبعد ذلك تم توحيد مديرية التعليم على أن تشمل الجنسين معا. وكان هدف تعليم البنات بداية، هو إعدادهن كي يصبحن زوجات جديرات بالاحترام وأمهات وربات بيوت متعلمات. هذا ما صرح به مدير التربية في عام١٩٤٦م. وسار تعليم البنات ببطء اذ لم تتوفر لهن أكثر من ثلاث مدارس تضم ٤٥٠تلميذة. ولكن مع بداية عام١٩٥٠م، نشأت خمس مدارس تضم ١٣٥٦تلميذة. وكانت الحاجة ماسة إلى مدرسات للتعليم الثانوي فأوفدت الدفعة الأولى منهن إلى مصر ولبنان وسورية ودفعة إلى بيروت لتلقي العلم. وعدن ليغتني بخبرتهن المجتمع البحريني[٢٩] وكان رفضهن ارتداء الحجاب دليلا على بداية الانطلاق والتحرر وبدأت المرأة البحرينية تدخل سلك التدريس في مدارس البنات ثم قطاع التمريض عام١٩٤١م. أما في فترة الخمسينات، فقد شهدت البلاد توسعا كبيرا في الأنشطة والمؤسسات الاقتصادية المختلفة إذ عملت المرأة في البنوك إلى جانب الرجل، ثم ازداد الطلب على الممرضات فافتتحت مدرسة

للتمريض[٣٠]. كذلك قامت شركة بابكو نفط البحرين بتنظيم دورات التدريس في السكرتارية للبنات مما أوجد مجالا جديدا للمرأة. وفي عام١٩٧٠م أنشئت مفرزة نسائية ضمت امرأتين برتبة ضابط. وهناك العشرات اللواتي يعملن في شركة طيران الخليج وفي الهندسة والصحافة والمحاماة. وبعد هذا التطور في اوضاع المرأة أخذت الكثيرات من نساء البحرين يتابعن دراستهن الجامعية في جامعات العالم مثل سورية ومصر ولبنان وفرنسا وأمريكا وأوربا. ففي عام١٩٧٥م منحت الحكومة ٨٥١منحة دراسية استأثرت الفتيات بـ ٣٤٨منحة [٣١]. مما ساعد المرأة البحرينية على أن تخرج من عزلتها. لتعمل وترتاد دور السينما والنوادي الثقافية والرياضية. فاستقلالها الاقتصادي وثقافتها ساعداها على التمتع بحريتها الشخصية. لقد انطلقت المرأة البحرينية، وأصبح٩٥% من النساء يعملن لدى الآخرين. بينما يعمل٢% منهن فقط لحسابهن الخاص. وهكذا خطت المرأة البحرينية خطوات جبّارة باتجاه التطور الذي كان النتاج الطبيعي لما حققه البحرين من قفزات جبارة باتجاه التقدم والانفتاح وتوثيق الصلات مع العالم العربي.

Damascus University

هوامش الفصل الخامس

[١]جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، ١٥٠٧-١٨٤٠م، ص٤٦٥.

[٢]محمد بن الشيخ خليفة بن حمد بن موسى النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، المكتبة الوطنية، البحرين، ط١٩٨٦،ص١١١.

[٣]لوريمر، المصدر السابق، القسم التاريخي، ج ٣، ص١٣٤٣

[٤]المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٥٣

[٥]مصطفى عقيل، سياسة إيران في الخليج العربي، الدوحة، قطر ١٩٨٧، ص٣٨٠-381

[٦]لوريمر، المصدر السابق، ج ٣، ص١٣٦٠

[٧]أمين الريحاني، ملوك العرب، ص٧٦٤

[٨]غرايبة، المرجع السابق، ص٢٥٦. أيضاً لورمير المصدر السابق، ج ٣، ص١٤٢١

[٩]سنان، المصدر السابق، ص١٤٣

[١٠]سنان، المرجع نفسه، ص١٤٥

[١١]سعيد الشهابي، البحرين(١٩٢٠-١٩٧١م) قراءة في الوثائق البريطانية، دار الكنوز الأدبية، ط١، ١٩٩٦م،ص٣٢٤، نص شكوى المواطنين لحاكم عام الهند من سوء تصرف ديلي في البحرين وإبعاد الشيخ عيسى عن الحكم.

[١٢]قاسم، الخليج العربي(١٩١٤-١٩٤٥م)، ص٢٠٨.

[١٣]الشهابي، البحرين قراءة في الوثائق البريطانية،ص٣٢٤، وثيقة شكاوي البحارنة من ديلي

[١٤]رسالة مستعجلة من المقيم السياسي إلى الخارجيةC/712 البريطانية بتاريخ٢١/١٢/١٩٢٣م أيضاً انظر الشهابي البحرين في الوثائق البريطانية،ص٨١-٨٢.

[١٥]) F.o. 371/16838/1933 note by Mr. Belgrave financial adviser to the Bahrein government

[١٦]الشهابي، المصدر السابق، ص٣٥٤، نص القرار الوطني

[١٧]المصدر نفسه، ص١١٤. أيضاً سنان، البحرين، ص١٩٤-١٩٥

[١٨]العقاد، التيارات السياسية في الخليج، ص٢٦٣

[١٩]جمال قاسم، الخليج العربي(١٩١٤-١٩٤٥م)، ص٢٣٩.

[٢٠]سنان، المرجع السابق، ص١٩٧

[٢١]أمل ابراهيم الزياني، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، القاهرة، ط٢ ١٩٧٧، ص١١٢-١١٤.

[22] الشهابي، مصدر سابق، ص٢٠١-٢٠٢.
[23] الشهابي، المصدر السابق، ص٢٩٥
[24] قاسم، الخليج العربي(١٩٤٥-١٩٧١م)، ص٤٨٧، نص بيان الشيخ عيسى بن سلمان بشأن الاستقلال.
[25] قاسم، الإمارات العربية(١٨٤٠-١٩١٤م)، ص٢٩-٣٠.
[26] النبهاني، التحفة النبهانية،ص٢٤-٢٥.
[27] سنان، البحرين، ص٢١٧
[28] سنان، البحرين، ص٢٣٧-٢٣٨
[29] أحمد حميدان، المرأة والحركة النسائية في البحرين، دار الطلبة، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص٤٢.
[30] ابراهيم العلوي، المرأة والتغيير الاجتماعي في البحرين، جمعية الاجتماعيين البحرينية، ١٩٨٩م، ص١٨.
[31] حميدان، مرجع سابق، ص٤٧.

Damascus University

الفصل السادس

قطر ما بين عامي(١٨٦٨-١٩٧١م)

المقدمة: عن أوضاع قطر قبل انفصالها عن البحرين

أولاً: التطور السياسي لقطر منذ ظهورها كإمارة مستقلة عام(١٨٦٨م) وحتى الاستقلال عام(١٩٧١م)

ثانياً: أبرز معطيات سياسة قطر الخارجية

١. سياستها مع بلدان شبه الجزيرة العربية

٢. سياستها مع بريطانيا

ثالثاً: أثر النفط على تطور قطر

رابعاً: الحياة الاجتماعية والثقافية في قطر

هوامش الفصل السادس

المقدمـة: أوضاع قطر قبل انفصالها عن البحرين.

كانت قطر آخر دول الخليج العربي التي وقعت تحت النفوذ البريطاني، ويرتبط قيامها بنمو قوة وثروة آل ثاني الذين وصلوا إلى البلاد من شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن الثامن عشر ووطدوا أركان حكمهم فيها في أواسط القرن التاسع عشر. فخلال الفترة الممتدة بين عامي(١٨٥١-١٨٦٦م) أصبح محمد بن ثاني، حاكم الدوحة والخاضع لسلطة آل خليفة حكام البحرين، مسؤولاً عن جمع الضرائب من القبائل القطرية لمصلحة آل سعود حكام نجد، أما ابنه جاسم أو قاسم كما تذكره المصادر الذي حكم بين عامي(١٨٧٦-١٩١٣م) فيعد المؤسس الحقيقي لدولة قطر، فقد سعى للانفصال عن البحرين عندما اصطدم والي قطر من آل خليفة بقبيلة النعيم التي استنجدت بجاسم الذي قاد القطريين في حصارهم للوالي البحريني في قلعة الوكرة حتى أرغمه على الهرب عام ١٨٦٦ ثم وجه رسالة إلى حاكم البحرين يطالبه فيها بعزل عامله ومنح قطر الاستقلال الذاتي في شؤونها، وإلا أصبح القطريون في حل من طاعته. وهدد بطلب المساعدة من أي جهة للحصول على الاستقلال. فكان رد حاكم البحرين إعداد حملة لإخضاع أهل قطر اشتركت فيها كثير من القبائل، إضافة إلى قوات حاكم أبو ظبي. وفي تشرين الأول عام١٨٦٧م دخلت القوات المتحالفة الدوحة والوكرة وخربتهما وشردت أهلهما. وفي العالم الثاني هاجم القطريون البحرين لكنهم ردوا على أعقابهم وطاردتهم قوات آل خليفة حتى بر قطر، حيث وقعت هذه القوات في كمين أُعُد لها فانسحبت بعد هزيمتها. وقد استغل آل سعود القتال بين القطريين وحكام البحرين فاستعدوا للهجوم على البحرين. وأمر الأمير عبد الله بن فيصل ولاته في الأحساء باتخاذ الاجراءات اللازمة للهجوم على مواطني البحرين. وكان أن أزرتهم قوة سعودية قاموا وإياها بأعمال السلب والنهب[1]. وكان آل سعود قد اتفقوا منذ عام١٨٥٠م مع حكام البحرين على أخذ الخراج منهم كيلا يعتدوا على قطر، عدّوا أنفسهم مسؤولين عنها وعن قطر وسكانها. وكانت بريطانيا مرتبطة مع البحرين منذ عام١٨٦١م بمعاهدة تعهد فيها حاكمها بتجنب الحرب أو القرصنة أو تجارة الرقيق وإلا تحللت بريطانيا من مساعدته. وتعهد كذلك برفع كل اعتداء يتعرض له رعاياه إلى المقيم البريطاني في الخليج، والقبول بتحكيمه. ورأت

بريطانيا في اشتراك كل من البحرين وأبو ظبي في الهجوم على قطر نكثاً للمعاهدات المعقودة بينهما وبين بريطانيا التي خشيت من تدخل آل سعود في النزاع بين قطر والبحرين رغم تعهد الأمير السعودي عبد الله بن فيصل بن تركي عام١٨٦٦م لبريطانيا بعدم الاعتداء على الإمارات الداخلة في معاهدات معها. وهذا ما أكده الأمير للكولونيل بيلي Pelly، ولذلك تدخلت بريطانيا في النزاع بين قطر والبحرين، وطلب بيلي من حاكمي أبو ظبي والبحرين دفع غرامة لبريطانيا تعويضاً عن الخسائر التي حلت بقطر، وصدر أمر لحاكم البحرين بتسليم كل السفن التي يمتلكها للقائد البحري البريطاني، وجرى حرق هذه السفن وتدمير قلعة أبو ماهر في المحرق، والأسطول البريطاني، هو الرابح دوماً.

أولاً: التطور السياسي لقطر منذ ظهورها كإمارة مستقلة عام١٨٦٨م وحتى الاستقلال عام ١٩٧١

في نهاية خريف عام١٨٦٨م وصل بيلي إلى وكره والتقى كبار شيوخ قطر وأبدى لهم استياءه من غزو البحرين. وفي١٣أيلول١٨٦٨م وقع بيلي مع محمد آل ثاني معاهدة نصت على أن يقيم آل ثاني بسلام في الدوحة وأن لا يقوموا بأي عدوان وأن يحيلوا خلافاتهم مع جيرانهم إلى السلطات البريطانية للفصل فيها. وبعد توقيع المعاهدة تم الاعتراف بآل ثاني حكاماً على قطر(٢). ولعل أبرز حدث واجهته قطر بعد ظهورها المستقل عام١٨٦٨م هو حملة الأحساء وعودة النفوذ العثماني إلى الخليج. فالنفوذ العثماني كان ملموساً في الشمال الغربي حيث ارتبطت الكويت اسمياً بالدولة العثمانية أما الساحل الجنوبي في منطقة الخليج فكان منطقة نفوذ بريطانية تحكمه المعاهدات والارتباطات الي ربطت هذه المنطقة مع بريطانيا دون الرجوع للدولة العثمانية(٣). ويمكن اعتبار عام١٨٦٩م نقطة تحول مهمة في علاقة الدولة العثمانية بالخليج، ففي هذا العام عيّن مدحت باشا والياً على بغداد، وهو من فريق المصلحين في الدولة العثمانية، ومن مبادئه بسط نفوذ الآستانة على المناطق التي كانت تتبعها اسمياً، تعويضاً لها عن الخسائر الإقليمية في البلقان، إضافة إلى رغبة مدحت باشا في مناوئة الإنجليز في الخليج. ويذكر المؤرخون سببين ساهما في دفع الدولة العثمانية إلى تجهيز حملة الأحساء أولهما النزاع الذي نشب بين أولاد فيصل بن تركي حاكم نجد، إذ قام ابنه

عبد لله بن فيصل بطلب مساعدة مدحت باشا الذي أرسل حملة يقودها شيخ الكويت عبد لله الصباح إلى الدوحة، وثانيهما الدعوة التي أرسلها جاسم بن محمد آل ثاني ولي عهد قطر إلى نافذ باشا قائد القوات العثماني، فكان أن وصلت الحملة في تموز عام١٨٧١م بقيادة شيخ الكويت وأخيه مبارك. وعندما وصل شيخ الكويت كان معه أربع رايات، فقبل جاسم بن ثاني الراية الأولى ومعها براءة عثمانية برتبة قائم مقام وأرسل الراية الثانية إلى والده محمد في الوكرة، والثالثة إلى علي بن عبد الله شيخ الخور، أما الراية الرابعة فقد رفعت في منطقة العديد.وفي كانون الأول عام١٨٧١م وصلت القوة العثمانية إلى الدوحة بقيادة شيخ الكويت لتتحول قطر إلى قائم مقامية تتبع لواء الأحساء(٤). ومع الوجود العثماني في الدوحة وضواحيها، ظلت العلاقات القبلية في قطر كما كانت من قبل وظل شيوخ آل ثاني أقوى العناصر في الحياة السياسية(٥). ولكن منذ عام١٨٧١م وحتى عام١٨٩٣م أي منذ بداية النفوذ العثماني في قطر وحتى نهايته في سنة١٨٩٣م وهي سنة التمرد على العثمانيين، اتسمت سياسة حكام قطر بالتردد بين الاتجاه إلى العثمانيين لمناوئة الإنجليز في البحرين، وبين اللجوء إلى الحماية البريطانية للتخلص من الضغط العثماني الواقع عليهم. أما خلال الفترة الممتدة بين عام(١٨٩٣-١٩١٣م) فقد اتسمت سياسة حكام قطر بتحول واضح عن ولائهم للدولة العثمانية، والاتجاه نحو بريطانيا(٦). وخلال المرحلة الأولى من حكم الشيخ جاسم، كانت الأمور بيده وليس للعثمانيين إلا السلطة العسكرية في مدينة الدوحة وضواحيها. وكان يساعد الشيخ جاسم على إدارة شؤون المشيخة أخوه الشيخ أحمد. وعندما حدثت القلاقل، فكر الباب العالي بإبعاد الشيخ جاسم وتعيين محمد ابن عبد الوهاب بن محمد بن ناصر الفيحان من قبيلة سبيع مكانه، وكان المذكور مستشاراً للشيخ محمد بن ثاني في شؤون اللؤلؤ، وكاتباً لديوانه. وقد أقام في بلدة الغارية(٧) وهي من أقوى قرى قطر آنذاك. ويبدو أن ترشيح العثمانيين له إنما نبع من اقتراحه على متصرف الأحساء إقامة دار عثمانية منظمة للعوائد العثمانية. وراح محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن ناصر الفيحان يجمع القبائل حوله، ويبذل لهم الأموال، مما أثار حفيظة الشيخ جاسم، فأعد حملة لمهاجمة الغارية انتهت بفرار ابن عبد الوهاب المذكور(٨). ثم ما لبث أن ظهر منافس جديد

للشيخ جاسم عام١٨٨٧م، رشحه العثمانيون لمنصب قائم مقام، هو ناصر بن مبارك آل خليفة اللاجئ البحريني الذي حاول أن يهدد البحرين أكثر من مرة. وقد انتهز الشيخ عيسى آل خليفة شيخ البحرين فرصة ترشيح ناصر، وهو منافسه اللدود، ليعرض على بريطانيا أن تقوم بمساعدته للاستيلاء على قطر وعلى أن يبذل كل ما يلزم من أجل المحافظة على الأمن والاستقرار(٩). وأمام هذا الجو المشبع بالمؤامرات وجد شيخ قطر جاسم آل ثاني الخلاص في أن يبتعد عن الدوحة التي كانت عاصمة ومركزاً من مراكز السيطرة العثمانية، فانتقل إلى داخل قطر، وفي قرية الظعاين أعلن أنه قطع كل صلة بالدوحة ولم يعد مسؤولاً عن أمور قطر. وتشير تقارير الكولونيل روس Ross المقيم في الخليج في تموز عام١٨٨٧م إلى أن انسحاب الشيخ جاسم من الدوحة أدى إلى تفاقم القلاقل، حيث قام بدو بني هاجر بنهب سوق الدوحة والبدع. ولم تعرف قطر الاستقرار المؤقت إلا عندما أرسلت إليها الحكومة العثمانية جنوداً في عام١٨٨٨م. وقام نظيف باشا والي البصرة بزيارة الدوحة والتقى الشيخ جاسم ووعده بوسام. وأنشأ في الدوحة مخزناً للفحم ووضع في مينائها لنشأ حربياً. وكانت الدولة العثمانية تصر على إقامة إدارة عثمانية مباشرة في قطر وعلى إقامة دار للعوائد الجمركية. حاول الشيخ جاسم التنازل عن المشيخة، ولكن والي البصرة رفض ذلك وبدأت السلطات العثمانية تعمل على تنفيذ مشروعها، فعينت مساعداً لقائم مقام قطر ومديراً لكل من الزبارة والعديد، وجهزت أربعمائة جندي لإرسالهم إلى قطر دعماً للحامية العثمانية هناك. لكن مع بداية عام١٨٩١م بدأت الدلائل تشير إلى بوادر نشوب نزاع خطير بين السلطات العثمانية والشيخ جاسم، وتطور الأمر إلى العداء الصريح بسبب إصرار الدولة العثمانية على إنشاء دار للعوائد الجمركية مما يؤثر على سلطة الشيخ وموارده المالية. لكن في عام١٨٩٣م انتهت مرحلة التردد في سياسة الشيخ جاسم بين الاتجاه إلى العثمانيين أو إلى البريطانيين، وأصبح ولاؤه لبريطانيا وحدها. ودارت مفاوضات بين القطريين والعثمانيين حول المسائل المتعلقة بالضرائب، فتحرك الجيش العثماني ليباغت الشيخ جاسم في الوجبة، لكنه أخفق وانتهت المعركة بانتصار القطريين ودحر القوات العثمانية. وهكذا أخفقت الحملة العثمانية التي قادها والي البصرة للسيطرة على قطر، ولإجبار الشيخ جاسم

على الرضوخ للحكومة العثمانية، وعاد الشيخ جاسم ليتبوأ مركز الصدارة في قطر عام١٨٩٨م، وبدأ يمارس حكمه متستراً وراء شخص أخيه الشيخ أحمد. وفي مطلع القرن العشرين حاولت الدولة العثمانية من جديد مد نفوذها إلى قطر وذلك بتعيين مديرين لكل من العديد والوكرة والزبارة وجزيرة آل عمير. وقد تصدت بريطانيا لهذه المحاولة وأكدت عدم الاعتراف بحكم العثمانيين لساحل قطر. وفي عام١٩٠٥م، حدد اللورد لاندز دون Landzdoin السياسة البريطانية على النحو التالي " إن حجر الزاوية في سياستنا في الخليج العربي هو أمنه، وفي الوقت نفسه الذي نعادي فيه فتح منفذ للتجارة الدولية، والذي نعلن فيه أنه ليست لدينا أية رغبة في تحويله إلى بحيرة إنجليزية، فإنه ينبغي علينا أن نقاوم إلى أقصى حد أي محاولة من جانب الدول الكبرى للحصول على موضع قدم على سواحله للأغراض البحرية أو العسكرية. وسوف نواصل السير على هذه السياسة لا من أجل اتفاقيات غامضة مع الشيوخ المحليين، وإنما لنصبح القوة المسيطرة في جنوب فارس وفي الخليج العربي". ويبين لنا ذلك أن بريطانيا كان تسعى لمواجهة نفوذ روسيا التي تحاول التسلل إلى سواحل الخليج وحصولها على الامتيازات في بندر عباس، وكذلك مواجهة محاولات الألمان في إنهاء الخط الحديدي برلين-بغداد عند الكويت. لذلك قررت بريطانيا الاستجابة لمطلب الحماية الذي تقدم به شيخ قطر وألح عليه، فأرسلت حكومة الهند من جانبها الملازم روبنسون Ropenson[١٠] لزيارة قطر في تشرين الثاني عام١٨٩٨م وبعد اطلاعه على الأوضاع هناك كتب تقريراً أبرز فيه أن قوة العثمانيين لا يساندها إلا وجود قارب مسلح، وأشار إلى كره أهالي قطر للعثمانيين. كرر الشيخ أحمد بن محمد آل ثاني شقيق الشيخ جاسم محاولة طلب الحماية، وأمام إلحاحه وافقت حكومة الهند على طلبه. ولكن وزارة الخارجية البريطانية فضلت التريث والتحري عن وضع الشيخ أحمد قبل اتخاذ أية خطوة، ورأت ضرورة بحث مسألة توسيع الحماية البريطانية في بلاد العرب سواء من الناحية السياسية أم العسكرية. وبدأ المقيم البريطاني يجمع معلوماته حول شيخ قطر ثم بعث بتقريره إلى حكومة الهند في١٩كانون الثاني عام١٩٠٣م مفترضاً أن جاسم بن ثاني شيخ معترف به في قطر من جانب العثمانيين وأن العثمانيين عينوه في هذا المنصب رغم رفضه لكن أخاه الشيخ

أحمد بن ثاني هو الشيخ الفعلي لأهالي قطر. وفي ٣٠ كانون الأول عام١٩٠٤م بعثت حكومة الهند برقية إلى الحكومة البريطانية تعد فيها الأسباب التي تدعو إلى إبرام معاهدة مع القطريين، منها أهمية ساحل قطر، وما يمكن أن تؤديه المعاهدة من مزايا، مثل المحافظة على السلام في الخليج، وما يمكن أن يؤدي إليه عدم حماية صيادي اللؤلؤ من احتمالات تدخل فرنسي والخشية أيضاً من أن تحاول الدولة العثمانية تولية شيخ منافس للشيخ أحمد عند وفاة أخيه الشيخ جاسم. لكن الشيخ أحمد اغتيل في عام١٩٠٥م وتجددت المناقشات في عام١٩٠٨م في وزارة الهند حول وضع قطر والارتباط مع حاكمها بمعاهدة ولكن المناقشات تجمدت بعد أن أحكم عبد العزيز بن سعود قبضته على الأحساء عام١٩١٣م. وقد بعث المقيم البريطاني بالخليج بعدد من المراسلات لابن سعود، أولها في ١١أيلول عام١٩١٣م يحذره من التعدي على قطر، لافتاً نظره إلى أن بريطانيا تعترف باستقلال قطر تحت حكم أسرة آل ثاني. وأن قطر تخضع لحكم ورثة الشيخ جاسم[١١] ثم جرى لقاء بين ابن سعود ومندوبين عن بريطانيا هما تريفورTrevor المعتمد البريطاني في البحرين وشكسبير Shakespeare المعتمد البريطاني في الكويت خلال يومي١٥و١٦أيلول عام١٩١٣م تعهد فيه ابن سعود بعدم التعدي على الممتلكات البريطانية. وقد استطاع الشيخ جاسم أن يحتفظ باستقلال قطر حتى وفاته. وحينما اتفقت الدولتان البريطانية والعثمانية عام١٩١٣م على تحديد مناطق نفوذهما في الخليج، كانت سياسة الشيخ جاسم التي انتهجها هي التي جعلتهما تعترفان لقطر رسمياً بالبقاء خارج مناطق سيطرتهما بموجب المادة ذات الرقم (١١) من الاتفاقية بينهما، والتي نصت على أن تتنازل الدولة العثمانية عن جميع حقوقها في قطر التي ستستمر تحت حكم الشيخ جاسم وخلفائه من بعده، كما تعلن الحكومة البريطانية عدم السماح لأمير البحرين بالاعتداء على قطر. وبعد وفاة الشيخ جاسم بقليل وقعت هذه المعاهدة في٩آذار عام١٩١٤م. وخلال حكم عبد الله بن جاسم آل ثاني الذي امتد ما بين١٩١٣م وحتى١٩٤٩م عقدت معاهدة تشرين الثاني عام١٩١٦م مع بريطانيا ونتيجتها انتقلت قطر من الاستقلال إلى الحماية[١٢] وأبرز ما ميز حكمه علاقته الطيبة مع بريطانيا واكتشاف البترول وتجديد معاهدة عام١٩١٦م في عام١٩٣٧م. خلف الشيخ عبد الله بن جاسم الذي

توفي عام١٩٥٧م ابنه علي الذي كان قد تنازل له عن الحكم منذ عام١٩٤٩م. واستمر حكم الشيخ علي لقطر منذ هذا العام وحتى عام١٩٦٠م، حيث تنازل بدوره عن الحكم لابنه الشيخ أحمد. وجاء التنازل نتيجة المعارضة التي لقيها من قبل أعضاء الأسرة الحاكمة. وفي عام١٩٦٤م كوَّن الشيخ أحمد بن علي مجلساً استشارياً بمحض اختياره لمساعدته في شؤون الحكم. ولم يكن هذا المجلس ديمقراطياً لأنه لم ينتخب انتخاباً حراً، وإنما تكوَّن من نائب الحاكم رئيساً وخمسة عشر عضواً من أعضاء الأسرة الحاكمة، على مبدأ وشاورهم في الأمر أو عملاً بالآية الكريمة "وأمرهم شورى بينهم". وخلال حكم الشيخ أحمد أخذت قطر تخرج من عزلتها فانضمت إلى منظمة الأوبك، واشتركت في بعض المناشط الاقتصادية والثقافية والسياسية لجامعة الدول العربية والأمم المتحدة[١٣]. أما الحدث البارز خلال عهد الشيخ أحمد بن علي فهو أنّه أعطى اهتماماً حقيقياً جاداً لفكرة إقامة اتحاد بين امارات الخليج العربي التسع[١٤] بعد إعلان بريطانيا قرارها الانسحاب من الخليج العربي في١٦كانون الأول عام١٩٦٨م. وجاء ذلك على لسان رئيس وزراء بريطانيا هارولد ويلسون Wilson "إن بريطانيا سوف لا تنسحب من الشرق الأقصى فحسب، بل ومن الخليج أيضاً قبل نهاية عام١٩٧١م"[١٥]. وقد توالت اجتماعات حكام الإمارات العربية التسع من أجل قيام الاتحاد الذي سيوفر التقدم والرخاء ويوطد الأمن، ورغم أن جلسات الاتحاد توالت واحتدمت الخلافات، ورغم الوساطات العربية من جانب الكويت والسعودية لتضييق شقة الخلاف لكن المباحثات وصلت إلى طريق مسدود فأعلنت قطر عام١٩٧٠م خروجها من اتحاد الإمارات موضحة أسباب ذلك بما يلي:

١) اتساع هوة الخلاف بين الإمارات، وخاصة فيما يتعلق بموضوع التمثيل في المجلس النيابي، حيث كان مثار الجدل نتيجة الاختلاف العددي في عدد السكان. وكذلك بالنسبة إلى موضوع العاصمة ومقر الاتحاد وتشكيل المجلس وتحديد اختصاصاته.

٢) استقلال البحرين التي أعلنت نفسها دولة مستقلة تتمتع بالسيادة خاصة بعد حل مشكلتها مع إيران.

٣) قيام اتحاد الإمارات العربية مكوناً من أبو ظبي، دبي، الشارقة، أم القوين،

عجمان، والفجيرة. لذلك كان لابد لقطر من إعلان استقلالها والانطلاق نحو بناء دولة على أسس من السيادة والحرية[١٦].

وبناءً على ذلك تم إنهاء العلاقات التعاهدية الخاصة التي تربط قطر ببريطانيا. وفي نيسان عام١٩٧٠م أعلن الشيخ أحمد نظاماً أساسياً مؤقتاً للحكم. واعتبر هذا النظام بالنسبة إلى وضع قطر انجازاً تقدمياً ضخماً لما منحه من حريات سياسية وضمان للمساواة والعدل بشتى الميادين. وقد تكون النظام الأساسي من(٧٧) مادة وزعت على خمسة أبواب تناولت نظام الحكم وسياسة الدولة والحقوق والواجبات العامة والسلطات والأحكام العامة والانتقالية، ويتضمن القانون الأساسي تقسيم قطر إلى عشر دوائر انتخابية، برشح أربعة عن كل دائرة، ويختار الحاكم اثنين منهم. وبذلك يكون المجلس الاستشاري مكوناً من عشرين عضواً بطريقتي الانتخاب والتعيين معاً. إضافة إلى أعضاء ثلاثة يقوم الحاكم بتعيينهم إذا اقتضت المصلحة ذلك. وحول المجلس حق مناقشة مشروعات القوانين التي يقترحها مجلس الوزراء قبل رفعها للحاكم للتصديق عليها[١٧] ونصت المادة(٢٢) من النظام الأساسي المؤقت على تأكيد نظام الحكم، وأن حكم الدولة وراثي في أسرة آل ثاني. كذلك نص القانون على أن دولة قطر دولة عربية، دينها الإسلام وشعبها جزء من الأمة العربية، وتعمل قطر بكل طاقاتها على تقوية الروابط بينها وبين جاراتها الشقيقة والدول الصديقة، وكذلك على حسن الجوار والتضامن وتوثيق الروابط وتحقيق الوحدة ونصرة قضايا العرب، وخاصة قضية فلسطين. ونصَّ الاتفاق أيضاً على التزام قطر بميثاق جامعة الدول العربية وميثاق الأمم المتحدة[١٨]. وفي أيلول عام١٩٧١م أعلن خليفة بن حمد آل ثاني ولي عهد قطر بيان الاستقلال والذي استند إلى معظم المواد التي نص عليها القانون الأساسي المؤقت. وعقب إعلان الاستقلال أصدر حاكم قطر عدة قرارات، أبرزها تحويل اسم حاكم قطر إلى اسم: أمير قطر في(٤-٩-١٩٧١م). وأصدر قراراً آخر بإنشاء وزارة للخارجية، وانضمت قطر إلى الجامعة العربية والأمم المتحدة وذلك بعد أن ألغت قطر معاهداتها الخاصة مع بريطانيا وعقدت معها معاهدة صداقة وقعها الشيخ أحمد بن علي في٣أيلول عام١٩٧١م أي بعد يومين من إعلان الاستقلال. ونصت المعاهدة الجديدة على عقد مشاورات بين بريطانيا

Damascus University

وقطر عند الضرورة وعدم تحمل بريطانيا أي التزامات عسكرية اتجاه قطر.

وبالرغم من الخطوات الديمقراطية التي اتخذها الشيخ أحمد بن علي بشأن تنظيم الأجهزة الحكومية ووضع نظام أساسي للحكم قائم على تشكيل مجلس استشاري منتخب، فإن الشيخ أحمد قرر أن يعطل هذا الجزء من القانون مدعياً أن المجتمع القطري لم يهيأ بعد لإجراء انتخابات. وهكذا أخذت قطر تواجه تيارين متناقضين: تياراً محافظاً وآخر يدعو للتقدم. ويمثل التيار الأخير الشيخ خليفة بن حمد ولي عهد قطر ورئيس وزرائها، الذي قام في٢٢ شباط عام١٩٧٢م بحركة انقلابية أوصلته إلى الحكم، وهي ما يعرف بالحركة التصحيحية. واستطاع أن ينفرد بالسلطة وينهي عهد الازدواجية في قطر بعد أن استمر هذا العهد ما يقارب من اثني عشر عاماً، وتم هذا الانقلاب أثناء وجود الشيخ أحمد في رحلة قنص بين بندر عباس وشيراز.وقد استطاع الشيخ خليفة أن يحظى بتأييد أعضاء الأسرة الحاكمة وقواد الجيش. وعند استلامه لمقاليد السلطة أصدر عدة مراسيم وقرارات إصلاحية هدفها تحديث الدولة وإقامة الحكومة على أسس عصرية. **وأبرز هذه القرارات الإصلاحية:**

(١) زيادة رواتب موظفي الدولة والقوات المسلحة ورجال الشرطة.
(٢) تعريب القيادة المسلحة لقوات الجيش والشرطة بإقصاء القادة البريطانيين وتعيين قطريين محلهم.
(٣) تحويل ربع الدخل القومي الذي كان يتقاضاه الحاكم السابق إلى الموازنة العامة للدولة.
(٤) عودة جميع المنفيين من المواطنين إلى قطر.
(٥) رفع رواتب العجزة والمسنين وزيادة رواتب أصحاب الضمان الاجتماعي.
(٦) تعيين عدد من السفراء القطريين في الخارج[١٩].

وبالفعل قام الشيخ خليفة بتنحية كوكرنCocron القائد البريطاني ولوك Lock قائد الشرطة وأحل قيادات وطنية مكانهما[٢٠] وسلك سياسة الانفتاح على العالم العربي وكسر جدار العزلة والتخلف إضافة إلى العمل على تطوير قطر. وبعد ذلك شهدت قطر مثلها مثل بقية إمارات الخليج العربي خلال ست سنوات انقلابات كثيرة[٢١] كانت تهدف إلى وصول حكام أكثر تطوراً وتفتحاً وتمشياً مع

روح العصر.

ثانياً: أبرز معطيات سياسة قطر الخارجية:

١. سياسة قطر مع بلدان شبه الجزيرة العربية:

إن نجاح عبد العزيز آل سعود في السيطرة على الأحساء عام١٩١٣م، أنعش الآمال لديه في استرداد السيطرة السعودية على قطر ومشيخات الساحل العماني، لكن معارضة بريطانيا له حالت دون حدوث أي توسع سعودي[٢٢] يضاف إلى ذلك انشغاله بتوطيد دعائم حكمه، وصراعه مع آل الرشيد في حائل ومع الهاشميين في الحجاز ومع ذلك لم يفقد ابن سعود الأمل في هذا التوسع. ففي عام١٩٢٢م منح ابن سعود هذا امتياز النفط في الأحساء للشركة الشرقية العامة، وأخذت حدود هذا الامتياز تتوسع حتى شملت قطر بأكملها، مما أثار اعتراض برسي كوكس percy coxs في مؤتمر العقير، إذ أوضح لكل من ابن سعود وللميجور فرانك هولمز Holmes الذي يمثل الشركة الشرقية بأنه ينبغي أخذ رأي حكومة بريطانيا قبل عقد الامتياز[٢٣]. وقد أوضحت وزارة الخارجية البريطانية في تعليماتها أن المصالح الأمريكية كانت وراء تحركات هولمز، وأنه ينبغي تحذير ابن سعود وتذكيره بما جاء في المادة الرابعة من المعاهدة القطرية- البريطانية لعام١٩١٦م[٢٤]، التي نصت على عدم منح امتيازات النفط إلا لمن توافق عليه بريطانيا. وخلال مفاوضات العقير أكد برسي كوكس أن قطر مستقلة عن السعودية. وفي عام١٩٢٧م وقعت بريطانيا معاهدة جدة مع ابن سعود تعهد فيها أيضاً بالمحافظة على علاقات الود مع شيوخ الكويت والبحرين وقطر ومشيخات الساحل العثماني. وقد خفف ذلك حدة التوتر بين ابن سعود وشيخ قطر. لكن التقارير البريطانية أشارت إلى أن شيخ قطر كان يعاني من متاعب مع أخيه الذي أخذ يمهد للقيام بثورة ضد حكمه، وذلك بتحريض ابن سعود[٢٥].وفي أواخر عام١٩٣٣م عزم الشيخ عبد الله آل ثاني على زيارة ابن سعود في الرياض بمناسبة إعلان ابن سعود قيام المملكة، وخلال الزيارة وقع الشيخ عبد الله آل ثاني اتفاقاً مع ابن سعود تعهد فيه ألا يمنح امتيازاً للنفط في الأراضي الداخلية في قطر. ويبدو أن شركة كاليفورنيا وعبد العزيز آل سعود كانا وراء هذا التعهد[٢٦]. لكن بريطانيا كانت لهما بالمرصاد، إذ نجحت

مناوراتها ضدهما، ففي ١٧ أيار عام١٩٣٥م وقع الشيخ عبد الله اتفاقية خاصة بامتياز النفط لشركة انجليزية – ايرانية. وبعد ذلك طالب ابن سعود بإقرار الحدود بينه وبين قطر[٢٧]، فكان أن تجددت المشكلات مع السعودية وقطر وتدخلت بريطانيا لحلها جاهدة للمحافظة على مصالحها، بخاصة عندما استطاعت المصالح الأمريكية الحصول على امتياز الأحساء عام١٩٣٣م. وبرزت إضافة إلى ذلك محاولات الإيطاليين الذين أخذوا يبذلون جهوداً لمد نفوذهم إلى السعودية. وقد عانت قطر من المشكلات الإقليمية مع جيرانها إذا قامت مشكلات بينها وبين البحرين وأبو ظبي، ففي عام١٩٣٧م برزت مشكلة الزبارة[٢٨] بين البحرين وقطر، حينما تقدم آل نعيم إلى شيخ البحرين بشكوى ضد حاكم قطر الذي حاول إقامة مركز جمركي في الزبارة، فاحتج شيخ البحرين لدى الحكومة البريطانية معتبراً أن قطر تتدخل في شؤون رعاياه آل النعيم. لكن حكومة بريطانيا أخفقت في تسوية النزاع لعدم توصل الطرفين إلى نتيجة مرضية، وأهم ما توصلت إليه التسوية هو موافقة شيخ البحرين على ألا يطالب بموارد نفطية في الزبارة مقابل ألا يتدخل شيخ قطر في شؤون رعايا البحرين من آل النعيم. ولم تعقد اتفاقية بين الطرفين بهذا الشأن واستمرت المشكلة قائمة بينهما. وأما فيما يتعلق بمشكلة الحدود بين قطر وأبو ظبي فقد تدخلت المملكة العربية السعودية كونها طرفاً ثالثاً وتم التوصل عام١٩٦٥م إلى اتفاق بشأن الحدود القطرية السعودية بين ولي عهد قطر ووزير المالية والنفط السعودي. إلا أن الحكومة البريطانية التي تمثل حاكمي أبو ظبي وقطر لم تعترف بذلك الاتفاق لأنه يؤثر على حقوق طرف آخر هو أبو ظبي فيما يتعلق بالحدود التي خططت بين السعودية وقطر. وعلى أي حال، فقد كان لسعي قطر نحو تزعم اتحاد إمارات الخليج أثر في تخفيض حدة الأزمة، وخاصة بين البحرين وقطر بشأن الزبارة وبين السعودية وأبو ظبي بشأن خور العديد. ويلاحظ هذا السعي من الزيارة التي قام بها الشيخ أحمد بن علي آل ثاني إلى البحرين في أيار عام١٩٦٥م وهي الزيارة الأولى التي يقوم بها حاكم قطر إلى البحرين، وفيها تباحث الحاكمان حول مطالبة البحرين بالزبارة ومطالبة قطر بجزيرة حوار، والتي هي جزيرة من جزر البحرين العديدة. وقد نجحت المحادثات في تسوية

الحدود بين البلدين وكان الشيخ أحمد حريصاً على تصفية الخلافات بينه وبين أبو ظبي حول ملكية خور العديد(٢٩). وهكذا نلاحظ أن الخلافات ما بين قطر والبحرين وأبو ظبي والسعودية كانت خلافات حول الحدود وامتلاك المناطق.

٢. سياستها مع بريطانيا:

عندما نشبت نيران الحرب العالمية الأولى ازداد الاهتمام بتأمين المصالح البريطانية في منطقة الخليج العربي، وكان استمرار وجود الحامية العثمانية في قطر، مع دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا المناوئة لبريطانيا أمراً لا يمكن السكوت عليه. لذلك عمدت الحكومة البريطانية إلى إرسال سفينة حربية إلى قطر في١٩آب عام١٩١٥م وأبلغت أفراد الحامية العثمانية بضرورة التسليم وكان لها ما أرادت. وكانت بريطانيا قد أخطرت شيخ قطر باندلاع الحرب بين بريطانيا وألمانيا عن طريق المقيم البريطاني في الخليج. وقد تجددت المناقشات بشأن إبرام معاهدة مع الشيخ عبد الله. وفي٢١-٢٢ تشرين الأول عام١٩١٥م قام المعتمد البريطاني في الكويت الكولونيل جراي Gray ومعه المعتمد البريطاني في البحرين بمناقشة مشروع الاتفاقية مع الشيخ عبد الله وأكملت المفاوضات بشأن توقيع الاتفاقية في٣تشرين الثاني عام١٩١٦م . وكان قصد بريطانيا من وراء عقدها ضمان سلامة نفوذها ومواصلاتها في المنطقة. وتعد معاهدة ٣تشرين الثاني عام١٩١٦م أول معاهدة بين بريطانيا وشيخ قطر(٣٠) نصت على وضع قطر تحت الحماية البريطانية. وقد اشتملت على جميع القيود التي فرضتها بريطانيا على إمارات الخليج العربي. وتعهد شيخ قطر بإلغاء تجارة الرقيق وموافقته على اجراءات التفتيش البحري الذي تقوم به سفن بريطانيا وألا يستورد السلاح إلا بشكل محدود ٥٠٠ قطعة سنوياً وهو ما يحتاجه هو وعشائره. وكذلك نصت المعاهدة على عدم منح امتيازات لشركات أجنبية لاستغلال مصائد اللؤلؤ، وإقامة وكيل بريطاني في الدوحة. ومع ذلك وقع شيخ قطر وثيقة منفصلة عن المعاهدة تضمنت قيوداً إضافية، مثل عدم التنازل عن أراض تابعة له سواء عن طريق البيع أو الهدية أو التأجير دون موافقة بريطانيا. وكذلك عدم منح امتيازات خاصة باستغلال النفط أو أيّ موارد طبيعية أخرى دون موافقة المقيم البريطاني في الخليج(٣١). وقد أكملت هذه

المعاهدة الصورة، إذ ساهمت في عملية تحويل الخليج إلى بحيرة بريطانية(٣٢). ومع نهاية الحرب العالمية الأولى منح شيخ قطر لقب CIE، وبذلك تميز عن غيره من شيوخ الساحل العماني، إضافة إلى منحه سبعة مدافع وهي هدية لم يحصل عليها سواه من بين الشيوخ الآخرين(٣٣). فالشيخ عبد الله الذي وقع الاتفاقية كان معروفاً بولائه للإنكليز وقد جددت هذه المعاهدة في عام١٩٣٤م. وفي عام١٩٣٨م صدر مرسوم يتعلق بمباشرة الإنكليز لاختصاصات القضاء الجنائية التي يهتم فيها رعايا بريطانيون أو أشخاص متمتعون بالحماية البريطانية، وفي نيسان١٩٤٩م استبدل بهذا المرسوم مرسوم آخر بعد إلغاء حكومة الهند على أثر استقلال الهند وباكستان عام١٩٤٧م، وصدرت مراسيم خاصة كذلك بالبحرين ومسقط والكويت. وفي عام١٩٤٩م لم يكن في قطر ممثل مقيم من قبل الحكومة البريطانية، فأوكلت رعاية المصالح البريطانية في قطر إلى الممثل البريطاني في البحرين. في العام نفسه عين جون والتون John– Walton وكيلاً لبريطانيا في قطر وانضم إليه مساعدون عملوا مستشارين في بعض مكاتب الحكومة وخاصة في إدارة الأمن العام. وجاء تعيين هذا الممثل مؤشراً على توسيع وتوثيق علاقات قطر مع العالم الخارجي وخصوصاً بعد تصدير البترول بكميات كبيرة. وكذلك عين شيخ قطر المستشارين الإنكليز كي يعاونوه في إدارة الأمن العام وأمور البلاد(٣٤). وفي الواقع فإنه يجب التفريق بين الممثل السياسي البريطاني الذي تعينه الحكومة البريطانية والمستشار الذي تعينه الحكومة لمساعدتها على ما تحتاج إليه من مشورات سواء في النواحي الداخلية والخارجية، وبين تغلغل النفوذ البريطاني في الوظائف الإدارية(٣٥). ويرى الدكتور جمال زكريا قاسم " أن الإنكليز لم يعملوا بصفة مستشارين حيث لم يكن هناك إلا مستشار واحد ألغى منصبه فيما بعد إنما عملوا بصفة مديرين إداريين في دوائر الحكومة نظراً لحاجة البلاد إلى الكفاءات الأجنبية ولعدم توفر الكفاءات القطرية" (٣٦). وذلك بسبب تأخر التعليم وقلة عدد السكان. أما الممثل السياسي في قطر فهو الذي يعين حسب بنود الاتفاقية البريطانية – القطرية الموقعة عام١٩١٦م، والتي حفظت لقطر استقلالها الداخلي ونصت على ترك أمر الإشراف الخارجي وتمثيلها في الخارج

لبريطانيا، مقابل تعهد بريطانيا بحماية قطر ضد أي عدوان يقع عليها. وعليه فقد أصبح المعتمد البريطاني في الدوحة يدعى الممثل السياسي البريطاني الذي كان يدير العلاقات الخارجية في قطر والذي كان يتبع لوزارة المستعمرات البريطانية. تولى أيضاً كذلك مهمة قضائية هي محاكمة الأوروبيين والهنود والباكستانيين. وعهد إليه كذلك برعاية مصالح التجار البريطانيين. وعلى الرغم من أن الفلسفة الاستعمارية البريطانية كانت تحاول أن تظهر أنها تقوم بممارسة الشؤون الدفاعية والعلاقات الخارجية بحكم ما تخوله لها المعاهدات إلا أن ذلك لم يمنعها من انغماسها في الشؤون الإدارية الداخلية للحكام من أجل المحافظة على مصالحها في المنطقة، وغالباً ما لجأت إلى خلع الشيوخ الذين لديهم تطلعات تعارض مصالحها وخاصة الحكام الذين أبدوا تجاوباً مع الجامعة العربية. ولكن مع زحف تيار القومية العربية إلى منطقة الخليج أدركت بريطانيا أن المعاهدات التي عقدتها منذ القرن التاسع عشر أصبحت لا قيمة لها ولذلك أعلنت قرارها الانسحاب من الخليج العربي بأكمله بعد حكم دام ما ينوف على قرن ونصف قرن.

ثالثاً: النفط وآثاره في تطور قطر:

بما أن اقتصاد قطر يعتمد اعتمادا كاملا وبالدرجة الاولى على النفط الذي يشكل نحو ٨٥% من دخلها اليومي لذلك لابد من إلقاء الضوء على امتيازات النفط التي تعود إلى ٧أيار عام١٩٣٥م عندما أبرمت اتفاقية لاستخراج النفط بين حاكم قطر آنذاك الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني والمستر شارلي كلارك مايلز miels، لمدة ٧٥عاماً. في البداية شمل الامتياز مساحة قطر بأكملها ولكنه اقتصر فيما بعد على المنطقة المحيطة بحقل دخان حيث تتركز أعمال الشركة. قامت هذه الشركة أي شركة نفط قطر المحدودة Q.p.c بمسح جيولوجي، وعثر على النفط عام ١٩٤٠. ثم توقف نتيجة الحرب العالمية الثانية ليستمر بعدها. وفي عام١٩٤٩م انطلقت أول شحنة بترول من قطر إلى أسواق أوربا. وينتج حقل دخان حاليا ما يعادل ٩ملايين طن سنويا. ويعد النفط المستخرج من حقل دخان من أجود أنواع النفط من حيث الكثافة، ولذلك هو أعلى زيوت منطقة الخليج سعرا[٣٧].وللتنقيب عن النفط في المناطق البحرية أعطى شيخ قطر امتيازا للتنقيب

لشركة شل عام١٩٥٢م وفي عام١٩٦٤م بدأ الإنتاج الفعلي. وأهم الحقول فيها حقل العد الشرقي وحقل ميدان محزم وحقل بو الحنين[٣٨]. أما شركة ونتر شل shell الألمانية فقد حصلت على امتياز لها في المنطقة البحرية من الجزء الشمالي الغربي وتبلغ مساحة الامتياز ٢٩٠٠٠كم٢، وقد عقدت الاتفاق بعد الاستقلال في(١٨-٦-١٩٧٣م)، ومدته ثلاثون عاما. كذلك حصلت شركة فوجي fuge اليابانية المكونة من ائتلاف بين خمس شركات لها مساحات كبيرة مغمورة قدرت بـ ٧٣٠٠كم٢، وامتد الامتياز ليشمل المناطق البحرية والبرية خارج المياه الإقليمية لقطر. وهذه المناطق تقع ضمن الجرف القاري الذي اقتسم فيها بعد بين قطر وأبو ظبي، وحددت الاتفاقية الامتياز لمدة ٣٥سنة ونصت على أن تتنازل الشركة عن ٣٠% من مساحة الامتياز بعد مرور خمس سنوات، و٢٥% بعد مرور ٨سنوات. وقد أنشأت شركة نفط قطر في ميناء مسيعيد معملاً صغيرا عام١٩٥٤م لتكرير البترول، الذي أصبح ملكا للشركة الوطنية عام١٩٦٨م. ثم أنشأت خطا لنقل الغاز من حقل دخان إلى مدينة الدوحة لاستخدامه في أغراض صناعية. ثم أنشأت مصنعا للإسمنت عام١٩٦٩م ومصنعا للأسمدة الكيماوية. وسرعان ما تحولت دائرة النفط قطر بعد الاستقلال إلى وزارة للنفط[٣٩]. لكن الحكومة اتجهت مؤخرا وجهة رشيدة في حرصها على تنويع مصادر الدخل القومي وراء ذلك، **فقامت بالأمور التالية:**

١- أولت الصناعة اهتماما كبيرا بقصد تنويع مصادر الدخل وإيجاد بديل للنفط عند نضوبه، فوضعت سياسة عامة للتصنيع والإشراف على الصناعة.

٢- استغلال الثروات الطبيعية على نحو يكفل رفع مستوى الإنتاج وتخفيض تكاليفه.

٣- تنمية الصناعات الوطنية عن طريق حمايتها وتنظيمها وتشجيعها.

٤- مكافحة غش المنتجات الصناعية.

٥- ونظراً لأن النفط يشكل الدعامة الأساسية في الاقتصاد القطري فقد سعت الدولة لوضع خطط للاستفادة منه في مجالات التنمية الاقتصادية والبشرية. فهو الممول لعملية تنمية المصانع ومحطات توليد الطاقة وفي الاستهلاك المحلي. إضافة إلى استغلاله في الصناعات البتروكيماوية وإنتاج المواد البلاستيكية

وإنتاج الغاز الطبيعي وتصديره إلى الأسواق العالمية. كل ذلك يوضح الأهمية البالغة التي توليها الدولة لمشروعات التنمية الاقتصادية.

وأهم المشروعات القائمة في قطر هي:

مشروع شركة البترول الوطنية، وشركة قطر للأسمدة الكيميائية، وشركة قطر لصناعة الإسمنت وشركة قطر للحديد والصلب. إضافة إلى صناعات أخرى مثل مطاحن الدقيق، وصناعة السمك المجفف، والصناعات اليدوية مثل الحدادة والنجارة، إضافة إلى الصناعات الغذائية. ولقد عملت الدولة على تطور الفعاليات الزراعية، مثل تحسين المحاصيل والإنتاج، وإنشاء مراكز التدريب الزراعية، واستصلاح وتعمير الأراضي الصالحة للزراعة، وتنظيم استغلال المراعي. وكذلك إجراء تجارب وبحوث زراعية، ودعم التعاون مع الدولة والمنظمات الدولية في البحوث ومكافحة الآفات الزراعية. ونتيجة لكل هذه الجهود أخذت الزراعة تغطي حاجة السكان، وتحقق فائضاً يتم تصديره إلى الخارج. وتقوم وزارة الزراعة بإمداد المزارعين بالبذور مجاناً، ومساعدتهم على حراثة الأراضي بالجرارات وتزويدهم بالأسمدة. وتولى تطور الإنتاج الحيواني، وتربية الدواجن اهتماماً كبيراً.

أما على صعيد التجارة فقد صدر مرسوم عام١٩٧٠م بإحداث وزارة تحتضن الاقتصاد الوطني والتجارة، فتشكلت الوزارة المعنية بالشؤون الاقتصادية، وكان قسم منه يختص بإجراء العقود في السجلات التجارية كسجل المقاولين والوكلاء، وقسم يهتم بمراقبة الشركات، وقسم يهتم بالاستيراد، وقسم يهتم بالمقاييس والموازين والمكاييل، ومكتب لتسجيل العلاقات الخارجية، ومن المؤكد أن الحكومة القطرية شجعت التجارة ومنحتها التسهيلات كافة من أجل الازدهار والنمو. فشجعت قيام مشروعات لتدعيم الاقتصاد، مثل بنك قطر، وشركة الملاحة، وشركة التأمين، وإقامة المخازن لتخزين البضائع، وإقامة منطقة حرة للترانزيت[٤٠] وشق الطرقات، وإعفاء الشركات الوطنية المساهمة من الضرائب، مما ساعد على ازدهار التجارة وتطورها. وهكذا يتضح لنا أن النفط لعب دوراً وما زال يلعب دوراً أساسياً في اقتصاد قطر إذ يعد الدعامة الأساسية والركيزة لكل نهضة فيها فهو الممول لعملية التنمية الاقتصادية وكل نواحي الحياة.

رابعاً: الحياة الاجتماعية والثقافية في قطر:

غير خاف ما للعوامل الاجتماعية من أثر كبير في تشكيل المجتمع إذ بقدر تجانس عادات المجتمع وتقاليده، وبقدر توافق معتقداته ومشاعره يكون انصهاره وتماسكه في إطار واحد، وتصدق هذه المقولة بوجه خاص على المجتمع القطري فالإسلام هو المحرك الأساسي والموجه لسلوكه وضابط تنظيمه ومحقق الآمال في التماسك والترابط. فالقرآن الكريم هو الذي حفظ ورسخ وأرسى قواعد اللغة العربية التي هي الدعامة الأولى إلى جوار الدين الإسلامي التي ساهمت في الحفاظ على وحدة المجتمع القطري ورغم الحماية الأجنبية البريطانية ومن قبلها العثمانية. ولهذا نرى العلاقات بين أبناء قطر قد سادتها البساطة وبعدت عن التعقيد، فمعظم سكان قطر من أصل بدوي وقد بلغ عددهم حسب تعداد عام١٩٧٢م (١٨٠)ألف نسمة والتجمع الأكبر يتركز في الدوحة العاصمة حيث يعيش نحو ٨٠%من مجموع السكان والباقي يقيمون في مناطق البترول.

وكانت في قطر نوعان من الهجرة:

١. هجرة داخلية من القرى والسواحل إلى الدوحة العاصمة حيث تتوفر فرص العمل ومتطلبات الحياة العصرية.
٢. الهجرة الخارجية: وهي تشمل أولئك الذين وفدوا إلى قطر من البلدان المجاورة بعد النفط طمعاً في الكسب والعيش وجاءت تلك الهجرة من البلدان العربية ومن البلدان المجاورة كالهند وباكستان وإيران. وهذا ما حدا بالبلاد إلى إصدار قانون الجنسية بقصد إيجاد توازن بين أبناء البلاد الأصليين والوافدين. وقانون الجنسية الذي صدر عام ١٩٦٢ وأجريت عليه تعديلات عديدة فيما بعد حدد السكان القطريون بثلاث فئات وهي:
   (١) القطريون الأصليون الذين أقاموا في قطر قبل عام ١٩٣٠.
   (٢) القطريون الذين ولدوا من أب قطري داخل أو خارج قطر.
   (٣) القطريون مكتسبو الجنسية القطرية الذين قدموا من الدول العربية وعلى هؤلاء أن يثبتوا أنهم عاشوا في قطر مدة عشرين عاماً أو خمسة عشر عاماً وأن يكونوا لهم مصدر رزق وتشترط معرفتهم لـ اللغة العربية.

وأعطى القانون الحق للحكومة بسحب الجنسية القطرية من الأشخاص الذين

يحصلون على جنسية أجنبية دون موافقة الحكومة أو يتعاملون مع دول معادية وحدد منح الجنسية القطرية المكتسبة، إلى ما لا يزيد على عشرة أشخاص سنوياً. هذا وكان لظهور النفط أثره الواضح في إضعاف الروح القبلية وسيادة المفهوم العصري للأسرة ونظراً لقلة عدد السكان ومعرفة بعضهم بعضاً تجانست حالاتهم وتوحدت مشاعرهم وكونوا ما يشبه الأسرة الواحدة. هذا ولم تشهد قطر تغيرات في أوضاعها الداخلية خلال حكم الشيخ علي الذي كان محافظاً، ولم يوافق على إقامة المدارس العصرية حتى عام١٩٥٢م عندما افتتحت مدرسة ابتدائية للذكور. وقبل هذا التاريخ كان التعليم في قطر يسير في نظام الكتاتيب ويقتصر على تعليم القرآن وأمور الدين وتدريس القراءة والكتابة والقليل من الحساب. أما المدرسة المذكورة التي أنشئت في عام١٩٥٢م فقد ضمت ٢٣٠تلميذاً قام بتدريسهم ستة مدرسين، وتشكلت وزارة المعارف لأول مرة عام١٩٥٦م. وكان الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أول وزير لها(٤١). ثم أخذ التعليم يسير بخطى حثيثة، فأنشئت أول مدرسة للإناث عام١٩٥٦م ضمت خمسين تلميذة. لكن بعد الاستقلال تطور الوضع فأصبح التعليم الابتدائي إلزامياً ومجانياً للبنين والبنات، ومن ثم جاء التعليم الإعدادي فالثانوي فالمعاهد والبعثات لتلقي العلم خارج قطر إيماناً من الدولة بأن العامل الثقافي يساعد في الحفاظ على وحدة الثقافة والفكر. وقد استمدت قطر ذلك الفكر من مناهج الوحدة الثقافية العربية كي تنشأ أجيال متربية على مفهوم الوحدة الوطنية والقومية. هذا وتوسع التعليم في قطر شمل كل الفروع إيماناً من مبدأ وحدة العامل الثقافي ودوره في تماسك المجتمع(٤٢).

Damascus University

هوامش الفصل السادس

[1])د. عبد العزيز منصور، د. فتوح الخترش، نشوء قطر وتطورها، منشورات ذات السلاسل، ط١،١٩٧٧، ص١٠-١١.

[2]) لوريمر، مصدر سابق، ج٣، ص١٢١٤-١٢١٥

[3]) المنصور والخترش، المرجع السابق، ص١٢

[4]) لوريمر، مصدر سابق، ج٣، ص١٢١٨

[5]) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٢١٩

[6]) المنصور والخترش، المرجع السابق، ص ٥٤

[7])الغارية: تقع على الساحل وتبعد عن الدوحة ١٠٠كم، البحر يطغى عليها ولذلك سميت الغارية. مصطفى مراد الدباغ، قطر ماضيها وحاضرها، بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٦١م، ص٩٨

[8]) لوريمر، المصدر السابق، ج٣، ص١٢٢٢

[9]) المنصور والخترش، المرجع السابق، ص٥٥

[10]) الملازم روبنسون، هو قائد سفينة صاحبة الجلالة سفنكس، لورمير، المصدر السابق، ج٣، ص١٢٥٦

[11]) المنصور والخترش، المرجع السابق، ص٦٨-٧٠

[12]) سوف يتم التحدث عن هذه المعاهدة في فقرة العلاقات الخارجية

[13]) الدباغ، مرجع سابق، ص١٩٢

[14]) الإمارات هي: قطر، البحرين، أبوظبي، دبي، عجمان، أم القوين، الفجيرة، الشارقة، ورأس الخيمة.

[15]) د. أحمد زكريا الشلق والدكتور مصطفى عقيل الخطيب، قطر واتحاد الإمارات العربية التسع في الخليج العربي،١٩٦٨- ١٩٧١م،"دراسة ووثائق"، الدوحة، ١٩٩١م، ص١٦.

[16]) الوثيقة رقم ٤، الشلق والخطيب، المصدر السابق، ص١٤١-١٤٢.

[17]) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخها المعاصر،١٩٤٥-١٩٧١م، ص١٦٧.

[18])يوسف محمد عبيدان، المؤسسات السياسية في دولة قطر، وزارة الإعلام، إدارة الثقافة والفنون، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٤٣-١٤٦.

[19])عبيدان، المرجع السابق، ص١٤٦-١٤٧.

[20])قاسم، الخليج العربي،١٩٤٥م، ص١٧٢.

[21])كانت قد حدثت الإطاحة بحاكم الشارقة عام١٩٦٥م ، وعزل الشيخ شخبوط بن سلطان حاكم أبو ظبي عام١٩٦٦م، ثم عزل بن تيمور سلطان مسقط عام١٩٧١م، وفي ٢٢شباط١٩٧٢م، عزل أحمد بن علي شيخ قطر.

[22]) India office, L/p and s/10/384 file 2182. 1913

(23) F.O 371/17813 Dickson political agent Kuwait, The political Resident in Persian Gulf 14 july, 1933

(24)سيتم تناول المعاهدة تفصيلياً خلال بحث سياسة قطر مع بريطانيا.

(25)جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات،١٩١٤-١٩٤٥م، دار الفكر، ط١، ١٩٧٣م، ص٢٨٢.

(26) F.O 371/17813 Dickson political agent Kuwait, The political Resident in Persian Gulf 14 july, 1933

(27) قاسم، الخليج العربي، ١٩١٤م، ص٢٨٢.

(28)عبد الرحمن محمد النعيمي، الصراع على الخليج العربي، توزيع دار الكنوز الأدبية، بيروت ط١، ١٩٩٤م، ص١٦٣.

(29) F.O 371/19977 Anglo – Saudi negotiation Eastern and South Eastern Arabia 30th May 1935

(30) C.F India office 402 Qatar 1908-1916

(31)الدباغ، المرجع السابق، ص٢٠٧-٢١٠.

(32)سيد نوفل، الخليج العربي والحدود الشرقية للوطن العربي، دار الطليعة، بيروت،١٩٦٩م،ص٤٨.

(33) India Office and records B.402 refernce L/p s/18/Qatar 1908-1916

(34)قاسم، الخليج ١٩١٤، ص٢٨٢-٢٨٣.

(35)عبيدان، المرجع السابق، ص١٣٢

(36)قاسم، الخليج ١٩١٤، ص٢٨٣

(37) Marlow, j.ThePetsian Gulf in the 20 Century, London 1962.P.177

(38)عبيدان، المؤسسات السياسية، ص٨٨

(39)دائرة نفط قطر، النهضة البترولية في قطر، شركات النفط العاملة في قطر ونشاطاتها

(40)عبيدان، مرجع سابق، ص١٢٠-١٢٥

(41)العقاد، التيارات...، ص٣٦٩

(42) عبيدان، مرجع سابق، ص٧٠

Damascus University

الفصل السابع

عمان ما بين عامي(١٨٠٦-١٩٧١م)

أولاً: عمان منذ حكم سعيد بن سلطان(١٨٠٦-١٨٥٦م)

ثانياً: أوضاع عمان بعد وفاة سعيد بن سلطان

١. حكم ثويني بن سعيد(١٨٤٠-١٨٦٦م)

٢. حكم عزان بن قيس(١٨٦٨-١٨٧١م)(إحياء الإمامة على يد عزان بن قيس)

٣. حكم تركي بن سعيد(١٨٧١-١٨٨٨م)

٤. حكم فيصل بن تركي

٥. حكم تيمور بن فيصل

٦. حكم سعيد بن تيمور

ثالثاً: انبعاث الإمامة الإباضية (١٩١٣-١٩٢٠م)

رابعاً: العلاقات بين السلطنة والإمامة(١٩٢٠-١٩٤٥م)

خامساً: محاولات السلطان سعيد بن تيمور استرداد سلطته على الداخل

سادساً:مشكلة البوريمي بين عمان والسعودية

سابعاً:تطور مسقط السياسي وتوحيد السلطنة على يد السلطان قابوس.

ثامناً: النفط واثاره في تطور عمان

هوامش الفصل السابع

Damascus University

Damascus University

أولاً: عمان منذ حكم سعيد بن سلطان ١٨٠٦-١٨٥٦:

استطاعت أسرة البو سعيد أن تؤسس امبراطورية عربية وافريقية كانت الأولى من نوعها في التاريخ الحديث لآسيا وأفريقيا. ورغم كل الظروف والمعاناة التي قاستها هذه الأسرة، إلا أنها نجحت في الامتداد والتوسع باتجاه أفريقيا. واستطاع السيد سعيد بن سلطان الذي تولى الحكم ما بين عامي١٨٠٦-١٨٥٦م أن يستعيد الممتلكات الأفريقية، ويختط لنفسه خطة سياسية واضحة المعالم، فقد رأى درجة الضعف التي وصلت إليها السيادة العمانية في بعض المقاطعات الأفريقية التي حاولت الاستقلال عن عمان، ولم يبق سلطة لعمان إلا على كيمبا وموفيا وكلوه. ولذلك قرر السيد سعيد نقل حكمه إلى زنجبار واتخاذها عاصمة له، ويمكن إيجاز الأسباب التي دعت السيد سعيد لنقل حكمه من مسقط إلى زنجبار بما يلي:

١- قد يكون السيد سعيد أحس ببداية تفكك القسم الآسيوي من ممتلكاته، فآثر الانتقال إلى زنجبار تلك الجزيرة النائية الواقعة في الطرف الآخر من مملكته.

٢- أو ربما حاول تجنيب نفسه المتاعب الداخلية التي تعرض لها في مسقط، مثل ثورات القبائل أو المتاعب الخارجية كضغط الإنكليز عليه، فقرر مغادرة مسقط عام١٨٢٨م على رأس أسطول كبير وصل به إلى ممباسا، وهناك خاض معارك شديدة مع المزاريع، انتهت بهزيمة الحاكم المزروعي الذي وافق على توقيع اتفاقية اعترف فيها بسيادة سعيد عليها[١]. وبعد ذلك ترك السيد سعيد ٣٠٠ من جنوده البلوش في قلعة يسوع وأبحر إلى زنجبار، ومكث فيها ثلاثة أشهر، ثم غادر زنجبار لأن ممباسا عادت إلى التمرد فأرسل ثلاث حملات من مسقط ضد المتمردين، حتى استطاع إخضاعهم والانتصار عليهم بعد وقوع رئيس قبيلة المزاريع راشد بن سالم في الأسر. وفي عام١٨٣٢م قرر السيد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له والإقامة فيها. وبدلاً من أن يحكم شرقي أفريقيا من عمان، بدأ يحكم عمان من شرقي أفريقيا.

وهناك عدة اعتبارات لاتخاذ زنجبار عاصمة له. ففي مدينة زنجبار موانئ

عميقة تصلح لرسو السفن الضخمة، إضافة لوجود مياه الشرب النقية، وخصوبة أراضيها. وقد كان للسيد سعيد اهتمامات كبيرة بالزراعة، وخاصة زراعة الأرز والقرنفل[٢]. أخذت بريطانيا تقلق من تزايد قوة السيد سعيد إذ كانت ممتلكاته تبدأ من المكلا وتشمل جميع مقاطعات عمان وسواحلها حتى شبه جزيرة هرمز. وقد قدر Guillaunجيان قوة الإمام البحرية ب٣٧ سفينة حربية، وقوته العسكرية ب٢٥٠ ألف جندي، منهم خمسون ألف جندي يخدمون في الأسطول[٣]. ويبدو أن بريطانيا كانت تقلق من وجود هذه القوة البحرية، ولذلك كثيراً ما كانت تستغل طابع الكرم عند السيد سعيد حتى تجرده من أسطوله فقد وصل به كرمه إلى أن يهديها الكثير من سفنه الحربية، وخاصة سفينة ليفربول التي أهداها للملكة فكتوريا عام ١٨٣٥. وكذلك أهدى بريطانيا جزر كوريا موريا ١٨٥٤.وتحت حجة العمل على مكافحة الرقيق وقمع القرصنة، عقدت بريطانيا مع السيد سعيد سلسلة من المعاهدات حدت من نفوذه. ففي عام١٨٤٠م ازداد الضغط البريطاني على الخليج، فاحتل الإنكليز الخرج، وحاولوا الاستقرار في جزيرة هرمز والقشم، وأبقوا حامية عسكرية في ميناء باسادور، للتحكم في مدخل الخليج العربي من جهة الشمال. وهذا الضغط البريطاني لم يكن موجهاً ضد السيد سعيد فحسب وإنما كان الهدف منه أيضاً تجنيب منطقة الخليج أي غزو يتهددها، كما حدث أثناء تقدم القوات المصرية. لكن الحاميات العسكرية البريطانية لم تستطع البقاء بسبب جدب هذه الجزر، ولأن حكومة الهند كانت تتحمل الكثير من نفقات نقل مؤن هذه الحاميات من بومباي. إضافة إلى انتشار الأمراض والحميات فيها. ولذلك اضطر الإنكليز للجلاء عن معظم هذه المناطق بعد أن نجحوا في إضعافها، وأكدوا سيطرتهم عليها بمقتضى المعاهدات التي مكنتهم من السيطرة على معظم ساحل الخليج العربي[٤]. تعود أهمية عهد السيد سعيد في زنجبار، إلى تطبيقه سياسة اقتصادية، هدفها زيادة دخل السلطنة باستغلال أراضي أفريقيا البكر. ولذلك آثر عند انتقاله إلى زنجبار اصطحاب الأثرياء وكبار التجار من العرب والهنود بقصد تشجيع التجارة. وامتد هؤلاء التجار بمراكزهم التجارية حتى مدغشقر وموزامبيق وجزر القمر. واستطاع التجار العرب كذلك أن يتوغلوا في المناطق الداخلية، وكانت لهم مراكزهم التجارية في أعالي الكونغو. تميزت الأنظمة الاقتصادية التي

وضعتها السلطة العربية في شرقي افريقيا بالمرونة، من حيث تبسيط أنظمة الضرائب وتخفيفها، فقد كانت لا تزيد على(٥%) من الواردات القادمة إلى الموانئ وكذلك إعفاء الصادرات من الضرائب، إضافة إلى نظام النقد الذي استحدثه السيد سعيد بالاعتماد على الروبية الهندية[٥]. وأخذت الممتلكات الأفريقية تخطو خطوات سريعة فزادت مواردها زيادة كبيرة، وقوي أسطول السيد سعيد الذي أصبح أكبر أسطول بين الأساطيل التي كانت تمتلكها الدول الآسيوية والأفريقية الواقعة على سواحل المحيط الهندي، وإن كان استخدامه قد اقتصر على الأغراض التجارية فقط. وفي عام١٨٣٣م عقد السيد سعيد معاهدة تجارية مع أمريكا. وفي عام١٨٣٧م افتتحت في زنجبار أول قنصلية أمريكية حيث كان التجار الأمريكيون يشترون العاج والكوبال وجلود الحيوانات. وفي عام١٨٤١م افتتحت قنصلية فرنسية[٦] وسرعان ما تلتها قنصليات للبرتغال وإيطاليا وألمانيا. ورغم توقيع المعاهدة التجارية في عام١٨٣٩م، بين بريطانيا والسيد سعيد فإن العلاقات بينهما كان يشوبها التوتر والفتور، بسبب ضغط الإنكليز عليه بقصد إلغاء تجارة الرقيق، الأمر الذي يفقد السلطنة مصدراً من مصادر الدخل. وعندما أدرك السيد سعيد في سنواته الأخيرة صعوبة الاحتفاظ بممتلكات السلطنة الآسيوية والأفريقية، استقر رأيه على تقسيمها بين أبنائه، خوفاً من وقوعها بيد الأعداء. ولم يكن السيد سعيد يقصد فصل هذه الممتلكات، بعضها عن بعض، فصلاً سياسياً تاماً، بل كان يريد تقسيمها إدارياً بين أبنائه[٧]. لكن بريطانيا اتخذت من وصية السيد سعيد حجة لتقسيمها النهائي وكان هدفها من ذلك هو إحكام سيطرتها على اقليمي عمان والممتلكات الأفريقية. وهو ما حصل في أعقاب وفاة السيد سعيد في(١٩-٩-١٨٥٦م) وكان عمره آنذاك ٦٥عاماً وتم دفنه في زنجبار بناءً على وصيته[٨]. وقد قسمت السلطنة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يحكمه ثويني ومقره في مسقط. والثاني يحكمه تركي ومقره في صحار. أما القسم الثالث فيحكمه ماجد ومقره في زنجبار. وكان القسمان الأخيران يدفعان إلى مسقط مبلغاً سنوياً من المال عدّ بمنزلة جزية ورمزٍ للتبعية، وكان قد فرضها السيد سعيد على ابنيه تركي وماجد. ومع وفاة السيد سعيد حاول الشقيقان تركي وماجد التخلص من دفع الجزية فاستغلت بريطانيا الصراع الأسري بين الأخوين ثويني وماجد، ونصبت نفسها

حكماً بينهما، ووصلت إلى غرضها في تقسيم أملاك عمان إلى قسمين منفصلين هما سلطنة مسقط وسلطنة زنجبار. وإن كان التقسيم قد تم منذ أيام والدهم السيد سعيد فإنه لم يكن فيه أي تكافؤ مالي وتجاري. فالأملاك الأفريقية مواردها أغنى بكثير من موارد عمان، ولذلك طالب ثويني بتوحيد شطري عمان الآسيوي مع الأفريقي. وأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين الأخوين وتحول إلى عداء ظاهر. فقد كان ثويني حاكم مسقط هو الوريث الشرعي للقسم الأفريقي، وذلك بحكم مركزه. ولذلك سارع إلى تجهيز حملة عسكرية عام١٨٥٨م لاسترداد ممتلكات أبيه الأفريقية. لكن بريطانيا تدخلت بطريقة سافرة، ومنعت الحملة من القيام بمهمتها، ووجهت أسطولاً بحرياً أنذر ثويني بالعودة والقبول بتحكيم بريطاني. واختارت بريطانيا اللورد كاننجCanning حاكم الهند العام ليباشر التحكيم. وكان كاننج متحيزاً لجانب ماجد فرفض الاعتراف بأي حق لثويني وأجبره على القبول بالتحكيم الذي سيقره الحاكم العام. وفي نيسان عام١٨٦١م صدر قرار التحكيم بفصل الأجزاء الأفريقية من السلطنة عن الأجزاء الآسيوية، وبقي ماجد حاكماً على زنجبار والممتلكات الأفريقية، كما بقي ثويني حاكماً على مسقط على أن يدفع حاكم زنجبار لمسقط مبلغاً سنوياً قدره عشرة آلاف جنيه استرليني، "٤٠ألف كرونة"(٩) وكان هذا التقسيم ضربة قاضية للإمبراطورية التي كونها السيد سعيد، وأصبح التقسيم منفذاً خطيراً لفرض السيطرة البريطانية وصار سلاطين عمان يسعون للحصول على الاعتراف البريطاني عند توليهم الحكم، كي يضمنوا الحصول على الإعانات المالية التي تدفعها زنجبار سنوياً. ومنذ عام١٨٧١م تولت بريطانيا بنفسها دفع الإعانة واستغلتها كسلاح تشهره في وجه حكام مسقط، كلما أرادت ذلك. ومع هذا التقسيم خشيت فرنسا التي لها مصالح في القسم الأفريقي من السلطنة أن تنفرد بريطانيا بالنفوذ في كلتا السلطنتين، مسقط وزنجبار وشكل الموقف الفرنسي خطورة على بريطانيا، لذلك سارع الجانبان في آذار عام١٨٦٢م إلى إصدار تصريح بريطاني فرنسي مشترك، أعلنت فيه كل منهما تعهدها باحترام استقلال كل من مسقط وزنجبار(١٠).

ثانياً: أوضاع عمان بعد وفاة سعيد بن سلطان:

١. حكم ثويني بن سعيد(١٨٤٠-١٨٦٦م):

يمكن تقسيم حكم ثويني إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يمتد منذ عام(١٨٤٠-١٨٥٦م). وخلال هذه الفترة كان ثويني يقوم بأعباء الحكم نيابة عن أبيه في مسقط. والقسم الثاني من عام١٨٥٦م حتى١٨٦١م. وقد انشغل ثويني خلال هذه الفترة بمحاولة ضم الممتلكات الأفريقية التي اتجه ماجد للاستقلال بها. أما القسم الثالث من حكمه فيمتد من عام(١٨٦١-١٨٦٦م) وفي هذه السنوات تقلص نفوذ سلطته على مسقط، وتوجه للحفاظ على ما تبقى من فتات هذه السلطنة. لكن سرعان ما قتل ثويني على يد ولده سالم الذي تولى الحكم من بعده، الأمر الذي ساعد بريطانيا على التدخل أكثر في شؤون عمان وبسط نفوذها عليها. فسرعان ما توقف ماجد عن دفع المعونة لسالم، لكن حكومة الهند تدخلت وطلبت منه دفع المعونة بعد أن اعترفت بسالم. ولم تستقر حكومة سالم طويلاً في الحكم، عندما قاومته المعارضة الهناوية، ووجد منافسة قوية من قبل تركي بن سعيد، وعزان بن قيس. وبدت بريطانيا مترددة في انحيازها إلى هذا الجانب أو ذاك. ورغم تعدد القوى المتصارعة على الحكم في عمان، إلا أنها أجمعت على كراهية السيطرة البريطانية. فتركي يريد إعادة توحيد السلطنة. وعزان بن قيس يكره الاستسلام للأجانب. وسالم مرتبط بال سعود اصحاب الدعوة السلفية. وفي النهاية، فضلت بريطانيا التريث في هذا الصراع رغم علمها بتفوق سلطة عزان بن قيس [١١]

٢. حكم عزان بن قيس(١٨٦٨-١٨٧١م) "إحياء الإمامة على يد عزان بن قيس".

كانت ولاية عزان بن قيس الإمام المنتخب[١٢] فترة يقظة ونمو في الشعور القومي لشعب عمان. فقد حاول عزان بن قيس جمع الشعب العماني وتوحيده، تحت لواء واحد، لكنه لم يستمر في الحكم لأن بريطانيا أخذت تعمل في الخفاء على تقويض إمامته وانهاء عهده، وذلك بتحريض وإثارة الأعداء عليه، فأوعزت إلى حاكم زنجبار لوقف المساعدة المالية عنه

لكونه لاينتمي إلى الفرع الأصل لأسرة البو سعيد. وقد شعرت بريطانيا أن إحياء الإمامة يعني انبعاثا ويقظة جديدة للشعب العماني وانطلاقه لمرافق الدولة، بخاصة أن الإباضيين أتباع الإمام عزان كانوا متشددين في كراهيتهم للأجانب. ولم تلبث بريطانيا أن قامت بخطوة مباشرة أدت إلى سقوط الإمامة بزعامة عزان، عندما ساعدت تركي بن سعيد الذي كانت قد ابعدته إلى الهند وسهلت مهمته للعودة عام١٨٦٩م،فتمكن من جمع القبائل حوله، وقتل عزان واستولى على الحكم عام ١٨٧١. وهكذا انهارت الإمامة بعد عامين وبضعة أشهر[١٣]

٣. حكم تركي بن سعيد(١٨٧١–١٨٨٨م):

تبدأ هذه الفترة عام١٨٧١م بحكم تركي بن سعيد، ثم حكم فيصل بن تركي. ولقد واجهت بريطانيا خلال هذه الفترة تحدياً خطيراً في منطقة الخليج وخاصة إثر ظهور المنافسة التركية وتصميم الباب العالي على مواجهة نفوذها. فلقد حاولت السلطنة العثمانية ترسيخ سلطتها في البلاد الإسلامية وذلك تعويضا عن الخسائر الإقليمية التي منيت بها في أوربا "دول البلقان". ولا شك أن فتح قناة السويس عام١٨٦٩م كان له أثر في اتخاذ تلك السياسة، إذ هيأت للأسطول العثماني سهولة الالتفاف حول بلاد العرب، للوصول إلى الخليج. فلقد انطلقت الحملة التركية إلى الأحساءعام١٨٧١م. ومنها امتدت إلى قطر. وقد ضاعفت ذلك قلق بريطانيا، وأكد شكها في أن الدولة العثمانية تتجه إلى البحرين وعمان وسواحل عمان. ومازاد من اهتمامها خلال هذه الفترة هو التهديد العثماني والمنافسة الفرنسية فراحت تشدد قبضتها على الحكم في مسقط حتى سارعت لمساندته ودعمه[١٤]. ولقد تعرض تركي للكثير من المؤامرات الداخلية والفتن والثورات وخاصة من قبل بقايا أنصار الإمام عزان بن قيس الذي سيطر على صحار، وكان يتحين الفرص للهجوم على مسقط، معتمدا على مساندة ومؤازرة الشيخ صالح بن علي زعيم الحرس الذي رفض زعامة تركي بن سعيد في مسقط. إضافة إلى أطماع حاكم زنجبار السيد برغش في توحيد شطري السلطنة في دولة عمانية واحدة. ولهذا نرى أنه لولا مؤازرة

بريطانيا للسلطان تركي بن سعيد لما استطاع الاحتفاظ بعرشه. فقد اوقف برغش صرف المعونة المالية التي تدفعها زنجبار سنويا لمسقط، ولذلك لم يكن بمقدور تركي الاحتفاظ بالسلطة بخاصة أن معونة زنجبار هي المصدر المالي الوحيد له، وأي إخفاق يلاقيه في توفير الأموال اللازمة للصرف على متطلبات الحكم وتهدئة القبائل، يعرض حياته وحكمه للخطر. وهذا ليس لمصلحة بريطانيا، لذلك سعت جهدها للضغط على زنجبار لدفع المعونة. ومن ثم قامت هي نفسها بدفع المعونة بدلا من زنجبار، خشية أن تدفع الحاجة تركي بن سعيد إلى التوجه للأتراك(١٥). واضطر برغش عام١٨٧٣م إلى توقيع معاهدة مع بريطانيا تحرم تجارة الرقيق تماما في أراضيه. كذلك أبدت بريطانيا استعدادها لمساعدة تركي عسكريا في البحر، إذا ما تعرض لضغط قوات الداخل، خاصة في عام١٨٧٧م وكذلك عام١٨٨٣م عندما قام كل من إبراهيم بن قيس وحليفه صالح بن علي باحتلال مطرح وتوجها إلى مسقط. فلولا تدخل بريطانيا وقصفها المهاجمين بالقنابل لكانت الهزيمة قد لحقت بتركي بن سعيد. ولم تكتف بريطانيا بهذا بل أذاعت في عام١٨٨٦م إعلانا تؤكد فيه عزمها على مد السلطان تركي بمعونة عسكرية إذا هوجمت مسقط (١٦) وبالمقابل منح السلطان تركي لبريطانيا مزيدا من الامتيازات الجمركية والتجارية. وتعهد باستشارتها قبل مباشرة أي علاقة خارجية له مع أحد. وعلى هذا الأساس، يمكن عد حكم تركي بن سعيد قد دشن مرحلة جديدة في النفوذ البريطاني في مسقط.

٤. **حكم فيصل بن تركي:**

توفي تركي بن سعيد عام١٨٨٨م وتولى ابنه فيصل الحكم من بعده. ولم تعترف بريطانيا بحكمه إلابعد عامين، لأن فيصل من وجهة نظر بريطانيا، يتصف بالرعونة وقلة المرونة(١٧).ومع هذا كانت تريد مساومته لعقد معاهدة معه، تعطيها المزيد من السيطرة على مسقط. وقد بدأ التفكير جديا من جانب وزارة الهند والممثلين البريطانيين في الخليج العربي للسيطرة على مسقط وإعلان الحماية. وأتت الفرصة المناسبة في١٩آذار عام١٨٩١م عندما وقعت بريطانيا مع سلطان مسقط اتفاقية تجارية حملت في طياتها

معنى الحماية الحقيقية وخاصة بعد أن وقع سلطان مسقط في٢٠آذار عام١٨٩١م تعهدا ألحق بالاتفاقية التجارية، التزم فيه فيصل نيابة عن نفسه وعن ورثته بأن لا يتنازل ولا يبيع أو يرهن أي جزء من أراضيه في مسقط وعمان أو ملحقاته، دون موافقة الحكومة البريطانية[١٨]. وقد امتازت المعاهدة التجارية، بكثرة المواد المنظمة للعلاقات التجارية والملاحية، وإعفاء البضائع الإنكليزية والرعايا الإنكليز من الرسوم الجمركية. وأعطت السلطة القضائية للقنصل البريطاني لحماية الرعايا البريطانيين سواء أكانوا الإنكليز أم الهنود داخل السلطنة، إضافة إلى السماح للرعايا البريطانيين أن يتملكوا المنازل والأموال بأي طريقة قانونية. غير أن فيصل لم يلتزم بهذا التعهد وخاصة بعدما لمسه في مواقف بريطانيا، من فتور اتجاهه، وعدم وقوفها معه ومساندته عندما واجه ثورة داخلية عام١٨٩٥م كادت تقضي على حكمه وكل هذا دفعه لاتخاذ موقف استقلالي، متحدياً بذلك الوجود البريطاني، وخاصة عندما أخذت فرنسا تزيد في مساعدتها له وتشجيعه في محاولة لاستعادة نفوذها السابق في المنطقة. لم تلغ معاهدة عام١٨٩١م المعاهدات المعقودة بين مسقط والدول الأخرى مثل هولندا وفرنسا وأمريكا. ولذلك نلاحظ أن صراعاً دب بين بريطانيا وفرنسا، حول مسقط عام١٨٩٢م. ورغم المعاهدة البريطانية، العمانية، بأن بريطانيا لم تستطع أن تمنع فرنسا من إنشاء قنصلية لها في مسقط ففي عام١٨٩٤م عينت فيها نائب قنصل ثم رفعته إلى درجة قنصل عام١٨٩٨م. ولذلك بدأت فرنسا تصبح مصدر قلق وإزعاج لبريطانيا. ولم يكن بمقدور بريطانيا الاعتراض على إقامة القنصلية، لأن فرنسا عدّت أمر إقامة القنصلية من حق السلطان وحده. وبدأت نتائج القنصلية الفرنسية تظهر سريعاً، إذ أصبحت مسقط محطة مهمة للمندوبين الفرنسيين الذين يذهبون للخليج في مهمات رسمية. وزادت مخاوف بريطانيا عندما تولى اوتافيOttavi السياسي الفرنسي شؤون القنصلية، فهو يجيد العربية، إضافة إلى أنه سياسي بارع. وهذا ما أقلق بريطانيا، إذ سرعان ما نجح أوتافي في إقامة صداقة مع السلطان وحاشيته واستطاع زعزعة الثقة بينهم وبين الإنكليز.

أخذ الصراع البريطاني الفرنسي يظهر حول عدة مشكلات:

أ. مشكلة إقامة القنصلية الفرنسية في مسقط.

ب. مشكلة محطة الفحم في بندر الجصة القريب من مسقط.

ج. مشكلة رفع العلم الفرنسي على السفن العمانية وخاصة سفن ميناء صور(١٩).

ومن الواضح أن بريطانيا شعرت بتساهل سلطان مسقط وميله اتجاه الفرنسيين، ولذلك تخلت عنه، عندما واجه ثورة قبائل الداخل عام ١٨٩٥، عندما استولى الثوار على إقليم ظفار، وكاد يقتل السلطان لولا اختباؤه في القلعة. وازدادت العلاقات سوءاً أكثر بين بريطانيا والسلطان فيصل عندما امتنع عن رفع العلم البريطاني في أول يوم من السنة الجديدة عام١٨٩٨م، وعن تحية الملكة فكتوريا بمناسبة تتويجها على الهند. لكنها أجبرته على رفعه فيما بعد. كذلك تدهورت العلاقة بينهما عندما منح السلطان فيصل امتياز مستودع الفحم لفرنسا(٢٠). وبناءً على أوامر اللورد كرزون نائب الملك في الهند، وصل الأدميرال دوكلاسDouglas قائد الأسطول البريطاني في المحيط الهندي إلى مسقط، على رأس سفينة حربية، لإثارة الرعب في نفس السلطان. فخاف السلطان من مغبة الاستمرار في عداء بريطانيا ووافق على سحب امتياز بندر الجصة الذي منحه لفرنسا مؤكداً صداقته وولائه لبريطانيا. وانتهت مشكلة الفحم بين بريطانيا وفرنسا بأن تقام محطة للفحم في ميناء المكلا على ساحل حضر موت عام١٩٠٠م. ولم تكن أزمة مخزن الفحم آخر الأزمات السياسية بين فرنسا وبريطانيا في مسقط، إذ سرعان ما تجدد النزاع حول مشكلة الأعلام الفرنسية التي تحملها السفن وخاصة سفن مدينة صور فطالبت بريطانيا سلطان مسقط برفع علم عماني خاص على جميع السفن التي يملكها رعاياه في مسقط وصور وجوادر وغيرها. ولكن المشكلة لم تحل بين الدولتين فرنسا وبريطانيا إلا من خلال الطرق الدبلوماسية. وكان ذلك في عام١٩٠٤م إثر التقارب الودي بينهما. وهكذا انتهت صفحة الصراع السياسي بين فرنسا وبريطانيا لتصبح مسقط في قبضة السياسة البريطانية. وبعد أن كانت فكرة الحماية تدور في

رؤوس الساسة البريطانيين صاروا على ثقة من أن سياسة الأمر الواقع تعطيهم وضعاً أفضل من الحماية، ما داموا يمثلون القوة الضابطة ويملكون جميع الصلاحيات والسلطات في توجيه سياسة عمان الداخلية والخارجية(٢٢). ولقد ساعدت ظروف الحرب العالمية الأولى على زيادة السيطرة البريطانية في الخليج بشكل عام وفي مسقط بشكل خاص حتى إن فرنسا بادرت إلى غلق قنصليتها في مسقط وكلفت المسيوفادالاVadala ليقوم بهذه المهمة. وكان إلغاء القنصلية الفرنسية تعبيراً عن اختفاء آخر مظهر من مظاهر النفوذ الفرنسي في السلطنة. ولم يبق لفرنسا فيها إلا بعض الامتيازات التجارية الطفيفة.

٥. حكم تيمور بن فيصل:

لقد كان من سوء طالع السيد تيمور بن فيصل، أن يصل إلى الحكم في١٣تشرين الأول عام١٩١٣م، خلفاً لأبيه فيصل بن تركي، في فترة كانت بريطانيا قد نجحت فيها بتأكيد سيطرتها الكاملة على مسقط، إضافة إلى ما كانت تعانيه هذه السلطنة من أوضاع اقتصادية متردية نتيجة الثورات والاضطرابات الداخلية. فقد شهدت الفترة الممتدة من عام١٩١٣م حتى عام١٩٢٠م تدهوراً بالغاً في الأوضاع الاقتصادية في كل مقاطعات عمان الساحلية والداخلية، بسبب الحروب والانهيار الذي طرأ على منطقة الخليج نتيجة للحرب العالمية الأولى. في عمان الداخلية، أدرك زعماء الإمامة، وهم في معاقلهم الرئيسية في نزوى والرستاق، أن مواردهم المالية لا تكفي للإطاحة بحكم السلطان المؤيد من جانب الانجليز وخاصة بعد أن استنفذوا كل طاقاتهم خلال حروبهم الأهلية، وأصبح وضعهم الاقتصادي متأزماً على إثر انقطاع الاتصالات بين موانئ السلطنة ومقاطعاتهم الداخلية، مما اضطرهم إلى مصادرة أملاك المؤيدين للأسرة الحاكمة في مسقط. وكذلك لم تكن أحوال المنطقة الساحلية بأسعد حالاً بعد أن أخذت حكومة مسقط تتدهور بشكل متزايد. وعلى الرغم من أن السلطان تيمور كان حازماً، إلا أنه لم يكن إدارياً من الطراز الأول. كما أنه لم يكن على خبرة كافية بالشؤون المالية. ولم يكن بمقدوره وضع حد للفوضى التي كانت تعم أرجاء

سلطنته. أما أفراد أسرته فلم يكترثوا بالوقوف إلى جانبه، إذ كانت أغلبيتهم لا يهمهما من الأمر إلا أن تأخذ مخصصاتها المالية بانتظام دون أن تقدم أي خدمة مقابل ذلك. كذلك فقد السلطان الدعم القبلي نتيجة اضطراره لتخفيض قيمة المكافأة المالية التي كان يبعث بها إلى شيوخ عمان. لذلك أعلنت الكثير من القبائل الهناوية ولاءها للإمام الجديد. وحذت حذوها القبائل الغافرية. وفي عام١٩١٨م مرت البلاد بنكسة اقتصادية أخرى ارتفعت فيها الأسعار نتيجة تجدد الاضطرابات القبلية، وعجز الحكومة عن إيجاد حل لمشكلة الديون[٢١] التي تراكمت عليها لمصلحة التجار الهنود حتى بلغت "٧٥٠،٠٠٠وبية". ولم تكن المشكلة في الديون بحد ذاتها، وإنما في الفوائد التي كانت تصل إلى أكثر من ٤٠%من قيمتها[٢٢]. ولما كان الإنكليز مشغولين بالحرب فقد تركوا مسقط تصارع مشكلاتها الداخلية مع الاستمرار بإمدادها بقروض دورية. وتفاقمت الأزمة المالية بسبب حظر تجارة الأسلحة منذ عام١٩١١م إضافة لظروف تعود، إلى الفساد المستشري في حكومة مسقط وإلى ضعفها وعدم شعبيتها. وكانوا يعرفون كذلك أن نظام السلطنة يعتمد في بقائه على مساعداتهم المالية والعسكرية. وبالتالي فإن إخفاق حكومة مسقط كان انعكاسا سيئا لموقف الحكومة البريطانية نفسها[٢٣]. ولقد بين الوكيل البريطاني في مسقط الكولونيل وينجات Wingat أن السياسة البريطانية في سلطنة مسقط لا تبغي إلا مصالحها الذاتية، مشيرا إلى أن مجموعة المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع سلاطين مسقط كانت تهدف إلى المصلحة البريطانية بالدرجة الأولى. دون اهتمام بالأحوال الاقتصادية للبلاد. أما المقيم البريطاني في الخليج السير برسي كوكس، فقد اقترح في أوائل عام ١٩١٤ مشروعا لتنظيم الإدارة في حكومة مسقط المتصدعة ينص على تزويد السلطنة بمستشار إداري وضابط من الجيش الهندي للإشراف على تنظيم القوات. لكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. وانطلاقا من حقيقة أن بريطانيا كانت تستفيد من الأزمة الاقتصادية والتفكك الإقليمي في السلطنة فقد وافقت حكومة الهند عام١٩١٨ بعد مباحثات مع برسي كوكس والميجور هيوارث

على أن تقدم للسلطان قرضا وقدره خمسمائة ونصف لاكة[٢٤]إضافة إلى وضع برنامج إصلاحي كجباية الضرائب وإصلاح الطرق وإنشاء المدارس وإعادة تنظيم حرس السلطان بهدف استخدامه نواة لقوات مسقط، على أن تكون هذه القوة العسكرية تحت اشراف ضابط بريطاني. وهذا يوضح لنا أن هدف القرض هو تكوين نواة عسكرية للسلطان كي تقف بوجه القبائل العمانية الثائرة عليه. وعين الكابتن مكارثي وهو من ضباط الجيش الهندي، ليكون أول قائد عام لجيش السلطنة حيث تكونت في البداية هذه القوة من المرتزقة الإيرانيين والبلوش ثم أخذت تضم إليها أفراداً من أهالي البلاد. ووقع على كاهل هذا الجيش مهمة إنقاذ حكم السلاطين. وقامت مسقط بشراء طرادتين كدليل على اصرارها على حماية سواحلها. وحاولت كذلك إنشاء محكمة عليا لا يسمح باستئناف أحكامها إلا السلطان. ولقد أدى الضغط البريطاني المستمر على السلطنة إلى تقاعس السلطان في ممارسة سلطته، مما كان يضطره لترك عاصمته، للإقامة في الهند أو في أطراف مقاطعاته البعيدة في ظفار[٢٥].وفي عام ١٩٢٠ طلب السلطان تيمور الموافقة على زيارته للهند اللورد تشيلمسفوردchelmsford أعرب عن رغبته بالتنازل عن الحكم والإقامة في الهند. لكن تشيلمسفورد رفض الفكرة لأنه لم يكن هناك خليفة يصلح لتسلم الحكم. فابن السلطان سعيد كان صغيرا في السن ولا يتجاوز التاسعة من عمره[٢٦]. وخلال العشرينات من القرن العشرين كان احتمال اكتشاف النفط بكميات تجارية في عمان يبدو منفذا للتخلص من الأزمة الاقتصادية المزمنة التي تعاني منها البلاد. وفي عام١٩٢٣م تعهد السلطان تيمور لحكومة الهند بأن لا يقدم على منح أي امتيازات لاستغلال النفط في عمان قبل استشارة المعتمد السياسي البريطاني في مسقط أولا. ثم موافقة حكومة دلهي على ذلك. وفي عام١٩٢٥م منح السلطان تيمور امتيازا للبحث عن النفط والغاز الطبيعي وغيرها من المعادن لشركة دي – اركي للتنقيب لكن البعثة لم توفق إلى اكتشاف شيء ذي قيمة من الوجهة التجارية. وهكذا نلاحظ أن استقرار البلاد خلال حكم السلطان تيمور بن فيصل الذي اعتاد على ترك الأمور لمستشارية الإنكليز كان

استقرار نسبيا انتعشت فيه السلطنة بعد تخلصها من أزمتها الاقتصادية في العشرينات. لكن هذا الاستقرار لم يدم بسبب الأزمة الاقتصادية التي شهدها العالم في بداية الثلاثينات من هذا القرن [٢٧]. وكان لهذه الأزمة أثر شديد على مسقط، لأنها كانت لاتزال تحاول إصلاح أنظمتها المالية والإدارية الضعيفة. لقد استطاع السيد تيمور أن يعمل على وقف انهيار أسرته (البو سعيد) ويضمن بقاءها في الحكم، وذلك باعتماده على المساعدات البريطانية السافرة وأخذ مشورة بريطانيا وكوفئ على ذلك باستمرار التأييد البريطاني له. إلا أنه وجد نفسه مع ذلك مضطراً إلى التنازل عن الحكم والاعتكاف في الهند. وكان قد تقدم بهذا الطلب مراراً في عام١٩٢٠م وعام١٩٢٩م وعام١٩٣٠م. واتخذت خطوات من جانب بريطانيا لتثبيت وتدعيم نفوذ السيد تيمور مثل منحه قروضا إضافية من البنك الإمبراطوري في الهند. وكذلك سمحوا له بزيادة الضرائب المفروضة على التجارة الخارجية. ومع كل هذه الإجراءات فإن السيد تيمور بقي مصراً على التنازل عن الحكم بسبب ظروفه الصحية. وفي٣٠أيلول عام١٩٣٠م غادر السلطان عاصمته إلى كشمير.

٦. **حكم سعيد بن تيمور:**

خلف تيمور في الحكم ابنه سعيد في شباط عام١٩٣٢م وكان عمره ٢١عاماً. وبالرغم من صغر سنه، إلا أنه كان يحضر اجتماعات المجلس النيابي. وقد اعترف الإنكليز به وليا للعهد خلال حكم والده. وكان قد تلقى تعليمه في إحدى مدارس الأمراء في الهند. وفي١١شباط١٩٣٢م عاد من كراتشي إلى مسقط بعد إخفاقه في إقناع والده بالتراجع عن التنازل عن الحكم. ودعا إلى عقد اجتماع عام حضره الرؤساء والأعيان وأفراد الأسرة الحاكمة، وأطلعهم على وثيقة التنازل. واعترفت بريطانيا بسعيد بن تيمور حاكما شريطة التعهد باحترام الالتزامات كافة التي ارتبط بها من سبقة من السلاطين، إلى جانب استمراره بالاستعانة بالمشورة البريطانية[٢٨].وهكذا وصل سعيد بن تيمور إلى الحكم في ظروف صعبة. ومع ذلك استطاع أن يحقق نجاحا في إدارة شؤونه المالية ويؤكد حقوقه الشرعية. وقد صمم على

أن يكون مستقلا وسيد مصيره. ونجح في إرغام الإنكليز على التخفيف من القيود التي كانوا يفرضونها على سياسة الحكم في عمان. وبادر إلى إلغاء منصب المستشار الاقتصادي البريطاني. وأعلن أنه سيتولى بنفسه إدارة الدخل. ولم يستعن بموظفين بريطانيين حتى عام١٩٣٦م. ثم غادر مسقط إلى ظفار للإقامة فيها، واستمر مدة عام دون أن تجري اتصالات بينه وبين السلطات البريطانية وكان هدفه من ذلك أن يجعل من ظفار الواقعة في الطرف الجنوبي من سلطنته دولة مستقلة، يمارس فيها نفوذه دون ضغوط بريطانية. وكان يهدف من ذلك أيضا إلى التحالف مع حكام اليمن أو السعودية لقمع الثورة الإباضية داخل بلاده. وعندما عاد من ظفار، ووجه بإنذار بريطاني شديد اللهجة يحذره من أن بريطانيا سوف تمتنع عن مساعدته مالم يبادر إلى تحديد موقفه منها صراحة. وفي النهاية امتثل السلطان سعيد بن تيمور إلى الضغوط البريطانية، فوافق على تمديد المعاهدة الإنكليزية المسقطية، وهي معاهدة صداقة وتجارة وملاحة كانت قد عقدت منذ عام١٨٩١م، ثم جددت عام١٩١٤م وجددت مرة أخرى عام١٩١٩م، واستمر تجديدها دوريا حتى عام١٩٣٧م.وخلال الحرب العالمية الثانية، سمح السلطان للإنكليز بإقامة مهابط لطائرات السلاح البريطاني بين سلالة ومسقط. واستمر العمل بهذه المهابط إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. وكان السيد سعيد بن تيمور من محبي السفر، فقام برحلة حول العالم زار خلالها الهند وبريطانيا وأمريكا.

ثالثاً: انبعاث الإمامة الإباضية(١٩١٣-١٩٢٠م):

بذل العمانيون خلال مطلع القرن العشرين محاولات جادة لبعث الإمامة الإباضية. وترجع أسباب هذه المحاولات إلى معارضة الإباضيين لنظام السلطنة الذي لا يقوم طبقا للعقيدة الإباضية التي تحتم اختيار الحاكم بطريقة الانتخاب. ولما كان سلاطين مسقط لا يلتزمون بذلك بل يميلون إلى نظام الحكم الوراثي، فقد عدّوا في نظر الإباضيين مغتصبين للسلطنة. يضاف إلى هذا تدهور شخصية سلاطين مسقط والمشكلات الكثيرة التي واجهتهم. ولعل أهم عامل أيقظ الثورة في نفوس العمانيين هو اشتداد السيطرة البريطانية، وما ترتب على ذلك من وضع قيود

خاصة على استيراد الأسلحة وتجارة الرقيق. وهكذا بدأ نفر من الزعماء العمانيين في الاستعداد لمواجهة ما كانوا يعتقدون أنه خطر يتهددهم، من جراء فرض بريطانيا سيطرتها على الساحل. واختلفت الثورة العمانية هذه المرة عما سبقها من ثورات، في أنها لم تكن ثورة دينية صرفة استهدفت تطبيق التعاليم الإباضية، وإنما بدت فيها الحركة القومية واضحة. وكان السلطان فيصل بن تركي قد حاول امتصاص هذه الثورة بتنصيب نفسه إماماً على المذهب الإباضي، لكن الخلاف بينه وبين زعماء الإمامة يعود إلى تمسكه بأن يكون إماماً وسلطاناً بآن واحد. وأصبح شعور الاستياء ضد أسرة البو سعيد قوياً، واستقر الرأي على انتخاب سالم بن راشد الخروصي إماماً. ولقد تشكلت ثلاث مجموعات أخذت تعلن الثورة عن السلطنة:

١- المجموعة الأولى: كان يتزعمها عبد الله بن حميد السالمي وهو عالم ديني ضرير.
٢- المجموعة الثانية: كانت مجموعة بني هنة بزعامة الشيخ عيسى صالح شيخ الحرث.
٣- المجموعة الثالثة: مجموعة بني ريام وهي قبائل غافرية كان يتزعمها حميد بن ناصر النبهاني.

ونتيجة للائتلاف الذي قام بين الهناوية بزعامة عيسى بن صالح واتحاد الغافرية بزعامة حميد بن ناصر نجح العمانيون في عقد البيعة للإمام سالم بن راشد الخروصي[٢٩]. وما كادت تعلن الإمامة حتى بدأ العمانيون يتحفزون للتقدم نحو مسقط، مما أثار مخاوف الوكيل السياسي البريطاني الذي وجه إنذاراً للعمانيين يحذرهم فيه من مهاجمة مسقط أو مطرح. وقد صرح زعماء الإمامة أن من أهم أهدافهم الإطاحة بحكم السلطان الموالي للإنكليز أي فيصل بن تركي. وسرعان ما توفي فيصل، وتسلم مكانه ابنه تيمور. ومع بداية عام١٩١٤م كان رصيد الإمام من المؤيدين قد ازداد إذ سيطرت الإمامة على جميع الطرق المؤدية إلى موانئ الساحل، ونجحت في احتلال بركا وقريات الواقعة على مسافة ٤٠ميلاً إلى جنوب مسقط. ولكن سرعان ما تلقى العمانيون ضربة من قوة بريطانية. ولقد حاول السلطان اتباع وسائل الحصار الاقتصادي على الداخل، عن طريق زيادة

الضرائب الجمركية على الواردات. وبالرغم من هذه الضغوط الاقتصادية، فقد استمر العمانيون في ثورتهم وربما ساعد الثوار العمانيين على الاستمرار، نشوب الحرب العالمية الأولى وانشغال الإنكليز عن تقديم حمايتهم للسلطان في مسقط.

ومن العوامل التي ساعدتهم أيضاً على تصعيد ثورتهم:

(١) المساعدات التي تلقوها من ألمانيا والدولة العثمانية.

(٢) شخصية الحركة الدينية وارتباطها بالجهاد الذي دعت إليه الدولة العثمانية[٣٠] كونها دولة الخلافة الإسلامية.

(٣) الاعتقاد بأن التعزيزات البريطانية العسكرية لن تصل إلى مسقط، وبالتالي تصبح الحامية البريطانية في موقف حرج لا تستطيع فيه الدفاع عن مسقط أو عن نفسها.

أما بالنسبة للعامل الأول، فقد كانت الدعاية الألمانية تتسرب إلى عمان عن طريق زنجبار وأفريقيا "تنجانيقا" وقد اعتقد الأهالي أن القيصر "فلهم الثاني" الذي دان بالإسلام فتولد شعور لديهم بأن الوقت حان لإبعاد السلطان وحلفائه الإنكليز. وعلى الرغم مما سبق، فإن حكومة الهند حاولت بحكم حمايتها للسلطنة أن توقف أي محاولة يقوم بها الثوار إلا أن نشاط العمانيين لم يلبث أن تجدد بنجاح قوات من بني بطاش في مهاجمة الحامية البريطانية المرابطة في الروبعي عام١٩١٤م. وهذا النجاح شجع على عقد اجتماع بين الإمام الخروصي وأبرز زعماء الداخل الشيخ عيسى بن صالح الحارثي وحميد بن ناصر. وقد عقد الاجتماع في نزوى، وقرر فيه الزعماء استغلال ظروف الحرب التي تمنع بريطانيا من تقديم مساعدتها لسلطان مسقط. وتحت تأثير الشيخ عيسى بن صالح الذي كان يميل إلى الحل بطرق سلمية، وافق الإمام على عقد اجتماع في السيب حضره مندوب عن الإمام ومندوب عن الوكيل البريطاني في مسقط ومندوب عن السلطان. ومع أن المفاوضات امتدت بعض الوقت، إلا أنها انتهت بالإخفاق، لتباين وجهات النظر. وسرعان ما حاول سالم بن راشد الخروصي غزو السلطنة والإطاحة بالسلطان. وتقدمت قوات الإمام لكنها اخفقت بعد أن تعرضت لمجزرة رهيبة، حتى أن الشيخ عيسى بن صالح جرح نتيجة احتدام المعركة ومساعدة القوات البريطانية لسلطان مسقط. أثناء زيارة اللورد هاردنج نائب الملك في الهند إلى الخليج نصح السلطان

بعقد صلح مع العمانيين، بخاصة أن العمانيين كانوا قد تأثروا بدعاية الجهاد المقدس خلال الحرب العالمية. وأثناء دعوة سلطان مسقط العمانيين للتفاوض، لم يتجاوب معه زعماء الإمامة، ولذلك هاجم السلطان قبيلة بني بطاش، ثم استسلمت بلدة دغمر. وبذلك تكون الثورة العمانية قد تصدعت وإثر ذلك بادر الشيخ عيسى ابن صالح بطلب إلى الوكيل البريطاني في مسقط لإجراء مفاوضات. وبالفعل عقدت المفاوضات وحضرها عيسى بن صالح حيث أكد الجميع على المطالب التالية:

(١) أن يعترف السلطان بأنظمة الحكم الشرعية التي يمارسها الإمام في الداخل وأن تطبق هذه الأنظمة في مسقط بدلاً من الأنظمة غير الشرعية التي تسير حكومة السلطنة عليها، وخاصة فيما يتعلق بالشؤون القضائية، وأن تطبق أسس العدالة على الجميع.

(٢) تلغى الضرائب المفروضة على الواردات والصادرات الخاصة بمقاطعات الداخل وتسوى الأمور المالية بما يتفق مع مصلحة السكان في الداخل.

(٣) التحريم النهائي لاستيراد الخمور والدخان وإصدار تشريع صريح من السلطنة باعتبار هذه المواد محرمة دينياً.

(٤) تلغي بريطانيا القيود التي تفرضها على تجارة السلاح لأن هناك قبائل في عمان تملك الكثير من الأسلحة. وقبائل تفتقر لذلك.

(٥) في حال موافقة السلطنة على هذه الشروط، فإن زعماء الإمامة يعترفون بالسلطان حاكماً على مسقط وعمان. على أن يدير الإمام البلاد وفق الشرع.

يحل السلطان جيشه الجديد ويطلق سراح الشيوخ المعتقلين في مسقط ويسلم المجرمين لينالوا جزاءهم[٣١] ومن خلال الشروط والمطالب التي تقدم بها الشيخ عيسى بن صالح يتبين لنا معارضة الإباضيين لوجود القوات البريطانية ومطالبتهم بانسحابها فوراً. فقد عارضوا سياسة بريطانيا في إباحتها للخمر والتدخين وسيطرتها على التجارة وارتفاع أسعار المواد الغذائية نتيجة الحروب. واتهم الإباضيون السلطان بالكفر والإلحاد والتنكر لأصول الإباضية، وأنه بدد الأموال على أقاربه. ومن البديهي أن يرفض السلطان إجابة العمانيين على مطالبهم ولكنه وعد بإمكانية النظر في إعفاء البضائع المصدرة إلى الخارج أو القادمة، من الضرائب أو على

الأقل تخفيفها. كذلك أبدى السلطان عدم مسؤوليته عن التعامل بالخمور والدخان بحجة أن رعاياه لا يقومون بذلك، وإنما يفعل ذلك رعايا دول أخرى وهو لا يملك عليهم سلطات قضائية. وهكذا يبدو أن اجتماع السيب الذي عقد في أيلول عام١٩١٥م أجهض تماماً، لشدة التعارض بين مطالب الإمامة والسلطنة، إذا كان ما يدور في ذهن السلطان هو استعادة نفوذه في الداخل، بينما كان ما يهدف إليه ممثلو الإباضية هو الإبقاء على مركزهم كونهم إباضيين يلتزمون بتعاليم الإمامة الإباضية. وبسبب خلاف الطرفين، قطعت المفاوضات ولم تستأنف حتى آذار عام١٩١٨م عندما قوي مركز الإمام في الداخل بينما ساء مركز السلطان نتيجة الإفلاس المالي. وفي بداية الحرب العالمية الأولى كتب الإمام سالم بن راشد إلى كل من الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن وسعيد باشا في اليمن، طالباً منهما إرسال مساعدات عسكرية لنجدته في حربه ضد السلطنة والإنكليز. وبالفعل وصله عشرة آلاف مقاتل من الحامية العثمانية المرابطة باليمن. ووصل كذلك مبعوثان من اليمن إلى عمان عن طريق المكلا وصور بقصد إثارة العمانيين ضد الإنكليز. وبادرت سلطات مسقط إلى إلقاء القبض على المحرضين(٣٢). ومع نهاية عام١٩١٨م بدأ أن الحزب الديني في عمان كان مهيمناً على الأمور فقد سيطر على الرستاق وهي إحدى المدن الرئيسية التي تطل على ساحل الباطنة. وكان باستطاعة العمانيين مهاجمة الساحل لولا الحامية البريطانية التي كانت مرابطة في بيت الفولاج. مع نهاية الحرب العالمية الأولى وانتصار بريطانيا في الحرب وحاجتها إلى إقرار أوضاع الخليج سعت إلى إيجاد تقارب بين السلطنة والإمامة تمهيداً لوضع تسوية بينهما. وبالفعل كتب الميجورهيوارثHaworth رسالة شديدة اللهجة(٣٣) إلى زعماء الإمامة طالبهم فيها بوقف أية أعمال هجومية يقومون بها ضد السلطنة. ورغم عبارات التهديد الواضحة في الرسالة، فإن زعماء الإمامة الذين كانوا أكثر تقديراً لحقيقة الموقف الذي ترتب على سيطرة بريطانيا على الساحل، وما قد يؤدي إليه من خنق الإمامة اقتصادياً وسياسياً قد حرصوا على استئناف المفاوضات من جديد. وفي ١٥ أيار من عام١٩١٩م تقابل الشيخ عيسى بن صالح مع الوكيل البريطاني في مسقط بمدينة السيب. وفيما يبدو فإن بريطانيا كانت مدركة استحالة اعتراف العمانيين بالسلطان، وفي الوقت نفسه استحالة إقدام

السلطان على غزو عمان، لأن وضعه متدهور، ويعتمد كل الاعتماد على التأييد البريطاني له. لذلك كان الحل الأمثل الاعتراف بالأمر الواقع. فتم التمهيد لوضع أسس اتفاقية السيب. ولقد تضمنت المفاوضات ما يلي:

أ. إزالة السلطان لجميع القيود المفروضة على دخول العمانيين مدن الساحل والعاصمة.

ب. تقليل الضرائب الجمركية على البضائع القادمة من المدن الساحلية بما لايزيد على ٥%.

ج. تسليم اللاجئين إلى مسقط إلى سلطات الإمامة.

وفي مقابل موافقة السلطنة على هذه الشروط، يتعهد العمانيون بعدم مهاجمة مقاطعات السلطان، وإعادة بساتين النخيل التي تخص اتباع السلطان والتي كان العمانيون قد استولوا عليها. لكن الإمام رفض المصادقة على شروط مباحثات السيب، وذلك لعدة أسباب منها ازدياد السيطرة البريطانية في مسقط وتعيين مستشار بريطاني للسلطان. كذلك ظهور سفن حربية بريطانية على ساحل مسقط وتقدمها إلى الساحل لقمع الاضطرابات. وزيارة السلطان تيمور إلى الهند، فقد كان لهذه الزيارة مغزاها السياسي، إذ أكدت للعمانيين أن تأييد حكومة الهند للسلطان أمر حقيقي لا يرقى إليه الشك. وبينما كان موقف السلطنة ونفوذها يميل إلى التصاعد، ضعف مركز الإمامة بالوفاة المفاجئة للشيخ حميد بن ناصر النبهاني الذي كان من دعائم الإمامة في الجبل الأخضر. وما زاد الأمر سوءاً أن خليفته في الزعامة كان صغير السن لا يتجاوز الرابعة عشرة وهو قليل الخبرة. وإزاء هذه الأوضاع اتجهت السلطنة إلى فرض زكاة إضافية وصلت حتى٢٥% على التمور وأحياناً ٥٠% على المحصولات الأخرى. وجاء في نشرة حكومة السلطنة أن فرض الضرائب يعد عقوبة على رفض العمانيين تسليم بساتين النخيل. ولكن سرعان ما أخذت الأمور تتغير في عمان إذ عقدت البيعة للإمام عبد الله الخليلي واستؤنفت المفاوضات بوساطة الوكيل البريطاني وينجات الذي نجح بالحصول على ضمان برد الممتلكات المغتصبة لأصحابها، ونظم اجتماع السيب من١٣-١٦كانونالأول عام١٩٢٠م وفي اجتماع السيب وضع العمانيون مطالبهم وأبرزها:

(١)الاعتراف باستقلال مقاطعات الداخل في عمان.
(٢)عدم زيادة الضرائب المفروضة على البضائع من الداخل على ٥%.
(٣)حرية التنقل للعمانيين ضمن مقاطعات السلطنة.
(٤)أن يعيد السلطان اللاجئين إلى عدالة عمان.
(٥)أن تدفع السلطنة رواتب لزعماء القبائل.

وأخيراً توصل المجتمعون إلى الموافقة على شروط الاتفاق باستثناء الشرط الأول: وهذا الاتفاق "السيب" وضع حداً لصراع طويل بين الإمامة والسلطنة وكان بداية عهد مستقر لسلطنة مسقط التي كانت دائماً تتعرض للتهديدات والغزوات في عمان الداخلية[٣٤]. واختلف الكثيرون في تفسير اتفاقية السيب فمنهم من عدّها اعترافاً من جانب السلطنة بحكومة الإمام. ومنهم من قصر حدود الاتفاقية على أنها تنظيم داخلي بين السلطان والقبائل التابعة له. ومع هذا فإن اتفاقية السيب لم تحل مشكلات السلطان بشكل نهائي بل عادت العلاقات إلى التوتر بين الطرفين.

رابعاً: العلاقات بين السلطنة والإمامة(١٩٢٠-١٩٤٥م):

تولى إمامة عمان الإمام محمد بن عبد الله الخليلي عام١٩٢٠م. وتميزت هذه الفترة بسيطرة الشيخ عيسى بن صالح على مقدرات الحكم في عمان حتى إن شخصيته طغت على شخصية الإمام الخليلي. وأبرز ما يميز الفترة الأولى من حكمه هو العلاقات بين عمان والسعودية إذا إنه بعد نجاح عبد العزيز آل سعود في تقويض حكم الهاشميين في الحجاز عام١٩٢٥م، فكر بأن يولي المقاطعات الشرقية من الجزيرة العربية اهتماماً أكبر. فأوفد موفديه إلى البوريمي لجمع الزكاة المعتادة من سكان واحة البوريمي والقبائل البدوية المتواجدة هناك، وهذا ما أثار مخاوف إمامة عمان حتى إن الشيخ عيسى بن صالح كتب إلى الوكيل البريطاني في الشارقة معبراً له عن مخاوفه من أطماع السعودية. لكن الوكيل البريطاني لم يتجاوب معه مما اضطر زعماء الإمامة إلى الزحف شمالاً واحتلال الظاهرة والبوريمي[٣٥]. وكان الشيخ عيسى بن صالح على رأس القوات العمانية التي تابعت تقدمها معتمدة على مساندة حلفائه شيوخ دبي والشارقة. واستسلمت عبري وضنك والدراز، لكن الشيخ عيسى اضطر إلى العودة بعد إصابته بالشلل فتخلى عن الحملة وانسحب إلى عاصمته تاركاً والياً من قبله على عبري. التي بقيت المركز

الرئيس للإمامة في هذه المنطقة. وبضم عبري إلى الإمامة عام١٩٢٦م امتدت حدود الإمامة بشكل كبير. فمن الجنوب كانت تضم واحة بني حسن. ومن الشرق عدّت رؤوس الجبال حدوداً للإمامة إضافة إلى منطقتي سمائل والرستاق واللتين كانتا تعتبران ضمن حدود الإمامة. ومن الشمال عبري ومن الغرب صحراء الربع الخالي[٣٦]. بعد إخفاق حملة الإمام عام١٩٢٦م ترسخت سلطة السعوديين على البوريمي ولم يسمحوا لـ بوترام توماس المستشار المالي لسلطان مسقط بزيارة البوريمي لأنها تقع ضمن ممتلكات ابن سعود. ومن متابعة الأحداث يتبين أن الشيخ عيسى بن صالح تزايد نفوذه حتى إن الاتصالات بين السلطنة والإمامة كانت تتم عن طريقه. ففي عام١٩٣٢م قتل في السيب أحد موظفي حكومة مسقط، فكتب السلطان إلى الشيخ عيسى بن صالح طالباً منه تسليم المجرمين. لكن الشيخ عيسى رفض. وهنا حاول السلطان توطيد سيطرته على المقاطعات العمانية طالباً الدعم من بريطانيا، لكن الوكيل السياسي رد عليه بأن بريطانيا ترغب في استمرار العلاقات الطيبة بين الإمامة والسلطنة. وأكد له أن الحكومة البريطانية لن تسانده إلا في حالة وقوع اضطرابات في مقاطعاته الساحلية. وعلى أثر تنازل السلطان تيمور بن فيصل عن الحكم لولده سعيد، حرص العمانيون على تأكيد اتفاقية السيب لأن المفهوم السائد لديهم أن اتفاقية السيب لا تقيد سعيد بن تيمور ما دام الذي وقع الاتفاقية هو تيمور بن فيصل وقد تنازل عن الحكم. وهنا توترت العلاقات مجدداً فالإمامة رفضت تسليم اللاجئين إليها من مسقط. ولم تلتزم السلطنة بالضرائب التي تفرضها على صادرات الداخل مثل ضرائب التمور التي وصلت إلى ما يزيد على ٢٠%من قيمتها. وأحياناً حتى٥٠%. وقد حاول الشيخ عيسى التباحث مع سلطان مسقط بشأن الزيادة الجمركية ولم يتوصلا إلى حل. ولما وجد العمانيون أن السلطان غير مكترث بشكواهم، امتنعوا عن إرسال تمورهم إلى صور. واتصلوا بشيخ البو علي الذي حاول فتح ميناء لتصدير تمور عمان. وقد خشيت بريطانيا أن يلجأ العمانيون إلى طلب المساعدة من السعودية، لذلك رأت ضرورة تهدئة الموقف بإرغام سلطنة مسقط على تخفيض الضرائب المقررة على التمور إلى النصف. وهكذا ظلت العلاقات هادئة نسبياً بين الإمامة أو السلطنة إذ اقتصرت على الخلافات حول تبعية هذه القبيلة أو تلك إلى الإمامة

والسلطنة. وكذلك حول مشكلات الضرائب واللاجئين. لكن الإمام محمد بن عبد الله الخليلي احتج باسم الإمامة لدى الوكيل البريطاني في مسقط عندما علم بأن السلطان منح إحدى شركات النفط امتياز التنقيب في المناطق الساحلية والداخلية من عمان ورد الوكيل البريطاني على هذا الاحتجاج بأنه يمكن إعادة النظر في الموضوع عندما يتم اكتشاف النفط وسرعان ما توقفت الشركة عن التنقيب. إن المتتبع لتاريخ الإمامة يلاحظ أن عيسى بن صالح زعيم الهناوية الذي لقب بأمير الشرقية، كان يمثل الشخصية القيادية العسكرية في الإمامة. وبذلك كان أقوى من الإمام الخليلي نفسه. وقد فقدت الإمامة بوفاته عام١٩٤٦م سنداً كبيراً لها. أما زعيم الغافرية سليمان بن حمير، فكان صاحب السلطة العليا في الجبل الأخضر. ورغم موالاته للإمام إلا أنه كان مغرماً بالألقاب إذ لقب نفسه "بملك نبهان" وأحياناً "أمير الجبل الأخضر". ولقد تابع سليمان بن حمير سياسته الرامية إلى وحدة الداخل. كانت إدارة شؤون الإمامة تسير بطريقة عادية. وعادةً كان الشيوخ يدفعون الزكاة الدينية للإمام، ويرفعون له مشاكلهم للنظر والبت فيها. فالإمام مثل السلطة السياسية والدينية. ومثلث الزكاة المصدر المالي الرئيس للإمامة. وبما أن مقاطعات الإمام بقيت تعيش في عزلة، فقد ظل العالم الخارجي يجهل مشكلات الإمامة جهلاً تاماً، وإضافة لذلك، فإن الجفاف الذي أصابها، وعلاقاتها ومشاكلها مع الإمامة ومع السعوديين، كل هذا أثر بدوره على الوضع الاقتصادي للسكان.

خامساً: محاولات السلطان سعيد بن تيمور استرداد سلطته على الداخل:

بذل السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط جهوداً جبارة لاستعادة نفوذه على المقاطعات الداخلية من عمان. فقد حاول استمالة الشيوخ إليه بتقديم الهدايا والأموال لهم. وحاول أن يجعل من نفسه سلطاناً وإماماً في آن واحد، فأطلق لحيته وأظهر اهتمامه بالشؤون الدينية. وكذلك حاول الحصول على التأييد البريطاني، وفيما بعد على الدعم الأمريكي. والشخصية الدينية البارزة التي ساندت السلطان في مخططاته كانت شخصية سليمان الباروني النفوسي الذي أبقاه السلطان في خدمته. ولكونه إباضي المذهب فقد وضع عدة مؤلفات عن الإباضية، طبعت على نفقة سلطان مسقط كوسيلة لبيان مدى اهتمامه بالأمور

الدينية. وعلى مايبدو فإن السلطان كان يهدف من وراء تقاربه مع الشيوخ إلى تمهيد الطريق أمام عمليات المسح الجيولوجي للتنقيب عن النفط. وقد لجأ إلى أسلوب تأليب وتحريض أقارب الإمام وحلفائه ضده. ونجح بجذب العلماء إلى جانبه وإبعادهم عن تأييد الإمام. وبالرغم من أن سنوات الحرب العالمية الثانية حالت بين سلطان مسقط وتنفيذ مشروعه الخاص بضم الإمامة إليه فإنه جدد مشروعه هذا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام١٩٤٥م، فاعتمد في بسط سيطرته على الشيوخ الغافريين وعلى علي بن صالح شيخ البو علي الذين أكدوا أنهم لن يتدخلوا في انتخاب إمام جديد بعد وفاة الإمام الخليلي الذي كان مريضاً. وفي عام١٩٤٥م قام سعيد بن تيمور بزيارة إلى صور بناءً على دعوة علي بن عبد الله بن البو علي الغافري وكذلك زار جعلان. ومع هذا بقيت هواجس تأكيد سيطرة السلطان على الداخل تشغله أكثر فأكثر، معتمداً بذلك على علاقات الود التي أقامها مع الشيوخ وعلى مساعدة الحكومة البريطانية له، وذلك بمده بقوات من السلاح الجوي البريطاني[٣٧] لكن الحكومة البريطانية نصحته بتوزيع الأموال على رؤساء القبائل واستمالتهم وإقناعهم بضرورة إدخال برامج اقتصادية خاصة باستغلال النفط في بلادهم، واطلاعهم على الفوائد التي ستعود عليهم من جراء ذلك. وكذلك نصحه المقيم البريطاني أن يحذو حذو عبد العزيز آل سعود في السيطرة على القبائل إذ كان يعتمد على الأموال أكثر من السلاح. وعلى ما يبدو فإن السلطان كان مصراً على مشروعه، وهو إلغاء الإمامة وربط مقاطعات عمان بسلطنة مسقط. وعندما تقاعست الحكومة البريطانية عن مساعدته فكر بالحصول على المساعدة من أمريكا. وبعد وفاة الإمام الخليلي، انعقدت البيعة لـ "غالب بن علي" من قبيلة هنة. لكن نتيجة لضعف شخصيته، برزت على الساحة شخصية شقيقه طالب بن علي الذي طلب المساعدة من السعوديين. فالأمر الذي أقلق بريطانيا والسلطان سعيد بن تيمور معاً. بخاصة أن الشركات الإنكليزية كانت قد بدأت التنقيب في منطقة فهود الواقعة بين المنطقة التي يسيطر عليها الإمام وقريبة من الجانب السعودي. وفي تشرين الثاني عام١٩٥٤م قام الإمام غالب بخطوة حاسمة للخروج من العزلة التقليدية محاولاً إقامة تمثيل سياسي مع الدول العربية والصديقة. وتلقى مساعدات من السعودية ومصر. فقد قدمت السعودية له

المساعدات لأنها وجدت فيه أداة للضغط على سلطان مسقط. أما مصر فاعتبرت الإمام عنصراً معادياً للنفوذ البريطاني في الخليج. ومنذ احتلال بريطانيا للبوريمي عام١٩٥٥م، فرضت حصاراً اقتصادياً على السلطنة. وتدهورت علاقاتها مع السعودية إثر العدوان الثلاثي على مصر. ومع استمرار الحروب ما بين الإمامة والسلطنة بين عامي(١٩٥٧-١٩٥٩م)، استنكرت كثير من الدول العدوان البريطاني لكن ذلك ساهم في إخراج القضية العمانية من الحيّز الإقليمي إلى النطاق الدولي. وقد عرضت مشكلة عمان على هيئة الأمم المتحدة. ثم شكلت لجنة عام١٩٥٦م استطلعت أوضاع عمان. ووافقت الأمم المتحدة على تقرير اللجنة ودعت بريطانيا إلى الانسحاب وإتاحة الفرصة للشعب العماني لتقرير مصيره. وخلاصة القول فإن الصراع بين الإمامة والسلطنة تمخض في النهاية عن انهيار الإمامة وتثبيت سيطرة السلطان معتمداً في ذلك على المساعدة البريطانية.

سادساً: مشكلة البوريمي بين عمان والسعودية:

تقع واحات البوريمي وهي ثماني واحات في نقطة اتصال بين السعودية ومشيخة أبو ظبي وسلطنة مسقط وعمان. والسيادة على هذه الواحات لم تكن محددة بشكل قاطع. ولكن كل من يسيطر على هذه الواحات كان بوسعه فرض الزكاة على سكانها كون الولاء القبلي ودفع الزكاة دليل السيادة. استمر هذا الوضع حتى اكتشاف النفط، إذ تغيرت المعايير التقليدية. ولذلك طالب الإنكليز بست واحات لمصلحة أبو ظبي واثنتين لمصلحة سلطان مسقط وعمان. ولكن السعودية طالبت بهذه الواحات جميعاً[٣٨]. ولم تكن تكمن الأهمية في واحات البوريمي نفسها بل كونها مفتاحا لمنطقة فهود الغنية بالبترول والتي تقع حيث يلتقي الربع الخالي بجبال عمان. وكانت بريطانيا قد اقترحت خط الحدود عام١٩٣٥م وهو ماعرف باسم خط الرياض الذي رسم الحدود مابين مناطق النفوذ البريطاني في سلطنة مسقط وعمان ومشيخات الساحل العماني. في عام١٩٣٧م كانت هناك محاولة لتخطيط الحدود بين السعودية ونفوذ بريطانيا. لم تتمخض عن أي نتيجة. وخلال الحرب العالمية الثانية بقيت مشكلة الحدود معلقة. لكن الموقف تبدل إثر اكتشاف النفط. فشركة أرامكو الأمريكية العاملة في السعودية، أصدرت نشرة

عام١٩٤٨م، لم تحدد فيها تبعية البوريمي. وإن كان واضحا أن أمريكا تعترف بخط الرياض معتبرة إياه الخط الفاصل بين المقاطعات الشرقية للسعودية ومناطق النفوذ البريطاني في مسقط ومشيخات الساحل العماني، وهي شركة بريطانية فأدخلت منطقة البوريمي ضمن مناطق امتيازها. لكن السعودية احتجت وطالبت بمساحات كبيرة تقع ضمن مناطق النفوذ البريطاني إضافة إلى واحات البوريمي كلها ولم يلبث الموقف أن تعقد حتى غدا صراعا بين شركات النفط الأمريكية والبريطانية[٣٩]. وتأزم الوضع أكثر في٢٩آذار عام١٩٥٢م عندما قام الوكيل السياسي البريطاني بزيارة إلى مشيخات الساحل العماني وللبوريمي فاحتجت السعودية إلى السفارة البريطانية في جدة وأصرت على أنها لا تعترف بنفوذ سلطان مسقط أو شيوخ الساحل العماني على البوريمي. ثم تأزمت الأمور أكثر عندما وصلت إحدى الفرق السعودية إلى الطريف، وعدت بريطانيا ذلك خرقا لمناطق نفوذها في أبو ظبي. ثم أرسلت السعودية تركي بن عطيشان ليتولى مهماته كأمير على البوريمي. وقام بتوزيع رسائل موجهة من سعود بن جلوي حاكم الاحساء إلى شيوخ منطقة البوريمي، وأحدث التدخل السعودي ردة فعل لدى سلطان مسقط سعيد بن تيمور وحاكم أبو ظبي. وبادر الإمام عبد الله الخليلي بتعبئة القبائل التابعة له وكتب إلى سلطان مسقط يسأله عن الإجراءات الواجب اتباعها. وبادرت بريطانيا إلى إرسال قوة عسكرية تجمعت في صحار وقامت تشكيلات عسكرية من سلاح الجو الملكي البريطاني بغارة على حماسة. وأرسلت السفارة البريطانية في جدة مذكرة احتجاج إلى الخارجية السعودية. وفي"١٩٥٢/٩/١٤م" احتجت بريطانية رسميا على وصول تركي بن عطيشان إلى البوريمي معتبرة ذلك تعديا سافرا على مناطق نفوذ بريطانيا في سلطنة مسقط. وحذرت المذكرة البريطانية من أنها ستتخذ إجراءات ضرورية لحماية نفوذها مالم ينسحب تركي بن عطيشان. وردت السعودية على المذكرة نفسها بأنه ليس للحكومة البريطانية أو غيرها الحق في معارضة تصرفات السعودية في البوريمي، لأن للبوريمي علاقة قديمة مع ابن سعود وأجداده تعود إلى عشرات السنين. ولم تكتف السعودية بذلك بل زودت تركي بن عطيشان بقوة عسكرية، ووقع اشتباك ما بين قوات سلطان مسقط الخاضع للقيادة البريطانية والقوات السعودية. وتوالت

مذكرات الاحتجاج بين الطرفين. فما كان من بريطانية إلا أن قصفت قرى البوريمي وقوات بن عطيشان، فبادر عبد العزيز آل سعود إلى إرسال برقية إلى المستر إيدن وزير خارجية بريطانية يشير فيها إلى عمل الطائرات البريطانية في البوريمي ويصفه بأنه عمل عدائي وهمجي. وأكد المستر إيدن في إجابته اهتمامه بضرورة حل الخلاف بصورة ودية وأبدى استعداده لسحب قوات عمان من البوريمي مقابل انسحاب تركي بن عطيشان وقواته. حاول السفير الأمريكي في جدة ريموند هار Reymond Hare تقريب وجهات النظر فطالب أن يرفع الإنجليز الحصار عن البوريمي ويمتنع السعوديون عن الاعمال المثيرة مع احتفاظ كل منهم بمواقعه الحالية(٤٠). وبالفعل قبلت بريطانيا والسعودية تلك الاقتراحات. وبدأت محادثات في٣٠تشرين الأول عام١٩٥٢م بين الأمير فيصل وزير الخارجية السعودية آنذاك والسفير البريطاني بجدة. وتم التوقيع على اتفاقية توقف الاقتتال في٢٦تشرين الأول عام١٩٥٣م. لكن سرعان ما تدهورت الأمور بين الطرفين. وبدأت السعودية بتقديم ادعاءاتها حول أحقيتها في البوريمي. كذلك عمان. ثم تم الاتفاق على عرض مشكلة البوريمي على هيئة التحكيم في جنيف. وأخذ كل من الجانبين يقدم وثائقه وادعاءاته. وسرعان ما أخذ أعضاء هيئة التحكيم ينسحبون، محتجين على تصرفات الممثل السعودي الشيخ يوسف ياسين إذ حاول تقديم رشاوي لهيئة المحكمين. وكذلك احتجت بريطانيا على محاولة السعودية تقديم ٣٠ مليون جنيه استرليني رشوة لشقيق شيخ أبو ظبي. وقد اعترضت السعودية على الاتهام(٤١). وبعد أن أخفقت مهمة المحكمين، قامت قوة مشتركة من كشافة ساحل عمان، وهي قوات مسلحة تحت القيادة البريطانية تابعة اسمياً لسلطان مسقط بطرد القوات السعودية واحتلال البوريمي(٤٢). وآزرت الجامعة العربية الموقف السعودي إزاء الاعتداء البريطاني عليها وحملت بريطانيا مسؤولية اللجوء للقوة، وطالبت بضرورة إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه وتشكيل هيئة دولية محايدة تراقب الأمور في المنطقة. كذلك قدمت السعودية شكوى إلى الأمم المتحدة. فتقرر إرسال لجنة تقصي حقائق للمنطقة بهدف جمع المعلومات تمهيداً لإجراء استفتاء بين سكان المنطقة تحت إشراف الأمم المتحدة. واختير دي ربنجDe Rebbing السفير السويدي في إسبانيا لرئاسة اللجنة.

أمضى دي ربنج عدّة أيام في المناطق المتنازع عليها وأجرى محادثات مع سلطان مسقط وشيخ أبو ظبي. وتوقف في الدمام لإجراء محادثات مع الملك سعود. ووضع تقريراً مطولاً طالب فيه بضرورة عودة سكان البوريمي إلى أراضيهم وتأمينهم وأن تعاد العلاقات الدبلوماسية بين الحكومتين البريطانية والسعودية. لكن اندلاع ثورة اليمن عام١٩٦٢م أحدث تبدلاً جذرياً في موقف الحكومة السعودية، إذ توقفت عن مطالبها بضرورة العودة إلى التحكيم واتجهت إلى إعادة العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا في كانون الأول عام١٩٦٣م وأصبحت مشكلة البوريمي بعد ذلك منسية.

سابعاً: تطور مسقط السياسي وتوحيد السلطنة على يد السلطان قابوس:

سيطر سعيد بن تيمور على مقاليد الحكم في مسقط ما بين عامي(١٩٣٢-١٩٧٠م) وعرف عنه عزلته وجموده. فمنذ أواخر الخمسينات أخذت الأمور تسير بسرعة. فبعد قمع عمليات الثورة العمانية، أخذت شركات النفط تسرع في عمليات التنقيب. فأقيمت الطرق المعبدة التي تربط مسقط مع مقاطعات عمان الداخلية. وشق طريق من مسقط عبر ساحل الباطنة في اتجاه صحار على ساحل عمان(٤٣). وحتى بداية الستينات وإلى ما قبل تصدير النفط، كانت ميزانية مسقط متواضعة لا تزيد على مليون جنيه في العام تأتيها من الزراعة ومصائد الأسماك والتجارة. وكان لها دخل هو حصيلة المعونة السنوية التي كانت تتلقاها من زنجبار. ثم أنشئت إدارة حكومية للتنمية تحملت الحكومة البريطانية القسم الأكبر من ميزانيتها. فطورت هذه الإدارة الامكانات الزراعية والصحية والتعليمية ووسائط النقل ثم أنشأت فروعاً تجريبية في صحار ونزوى(٤٤). ومنذ عام١٩٦٣م طرأ تطور على الاقتصاد العماني، بعدما عثرت شركة تنمية نفط عمان المحدودة على النفط بكميات كبيرة، وأصبح بالإمكان تطوير السلطنة إلى دولة عصرية. لكن هذا تطلب وجود طاقم من الخبراء والموظفين الفنيين، وكان معظمهم من الإنجليز كالمستشار الشخصي للسلطان ومدير الجمارك والموانئ وسكرتير الشؤون الخارجية والعسكرية. قطعت العلاقة بين مسقط وبريطانيا أشواطاً من التطور فتغير لقب الممثل البريطاني من معتمد سياسي إلى وكيل عام. وهذا له دلالة

Damascus University

على تحول وضع التبعية الخاصة بالسلطة إزاء بريطانيا. ففي عام١٩٥٨م تم تبادل مذكرات بين السلطان ووزارة الخارجية البريطانية تعهدت بريطانيا فيها أن تمد مسقط بمساعدتها العسكرية والفنية مقابل إنشاء قواعد جوية في سلالة ومصيرة. وظلت هذه الاتفاقية سرية حتى أعلنتها بريطانيا عام١٩٦٣م أمام بعثة تقضي الحقائق التابعة للأمم المتحدة. كذلك أقامت مسقط معاهدة مع أمريكا نصت على تبادل التمثيل القنصلي. ومن وجهة نظر السلطان سعيد بن تيمور فإن إقامة تمثيل خارجي مع الدول تتطلب أموالاً ونفقات كثيرة، لذلك أوكل هذه المهمة إلى بريطانيا التي تولت تمثيل السلطنة في الهيئات الدولية. وبينما كانت علاقة مسقط الخارجية تتطور مع بريطانيا، فإن علاقاتها بالدولة العربية كانت مختلفة إذ اتخذت الدول العربية موقفاً معارضاً للسلطة أثناء الصراع بينهما وبين الإمامة. وهذا ما أقلق السلطان سعيد عندما أذيع نبأ انسحاب بريطانيا من الخليج عام١٩٦٨م، ففكر في التقارب مع أبو ظبي. ولا شك أن اندلاع الثورة في ظفار والجبل الأخضر بقيادة الجبهة الوطنية الديمقراطية لتحرير عمان والخليج كانت من أسباب التي تطلبت ضرورة إحداث إصلاح في السلطنة(٤٥). وحتى لا يحدث تغيير متطرف يمس المصالح الغربية والنفطية في المنطقة، كان لشركة نفط عمان والضباط الإنجليز اليد الطولى في تحريك القوات العمانية التي أطاحت بالسلطان في٢٣تموز عام١٩٧٠م وتولية ابنه قابوس بن سعيد الذي تخرج من كلية ساند هيرست وتزوج من ابنة أحمد الحارثي والي عمان الداخلية. وقد كان هذا الزواج زواجاً سياسياً، لأنه ضمن له ولاء الحارثيين الذين يشكلون قوى كبرى في عمان الداخلية. واستطاع قابوس أن يستميل إليه عمه طارق بن تيمور الذي لعب دوراً في قمع الثورة العمانية، حيث كان طارق قد طرح فكرة الملكية الدستورية، ولكن شقيقه سعيد بن تيمور نفاه إلى خارج مسقط(٤٦). واستطاع قابوس أن يعيده من منفاه في الهند ويسند إليه منصب رئيس مجلس الوزراء. وقام السلطان قابوس بكسر حواجز العزلة بين السلطنة والعالم العربي فانضم إلى جامعة الدول العربية والأمم المتحدة عام١٩٧١م وقد أصدر السلطان قابوس بعد توليه الحكم مرسوماً بتغير اسم الدولة، من سلطنة مسقط وعمان إلى سلطنة عمان. وكان ذلك تعبيراً عن وحدة السلطنة التي لم تتحقق إلا مؤخراً، واتجه إلى

تطبيق المركزية، وضم جميع المناطق تحت نفوذه في الساحل والداخل، وأبرزها منطقة رؤوس الجبال الواقعة في الجزء الشمالي من شبه جزيرة مسندم ولذلك حرص على تأكيد السيطرة المركزية على هذه المنطقة المهمة. لكن أبرز ما واجهه السلطان قابوس هو اشتداد الثورة في ظفار التي تشكل الولاية الجنوبية لعمان، وخطورة هذه الثورة في أنها تعتنق مبادئ يسارية، وقد نشطت منذ عهد السلطان سعيد بن تيمور مستفيدة من أوضاع عمان المختلفة، حيث كان مشكلة ظفار قد ظهرت إلى الوجود منذ عام١٩٦٣م بسبب أوضاع التخلف التي كانت سائدة، وبسبب رفض السلطان سعيد الاستجابة لمطالب ثوار ظفار. ولذلك تشكلت جبهة تحرير ظفار متأثرة بحركة القوميين العرب. ثم تحولت إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج، وعلى الرغم من أن السلطان قابوس في بداية عهده، حاول التقرب من هذه الجبهة، لكن بعض المتطرفين فيها أعلنوا أن هدفهم ليس السيطرة على ظفار فحسب إنما على الجزيرة العربية كلها. ولذا، قام السلطان قابوس بقمع الثورة عسكرياً. وتطلب هذا الأمر أكثر من نصف موارده المالية لبناء قوته العسكرية. والخطورة في هذه الثورة أنها أرغمت السلطان على طلب المساعدة من إيران(٤٧).

أما المشكلات الداخلية التي واجهها السلطان قابوس فقد كان منها ازدواجية الحكم بينه وبين عمه طارق. فبعد أن أوكل إليه رئاسة الحكومة ظهر التنافس بينهما، فحاول طارق أن يزاحم المصالح البريطانية بتقريب وتمكين المصالح الألمانية الغربية في عمان. وهذا أمر لم يوافق عليه السلطان قابوس، لذلك قام في كانون الثاني عام١٩٧٢م بإقصاء عمه عن رئاسة الحكومة ومعه عدد من الوزراء، وتولى بنفسه رئاسة مجلس الوزراء وحصر السلطة في شخصه فقط.

ثامناً: النفط وآثاره في تطور عمان:

النفط في عمان هو المورد الأساسي للثروة الوطنية وعلى الرغم من أن العمل في حقول النفط بدأ في العشرينات من القرن العشرين إلا أن العثور على النفط بكميات تجارية لم يبدأ إلا في أواخر عام١٩٦٤م كما لم تبدأ عمليات التصدير إلا في عام١٩٦٧م عندما خرجت أول ناقلة تحمل ٧٣ألف طن من نفط عمان إلى اليابان. وبعد ذلك جرى تعديل شروط الامتياز بحيث يضمن للسلطنة مناصفة الأرباح وغير ذلك من الامتيازات التي أقرتها منظمة الأوبك مثل

السعودية والكويت والبحرين وغيرها. وتستحوذ شركة استثمار نفط عمان P.D.O على امتياز النفط وهو ائتلاف بين شركات هولندية وفرنسية وبريطانية حصلت الشركة على الامتياز لمدة ٧٥عاماً، وتقوم بالتدريب المهني والاجتماعي للعمال العمانيين حيث تبلغ نسبتهم٧٣%. وقد أقيم معهد تقني لتدريب العمانيين في مطرح وأبرز القول في منطقة فهود. وقد اكتشف النفط منذ عام١٩٥٦م لكن سار ببطء شديد نتيجة الحركات الثورية في الداخل ولم يصدر الإنتاج إلا في عام١٩٦٧م. ولم يحدث النفط في البداية أثر يذكر على مناحي الحياة لأن السلطان سعيد كانت له سياسة خاصة فقد عاشت البلاد في عهده في حالة ركود. وقد شجع الهنود على الإقامة في بلاده لأنه كان يخاف ويشك بولاء العمانيين له إضافة أنه فرض ضرائب على التجارة وبلغت ٣٠٠% وقد عزل السلطان نفسه في سلالة في إقليم ظفار ووضع القيود الكثيرة على الحرية الشخصية مثل منع شراء السيارات أو الاستماع لأجهزة الراديو أو السفر إلى خارج السلطنة إلا بإذنه. لكن منذ أن تسلم السلطان قابوس السلطة عام١٩٧٠م تبدل الوضع تماماً. حيث التفت إلى بناء البلاد وتطويرها وإنقاذها من التخلف الذي كانت عليه فأولى الخدمات التي يحتاجها الشعب العماني عناية خاصة مثل المشافي والطرقات والاتصالات ومحطة الإذاعة والتلفزيون.. الخ وقد استعان بالفنيين العرب والأجانب لتحقيق هذه المشاريع المتعددة. لكن أبرز ما وجه له عناية خاصة هو التعليم فبعد تسلمه السلطنة بعام واحد افتتحت ٢٦مدرسة وقام بمنح أراضي لشركات زراعية لاستصلاحها ووزعت أراضٍ على صغار الفلاحين للعمل فيها. ودلت الإحصاءات الرسمية على سرعة التطور الذي بلغته عمان وخلال فترة قصيرة تبدلت أوجه الحياة في عمان صحيح أن عمان لم تبلغ غنى السعودية أو الإمارات أو الكويت بإنتاج البترول لكن ما تنتجه ساعد على أعباء التنمية وتنمية الاقتصاد واللحاق بركب التطور. وخاصة في مجال تطوير العلاقات الخارجية والعربية.

هوامش الفصل السابع

[١])لوريمر، مصدر سابق، ج٢، ص٧٠٢-٧٠٣.

[٢]) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٠٣.

[٣]) وزارة التراث القومي الثقافي، العمانيون وقلعة ممباسا. وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط٢، ١٩٨٥، ص٢٨-٣٢.

[٤]) قاسم الخليج العربي، ١٨٤٠-١٩١٤م، ص٨٢-٨٣.

[٥]) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات(١٥٠٧-١٨٤٠م)، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢٢١.

[٦]) أحمد محمود المعمري، عمان وشرقي افريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، إصدار وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، ط٢، ١٩٩٢م، ص٧٥.

[٧]) صلاح العقاد، الاستعمار في الخليج الفارسي، سلسلة الألف كتاب ١٢١ وزارة التربية بمصر ،ص١٤٣.

[٨]) جون كيلي، بريطانيا والخليج(١٧٩٥-١٨٧٠م)، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان وزارة الثقافة، ص٢٣٤.

[٩])لوريمر، المصدر السابق، ج٢، ص٣٨٧-٣٨٩.

[١٠]) عادل رضا، عمان والخليج قضاياومناقشات، دار الكاتب العربي فرع مصر،١٩٦٩، ص١٨١.

[١١]) مديحة أحمد درويش، سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٨٢م، ص١٢٦.

[١٢]) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة آل عمان، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص ٢٣٧

[١٣]) كيلي، المرجع السابق، ص٥٢٧-٥٢٨.

[١٤]) المرجع نفسه، ص٦٤٢.

[١٥]) المرجع نفسه، ص٦٣٢.

[١٦])لوريمر، مصدر سابق، ج٢، ص٤٦٧.

[١٧]) درويش، المرجع السابق، ص١٣٢.

[١٨])لوريمر، مصدر سابق،ج٢، ص٤٨٢.

[١٩]) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٤١.

[٢٠]) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٩٨.

[٢١]) درويش، المرجع السابق، ص١٥١.

[٢٢]) وندل فيلبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ط٣، ١٩٨٩م، ص١٧٨.

[٢٣]) روبرت جيران لاندن، عمان منذ ١٨٥٦م مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبد الله، بيروت،١٩٦٨م، ص٣٥٦-٣٦٠.

[٢٤])اللاكة تساوي"١٠٠٠ روبية"هندية، جمال قاسم، الخليج العربي، ١٩١٤-١٩٤٥م، ص٣٤٩.

[٢٥]) صحيفة البلاغ، العدد٣٦٩٣، تاريخ ١٧تشرين الثاني١٩٢٨م.

[٢٦]) قاسم، الخليج العربي،١٩١٤-١٩٤٥م، ص٣٥٧.

[٢٧]) قاسم الخليج العربي، ١٩١٤-١٩٤٥م، ص٣٧٥.

[28] لاندن، مرجع سابق، ص٤٨٥-٤٨٦م.

[29] قاسم الخليج العربي،١٩١٤-١٩٤٥م،ص٣٩٠-٣٩٢.

[30] F.O 371/2416 Translation of Petition by Sheikh Isa Bin Sakh representative of the Imam Salim Rashid Al Kharoussiof the Political agent, Muscat at Sib 15th sept, 1915

نقلاً عن د. جمال قاسم، الخليج العربي، ص٤٠٢.

[31] قاسم، الخليج العربي، ١٩١٤-١٩٤٥م، ص٤٠٥.

[32] انظر نص الرسالة، قاسم، الخليج العربي، ١٩١٤-١٩٤٥م، ص٤٠٧.

[33] انظر نص الاتفاقية باللغة الانجليزية في الملحق.

[34] صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٣٠٥.

[35] لاندن، المرجع السابق، ص٣٦٤-٣٦٥.

[36] مجلة الكفاح العماني، العدد ٣٢، تموز ١٩٦٩م.

[37] قاسم، الخليج العربي،١٩١٤-١٩٤٥م، ص٤٣٥-٤٤٣.

[38] Morris, james, Sultan in Oman. London 1957.P.24

[39] صحيفة الشورى، العدد ٣١٨، تاريخ ٦ تشرين الثاني١٩٥٥م.

[40] قاسم، الخليج العربي،١٩١٤-١٩٤٥م، ص٣٤٨-٣٥٠.

[41] صحيفة الشورى، العدد ٣١٨، تاريخ ١٩٥٥/١١/١٦م.

[42] Morris, Opcit P.122

[43] قاسم، الخليج العربي ١٩١٤- ١٩٤٥، ص٢٥٧.

[44] لاندن، المرجع السابق، ص٤٩١، ط٤،١٩٨٩م.

[45] لاندن، المرجع نفسه،ط٤، ١٩٨٩م، ص٤٩٣-٤٩٤.

[46] فرد هوليداي، الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، ترجمة حازم صاغية وسعد محيو، دار ابن خلدون، ص٢٧٥.

[47] رياض نجيب الريّس، صراع الواحات والنفط، هموم الخليج، ص٢٥٥-٢٥٧.

الفصل الثامن

مشيخات الساحل العماني ما بين عامي(١٨٤٠-١٩٧١م).

مقدمة: الأوضاع العامة للساحل العماني حتى عام(١٨٤٠م)

أولاً: التاريخ السياسي لمشيخات الساحل العماني منذ نهاية الوجود المصري حتى الحرب العالمية الأولى (١٨٤٠-١٩١٤م)

ثانياً: الأوضاع الداخلية في مشيخات الساحل العماني(١٨٤٠-١٩١٤م)

ثالثاً: المشيخات والسياسة البريطانية فيما بين الحربين(١٩١٤-١٩٤٥م)

رابعاً: المستجدات الداخلية في المشيخات بعد الحرب العالمية الثانية

خامساً: العوامل الخارجية ومنعكساتها على المشيخات

سادساً: قيام الوحدة بين الإمارات والقضاء على التفكك

سابعاً: أثر النفط على التطور الاقتصادي والثقافي في الامارات العربية المتحدة.

ثامناً: التطور الثقافي في الامارات العربية المتحدة

هوامش الفصل الثامن

Damascus University

الفصل التاسع

اليمن الشمالي بين عام(١٨٤٠-١٩٦٢م)

مقدمة:

أولاً: أوضاع اليمن منذ جلاء المصريين حتى الحملة العثمانية الثانية عام١٨٧٢م.

ثانياً: تغلغل النفوذ العثماني في تهامة وعسير قبل عام(١٨٧٢م)

ثالثاً: سيطرة العثمانيين على صنعاء

رابعاً: أوضاع اليمن ما بين عام(١٨٧٢-١٩٠٤م)(حكم الإمام منصور)

خامساً: حكم الإمام يحيى حميد الدين بين عامي(١٩٠٤-١٩٤٨م)

١. السياسة الخارجية للإمام يحيى حميد الدين

٢. السياسة الداخلية للإمام يحيى حميد الدين

سادساً: الإمام أحمد حميد الدين وثورة عام ١٩٦٢م

سابعاً: التطور الاقتصادي و الثقافي في اليمن الشمالي

هوامش الفصل التاسع.

المقدمة:

يقع اليمن الشمالي في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية. يحده من الشمال المملكة العربية السعودية. ومن الشرق الربع الخالي. ومن الجنوب عدن ومحمياتها. ومن الغرب البحر الأحمر. تعود أهمية اليمن الاستراتيجية إلى موقعه الحساس عند مضيق باب المندب. ويقسم من حيث طبيعته إلى منطقتين: المنطقة الساحلية التي تسمى تهامة اليمن وأهم مدنها الحديدة، وهي ميناء ومركز تجاري. أما المنطقة الداخلية التي تسمى السراة (جبال اليمن)، فتمتاز بالعلو والوعورة، مما جعلها عصيّة على أفضل الجيوش قوة وعتاداً، كالجيوش العثمانية والجيوش الإنكليزية فيما بعد.

أولاً: أوضاع اليمن منذ جلاء المصريين حتى الحملة العثمانية عام١٨٧٢:

تعاونت الدولة العثمانية وبريطانيا في إجلاء قوات محمد علي عن اليمن في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، بعد أن حاول المصريون تكوين امبراطورية في البلاد العربية والاستقلال عن الباب العالي. فقد اضطر ابراهيم باشا لتنفيذ الأوامر التي وردته من والده محمد علي بشأن تنفيذ قرارات مؤتمر لندن عام١٨٤٠م القاضية بسحب القوات المصرية من الجزيرة العربية، فقام بتسليم مدينة الحديدة إلى حسين بن علي بن حيدر حاكم المخلاف السليماني الذي كان قد أعلن اعترافه وتبعيته للدولة العثمانية، متعهداً بدفع مبلغ سنوي من المال للباب العالي. ولذلك وافق السلطان العثماني عبد المجيد(١٨٩٣-١٨٦١م) على منح حسين بن علي بن حيدر لقب باشا عام١٨٤٣م عن طريق والي جدة[١]. استقر الحسين بن علي بن حيدر في الحديدة، ونظم شؤونها ووسع حدود منطقته، فاستولى على مخا وزبيد. ولكنه لم يسلم من مخاطر الصراع بين المتنافسين على الإمامة الزيدية في صنعاء. فقد طلب الإمام محمد بن يحيى بن منصور من الحسين بن علي بن حيدر في تهامة مساعدته ضد منافسه الإمام المهدي عبد الله ابن المتوكل أحمد في صنعاء، فهبّ لنجدته وانتصر على المهدي، ودخل ابن يحيى صنعاء واستأثر بالإمامة. وأهدي إلى الحسين جزاء صنيعه مكتبة قيمة تشمل الكثير من المخطوطات إذ كان الحسن بن علي بن حيدر شغوفاً بالكتب النادرة[٢]. لكن هذه العلاقة الحسنة بين الاثنين، ما لبثت أن تداعت، عندما أراد

ابن يحيى أن يضم إلى منطقة نفوذه مناطق كان قد استولى عليها الحسين بن علي بن حيدر وعين عليها حكاماً من قبله، فقد عد ابن يحيى نفسه صاحب الحق الشخصي في حكم هذه البلاد بعد أن أصبح إماماً لصنعاء، فاتصل بمعارضي الحسين في تهامة واستطاع هزيمته وأسره. وقد تنازل له الحسين بن علي بن حيدر عن أملاكه مقابل إطلاق سراحه فلم يفعل، فقام ابنه محمد بن الحسين بطلب المساعدة من حاكم عسير لتخليص والده من الأسر لكن حاكم عسير رفض طلبه. وفي النهاية استطاع أقرباء الحسين تخليصه من الأسر بعد أن استعانوا بقبائل يام اليمنية، وهاجموا القوات الأمامية في زبيد التي استولوا عليها عام١٨٤٨م. هذه الأحداث أثرت في نفسية الحسين بن علي بن حيدر "جحود الإمام محمد بن يحيى وتنكر حاكم عسير: لذلك طلب من السلطان العثماني إعفاءه من منصبه وإرسال من يستلم حكم اليمن. فأمر السلطان العثماني عبد المجيد نائبه في الحجاز توفيق باشا وكذلك أمير مكة محمد بن عون بالتحرك إلى اليمن على رأس قوة عثمانية تألفت من ثلاثة آلاف من الجنود المشاة والفرسان. ووصلت الحملة ميناء اللحية اليمنى ثم اتجهت إلى الحديدة عام١٨٤٩م[٣]. وعندما علم إمام صنعاء محمد بن يحيى بوصول القوات العثمانية إلى الحديدة خاف أن ينفرد خصمه الحسين بالتقرب إلى العثمانيين. وأراد أن يفوت الفرصة على منافسه في الإمامة علي بن المهدي، لذلك سارع للاتصال بالعثمانيين مرحّباً بهم، وصحبهم إلى صنعاء فدخلوها عام١٨٤٩م دون مقاومة. لكن الإمام علي بن المهدي، جمع رجال القبائل وحرضهم على ابن يحيى لأنه باع اليمن للأتراك. وقد ذكر الواسعي أنه " قام أهل صنعاء قومة رجل واحد على حين غفلة، فأبادوا الأتراك قتلاً. ولم يسلم منهم إلا من كان ملتجأً في القصر أو في بستان السلطان"[٤]. ولقد فوجئ العثمانيون بهجوم رجال القبائل اليمنية، فتفرقت صفوفهم وأصيب قائدهم توفيق باشا بجراح خطيرة وأعلن أهالي صنعاء تنصيب علي بن المهدي إماماً عليهم. وانتهت الأحداث بخروج العثمانيين من صنعاء وانسحابهم إلى الحديدة، واعتقال رجال القبائل لمحمد بن يحيى وسجنه. وقد كان دخول الأتراك إلى صنعاء عام١٨٤٩م سبباً في خلع إمام وتنصيب إمام آخر مكانه. أما الحسين فقد تعاون مع العثمانيين الذين استقروا في تهامة بعد انسحابهم من صنعاء لسهولة الاتصال بين الحديدة وموانئ الحجاز.

واستقر في مكة حتى توفي عام١٨٧٦م بعد أن أجرى له الباب العالي راتباً شهرياً. وهكذا لم تستطع حملة العثمانيين عام١٨٤٩م السيطرة على صنعاء وإقامة حكم عثماني مستقر. فاقتنعوا بالإقامة في الحديدة والساحل إلى أن تسنى لهم العودة عام١٨٧٢م وهم أكثر قوة وخبرة مما سيمكنهم من دخول صنعاء وإقامة الحكم العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى(٥). إن أوضاع اليمن الداخلية المضطربة، خاصة المنطقة الجبلية الخاضعة لحكم الأئمة الزيديين كانت من أهم العوامل التي ساعدت العثمانيين على العودة إلى الحكم، لأن بعض الأئمة أنفسهم استنجدوا بالسلطان العثماني عبد العزيز بين عامي(١٨٦١-١٨٧٦م) ليساعدهم على استقرار الأوضاع باليمن، فالإمامة الزيدية في منتصف القرن التاسع عشر كانت تجتاز محنة كبيرة، إذ توالى عليها أئمة ضعاف انصرفوا إلى شؤونهم الشخصية فضعفت سلطتهم. وكثيراً ما كان الأئمة يستنجدون برجال القبائل لمناصرتهم في الصراع فيما بينهم فتعرضت صنعاء لغاراتهم وكثر فيها السلب والنهب، واستمر الصراع المذهبي بين الزيديين والشوافع مما أدّى إلى فقدان البلاد لوحدتها السياسية ووحدتها الروحية، وقد انعكس ذلك على التجارة اليمنية فعم الكساد ولحقت بها الأضرار وتعرضت قوافلها لهجوم القبائل. ولهذا فكر التجار اليمنيون أنهم إذ دعوا الأتراك لإقرار الأمور بصنعاء فإن ذلك سيوفر لهم الأمن والاستقرار ويساعدهم على رواج التجارة(٦). وسئم الأئمة الزيديون أنفسهم من الحروب والمنازعات فاستنجد الإمام علي بن المهدي والإمام الهادي غالب بن محمد بن يحيى وكثيرون من العلماء بالخليفة العثماني عبد العزيز عن طريق شريف مكة محمد بن عون طالبين مساعدته فوافق السلطان العثماني على إعادة إخضاع اليمن للعثمانيين(٧).

ثانياً: تغلغل النفوذ العثماني في تهامة وعسير قبل عام١٨٧٢م:

بعد إخفاق الحملة العثمانية على صنعاء عام١٨٤٩م ارتدت قواتهم إلى تهامة. واتخذوا الحديدة مركزاً لهم. ونصبوا الحسن بن الحسين حاكماً على المخلاف السليماني في شمال اليمن. وخلال حكم الحسين للمخلاف افتقدت البلاد حالة الأمن والاستقرار مما دفع أهالي أبي عريش عاصمة المخلاف السليماني لطلب النجدة من العثمانيين في الحديدة. فخشي رئيس مدينة أبي عريش أحمد بن

حسن الخمري من غضب الأهالي، ومساعدة العثمانيين لهم، فطلب النجدة من أمير عسير محمد بن عائض الذي لبّى طلبه، وتقدم بقواته نحو أبي عريش مستغلاً انشغال الترك في الحديدة بتسكين الفتن والثورات ضدهم. واستطاع العسيريون عام١٨٦٣م السيطرة على أبي العريش وقد لاذ حاكمها بالفرار. لم تستكن السلطات العثمانية لهذا الأمر فطلبت من شريف مكة إخماد ثورة عسير، فأحرجه هذا الطلب لأن تلك القبائل هي أهله وكان هو نفسه يحرضها سراً على الثورة ضد الأتراك ولم تستطع السلطات العثمانية الحاكمة في الحجاز القيام بعمل إيجابي للقضاء على ثورة العسيريين، ولهذا اضطر الباب العالي إلى الاستعانة بإسماعيل باشا والي مصر لإخماد هذه الثورة كيلا تخرج البلاد من حظيرة الدولة العثمانية فرحب والي مصر بهذا الأمر وأعدّ قوة مصرية قوامها٥٤٤٤جندياً من المشاة والفرسان مزودين بأربعة مدافع. وأبحرت الحملة عام١٨٦٤م من ميناء السويس متجهة إلى جدة ومنها إلى اليمن. وقد عد ذلك تدخلاً مصرياً في شؤون اليمن. ولتجنب إراقة الدماء كان إسماعيل باشا والي مصر يريد حسم النزاع بالطرق الودية. وفي١٢آب عام١٨٦٤م خرج شريف مكة على رأس قوة قوامها ٢٥٠٠محارب من فرسان ومشاة والتقت القوات المصرية وتشكلت من الفريقين قوة قوامها ٨٥٠٠مقاتل. غير أنّ فرصة الفوز أمامها كانت ضئيلة. وفيما بعد وردت أنباء من القاهرة بضرورة ترحيل الجنود المصريين إلى مصر، فانسحبت القوات المصرية من شمال اليمن عام١٨٦٦م بعد أن أمضت نحو السنتين دون حرب مع محمد بن عائض أمير عسير. وقد أرسل الباب العالي إلى والي مصر كتاباً يشكره فيه على جهوده التي بذلها لحل مشكلة عسير دون إراقة دماء. لكن الأمور لم تستقر طويلاً، إذ ظهرت مجدداً بوادر استعدادات أمير عسير وتحركاته العسكرية لتحقيق أهدافه ضد الدولة العثمانية. فأرسل خديوي مصر إليه كتاباً عام١٨٦٨م يحذّره فيه من نتائج العودة للعصيان. ورغم تحذيرات مصر المستمرة له عام١٨٧٠م فإنه ظلّ يعد العدة لتحقيق آماله بطرد العثمانيين من المخلاف السليماني وتهامة وإخضاعهما لحكمه. فقام عام١٨٧١م بغزو المخلاف السليماني وطرد منه الحامية العثمانية ورحلها بحراً إلى الحديدة وتقدم صوب تهامة واشتبكت قواته مع القوات العثمانية في الحديدة عام١٨٧١م. لكنه مني بالهزيمة. وسرعان ما

أرسلت الدولة العثمانية حملة إلى ميناء القنفذة عام١٨٧١م عددها ٦٠٠٠مقاتل. وكلفت مصر بناءاً على أوامر الباب العالي بتزويد هذه الحملة بالمؤن اللازمة من أرز وسمن وسكر(٨). وأرسل قائد الحملة العثماني محمد رديف باشا إنذاراً للعسيريين لكنه لم يتلق أي رد من أمير عسير، فأمر قواته بالزحف على عسير فدخلتها واقتحمت قصر أميرها الذي سلم نفسه ثم أودع السجن(٩). وأمر رديف باشا بعد ذلك بقتل محمد بن عائض مع خمسة وثلاثين من رؤساء رجال العسيريين في نيسان عام١٨٧٢م. وهكذا سيطر العثمانيون على المخلاف السليماني وعسير واستولوا على كنوز أمير عسير وكان ذلك أكبر تمهيد من أجل السيطرة على صنعاء ذاتها عام١٨٧٢م.

ثالثاً: سيطرة العثمانيين على صنعاء:

صدرت الأوامر من الآستانة إلى القائد العثماني أحمد مختار باشا في الحديدة بالزحف إلى صنعاء وإلقاء القبض على المتمردين فتوجه من الحديدة إلى عتارة في حراز إلى الغرب من مناخة وهناك استطاع هزيمة اتباع الباطنية واستسلم له قائدهم. ورغم أن العثمانيين تعهدوا له بسلامة حياته لكنهم غدروا به وقتلوه مع أولاده وصادروا أملاكه. وواصل العثمانيون زحفهم نحو صنعاء وهناك التقوا وفد الإمام علي بن المهدي الذي كان يظن أن مهمة العثمانيين تنحصر في القضاء على التمرد والعودة غير أنهم واصلوا زحفهم حتى وصلوا "عسير" غرب المدينة ثم دخلوا صنعاء يوم الخميس في٢٦نيسان عام١٨٧٢م. وأثاروا الخوف والرهبة في قلوب أهالي المدينة الذين راعتهم الأسلحة الحديثة وشكلوا حكومة عثمانية بصنعاء وأصبح مختار باشا والياً عليها من قبل السلطان العثماني عبد العزيز، وقد قام بطرد الموظفين اليمنيين من صنعاء وعين مكانهم مأمورين عثمانيين. وعرف الأتراك مكانة الإمام الروحية لدى الزيديين فسمحوا له بالإقامة في صنعاء ومنحوه راتباً شهرياً. وأمر بوقف مرتبات أقرباء الإمام. وبعد دخول العثمانيين صنعاء بأربعة أشهر، سيطروا على كوكبان غرب صنعاء. ورغم الخوف والرهبة من العثمانيين فلم تخل البلاد من قيام بعض التمردات هنا وهناك وخاصة من قبل قبيلتي الحدا وخولان. وهكذا أقام العثمانيون سيطرتهم على صنعاء عام١٨٧٢م وأخذوا يهتمون بميناء الحديدة بدلاً من ميناء مخا(١٠).

رابعاً:أوضاع اليمن ما بين عامي(١٨٧٢-١٩٠٤م)"حكم الإمام المنصور":

لم يستطع العثمانيون بعد سيطرتهم على صنعاء أن يمدوا حكمهم إلى شرق اليمن بل اقتصرت سيطرتهم على شماله. وظلّت مأرب وصعدة ونجران وقفلة عذر وما حولها من القبائل شديدة البأس مثل حاشد وبكيل وأرحب وذو حسين، تحت سلطة الأئمة والمشايخ المحليين، وكذلك كان الحال في النواحي الجنوبية التسع التي تعرضت للنفوذ البريطاني. ويمكن القول إن اليمن العثمانية عام١٨٧٢م كانت تمتد بين خطي طول٤١مْ٤٦مْ شرق جرينتش وبين خطي عرض ١٢مْ و٢٠مْ شمالاً. ومع هذا اهتم الأتراك بتوثيق علاقتهم بحكام النواحي اليمنية وعدن مثل قرطبة ولحج والضالع والحوشبي. وكانت الحكومة اليمنية تعطي إعانات مالية لهؤلاء السلاطين والمشايخ لتكسب ولاءهم لها. إلا أن أهم ما يميز أوضاع اليمن خلال هذه الفترة، هي ثورة الإمام الزيدي المنصور بالله محمد بن يحيى ضد العثمانيين. وقد رأى السلطان العثماني عبد الحميد، بعد أن علم بها أنه من الأنسب استخدام السبل الدبلوماسية لإخمادها، فكتب إلى المنصور بالله يطلب إليه الكف عن إراقة الدماء واعداً إياه براتب شهري. لكن رد المنصور كان التالي:" ما خرجنا من صنعاء لطلب الملك والرياسة بل لنصرة شريعة جدنا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنع ظلم الرعية من المأورين وارتكاب المحرمات وشرب الخمور وظهور الزنا والفجور وترك الحدود التي أمر الله بها من القصاص وقطع يد السارق وجلد الزاني والشارب وغير ذلك مما أبطلها القانون المخالف للشريعة المطهرة"[١١]. واستمرت عمليات المقاومة اليمنية ضد العثمانيين واتخذت شكل حرب العصابات وإرهاب الجنود. فقد هاجم اليمنيون قافلة عثمانية خرجت من صنعاء تتألف من ٢٠٠جمل تحمل مؤناً وأسلحة شرقي مناخة واستولوا عليها. وكان رد العثمانيين أن هاجموا إحدى عشرة قرية وهدموا منازل فيها وأحرقوا بعضها[١٢]. ولاحظ الوالي العثماني أحمد فيضي باشا أن معظم المقاومة ضد العثمانيين تأتي من بلاد حاشد، فوجّه حملة إليها انتهت بنهب العثمانيين لأموالها. واستمر الوالي أحمد فيضي بطريقة حتى قفلة عذر مقر الإمام منصور. لكن الإمام المنصور فوت عليه الفرصة بأن هرّب أمواله وأسلحته وفرّ باتجاه الجبال. ولم يتمكن الوالي العثماني من الوصول إلى مراكز الثوار اليمنيين فعاد إلى صنعاء بعد

أن تكبدت قواته خسائر كبيرة. وفي قضاء "أنس" جنوب غرب صنعاء، قام الشيخ علي المقداد بمحاربة العثمانيين ومطاردتهم. ولم ينعم الأتراك في قضاء أنس بالهدوء. ومضت أعوام والحكومة العثمانية عاجزة عن القضاء عليه حتى أتبعت أسلوب إحراق القرى اليمنية التي دخلها الشيخ علي المقداد وخربت ٨٠٠قرية. وفي عام١٨٩٢م أمر الوالي أحمد فيضي باشا باعتقال جماعة من العلماء والشيوخ بتهمة التعاون مع الأمام منصور، مثل يحيى الكبسي وسعد الدين الزبيري وغيرهما. وبلغ عدد هؤلاء ٥٥رجلاً وقد أرسلهم الوالي العثماني إلى الحديدة ثم أمر بنفي بعضهم إلى جزيرة ردوس(١٣). أراد السلطان العثماني عبد الحميد أن يستطلع حقيقة أوضاع اليمن فأرسل نامق باشا عام١٨٩٢م لمعرفة أسباب ثورة اليمنيين على العثمانيين. ومكث نامق باشا فترة في صنعاء، عرض عليه اليمنيون خلالها شكواهم من تعسف الأتراك والوالي. ورغم إرسال الدولة العثمانية لحملة استطلاعية ثانية خلال عام١٨٩٣م إلا أنه لم يترتب على بعثتهم أي إجراء جدي من قبل الدولة العثمانية. وإضافة إلى تعسف الولاة العثمانيين الذين ألزمو جميع الموظفين اليمنيين بارتداء الزي التركي واستبدال العمامة بالطربوش. في عام١٨٩٥م(١٤)، عانت اليمن من الجدب والقحط وألزم أهالي صنعاء بدفع إعانة قدرها أربعة وعشرون ألف ريال رغم ما كانوا يعانونه من الشدة والضيق. وقد لجأ معظم المأمورين الأتراك إلى إرهاب الأهالي وأبرزهم كان مرزاح الذي سجن الكثيرين وقام بإهانة الزعماء مما ساعد على بروز مقاومة سرية يمنية كانت تقوم بوضع ألغام البارود والمتفجرات حول بيوت المأمورين الأتراك الذين عرفوا بالظلم. وقد أرهبت هذه المقاومة العثمانيين الذين كانوا يلجؤون إلى اعتقال أهالي المنطقة التي يقع فيها الانفجار(١٥). وهناك عدة مراسلات تبودلت بين الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى والوالي. العثماني أحمد فيضي باشا، وقد دافع فيها الإمام عن حقوق اليمنيين مبيناً ظلم الموظفين الأتراك لهم. واقترح جلاء الأتراك عن اليمن أسوة بالكثير من الممالك الأوروبية التي رفعت الدولة العثمانية يدها عنها وأنه من الأجدر أن تترك اليمن للأئمة الزيديين، ولكن المراسلات لم تسفر عن أي اتفاق حتى تم عزل أحمد فيضي باشا عام١٨٩٧م وحل محله الوالي حسين حلمي باشا الذي استبشر به أهالي اليمن خيراً لأنه وعدهم بإقامة العدل. وفي الحقيقة إنه

خلال حكمه تم الكثير من الإصلاحات فقدم لفقراء صنعاء معونات مالية وقد عرف أنه محب للعلم والعلماء. ولهذا أسس إدارة المعارف وداراً للمعلمين، وقرب إليه العلماء وشكل إلى جانبه هيئة من أهل العلم والسياسة لمساعدته في إدارة أمور اليمن، وأصدر أوامره في عام١٨٩٨م بمنع الرشوة ومعاقبة المسيئين. وصاحب فترته هدوء نسبي ولكن سرعان ما عزل وعيّن بدلاً منه عبد الله باشا والي المتكبر المولع بالموسيقى والطرب والرفاهية، فاهتم بإقامة نصب تذكاري للحكم العثماني باليمن وبمد أسلاك البرق خاصة بين تعز وصنعاء[١٦]. ولم تنعم اليمن خلال حكمه بالهدوء إذ عم الفساد ونشطت القبائل ثانية في محاربة الأتراك وخاصة قبيلة الزرانيق وظلت الأوضاع سيئة حتى عزل وعين خلفاً له توفيق باشا عام١٩٠٢م واستمرت حالة الفوضى بالبلاد حتى وفاة الإمام المنصور بقفلة عذر عام١٩٠٤م وقد تسلم الحكم من بعده ابنه الإمام يحيى حميد الدين.

خامساً: حكم الإمام يحيى حميد الدين بين عامي(١٩٠٤-١٩٤٨م):

ولد الإمام يحيى حميد الدين في صنعاء عام١٨٦٩م. ونشأ في كنف والده الإمام المنصور، وبدأ يمارس القيادة السياسية والعسكرية في ظل حكم اتسم بالاضطراب والمقاومة ضد العثمانيين. فمنذ أن بويع بالخلافة عام١٩٠٤م وأطلق عليه لقب "المتوكل على الله" بدأ تنظيم المقاومة ضد الأتراك، فهاجمهم في صنعاء ودخلها في٢١نيسان عام١٩٠٥م. ومن أول خطواته أنه لم يعترف بالاتفاقية التي وقعت بين بريطانيا والباب العالي حول تعيين الحدود ما بين الممتلكات العثمانية في اليمن والانجليزية في عدن[١٧].

ويمكن تقسيم حكم الإمام يحيى إلى ثلاث مراحل:

(١) مرحلة مقاومته ضد الأتراك منذ عام١٩٠٤حتى١٩١١م ليتعرفوا له بالزعامة الدينية.

(٢) مرحلة ممارسة الحكم في ظل السيادة التركية بين عامي(١٩١١-١٩١٨م).

(٣) مرحلة تسلم حكم اليمن المستقل بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وهي تمتد ما بين عام١٩١٨م وحتى وفاته عام١٩٤٨م.

(٤) لقد اتسمت المرحلة الأولى بالمقاومة المسلحة ضد الأتراك. ولكن منذ عام١٩١٠م استطاع حسن تحسين باشا الوالي العثماني أن يتوصل إلى

عقد صلح مع الإمام يحيى تألف من عشرين بنداً وقد نظمت بموجبه العلاقات بين الإمام والسلطات العثمانية، وأبرز الشروط التي تقدم بها الإمام للوالي العثماني:

أ.) أن تطبق الأحكام وفقاً للشريعة الإسلامية وعدم تولية أحد من أهل الكتاب على المسلمين.

ب.) أن يعود للإمام حق عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم.

ج.) أن يترك للإمام حق معاقبة الخائنين والمرتشين.

د.) أن يشرف الإمام على الأوقاف لينفق منها على التعليم ويترك للدولة أمر المحافظة على أمن اليمن الخارجي من اعتداء الدول[١٨].

لكن الدولة العثمانية رفضت هذه الشروط لأنها من وجهة نظرها تنتقص من حقوقها وسيادتها، الأمر الذي أعاد الاضطرابات إلى البلاد. فأرسلت الوالي عزت باشا الذي توصل إلى عقد اتفاق دعان عام١٩١١م مع الإمام[١٩]. وقد نص الاتفاق على الاعتراف باستقلال اليمن داخلياً خاصة بشأن تطبيق الشريعة. وأصبح للإمام حق انتخاب حكام المدن والقضاة وأعضاء محكمة الاستئناف. وأصبحت الأموال الأميرية تجبى بحسب الشرع على أن يدفع الإمام العشر للدولة[٢٠]. وبذلك نظمت العلاقة بين إمام اليمن والدولة العثمانية.

١. **السياسة الخارجية للإمام يحيى حميد الدين:**

ما أن أصبح الإمام يحيى حميد الدين سيداً على البلاد حتى وجد نفسه محاطاً بالمتاعب بخاصة من جاره الإدريسي في عسير وابن سعود في نجد[٢١] والإنجليز في عدن. وكانت إيطاليا دائماً تنظر إلى اليمن كمجال واسع لتوسعها التجاري والسياسي. ويكفي أن تضع قدمها على شاطئ اليمن المواجه لإرتيريا في مضيق باب المندب، حتى تهدد شريان الحياة البريطاني. وكانت بريطانيا ترغب بإبقاء طريق الهند بعيداً عن متناول الدولة الأوروبية، فلجأت إلى الدبلوماسية وأرسلت جلبرت كلايتون في٢٥كانون الثاني حتى٢١شباط عام١٩٢٥م لمفاوضة الإمام بشأن احتلال بريطانيا لمناطق متاخمة لعدن ومأهولة بقبائل عربية. لكن المفاوضات لم تنجح. أما إيطاليا فكانت موفقة أكثر في علاقاتها مع الإمام إذ قام حاكم أرتيريا جاسباريني عام١٩٢٦م بتوقيع

معاهدة صداقة مع الإمام في صنعاء مدتها عشر سنوات وهي أول معاهدة أوروبية تعترف بالإمام ملكاً على اليمن وكان للضابط الطيار الإيطالي الكابتن اريجوني شرف إنزال أول طائرة في صنعاء وإهدائها إلى الإمام. ونتيجة اهتمام الإمام بالطيران أسس مدرسة في صنعاء لكن موت أحد أعضاء البيت الحاكم في حادث طائرة جعل الإمام ينصرف عن فكرة الطيران[٢٢]. بيد أن العلاقة تطورت بين الإمام وإيطاليا في عام١٩٢٧م حول مد الإمام بالأسلحة والطائرات والذخائر ليحمي نفسه من تهديدات ابن سعود. وفي أواسط الثلاثينيات تعززت المصالح الإيطالية أكثر حتى أن الإمام اعترف بشرعية سيادة إيطاليا على الحبشة وتوصل معها إلى اتفاق تعهدت فيه باحترام استقلال أراضي اليمن. كذلك كان لليابان نشاط تجاري مع اليمن بين عامي(١٩٣٣-١٩٣٩م) إذ استطاعت أن تحتكر ٨٥%من تجارة المنسوجات تاركة بقية النسبة ١٥%لأمريكا وإيطاليا. وقد أرسل الإمام ابنه سيف الإسلام الحسين إلى طوكيو لحضور حفل افتتاح مسجد في اليابان [٢٣]. سعى الإمام يحيى إلى توسيع مملكته فاحتل مأرب ونجران وتوغل في عسير مما أثار خلافاً بينه وبين ابن سعود أدى إلى نشوب القتال بينهما ثم وقعت معاهدة الطائف في٢٠أيار عام١٩٣٤م وهي معاهدة أخوة عربية مدتها٢٠سنة وكان الغرض منها إقامة الوفاق بين الشعوب الإسلامية. وقد تبودلت بموجبها المواثيق مؤكدة على عدم استخدام القوة المسلحة[٢٤]. وازدادت علاقات اليمن مع العالم العربي والخارجي بعد الحرب العالمية الثانية، واشترك الإمام في مباحثات الوحدة العربية وأصبح اليمن عضواً في هيئة الأمم المتحدة عام١٩٤٧م. لكن المعارضة ضد طريقة الإمام يحيى في الحكم ازدادت ولجأ السياسيون إلى عدن وشكلوا فيها جماعة اليمنيين الأحرار. وأصدروا جريدة "فتاة الجزيرة" وانضم إليهم ابن الإمام سيف الإسلام ابراهيم. وتشكلت الجامعة اليمنية الكبرى التي أصدرت مجلة "صوت اليمن"[٢٥]. ثم كانت المؤامرة التي أدت إلى مقتل الإمام يحيى في١٧شباط عام١٩٤٨م وتسليم الحكم من بعده إلى عبد الله الوزير. لكن السعودية ساندت الإمام أحمد وساعدته على تسلم السلطة فحكم البلاد حسب النهج الذي سار عليه أجداده.

٢. السياسة الداخلية للإمام يحيى حميد الدين:

إن فترة حكم الإمام يحيى حميد الدين التي امتدت ما يقارب نصف القرن لهي جديرة بالوقوف عندها. إذ تشكل المنطقة التي خصصت للإمام ثلاثة أقسام السهل الساحلي في الغرب ومنطقة المرتفعات الوسطى ومنطقة الجوف وخولان في الشرق[٢٦]. فخارج المدن كان النمط القبلي هو السائد بينما كان سكان المدن خليطاً من غير القبليين، يعملون بالحرف والتجارة. وكان سكان الجبال ينظرون بعداء تجاه سكان المدن نظراً للتفاوت فيما بينهم في الثروة. ولذلك نلاحظ أن المجتمع قد تشكل من عدة طبقات:

(١)الطبقة العليا طبقة السادة الذين تمركزت كل الوظائف المهمة بأيديهم.

(٢)طبقة القضاة الذين يقاسمون السادة في وظائف الإدارة والقضاء ويحوزون احترام الناس.

(٣)شيوخ القبائل وقد شكل كلٌّ منهم دويلة قائمة بذاتها وكانت الصلة التي تربطهم مع الدولة هي الرهائن.

(٤)طبقة الفلاحين الذين يستمدون مركزهم من خلال ملكية الأرض وملكية صغيرة أو متوسطة وكانوا يقيمون في أحياء خاصة بهم[٢٧].

(٥)طبقة الأخدام الذين كانوا يقدمون الخدمات، بخاصة الترفيهية مثل الرقص والموسيقى. وكان الإمام يحيى يمتلك عدداً كبيراً من العبيد.

وقد انقسم المجتمع إلى مذهبين المذهب السني والمذهب الشيعي. وكان هناك خلافات بين اتباع المذهبين بخاصة بعد أن فرض الإمام الزيدي سلطته على الشوافع وعيّن الزيود في الوظائف المهمة. أما الزي اليمني فهو زي عربي أصيل. فالطبقة الثرية ترتدي عمائم وأثواباً فضفاضة. أما الطبقة الفقيرة فترتدي إزاراً يدعى (الجونلة). ويلتزم اليمنيون في الريف بالقوانين القبلية مثل حماية الغرباء والأخذ بالثأر. أما في المدن فكانوا يعيشون في منازل على شكل قلاع تتكون من عدة طبقات مبنية من اللبن، يسكن الناس الأدوار العليا منها. أما الرعاية الصحية فتعد أمراً غير مألوف. فالمستشفيات كانت مخصصة للجنود العثمانيين. وبعد انتهاء النفوذ العثماني عمل بهذه المستشفيات أطباء أوربيون وإيطاليون. وكانت نسبة الأميّة مرتفعة بين السكان. وكان التعليم يقع على عاتق

العلماء الذين اقتصر تدريسهم على أمور الدين وحفظ القرآن وتجويده ومبادئ القراءة والكتابة. وكانوا يتلقون أجراً كبيراً مقابل خدماتهم التعليمية، ولذلك لم تستطع سوى العائلات الميسورة تعليم أبنائها[٢٨]. وارتكز حكم الإمام يحيى على نظام الرهائن حيث كان يحتجز لديه أولاد الشيوخ والأشراف كضمان لولاء وحسن سلوك آبائهم وذويهم[٢٩]. وقد حاول أن يطوّر مملكته فألغى التقسيمات التركية وقسم المملكة إلى أربع مناطق. وأصر على تركيز السلطة بيده فلم يكن يثق إلا بابنه أحمد ولي العهد[٣٠]. واتبع الإمام سياسة العزلة الخارجية، فرفض السماح بإقامة هيئات دبلوماسية في اليمن لأنه كان يعتبر ذلك تمهيداً لمؤثرات واتصالات ومن ثم امتيازات قد تؤدي إلى تغلغل النفوذ الأجنبي[٣١]. ولم يكن مسموحاً لليمنيين بمغادرة البلاد إلا بإذنه. وفي أوائل الثلاثينيات سمح لبعثة من الشباب اليمني بالذهاب إلى العراق لطلب العلم. وبعد عودتهم وضع قيوداً ثقيلة على أساليب الاستفادة من قدراتهم[٣٢]. وبعد رحيل الأتراك حاول الإمام بناء جيش نظامي صغير لسحق التمردات التي تنشب ضده. وقد وافق ٣٠٠ضابط تركي على البقاء في اليمن. وبدئ بتشكيل جيش الإمام في صنعاء الذي استخدم الثكنات العسكرية التركية، وكان يتكون من وحدات مشاة وفرسان وفرق جماله لخفر الحدود الصحراوية، وحرس القصر الإمامي الذي تكون من ٣٠٠٠جندي مهمتهم حماية الإمام. ويبقى الجندي مجنداً مدى الحياة وتكون الجندية متوارثة في بعض الأسر. أما مرتبات الجنود فهي قليلة وعليهم أن يقوموا بشراء أسلحتهم من الإمام الذي يأمرهم من حين لآخر بإطلاق طلقتين أو ثلاث في مناسبات واحتفالات فيصبح من اللازم عليهم تعويضها وشراء المزيد منها من دار سلاحه[٣٣]. إلى جانب هذا الجيش هناك الجيش الرديف. إذ كان على كل شاب يمني أن يمضي ستة أشهر في الخدمة العسكرية. ولم يكن الإمام راغباً بتكوين جيش قوي نظامي كفؤ، لخوفه أن ينقلب عليه. وكان لهذا الجيش مهمات متعددة منها حفظ النظام وحراسة الإمام وجمع الضرائب وتوصيل الرسائل الحكومية وتنظيف الشوارع أحياناً[٣٤].

سادساً: الإمام أحمد حميد الدين وثورة عام ١٩٦٢:

كانت أصعب فترة واجهها الإمام أحمد منذ تولى شؤون حكم اليمن بعد

مقتل أبيه عام١٩٤٨م هي الفترة الممتدة بين عامي(١٩٥٤-١٩٦٢م) إذ تبلور الخلاف على السلطة بين أفراد الأسرة الحميدية نتيجة للطموح الذي سيطر على عدد من الأمراء وفي مقدمتهم الحسن شقيق الإمام أحمد[٣٥]. وقد أصر الإمام أحمد على نفي أخيه الحسن خارج البلاد، وأوصى بولاية العهد لابنه البدر. وحاولت العناصر الوطنية في اليمن التقرب من ولي العهد البدر للتأثير عليه وإقناعه بضرورة الانفتاح على القوى الجديدة وكسب تأييدها. ونصحوه بأهمية الانفتاح على المعسكر الشرقي. وقد استجاب لهذه الأفكار فزار الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا من أجل التعاون معهما في المجالات العسكرية والاقتصادية. ونتيجة لخوف الإمام أحمد من خطر منافسة شقيقه الحسن الذي كانت تسانده السعودية، قام بعدة إجراءات مثل فتح الكلية الحربية وكلية الشرطة. واستقدم بعثات عسكرية من مصر والاتحاد السوفييتي لتدريب جيشه. وشكل وحدات عسكرية باسم "فوج البدر"، الأمر الذي أثار مخاوف السعودية والمسؤولين الأمريكيين ودفعهم للتعاون مع الحسن شقيق الإمام أحمد، وقد حاول الإمام أحمد تهدئة الأمريكان وإبعاد مخاوفهم فتعاون معهم في تنفيذ عدة مشاريع مثل شق طريق المخا- صنعاء ومشروع كنيدي لمياه الشرب في تعز[٣٦] ومشروع التنقيب عن البترول في الصليف والزيدية. وفي الوقت الذي ظن الإمام أحمد أنه مسيطر على أوضاع اليمن كما كان يدعي، انقض عليه ثلاثة ضباط وهم الشهيد الملازم محمد عبد الله العلفي والشهيد الملازم عبد الله اللقيه والشهيد الملازم محسن الهندوانة[٣٧]. وأطلقوا عليه تسع رصاصات. ولكنهم لم يتمكنوا من قتله وقد شفي من إصابته بعد أن أمضى ثمانية عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً طريح الفراش. وكانت وفاته في١٨أيلول عام١٩٦٢م. وفي اليوم التالي بايع العلماء البدر إماماً، فسارع باتخاذ اجراءات من أجل إجهاض حركات المعارضة، وقام بإصلاحات مثل إطلاق سراح السجناء السياسيين. وأمر برفع مرتبات الجيش. وعين عبد الله السلال رئيساً لحرسه الخاص ولم يكن السلال موالياً له بل استخدم موقعه فيما بعد لتنظيم انقلاب ضده. وعندما توافد شيوخ القبائل على صنعاء لمبايعة الإمام الجديد عقدوا اجتماعاً، لتقديم مطالبهم للإمام مثل بناء المدارس والمستشفيات. وتحسين أحوال البلاد. وكان الشعب اليمني ينتظر من الإمام الجديد سياسة جديدة لكن البدر أكد أنه سيسير

على نهج آبائه وأجداده. وقد أحدث تصريحه هذا ردة فعل بين أوساط الشعب، بخاصة الوطنيين، وفي مقدمتهم تنظيم الضباط الأحرار، مما عجل في تفجير الثورة[٣٨]. وتوجهت الأنظار إلى عبد الله السلال. وكان الضباط الأحرار قد وضعوا خطة محكمة للهجوم على دار البشائر قصر الإمام البدر. وحددوا الموعد في الساعة الحادية عشرة ليلاً يوم٢٦أيلول عام١٩٦٢م ليكون يوم التحرر من عهود الإمامة. وكانت الخطة تقضي بالسيطرة على المواقع الاستراتيجية في صنعاء وتعز والحديدة وحجة، وضرب الحصار حول مقر الإمام واعتقال العناصر الموالية له. وفي الموعد المحدد قامت دبابتان باقتحام قصر البشائر بقيادة الملازم عبد الله عبد السلام صبرة وآخرين وتم احتلال الإذاعة. ونجحت الثورة بالإطاحة بالإمام البدر وإقامة الحكم الجمهوري. وفي٢١تشرين الأول عام١٩٦٢م أعلن دستور مؤقت للبلاد وانتخب السلال رئيساً للجمهورية[٣٩].نجا الإمام البدر من الموت ولكنه كان جريحاً، فالتجأ إلى الجبال حيث القبائل الزيدية. وقامت السعودية بمساندته لكنها أخفقت في إعادته إلى الحكم. وفي١٠تشرين الثاني عام١٩٦٢م وقعت اتفاقية دفاع مشترك بين مصر واليمن. وبفضل المساعدات المصرية، حافظت الثورة اليمنية على كيانها. وبدأت مؤتمرات السلام، فعقد مؤتمر خمر في(٢-٥أيار عام١٩٦٥م) وترأس المؤتمر عبد الرحمن الأرياني. وفي عام١٩٦٧م بينما كان السلال في القاهرة، أذيع نبأ من صنعاء بأن انقلاباً حدث ضد المشير السلال وتألف مجلس جمهوري برئاسة الأرياني وعين محسن العيني رئيساً لمجلس الوزراء. وأصدر العيني بياناً أكد فيه أن الحكومة ستلتزم بمبادئ ثورة ٢٦أيلول عام١٩٦٢م وتمسكها بالنظام الجمهوري. وفي مؤتمر الخرطوم ١٩٦٧ وافقت مصر على سحب قواتها من اليمن بعد أن وثقت أن اليمن باستطاعتها المحافظة على استقلالها وأوضاعها الجديدة. وقامت الجمهورية العربية اليمنية.

سابعاً: التطور الاقتصادي والثقافي في اليمن الشمالي:

رغم أن اليمن بلد زراعي تتوفر فيه التربة والمياه، فإن عوائق كثيرة كانت تقوم أمام الزراعة، منها عدم وجود طرق مواصلات جيدة وانعدام الأمن والطمأنينة. وأبرز المزروعات فيها البن والقات والحبوب. أما الصناعة فهي صناعة تقليدية مثل الدروع والسيوف والخناجر وصناعة الجلود. أما التجارة فكانت تعاني من

صعوبات عديدة. منها قلة المواصلات الخارجية والداخلية إذ كانت الموانئ هي الوسيلة الوحيدة والممكنة للاتصال بالعالم الخارجي، مما زاد ركود التجارة. وكانت السياسة النقدية متخلفة، فقد اعتمد الناس في مبادلاتهم التجارية ريال ماريا تريزا، وكانت هناك عوائق داخلية مثل المكوس الجمركية وعدم وجود شبكات مواصلات جيدة. وأبرز ما تاجر اليمنيون البخور والعطور والتوابل والمعادن والأحجار الكريمة[٤٠]. وأما وارداتهم فهي الملابس والآلات والبترول. وكانت ميزانية البلاد تحت تصرف الإمام منها ينفق على الشؤون الدينية ويتم تحصيلها من خلال العشر والغرامات ورسوم التقاضي ومن رسوم البريد والبرق. ولم يكن في اليمن نظام مصرفي، وكانت المعاملات تجري عن طريق الإمام مباشرةً ونقداً. لكن بعد نجاح ثورة عام١٩٦٢م أنجزت الدولة العديد من المشروعات الحيوية وأبرزها المؤسسات الحكومية مثل البنك اليمني للإنشاء والتعمير فساهم في تأسيس كثير من المشروعات الزراعية. كذلك الشركة اليمنية للتجارة الخارجية والشركة اليمنية لصناعة الأدوية وشركة المحروقات وشركات الكهرباء. وكذلك اهتمت الدولة بكثير من المؤسسات المالية والزراعية والتجارية وقامت الدولة بتشجيع القطاع الخاص حتى نجحت في إنشاء مشروعات عمرانية كثيرة، مثل المستشفيات والمدارس والفنادق. وأولت الدولة التعليم عناية خاصة فأنشأت ٨٠ مدرسة عام١٩٦٦م وجامعة سبأ عام١٩٦٧م وظهرت الصحف مثل "الثورة" و"الجمهورية". كذلك أنشأت مستشفيات ومستوصفات بمساعدة مصر والكويت. وكذلك ساهمت الصين بإنشاء الطريق بين مدينتي صنعاء وصعدة وساهمت الولايات المتحدة بإنشاء مشروع مياه تعز الذي عرف بمشروع "كنيدي للمياه". فكل هذه المساعدات تقبلتها اليمن رغبة منها في بناء نهضتها الحديثة وفيما بعد أصبحت قادرة بنفسها على تطوير مؤسساتها وبناء ذاتها. وأبرز ما أفرزته ثورة عام١٩٦٢م هو القوانين التي أصدرتها الدولة وتتعلق بالأسرة والمرأة وواجباتها فالقانون لم يفرق بين رجل وامرأة بل نظر إلى الجميع نظرة مساواة وأبرز ما جاء في القانون:

(١)الأسرة أساس المجتمع وقوامها الدين والأخلاق الوطنية.

(٢)تكفل الدولة الأمن وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين.

(٣)التعليم حق لليمنيين كافة.

(٤) النساء شقائق الرجال. ولهن من الحقوق وعليهن من الواجبات ما تكفله الشريعة وينص عليه القانون.

وإلى جانب هذا صدرت قوانين تنظيم الأسرة والضمان الاجتماعي والعمل[٤١]. ولقد بدئ بتعليم المرأة رسمياً بعد الثورة، فأقيمت المعاهد والمدارس. وأقيم التعليم غير النظامي "محو الأمية" والتحق به أعداد كبيرة ممن فاتتهم فرص التعلم. وبدأت المرأة تشق طريقها فحصلت على مؤهلات عالية. وبدأنا نجد في المجتمع اليمني الأستاذة والمديرة والممرضة والطبيبة والإعلامية والعاملة والمحامية والصحفية والنائبة في مجلس النواب. ويلاحظ أن الفتاة اليمنية تقبل بشكل كبير على كليات التربية والآداب والتجارة والطب بينما يقل إقبالها على كليات الهندسة والعلوم. لقد قطعت المرأة اليمنية شوطاً كبيراً في ميادين العلم والعمل مقارنة بالوضع التعليمي للمرأة قبل ثورة عام١٩٦٢م.

وهكذا بقيت أوضاع اليمن الشمالي تتطور ببطء حتى اكتشف البترول في حقل ألف على مقربة من الحدود مع السعودية واليمن الجنوبية ومع اكتشاف البترول أعيد بناء سد مأرب وهو أعظم ما عرفه التاريخ القديم وتعهدت دولة الإمارات العربية بإعادة بناء السد على نفقتها الخاصة وهذا سوف يساعد على جعل اليمن بلداً زراعياً من الطراز الأول. إضافة أن البترول يمكن أن يساهم إلى حد كبير في تطور اليمن مستقبلاً.

هوامش الفصل التاسع

[١]) فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن، ١٨٧٢-١٩١٨م، دار العودة، بيروت، ص٤٢.

[٢]) المرجع نفسه، ص٤٣.

[٣]) المرجع نفسه، ص٤٥،

[٤]) عبد الواسع بن يحيى الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث اليمن، ط٢، القاهرة، ١٩٤٧م، ص٢٣٤.

[٥]) أباظة، المرجع السابق، ص٤٧.

[٦]) المرجع نفسه، ص٦٥-٦٨.

[٧]) المرجع نفسه، ص٧٠-٧١.

[٨]) المرجع نفسه، ص٧٧.

[٩]) الواسعي، المصدر السابق، ص٢٥٣.

[١٠]) أباظة، المرجع السابق، ص٩١-٩٣.

[١١]) الواسعي، المصدر السابق، ص٢٧٧.

[١٢]) المصدر نفسه، ص٢٧٨.

[١٣]) المصدر نفسه، ص٢٨٠.

[١٤]) المصدر نفسه، ص٢٨٤.

[١٥]) المصدر نفسه، ص٢٨٢-٢٨٣.

[١٦]) المصدر نفسه، ص٢٨٩.

[١٧]) British Decments on origns of the war 1898-1914. Edited by G.B Gooch and horoldTemperley L tt.D.G.B.A. vo1 x part II No 211 p.430-431.

[١٨]) جلال يحيى، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر،١٩٦٥م، ص٧٩-٨٠.

[١٩]) أباظة، المصدر السابق، ص١٦١.

[٢٠]) يحيى، المرجع السابق، ص٨١.

[٢١]) أوراق نبيه العظمة، القسم الخاص مديرية الوثائق التاريخية وثائق غير منشورة.

[٢٢]) أريك ماكرو، اليمن والغرب، ١٥٧١-١٩٦٢م، ترجمة حسين عبد الله العمري، ١٩٦٧م، ص١٣٤-١٣٨.

[٢٣]) ستون وليمز، بريطانيا والدول العربية، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مكتبة الأنجلو

المصرية، من دون تاريخ، ص٢٠٦.

[٢٤] سيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العامة، ١٩٦٧م، ص٤٠٤.

أيضاً: صحيفة البلاغ، العدد٤٦٧٥، تاريخ٢٣/١٢/١٩٣٤م.

[٢٥] أحمد قائد الصائدي، حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، ص٢٤٧- ٢٥٠.

[٢٦] ادجار اوبالانس، اليمن والثورة والحرب حتى عام١٩٧٠م،. ترجمة عبد الخالق محمد لاشيد، دار الساقي، بيروت،ط١، ١٩٨٥م، ص٤١.

[٢٧] محمد سعيد العطار، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، حقوق النشر الوطنية، ط١، ١٩٦٥م، ص١١٤-١١٧.

[٢٨] ادجار اوبالانس، المرجع السابق، ص٥٣.

[٢٩] سالم، المرجع السابق، ص٤٧٠.

[٣٠] أوراق نبيه العظمة، القسم الخاص ٢٢٦، مديرية الوثائق التاريخية، وثائق غير منشورة.

[٣١] نزيه مؤيد العظم، رحلة في البلاد العربية، ص١٠٥.

[٣٢] أوبالانس، المرجع السابق، ص٦٣.

[٣٣] أوبالانس، المرجع نفسه، ص٧٤.

[٣٤] أوبالانس، المرجع نفسه، ص٧٧.

[٣٥] صحيفة النضال، الأحد ٢٩ شباط ١٩٤٨م، مديرية الوثائق التاريخية.

[٣٦] صحيفة ألف باء، العدد ٧٥٦٣، الجمعة ١١ تموز١٩٤٧م.

[٣٧] أسرار ووثائق الثورة اليمنية، أعد الكتابة لجنة من تنظيم الضباط الأحرار،مكونة من المقدم أحمد الرحومي والمقدم عبد الله محسن، مؤيد، دار العودة، بيروت، دار الكلمة صنعاء، ١٩٨٧م، ص٤١-٤٦.

[٣٨] أسرار ووثائق الثورة اليمنية، ص١٦٥.

[٣٩] فرد هوليداي، الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، ترجمة حازم صياغة وسعد محيو، دار ابن خلدون، ص٥٨.

[٤٠] عدنان ترسيسي، اليمن حضارة العرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٣٥.

[٤١] مجلة دراسات يمنية،"واقع المرأة اليمنية في الجمهورية اليمنية"،تصدر عن مركز البحوث اليمني، صنعاء، العدد٤٦، ص٢٠٠-٢٠١.

جامعة دمشق
Damascus University

أولاً: الأوضاع العامة للساحل العماني حتى عام١٨٤٠م:

تطلق هذه التسمية على ذلك الجزء من الجزيرة العربية في الخليج العربي الممتد من عمان إلى قطر. وتنقسم هذه المنطقة إلى عدد من الوحدات السياسية التي يمكن ترتيبها من الشمال إلى الجنوب على النحو التالي: أبو ظبي، دبي، الشارقة، العجمان، أم القوين، رأس الخيمة، والفجيرة. وكان الكابتن بريدوكسPrideauxأحد ضباط البحرية الهندية قد اقترح تسمية الساحل العماني الذي تطل عليه هذه المشيخات باسم الساحل المتصالحTurcial Coast[١] أو الساحل المهادن، لأن جميع هذه المشيخات كانت مرتبطة بمعاهدات واتفاقيات مع بريطانيا بدأتها منذ عام١٨٠٦م. وبالرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تعدها إمارات مستقلة، لكنها في الحقيقة كانت أقرب إلى المستعمرات البريطانية منها إلى الوحدات السياسية المستقلة. نجحت بريطانيا في تفتيت هذه المنطقة المحدودة السكان والمساحة إلى سبع وحدات تابعة لها، من خلال عملها على تشجيع النعرات القبلية وتعميق النزعات والخلافات بين الشيوخ الذين كانوا يصلون في مشاحناتهم إلى حد القطيعة بالرغم من القرابة التي تربط معظمهم[٢]. ينتمي سكان هذه المشيخات إلى قبائل بني إياس وآل بو فلاسة وآل بوعلي والقواسم. فاتحاد القواسم ضم سكان الشمال. واتحاد بني إياس العربي.ضم سكان الجنوب وغالباً ما كان يتميز القواسم بالقوة البحرية، أما بنو إياس فتميزوا بالقوة البرية[٣]. ويعيش إلى جانب العرب الذين يشكلون الأغلبية العظمى من السكان بعض الفرس والهنود والزنوج. ومن المعروف أن هذه المشيخات كانت تفتقر إلى المياه ما خلا بضعة أجزاء قليلة توضعت فيها الآبار. وكانت الزراعة تقتصر على النخيل وخاصة في أبو ظبي، بالإضافة إلى بعض أشجار الفاكهة، كما اشتغل سكان المشيخات برعي الإبل وصيد اللؤلؤ. أدرك الإنجليز خطر "القواسم" على نفوذهم فقد كتب المقيم البريطاني في البصرةماينسيتي إلى حكومته حول ذلك مؤكداً " أن خطرهم أكبر على بريطانيا من خطر الفرنسيين، وقوة القواسم هي حاجز يحول دون هيمنة بريطانيا على المنطقة ". لذلك أرسلت بريطانيا أولى حملاتها في حزيران١٨٠٥م وتمت هذه الحملة بمساعدة عمانية إذ طلب إمام عمان العون من انجلترا التي استغلت ذلك فحالفته. وقامت حملتها بمحاصرة جزء كبير من أسطول القواسم عند

جزيرة قشم لكن الحرب لم تنشب بين الطرفين، فقد انتهى الأمر إلى توقيع معاهدة عام١٨٠٦م، التي تضمنت ستة بنود تعهد فيها القواسم بعدم التعرض للسفن الإنجليزية في المستقبل[٤]. وبعد فترة تجددت الحرب بينهما فهاجم القواسم السفن العمانية والإنجليزية وكان أسطولهم مؤلفاً من ٦٣سفينة مسلحة تسليحاً جيداً وكانت كل سفينة تحمل بضعة مدافع. وقد وصل عدد محاربي القواسم إلى ١٩،٠٠٠محارب[٥]. في عام(١٨٠٩-١٨١٠م) قام الإنجليز بحملتهم البحرية الثانية ضد القواسم. واشتركت بالحملة قطع من الأسطول البريطاني. وكانت رأس الخيمة هدف الحملة الرئيس حيث جرى قصفها في ٢كانون الثاني، ودار فيها القتال من بيت إلى بيت، وأحرقت ثلاثون سفينة من سفن القواسم[٦]. لكنهم لم يستسلموا، مما زاد الحملات عليهم. ففي عام١٨١٩م قام الإنجليز بحملتهم الأخيرة ضد القواسم بقيادة الجنرال جرانت كير Keir لأن الظروف كانت مؤاتيه لبريطانيا خاصة بعد تدمير الدولة السعودية الأولى عام١٨١٨م على أيدي قوات محمد علي باشا، وكذلك بعد أن تغلبت بريطانيا على الثورات التي قامت ضدها في الهند. ولذلك جاءت حملة الجنرال كير لتضرب أهم قوة عربية وتعيد رسم خارطة الخليج طبقاً لمصالح بريطانيا الاستعمارية. وكان من نتائج تلك الحملة وقوع رأس الخيمة في يد الإنكليز وحرق سفن القواسم، ووقوع ٤٠٠محارب منهم في الأسر، كما أجبرت بريطانيا رؤسائهم، على توقيع معاهدة عام١٨٢٠م[٧] التي تألفت من "١١مادة"، أبرمها الشيوخ مع المقيم البريطاني، وكانت حلقة من سلسلة المعاهدات التي عقدتها بريطانيا لتأكيد سيطرتها على الخليج وقد جاء فيها:

- **المادة الأولى:** تعهد الموقعون بأن يمتنعوا امتناعاً تاماً ونهائياً عن ممارسة أعمال النهب والقرصنة في البحر والبر.
- **المادة الثانية:** فرقت بين النهب والقرصنة وبين الحرب المشروعة ونصت على إعدام المتعاملين بالقرصنة ومصادرة ملكياتهم وأموالهم أياً كانت الدولة التي يقع عليها اعتدائهم.
- **المادة الثالثة:** حددت علماً لكل العرب الموقعين على الاتفاقية وهو "علم أبيض يتوسطه لون أحمر".
- **المادة الرابعة:** تشير إلى أن الحكومة البريطانية ليست صاحبة مطامع

سياسية أو إقليمية في منطقة الخليج. وأنها لا تتدخل في النزاعات والخلافات المحلية المعتادة.

- **المادة الخامسة:** حددت نوعين من السجلات. الأول: سجل لكل سفينة يحدد قياساتها وحمولتها ويوقع عليه الشيخ. والثاني: سجل دقيق للرحلة التي تقوم بها السفينة. وعلى أصحاب السفن تقديم هذه الأوراق لدى طلبها من جانب السفن البريطانية أو غيرها.
- **المادة السادسة:** أن يقيم وكيل عن العرب المتصالحين في المقيمية البريطانية في الخليج، وأن يقيم مبعوث من الحكومة البريطانية بينهم على أن يدفع راتب هذين الممثلين أصحاب المصالح التي يخدمانها.
- **المادة السابعة:** إن عدم التزام شيخ أو أكثر من الشيوخ الموقعين على الاتفاقية لا يعفى بقية الشيوخ من هذا الالتزام.
- **المادة الثامنة:** تحريم الطريقة التي كان يتبعها القواسم في إعدام أسراهم(٨).
- **المادة التاسعة:** تنص على منع تجارة الرقيق بين العرب المتصالحين منعاً باتاً.
- **المادة العاشرة:** نصت على حرية الشيوخ المتصالحين في زيارة الموانئ الأوروبيّة وضمنت لهم الحماية ضد أي عدوان.
- **المادة الحادية عشر:** نصت على ضرورة إعادة توقيع الشيوخ على هذه الاتفاقية من حين لآخر.

ومن الطبيعي أن تختلف شروط معاهدة عام١٨٢٠م عن معاهدة عام١٨٠٦م التي أبرمت مع القواسم، لأنها فرضت من جانب المنتصر على المغلوب الذي تحطمت قوته. وترتب على هذا انهيار الاتحادات القبلية في المنطقة، وظهور إمارات تحمل أسماء إقليمية أو جغرافية. ولم تكتف بريطانيا بوضع أسس التقسيم والتجزئة في المنطقة بل أصبحت بسبب مركزها المتفوق تقف موقف المعارضة لأي حركة من حركات التوحيد، سواء كان مبعثها قوة داخلية أم خارجية. وكذلك عملت على تفكيك الأمارة القوية، كما حدث في الشارقة التي كانت تضم مقاطعات كثيرة، ففصلتها عنها وأعطتها كيانات خاصة، ولجأت إلى تدعيم سيطرتها بوساطة القوة البحرية، واستغلال المعاهدات لتشجيع النعرة القبلية

وإثارة الجفوة بين الحكام، رغم صلات القربى بينهم(٩). من المعروف أنه كان على رأس كل مشيخة من هذه المشيخات حاكم يساعده من يقع عليه الاختيار، من شيوخ القبائل وبعض التجار بقصد التشاور في الحكم. وسوف نقوم بدراسة كل مشيخة على حدة، متتبعين تاريخها منذ نهاية الوجود المصري حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ثانياً: التاريخ السياسي لمشيخات الساحل العماني منذ نهاية الوجود المصري حتى الحرب العالمية الأولى (١٨٤٠-١٩١٤م)

١. **أبو ظبي**:إذا اتجهنا جنوباً، فإن أول مشيخة تقابلنا هي أبو ظبي. وتعد أكبر المشيخات السبع مساحة إذ تبلغ مساحتها ١٦٤٠٠كم٢. ويقال أنها سميّت أبو ظبي نسبة إلى جزيرة صغيرة فيها ظباء كثيرة، وكان اقتصادها يقوم على الملاحة والتجارة وصيد السمك واستخراج اللؤلؤ. ويعود تاريخها إلى نحو مئة عام تقريباً، عندما سكنها أفراد من قبائل بني ياس وبو فلاح والمناصير. وفي عام١٨٣٣م خرج منها فرع يسمى بو فلاسة وانفصل عن بني ياس وأنشأ مشيخة دبي. وكانت العلاقات فيما بينهم علاقات توتر ومشاحنة على الصعيد القبلي. وبين عامي(١٨٣٨-١٨٤٠م) قام حاكم أبو ظبي الشيخ خليفة بن شخبوط بمحاولة لضم واحة البوريمي، لكنه لم يتمكن من ذلك وعاود الكرّة الشيخ سعيد بن طحنون لكن الوهابيين أبعدوه عنها(١٠). واستمر الشيخ سعيد بن طحنون يحكم أبو ظبي ما بين عامي(١٨٤٥-١٨٥٥م) ثم ترك عاصمته ورحل باتجاه جزيرة قيس. وقد أدّى ذلك إلى احتدام الخلاف والتوتر بين أهالي الإمارة مما اضطر كبار العشائر لاستدعاء الشاب زايد بن خليفة من دبي، حيث كان يعيش لدى أخواله من قبيلة السودان. فتسلم الحكم في أبو ظبي واستمر حاكماً عليها منذ عام١٨٥٥م حتى عام١٩٠٩م. ووصلت أبو ظبي خلال عهده أقصى درجات التوسع والنفوذ، حيث امتد حكمه حتى منطقة العديد غرباً. حاول الشيخ زايد بن خليفة تحقيق تحالف بين الإمارة والقبائل في الساحل، تحت لوائه. وكاد ينجح لولا أن تنبهت حكومة الهند إلى اتساع نفوذه، فوقفت ضده وأنهت محاولاته. لقد تهيأت عدة عوامل ساعدت على نجاح الشيخ زايد، إضافة إلى قوة شخصيته وفروسيته وطموحه.

ومن هذه العوامل:

(١) عدم وجود أسباب للصدام بين إمارة أبو ظبي والبريطانيين في البحر، مثلما حدث مع القواسم.

(٢) ورث الشيخ زايد علاقات صداقة تقليدية بين شيوخ أبو ظبي وسلاطين عمان. وكان للصداقة الشخصية التي ربطته بسلطان عمان(١٨٨٨-١٨٩٠م) دورٌ في اتساع نفوذه، أي الشيخ، زايد في إقليم الظاهرة وفي بادية الإمارات.

(٣) اكتساب الشيخ زايد بن خليفة خبرة سياسية بأحوال الساحل خلال فترة إقامته في دبي[١١].

وكان لاحتلال العمانيين للأحساءعام١٨٧١م دورٌ كبيرٌ في وقوف البريطانيين بجانب الشيخ زايد بن خليفة، وتدعيم نفوذه في قرية العديد. ولكن بريطانيا انقلبت عليه في نهاية القرن التاسع عشر عندما بلغت قوته ذروتها وبدأ توحيد الإمارات والساحل. ولعل السبب في موقف بريطانيا هذا، سوء العلاقات بين حكومة الهند والشيخ زايد بن خليفة، وكذلك عدم تقيد زايد بن خليفة بالاتفاقية المانعة لعام١٨٩٢م[١٢]. فقد كتب القنصل الفرنسي بمسقط في تقريره لباريس، في٢٦شباط ١٨٩٦م يشير إلى أنه تلقى خطابين من الشيخ زايد بن خليفة يبدي فيهما تشجيعه للفرنسيين من أجل إقامة علاقات تجارية وسياسية معه. وعرض عليهم ميناء أبو ظبي ليكون محطة لسفن شركة المساجيري ماريتم Mesagerie Maritime الفرنسية. لكن بريطانيا أنذرت الشيخ زايد وطلبت منه إنهاء صداقته مع الفرنسيين. ومع هذا ظلت الاتصالات بين الشيخ زايد والقنصل الفرنسي في مسقط طي الكتمان. وفي عام١٩٠٠م جرت اتصالات بين زايد بن خليفة والحكومة الإيرانية وهنا اتضح للبريطانيين مدى استخفافه واستهانته بقيود الاتفاقية المانعة، الأمر الذي جعل بريطانيا تمارس سياسة مكشوفة ضد خططه وتمنعه من بسط سلطته على إمارات الساحل. ومن الأسباب التي أدت إلى هذا الموقف البريطاني ضد خطط الشيخ زايد بن خليفة، خوف بريطانيا من توحيد الساحل تحت لوائه. في حين أن سياسة بريطانيا التقليدية هي المحافظة على التجزئة وتفتيت الساحل

إلى إمارات مستقلة صغيرة. وهذا ما أكده كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج عام١٩٠٢م حيث أشار إلى مدى تزايد نفوذ الشيخ زايد وأكد أنه إذا لم تحد بريطانيا من نفوذ زايد في الساحل فإن الموقف سيكون محفوفاً بالمخاطر بالنسبة للمصالح البريطانية(١٣). ولقد وقفت بريطانيا بالمرصاد ضدّه وكذلك ضد حكم ابنيه: الشيخ طحنون الذي حكم ما بين عام(١٩٠٩-١٩١٢م)، والشيخ حمدان ما بين عام(١٩١٢-١٩٢٢م) حيث انكمش نفوذ حكام أبو ظبي في إقليم الظاهرة وأصبح قاصراً على إمارة أبو ظبي التقليدية.

٢. **دبي:** تقع مشيخة دبي إلى الشرق من أبو ظبي وهي مشيخة صغيرة تمتد من أبو حايل في الشرق إلى خور جهند في الغرب. وتعد ميناءً رئيساً للبوريمي وشمال عمان. ويؤمها الكثير من البواخر التجارية. وتأتي أهميتها من دور الوساطة التجارية التي تقوم بها بالنسبة لجميع مشيخات الساحل العماني. ينتسب سكان دبي إلى قبائل بني إياس وآل مرة وأبو طاهر. وكانت تابعة لأبو ظبي حتى عام١٨٣٣م ولكن على إثر اغتيال الشيخ طحنون حاكم أبو ظبي، تمكن آل بو فلاسة من الانفصال عنها، واختيار مكتوم بن بطي حاكماً عليهم(١٤) فاستمر في الحكم حتى عام١٨٥٢م. استطاع مكتوم أن يحافظ على استقلال إمارته، ويقف ضد مطامع شيخ أبو ظبي والشيخ القاسمي في الشارقة. وعندما توفي عام١٨٥٢م بمرض الجدري، تسلم الحكم بعده ابنه سعيد بن بطي وحكم حتى١٨٥٩م وتعرض للمنازعات الداخلية خاصة مع "أولاد مكتوم". حاول الشيخ سعيد إقامة علاقات تفاهم مع الحكومة البريطانية، وخاصة عندما جاء المقيم البريطاني للساحل بقصد توقيع اتفاقية السلم الدائمة عام١٨٥٣م(١٥)، وبعد أن توفي الشيخ سعيد خلفه ابن أخيه حشر بن مكتوم(١٨٥٩-١٨٨٦م) ولم يتميز عهده إلا بمحاولاته تأكيد مشاعر الصداقة والولاء لبريطانيا. ومنذ عام(١٨٨٦-١٨٩٤م) بقيت دبي تحت حكم راشد بن مكتوم حيث اعترف به المقيم البريطاني شيخاً عليها. وتشير المصادر إلى خرق معاهدة الصلح مع بريطانيا أكثر من مرة ولم يكن مرضياً عنه. ثم خلفه بعد موته مكتوم بن حشر(١٨٩٤-١٩٠٦م) فكانت سياسته مستنيرة، وحققت دبي في عهده نمواً ملحوظاً وأصبحت ميناء مهماً للملاحة والخطوط التجارية

ووطدت علاقاتها مع بريطانيا. وقد أشار زويمر إلى تطور دبي أثناء زيارته لها عام١٩٠١م حكمها رشيد بن سعيد الذي عرف عهده بكثرة المنازعات مع أم القوين وأبو ظبي والشارقة. وكانت دبي مقر الوكيل البريطاني لجميع مشيخات الساحل ما عدا أبو ظبي التي أقام فيها ممثل بريطاني خاص[١٦].

٣. **الشارقة:** تقع الشارقة إلى الشرق من دبي. وتضم مدينتين مهمتين: الشارقة وخورفكان، وكذلك قريتين كبيرتين هما كلبا ودبا، إضافة إلى ٤٠قرية صغيرة. وتعد مشيخة الشارقة أهم هذه الإمارات وأقدمها بالرغم من أنها لا تشغل أكثر من ١٦كم على الساحل مع أن أكثر المشيخات الأخرى كانت في وقت من الأوقات جزءاً منها. وسيطرت العائلة الحاكمة في الشارقة قبل قرن من الزمان على أكثرية الساحل، ووقفت على قدم المساواة في معاملاتها، مع سلطان مسقط والأمير الوهابي في نجد. وسيطرت على الملاحة في الخليج العربي[١٧]. في أوائل القرن التاسع عشر امتلك القواسم "العائلة الحاكمة في الشارقة". أسطولاً ضخماً ضم ثلاثاً وستين سفينة كبيرة وثمانمائة وثلاث عشرة سفينة صغيرة وكان يعمل في الأسطول قرابة تسعة عشر ألف ملاح[١٨]. ومنذ أن تسلم سلطان بن صقر زعامة القواسم منذ عام١٨٠٣م حتى١٨٥٦م اصطدم بثلاثة أعداء أقوياء: بريطانيا والوهابيين وسلطان عمان وإذا كان قد استطاع الوقوف في وجه سلطان عمان فإنه خسر أمام الوهابيين وبريطانيا. استطاع سلطان بن صقر التوغل داخل أراضي سلطنة عمان عام١٨٠٨م وأسس لأولاده إمارات جديدة، فأعطى لابنه ماجد كلبا ونصب ابنه أحمد على دبا. واتخذ ميناء الشارقة عاصمة له وجعل عمه حسن بن رحمة نائباً له على رأس الخيمة. ثم ما لبث أن واجه هزيمة على يد الوهابيين انتهت بأسره ونفيه إلى الدرعية، وتنصيب الوهابيين لابن عمه حسين بن علي حاكماً وهابياً. تمكن سلطان من الفرار من الدرعية والتجأ إلى سلطان مسقط الذي وجد في ذلك فرصة مناسبة للانتقام من حاكم رأس الخيمة، بمساعدة الأسطول البريطاني، فشارك في الحملة البحرية عام١٨٠٧م ضد رأس الخيمة، حيث قصفت مدة ثلاثة أيام قبل احتلالها، وأغرقت سفن القواسم. وجرى أسر حسن ابن رحمة وأعيد سلطان إلى حكم الشارقة. لكن سرعان ما استعاد القواسم

قوتهم بعد فترة قصيرة، فتمكنوا في عام١٨١٣م من بناء أسطول جديد فرض سيطرته على الملاحة في الخليج. وتابع سلطان عمان حملاته الفاشلة ضد رأس الخيمة خاصة مابين(١٨١٢-١٨١٦م) مستعيناً بالإنجليز. لكن الحملة التي جهزتها بريطانيا بمساعدة سلطان مسقط، استطاعت احتلال رأس الخيمة في ٩ كانون الأول عام١٨١٩م وقامت بحرق أسطول القواسم. وأجبرت بريطانيا حسن بن رحمة شيخ رأس الخيمة، والشيخ شخبوط حاكم دبي، والشيخ سلطان حاكم الشارقة، على توقيع معاهدة "٨كانون الثاني١٩٢٠م" وقد وقع عليها أيضاً شيخ البحرين وتعهد الجميع فيها بوقف نشاطهم البحري فقضي بذلك على قوة العرب البحرية في مياه الخليج. وقد تعهد الموقعون على الاتفاقية في المادة الأولى منها أن يمتنعوا امتناعاً تاماً ونهائياً عن ممارسة أعمال النهب والقرصنة في البر والبحر[١٩]. أما المادة الثانية فقد فرقت بين القرصنة والنهب، ونصت على إعدام المتعاملين بالقرصنة ومصادرة ملكياتهم وأموالهم. وحددت المادة الثالثة العلم الذي يرفعه كل العرب الموقعين على الاتفاقية. لكن حكومة بومباي لم تكن راضية عن الاتفاقية التي وقعت بقيادة سير جرانت لأنها عدته قد أفرط في التساهل وكان عليه أن يفرض، شروطاً أكثر قوة وتشدداً مثل عزل الشيوخ الذين يسهمون في القرصنة عن إمارتهم وتعيين بدل منهم أو تحويل كل إماراتهم لحاكم سلطان مسقط[٢٠].
ورغم كل التحفظات من جانب حكومة بومباي فإنها سمحت بإقرار هذه الاتفاقية. اتخذ الشيخ سلطان بن صقر حاكم القواسم من الشارقة عاصمة أخرى له إضافة إلى رأس الخيمة وقد سيطر على الأحداث السياسية في ساحل المشيخات رغم المشاكل الداخلية في إمارته. وسرعان ما تطورت الشارقة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وخاصة بعد أن اختارتها الحكومة البريطانية مقراً لوكيلها السياسي المحلي منذ عام١٨٢٣م حيث أصبحت مركزاً سياسياً واقتصادياً في ساحل المشيخات خلال القرن التاسع عشر. لكن أسباب الضعف تكاثرت على إمارة القواسم وعملت على إضعافها، وخاصة الخلافات على الحكم التي نشبت بين أبناء الشيخ سلطان بن صقر وكانت سبباً من الأسباب الأساسية في ضعف إمارة القواسم. وظهرت الثورات

في أنحاء الإمارة بهدف الاستقلال عن حكم سلطان بن صقر وخاصة في منطقة رؤوس الجبال وفي الفجيرة. ولا شك أن عداء القواسم للبريطانيين وعدم اعترافهم بمسألة الأمن البحري البريطاني في الخليج، وتحديهم المستمر لبريطانيا قد أثار ضدهم عداء حكومة الهند خلال القرن التاسع عشر. وقام البريطانيون بإجراءات عديدة ضد القواسم لتثبيت سيطرة حكومة الهند. وكان هذا أحد أهم العوامل التي أدت إلى ضعف الإمارة. ومن يتأمل اتساع رقعة مشيخة القواسم، حيث يقع جزء مها على ساحل المشيخات والأجزاء الأخرى على خليج عمان، يفصل بينهما مرتفعات جبال الحجر ذات المسالك الصعبة وتسيطر على ممراتها القبائل، يدرك أن أساس اتساع مساحتها واستمرار بقائها، هو القوة البحرية ولا شك أن إنكار الحكومة البريطانية على القواسم استخدام البحر للنقل عجّل في تفكك هذه المشيخة، بخاصة أن قبائل الشحوح كانت تسيطر على ممرات الجبال الأمر الذي عزل حكم القواسم عن بقية المشيخة على خليج عمان[٢١]. وفي عام١٨٥٥م ثارت قبيلة الشحوح ضد القواسم ولم يكن بمقدور الشيخ سلطان بن صقر القاسمي إخضاعهم براً. ولهذا حاول محاصرة موانئهم، إلا أن تدخل الكابتن فلكس جونز Felix Jones المقيم السياسي في الخليج وطلبه من الشيخ سلطان بن صقر عدم نقل قواته بحراً وإجباره على فك الحصار، كل ذلك أدى إلى أن تصبح معظم أراضي القواسم في منطقة الشميلية على خليج عمان خارج سيطرتهم. وقد ازداد الوضع سوءاً في الإمارة نتيجة الخلافات بين أبناء الشيخ سلطان بعد وفاته، ورغبتهم في الانفصال. ومع ذلك عد حكام الشارقة المتعاقبون أنفسهم رؤساء المشيخة والمسؤولين عن سلامتها. ومن هؤلاء كان الأخوة، بالتتالي: الشيخ خالد بن سلطان(١٨٥٦-١٨٦٨م) والشيخ سالم بن سلطان(١٨٦٨-١٨٨٣م)والشيخ صقر بن خالد بن سلطان(١٨٨٣-١٩١٣م) والشيخ خالد بن أحمد بن سلطان(١٩١٣-١٩٢٤م)[٢٢]. وتميز عهد الشيخ خالد بن سلطان بالثورة ضد قبيلة الشرقيين في الفجيرة التي رفضت دفع الجزية للقواسم. ولم يستطع الشيخ خالد تحقيق آماله في توحيد إمارة القواسم أو استعادة كيانها، لسببين:

- عداء بريطانيا له وتحطيمها لقلعة الزورا نتيجة تحالف الشيخ خالد بن سلطان مع السعوديين آنذاك.
- المعارضة التي لقيها من الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي القوي. وفي عام١٨٦٨م جرح الشيخ خالد في المعركة مع شيخ أبو ظبي وتوفي على أثر ذلك وتجددت الثورات مع الشرقيين في الفجيرة واستمر تدهور الأوضاع في الإمارة مع أبو ظبي إلى أن تمت تسوية النزاع بوساطة المقيم البريطاني في بوشهر روس في عام١٨٨١م. وأعطيت السيادة على الفجيرة للشيخ سالم بن سلطان لكن الشيخ صقر بن خالد خلع عمه أثناء غيابه، وأعلن نفسه حاكماً على الشارقة واعترفت بذلك بريطانيا. واستمر حكمه ثلاثين عاماً حصل خلالها على رضا بريطانيا[٢٣]

وفي نهاية القرن التاسع عشر، لم تعد قبيلة القواسم قادرة على تهديد مصالح بريطانيا كما كان الأمر سابقاً، وذلك بسبب ضعف إمارتهم وتفككهم، بخاصة أن بريطانيا كانت قد نجحت بالضغط على القواسم عام١٨٦٩م وأجبرتهم على توقيع اتفاقية سلام بحرية ثالثة، تعهدوا بموجبها بعدم القيام بهجمات عسكرية فيما بينهم وعدم تأجير أي قطعة أرض من أراضي مشيخاتهم دون موافقة بريطانيا. وفي عام١٨٩٢م تم توقيع الاتفاقية المانعة التي تعهد فيها الشيوخ ألا يدخلوا بعلاقات أو اتفاقات إلا مع بريطانيا. وكذلك في عامي(١٩١١-١٩١٢م) تم توقيع اتفاقيات أخرى مع عجمان إضافة إلى الاتفاقيات السابقة، واحتوت كلها كسابقاتها مزيداً من البنود المجحفة بحق شعوب هذه المشيخات. ومن البديهي أن هذه الاتفاقيات كانت ترسخ الهيمنة البريطانية أكثر فأكثر ووفرت لبريطانيا الظروف الملائمة للتدخل بشؤون هذه المشيخات الداخلية والخارجية[٢٤].

٤. **عجمان:** تقع في قلب مشيخة الشارقة. وهي أصغر الإمارات وأهم قبائلها آل النعيم والبوعلي وأبو ماهر وحاكمها من آل النعيم. يعتمد السكان في معيشتهم على الزراعة وصيد الأسماك. حكمها حميد بن رشيد(١٨٣٨-١٨٤١م) ثم عبد العزيز بن راشد (١٨٤١-١٨٧٣م) ثم راشد بن حميد(١٨٧٣-١٨٩١م) ثم حميد بن راشد (١٨٩١-١٩٠٠م)[٢٥] الذي سرعان ما قتله عمه عبد

العزيز وتسلم السلطة، وأكد مباشرة حمايته للرعايا البريطانيين المقيمين في عجمان. ولم يصحب انقلابه هذا أي اضطرابات عامة لكنه طلب من بريطانيا أن تعترف به شيخاً على عجمان. وقدم طلبه للمقيم السياسي الذي اكتفى بالاعتراف به شفوياً فقد دون الحاجة لاعتراف خطي(٢٦).

٥. **رأس الخيمة:** تقع إلى الشرق من أم القوين وهي معقل القواسم قبل عام١٨٢٠م. يتركز معظم سكانها في المدينة ولم تنفصل عن الشارقة التي كانت تتبع لها إلا في عهد صقر بن خالد عام١٩١٩م حيث كان الشيخ صقر قد ولى حميد بن عبد الله ثم ابنه خالد مسؤولين (عاملين) على رأس الخيمة. وبعد وفاة خالد أسند الحكم إلى ولده محمد. وسرعان ما عمت هذه المشيخة الفتن الأهلية، ولم تستقر أوضاعها حتى عام١٩٤٨م عندما نصب عليها صقر بن محمد.

٦. **أم القوين:** تتاخم الشارقة من الشرق. وكانت أقوى المشيخات وأهم قبائلها آل بوعلي. وهي مشيخة صغيرة المساحة، ويعيش سكانها القلائل في واحتين داخلية وخارجية: وأول من حكمها أحمد بن راشد(١٨٢٠–١٨٥٣م) ثم أحمد بن عبد الله(١٨٧٣–١٩٤٠م). وكانت هذه الإمارة كذلك مرتبطة بمعاهدة مع بريطانيا بتاريخ ٨آذار ١٨٩٢م نصت على عدم الدخول بأية اتفاق أو علاقات مع أي دولة باستثناء بريطانيا، وعدم السماح لأي ممثل حكومة بإقامة أية صلات مع أم القوين دون موافقة بريطانيا. إضافة إلى عدم بيع أو رهن أو تنازل أو تأجير أي جزء من أراضي أم القوين لدولة أخرى غير بريطانيا(٢٧).

٧. **الفجيرة:** تقع بين كلبا وخورفكان. عدد سكانها لا يزيد على خمسة آلاف نسمة. سيطر عليها الوهابيون عام١٨٠٩م ثم تبعت لحاكم الشارقة. وفي عام١٨٧٩م ثار أهل الفجيرة وطردوا الحاكم المعين من قبل الشارقة وعينوا مكانه رجلاً من قبلهم، لكن حاكم الشارقة الشيخ سالم ثار ثانيةً واستولى عليها وأسكنها البلوش ثم ما لبثت أمور الفجيرة أن تعقدت واضطرت لدفع الجزية للشارقة عام١٨٨٠م واستمرت أوضاعها غير مستقرة، حتى إن بريطانيا كانت تتدخل لفض النزاعات بينها وبين جيرانها ولم تعترف بها كمنطقة مستقلة إلا في عام١٩٥٢م.

ثالثاً:الأوضاع الداخلية في مشيخات الساحل العماني(١٨٤٠-١٩١٤م):

كان شيوخ الإمارات يمارسون سلطات مطلقة في مشيخاتهم. وكانوا يصلون إلى الحكم إما بطريق الوراثة وأما بالاتفاق. وغالباً ما كانت تستخدم القوة في عزل شيخ وإحلال شيخ آخر بدلاً منه، فتقع الصدامات والحروب من أجل السلطة. وقد عرفت منطقة مشيخات الساحل العماني بكثرة الاغتيالات والفوضى والحروب الأهلية. وهذا عائد إلى الظروف القبلية التي تعيشها المنطقة وعدم وصول هذه المشيخات إلى مرحلة النضج والاستقرار السياسي. إضافة إلى ذلك يجب ألا نغفل دور بريطانيا في زعزعة استقرار هذه المناطق، لأنها كانت تستغل الاضطرابات، وأحياناً تكون المحرضة عليها بطريق غير مباشر حتى تظفر بتحقيق أكبر قدر من النفوذ والسلطة. أما بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية لهذه المشيخات فقد كانت موارد الدخل قليلة وتنحصر في الأتاوات التي كان يفرضها الشيوخ على صائدي اللؤلؤ والتجار، والزكاة المفروضة على النخيل. إضافة إلى ذلك هناك قيمة الإيجارات التي كانت تدفعها الحكومة البريطانية مقابل استخدامها لبعض أراضي الشيوخ، وخاصة في دبي والشارقة وهي بمنزلة قواعد عسكرية أو مطارات للخطوط الجوية البريطانية. ومع أن الدخل الذي يحصل عليه الشيوخ يعد دخلاً كبيراً فإنه لم يستغل لمصلحة تطوير المنطقة، فكانت هذه المشيخات تعاني من نقص في التعليم والخدمات الصحية، ونقص موارد مياه الشرب، لأن شيوخ هذه المنطقة كانوا يعدون إدخال وسائل الحضارة، مثل الأمور الصحية والتعليمية إسرافاً ليس له مسوغ، ولكن اكتشاف البترول فيما بعد، أدى إلى تطور الأوضاع الاقتصادية، إلى ما نعرفه اليوم.

رابعاً: المشيخات والسياسة البريطانية فيما بين الحربين عام(١٩١٤-١٩٤٥م):

تميزت هذه الفترة بكثرة حوادث الاغتيالات التي كانت تقوم بين الشيوخ المتنافسين، وتميزت كذلك بالتغلغل السعودي. ورغم أن بريطانيا كانت على علم بالضغوط السعودية التي تتعرض لها المشيخات، لكن ذلك لم يقلقها لأن هذه الضغوط قد توجهت نحو المناطق الداخلية فقط. هذه الفوضى البالغة والحروب الأهلية التي ميزت تلك الفترة تعود أسبابها إلى ما يلي:

(١) الظروف القبلية التي عاشتها المنطقة.

(٢) عدم وصول هذه المشيخات إلى مرحلة الاستقرار السياسي[٢٨].

(٣) تأثير السياسة على أوضاع المشيخات المضطربة وإن ظهرت أحياناً في صورة المنقذ لها من هذه الأوضاع التي تمثلت بالصراع بين رأس الخيمة ورامس، والصراع بين العجمان والشارقة وبين أبو ظبي وأم القوين والشارقة، وكذلك الصراع بين رأس الخيمة والفجيرة. وجميع هذه المنازعات لم تتوقف حتى عام١٩٤٠م وذلك عائد لتدخل الحكومة البريطانية وعدم تزويد الشيوخ بالذخائر والأسلحة إلا بالقدر الذي يكفي حمايتهم من قبائل البدو الرحل.

ومنذ مطلع الثلاثينات من هذا القرن، طرأت مستجدات كثيرة في سياق المصالح البريطانية في المنطقة. وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تعمل على إحكام سيطرتها عليها بصورة أشد مما كانت عليه من قبل. وارتبطت زيادة هذه المصالح بإنشاء شبكات من الخطوط الجوية البريطانية تمتد إلى الشرق الأقصى عبر الخليج العربي وما تبع ذلك من إنشاء مطارات وبناء قواعد جويّة، وخلق طريق جوي على الساحل العربي للخليج خشية منع الحكومة الإيرانية لطائرات شركة الخطوط البريطانية من المرور تجاه الساحل الإيراني، بخاصة بعدما ساءت العلاقات الإنجليزية مع حاكم إيران رضا خان الذي أرغم الإنجليز على إبعاد المقيم السياسي البريطاني في الخليج من بوشهر في إيران فاستقر في البحرين[٢٩]. كذلك أجرت بريطانيا اتصالات مع شيخ الشارقة الذي وافق على توقيع اتفاقية مع بريطانيا عام١٩٣٢م حول إنشاء مطار لهبوط الطائرات البريطانية. وكان لتلك الاتفاقية أهمية خاصة لبريطانيا لأن شيخ الشارقة يتمتع بمركز مهم بين شيوخ الساحل، بخاصة أن إمارته أصبحت قاعدة للخط الشرقي الواصل بين البصرة وكراتشي. وفي عام١٩٣٤م حاولت بريطانيا عقد اتفاقية جوية مع أبو ظبي ونجحت في ذلك إذ وافق شيخ أبو ظبي على إنشاء مطار في جزيرة صبر بني ياس لكنه عارض إقامته في أبو ظبي كذلك نجحت بريطانيا في عقد اتفاقية١٩٣٨م بينها وبين دبي[٣٠]. كانت بريطانيا تزعم بأنها لا تتدخل بالشؤون الداخلية للمشيخات، ولكن بعد ازدياد التنافس والصراع الدولي على الخليج العربي وخاصة بعد ظهور البترول، لم تعد تخفي تدخلها السافر في ترتيب الشؤون

الداخلية لأهل الحكم في المشيخات، لكي تبقى الدولة الأجنبية الأقوى بين الدول المتنافسة "الولايات المتحدة واليابان وفرنسا وإيطاليا وهولندا". ومن جهة ثانية ساور القلق بريطانيا بسبب وجود دول قومية قوية تحيط بالخليج، الأمر الذي دفعها إلى التصريح العلني بإمكان تدخلها بحراً وجواً إذا تعرضت مصالحها للخطر. مع نهاية الحرب العالمية الثانية، ظهرت تغيرات أشد وضوحاً في الإدارة البريطانية وفي سياستها إزاء الخليج فقد أدى إعلان استقلال الهند وباكستان عام١٩٤٧م إلى إلغاء حكومة الهند البريطانية وبالتالي أصبحت أمور الخليج تدار مباشرةً من قبل وزارة الخارجية البريطانية بدلاً من حكومة الهند، ونقل الإنجليز مقرهم من بوشهر إلى البحرين عام١٩٤٦م[٣١] وهذا دليل على تحول السياسة البريطانية من التركيز على إيران إلى التركيز على الخليج وسواحل الجزيرة العربية مباشرةً.

خامساً: المستجدات الداخلية في المشيخات بعد الحرب العالمية الثانية:

لقد عانت مشيخات الساحل العماني كما ذكرنا سابقاً من مشكلات الحدود فيما بينها. وهذه المشكلات أدت إلى صراعات دائمة. ومما ضاعف خطورة الوضع، عدم وجود حدود متفق عليها فيما بينها أي لم يكن معروفاً أين تبدأ حدود المشيخة وأين تنتهي؟. مما أفسح المجال لادعاءات ومطالبات مستمرة. فمثلاً شيخ أبو ظبي طالب بنصف أراضي دبي. وشيخ دبي يؤكد ادعاءاته في حقه بجزء من الشارقة. هذا بالنسبة إلى الحدود، أما بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية، فقبل اكتشاف النفط لم يكن لشيوخ الساحل موارد ضخمة باستثناء دبي وأبو ظبي. أما بقية المشيخات"عجمان وأم القوين والشارقة والفجيرة ورأس الخيمة" فلم يكن دخلها في مجموعة يتجاوز ٢٥٠،٠٠٠جنيه استرليني ولذلك كانت هذه المشيخات بحاجة ماسة إلى المساعدات، للنهوض بالمستلزمات الاقتصادية والاجتماعية. وإضافة إلى هذه الأوضاع السيئة، كانت بريطانيا تتدخل لحفظ الأمن في الشؤون القضائية. وكان يوجد في الوكالة البريطانية في دبي محكمة خاصة للمشيخات يرأسها قاض بريطاني ينظر في القضايا التي تعرض على المحكمة. وكان لبريطانيا صلاحيات خاصة بالنسبة إلى الأجانب مسلمين وغير مسلمين. ومما تجدر الإشارة إليه أن بريطانيا لم تهتم بتطوير المشيخات إلا في فترة متأخرة. وكانت مرغمة على ذلك، بفعل التيارات القومية العربية التي برزت في المنطقة

وبلغت أوجها خلال الستينات. وبدأت أول محاولات التطوير عام١٩٦٠م بإنشاء مدرسة صناعية في الشارقة وأخرى في دبي عام١٩٦٣م، وأنشئت في نفس العام مدرسة زراعية في رأس الخيمة. وفي عام١٩٦٨م أقيم المعهد المهني في الخليج، وكانت البحرين مقراً له وكانت مهمته تخريج طلاب مزودين بخبرات فنية وتقنية وتجارية وإدارية. وشاركت أبو ظبي في تمويل هذا المعهد وتبرعت البحرين بالأراضي التي أنشئ عليها في جنوب مدينة عيسى بالمنامة[٣٢]. ويعزى إلى مكتب التطوير البريطاني اهتمامه بموضوع مشروعات التنمية. وقد عهد برئاسة ذلك المكتب منذ إنشائه، إلى الشيخ صقر بن محمد حاكم رأس الخيمة ورصدت بريطانيا له مليون جنيه استرليني سنوياً. ولكن الدعم المادي لهذا الصندوق كانت تقدمه البحرين وقطر، وكانت مهمة مكتب التطوير وضع برامج زراعية ومسح مصادر المياه وإنشاء مزارع تجريبية وإنشاء طرق لربط المشيخات بعضها ببعض ومن أهم المشروعات التي تحققت، إنشاء طريق بين دبي والشارقة.

سادساً: العوامل الخارجية ومنعكساتها على المشيخات:

بدأت الجامعة العربية تولي اهتمامات متميزة لمشيخات الساحل العماني، بخاصة بعد أن أصبحت اسرائيل تهرب بضائعها إلى الخليج، فقامت بتوجيه تحذيرات لشيوخ الساحل ووافق حكام كل من دبي وأبو ظبي والشارقة على إنشاء مكاتب للمقاطعة الاسرائيلية في بلادهم. وقد أرسلت الجامعة العربية بعثة إلى إمارات الخليج ووجهت عناية خاصة لبعض الموضوعات مثل:

أ. أخطار الهجرة الأجنبية للمنطقة.

ب. تسوية المشكلات بين الإمارات خاصة مشاكل الحدود.

ج. تنظيم المساعدة العربية المالية للمنطقة.

وأشار تقرير البعثة العربية إلى أن تنظيم المساعدة المادية استثنى قطر والبحرين وأبو ظبي نظراً لوفرة الدخل في تلك الإمارات، وتأتي بعدها الشارقة ودبي. أما الإمارات المحتاجة للمعونات العربية فهي "عجمان وأم القوين ورأس الخيمة والفجيرة". وأكد تقرير البعثة على ضرورة دعم التعاون الثقافي والاجتماعي والصحي مع هذه المنطقة وأكد كذلك على إنشاء مكتب للتنمية يتبع الجامعة العربية. والجدير بالذكر أن الجامعة العربية كانت قد سبقت بريطانيا إلى فكرة

إنشاء صندوق لتطوير إمارات الخليج. ورصدت له خمسة ملايين جنيه، لكن بريطانيا عارضت المشروع[٣٣]، وأبدت اعتراضا شديدا على نشاط الجامعة العربية كونه منافيا للمعاهدات والعلاقات التي تربط بريطانيا بهذه الإمارات. وأصرت بريطانيا أنه من حقها الإشراف على الشؤون الخارجية لإمارات الخليج. واجتمع المقيم البريطاني مع الوكلاء التابعين له في قطر ودبي وأبو ظبي ومع حكام وشيوخ الخليج وطلب منهم إصدار قرارات يعلنون فيها بأنهم يرحبون بإعلانات مجردة من القيود لتطوير إماراتهم. وهكذا استطاعت بريطانيا أن تفوّت على الجامعة العربية فرصة إنشاء مكتب التنمية العربية. وكان أمام شيوخ الخليج إمّا تأييد مكتب التطوير الذي اقترحته بريطانيا وإمّا تأييد صندوق التنمية التابع لجامعة الدول العربية. وكانت النتيجة أن وافقت الكويت على صندوق التنمية العربية. أمّا شيوخ دبي وقطر والبحرين وأبو ظبي، فوافقوا مرغمين، على المشروع البريطاني. وقام جورج طومسن وزير الدولة البريطاني بتوجيه تحذير للحكام في الخليج من مغبة التعاون مع الجامعة العربية. ولم تكتف بريطانيا بذلك بل قامت بإقصاء الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة عام١٩٦٥م لأنه أبدى تجاوبا مع مشروعات الجامعة العربية، وأرغمت الشيوخ الآخرين الذين وافقوا على مشروعات التنمية العربية على إرسال برقيات لجامعة الدول العربية يلغون فيها موافقاتهم السابقة مطالبين أن تكون المساعدات العربية عن طريق مكتب التطوير، وهكذا نجحت بريطانيا في إفشال التعاون العربي مع إمارات الساحل العمان.

سابعاً: قيام الوحدة بين الإمارات والقضاء على التفكك:

إن ظهور دولة الإمارات العربية المتحدة إلى حيز الوجود في٢كانون الأول١٩٧١م، هو تصحيح للأوضاع السيئة التي خلفت التجزئة والتفكك والتي عانت منها منطقة الساحل العماني، وحرصت بريطانيا على استمرارها، كي تضمن وجودها إلى أطول فترة في الخليج. كان ظهور دولة الأمارات استجابة لعوامل الانتماء العربي الواحد بين مشيخات ارتبطت بوحدة التاريخ والجغرافيا واللغة والقرآن[٣٤]وبعد قرار بريطانيا الانسحاب من منطقة الخليج العربي، التي هيمنت عليها ما يقرب من قرن ونصف القرن، ظهرت تيارات تمثلت بمخططات استعمارية ومشروعات استغلالية لمصلحة شركات أجنبية لا هم لها سوى الربح وتبديد الثروة

الوطنية، وأصبحت الحاجة الوطنية إلى مجابهة هذه المخططات العامل الأول في إدراك حكام هؤلاء المشيخات لضرورة الاتحاد في كتلة واحدة قوية قادرة على التصدي الناجح لها. وهكذا تشكل الاتحاد السباعي من "دبي، أبو ظبي، الشارقة، عجمان، الفجيرة، أم القوين، رأس الخيمة" ورغم أن المعوقات هي التي منعت أن يكون هذا الاتحاد تساعيا، أي يضم بالإضافة إلى المشيخات المذكورة كلا من قطر والبحرين، إلا أنه كان من أعظم الإنجازات الوطنية القومية في المنطقة إذ حقق أهدافا اقتصادية وسياسية بعيدة المدى بفضل ما أتاحه للإمارات الصغيرة من فرص الاندماج في ظل دولة واحدة لها وزنها السياسي والاقتصادي، وتتصف بكل مواصفات الدولة الحقيقية، وإلا لظلت هذه الإمارات الصغيرة مشيخات مبعثرة لا وزن لها فإمارات عجمان وأم القوين والفجيرة لم يكن دخلها السنوي يتجاوز عدةآلاف من الجنيهات بينما هناك إمارات غنية كان دخلها يبلغ عدة ملايين من الجنيهات. وبقيام الاتحاد تغير الوضع وساهم في رفع مستوى الإمارات الصغيرة. إذ لا يمكن تصور قيام دولة مثلا في إمارة عدد سكانها ٥٠٠٠نسمة فهذا لايعطيها أي ثقل سياسي أو أي مقومات أخرى.

والسؤال الآن كيف قامت هذه الدولة؟

كان الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي، أول من عرض مشروع إقامة الاتحاد على حاكم دبي الشيخ راشد بن مكتوم. وكان ذلك في لقاء "سميح" في١٨شباط عام١٩٦٨م الذي تمخض عن توقيع اتفاقية ثنائية بين أبو ظبي ودبي عرفت "باتفاقية في دبي الثنائية" وهي النواة الأولى للاتحاد[٣٥]. وقد نصت هذه الاتفاقية على شرطيين هامين:

- **أولهما:** إقامة اتحاد يضم البلدين، ويتولى الإشراف على الشؤون الخارجية والدفاع وتنسيق الخدمات الصحية والتعليمية وغيرها.
- **وثانيهما:** موافقة الحاكمين في أبو ظبي ودبي على دعوة حكام الإمارات الأخرى لمناقشة الاتحاد والاشتراك فيه. ومن ثم دعوة حاكمي قطر والبحرين للتداول حول مستقبل المنطقة والاتفاق فيما بينهم على عمل موحد لتأمين ذلك[٣٦]. كذلك تم في اجتماع (سميح) التوصل إلى تسوية الحدود البحرية بين البلدين حيث نصّ الاتفاق على أن يُضم لدبي مساحة من البحر تقع غربي

آبار فتح. وهذا كان بمنزلة تنازل من الشيخ زايد، استرضاء لشيخ دبي والسعي لإنشاء فكرة الاتحاد وتجاوز العقبات. وممّا يلفت النظر أن اتفاقية دبي جاءت بعد شهر من إعلان بريطانيا الانسحاب من الخليج في نهاية عام١٩٧١. ومن هنا كانت فكرة حاكمي أبو ظبي ودبي تستهدف المحافظة على استقرار الإمارات التسع في(٢٥-٢٧شباط عام ١٩٦٨م) دعا إلى عقد اجتماع موسع فتقدمت قطر بمشروع يجمع الإمارات الخمس الصغرى (الشارقة، عجمان، أم القوين، الفجيرة، رأس الخيمة)في إمارة موحدة. لكن هذا المشروع لاقى اعتراض الحكام الخمسة لاعتزازهم بشخصيتهم حيث أصروا على تحقيق المساواة مهما صغرت رقعة الإمارة أو قل عدد سكانها. غير أن قطر ما لبثت أن تقدمت بمشروع آخر يستهدف إقامة اتحاد يضم الإمارات التسع بقصد توحيد هذه الإمارات وتنسيق سياستها الخارجية وتنظيم دفاع مشترك فيما بينها. ولقد اتخذ المشروع القطري أساسا لاتفاقية اتحاد الإمارات العربية التي وقع عليها الحكام التسعة في ٢٧شباط١٩٦٨م. وصدر إعلان تضمن ١٧مادة كان أبرزها تلك المواد التي نصت على توثيق الصلات والعلاقات بين الإمارات، وتقوية التعاون بينها[٣٧]، وتشكيل مجلس أعلى من حكام الإمارات ووضع ميثاق دائم ورسم سياسة عليا. كذلك أشار الإعلان إلى تشكيل مجلس اتحادي ومحكمة عليا، وشروط تناوب حكام الإمارات على رئاسة المجلس الأعلى، بصفة دورية. وأشار أيضا إلى ممارسة كل إمارة لشؤونها الخاصة. وقد تعرض الإعلان آنف الذكر إلى جملة من الانتقادات أهمها: أن ممارسة كل إمارة لشؤونها الخاصة يعني الاعتراف بالنزاعات المحلية. وقد وجهت انتقادات جديدة حول عزل عمان عن الاتحاد الأمر الذي يرسّخ التجزئة. وللأسف ظهرت خلافات كثيرة خاصة بين قطر وأبو ظبي حول مسألة إعداد جدول أعمال المؤتمر، وحول انتخاب رئيس الاتحاد وتعيين المقر الدائم وإعداد شعار الاتحاد وتوحيد النقد وإصدار جريدة رسمية وعلم ونشيد وطني. وكانت قطر تجد نفسها مؤهلة للقيام بدور قيادي في الاتحاد بحكم أقدميتها في العمل السياسي ولا توجد منازعات حول أراضيها ولا ادعاءات إيرانية كما كان الحال مع البحرين. ويشير وحيد رأفت، وهو المستشار القانوني لدولة الكويت والخبير الدستوري الذي كلف فيما بعد

بوضع الدستور الاتحادي المؤقت، أن هذه الخلافات كانت ستارا لنزعات سياسية واعتبارات محلية. ولذلك أعلنت البحرين فيما بعد الاستقلال كدولة ذات سيادة وكذلك فعلت قطر. فسارعت الكويت للقيام بوساطتها الدبلوماسية بين الأطراف. وقد فسّر موقفها هذا على أنها تتطلع كي لا يكون في المنطقة دولة تهدد وجودها. ويشير بعض المراقبين إلى أن الكويت هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تعطي ولا تأخذ، لأنه ليس لها ادعاءات في المنطقة. وقد قدمت مساعدات فنية واقتصادية وتعليمية لإمارات الساحل، وأثبتت الوساطة الكويتية نجاحها عندما عاد الحكام لاستئناف اجتماعهم من(٦-٧تموز عام١٩٦٨م). وتم بالإجماع اختيار الشيخ زايد بن سلطان رئيساً للدورة. وتعد الدورة الثالثة الي عقدت في الدوحة من(١٠-١٤أيار) خطوة مهمة في تدعيم الاتحاد إذ تمخض عنها عدة قرارات مهمة وهي:

(١) أن يكون للاتحاد رئيس ونائب ينتخبان من بين أعضائه مدة سنتين غير قابلتين للتجديد.
(٢) يستبدل بالمجلس الاتحادي المؤقت مجلس وزاري مكون من١٣وزيراً.
(٣) أن يكون للاتحاد علم موحد يمثله في الخارج وكل إمارة لها علمها الحالي.
(٤) تشكيل لجنة من المستشارين والقانونيين لوضع مشروع دستور مؤقت للاتحاد على أن تفرغ اللجنة من أعمالها خلال شهرين، وتعرض نتائج عملها على خبير دستوري عربي لدراسته وتقديم توصيات للمجلس خلال شهر
(٥) بحث الأسس والقواعد المنظمة لمالية الاتحاد إلى جانب تشكيل لجان مختصة[٣٨].

وتنفيذاً لما نصت عليه قرارات مؤتمر الدوحة، تألفت لجنة من المستشارين القانونيين فوضعت الدستور وعرضته على الخبير العربي الدكتور وحيد رأفت الذي لم يقتصر دوره فقط على مراجعة المشروعات التي قدمت له بل سدّ جميع الثغرات فيها وانتهى من إعادة صياغة مشروع دستور متكامل مكون من ١٥٣مادة موزعة على عشرة أبواب. وأكد الدكتور رأفت أنه لم يتعرض لأي تأثير من أي جهة معينة. وصاغ الدستور بطريقة محايدة تماماً[٣٩]. وخلال اجتماعات المؤتمر الرابع،

أعرب الشيخ زايد عن أمله في تحقيق نجاحات أكثر مما حققته الدورات السابقة. وبالفعل تم في المؤتمر الرابع المصادقة على عدة قرارات منها انتخاب الشيخ زايد رئيساً للاتحاد مدّة سنتين. والاتفاق على أن تكون أبو ظبي عاصمة مؤقتة حتى تبني العاصمة الاتحادية الدائمة بحيث يجري الاختيار بين دبي وأبو ظبي. وتقرر أن يكون التمثيل في المجلس الوطني متساوياً بين جميع الإمارات، وتمثل كل إمارة بأربعة أعضاء. وكذلك تقرر تشكيل وزارة اتحادية. وكل إمارة تتقدم بقائمة مرشحيها. ولكن الموقف تأزم إثر دخول الوكيل البريطاني في أبو ظبي جيمس ترود بل قاعة اجتماعات المجلس الأعلى للحكام، وقرأ رسالة من السير ستيوارت كرافورد Craw Ford(٤٠) المقيم البريطاني في الخليج، يبدي فيها رأي بريطانيا في شكل قيام الاتحاد. وهنا عدّ بعض الحكام، وخاصة حاكما قطر ورأس الخيمة أن هذا تدخل من جانب بريطانيا. لكن الشيخ زايد كان أكثر ليونة فأصدر بياناً بتأجيل الاجتماع إلى موعد آخر. وهناك عوامل داخلية أفشلت مباحثات الدورة الرابعة. فقد اعترض حاكم دبي على ترشيح الشيخ خالد حاكم الشارقة لمنصب رئيس الاتحاد واشترط حاكم رأس الخيمة الحصول على وزارات معينة مثل وزارتي الدفاع والداخلية. ومع هذا استجدت أمور كثيرة أخرى فقد أعلنت البحرين استقلالها في١٤ آب عام١٩٧١م. وتبعتها قطر في١أيلول عام١٩٧١م وعللت انسحابها من الاتحاد بسبب استمرار الخلاف بين الإمارات. واستمرت بعض الخلافات البسيطة بين أعضاء الاتحاد السباعي، حيث اعترض حاكم رأس الخيمة الشيخ صقر القاسمي على تركيز المناصب الوزارية في بعض الإمارات دون غيرها. كذلك ظهرت خلافات حادة بين حاكمي رأس الخيمة والشارقة كان لها أثر كبير في عدم إمكان بقاء الإمارتين في دولة واحدة. وبالرغم من امتناع حاكم رأس الخيمة عن التوقيع على دستور الاتحاد فقد أعلن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في الثاني من كانون الأول عام١٩٧١م من الإمارات الست المتبقية. وأصدر المجلس الأعلى بياناً اختار فيه الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي أول رئيس لدولة الإمارات ومدة رئاسته خمس سنوات. واختير الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي نائباً للرئيس مدة خمس سنوات. ويكون للرئيس ونائبه حق التجديد بعد انتهاء الفترة عام١٩٧٦م شريطة موافقة المجلس الأعلى وهو السلطة العليا في الدولة. وأكد

البيان الرسمي الصادر عن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة أن الدولة الجديدة قامت من أجل توفير حياة أفضل للمواطنين، ولمناصرة القضايا العربية والإسلامية، وتمتين أواصر الصداقة بين جميع الدول والشعوب على أساس ميثاق جامعة الدول العربية والأمم المتحدة[٤١]. ترافق إعلان ظهور الدولة الجديدة مع إلغاء المعاهدات التي كانت تربط إمارات الساحل ببريطانيا. وحرصت حكومة المحافظين البريطانيين على إقامة علاقات صداقة مع الدولة الجديدة. وأصبحت دولة الإمارات العربية الدولة١٣٢ في الأمم المتحدة والعضو ١٨في الجامعة العربية. ولعل من أهم المشكلات الداخلية الخطيرة التي تعرضت لها هذه الدولة الحديثة بعد شهرين من قيامها، هو الانقلاب الذي حصل في الشارقة عندما قام الشيخ صقر بن سلطان الذي كان حاكما سابقا عليها وأطيح به عام١٩٦٥م، مع أعوانه بدخول قصر الشيخ خالد حاكم الشارقة وإرغامه على توقيع وثيقة التنازل لكن أحد أشقاء خالد حاصر القصر وطلب مساندة القوات الاتحادية التي أنجدته وانتهى الأمر بفشل محاولة الانقلاب، حيث دفع الشيخ خالد حياته ثمنا لهذه المحاولة. وبذلك أثبتت الحكومة الاتحادية قدرتها على ردع أي تهديدات داخلية ضدها. وسرعان ما تقدمت رأس الخيمة بعد ذلك بطلب لقبولها عضوا في الاتحاد لتصبح الإمارة السابعة فيه. لقد بذلت دولة الأمارات العربية المتحدة، منذ قيامها جهودا لإلغاء الحواجز الجمركية وتوحيد العملات النقدية، إضافة إلى الاهتمام بالشؤون الداخلية من تعليم وصحة وخدمات اجتماعية أخرى. كما وضعت دولة الامارات خطط التنمية الموحدة في المجالات كافة الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية والعسكرية، وهذا ما ساعد على توثيق الوحدة وتعايش أبناء الإمارات في ظل دولة موحدة، بعيدا عن النزعة القبلية والإقليمية إضافة إلى خلق علاقات إيجابية مع شقيقاتها الدولة العربية الأخرى.

ثامناً: أثر النفط على التطور الاقتصادي والثقافي في الإمارات العربية المتحدة:

(١) **أبو ظبي:** في عام١٩٣٩م حصلت شركة استثمار بترول الساحل المهادن على امتياز التنقيب في أراضي الإمارة لكن سرعان ما توقفت عمليات التنقيب خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. لكن

عاودت التنقيب في عام١٩٤٧م وحصلت على النفط بكميات تجارية عام١٩٥٩م وتحركت أول ناقلة تحمل النفط عام١٩٦٣م من ميناء جبل الظنة إلى الخارج وأطلقت الشركة على نفسها اسم شركة بترول أبو ظبي وهي فرع من شركة نفط العراق ويرمز لها اختصار ADPC وفي عام١٩٦٥م تم تعديل الاتفاق وأمر بمناصفة الأرباح. وفي عام١٩٦٨م عقدت اتفاقية بين أبو ظبي ومجموعة شركات ميتسوبيشي للتنقيب وعلى أن يتم تناصف الشركة في الأرباح والتزمت الشركة بإنشاء مصفاة للبترول بطاقة ٣٠,٠٠٠ برميل يومياً. ويعد النفط العمود الفقري لاقتصاد أبو ظبي إذ تشكل عائداته ٩٧%من الدخل الوطني وتأتي أبو ظبي في المرتبة السابعة بين دول الشرق الأوسط من حيث الإنتاج.

(٢) **دبي:**عملت في دبي شركتان للتنقيب هما"شركةكونتينتال أوف ديلوار الأمريكية" و"شركة مناطق دبي البحرية" المكونة من ائتلاف بين شركتين فرنسية وبريطانية وبدأ باستخراج البترول من بئر الرمالي القريب لإمارة الشارقة مما أثار النزاع بينهما.

(٣) **الشارقة:** هي الثالثة من حيث المساحة والثروة في الإمارات ففي عام١٩٦٨م منح شيخ الشارقة لشركة ألمانية بومين امتياز وكذلك منح امتيازاً لشركة أمريكية وهذا ما يميز اقتصاد الشارقة عدم اعتمادها على البترول فهناك الأوكسيد الأحمر.

(٤) **رأس الخيمة:** منذ عام١٩٦٩م وقع الشيخ صقر بن محمد القاسمي، اتفاقاً مع "شركة هايدروكاربوني" ومنحها حق التنقيب عن النفط على أن توزع الأرباح مناصفة.

(٥) أما في عجمان والفجيرة وإم القوين. فلم يعثر فيها على كميات كبيرة من النفط، ولم تتطور بسبب ضعف مواردها. لكن بعد أن أعلن عن وحدة الإمارات ضمن دولة عربية واحدة وهذا شيء طبيعي لأن وحدة الأرض واللغة والتاريخ والدين قادرة على تجاوز كل الحواجز المصطنعة.

فلقد أوجدت ظروف الحرب العالمية الثانية مواقف وتغيرات جوهرية. ونتيجة لاكتشاف البترول فيها وبكميات ضخمة ازدادت أهميتها الاقتصادية وأصبحت موضع تنافس بين الدول إضافة إلى تيار القومية العربية الهادف إلى تحرير كل بقاع الوطن العربي وتوجيه ثرواتها لمصلحة أهل البلاد. وكان لسياسة التنافس بين الدول الكبرى تأثيرها في المنطقة فكانت بريطانيا تعلم بخطط أمريكا لوراثة نفوذها في الخليج وذلك كانت مدركة أهمية هذه المنطقة فلذلك لم تجل عن البلاد إلا بعد أن قامت حكومة استطاعت ملئ الفراغ وتؤمن مصالحها. ولذلك منذ أن أعلن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة وضعت خطة تطويرية بهدف إلحاق الإمارات بالعصر الحديث وبوشر بتنفيذ المشاريع التطويرية كالماء والكهرباء والخدمات الصحية والمؤسسات الإدارية وتحسين المدن وتطويرها واستغلال الموارد الطبيعية وتطوير كل مناحي الحياة.

تاسعاً: التطور الثقافي في الإمارات العربية المتحدة:

أوضحت تقارير اليونسكو مدى التخلف الذي كانت تعانيه هذه المشيخات في مجال التعليم حيث لم يزد عدد المدارس فيها حتى عام١٩٥٨م على سبع مدارس، وبدأ التعليم في أول هذه المدارس عام١٩٥٣م وهي مدرسة الشارقة، حيث أظهر شيخها اهتمامه بذلك، فأمدته دائرة المعارف في الكويت باثنين من المدرسين. وسميت المدرسة باسم "المدرسة القاسمية" وهي أول مدرسة نظامية في المشيخات. وفي عام١٩٥٤م أعلن عن إنشاء مدرسة ثانوية في دبي، وفي عام١٩٥٦ ظهرت مدرسة في أم القوين ورأس الخيمة. وفي الأعوام(١٩٦٠-١٩٦٤م)ظهرت مدارس في عجمان والفجيرة. كذلك ساهمت الكويت بإرسال بعثة فنية لمسح المنطقة مسحاً اجتماعياً للتعرف على متطلبات الإمارات، وأنشأت لجنة دائمة لمساعدة إمارات الخليج، وهي مساعدات ومنح دون مقابل، وليس لها أية التزامات سياسية. وفي عام١٩٦٣م أنشأت مكتباً لها في دبي. ثم حذت مصر وقطر والسعودية حذوها في تقديم المساعدات التعليمية والفنية لإمارات الساحل العماني. وأكدت الكويت حرصها على توثيق صلتها بالمنطقة بعد الزيارة التي قام بها أميرها صباح للإمارات عام١٩٦٦م. وقدمت هدية ٤٣مدرسة يعمل فيها ٨٥٠مدرساً ومدرسة. كذلك لم يقتصر دور الكويت على التعليم بل شمل كذلك

الخدمات الصحية والاجتماعية والإعلامية إذ ساعدت على إنشاء محطة إذاعة تابعة لها في الشارقة، وكذلك أنشأت محطة تلفزيون في دبي. ومن هنا يتضح دور الكويت في تأييد وحدة إمارات الساحل العماني ودعمها باعتبار أن الوحدة هي الحل الأمثل والأسلم للحفاظ على كيان هذه الإمارات. لقد أدى التعاون العربي في ميدان التعليم في الساحل العماني إلى نشر الوعي بين أبناء الساحل. كما ساعد وجود عناصر من المدرسين من جنسيات عربية مختلفة على تخطي حواجز العزلة المفروضة على الساحل. وزادت معرفة الأهالي بمشكلات الوطن العربي. وأصبح الساحل أكثر إحساساً بالانتماء القومي العربي. وظهر هذا الوعي عند أبنائه جلياً أثناء حرب السويس عام١٩٥٦م إثر موقفهم المؤيد لمصر والرافض للعدوان الثلاثي الذي وقع عليها كذلك استقبل سكان الساحل العماني الوحدة ما بين مصر وسورية عام١٩٥٨م بالحماسة الشديدة. لقد قام التعليم الحديث بدور أساسي في توثيق روابط الإخاء والمودة بين أبناء الساحل والوطن العربي فمثلاً المعلم العربي القادم من الخارج للتدريس كان محل الاحترام والتقدير من قبل الطلاب والآباء والشيوخ. كذلك ساعد إنشاء النوادي الرياضية والثقافية وخاصة في الشارقة على التقدم والتطور. وخلال عامي(١٩٥٤-١٩٥٥م) تطور التعليم في الشارقة ودعي الطلاب الذين أوفدوا للدراسة خارج البلاد للعودة وافتتحت المدرسة القاسمية المعروفة. وقدمت قطر مساعداتها التعليمية حيث أقامت في عام١٩٦١م مدرسة ثانوية في الشارقة سميت "مدرسة العروبة". وفيما بعد أخذ هؤلاء الطلاب بعد إتمام دراستهم الثانوية يوفدون للتعليم الجامعي في القاهرة. ومع بداية عام١٩٦٦م عاد إلى الشارقة أوائل الخريجين من الجامعة. وفيما بعد ظهر النادي الثقافي، نادي العروبة في الشارقة ثم ظهرت صحافة وطنية محلية: مجلة "اليقظة" ومجلة "الخليج". ولما كانت الشارقة رائدة في ميدان التعليم فقد كان منها أول وزير للتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة هو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي. أما في دبي فاستمرت المدرسة الأحمدية برسالتها. واستقبلت دبي المدرسين من الكويت ومصر وقطر. ومع بداية عام١٩٦٢م تم إرسال أول دفعة من طلاب دبي للدراسة في جامعات مصر. لكن التعليم الحديث لم يبدأ في أبو ظبي إلا في أوائل الستينات بخاصة بعد أن تسلم الشيخ زايد بن سلطان١٩٦٦م الحكم، حيث قفز

التعليم إلى درجة متطورة بالقياس إلى الماضي. ويعترف الجميع أنه مع عصر الشيخ زايد، شهد التعليم تطوراً ملموساً. فظهرت المدارس الإعدادية والثانوية، وقدمت للطلاب منح دراسية. وفي عام١٩٧١م بلغ عدد المدارس خمساً وعشرين مدرسة يتعلم فيها ٨٧٩٧طالباً وبلغ عدد المدرسين ٤٣٩مدرساً. وأخيراً لابد من التأكيد أنه برغم الانتعاش المادي الذي تعيشه دول الخليج العربي خلال الوقت الحاضر فهذا الانتعاش يمكن أن يتعرض لانعكاسات خطيرة كالنقص في الانتاج أو ظهور اكتشافات نفطية في مناطق أخرى من العالم. ولذلك فالانتعاش الذي يمكن أن تحققه دول الخليج لن يكون في الاعتماد فقط على البترول وإنما في كيفية استخدامه وتوظيفه في مشروعات إنتاجية وإنمائية تكفل لهذه المنطقة الاقتصاد المستقر في المستقبل.

Damascus University

هوامش الفصل الثامن

[1]) Great Britain F.O.No.67. The persien Gulf London 1920.P.44

[2]) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي ١٨٤٠-١٩١٤، ص٥٠

[3]) Jhone.B.kelly,Britain and the Persian gulf 1795-1880 Oxford clerendon press 1968.P.33

[4]) مركز دراسات الوحدة العربية، تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة، ط١٩٨١،ص٩٢-٩٣.

[5]) Wilson (Arnold) The Persian gulf London 1954 p.207-208.

انظر أيضاً: Morri, James Ajourney through Persia, Armenia and Asia Minor to constontionpole 1809. London 1812.p 373

[6]) عثمان بن بشر، المصدر السابق، ج١، ص١٨٤.

[7]) لوريمر، المصدر السابق، ج٢، ص١٠١٥-١٠١٦.

[8]) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص١٠٢٤-١٠٢٥..

انظر أيضاً:

Atichison c. u. Treaties Engements and sands relating India and Neighbouring countries vo1 X.persia and persienculf Calcutta 1892.

[9]) Great Britain Foreign office public record office F.o.67.Persian Gulf.p44

[10]) عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص٢٧٩.

[11]) محمد مرسي عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، ط١، ١٩٨١م، دار العلم، الكويت، ص١٣٧-١٣٩.

[12]) لوريمر، المصدر السابق، ج٢، ص١١٩٣.

[13]) عبد الله، المرجع السابق، ص١٣٩-١٤٠.

[14]) Selection From Records of the Bombays Government vo1.XXIV

نقلاًعن جمال زكريا قاسم، الخليج العربي ١٨٤٠-١٩١٤، ص ٥٤.

[15]) لوريمر، المصدر السابق، ج٢، ص١١٧٢-١١٧٣.

[16]) غرايبة، المرجع السابق، ص٢٨٠.

[17]) غرايبة، المرجع نفسه، ص٢٧٥.

[18]) لوريمر، المصدر السابق، ج٢، ص٩٨٣.

[19]) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٢٣-١٠٢٥.

Damascus University

(20) المصدر نفسه، ج٢، ص ٠٢٦..

(21) عبد لله، دولة الإمارات، ص١٣٠.

(22) سالم بن حمود السيابي، إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ط١، ١٠٧٦ ص ٣٠٧-٣١١

(23) عبد لله، دولة الإمارات، ص١٣٢-١٣٥.

(24) ر. ف. كليسكوفسكي ف. ألوتسكيفيتيش، المعضلات الاجتماعية الاقتصادية، الإمارات العربية، ترجمة حسان إسحق، دار ميسل، ١٨٧٩، ص٢٠.

(25) لوريمر، المصدر السابق، ج٢، ص١١٧٧-١١٧٨.

(26) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٧٨.

(27) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٩٣-١١٩٤.

(28) F.o. 371 1144. C.F NejdianEnercashments of turical coast under secretary of state C.O. to Fo 24.th July 1926

(29) ر. ف. كليوفسكي، المعضلات الاجتماعية الاقتصادية في الإمارات العربية، ترجمة حسان اسحاق، دار ميسل، ص٢٠-٢١.

(30) جمال قاسم، الخليج العربي، ١٩١٤-١٩٤٥، ص٣١٧.

(31) Clarence, Mann, Abo Dhabi, Birth of an oil sheikhadom, Beirut 1972- p.87-88.

(32) جمال قاسم، الخليج العربي ١٩٤٥-١٩٧١، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٤، ص١٨٣.

(33) قاسم، المرجع السابق، ص١٨٧-١٨٨.

(34) د. أحمد زكريا الشلق د. مصطفى عقيل، قطر واتحاد الامارات العربية التسع في الخليج العربي، ١٩٦٨-١٩٧١، (دراسة ووثائق) الدوحة،١٩٩١م، الوثيقة ٢٢، ص٣٢٢.

(35) وثائق اتحاد الإمارات، إمارة دبي، ديوان الحاكم بيان مشترك ١٨شباط١٩٦٨م.

(36) الشلق وعقيل، قطر واتحاد الإمارات، ص٢٤.

(37) قاسم، الخليج العربي، ١٩٤٥-١٩٧١، ص٣٨٠-٣٨١.

(38) الشلق وعقيل، قطر واتحاد الإمارات، الوثيقة ١٨، ص٢٧٣-٢٧٥.

(39) الشلق وعقيل ، قطر واتحاد الإمارات، الوثيقة ١٤، ص٢٤١.

(40) الشلق وعقيل ، قطر واتحاد الإمارات، الوثيقة ٢٣،ص ٣٣٣.

(41) الشلق وعقيل ، قطر واتحاد الإمارات، الوثيقة ٢٠،ص ٣٠٦.

Damascus University

الفصل العاشر

اليمن الجنوبي ما بين عامي(١٨٣٨-١٩٦٧م)

مقدمة:

أولاً: احتلال الإنجليز لعدن ومقاومتهم

ثانياً: سياسة بريطانيا في عدن والجنوب اليمني

ثالثاً: الحركة الوطنية في الجنوب وقيام ثورة ١٩٦٣م والاستقلال

رابعاً: التطور الاقتصادي و الثقافي في اليمن الجنوبي

هوامش الفصل العاشر

Damascus University

مقدمة:

ينطبق مدلول "جنوب اليمن" على مدينة عدن وعلى عدة إمارات ومشيخات صغيرة يبلغ تعدادها أكثر من عشرين إمارة ومشيخة، أو ما يسمى بجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية. تبلغ المساحة الكلية للمنطقة نحو ١١٢ألف ميل مربع يحدها من الشرق سلطنة مسقط وعمان والربع الخالي، ويحدها اليمن من الشمال والغرب وخليج عدن والمحيط الهندي من الجنوب[١].

أولاً: احتلال الإنكليز لعدن ومقاومتهم:

إن موقع عدن الاستراتيجي[٢] الحيوي كان يستأثر باهتمام بريطانيا. فهي محطة للفحم، ومركز تجاري ومرفأ طبيعي مهم. وقد حاولت حكومة الهند شراء مرفأ عدن من السلطان العثماني لكنه رفض فما كان من بريطانيا إلا أن استغلت ذريعة واهية من أجل احتلال المرفأ فاعتبرت أن السلطان وراء غرق سفينة هندية "ديريادولت" فنظمت حملة بحرية في١٦كانون الثاني عام١٨٣٩م واحتلت عدن وكان قصدهم السيطرة على باب المندب ومن ثم السيطرة على مدخل البحر الأحمر[٣].اتجهت انجلترا للتغلغل نحو الداخل، فمنطقة الجنوب اليمني كانت تعمها الفوضى وكانت مجزأة وتنقصها الوحدة السياسية. فعلى رأس كل منطقة هناك شيخ أو سلطان. والعشائر مشغولة بالتقاتل والحروب فيما بينها بشأن قضايا المرعى والثأر. وكان الحكام في تطاحن مستمر. والقوي يسيطر على الضعيف. وهذه التجزئة والافتقار لسلطة مركزية حالا دون تشكيل مقاومة جدية ضد الإنكليز. وغير أن ذلك لم يمنع سلطان العبدلي من مقاومة بريطانيا، فكانت له محاولة فاشلة عام١٨٣٩م لاستعادة عدن، وهي ردة الفعل العربية الأولى على احتلال انجلترا لعدن[٤]. ومع نهاية شهر كانون الثاني عام١٨٣٩م بدأت بريطانيا تنفيذ سياسة تهدئة في المنطقة لتحقيق مصالحها التجارية والبحرية، فعاهدت عشيرة العذيبي وهي من عشائر لحج، ووقعت معها معاهدة تعهد فيها الفريقان بإقرار السلام والمحافظة على رعايا الطرفين. وفي شباط عام١٨٣٩م عقد الكابتن هينس وهو أول مقيم سياسي بريطاني في عدن معاهدة صداقة مع السلطان محسن فضل وأبنائه. وقد تعهد فيها السلطان بمسؤوليته عن أي أعمال يرتكبها أتباعه. وتعهد بمنعهم من مقاومة بريطانيا مقابل أن تدفع له بريطانيا راتباً سنوياً قدره٦٥٠٠ريال.

ورغم تأكيد صداقته لبريطانيا، فإنه تحالف مع سلطان الفضلي وحاولا معاً استعادة عدن في عام١٨٤٠م إلا أنهما أخفقا وقام الإنجليز بقصف مدينة شقره الفضلية، وتوقفت بريطانيا عن دفع المرتبات لسلطان لحج. وفي ٢١أيار ١٨٤١م هاجم العرب برئاسة سلطان لحج عدن ولكنهم هزموا وكرروا المحاولة في٥تموز عام١٨٤١م إذ قام سلطان العبدلي بالتعاون مع سلطان الفضلي بمحاولة ثالثة لاستعادة عدن، لكن نيران الحامية البريطانية أدت إلى انسحابهما بعد خسارة ٣٠٠رجل[٥]. وقد قامت القوات البريطانية بتدمير قلعة الشيخ عثمان وضرب ساحل الفضلي. وعلى أثر ذلك تعهد السلطان محسن للكابتن هنيس في عام١٨٤٣م بالمحافظة على الهدوء.في عام١٨٤٦م بدأت حركة دينية ضد الإنجليز ترأسها الشريف اسماعيل ابن حسن، فنادى بالجهاد ضد الكفار وتقدم من مكة إلى ضواحي عدن وجمع حوله الأتباع وتلقى المساعدات الكبيرة من قبائل لحج والعبدلي والعقربي والفضلي. وبدأ من مركزه في شيخ عثمان هجومه على عدن. لكنه هزم أمام النيران الإنجليزية. وبعدها انضم إلى جانب سلطان الفضلي الذي كان يتقدم نحو أبين. ثم قتله البدو في مشاجرة عام١٨٤٨م[٦]. ومع ذلك، فقد استمرت المقاومة العربية ضد بريطانيا، ففي عام١٨٥١م قتل ضابط التموين النقيب ميلن وجرح أخرون منهم الملازم ماكفير وهم في رحلة صيد. وفي عام١٨٥٧م أوقفت بريطانيا الراتب عن سلطان العبدلي لأن رجاله كانوا يقومون بنهب البضائع القادمة من بير أحمد إلى عدن وبالمقابل قام السلطان العبدلي باحتلال الشيخ عثمان. لكن بريطانيا استردتها وهدمت قلعتها. وفي عام١٨٦٧م تعهد السلطان العبدلي بوقف الغارات ضد بريطانيا والمحافظة على الأمن في أراضيه. واستمر هذا الاتفاق ما يقارب تسع السنوات. كذلك عقد ارتباط بين السلطان فضل بن محسن والليفاتينت كولونيل مروث ممثل حكومة الهند لإقامة قناة بين الشيخ عثمان وعدن تمد حامية عدن بالمياه. وتكفلت بريطانيا بشق القناة على أن يقوم سلطان لحج بحمايتها ويتقاضى مقابل ذلك روبية واحدة عن كل ١٠٠جالون ماء وفي عام١٨٦٨م اشترت بريطانيا شبه جزيرة عدن الصغيرة. وبعد وفاة السلطان فضل بن محسن عام١٨٧٤م خلفه ابن أخيه. وفي عام١٨٨٢م قام السلطان فضل بن يحيى ببيع منطقة الشيخ عثمان والقناة التي بينها وبين عدن لبريطانيا واستلم مبلغاً قدره"٢٥ألف ريال". وظلَّ

العبادلة مخلصين لبريطانيا واستمرت لحج دعامة من دعائم الوجود البريطاني في اليمن.

ثانياً: سياسة بريطانيا في عدن والجنوب اليمني:

لم يكن استيلاء بريطانيا على عدن هو غاية ما تتمناه بل كان نقطة للتوسع وتأكيد النفوذ في جنوبي الجزيرة العربية والبحر الأحمر وعلى الساحل الإفريقي الشرقي، وكذلك لإبعاد أي نفوذ أو تغلغل دولة أخرى في الخليج. ولقد سلكت بريطانيا مع السلاطين أسلوب المعاهدات الولائية، فمنحت بعضهم رواتب شهرية أو سنوية ومنحت بعضهم الآخر نياشين وألقاباً وهدايا. وكانت المعاهدات الولائية التي عقدتها بريطانيا مع سلاطين الجنوب كلها متشابهة، وتنحصر بتعهد بريطانيا بحماية القبيلة ضد أي اعتداء خارجي. وكانت سياسة الكابتن هينس مبنية على قاعدة: "فرق تسد" لأن حكومة الهند لم تشأ أن تمده بما يحتاج من جنود لحماية عدن. فإذا ثارت قبيلة على الإنجليز لجأ الحاكم البريطاني لإثارة قبيلة أخرى ضدها: "حرض قبيلة موالية على قبيلة معادية وعندها لا تحتاج إلى قوات بريطانية"(٧) هذا ما جاء بكتاب أرسلته إدارة شركة الهند إلى الكابتن هنيس. لكن مع بداية التدخل العثماني في منطقة جنوب الجزيرة العربية عام١٨٧٢م أصبح النفوذ البريطاني مهدداً تهديداً خطيراً. وبدا واضحاً أهمية الانتقال من دور الولاء والعطاء إلى دور جديد، أي إعلان الحماية. وخافت بريطانيا من محاولات الدولة العثمانية استجرار أي شيخ أو سلطان إلى جانبها. وكان ذلك ممكناً لأنه لا توجد نصوص واضحة بالمعاهدات الولائية تمنع هؤلاء الشيوخ من التحول عن صداقة بريطانيا إلى الباب العالي. ولذلك كان اقتراح حكومة الهند عقد معاهدات حماية. فأعلنت بريطانيا الحماية وأصبح الإنجليز حلفاء للسلطان أو الأمير والمسؤولين عن استقلاله وتعهد هؤلاء السلاطين والأمراء بعدم الاتصال أو التعاقد مع أي قوى أو دول من دون موافقة بريطانيا. وتعهدوا بعدم التنازل أو البيع أو رهن أي أرض لأي دولة عدا بريطانيا. والإمارات التي عقدت معها بريطانيا المعاهدات هي الإمارات الشرقية وعددها ست. والإمارات الغربية وعددها عشرون(٨). وقد لعبت بريطانيا دوراً غير إنساني في هذه "المحميات"المشيخات فقسمت المنطقة وجزأتها. ولم تشهد هذه المناطق أي تطور أو تحسن في أوضاعها الإدارية والاقتصادية

والثقافية، بل بقيت مجتمعات متخلفة، تثير بريطانيا التنافس والعداوات بينها، كي تعزز مركزها أكثر. استمرت أوضاع عدن تحت إشراف حكومة بومباي حتى عام١٩٣٧م وبعد ذلك قررت لندن نقل الإشراف لوزارة المستعمرات خاصة بعد أن شارفت الهند على الاستقلال عام١٩٤٦م. ومع هذا التحول، ظلت الروبية الهندية هي العملة المتداولة حتى عام١٩٥١م. حيث حل مكانها الشلن. وقد ازداد سعي الإنجليز، في هذه المرحلة لإحكام قبضتهم أكثر على البلاد نظراً لاحتمال وجود البترول في المنطقة. وفي عام١٩٥٦م انتهز حزب رابطة عدن زيادة اللورد وكيل وزارة المستعمرات إلى عدن وقدم إليه اقتراحات مثل إقامة مجلس تشريعي منتخب. والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية. وتخفيض عدد الموظفين الإنجليز في المناصب العليا. وفي عام١٩٥٧م أعلنت بريطانيا عن قيام مجلس تشريعي جديد ضم١٢عضواً منتخباً وخمسة أعضاء بحكم مناصبهم في الحكومة وستة يعينهم الحاكم العام الذي ظلّ محتفظاً لنفسه بالسلطات التشريعية والتنفيذية. وأصبحت اللغة العربية للمرة الأولى لغة رسمية وبديلة عن الانجليزية في المجلس التشريعي. وأخذت العناصر الوطنية تنتهج أسلوب الإضراب في نضالها التحرري، فحدث مائة وأربعة وثمانون إضرابا عام١٩٥٩م مما عرض الحياة الاقتصادية للخطر(٩). ورغم إقامة بريطانيا لاتحاد الجنوب العربي في عام١٩٥٩م فإن كل إمارة ظلت تحتفظ بأنظمتها العشائرية وحدودها ولم يطل التغيير إلا الشكل فقط، إذ استمرت السلطة بيد بريطانيا وكان الهدف من هذا الاتحاد هو تسهيل أمر البحث والتنقيب عن البترول.

ثالثاً: الحركة الوطنية في الجنوب وقيام ثورة عام١٩٦٣م:

من أقدم الهيئات الوطنية "رابطة أبناء الجنوب العربي" التي تأسست عام١٩٥٠م وكان زعيمها محمد علي الجفري(١٠) قاضي قضاة لحج. بدأ عمله بإظهار العداء لبريطانيا وسانده بعض السلاطين وعلى رأسهم سلطان لحج والأمراء الناقمون على الحكم البريطاني. وكان مقر "رابطة أبناء الجنوب العربي" خارج عدن لكن ذلك لم يمنع من وجود أنصار لها في عدن. فنشأ لها فرع في منطقة العوالق عام١٩٥٢م، وحظيت بدعم مصر التي كانت دائماً تعارض الاستعمار البريطاني واستمرت رابطة أبناء الجنوب حتى ظهر حزب الشعب الاشتراكي فيما

بعد. في عام١٩٥٦م تكون المؤتمر الوطني وفي عام١٩٥٨م تكون الاتحاد الشعبي ثم الاتحاد القومي عام١٩٥٩م. وفيما بعد تكون تجمع الهيئات الوطنية الشعبية وغير ذلك مما لم يكتب له الاستمرار إذ غلبت على بعض رجالها روح المنافسة والسلبية وكان للاستعمار دور كبير في خلق التفرقة بين رجالها. نشطت الحركة الوطنية وبدأت اتصالاتها بالعالم كله وكان مطلب الوطنيين عد عدن جزءاً من الجنوب العربي كله لأنه كانت هناك نداءات تطالب بعدم ربط عدن مع بقية أجزاء الجنوب اليمني لكن الحركة الوطنية طالبت وأصرّت بتوحيد الجنوب في ظل حكومة وطنية. وفي عام١٩٦١م تكون حزب الشعب الاشتراكي الذي كان من أنشط الأحزاب وأكثرها شمولاً فقد احتوى إلى جانب الطبقة العاملة والنقابيين المنظمات الطلابية والنسائية وغيرها من فئات الشعب واهتم هذا الحزب بالقضايا الاجتماعية. وكانت مطالب الحزب القومية واضحة فطالب بإنهاء الاستعمار البريطاني فوراً وبالاتحاد مع اليمن الشمالي[١١] ولكن سرعان ما أصبح هذا الحزب محظوراً وطورد زعماؤه وهرب بعضهم إلى مصر. وقبل أن تبدأ مرحلة الكفاح المسلح، صعّدت الأحزاب المقاومة في مناطق مختلفة مثل دثينة والعوالق العليا والسفلى وكانت المقاومة قد اتخذت شكل اعتراضات وتقديم مذكرات وقطع طرق المواصلات وتخريب الطرقات وردت القوى الاستعمارية على المقاومة بالاعتقال والنفي وقصف القرى والمدن. انطلقت الشرارة في حادثة إلقاء قنبلة في مطار عدن أصيب من جرائها المندوب السامي وقتل خمسة آخرون[١٢]. وأعلنت حالة الطوارئ وحل حزب الشعب الاشتراكي وصودرت أمواله. ساعدت الظروف الداخلية والعربية والدولية على تصعيد الثورة التي خيّبت آمال بريطانيا والتي كانت تظن أن وجودها في عدن يمثل ركيزة الدفاع عن مصالحها في شرق السويس. ولاشك أن اندلاع ثورة ٢٦أيلول عام١٩٦٢م في اليمن الشمالي أعطى دفعاً كبيراً إلى اتخاذ أسلوب جديد، وهو أسلوب العمل المسلح. لذلك بدأت في الجنوب المفاوضات السرية بين التنظيمات التي أعلنت قيام "الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل"[١٣] في١تشرين الأول عام١٩٦٣م. وبدأ أسلوب الكفاح المسلح الذي ارتكز على عنصرين: التنظيمات السياسية داخل عدن. وحرب العصابات في المناطق الوعرة. وكانت تصلها المعونات والأسلحة والذخيرة عن طريق اليمن الشمالي. ولمواجهة

الكفاح المسلح حاولت بريطانيا تدعيم مركز حكومة الاتحاد التي شكلتها بريطانيا بنفسها ودعت ممثلي الأحزاب للمشاركة في الحكم ودعت إلى مؤتمر لندن عام١٩٦٤م وأبدت استعدادها لتحديد موعد الاستقلال وبحث العلاقة بين الحكومة الاتحادية وبين حكام الولايات وانتهى مؤتمر لندن إلى الاتفاق حول المبادئ الأولية مثل تخلي بريطانيا عن عدن وموعد الاستقلال الذي سيكون قبل نهاية عام١٩٦٨م مع احتفاظ بريطانيا بقاعدة جوية لها في هذه البلاد وعلى أثر ذلك أخذت بريطانيا تسلم الشرطة إلى حكومة الاتحاد وبدأت بتشكيل نواة للجيش يشرف عليه سلطان لحج. وعندما كانت حكومة الاتحاد تفاوض الاستعمار البريطاني كانت جموع اليمنيين الثائرين تخط بالدماء مستقبل جنوب اليمن، وكان الشهيد البطل راجح بن غالب لبوزة[١٤] أول من فتح النار على العدو محدداً بذلك انطلاقة الثورة في الجنوب كله. ولقد ساعدت الظروف الداخلية والعربية والدولية على تصعيد الثورة مما خيب آمال بريطانيا التي كانت تعد عدن ركيزة الدفاع عن مصالحها. فانتصار ثورة ٢٦أيلول١٩٦٢م في اليمن الشمالي شجع النضال الوطني في القسم الجنوبي من اليمن مما أجبر بريطانيا على تغيير استراتيجيتها جذرياً فأعلنت بمجلس العموم البريطاني عن نيتها تصفية قاعدة عدن وإعطاء الاستقلال للجنوب. جرت المفاوضات بين بريطانيا والجبهة القومية اليمنية في جنيف وحاولت بريطانيا الاحتفاظ لنفسها بموطئ قدم في جزر بريم وكمران وسوقطرة وجزر كوريا موريا لكنه لم يتحقق لها شيء من ذلك لأن اليمن الجنوبي أصر أن هذه الجزر جزء لا يتجزأ من أرضه. واستمرت المفاوضات ثمانية أيام وبعدها أعلن انتهاء الحماية البريطانية على الجنوب اليمني ثم أعلن مولد جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية في ٣٠تشرين الثاني عام١٩٦٧م عندما خرج آخر جندي بريطاني من الجنوب بعد حكم دام مئة وتسعاً وعشرين سنة، وهكذا كانت عدن أول منطقة في الجزيرة العربية تتعرض للغزو الأجنبي وتصبح مستعمرة بريطانية عام١٨٣٩م وكانت آخر مستعمرة في الوطن العربي تحصل على استقلالها. وهكذا نشأت جمهورية جنوب اليمن وشكلت أول حكومة مكونة من١٢عضواً وأصبح قحطان الشعبي رئيساً لها ورئيساً للوزراء وقائداً أعلى للقوات العسكرية، وقد أعلن في بيانه: "أن الثورة الاشتراكية ستبدأ الآن، وأن الجمهورية ستعمل بشكل وثيق مع اليمن الشمالي

وستتبع سياسة الحياد الإيجابي وستدعم الحركات الثورية في فلسطين والخليج". وفي ٤كانون الأول قبلت اليمن الجنوبي عضواً في الجامعة العربية وأصبحت الدولة الرابعة عشرة فيها ثم انضمت إلى الأمم المتحدة. وبعد الاستقلال جاء دور بناء الدولة فكان عليها أن تحمل مهمات جسام بخاصة أن البلاد كانت متخلفة ضئيلة الموارد وتعاني من التفرقة والتجزئة والكيانات التي اصطنعتها بريطانيا لذلك عمل رجال الدولة على تعزيز وحدة البلاد وتغيير القوانين والتشريعات ولذلك طرقت باب المساعدات المباشرة من الكويت ومصر والجزائر، ومتنت علاقاتها مع الدول العربية بعد أن اعترفت بها كدولة مستقلة. وهكذا كانت ثورة الجنوب بحثاً عن الاستقلال، وكانت ثورة الشمال بحثاً عن الحرية، وكان كفاح كل منهما يكمل كفاح الأخرى ويسجل أنصع الصفحات في تاريخ اليمن المعاصر، وخاصة بعد تتويج الوحدة بين اليمنيين عام١٩٩٠م.

رابعاً: التطور الاقتصادي والثقافي في اليمن الجنوبي:

خلال حكم الاستعمار البريطاني للجنوب اليمني كان الإنتاج مسخراً للمصالح البريطانية فالقطن كان يشحن إلى مصانع لانكشاير في بريطانيا بدلاً من استغلاله في تطوير صناعات النسيج الوطني. وكانت عدن تعتمد على تجارة الوارد والتبادل التجاري، فسيطرت الشركات الأجنبية على أسواقها. والتجار العرب كانوا تجاراً صغاراً إذ تحكمت البنوك الأجنبية في اقتصاد البلاد. ولكون عدن ميناءً حراً، فقد كانت تتقاضى رسوماً على البضائع قيمتها ٣% لكن مع بداية الستينات أخذت أهمية عدن تتناقص لأن تجارتها كانت تعتمد على المؤن مثل السكر والأرز والشاي وقد كانت هي الوسيط الذي ينقل هذه المواد للبلدان المجاورة التي استغنت أخيراً عن دورها كوسيط تجاري وأخذت تستورد ما تحتاجه مباشرةً من الدول المصدرة. أما في الإمارات الأخرى فإن معظم السلطنات والمشيخات فيها كانت تعتمد على الزراعة وتربية المواشي. وأما سكان المناطق الساحلية فقد اعتمدوا على صيد الأسماك. لكن بعد الاستقلال أنشأت الدولة ٢٧مصنعاً مباشرةً وأحدثت تطوراً في تنمية الثروة السمكية واهتمت بالزراعة وأولت اهتماماً خاصاً للملاحة البحرية التي تربط أوروبا وشمال أفريقيا واهتمت بالطيران فأنشأت عدة مطارات في عدة محافظات إضافة للاهتمام بالمواصلات السلكية واللاسلكية.

أما بالنسبة للأوضاع الثقافية:

فلم تعر بريطانيا اهتمامها لتطوير الأوضاع الثقافية في هذه المناطق. ولم تقم بإنشاء مدارس فيها منذ احتلال عدن عام١٨٣٩ حتى الاستقلال عام١٩٦٧م لم تنشأ سوى مدرسة ثانوية واحدة للبنين في عدن تستوعب بضع مئات من الطلبة، ومدرسة ثانوية أخرى للبنات إضافة إلى بعض المدارس الابتدائية. أما في الإمارات والمشيخات فلا توجد سوى المدارس الابتدائية التي كانت عبارة عن كتاتيب تعلم القراءة والكتابة. وكان هدف سياسة بريطانيا التعليمية إعداد موظفين لمكاتب الحكومة علماً أنها خصصت الوظائف الكبرى للأوربيين. وكانت المناهج تدرس باللغة الانجليزية في المرحلة الثانوية. أما المرأة اليمنية فقد عانت الكثير من التخلف والعزلة. ولكن منذ ثلاثينات القرن العشرين، بدأ بعض المتنورين بالدعوة إلى تعليم البنات وفتح مدارس لهن. ومن هؤلاء الأستاذ أحمد الأصنج وهو من "حركة الإصلاح الاجتماعي" فانخرطت الفتاة في التعليم وعملت في التمريض والتدريس. حتى إن بعضهن شاركن في الحركة الوطنية في المظاهرات وتهريب الأسلحة وإيواء الثوار. ولم يقتصر التعليم على فتيات عدن بل شمل فتيات المحميات الشرقية خاصة حضر موت. بعد الاستقلال زادت مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية. وتأسس الاتحاد العام النسائي عام١٩٦٨م، فعمل على رفع مستوى المرأة العلمي والثقافي. والمطالبة بتطبيق حقوقها. ولقد دخلت الفتاة اليمنية ميدان العمل في القضاء وكان ذلك خطوة متقدمة في تاريخ القضاء اليمني. وأهم ما ميز التعليم في المحافظات الجنوبية التعليم المختلط الذي كان الهدف منه إذابة الحواجز الاجتماعية والثقافية بين الرجل والمرأة إضافة إلى مجانية التعليم للبنين بدءاً من رياض الأطفال وحتى التعليم الجامعي. وهكذا بقيت أمور اليمن الجنوبي تتطور نحو الأفضل حتى توجت أوضاع اليمنيين أخيراً بوحدة شطري اليمن(١٥).

هوامش الفصل العاشر

[1]) قحطان محمد الشعبي، الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب اليمن، دار النصر، ١٩٦٢م، ص١١.

[2]) إن اهتمام بريطانيا بعدن يعود إلى أيام حملة نابليون بونابرت على مصر والتي كانت تستهدف الهند وقد أدخلت الذعر في القيادة البحرية البريطانية وفي شركة الهند الشرقية. ولذلك صممت بريطانيا على قطع طريق الجيوش الفرنسية نحو البحر الأحمر. وأثناء ذلك قام الإنجليز باحتلال جزيرة بريم عام١٧٩٩م، وحصلوا من اليمن على إذن بإنشاء مستشفى في المخا لإسعاف بحارتهم. وفي عام١٨٠١م عين مقيم بريطاني في اليمن. وكانت هذه الخطوات التمهيد لاحتلال عدن

[3]) محمد عمر الحبشي، اليمن الجنوبي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ص١٢.

[4]) اريك ماكرو، اليمن والغرب، ص٧٢.

[5]) جاد طه، سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية، دار الفكر العربي، ص١٣٦-١٤٠.

[6]) طه، المرجع السابق،١٤٢.

[7]) Jacob (Harol), kings of Arabia, London Mills and Boon, 1923, p.45

[8]) الإمارات التي عقدت معها بريطانيا اتفاقيات: الإمارات الشرقية وهي سلطنة حضرموت الساحل وحضرموت الداخل وسلطنة المهدة وسلطنة الوجدانية ومشيخة عرقة ومشيخة صورة. أما الإمارات الغربية فهي:سلطنة لحج،الفضلية،الحواشب، الضالع- يافع العليا، يافع الساحل، العوالق العليا، العوالق السفلى، العواذل، العقارب،بيحان،دثينة، ردفان، صهيب، الحضري،المفالحة،الابعوش،القعطبي.

انظر: محمود كامل المحامي، الدولة العربية الكبرى، ص٤٦٥-٤٦٧.

[9]) طه، المرجع السابق، ص٣٦١-٣٧٥.

[10]) حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي، الجنوب العربي والمؤامرات الاستعمارية الجديدة، القاهرة ١٩٦٢م، ص٥٢.

[11]) محمد عمر الحبشي، اليمن الجنوبي، ص٢٩.

[12]) طه، المرجع السابق، ص٤٣٠.

[13]) هوليداي، الصراع السياسي، ص١٤١.

[14]) طه، المرجع السابق، ص٤٣٢.

[15]) مجلة دراسات يمنية، العدد ٤٦، ص٢١٠-٢١١.

Damascus University

جامعة دمشق
وقل رب زدني علما
Damascus University

خاتمة الجزء الثاني

بيّنا، في دراستنا لتاريخ شبه جزيرة العرب المعاصر، سياسة بريطانيا ودأبها المتواصل للسيطرة على الخليج. فالسياسة البريطانية كانت مسؤولة إلى حد كبير عن الوضع المفكك الذي آلت إليه هذه المنطقة. صحيح أن طبيعة التكوين القبلي والنعرات القبلية وغياب الوعي الوطني والقومي عند حكام الخليج كان وراء هذا التفكك ولكن الصحيح أيضاً أن ذلك كان يمكن تلافيه لو وجد في منطقة الجزيرة العربية دولة كبيرة تستطيع أن تخضع هذه الإمارة والمشيخات لحكم واحد. وقد حاول محمد علي باشا إخضاع الجزيرة العربية وتوحيدها. ورحّبت بعض الإمارات بالحكم المصري ترحيباً بالغاً إذ لم يطلب محمد علي جزية كبيرة من الشيوخ والأمراء. وكان من الممكن قيام دولة قوية في هذه البلاد لولا الجهود المتواصلة التي بذلتها السلطات البريطانية للحؤول دون ذلك مثل تهديد الأمراء والشيوخ والحكام وخاصة أمراء البحرين ومشيخات الساحل العماني بالعزل والإبعاد عن الحكم. وكذلك رحّبت معظم إمارات الخليج بالسيادة العثمانية عند امتدادها إلى الإحساء، لكن بريطانيا وقفت ضد نفوذ العثمانيين واستمرت في مدّ نفوذها وسيطرتها على الخليج من خلال عقد معاهدات واتفاقيات غير متكافئة مع شيوخ تلك المناطق، الذين تعهدوا لها بأن لا يرتبطوا بأي دولة غيرها. وهكذا نجحت في التآمر على دولة محمد علي وإبعاده نهائياً عن الخليج وشبه الجزيرة العربية. وكذلك نجحت فيما بعد في إبعاد الدول التي نافستها في النفوذ مثل الدولة الفارسية والدولة العثمانية. وبدأت بترسيخ سيطرتها أكثر عندما شعرت بالنشاط الأوربي الذي أخذ يتغلغل في الخليج في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فاتجهت لاتباع سياسة التفكيك والقضاء على القوى البحرية وقد ساعدها على تحقيق أهدافها ظروف الدولة العثمانية الداخلية والخارجية فأحكمت سيطرتها أكثر واستطاعت إبعاد الدول الأوروبية المنافسة مثل روسيا وفرنسا وألمانيا. وأصبح الخليج العربي أقرب ما يكون إلى بحيرة إنجليزية. لكن أوضاع الخليج تغيرت في فترة ما بين الحربين، وما بعدها نتيجة اكتشاف النفط في كثير من إماراته. وكان ذلك أحد أسباب التهديد التي واجهتها بريطانيا من قبل الشركات الأمريكية التي دخلت الخليج وزعزع وجودها فيه النفوذ البريطاني، بخاصة بعد حصولها على امتياز النفط في الأحساء ومشاركتها في امتياز البحرين. لكن الحركات التحررية

التي شهدها الخليج في عمان والكويت والبحرين خلال الخمسينيات والستينات أقنعت بريطانيا بأن المعاهدات التي عقدتها مع إمارات الخليج منذ القرن التاسع عشر أصبحت لا قيمة لها من حيث مقدرتها على المحافظة على الأمن والاستقرار، فزحف التيار القومي العربي للمنطقة كان له أكبر الأثر وخاصة بعد تأسيس الجامعة العربية وما نص عليه ميثاقها من تعاون الدول العربية مع البلدان التي لم تحرز استقلالها، وكذلك نكبة فلسطين عام١٩٤٨م وما ترتب عليها من زحف آلاف اللاجئين الفلسطينيين للعمل في إمارات الخليج العربي كان له أبرز الأثر في نمو الوعي القومي العربي. ونتيجة للأحداث التي مر بها العالم العربي مثل قيام ثورة عام١٩٥٢م في مصر والعدوان الثلاثي على مصر عام١٩٥٦م، وقيام الوحدة المصرية السورية عام(١٩٥٨-١٩٦١م)، والدعاية المناهضة للإمبريالية كل هذه الأحداث كان لها تأثيرها الكبير في تقويض النفوذ البريطاني وقيام حركات وطنية في الخليج كما حدث في البحرين والكويت فظهرت منظمات عربية تحمل اتجاهات أيديولوجية وأخذت ترتفع أصوات الخليجيين مطالبين بإنهاء الاستعمار البريطاني. وكذلك كان لمصر دور مهم في إدارة الصراع السياسي ضد الوجود الإنكليزي في الجنوب اليمني والخليج. فكانت ثورة اليمن الجنوبي التي دفعت بريطانية إلى التفكير بأن بقاءها في اليمن سيسبب لها الحرج. فأخذت تعجل بالرحيل عن هذه المنطقة، وقد تم ذلك بعد إعلانها الانسحاب من الخليج قبل نهاية عام١٩٧١م. ويشق على النفس أن نكتب عن عصور مديدة ليس فيها إلا السيطرة البريطانية والتحكم والمنافسة بين القوى. لكننا اليوم وبعونه تعالى نكتب وقد تبدلت الصورة. فتمت وحدة الإمارات وتحققت وحدة اليمنيين، وارتفعت رايات الاستقلال الرسمي فوق قطر والبحرين وعمان والكويت والسعودية وانمحت الصورة القديمة واستقام الطريق أمام سكان الخليج والجزيرة العربية ليأخذوا مكانهم اللائق بين أبناء الأمة العربية.

Damascus University

خرائط الكتاب

المحيط المتجمد الشمالي
غرينلنده
كندا
روسيا
منغوليا
الصين
اليابان
الهند
الفلبين
اندونيسيا
استراليا
المحيط
الهادي
المحيط
الهادي
المحيط
الاطلسي
الولايات المتحدة
كوبا
البرازيل
ليبيا
الجزائر
مصر
السعودية
الكنغو
الصومال
المحيط
الهندي

الوطن العربي
المحيط الاطلنطي
المغرب
المتوسط
الجزائر
ليبيا
موريتانيا
جمهورية مصر العربية
السودان
سوريا
العراق
الأردن
اليمن
بحر العرب
خليج عدن
الصومال
المحيط الهندي
بحر قزوين (الخزر)

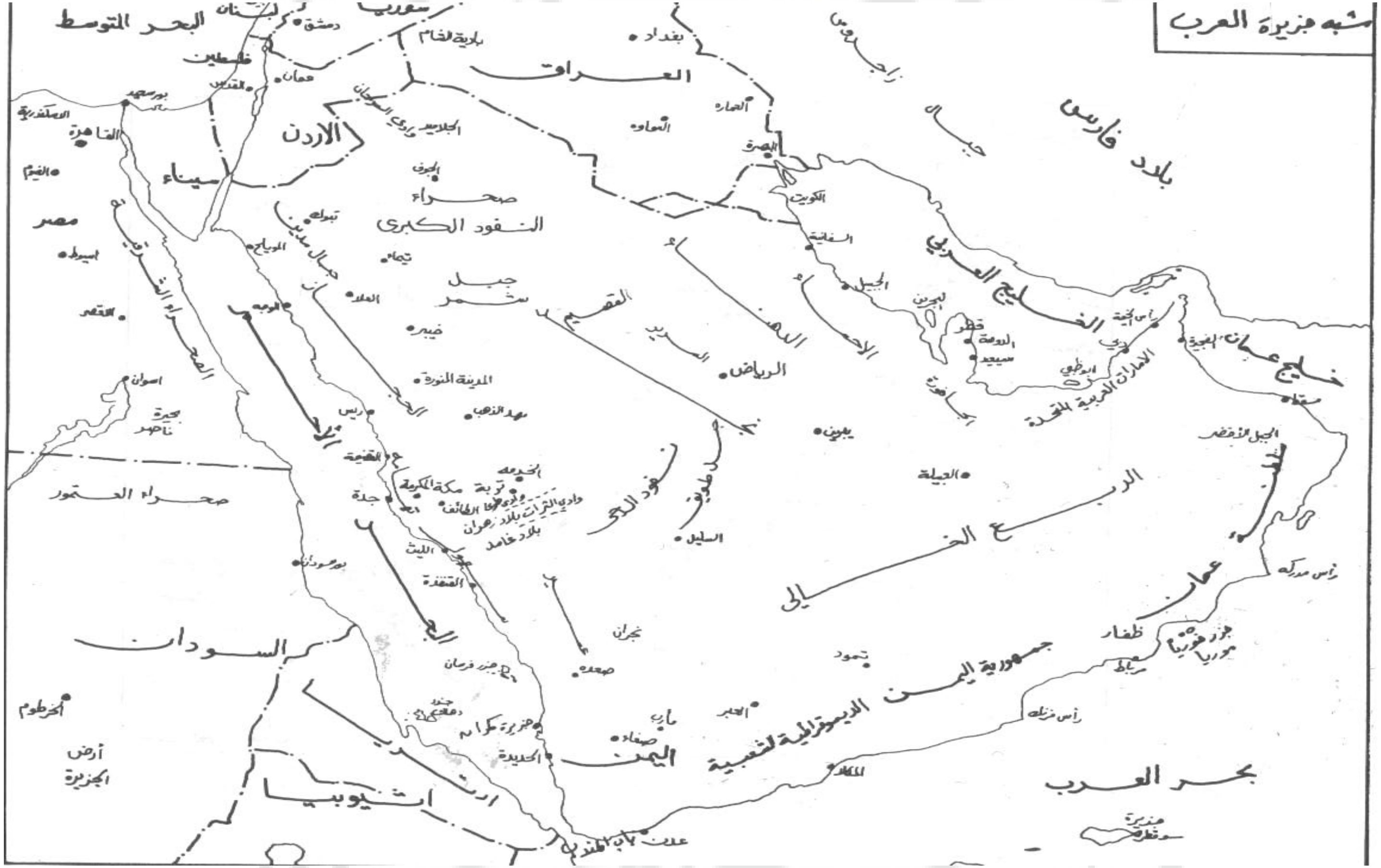

شبه جزيرة العرب
البحر المتوسط
لبنان
دمشق
فلسطين
القدس
عمان
بورسعيد
الاسكندرية
القاهرة
الاردن
سيناء
الفيوم
مصر
أسيوط
الأقصر
أسوان
بحيرة ناصر
صحراء العتمور
بادية الشام
بغداد
العراق
العمارة
السماوة
البصرة
الكويت
جبال زاجروس
بلاد فارس
الخليج العربي
الجوف
صحراء النفود الكبرى
تبوك
تيماء
جبل شمر
العلا
خيبر
القصيم
المدينة المنورة
مهد الذهب
الرياض
الدهناء
البحرين
قطر
الدوحة
الإمارات العربية المتحدة
خليج عمان
مسقط
الجبل الأخضر
يبرين
الربع الخالي
السليل
نفود الدحي
جدة
مكة المكرمة
الطائف
تربة
الليث
القنفذة
بورسودان
نجران
صعدة
عمان
ظفار
جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية
جزر خوريا موريا
رأس مدركة
العبر
مأرب
صنعاء
اليمن
الحديدة
جزيرة كمران
جزر فرسان
المكلا
بحر العرب
جزيرة سوقطرة
عدن
باب المندب
السودان
الخرطوم
أرض الجزيرة
اثيوبيا

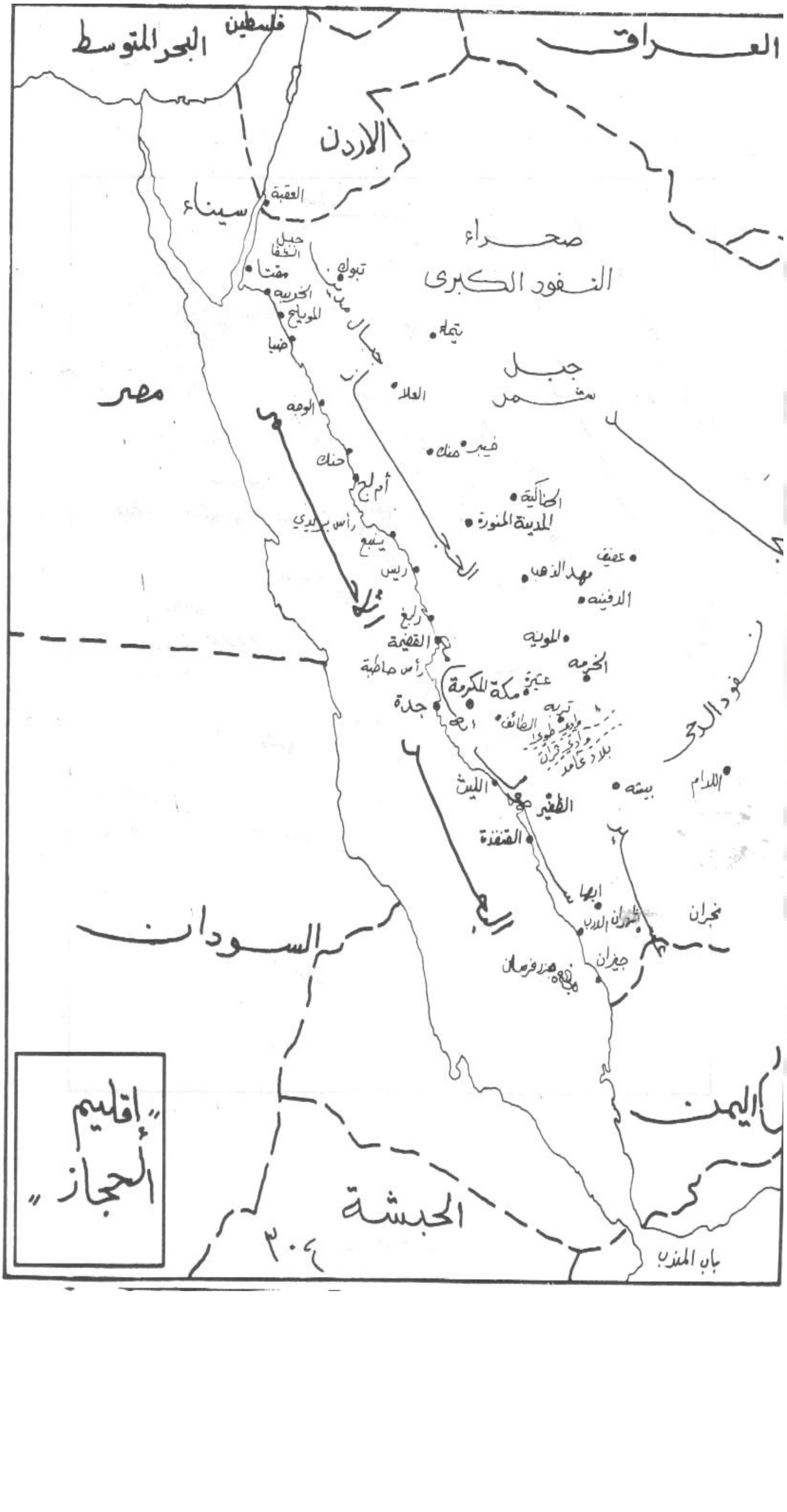

"إقليم الحجاز"
العراق
البحر المتوسط
فلسطين
الاردن
سيناء
العقبة
صحراء
النفود الكبرى
تبوك
مقنا
الخريبة
المويلح
ضبا
تيماء
جبل شمر
العلا
مصر
الوجه
أم لج
المدينة المنورة
ينبع
عفيف
مهد الذهب
الدفينه
رابغ
القضيمة
الموية
الخرمه
مكة المكرمة
جدة
تربه
الطائف
بلاد غامد
الليث
القنفذة
بيشه
نجران
ابها
جيزان
السودان
اليمن
الحبشة
باب المندب

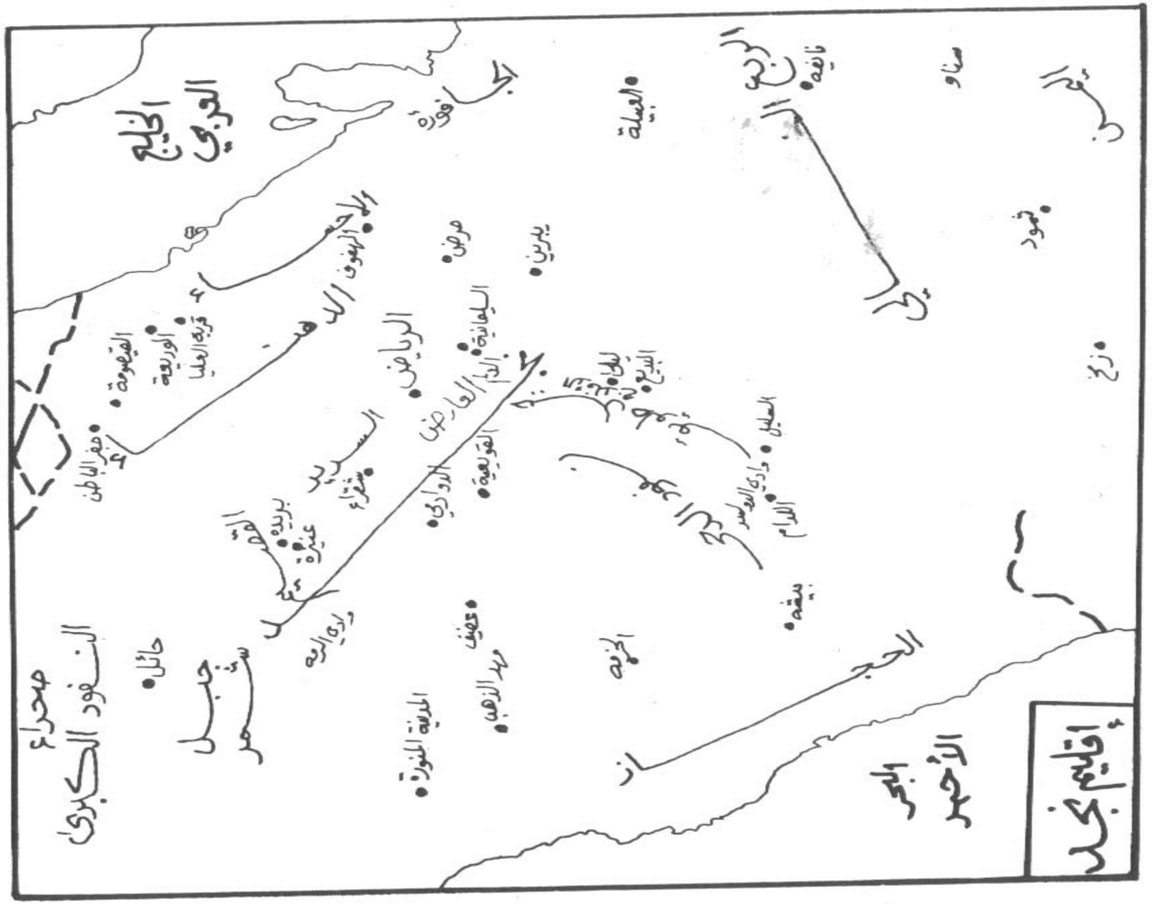
إقليم نجد
الخليج العربي
البحر الأحمر
صحراء النفود الكبرى
حائل
المدينة المنورة
الرياض
الهفوف
بريدة
عنيزة
الحجاز

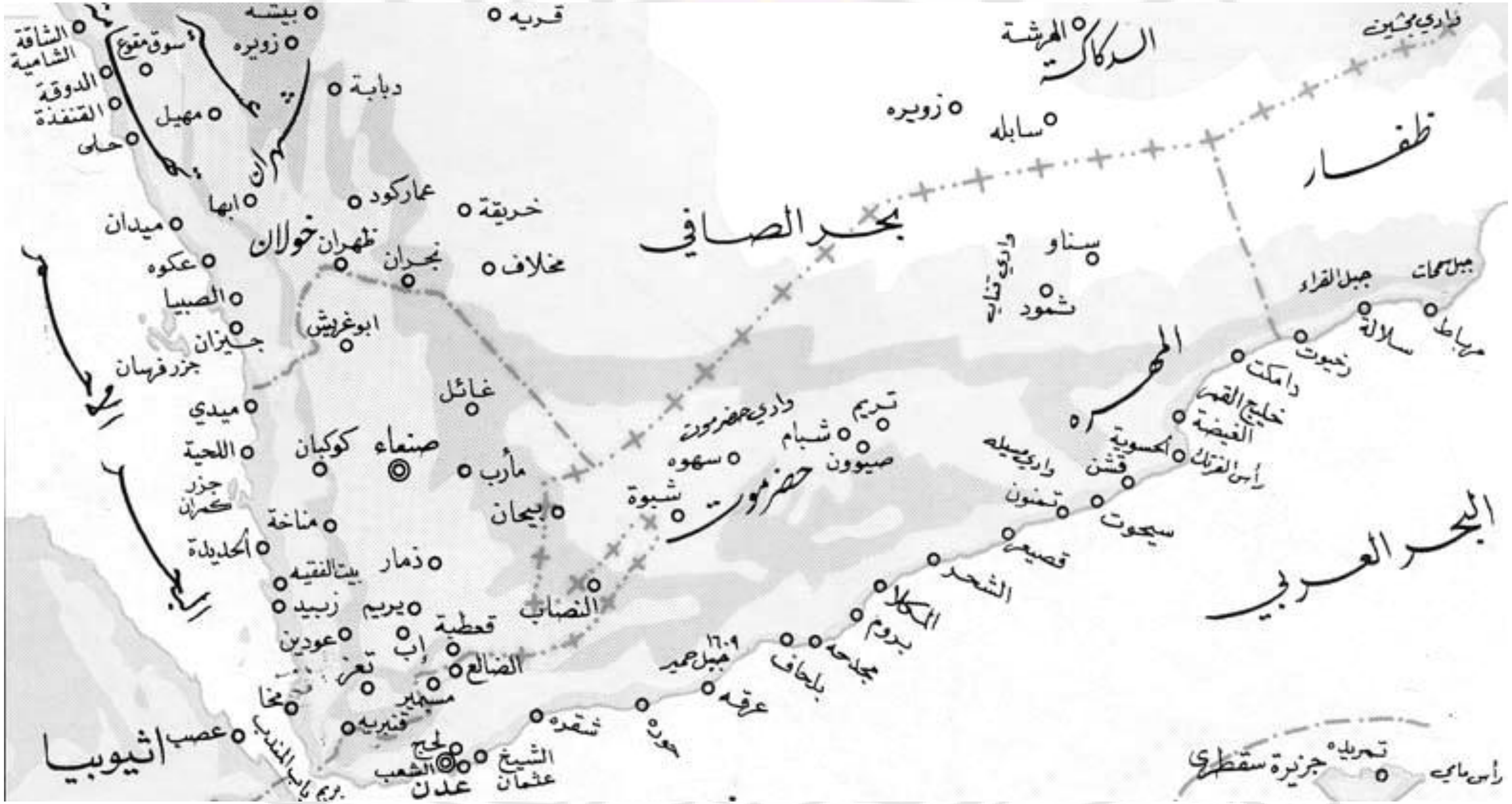

بيشة
قرية
زويره
الشاقة الشامية
سوق مقوع
الدوقة
القنفذة
مهيل
حلي
دبابة
أبها
عماركود
خريقة
ميدان
ظهران
خولان
نجران
مخلاف
عكوه
الصبيا
جيزان
ابوغريش
جزر فرسان
غائل
ميدي
صنعاء
كوكبان
اللحية
مأرب
جزر كمران
مناخة
بيحان
الحديدة
ذمار
بيت الفقيه
زبيد
يريم
النصاب
عودين
إب
قعطبة
تعز
الضالع
مخا
عصب
اثيوبيا
فنبريه
لحج
الشعب
عدن
الشيخ عثمان
شقره
حوره
عرقه
جبل حمير
١٦٠٩
بلحاف
مجدحه
بروم
المكلا
الشحر
قصيعر
شبوة
حضرموت
سهوه
وادي حضرموت
شبام
تريم
صيوون
بحر الصافي
الدكاكة
المرشة
زويره
سابله
سناو
ثمود
المهرة
تمنون
سيحوت
قشن
الحسوية
الغيضة
دامكت
رخيوت
سلالة
مرباط
جبل القراء
جبل سمحات
ظفار
البحر العربي
وادي مقشين
جزيرة سقطرى
تمريدة
رأس مامي

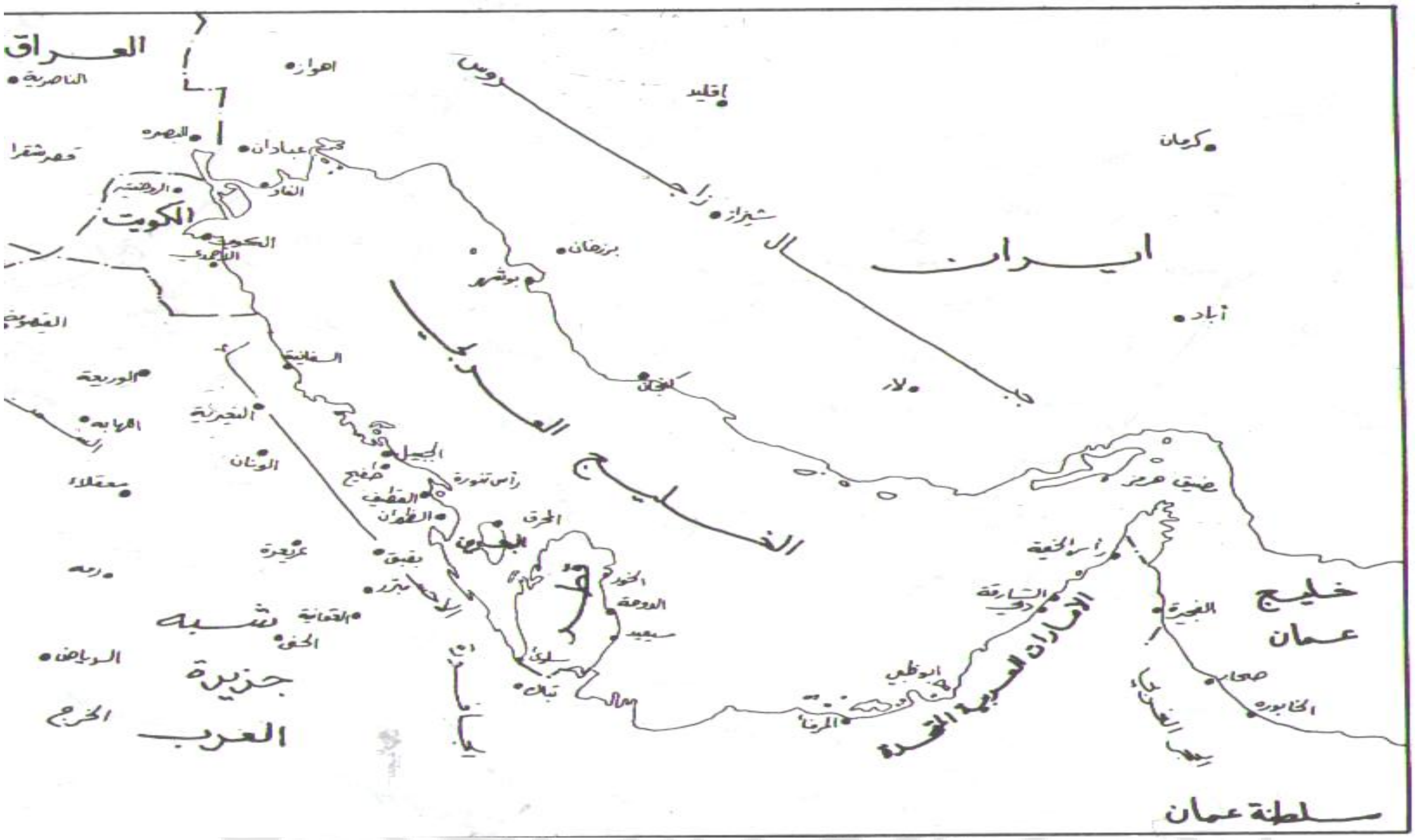
العراق
الناصرية
البصرة
عبادان
الفاو
الكويت
الكويت
أهواز
إقليد
كرمان
شيراز
برزجان
بوشهر
ايران
لار
السفانية
الوريعة
النعيرية
الجبيل
رأس تنورة
القطيف
الظهران
البحرين
بقيق
الخور
الدوحة
مسيعيد
سلوى
شبه
جزيرة
العرب
الخرج
مضيق هرمز
رأس الخيمة
الشارقة
دبي
الفجيرة
خليج
عمان
الإمارات العربية المتحدة
أبوظبي
صحار
الخابورة
سلطنة عمان

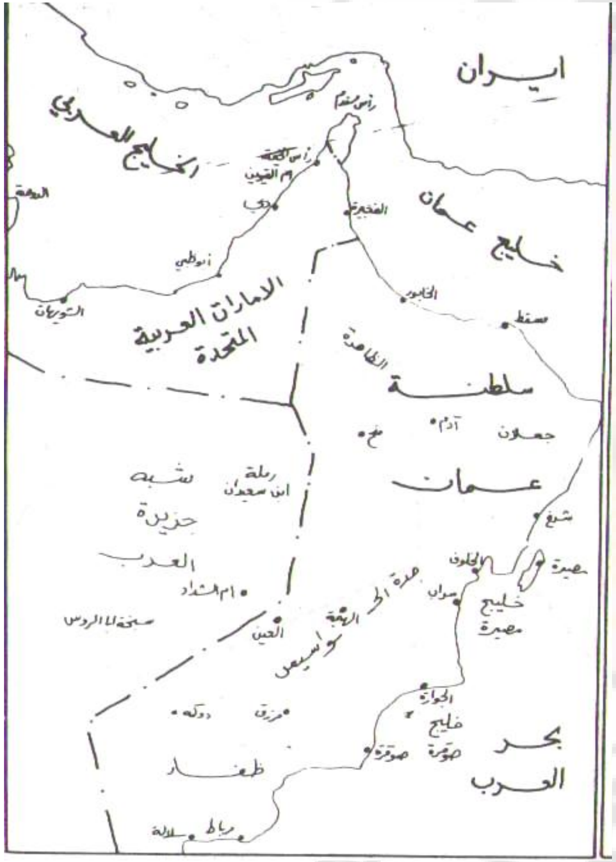

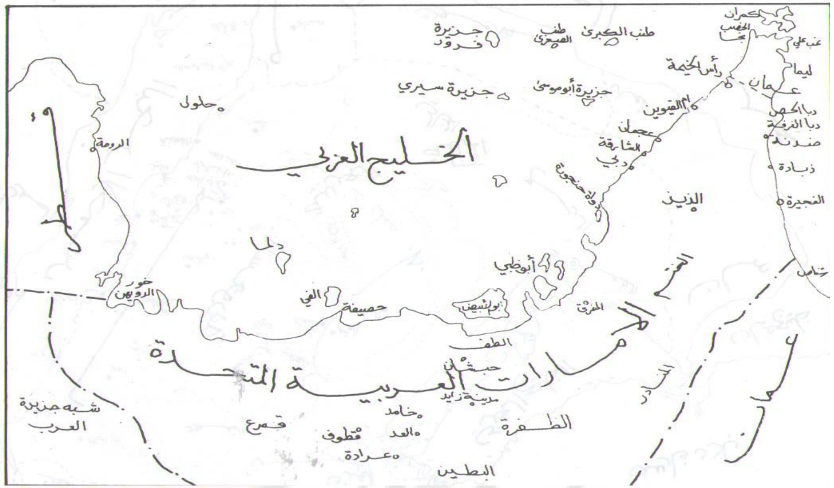

amascus University

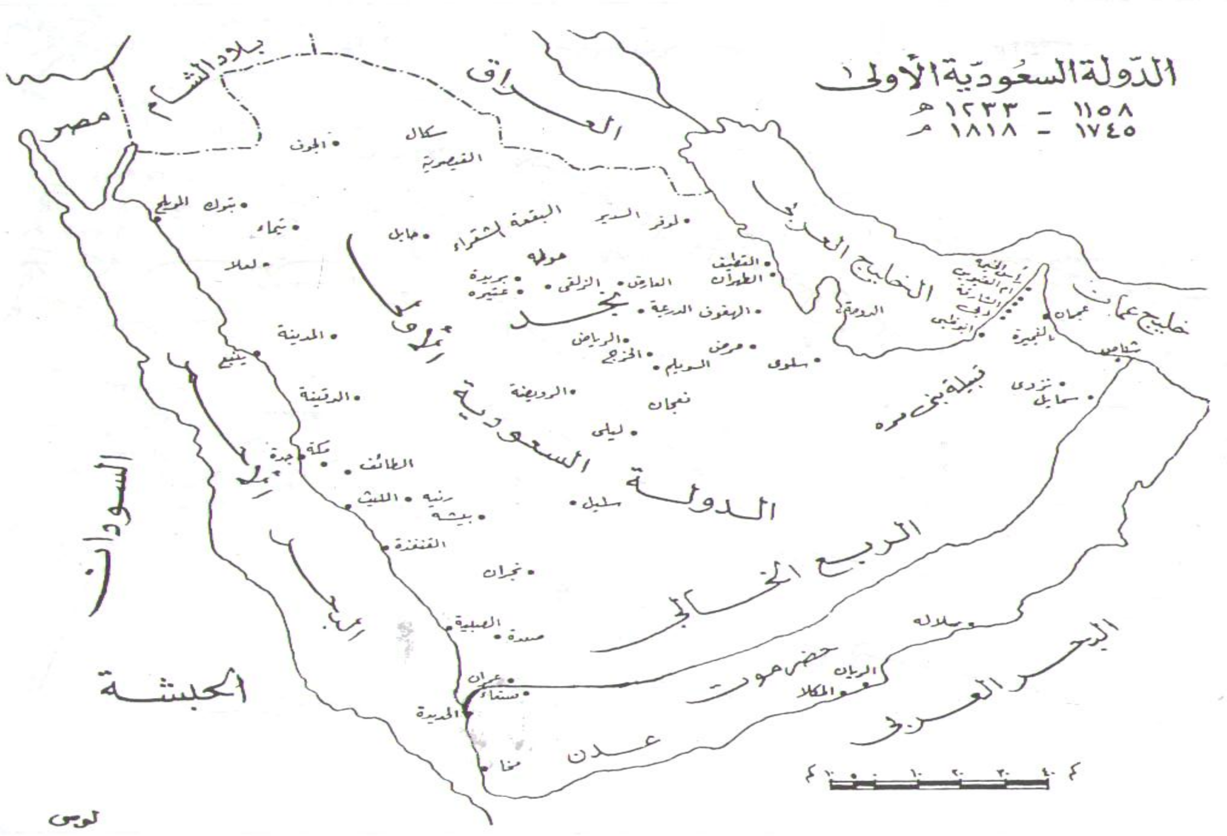
الدولة السعودية الأولى
١١٥٨ - ١٢٣٣ هـ
١٧٤٥ - ١٨١٨ م
بلاد الشام
مصر
العراق
الخليج العربي
خليج عمان
الجوف
سكاكا
تبوك
تيماء
العلا
حائل
نجد
القطيف
الظهران
الرياض
الخرج
المدينة
ينبع
مكة
جدة
الطائف
الليث
بيشة
القنفذة
نجران
صعدة
ليلى
الدولة السعودية
الربع الخالي
قبيلة بني مرة
عمان
نزوى
سمائل
حضرموت
المكلا
عدن
البحر العربي
السودان
الحبشة

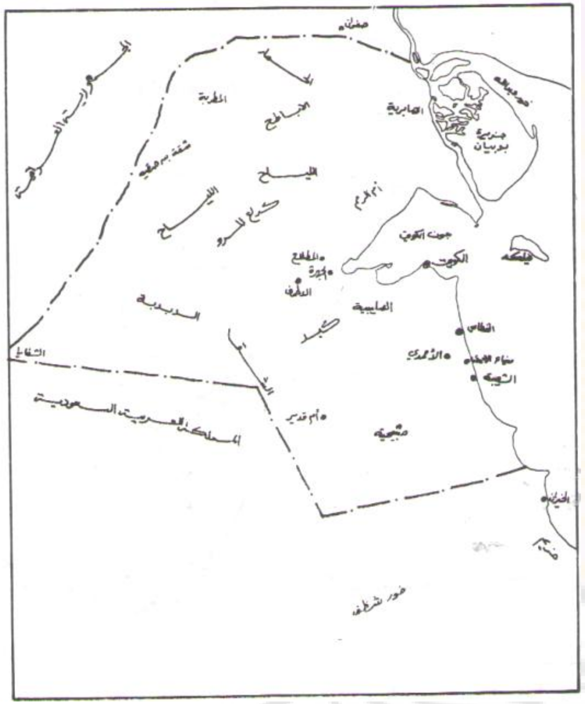

Damascus University

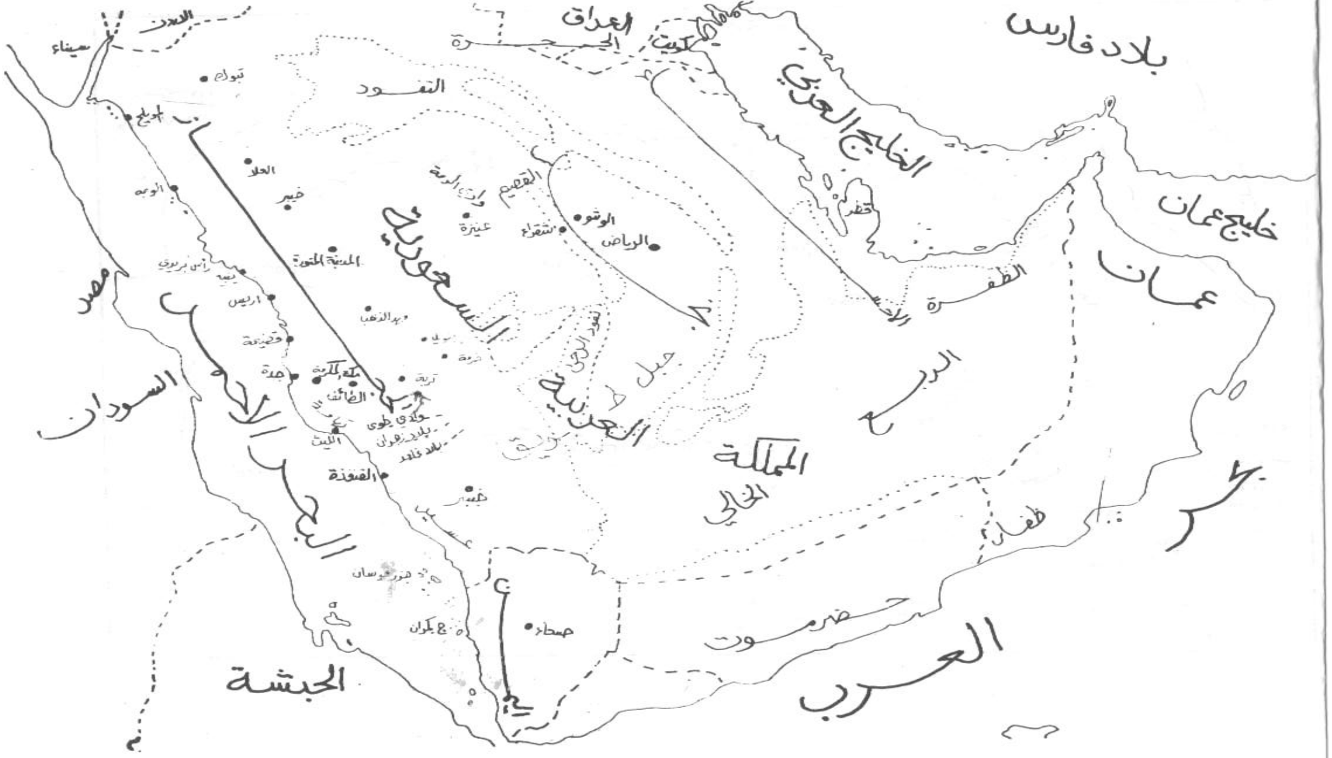

بلاد فارس
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
العراق
الكويت
سيناء
تبوك
النفود
العلا
خيبر
المدينة المنورة
القصيم
عنيزة
شقراء
الرياض
قطر
الظفرة
السعودية
المملكة
العربية
الربع
الخالي
البحر الأحمر
مصر
السودان
جدة
مكة المكرمة
الطائف
الليث
القنفذة
الحبشة
صنعاء
حضرموت
بحر
العرب

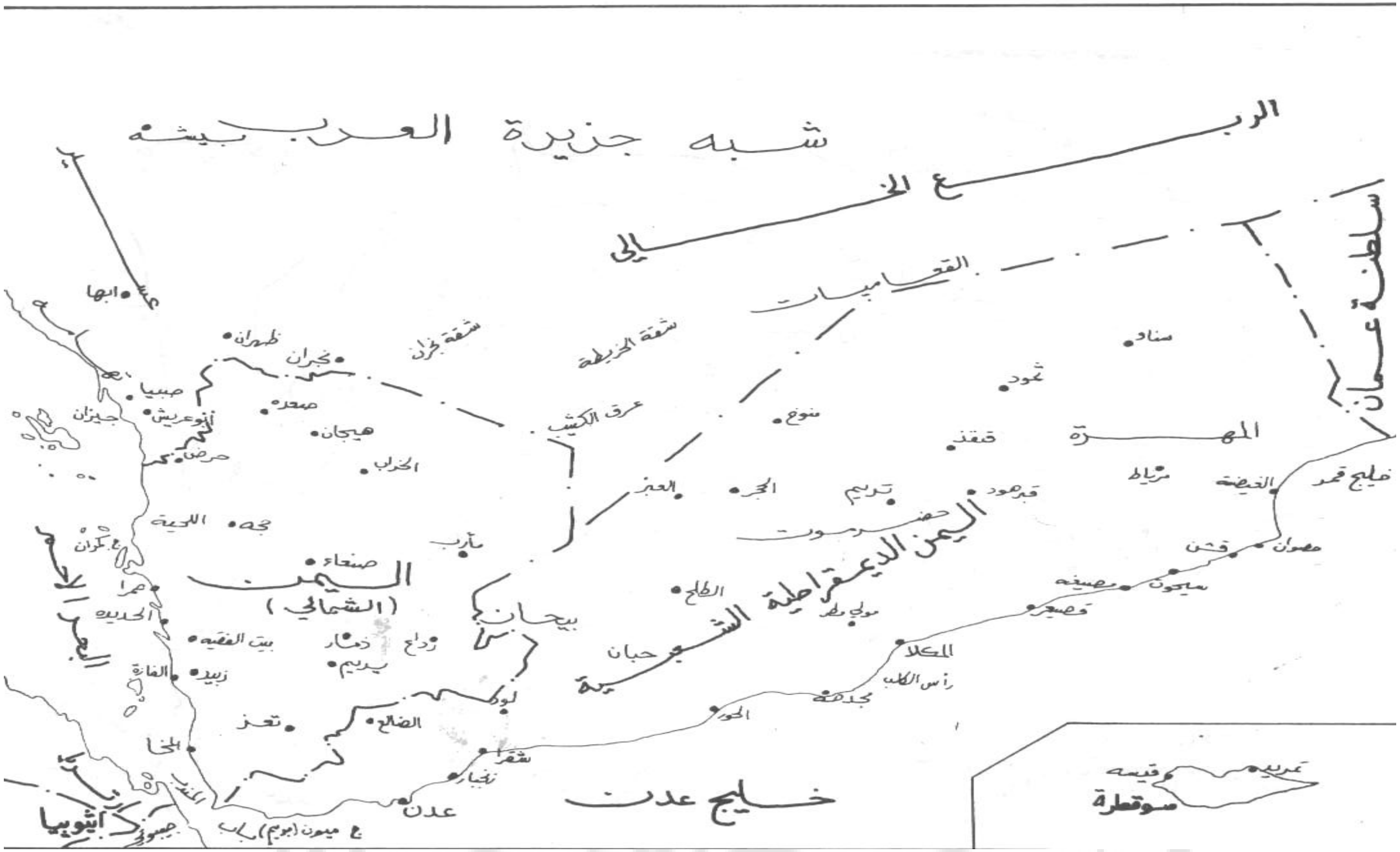

شبه جزيرة العرب
بيشة
الربع الخالي
سلطنة عمان
ابها
ظهران
نجران
عرق الكيش
صبيا
جيزان
أبو عريش
صعدة
حرض
اللحية
حجة
مأرب
صنعاء
اليمن
(الشمالي)
كمران
الحديدة
بيت الفقيه
ذمار
يريم
زبيد
تعز
المخا
الضالع
اثيوبيا
عدن
خليج عدن
شقرة
زنجبار
لودر
بيحان
حبان
اليمن الديمقراطية الشعبية
حضرموت
العبر
تريم
قبر هود
ثمود
المهرة
الغيضة
خليج قمر
قشن
المكلا
رأس الكلب
سوقطرة

مصادر الكتاب

ومراجعه

مصادر الجزء الأول ومراجعه

أولاً)- المصادر الدينية:

١- القرآن الكريم.

٢- الحديث الشريف.

ثانياً)- الوثائق الرسمية العربية والأجنبية:

١- الوثائق العربية والعثمانية:

- دار الوثائق القومية في القاهرة: محافظ وثائق عابدين، وبخاصة الأوامر والمكاتبات الصادرة عن محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا، ومحافظ الشام، والجهادية، وبحر برا. ودفاتر معية تركي خاصة بالمراسلات بين الباب العالي ومحمد علي منذ تكليفه بالقضاء على الدولة السعودية الأولى، رقم١و٣و٤ (٢ مفقود). وكذلك الوثائق المنقولة عن وزارة الخارجية البريطانية.
- وثائق الحكومة السعودية: العرض التاريخي لمشكلة البريمي بين مسقط وأبو ظبي، القاهرة، ١٩٥٥. والتحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط و"أبو ظبي" وبين المملكة العربية السعودية، الجزء الأول.

٢- وثائق بريطانية:

- Bombay Government.: Historical Sketsh (H.S.)of the Wahabee Tribes of Arab from the year 1798-1818 by Francis Warden, vol. XXIV,Bombay, 1856.
- Bombay Govt.: H.S. of the Uttoobee…, vol. XXIV.

- Bombay Government: Selection from the Records of Bombay Government (S.R.B.G.). Historical Sketsh of Joasmee Tribes of Oman 1747-1853, vol. XXIV, Bombay, 1856.
- Bombay Government, S.R.B.G. vol. XXIV, Boo Felasa Tribe, Debaye, 1856.
- Bombay Govt., S.R.H.B., of the Rise and Progress of the Government of Muscat, vol. XXIV, Bombay, 1856.
- Bombay Govt. S.R.B.G., other Information Connected with the Province of Oman, Muscat, Bahrein and other places in the Persian Gulf, New Series, vol. XXIV, Bombay, 1856.
- Rise and Progress of the Arabia Tribes of the Persian Gulf, (Selection From the Records of Bombay, XXIV, p. 213).

٣- **وثائق برتغالية:** الأرشيف البرتغالي في لشبونة: Antonio Dias FARINHA, National Archives Arabie Documents in the Terro Do Tombo.

ومن خلال الاعتماد على مصادر ومنشورات ذات صبغة وثائقية برتغالية.

٤- **وثائق روسية:** من أرشيف السياسة الخارجية الروسية: تقارير السفارة الروسية في استانبول إلى بطرسبورغ: "ديوان" سنة ١٨٠٣- ١٨١٣ (نقلاً عن فاسيليف، الفصل الثالث والخامس).

٥- **وثائق فارسية:** في دار المحفوظات في طهران (من خلال الاعتماد على مصادر ومنشورات ذات صبغة وثائقية فارسية).

ثالثاً)- مصادر ومراجع عربية غير منشورة: المخطوطات:

- ابن الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوطة محفوظة في دار الكتب بالقاهرة، تحت رقم ٢٢٤ تاريخ.

Damascus University

- ابن داعر، الفتوحات المرادية في الجبهات اليمانية، مخطوطة مصورة موجودة في مكتبة جامعة القاهرة، تحت رقم ٢٦٤٣١، الجزء الأول، المجلد الأول.
- ابن لطف الله عيسى، روح الروح، مخطوطة محفوظة في دار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ح، الجزء الأول.
- ابن محمد يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم، أبناء الزمن في تاريخ اليمن، مخطوطة محفوظة في دار الكتب بالقاهرة، تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ.
- الأزكوي العُماني سرحان آلبوسعيد، كشف الغمة، مخطوطة في المتحف البريطاني في لندن، تحت رقم Or 6568.
- الأنصاري شرف الدين موسى، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، الظاهرية رقم ٧٨١٤.
- البكري محمد بن أبي السرور، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، مخطوطة منقولة عن الأصلية ومحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥٤٢٤ تاريخ.
- البوريني الحسن بن محمد، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، المكتبة الوطنية في فيننا، رقم Cod. Arab.1190, Mixt. 346.
- الجرموزي المطهر بن محمد، سيرة الإمام القاسم بن محمد، مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية في القاهرة، تحت رقم ٢٥٦٤٩، المجلد الأول.
- الشيخ زين الدين، تحفة المجاهدين في بعض أحوال المجاهدين، نشر دافيد لويز، لشبونة، ١٨٩٨.
- العرشي حسين بن أحمد، بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مخطوطة حققها ونشرها الأب ا.م.الكرملي، القاهرة، ١٩٣٩.
- النابلسي عبد الغني، تاريخ الدولة العثمانية، مخطوط في مجموعة برلين، رقم 1808 .(II) .9727. We.

- شهاب حيدر أحمد، نزهة الزمان في حوادث عربستان، مكتبة جامعة كيمبردج، انكلترا، رقم (9) Or. 63.

رابعاً)- مصادر ومراجع عربية منشورة:

١- منشورات ذات صبغة وثائقية:

- أبحاث في علوم الوراثة بجامعة "ليدز" البريطانية:انظر المواقع الإلكترونية المعنية، بعنوان "أصول عربية لأجناس العالم"، تاريخ ما بين ٥ و٩ شباط ٢٠١٢، منها:www.mbc.net
- إسماعيل تحية عبد العزيز المتخصصة في علم اللغات، اللغة العربية أصل اللغات،القاهرة.
- أغلو سنان معروف، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية الأحوال السياسية والاجتماعية في نجد والجاز خلال العهد العثماني، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢.
- إقبال عباس، مطالعاتي درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس، مطبعة المجلس، طهران، ١٣٢٨هـ ش.(توثيق فارسي).
- البوريني عبد الرحمن، اللغة العربية أصل اللغات كلها، عمّان، ١٩٩٨.
- الجنابي نبيل" اللغة الإنجليزية أصلها اللغة العربية"(جريدة العرب اليوم، لندن، عدد ٤٠٦ ، ١٩٩٠).
- الحمدي صبري فالح "أخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية المنشورة"(مجلة الآداب، بغداد، عدد ١٠٦، ٢٠١٣، ص ٣١٧-٣٣٨).
- الريحاني أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٥٤.
- السالمي نور الدين عبد الله حميد، تحفة الأعيان بسيرة آل عُمان، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- العجلاني منير، تاريخ البلاد العربية السعودية، عهد سعود الكبير، دون مكان أو تاريخ.
- تاريخ البلاد العربية السعودية، عهد عبد العزيز محمد، د. مكان أو تاريخ.

- القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وثائق مختارة في تفتيت الوطن العربي، سلسلة دراسات وثائقية ١، دمشق، ٢٠٠٩.
- النبهاني محمد بن خليفة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، تاريخ البحرين، القاهرة، ١٩٢٣.
- التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، تاريخ الكويت، القاهرة، ١٩٤٩.
- بحوث الندوة العالمية حول تاريخ سورية والشرق الأدنى، منشورات جامعة حلب.
- بيات فاضل، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، دار المدى الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢(توثيق عثماني) .
- توصيات ندوة لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق، حول مشروع كتابة هذا التاريخ (مجلة دراسات تاريخية، أعمال ندوة كانون الثاني ١٩٧٧).
- جمعة إبراهيم، الأطلس التاريخي للدولة السعودية، دار الملك عبد العزيز، ١٩٧٢/١٣٩٢.
- عبد الغني عبد العزيز، حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي دراسة وثائقية، الرياض، ١٩٨٢.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٨٣.
- قاسم جمال زكريا، "الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي"(من أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بغداد، ١٩٧٣).

ـــــــــــــــ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية–الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٥.

- منشورات أبحاث ندوة "إقليم الخليج العربي على مرّ عصور التاريخ" التي أقامتها جمعية اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في ٢٣-٢٥/١١/١٩٩٦، ونشرت من الاتحاد نفسه.
- منشورات أبحاث ندوة "تاريخ عُمان" التي عقدت في مسقط فيما بين ٢٤ و٢٨ أيلول ١٩٩٤/١٤١٥، وقد نشر معظمها من خلال ملخصات لها في صحيفة "عُمان" في ملحق خاص عن هذه الندوة في الأعداد ذات التاريخ: ٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ أيلول ١٩٩٤/١٤١٥.
- منشورات مكتب إمامة عُمان في القاهرة، عُمان الإمامية، ١٣٧٥هـ.
- مؤسسة النقد العربي السعودي، تطور النقود في المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٨، الصفحات الخاصة بتطور النقود في شبه الجزيرة العربية في تاريخها الحديث.
- ميرزا محمد علي رضا، أسانيد الخليج الفارسي، دار الرائد العربي، القاهرة، ١٩٧٩. (توثيق فارسي).

٢- المصادر من الكتب العربية:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط.٤، ١٩٨٣.
- ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- ابن إياس، بدائع الزهور في تاريخ الدهور، القاهرة، ١٨٩٣.
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن خلفان عبد الله بن قيصر، سيرة الإمام العادل ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد حسيب القبيسي، وزارة التراث القومي لسلطنة عمان، ١٩٧٧.
- ابن رزيق حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله، وزارة التراث القومي، سلطنة عُمان،١٩٧٧.
- ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٤.

Damascus University

- ابن ظهيرة جمال الدين، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف،١٩٣٨.
- ابن عبد الوهاب محمد، كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، القاهرة، بدون تاريخ.
________، كشف الشبهات في التوحيد، المطبعة المنيرية، القاهرة.
________، الكبائر، ضمن مجموعة الحديث النجدية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥ /١٩٥٥.
________، فضل الإسلام، في مجموعة الحديث النجدية، القاهرة، ه١٣٧٥.
- ابن عبد الوهاب سليمان، الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، القاهرة، دون تاريخ.
- ابن عبد الوهاب عبد الله بن محمد، الرسالة–في الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية، القاهرة، ١٣٤٢هـ.
- ابن غنام حسين، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والإفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، تحقيق ناصر الدين الأسد، القاهرة، ١٩٦١.
- الأزرقي محمد بن عبد الله بن أحمد، أخبار مكة وما فيها من الآثار، نشر وستنفلد، ليبزج، ١٨٥٨.
- الأصفهاني الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، ١٩٦٨.
- الألوسي محمود شكري، تاريخ نجد، تحقيق م. ب. الأثري، ط. ٢، القاهرة، ١٣٤٧هـ.
- الأمين المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مصر، ١٢٨٤هـ.
- الأنصاري عبد القدوس، تاريخ مدينة جدة، دون مكان أو تاريخ.
- البصري عثمان بن سند، تاريخ بغداد، بومبي، ١٢٠٤هـ.

- البغدادي ابراهيم فصيح، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، منشورات البصري، بغداد، ١٢٨٦هـ.
- الجاف حسن كريم، موسوعة تاريخ إيران السياسي، الدار العربية للموسوعات، بغداد، ١٤٢٨/٢٠٠٨.
- الجبرتي عبد الرحمن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بولاق، ١٢٩٧هـ.
- الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥.
- الدينوري أبو حنيفة، من كتاب الأخبار الطوال، اختيار وتقديم يحيى عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٦.
- الطبري، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، ط.٤، ١٩٨٣.
- القزويني يحيى بن عبد اللطيف،لبّ التواريخ باهتمام جلال الدين الطهراني،طهران.
- المحبّي الأمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مصر، ١٢٨٤هـ.
- المسعودي ومنها كتاب الإشراف والتنبيه، طبع في مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، ١٨٩٣.
- المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر محمد زيادة وجمال الدين شيال،القاهرة، ١٩٤٠.
- النجدي عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، الطبعة الأولى، المطبعة السلفية.
- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، المجمع العلمي، دمشق، ١٩٤٨.

- النهروالي المكّي قطب الدين محمد بن أحمد، البرق اليماني في الفتح العثماني (تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر)، ط. ١، دار اليمامة، المملكة العربية السعودية، ١٣٨٧/١٩٦٧.
- الهمداني الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد لاكوع، بيروت، ١٩٧٤.
- حمزة فؤاد، قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، الرياض، ١٩٦٨.
- دحلان أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام، مصر، ١٣٠٥هـ.
- شاكر محمود، موسوعة التاريخ الإسلامي: العهد العثماني، بيروت، ١٩٨٧.
- كرد علي محمد، خطط الشام، ط.٣، مكتبة النوري، دمشق ١٩٨٣.
- مؤلف مجهول، صفحات مجهولة من تاريخ اليمن، تحقيق وتقديم القاضي حسين بن أحمد السباغي، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، ١٣٩٨/١٩٧٨.

٣- المراجع العربية:

أ- الموسوعات:

- الموسوعة العربية، سوريا- دمشق(www.arab-ency.com).
- موسوعة الهلال الاشتراكية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٠.
- موسوعة المعرفة، نيويورك(www.marefa.org).

ب- الدوريات:

- المجلة التاريخية المصرية، القاهرة.
- جريدة العرب- لندن.
- صحيفة الشرق الأوسط، بيروت.
- مجلة الثقافة العربية مجلس الثقافة العام، الجماهيرية الليبية-طرابلس.

Damascus University

- مجلة السياسة الدولية، القاهرة.
- مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة.
- مجلة الوحدة، الرباط، المجلس القومي للثقافة العربية.
- مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة.
- مجلة حولية كلية الآداب، بغداد.
- مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة.
- مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق.
- مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت.

ج- المراجع من الكتب العربية:

- ابن عقيل علي، حضرموت، دمشق، ١٩٤٩.
- أبو حاكمة مصطفى، الكويت، الكويت، ١٩٧٠.

ــــــــــــــ، تاريخ شرقي الجزيرة العربية، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

ــــــــــــــ، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨.

- ادّة اميل، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، بيروت، ١٩٦٩.
- الأزهري أبو منصور محمد، تهذيب اللغة، القاهرة، ١٩٦٤، جزء٥.
- الأنصاري عبد القدوس، تاريخ مدينة جدة، دون مكان أو تاريخ.
- الأنصاري محمد بن عبد الله، تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد، الرياض، ١٩٦٠.
- البحراوي محمد عبد اللطيف، فتح العثمانيين عدن، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩.

- البدر سعدون، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، الكويت، ١٩٧٤.
- البصري عثمان بن سند، مختصر مطالع السعود، ١٣٠٤هـ.
- البطريق عبد الحميد، من تاريخ اليمن الحديث،١٥١٧.١٨٤٠،القاهرة، ١٩٦٩.
البهكلي عبد الرحمن أحمد، نفح العود في دولة الشريف حمود، الرياض، ١٤٠٢/١٩٨٢.
- البوريني أحمد قاسم، الإمارات السبع على الساحل الأخضر، بيروت، ١٩٧٥.
- التيزيني طيب، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، دار دمشق، ١٩٨٢.
- الجرافي القاضي عبد الله بن عبد الكريم اليمني، المقتطف من تاريخ اليمن، مصر، ١٩١٥.
- الحصري ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط.٣، العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥.
- الخطيب مصطفى عقيل، التنافس الدولي في الخليج العربي، المكتبة العصرية، بيروت . صيدا، ١٩٨١.
______، سياسة إيران في الخليج العربي، الدوحة–قطر، ١٩٨٧.
- الدباغ مصطفى مراد، الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام، بيروت، ١٩٦٣.
______، قطر ماضيها وحاضرها، د. الطليعة، بيروت،١٩٦١.
- الدوري عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
- الرشيد عبد العزيز، تاريخ الكويت، بيروت، ١٩٦٢.
- السعيد ناصر، تاريخ آل سعود، دار الشرق للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠١٢.
- الشاطري محمد بن أحمد بن عمر، أوراق التاريخ الحضرمي، المكلا، ١٩٧٢.
- الشامي صلاح الدين والصقار فؤاد محمد، جغرافية الوطن العربي الكبير، ١٩٧٠.

- الشرباصي الشيخ أحمد، أيام الكويت، القاهرة، ١٩٥٣.
- الشرجبي قائد نعمان، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، بيروت، بالتعاون مع مركز الدراسات والبحوث اليمني في صنعاء، ١٩٨٦.
- الشملان سيف مزوق، من تاريخ الكويت، القاهرة، ١٩٥٩.
- الشناوي عبد العزيز محمد، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، ١٩٨٠.
- الصباح ميمونة، "نشأة الكويت"(مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد ٤٦، ص ١٤-١٧).
- الصباغ ليلى، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩.
- ـ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢.
- العابد صلاح، دور القواسم في الخليج العربي، ١٧٤٧-١٨٢٠، بغداد، ١٩٧٦.
- العاقل نبيه، الغرب وحضارة العرب"(مجلة الثقافة العربية، طرابلس، شباط، ١٩٧٥).
- العبدلي أحمد فاضل بن علي بن محسن، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج واليمن، القاهرة، ١٣٤١هـ.
- العثيمين عبد الله صالح، العلاقة بين الإحساء وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من أعمال مؤتمر تاريخ شرقي الجزيرة العربية، المجلد الثاني، الدوحة، ١٩٧٦.
- العربي خالد، الخليج العربي في ماضيه وحاضره، مطبعة الجاحظ، بغداد، ١٩٧٢.
- العزاوي عباس: تاريخ العراق بين احتلالين، إيران، ١٩٣٩.
- العكاس عبد المحسن، صحيفة الشرق الأوسط، بيروت، عدد ٧٠٩٣، ت. ١٩٩٨/٤/٣٠.
- العقاد صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو . المصرية، ١٩٧٤.

Damascus University

ــــــــــــــ، العقاد صلاح، "دعوة حركات الإصلاح السلفي"(المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مجلّد سابع، ١٩٥٨).

- العقيلي محمد بن أحمد عيسى، تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، الرياض، ١٩٥٨.
- العمد عدنان، "لا حوار بين الفلسطينيين"، (مجلة السياسية الدولية، القاهرة، المجلد العاشر، العدد ٢٧، ١٩٧٤، ص٦١-٦٨).
- العمري عبد الله: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث (١١٦١-١٢٦٤)، دار الفكر، دمشق، ١٩٠٤/١٤٠٥.
- القناعي الشيخ يوسف بن عيسى، صفحات من تاريخ الكويت، طبعة ثانية، دمشق، ١٩٥٤.
- المختار صلاح الدين، تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة الحياة،بيروت،١٩٧٥/١٣٧٦.
- المسلم محمد سعيد، ساحل الذهب الأسود، ط.٢، بيروت، دون تاريخ.
- النجار مصطفى عبد القادر، التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب، البصرة، ١٩٧٤.
- اليافعي صلاح البكري، تاريخ حضرموت السياسي، مصر، ١٣٥٤هـ.
- أمين عبد الأمير محمد، مقاومة إمارات شرقي الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربي للتغلغل الاستعماري الأوروبي ١٥٠٠-١٨٢٠، بيروت، ١٩٨١.
- أمين محمود، دفاعاً عن ناصر السعيد، سلسلة كتب ودراسات شبه الجزيرة العربية١، دون مكان أو تاريخ.
- باوزير سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، القاهرة، ١٩٥٩/١٣٧٨.
- بابكور عمر سالم عمر، "سياسة حكام مصر تجاه الرقيق" (مجلة المؤرخ العربي، اتحاد

- حماد سهيلة زين العابدين، "الحياة الاجتماعية في دول شرقي شبه الجزيرة العربية في القرون الثلاثة الأخيرة"(ندوة "إقليم الخليج العربي على مرّ عصور التاريخ" التي أقامتها جمعية اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في ٢٣-١١/٢٥/١٩٩٦، ص ٣٨٣- ٤٤٦).
- جمعة بديع الخولي وأحمد، تاريخ الصفويين وحضارتهم، الرائد العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- حميدان عبد اللطيف،"التاريخ السياسي لإمارة الجبور"(مجلة آداب البصرة،عدد ١٦، ١٩٨٠)
- حوراني فضلو، الملاحة العربية في المحيط الهندي، القاهرة. دون تاريخ.
- خزعل حسين خلف الشيخ، تاريخ الجزيرة العربية في عصر محمد بن عبد الوهاب، طبعة ٣، بيروت،١٩٧٢.
- خليل أحمد خليل، "الخيار الوحدوي العربي في ظلّ النظام العالمي الجديد" (مجلة الوحدة، الرباط، عدد٩٠، آذار ١٩٩٢، ص٨-١٥).
- داوود أحمد، تاريخ سوريا الحضاري القديم،المركز، ط. ٤، دار نينورتا، دمشق، ٢٠١١.

ــــــــــــ، تاريخ سوريا القديم تصحيح وتحرير، دار المستقبل، دمشق، ١٩٨٦.
- داوود محمود علي، "العلاقات البرتغالية في الخليج العربي"، (حولية كلية الآداب، بغداد، ١٩٦٠، ص٧).
- دروزة محمد عزة، تاريخ الجنس العربي، المطبعة العصرية، بيروت، ١٩٥٩.

ــــــــــــ، العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي، الطبعة الثانية، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، ١٩٨١.
- رافق عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ١٥١٦/١٩١٦، دمشق، ١٩٧٤.

ــــــــــــ، "الهوية والانتماء في بلاد الشام في العهد العثماني" (مجلة دراسات تاريخية، العدد ٨١-٨٢، عام ٢٠٠٣، ص١١٥-١٤٧).
- زريق قسطنطين، نحن والتاريخ، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، ، ١٩٨١.

- زكار سهيل وخربوطلي شكران: الحضارة العربية الإسلامية، جامعة دمشق، ١٤٢٦/ ٢٠٠٥-١٤٢٧/٢٠٠٦.
- زيتون عادل ، تاريخ المماليك، الطبعة الرابعة، جامعة دمشق، ١٩٩١-١٩٩٢.
- سالم مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، جامعة الدول العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٦٩.
- سعيد أمين، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، بيروت، ١٩٦٥.
———، تاريخ الدولة السعودية، المملكة العربية السعودية، مطبوعات دار الملك عبد العزيز رقم ٩، دار الهلال، الرياض، بدون تاريخ.
- صبحي أحمد محمود، البحرين ودعوى إيران، الاسكندرية، ١٩٦٢.
- طربين أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢.
- ظاهر أحمد جمال، المرأة في دول الخليج العربي، الكويت، بدون تاريخ.
- عاشور عبد الفتاح، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
- عبد الأمير محمد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثاني عشر، بغداد، ١٩٦٦.
- عبد الغني عبد العزيز، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، البصرة، ١٩٧٨.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٦.
- عبد الله فيصل، مقدمة في علم الأكاديات ودور العرب فيه، دمشق،١٩٩٠.
- عبد الله محمد مرسي، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩٧٨.

Damascus University

ـــ دولة الإمارات العربية وجيرانها، الكويت، ١٩٨١.

- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، دار المعارف، طبعة ٢، القاهرة، ١٩٦٥.
- عسّه أحمد: معجزة فوق الرمال، بيروت، ١٩٦٦.
- علي جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط.٢، بيروت، ١٩٧٦.
- عمارة محمد، العروبة في العصر الحديث، دار الوحدة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨١.

ـــــــــــــ، تيارات الفكر الإسلامي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٢.

ـــــــــــــ، فجر اليقظة العربية، ط.٣، دار الوحدة، ١٩٨١.

- عمر سلطان أحمد، نظرة في تطور المجتمع اليمني، بيروت، ١٩٧٠.
- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، بيروت، دون تاريخ.
- عمر فاروق، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، الطبعة الثانية دار واسط، بغداد، ١٩٨٥.
- غرايبة عبد الكريم، مقدمة تاريخ العرب الحديث، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠.
- فارس محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق، ١٩٦٩.
- فخري أحمد، اليمن ماضيها وحاضرها، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٥٧.
- فرح نعيم، النظرية السامية مؤامرة استعمارية وصهيونية على العرب، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، دون تاريخ.
- فوق العادة سموحي، موجز المذاهب السياسية، دار اليقظة، دمشق.
- قاسم جمال زكريا، "الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥.

Damascus University

ـــــــــــــــ، "الدوافع السياسية لرحلات الأوروبيين إلى نجد والحجاز" (من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، ١٩٧٧).

ـــــــــــــــ، "استقرار العرب في سواحل شرق أفريقيا"(مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، المجلد العاشر).

ـــــــــــــــ، بوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا، القاهرة، ١٩٦٧.

ـــــــــــــــ، إمارات قديمة ودولة حديثة، دولة الإمارات العربية المتحدة، معهد البحوث بالقاهرة، ١٩٧٧.

ـــــــــــــــ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية المتحدة، ١٨٤٠-١٩١٤، طبعة ٢، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٤.

ـــــــــــــــ، وصلاح العقاد، زنجبار، القاهرة، ١٩٥٩.

- قدورة زاهية، شبه الجزيرة العربية، دار النهضة العربية، بيروت.
- قفلجملي حكمت، التاريخ العثماني رؤية مادية، تعريب فاضل لقمان، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٧.
- قلعجي قدري، الخليج العربي، الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٥.
- لبيب صبحي: "التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى"(المجلة التاريخية المصرية،القاهرة،مجلد٤، عدد٢،١٩٥٢، ص ٥-٦٤).
- متولي محمد، حوض الخليج العربي، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
- مجموعة من الباحثين، صور المستقبل العربي، في إطار "مشروع المستقبلات العربية البديلة" تحت إشراف جامعة الأمم المتحدة، ونشرت بالتعاون بينها وبين مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢.

Damascus University

- محمد أمين عبد الأمير، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، بغداد، ١٩٦٦.
- محمد نجاح، "التاريخ والاستراتيجيا والعقل العربي النهضوي على ضوء علم المستقبل العربي"(مجلة الفكر السياسي،اتحاد الكتاب العرب،دمشق، عدد ١٦،٢٠٠٢، ص٥٣-٨٦).
___________، وكاميليا أبو جبل، تاريخ الجزيرة العربية المعاصر،منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٤-٢٠٠٥
___________، تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر(بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.
___________. "علم التاريخ: إشكاليات ومضامين" (مجلة المعرفة، دمشق، وزارة الثقافة، العدد ٣٨٤، أيلول ١٩٩٥، ص٣٧-٥٩).
___________، "القومية العربية في تاريخنا القديم، الجذور والصيرورة"(مجلة المعرفة، دمشق، عدد ٣٥٦،أيار ١٩٩٣، ص٤٣-٧٦).
___________، المتغيرات والنظام العالمي الجديد وسوريا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٥.
___________، "سوريا وصيرورة حدودها الجيو-حضارية والقومية(الاثنوغرافية)"(مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٧، صيف ١٩٩٩، ص ٨٩-١١٠).
___________، "وقفة تاريخية نقدية عربية مع مقولة أسلوب الإنتاج الآسيوي"(مجلة دراسات تاريخية، عدد ٣٥-٣٦، ١٩٩٠، ص٢٨٣-٣٠٧).

- محيسن سلطان، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، دمشق، ١٩٨٦-١٩٨٧.
- محمود حسن سليمان، الكويت ماضيها وحاضرها، دون مكان أو تاريخ.
- مصطفى شاكر، العرب في التاريخ، دمشق، ١٩٩٥.
- مضيف حسين بن محمد، ماضي الحجاز في حاضره، جدة، ١٣٤٩هـ.
- معمر علي يحيى: الإباضية في موكب التاريخ، المذهب الإباضي، القاهرة ١٩٢٤.
- مقبل فهمي توفيق، دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد، دار أسامة، عمّان، ٢٠٠٣.
- مراد محمد عدنان، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، دار دمشق، ١٩٨٤.
- مؤنس حسين ،"التاريخ والمؤرخون"(عالم الفكر، مجلد ٥، عدد ١، الكويت، ١٩٧٤).
- ناجي سلطان، "الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمرأة في المجتمع اليمني"(مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، نيسان ١٩٨٠).
- نخلة محمد عربي، تاريخ الإحساء السياسي، دار السلام، الكويت، ١٩٨٠.
- نعيسة يوسف جميل، محاضرات في التاريخ العربي المعاصر، دمشق، ١٩٨٤-١٩٨٥.
- نوفل سيد، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي، القاهرة، ١٩٦٦.

خامساً)- مصادر ومراجع من الكتب والدراسات المترجمة:

- آشتور آ. ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور القديمة، ترجمة عبد الهادي عبلة ومراجعة أحمد غسان سبانو، دمشق.
- الدار العربية للموسوعات، الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز، بيروت، ٢٠٠٨.

- أوزبران صالح، البرتغاليون والأتراك والعثمانيون في الخليج العربي، ترجمة عبد الجبار ناجي، جامعة البصرة، ١٩٧٩. (توثيق عثماني).
- ايفانوف نيقولاي ، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨.
- بريجينسكي زبغنيو، الفوضى، ترجمة مالك فاضل، عمّان، ١٩٩٨.
- بوتينسيفا تمارا، الآثار تؤدي إلى رمال الجزيرة العربية، ترجمة محمد يمني الشعيبي، دمشق، ١٩٨٩.
- بونداريفسكي، الغرب ضدّ العالم الإسلامي، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٥.
- بيرين جاكلين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، الرياض، بدون تاريخ.
- جحا فريد، كتب أنصفت حضارتنا، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ١٩٧٧.
- جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، ترجمة وتلخيص يوسف كامل، القاهرة، ١٩٢٧.
- جيران لاند روبرت، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد بن عبد الله، القاهرة، ١٩٧١.
- حتّي فيليب وجرجي إدوارد وجبور جبرائيل ، تاريخ العرب، طبعة ٦، دار غندور، بيروت، ١٩٨٠.
- داروين تشارلز ، أصل الأنواع، ترجمة مجدي محمود المليجي، القاهرة، ٢٠٠٤.
- ديورانت ول. ، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، الجزء الثاني من المجلد الأول، ت. محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة.

Damascus University

- روسي بيير، مدينة ايزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا،وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٠، أعادت طباعته دار البشائر، دمشق، ١٩٩٦. وهي المعتمدة هنا.
- زارينز يوريس: "الباحثون يستكشفون طرقاً لقوافل قديمة تؤدي إلى الربع الخالي" (بحث قدم في ندوة "عُمان في التاريخ" التي عقدت في مسقط فيما بين ٢٤-٢٧ أيلول ١٩٩٤. وقد نشر في الملحق الخاص بصحيفة عُمان، تاريخ ٢٥ أيلول ١٩٩٤، ص١٠).
- غارودي روجيه، نحو حرب دينية، جدل العصر، ت. صياح الجهيم، دار بيروت، ١٩٩٦.
- فاسيلييف آ.، تاريخ العربية السعودية، ترجمة دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦.
- فرانكفورت هنري ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، ١٩٥٩.
- فيلييس وندل ، تاريخ عُمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الثالثة وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٤٠٩هـ.
- فيلبي سنت جون، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تعريب عمر الدسراوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٤.
- كلي جون ، بريطانيا والخليج، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٩٧٩.
- كيللي ف. وكوفالزون م.، المادية التاريخية، المدرسة العليا، موسكو، ١٩٦٢، ترجمة أحمد داوود، الطبعة الأولى، دار الجماهير، دمشق، ١٩٦٧.
- لوبون غوستاف ، حضارة العرب، ت.عادل زعيتر، مطبعة الحلبي، ١٩٦٩.
- لوتسكي فلاديمير، تاريخ الأقطار العربية الحديث، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١.
- لوريمر ج.ج. ، دليل الخليج، ترجمة مكتب الترجمة في ديوان حاكم قطر،الدوحة، ١٩٦٧، القسم التاريخي.

- لونكريك ستيفن هيمسلي ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، الطبعة السادسة، بغداد، ١٩٨٥.
- ماركس كارل وانجلز ف. ، المؤلفات الكاملة، المجلد ٩، ص٢٠٢، (الطبعة الروسية).
- ماكرو إيريك: اليمن والغرب، ت.حسين العمري، طبعة٢، دارالفكر، دمشق.
- مذكرات مستر همفر: الجاسوس البريطاني في البلاد الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور ج.خ. دون مكان أو تاريخ.
- موسنيه رولان ، تاريخ الحضارات العام القرنان السادس عشر والسابع عشر، ترجمة يوسف وفريد داغر، ط.٢، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ١٩٨٧.
- نشأت صادق، تاريخ الخليج السياسي، ترجمه عن الفارسية وحققه الدكتور أحمد كمال حلمي وبدر الدين عباس، الكويت، ١٩٧٢. (توثيق فارسي).
- هولي دونالد، عُمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي، مؤسسة ستايس الدولية، لندن، بدون تاريخ.
- هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، الطبعة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.
- واط مونتغمري، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبة، ترجمة جابر أبي جابر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨١.

سادساً)- مصادر ومراجع من الكتب والدراسات الأجنبية:

- AICHISON C.U., Collection of Treaties, Calcutta,1892-1909.
- AMIN Samir, Le Developpement Inégal, Ed. de Minuit, Paris, 1973.
- Annals of the Honourable East India Company, London, 1810.

Damascus University

- BAUGH Albert C. and CABLE Thomas , Histrory of the English Language, London, 1980.
- BERARD Vicotr, Les Phéniciens et l'Odyssée, Paris, Armand Colin, 1902-1903.
- BEREBY G. G., Le Golfe Persique, Paris, 1959.
- BRUCE James, Annals of the Honourable East India Company, London, 1810.
- BRYDGES S.H.J., A brief history of the Wahaby,London,1834.
- BUDGE Sir E. A. Wallis, A. History of Ethiopia, London, 1928.
- BURTON Richard, Zanzibar, City, Island and Coast, vol. I.
- COLLING A., Banque et Banquiers de Babilone a Wall-Street, Plon,1940.
- The Commentaries of Great Alfonso Delboqurque, translated by Gravy BIRCH, London, 1881.
- COUPLAND Sir Reginald,East Africa and its Invaders, London 4th Ed..
- CORANCEZ L.A., Histoire des Wahabis depuis leur origine jusqu'a la fin de 1809, Paris, 1810.
- DOUGHTY Ch., Travels in Arabia Deserta, Cambridge, 1888.
- DODWELL Henry , The Founder of Modern Egypt, Cambridge, 1951.
- Factory Records, Letters from Bussora, Gambroon, vol. 16, 30/11/1768 and 4/2/1769.
- HAMILTON Alexader, A New Account of the East Indies, London, 1930.
- HALPHEN Louis, Introduction à L'Histoire, Presses Universitaires de France, Paris, 1948.

Damascus University

- HAMMER Joseph de, Histoire de l’Empire Ottomane. Paris, 1836.
- HERODTUS The History of HERODTUS, London, 1920.
- HOGARTH David George, Arabia, Oxford, 1922.
- HOSKINS Harford L., British Routes to India, London, 1928.
- HOURANI Albert, Histoire des Peuples Arabes Seuil, Paris, 1990.-
- HUNKE Sigrid, Allahs Sonne uber dem Abendland Unser Arabisches Erbe,3.Auflage, Germany, 2002.
- GAURY Gerald de, Rulers of Mecca, London, 1951.
- INALCIK H.: "The Rise of the Ottoman Empire" (in the Cambridge History of Islam, 1970).
- JAUSSEN A. Coutumes des Arabes au pays de Moab, Paris, 1908.
- KAMMERER Albert, La Mer Rouge, l’Abyssine et l’Arabie depuis l’antiquité, Le Caire, 1925-1935.
- KHOUR Z. H., The History of Aden, 1839-1872, London,1981.
- KELLY J. B. و Britain and Persian Gulf, 1795-1880, Oxford C. Press, 1968.
- L’AFRICAIN Jean–Léon, Description de l’Afrique, Paris, 1956.
- LE BON Gustav, "la Civilisation des Arabes" ,Paris, 1996.
- LEES G. M. and FALCON N. L.,"The Geographical History of the Mesopotamian Plain" (Geographical Journal, vol. CXVIII, 1952).
- LOW Charles R , History of the Indian Navy 1613-1863; 1877.
- Magor Clarence MANN, Abu Dhaby, Birth of an oil Sheikhdom, London, 1954.

Damascus University

- MENCIN F., Histoire de I' Egypte, Le gouvernement de Mohammed Aly, Paris, 1823.
- MERRIMAN Roger B., Suleiman the Magnificent, Cambridge, 1944.
- MILES Samul, Countries and Tribes of the Persian Gulf, London, 1919.
- MORIER James, A Journey through Persia, Armenia and Asia Minor to Constantipole 1809, London, 1919.
- MOURIZI V. (Shaikh Mansur), History of Seyd Said Sultan of Muscat, London, 1819.
- MOUTLETS Laffon, Les Etapes du Capitalisme de Hammourabi à Rockfller, Paris, 1938.
- MUIR William, The Mameluke or Slave Dynasty, London, 1898.
- NIEBUHR Carsten, Travels through Arabia and other Countries in the East, London, 1972.
- OWEN Roderic, The Golden Bubble, Arabian Golf Documentery, London, 1957.
- PANIKKAR R. M., Asia and Western Dominance 1489-1945, London, 1955.
- PHILBY H.st., Saudi Arabia, London,1955. P. 9.
- PIRENNE H., Medieval Cities, Princeton, 1939.
- PLINY , Natural History , bk. V and bk. V1.
- ROUX F. Charles, France et Chrétiens d'Orient, Paris 1939.
- ROSSI Pierre, La cité d’Isis l’histoire vraie des Arabes. Paris, 1976.
- SALDANHA A. , East India Companies Connection with the Persian Gulf (1600-1800), Selection from Bombay State Papers, Calcutta, 1908.

Damascus University

- SALT Henry, A Voyage to Abyssinia, London, 1814.
- S.R.B.G. Muscat, by F. Warden, 1819.
- SERJEANT R. B.: The Portuguese of the South Arabia, Coast, Oxford, 1963.
- SKEET Jan, Muscat and Oman, London, 1975.
- STEVEN John, Translation of a Manuel de Faria Sousa the Portugese Asia, London, 1695.
- SYKES Percy, A History of Percia, London, 1958.
- TOMICHE Fernand J., L'Arabie Séoudite, Que Sais –Je, Paris, 1969.
- TOYNBEE Aronld J., A Study of History, London.
- WILSON Arnold, The persian Gulf, London, 1945.
- WINCKLER Hugo, Musri, Meluhha, Main, ed. In Berlin, 1898.
- WINSOR, Natural and Critical History of America, Boston ,1889.
- WITTEK Paul, The Rise of Ottoman Empire, London, 1938.

مصادر الجزء الثاني ومراجعه

المصادر والمراجع

١- أباظة (فاروق عثمان): الحكم العثماني في اليمن، ١٨٧٢-١٩١٨، المكتبة العربية – القاهرة ١٩٧٥.
٢- ابن بشر (عثمان): عنوان المجد في تاريخ نجد، جزءان، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض، بدون تاريخ.
٣- ابراهيم (حسن علي): الكويت، دراسة سياسية، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٢.

٤- ابراهيم (عبد العزيز عبد الغني) سياسة الأمن لحكومة الهند بالخليج، ١٨٥٨-١٩١٤، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩١٢.

٥- ابن عيس (ابراهيم بن صالح): تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، منشورات دار اليمامة والنشر، ط١، ١٩٦٧.

٦- أبو حاكمة (أحمد مصطفى)، تاريخ الكويت الحديث، ط١، ١٩٨٤.

٧- أبو علية (عبد الفتاح حسن): تاريخ الدولة السعودية الثانية، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٩٨٠.

٨- أبو النصر(عمر): سيد الجزيرة العربية ابن سعود، مطبعة الوفاء، بيروت، بدون تاريخ.

٩- ادجار، (اوبالانس)، اليمن والثورة والحرب، ترجمة عبد الخالق محمد راشيد، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

١٠- بهجت سنان(محمود)، البحرين درة الخليج، طبع بمساعدة من المجمع العلمي العراقي، ط١، ١٩٦٣.

١١- التبنوني(محمد لبيب): الرحلة الحجازية، مطبعة الحجالية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٣هـ/١٩١١م.

١٢- التكريتي(سليم طه): الصراع على الخليج العربي، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٦.

١٣- ترسيسي،(عدنان)، اليمن حضارة العرب، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

١٤- الجبرتي(عبد الرحمن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ١٣٢٢هـ/١٨٢٢م.

١٥- الجاسر(حمد): مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، الرياض، ١٩٦٦م.

١٦- الجرافي، (عبد الله بن عبد الكريم)، المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.

١٧- جمعة (إبراهيم): الأطلس التاريخي، منشورة دارة الملك عبد العزيز.

١٨- حافظ، (حمدي)، ومحمود الشرقاوي، الجنوب العربي والمؤامرات الاستعمارية الجديدة،

Damascus University

القاهرة، ١٩٦٢.
١٩- الحصري(ساطع)، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٦٠.
٢٠- الحصني(محمد أديب تقي الدين)، منتخبات التواريخ لدمشق، المطبعة الحديثة لدمشق، ١٩٣٤.
٢١- حماد(خيري): فيلبي قطعة من تاريخ العرب، منشورات المكتب التجاري، بيروت، بدون تاريخ.
٢٢- حمزه (فؤاد) البلاد العربية السعودية، مطبعة ام القرى، ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م قلب جزيرة العرب المطبعة السلفية، مكة المكرمة، ١٩٣٢م.
٢٣- حميدان، (أحمد)، المرأة والتغيير الاجتماعي في البحرين١٩٨٩.
٢٤- الخترش(فتوح عبد المحسن):
(١)التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك، ط١، ١٩٨٥.
(٢)تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية، ١٨٩٠-١٩٢١، منشورات ذات السلاسل، ط٢، ١٩٨٤م.
٢٥- الداود(محمود علي)، الخليج العربي والعلاقات الدولية، ١٨٩٠-١٩١٤، دار المعرفة القاهرة، ١٩٦١.
٢٦- دحلان (أحمد بن زيني)، أمراء البلد الحرام، حقوق الطبع للدار المثمرة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
٢٧- درويش(مديحة أحمد): تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين، مطابع دار الشروق، جدة، ١٩٨٠.
٢٨- درويش(مديحة أحمد): سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مطابع دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٨٢.

Damascus University

٢٩- رافق(عبد الكريم): العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، دمشق، ط١، ١٩٧٤.
٣٠- الزركلي(خير الدين)، الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، ط٤، ١٩٨٤.
٣١- الزياني(امل ابراهيم)، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧.
٣٢- السالمي، (نور الدين بن عبد الله بن حميد)، تحفة الأعيان بسيرة آل عمان، القاهرة١٣٤٧هـ.
٣٣- سالم، (مصطفى سيد)، تكوين اليمن الحديث، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية، ١٩٦٧.
٣٤- السداني، (نورية)، المرأة الكويتية في القرن الحادي والعشرين، دون تاريخ.
٣٥- السعدون (خالد محمود)، العلاقات بين نجد والكويت، ١٩٠٢-١٩٢٢، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣.
٣٦- سعود(عبد الله العلي المنصور الزامل)، أصدق البنود في تاريخ آل سعود، بيروت، ط١، ١٩٧٢.
٣٧- سعود (موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود)، الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت، ١٩٢٣-١٩٢٤، جدة ، ط١، ١٩٨٢.
٣٨- سعيد(أمين): تاريخ الدولة السعودية، جزءان، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، بدون تاريخ.
٣٩- السيابي، (سالم بن حمود)، ايضاح المعالم في تاريخ القواسم، ط١، ١٩٧٦.
٤٠- الشعبي، (قحطان)، الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب اليمن، دار النصر، ١٩٦٢.
٤١- الشهابي(سعيد)، البحرين، ١٩٢٠-١٩٧١، قراءة في الوثائق البريطانية، دار الكنوز الأدبية، ط١، ١٩٩٦.

Damascus University

٤٢- الشلق(أحمد زكريا)، أحمد مصطفى الخطيب، قطر واتحاد الإمارات العربية التسع في الخليج العربي، ١٩٦٨-١٩٧١، الدوحة١٩٩١.
٤٣- الصائدي، (أحمد فائد)، حركة المعارضة اليمنية في عهد الأمام يحيى بن محمد بن حميد الدين، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٨٢.
٤٤- صايغ(أنيس)، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٦٦.
٤٥- طه، (جاد)، سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية، دار الفكر العربي.
٤٦- العابد(فؤاد سعيد)، سياسة بريطانيا في الخليج العربي ١٨٥٣-١٩١٤، منشورات ذات السلاسل، ط١، ١٩٨٤.
٤٧- عبد الرحيم(عبد الرحيم عبد الرحيم)، الدولة السعودية الأولى، منشورات جامعة الدول العربية، معهد البحوث، ١٩٦٩.
٤٨- عبد الله، (محمد مرسي)، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، ط١، ١٩٨١، دار العلم، الكويت.
٤٩- العتمين(عبد الله صالح)، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٨٤.
٥٠- عطار(أحمد عبد الغفور)، صقر الجزيرة، مطابع المؤسسة العربية، جدة، ١٩٧٢.
٥١- العطار، (محمد سعيد)، التخلف الاقتصادي الاجتماعي في اليمن، حقوق النشر الوطنية، ط١، ١٩٦٥.
٥٢- العقاد (صلاح):
(١) التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتب الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.
(٢) الاستعمار في الخليج الفارسي، مطبعة الألف كتاب، بإشراف وزارة التربية والتعليم بمصر.
٥٣- عقيل(مصطفى)، سياسة إيران في الخليج العربي، الدوحة، قطر، ١٩٨٧.
٥٤- غرايبة(عبد الكريم): تاريخ العرب الحديث، دمشق١٩٦٠.

٥٥- الفرحان(رائد عبدالله)، مختصر تاريخ الكويت، دار مكتبة العروبة، القاهرة، ١٩٦٠.
٥٦- فيليس، (وندل)، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، وزارة التراث، ط٣، ١٩٨٩.
٥٧- قاسم(جمال زكريا):
(١)الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات، ١٩١٤-١٩٤٥، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٣.
(٢)دراسة لتاريخ الإمارات، ١٨٤٠-١٩١٤، دار البحوث العلمية، الكويت، ط٢، ١٩٧٤.
٥٨- قاسيمية(خيرية):
(١) الحكومة العربية في دمشق، ١٩١٨-١٩٢٠، دار المعارف بمصر، ١٩٧١.
(٢) مذكرات فوزي القاوقجي، ١٩١٤-١٩٣٢، دار القدس، بيروت، لبنان.
٥٩- قدورة(زاهية)، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥.
٦٠- قلعجي(قدري)، الخليج العربي، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٥.
٦١- كامل(محمود)، الدولة العربية الكبرى، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.
٦٢- كحالة(عمر رضا)، جغرافية شبه الجزيرة العربية، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
٦٣- مجهول المؤلف، مخطوط امراء آل السعود في العارض واليمامة رقم١٠٧٤٣، عام، مكتبة الأسد.
٦٤- محافظة(علي)، تاريخ الأردن المعاصر في عهد الإمارة، ط١، عمان، ١٩٧٣.
٦٥- محمود(حسن سليمان)، الكويت ماضيها وحاضرها، منشورات المكتبة الأهلية، بدون تاريخ.
٦٦- المختار(صلاح الدين)، المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، جزءان منشوران دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

Damascus University

٦٧- منصور(عبد العزيز)، نشوء قطر وتطورها، منشورات ذات السلاسل، ط١، ١٩٧٧.

٦٨- المصري، (أحمد محمود)، عمان وشرقي افريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطة عمان، ط٢، ١٩٩٢.

٦٩- النبهاني، محمد بن الشيخ خلفية بن موسى، التحفة النبهانية، البحرين، ١٩٨٦.

٧٠- نوفل، (سيد)، الخليج العربي والحدود الشرقية للوطن العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩.

٧١- هدلول(سعودين)، تاريخ ملوك آل سعود، مطابع الرياض، ط١، ١٩٦١.

٧٢- الألوسي(محمود شكري)، تاريخ نجد، تحقيق محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية بمصر، ١٩٢٤-١٩٤٣.

٧٣- يحيى(جلال)، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.

٧٤- انطونيوس(جورج)، يقظة العرب، تعريب علي حيدر الركابي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٥-١٩٤٦.

٧٥- بيربي(جان جاك)، جزيرة العرب، ترجمة نجدت هاجر وسعيد الغز، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، ط١، ١٩٦٠.

٧٦- فاسيليف(الكسي)، تاريخ العربية السعودية، ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطة، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦.

٧٧- فيلبي(هاري سنت جون):

(١) تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب، ترجمة عمر الديراوي، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) الذكرى العربية الذهبية، ترجمة مصطفى كمال فايد، مطبعة الاتحاد بمصر، بدون تاريخ.

٧٨- كيلي(ج.ب)، الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية، تعريب خيري حماد، منشورات دار

مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

٧٩- لنشوفسكي(جورج)، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية، ترجمة جعفر الخياط، منشورات دار الكشاف للنشر والتوزيع، فرع العراق، بدون تاريخ.

٨٠- لوتسكي(ف.ب)، تاريخ الأقطار العربي الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١.

٨١- لوريمر(ج.ج)، الكويت في دليل الخليج، جمع المادة ونسقها خالد سعود الزايد، شركة ربيعان، ط١، ١٩٨١

٨٢- لوريمر(ج.ج)، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة ديوان حاكم قطر، الدوحة١٩٦٨.

٨٣- مارو، (اريك)، اليمن والغرب، ١٥٧٥-١٩٦٢، ترجمة حسين عبد الله العمري، ١٩٦٧.

٨٤- مجلة دراسات يمنية، واقع المرأة اليمنية في الجمهورية اليمنية، تصدر مركز البحوث اليمني، صنعاء، العدد٤٦.

٨٥- ميشان(بنو):عبد العزيز آل سعود، سيرة بطل ومولد مملكة، ترجمة عبد الفتاح ياسين، دار الكاتب العربي.

٨٦- ميكوشي(دار كوبرت فنون)، عبد العزيز، ترجمة امينة رويحة، بيروت، بدون تاريخ.

٨٧- هواليداي، (فرد)، الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، ترجمة حازم صياغة، سعيد محيو، دار ابن خلدون.

٨٨- الواسعي، (عبد الواسع بن يحيى)، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث اليمن، ط٢، القاهرة، ١٩٤٧.

٨٩- ولميز(كنيث)، ابن سعود سيد نجد وملك الحجاز، تعريب كامل صاموئيل مسيحة بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩٣٤.

Damascus University

الصحف:

- جريدة القبلة، مكة المكرمة، السنوات ١٣٣٥-١٩١٦-١٣٤٢-١٩٢٣-١٣٤٣هـ، ١٩٢٤.
- جريدة أم القرى، وهي جريدة أسبوعية، مكة المكرمة، ١٩٢٤-١٩٢٥-١٩٢٦-١٩٢٧-١٩٢٩م.

المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Bidwell, (Robin):

The affairs of Kuwait 1896-1905 vol1 and vol2.

Foreign office confidential print London 1971.

2- Bidwell, (Robin):

The affairs of Arabia 1905-1906 vol1 and vol2.

Foreign office confidential print London 1971.

3- Bidwell, (Robin):

The Aeab Bulletin, Bulletin of Arab Bureau in Cairo. 1916-1919

Archive edition 1946.

4- Dickson (H.R.P) Kuwait and Her neighboursLondo 1956.

5- Documents of the British colonial office about Arabia. From 1921-1945.

Vol.1. 1921-1927 public Record office.

6- Documents of the British colonial office about Arabia. From 1921-1945.

Vol.2. 1927-1931 public Record office.

Damascus University

7- Documents Francais de Affaires Etrangeres le levant, Arabia. Durant les snnees 1918-1927. Tome 17.
8- Philby, (H.S.J) Arabia London 1930.
9- Philby, (H.S.J)Saudi Arabia London 1955.
10- Administration Report of the Persian Gulf political Residency Mask at political Agency 1897-1898.
11- Saldanha (JA) The peaisan Gulf precies of Kuwait Affairs 1896-1904. Vol. v . Archive Edition 1986.
12- Saldanha (JA) The peaisan Gulf precies of Najed Affairs 1804-1904. Vol. v . Archive Edition 1986.
13- Toynnbee (Arnold) Survey of international affairs Oxford university London 1929.
14- Twitchel (K.S.) Saudi Arabia. Princeton university press New Jersy 1947.
15- Wilson (Arnld) the Persian Gulf London 1954.
16- Williams (Ston) Britan and the Arab States Asurvey of Anglo-Arab relation 1920-1948. London Luzac 1948.

****

Damascus University

اللجنة العلمية:

أ. د. محمود عامر

أ. د. سمر بهلوان

أ. د. أحمد الخضر

التدقيق اللغوي:

أ. د. محمود سالم محمد

حقوق الطبع والترجمة والنشر

محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات الجامعية